الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

غويـن دايـر
GWYNNE DYER

WAR
الحرب

WAR

الحرب

WAR

الحرب

غوين داير

GWYNNE DYER

ترجمة

ابتسام خضرا

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
WAR
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً عبر وكيل المؤلف
The Susijn Agency Ltd.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © GWYNNE DYER 1985, 2004, 2015
All rights reserved
Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2016 م - 1437 هـ

ردمك	9786140228719

جميع الحقوق محفوظة للناشر

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (961-1+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (961-1+)

مقدمة الطبعة الجديدة

طرأ على المشهد العام لعالمنا تغيّرٌ بسيطٌ جداً خلال العقد المنصرم، أما المشاهد الصغيرة هنا وهناك فهي متغيّرة سنوياً بطبيعة الحال؛ رغم نجاحها في استقطاب جلّ اهتمامنا بما أنّها تحدث الآن. فعلى سبيل المثال، يندرج قيام ما يُطلق عليه (تنظيم الدولة ا سلامية) في أجزاءٍ من سوريا والعراق في هذا السياق، وهو المشهد الذي تعرضه وسائل ا علام كحدثٍ مفصليٍ مروّعٍ وفريدٍ من نوعه في التاريخ العالمي.

يُمكن اعتبار ظهور هذا التنظيم نقطةَ تحولٍ ك رى في تاريخ البلدان الناطقة بالعربية في منطقة الشرق الأوسط – وهذا ما سيظهر لاح اً – أما إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ العسكري، فسنرى في ما حصل نجاحاً استثنائياً لاستراتيجية الحرب الثورية؛ وهناك العشرات من الأمثلة الأخرى في العقود الستة الماضية، إلا أنّ معظم تلك الاستراتيجيات باءت بالفشل. ويُعت ر ا رهاب الدولي نسخةً عن المشكلة الصغيرة التي رزت في السبعينيات والثمانينيات من ال ر ن المنصرم، ورغم أنّها أصغر حجماً (باستثناء هجمات 11 سبتمبر/أ لول في الولايات المتحدة) إلا أنّ المتغيّر الوحيد الطارئ هو أسماء المشاركين في تلك العمليات.

سيسأل مروجو الذعر: ماذا لو حصل ا رها يون على سلاحٍ

نووي؟ بالرغم من أن هذا احتمالٌ بعيدٌ جداً، لكن حدوث ذلك يعني احتمال تعرّض عشرات الآلاف – وربما أكثر من مئة ألف شخص – إلى الموت المباغت في أحد الأماكن التعيسة. إنّ وفاة جماعية بهذه الضخامة لا تحصل إلا لماماً، ولأسبابٍ متصلة بالكوارث الطبيعية من فيضاناتٍ وزلازلَ. ولا تزال هذه الكوارث محتملة الحدوث حتى ومنا هذا، ولا نملك إثر حصولها إلا الاندفاع لمساعدة الضحايا، والقيام بما في وسعنا للتخفيف من مخاطر تكرارها، وذلك من خلال إنشاء سدودٍ أفضلَ، وتشييد المباني (المقاومة للزلازل) وغيرها. غير أنّ تلك الكوارث المأساوية ليست إلا جزءاً من تكاليف الأعمال البشرية التجارية على سطح الكوكب.

أما تعرّض هذا العدد الهائل من البشر إلى الموت إثر هجومٍ نوويٍ إرهابيٍ ومأ ما وفي مكانٍ ما – رغم جهودنا المبذولة لمنع حصوله – فلا يستوجب إلا الردّ بالطريقة نفسها؛ مما يعني ارتفاع العدد الإجمالي للأسلحة النووية المستخدمة فعلياً على مدار السنوات السبعين الماضية من اثنين إلى ثلاثة فحسب. لكن، هل ستتحلى ردّة فعل الفريق المتضرر بالحكمة؟ هذه مسألة أخرى تستوجب الوقوف عندها؛ فالعالم بالنسبة إلى هذا الفريق سيكون قد (تغيّر إلى الأبد) بعد هذه الحادثة، وهو ما يعني أن ردة الفعل ستكون الإفراط في استخدام العنف (كما حصل بعد هجمات 11 سبتمبر، وهو ما كان الإرهابيون يأملون حدوثه). غير أنّه لا حاجة للخوض في هذه المسألة بتفصيلٍ أكبر في هذه الطبعة من الكتاب، كما أنّه لا يُمكن إغفال أعداد الناس الذين يكسبون رزقهم باعتماد المبالغة في التهديد الإرهابي المحتمل.

ينطبق هذا الأمر على أولئك الذين يريدون منّا تصديق

وجود (ثورة في الشؤون العسكرية) [1](RMA) والتي تتجلى حديثاً بالأسلحة ذاتية ا طلاق أو (الروبوتات ا اتلة) التي تروّج لها وسائل ا علام، ولا تختلف هذه الوسائل العسكرية عن تلك التي كانت موجودة فعلياً في الخدمة. ورغم الاختلاف في قدرة الأسلحة الحديثة على تحد د الهدف بشكل مستقل، إلا أنّ التعويل على إحداث تغ ير جذري لطبيعة الحرب من الناحية التكتيكية والأخلاقية لا يعدو عن كونه تجاهلاً لحقيقة حدوث تلك التغ يرات بشكل متواصل منذ ما يز د عن نصف قرن.

وإذا عدنا إلى الحرب العالمية الثانية، فسنجد أنّ أفراد طواقم قاذفات القنا ل لم يختاروا من سيقتلونهم، ولم تقع أعينهم على ضحاياهم. وتتد ى الدوات البرية لدوى الك رى التدريب الذي يؤهل جنودها للقتل، حيث تكون العملية عملاً انعكاسياً لاإرادياً في ظروفٍ معيّنةٍ، فكيف يمكن لهذا أن يختلف ذاك الاختلاف عمّا نتوقعه من الأسلحة الذكية؟ أما الادعاء الد ائل إنّه من شأن هذه الأسلحة أن تجعل الحروب التي تشنها البلدان المتقدمة على تلك الفقيرة أكثر سهولة وأقل تكلفة من الناحية السياسية من حيث تقليل الخسائر في أرواح الجنود، فما هو إلا ادعاءٌ قديمٌ يمتد عمره حوالي الد رنين من الزمن، وما الأسلحة الذكية سوى استمرار طبيعي له.

لكن، ربما يأتي يومٌ يعادل فيه الذكاء الصنعي الذكاء البشري، ويوم فيه أحد العلماء المتهورين بصنع أسلحةٍ ذكيةٍ تمتلك من ا دراك ما يخولها الانقلاب علينا على شاكلة شبكة سكاي – نت[2]؛ إلا أنّ هذا اليوم لا يزال بع داً، ولا شكّ في أنّ خ راء الذكاء الصنعي يضعون مثل

هذه المخاوف الوجودية في أذهانهم، ولكن على المدى البع د، إذ لا يتوقع أغلبهم أن تظهر خطورة هذه التكنولوجيا خلال حياتهم، لذا من الأفضل دعم مبادرتهم (التي أطلقوها خلال المؤتمر الدولي المشترك حول الذكاء الصنعي IJCAI[3] لعام 2015) لحظر تطوّر الذكاء الصنعي بهدف الوصول إلى (أنظمة الأسلحة ذاتية التحكم LAWS[4])، كما كان بمكان المرء دعم حملة حظر الأسلحة الرشاشة قبل 140 عاماً، رغم أنّ هذه المبادرة لن تحوّل الطبيعة الأساسية للحرب - كما حصل سابقاً في ما يتعلق بالمدافع الرشاشة - وعليه، فهي لا تعدو عن كونها خطوةً أخرى في الطريق المعروف ج داً.

لذلك، وبدلاً من مناقشة هذه التطورات في الطبعة الجد دة من هذا الكتاب (وبالتالي منحها أهميةً لا تستحقها)، أفضّلُ تسليط الضوء على متغيّرَين لهما أثرهما الحديث على ميدان الحرب في عالمنا. أولهما: تقلص الفائدة السياسية من استخدام ال وة العسكرية بشكل ملحوظ. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة التي تعتبر ال وة العسكرية الرائدة في العالم حالياً، فسنرى أنّها خسرت معظم الحروب التي شنتها منذ حرب فيتنام؛ رغم أنّ حروبها في تلك الفترة كانت دوماً ضد خصومٍ أدنى منها من الناحية التكنولوجية، ولم يتجاوز إنفاقها العسكري أكثر من 1 بالم ة من ميزانية الدفاع الأمريكي، وتكبّد خصومها من الضحايا ما يزد عن عشرة أضعاف قتلى ال وات الأمريكية، إلا أنّ الولايات المتحدة فشلت في تحويل هذه المزايا الضخمة إلى انتصارٍ فعليٍ. ولعلّ الانتصارات العسكرية الوحيدة الحاسمة التي حققتها الولايات المتحدة في السنوات الخمسين الماضية تكمن في حملاتها ال صيرة ضد غرينادا وبنما.

ولا يعود سبب ذلك إلى أن الأمريكيين سيئون في الحرب - إذ تُعتبر القوات المسلحة الأمريكية جيدة جداً من هذه الناحية - ولكن لأن السياق السياسي والاجتماعي للحرب قد تغيّر الآن؛ فخصوم اليوم لا يعلنون عن هزيمتهم حتى إن خسروا المعركة التقليدية، ولن يكون كسب (المنتصر) لمعركةٍ تقليديةٍ أخرى أمراً سهلاً عليه؛ لأنّه سيضطر إلى شن حملةٍ طويلةٍ لقمع مقاومة السكان المحليين؛ وهذا ما حصل مع روسيا التي احتاجت إلى عشر سنوات لإدراك هذا الأمر في أفغانستان. أما إسرائيل فاستغرقت في حربها عشرين عاماً لإدراك ذلك في جنوب لبنان، ولا تزال الهند بعد سبعين عاماً عاجزةً عن العثور على طريقةٍ تستغل فيها قوتها العسكرية الساحقة للوصول إلى تسويةٍ سياسيةٍ مرضيةٍ في كشمير.

تقاوم القوات العسكرية المحترفة في العالم هذا النموذج الجديد، ولا تنبع هذه المقاومة من عدم قدرتها على تعلم الدرس، ولكن اعترافها بعدم قدرتها على تحقيق النصر في معظم حروبها سيؤثر على تمويلها من موارد الدولة؛ رغم أنّ ذلك لا يغيّر من حقيقة أنّ الأمر أصبح حقيقةً واقعةً، فالنجاح في حرب المقاومة المحلية ينتزع من المنتصرين في الحروب التقليدية القدرة على غزو دول أخرى وقمعها. وقد يكون هذا أمراً إيجابياً على نحوٍ ما.

أما التغيير الأساسي الآخر الذي يستحق ترحيبنا فهو الانخفاض العام في حجم أحداث العنف في العالم، وفي مدى تكرارها. ونظراً لإعجاب الكثيرين بالعنف، وتركيزٍ وسائل الإعلام عليه، يحمل هذا الكتاب بين طياته نتيجةً مناقضةً في قالبٍ غير تقليدي؛ ولقد أدركت هذا عند كتابة

النسخة الأصلية منه.

يلتزم المؤرخون العسكريون عموماً بفترةٍ أو موضوعٍ معيّن، ولا يتعاملون مع التاريخ البشري ككل. لكنني كصحفي، كنت حرّاً من هذه الناحية، وبخلاف الأساطير الشعبية ومعتقدات السابقة، أدركتُ أنّ الحربين العالميتين في القرن العشرين لم تكونا رهيبتين بشكلٍ خاصٍ في التاريخ الإنساني من حيث الخسائر في الأرواح والتدمير الحاصل؛ فقد قتلت حروب العصور القديمة عدداً كبيراً من السكان، أما الحروب المنسيّة الصغيرة العائدة إلى ما قبل التاريخ فقد فتكت بنسبة أكبر، وإذا تابعنا مسيرة خسائر الأرواح الناجمة عن الحروب، فسنجد بشكلٍ واضحٍ انخفاضاً في عدد قتلى الحروب منذ العام 1945؛ وهي نسبةٌ مستمرة بالهبوط حتى الآن. ويبدو أنّ منع نشوب حربٍ نوويةٍ مكّننا من العيش في القرن الأكثر سلميةً في التاريخ البشري – عسى أن يدوم طويلاً – وقد يستمرُ الأمر على هذا النحو لمدةٍ طويلةٍ.

ستلمس بنفسك علامات بزوغ هذا الإدراك حتى في الطبعة الأصلية للكتاب. وبحلول فترة طبعة عام 2006، ومع مرور عشرين عاماً أُخرى من السلام النسبي والنهاية السلمية للحرب الباردة، خلصتُ إلى استنتاجٍ واضحٍ، ألا وهو: ما الحرب الفتاكة سوى مؤسسة موروثة عن أسلافنا القدماء، وقد مرّت بمرحلة انخفاضٍ على المدى الطويل؛ رغم استخدام أسلحةٍ أكثرَ فتكاً، وربما تكون هذه الأسلحة في طريقها للخروج من معارك المستقبل. ويذكر هذا أستاذُ علم النفس في جامعة هارفارد ستيفن بينكر الذي جاء كتابه (أفضل الملائكة في طبيعتنا)[5] عام 2007 كخطوةٍ جريئةٍ؛ حين قال

إن جميع أشكال العنف ين البشر قد انخفضت؛ بما في ذلك الحروب. وقد دعم تأك داته بك م ه ائلٍ من ا حصاءات والأمثلة المق نعة تماماً.

أحدث كتاب ي نكر عاصفةً من الانتقادات لدى أول ك الذين رون في الأمل سرداً للكلمات، وكذلك لدى من لديهم مصلحة في الحفاظ على المؤسسات والرؤى العسكرية الحالية، لكنّ الاحتجاجات لم تزد عن كونها صرخاتٍ معتادةً مثل: «ماذا عن ا بادة الجماعية في رواندا؟»، أو «ماذا عن الأسلحة النووية؟». وفي الد يقة، لم ي ل ي نكر إنّ عالم اليوم يزدان بالورود والزهور، ولكنه أشار إلى اتجاهٍ واضحٍ ومأمولٍ على المدى الطويل، ينخفض معه العنف في تاريخ البشرية، ولن يصب إنكار هذا الاتجاه في خدمة انخفاض العنف.

وأنا نفسي أقول ذلك أيضاً؛ ليس لأنني متفائلٌ مخ ولٌ أو رجلٌ ساذجٌ. وقد اقترحت عليّ إحدى بناتي ذات مرّةٍ أن يكون لديّ قميص مكتوب عليه: «لا أؤد الحرب، لكنّ الحرب تؤدني!»؛ ونظراً لعادتي المؤسفة في التسويف والتأج ل، انته ى ي الأمر بكتابة هذا في يروت، وأنا أطل من نافذة غرفتي في الفندق على فندق هوليداي إن ال ديم؛ المبنى المؤلف من ثلاثين طاب اً، ذي الجدران المل ية ة بثقوب القذائف ون ران المدافع الرشاشة، والذي لا يزال مهجوراً رغم مرور 25 عاماً على انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية. وفي الواقع، يعود سبب وجودي في ذلك البلد في ذاك الأسبوع إلى رغبتي في منح زوجتي الفرصة لكي تراه قبل أن تغزوه (الدولة ا سلامية) من خلف الجبال من سوريا وتدمره (طبعاً، لا أعلم إن كان هذا سيحدث في المستقبل، وآمل

مخلصاً ألا يحصل، لكن خ رتي تقول باحتمال حصول مثل هذا العمل).

سيستمر العنف الأرعن في إصابة الناس لفترةٍ طويلةٍ بعد رحيلي. فالحروب رهبة، ورغم أننا لا نزال نعيش في غابة، إلا أن هناك بعض الاتجاهات التي تبعث على الأمل.

الفصل الأول

طبيعة الوحش

«إنّني هنا لأناشدكم، إنّ قصف لندن بصواريخ في[6] يزداد خطورةً، ويتزايد سقوط الصواريخ الكبيرة بعيدة المدى ذات الأثر التدميري الهائل على العديد من المراكز، وعليه أطلب منكم دعمي في استخدام الغاز السام، وهو ما سيمكننا من إغراق جميع مدن منطقة الرور، وغيرها من المدن الألمانية الأخرى بشكلٍ يجعل معظم السكان بحاجةٍ إلى عنايةٍ طبيةٍ مستمرةٍ».

ونستون تشرشل في خطابٍ موجهٍ إلى رؤساء لجنة الأركان، تموز 1944

«هطل الشرر المتطاير على الشوارع، وكلّ منها بحجم قطعة نقود من فئة خمسة ماركات، حاولت جاهدةً الجري بوجه الريح، وتمكنت بصعوبة من الوصول إلى منزلٍ واقعٍ على تقاطعٍ في سوربينتراس[7]... ولم نستطع الاستمرار عبر إيفيستراس[8] بسبب ذوبان الأسفلت على الطريق. ومن كان على الطريق، إما فارق الحياة أو التصق بالأسفلت. فربما بسبب اندفاعهم بهلع نحو الطريق، التصقت أقدامهم بالأسفلت، فاستخدموا أيديهم لانتشال أنفسهم، فالتصقت هي أيضاً. كانوا يصرخون برعبٍ وهم جاثون على أيديهم وركبهم».

كيت هوفمايستر، وقد كانت حينذاك في التاسعة عشرة من عمرها، في عين العاصفة في هامبورغ عام 1943[9]

من الصعب تجنب النتيجة المحتومة؛ فحتى قبل ظهور الأسلحة النووية، تتصاعد لعبة الحرب باستمرار، وللنجاة منها لا دل عن تغير الا واعد. وقد تسببت الحملات المحدودة من جانب واحد للدول الغربية المتقدمة عسكرياً ضد الأنظمة الاست دادية في قتل عشرات آلاف البشر. وفي الدول الهشة الناشئة في فترة ما بعد الاستعمار، جاءت ا بادات الجماعية العرقية لتحوّل الحياة إلى جحيمٍ محلي. وإذا عدنا إلى الحرب العالمية الثانية، سنجد مصرع ما يزد عن مليون شخص كلّ شهر في العامين الأخيرين من أعوام تلك الحرب الضروس، وإن حصل واشتبكت الا وى الكرى اليوم، واستخدمت ترساناتها من الأسلحة، فستكون الحصيلة مليون شخص كلّ دقيقة. لا وجود لمثل هذه النية لدى تلك الدول حالياً، لكن ديمومة البنى الا ديمة حتى الآن تعني أنّ احتمال الحرب الكرى ما زال قائماً، وكأنّ تلك الفكرة في عطلة حالياً لا أكثر.

لـ د لعبت التكنولوجيا دوراً بارزاً في صرف أنظارنا عن جوهرنا الذي ندر به عالمنا، وربما من الأسهل والأسوأ في أيامنا هذه إلـ اء الملامة في ما يتعلق بمعضلتنا الحالية على تقنيات الحرب من قنابل النابالم وغاز الأعصاب والأسلحة النووية، والتي لم تهبط على مختراتنا فجأةً من قبل بعض الآلهة الحاقدة، وإنما جاءت بعد الكثر من الجهود لابتكارها وإنتاجها؛ لأنّنا ننوي خوض الحروب واستخدامها فيها.

«يعلم الكثر من الناس عن مصرع سبعين ألفاً في ه روشيما، لكن قلة منهم يعرفون بموت ربع مليون

إنسان في طوكيو إثر غارتين قنابل تقليدية. في الماضي، كنتُ طياراً في قاذفة قنابل، وكنت ممن اشتركوا بقصف مدينة هامبورغ، لقد مات سبعون ألف شخص في تلك المدينة عندما اشتعلت النار في الهواء، كما قُتِل ثمانون ألف شخص، أو نحو ذلك، في مدينة درسدن. وإذا تابعنا لغة الأرقام، فقد قتل 123 ألف شخص في إيوجيما[10]... إذاً، المشكلة لا تكمن في الحرب النووية، وإنما في الحرب نفسها».

رجل في الشارع في واشنطن العاصمة

«يبقى الجندي المقاتل هو نفسه في جميع الحروب، سواء أفتح رشاشه على جدار هادريان، أم تواجد في دبابة قتالية من دبابات اليوم، إنّه الأساس الذي لا يتغيّر».

الجنرال السير جون هاكيت

إنّ فكرة الجندي من الابتكارات الأولى للحضارة، ولم يتغيّر الجندي كثيراً على مدى خمسة آلاف عام من عمر الجيوش؛ فقد تعثّر المتطوعون المراهقون الإيرانيون في حقول الألغام شرق البصرة في عام 1984، وعانت الكتائب البريطانية قبل أن تلقى مصيرها المشؤوم فوق القمة في منطقة السوم في زحف تموز عام 1916، تماماً كما حصل مع شبان روما في كاناي عام 216 قبل الميلاد، أي أنّهم اختبروا التضحية والموت نفسيهما، وكانت العواطف والعقبات والنتائج هي نفسها.

إنّ الفعل المركزي للحرب الحضارية، والذي ندعوه بالمعركة، حدثٌ فريدٌ من نوعه، يشارك فيه الرجال

العاد ون في القتل والموت عن سا ق إصرارٍ وتصميمٍ، كما لو أنّ هذا المسار المرعب طبيعيٌ ومـ بولٌ، ولم يغيّر تطور الأسلحة والتكتيكات العسكرية من العناصر الأساسية للحرب، إلا أنّ نتائج الحرب هي التي تغيّر موازين الـ وى؛ فالـ وة هي الحجة المطلقة، وبمجرد استدعائها يأتي الرد الوحيد الفعّال ع ر استخدام الـ وة المتفوقة. إنّ المنطق الداخلي للحرب هو الذي يُنميها، فيتفوق حجمها على أهمية المسألة المتنازع عليها أصلاً في الصراع. وفي عصرنا الحاضر، نمت العواقب المحتملة لحربٍ كـ رى نمواً عظيماً لا رجعة فيه، حيث تشمل تلك العواقب تدمير الجنس البشريّ بأكمله، ورغم مرور الـ رون لا تزال ممارسات جنود هذه الأيام وحشيةً ولا تختلف كث راً عن وحشية أسلافهم.

يوم آخر،

مدينة أخرى.

الآشوريون

ينهبون

ويدمرون

مدينة

مصرية

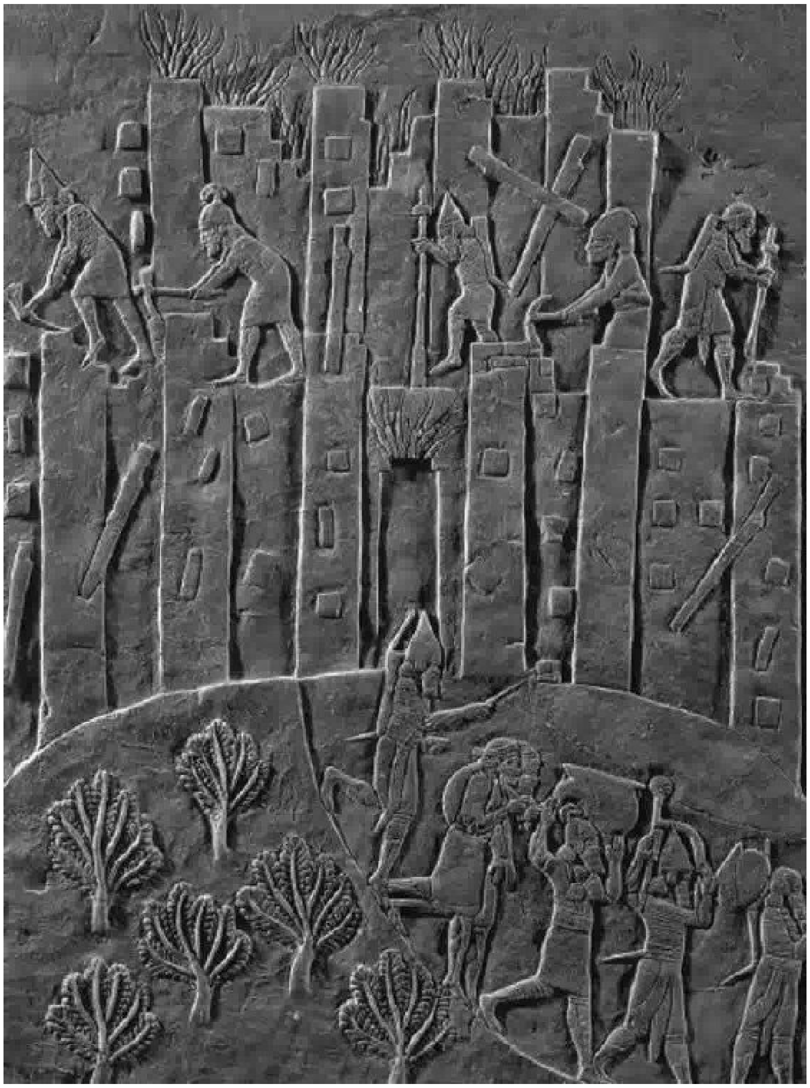

لم يكن مصير سكان درسدن وهيروشيما عام 1945 أفضل من مصير مواطني بابل عام 680 قبل الميلاد؛ عندما سطت المدينة يد سنحاريب الآشوري الذي تفاخر بتدميرها قائلاً:

«سوّيتُ المدينةَ بالأرض، دمرتُها، أحرقتها بالنار، هدمتُ جميع الأسوار، وحوّلت المعابد والزقورات[11] المبنية من الطوب إلى أنقاض، ورميت الأنقاض في قناة أراهتو؛ وما إن انتهيتُ من تدمير بابل وتحطيم آلهتها وذبح سكانها،

حتى نبشتُ ترابها وأرسلته مع نهر الفرات إلى البحر)[12].

إنّه أسلوب تدمير همجي مكلف بالمـ ارنة مع الأسلحة النووية، لكن تأث ره (على مدينة واحدة على الأقل) كان نفسه تقريباً.

وقد واجهت معظم المدن الرئيسة في الأزمان السالفة مصيراً مماثلاً لمصير بابل، وعانى بعضها ويلات الدمار مرّات ومرّات، وتركتها أطماع الحرب عرضةً لأعدائها. والفرق ي ن الـ ادة العسكريين في سالف الأزمان وأول ك الذين يمسكون بزمام الأسلحة الفتاكة اليوم (بصرف النظر عن النهج المختلف الذي يعتمدونه في مجال العلاقات العامة) يكمن في التقنيات والموارد المتاحة لهم، والتي تغطي المفهوم الأساسي الذي يـ وم عليه هذا العمل. إذ يفضّل الجنود في معظم الحالات تغطية الحـ ائق الـ اسية لعملهم بغطاءٍ من المثاليات والمفاهيم العاطفية؛ وذلك لحماية أنفسهم من الحـ يقة وإخفائها عن بـ ية الناس، ولكنهم لم يفقدوا على مستوى المهنية رؤية حـ يقة النجاح العسكري، والمتمثلة في القتل المجدي من حيث الكلفة؛ وهو المنهج الذي أدى إلى السعي الحثيث لكفاءة أك ر في عمليات القتل؛ الأمر الذي أوصل إلى إيجاد الأسلحة النووية، وهو المنهج الذي أثبت كفاءته في القتل، والذي تم تطويره عن المنهج الـ ديم حين كانت الـ وة العضلية هي الوسيلة الوحيدة لـ دخال الـ طعة المعدنية الـ اتلة في جسد العدو:

نادراً ما يكون الجرح الخارجي في جسد العدو قاتلاً؛ إذ تحمي الدروع والأسلحة الأجزاء الحيوية من جسده، وكذلك تفعل عظامه، إلا أنّ الطعنة التي تخترق جسده بمسافة

سنتيمترين كفيلةٌ على الأرجح قتله. عليكَ اختراق الأجزاء الحيوية لتقتل الرجل، ويجب الحذر؛ إذ عندما يقوم الرجل بالطعن يكشف عن ذراعه اليمنى والقسم الجانبي من جسده، لكن عند الهجوم على الخصم تتم تغطية الجسد، ويُجرح العدو قبل أن يدرك ما حدث. لذا، تُعتبر هذه الطريقة القتالية المفضلةَ لدى الرومان[13].

ما سبق ذكره دقيقٌ وواضحٌ من الناحية الجراحية، لكن الأمور قد تأخذ المنحى التالي: للأسلحة دورها الواضح، وهي تقوم به عموماً (ليس دائماً)، لكنّ الذين يستخدمونها بشرٌ في نهاية المطاف، ولا يمكن توقع سلوكهم على أرض المعركة؛ سواء أكان ذلك في العصر الروماني أم في زمننا الحاضر. وهو ما حصل مع العريف في مشاة البحرية الأمريكية أنتوني سوفورد في لقائه الأوّل مع العدو في حرب الخليج، عام 1991:

الطعنة التي تخترق

جسد العدو سنتيمترين

كفيلةٌ على الأرجح بقتله.

ويظهر ذلك مفصلاً على

شكل منحوتات على

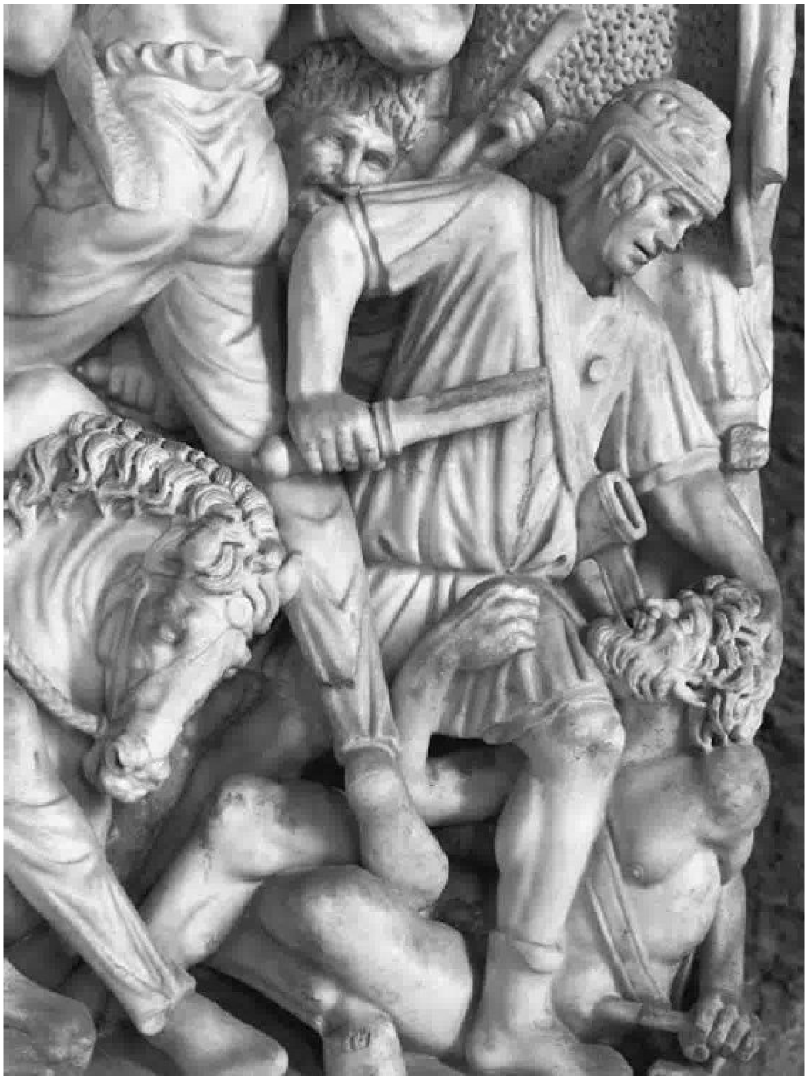

توابيت
رومانية قديمة.

«تناهت إلى مسامعنا أصوات الجنود العراقيين، وضجيج محركات الديزل الصادر عن مركباتهم. زحفت مع رفيي جوني إلى أعلى المرتفع، فيما قام بية أفراد مجموعتنا بتغطية جناحنا الأيمن... ثم ازداد اقتراب صوت محرك ناقلة الجند متحولاً من الخمول إلى التسارع، وما لبث الصوت أن اختفى مع غياب بحة حناجر الرجال العميقة، عرفنا أنّهم أخطأونا مرّة أخرى... لم أعرف سبب عدم مهاجمتنا

من قبل أولـ ك الرجال عند المرتفع، ربما تشاركنا هالة من الوجود المتبادل والمؤكد؛ وهو ما جعلنا نقترب بحذرٍ من بعضنا بعضاً ونستعد للاشتباك، لكن تقد ر الخسائر السي ة من قبل الطرفين أجهض فكرة الاشتباك. ولذلك، إذا تم خوض الحروب على الأرض فقط، بمواجهاتٍ مباشرةٍ ين الرجال في المعارك، فسينتهي معظمها بسرعةٍ وبنتيجةٍ معقولةٍ؛ الرجال أذكياء، والرجال حيوانات! ولا أحد منهم رغب بالموت ببساطة لـ ا ء ثمنٍ زه دٍ»[14].

كم سيكون الأمر رائعاً لو كانت الأمور بهذه البساطة! لكن الواقع أبعد ما يكون عن ذلك. فبعد بضعة أيام، وصلت معركة العريف سوفورد إلى نهايةٍ مفاجئةٍ. كان سوفورد واحداً من قناصين متواجدين في مكانٍ مرتفعٍ مطلٍ على مطارٍ عراقي، وتوسل ع ر اللاسلكي ليُمنح ا ذن بفتح النار، لكن أوامر الكابتن جاءت بمنعه من ذلك؛ بحجة أنّ هذا سيمنع العراقيين من الاستسلام، ولم تكن هذه الحجة مقنعة بأي شكلٍ لسوفورد:

«لا يمكنني افتراض أن ضباطاً على مستوى سرية مشاة يجهلون ما يمكن أن يفعله قناصان مزودان بندقيّتَي قنص من خ رة البنادق في العالم، وبضع مئات من الرصاصات. إذ ستحدث وخلال فترة قصيرة فوضى عارمة منهكة للعدو، مما سيج ر المطار بأكمله على الاستسلام، لكن الضباط أرادوا معركةً؛ مع علمهم بتضاؤل فرص حصولها. كان الضباط مثلنا لا ريدون الحرب، لكن الأمر على هذا النحو: عندما تكون ضابطاً قائداً لسرية، ولديك قناصان رغبان بطلاق عشرات الطلقات النارية نهاء المسألة بسهولة، فإنّك بالتأك د ستقول لهما لا، لأنّ... ما تحتاج

إليه في هذه الحالة هو بعض الحبر الخاص المسكوب على سجل الخدمة الخاص بك»[15].

وفي النهاية، قامت السرية بكاملها بمهاجمة المطار، وقُتِل وجُرِح العد د من الجنود من الطرفين، وبـ ي القناصان جالسين على المرتفع المطل منسيين تماماً، وغزا ا حباط الشد د نفس سوفورد، فأخذ يصوّب بندقيته القناصة على الأسرى عن بعد:

«انتقلتُ من رأس إلى آخر ع ر منظار القناصة، وأنا أصيح م لداً صوت الطل ات، بانغ... بانغ... مت أيها العراقي الد ير!».

إذاً، لم تجرِ الأمور ببساطة، ولن تكون التعقيدات ا نسانية على مستوى سرية مشاة أقل تعقيداً مما هي عليه على مستوى الجنرالات، ل ستكون أكثر تعقيداً؛ فالحرب مؤسسة إنسانية قديمة وضخمة ومتعددة الوجوه، تمد جذورها في مجتمعاتنا وتاريخنا وأنفسنا. ومهما كانت الزاوية التي نقارب بها الموضوع، فلن نكون أكثر من أعمى يصف فيلاً، رغم أنّ أفضل مكان للبدء ربما يكون في جوهر المسألة، وأعني بذلك طبيعة القتال.

«الحرب ميدان اللا ي ن؛ إذ تقبع ثلاثة أرباع الأمور التي ي وم عليها العمل الحربي في ضباب اللا ي ن على اختلاف درجاته».

كارل فون كلاوزفيتز

«بكلّ بساطةٍ، تناول جلالتهما طعام الغداء معي ومع دوريس في م ر الحكومة، وبدأ ال لق داهم الملك... إذ لم يُحِطْ حـ اً

باللايين الذي تنطوي عليه نتائج الحروب بين الأمم الكبرى؛ مهما اعتقد المرء باستعداد تلك الأمم لمثل تلك المواجهات الكبرى».

الجنرال دوغلاس هيج، 11 آب 1914[16]

يُنتقَد العسكريون كثيراً على محاولاتهم المستمرة – التي لا تنجحِ دائماً – في ربط جميع الأفعال بإجراءاتٍ نمطيةٍ وقواعد ولوائح، والتي تظهِر الممارسات العملية أنَّها مجرد محاولات يائسةٍ وربما ناجحةٍ جزئياً لا أكثر للحد من المتغيرات الكثيرة التي يجب أن يتعامل معها الضابط في ميدان القتال، وربما هي محاولة للسيطرة على التوحش والسلوك غير المتوقع للعناصر في المعركة من خلال التدريب المكثف والتلقين الموحد في زمن السلم. وهذا لا يحصر فعل الخصوم وردود أفعالهم في ساحة المعركة في نمطٍ يمكن توقعه بأي شكل.

بالتأكيد، تحاول الجيوش فعل ذلك، وهناك الكثير من قوائم (مبادئ الحرب) بعدد قيادات الأركان العسكرية، ويتألف كلٌّ منها من عشرة أو اثنتي عشرة من التفاهات، وهي في الغالب إما بديهيات أو نصوص عديمة الفائدة للرجل الذي سيقوم باتخاذ القرار وسط النيران؛ القتالُ بيئةٌ لا سبيل لإتقانها من خلال قواعد محددة، حيث يجب إجادة التكتيكات والاستراتيجيات ومن ثم وضع الخطط، إلا أنّ هذا قد لا يجدي مع العناصر التي لا يمكن توقع سلوكها والسيطرة عليها في أرض المعركة، لدرجة أنّ أفضل الخطط الموضوعة والمنفذة من قبل أكثر الضباط كفاءةً وجرأةً قد تفشل في كثيرٍ من الأحيان، وتحتاج للتغيير بما يلائم مجريات المعركة.

س: كيف تجري المعركة؟

ج: ليس للمعركة مجرى محدد، أعني أنّها لن تسير وفق الخطة الموضوعة. فما الخطة سوى قاعدة مشتركة جراء تغ يرات محددة. ومن الأهمية بمكان معرفة الجميع للخطة، حيث يتسنى تغ ير إحدى خطواتها بسهولة. لكن المعركة الحديثة متقلبة وسريعة، وهو ما يفرض على الـ ائد اتخاذ الـ رار بسرعة فائقة، ولن يكون معظم تلك الـ رارات المتخذة وفق الخطة الموضوعة مسبـ اً.

س: لكن يعرف الجميع الجهة التي جئتَ منها على الأقل، أليس كذلك؟

ج: ويعرفون أيضاً الجهة التي أقصدها، على نحوٍ ما...

الجنرال دان لانر، هضبة الجولان، 1973

يُعتـ ر القتال على المستويات كافة يـ ةً تتطلب وجود ضباطٍ يتخذون الـ رارات بسرعةٍ وتحت ضغطٍ هائلٍ عند عدم وجود معلومات كافية، ويواجهون في ما بعد عقوبة ا عدام في حال اتخذوا الـ رار الخاط ، وربما في حال اتخذوا الـ رار الصحيح أيضاً! وفي مثل هذه البيـ ة الـ اسية، على الضباط الاعتماد على الـ واعد المستندة على الممارسات، والتي لا تعدو في الواقع عن كونها حسابات تقريبية مستنبطة من خ راتٍ سا قةٍ، وتتعلق بالاحتمالات المتباينة، والتي تف د بـ نجاح أحد الأعمال القتالية بـ نسبةٍ ك يرةٍ. وبشكلٍ عامٍ، يتمسك الضباط بـ هذه الـ واعد حتى لو خذلتهم قوانين الصدفة أحياناً.

«خلال توجهنا إلى الموقع الهدف، توجب علينا السير عبر حقل أرزٍ كبير، وأذكر أنّ الأمر تطلّب منّي إرسال أحد العناصر عبر الحقل أولاً، وكنت أفكر: حسناً، من عليّ إرساله؟ وهل أذهب بنفسي؟ لكن نظراً إلى كوني القائد، لا يجوز لي ذلك، وتوجب عليّ إرسال أحدهم عبر الحقل. وإذا تأمل المرء في هذا الموقف فسيقول: هل كانت تلك تضحية بذلك الشخص؟ هل أرسلَه إلى هناك كي يتلقى نيران الأعداء؟

لكن هذا الموقف برمته ليس إلا جزءاً من المعركة، ومن الأفضل إرسال أحدهم إلى هناك بدلاً من السير بكامل القوة الموجودة تحت إمرتك. أتذكر أنني أشرت لأحد العناصر بالذهاب إلى هناك، فنظر إليّ للحظة متردداً، وكأنه يقول: أنا؟! هل تعني ذلك حقاً؟! لكنه علم من نظرتي الجادة أنني أعني ما أشير إليه، فذهب عبر الحقل مطيعاً الأمر الموجّه إليه.

راقب الجميع تقدمه، ثم بدأت بإرسالهم اثنين اثنين، ولم نواجه مشكلةً في تقدمنا ذاك، فتقدمت القوة كلها. وفي منتصف المسافة تقريباً، باغتنا العدو من الخلف، وأقصد بالعدوّ الفيت كونغ[17]، خارجين من مكامنهم حيث كمنوا لنا، وأطبقوا على وحدتي في العراء.

تكتيكياً، فعلت كلّ ما يجب عليّ فعله في تلك الحالة، لكن ذلك لم يحل دون خسارة بعض الجنود، ولم تكن أمامي وسيلة أخرى، لم يكن بمقدورنا الالتفاف حول الحقل، وكنّا ملزمين بعبوره. ولذلك أتساءل دائماً: هل ارتكبتُ خطأ؟ وحتى الآن، أجهل إن كنت قد فعلت ذلك أم لا. فهل كانت لدي فرصة في فعل ذلك بطريقةٍ أخرى؟ أعتقد أنّني لو عدت بالزمن إلى الوراء لفعلت ذلك بالطريقة نفسها؛ لأنّها

الطريقة التي تدربتُ عليها. لكن، هل فقدنا عدداً أقل من الجنود باتباع هذه الطريقة؟ هذا هو السؤال الذي لن أحصل على جوابٍ عنه أ داً».

الرائد روبرت أوولي، الجيش الأمريكي

تم بناء نسخة تحاكي ساحة المعركة التي دُرّب عليها الرائد أوولي من قبل جنودٍ محترفين ذوي خ رةٍ عاليةٍ، بهدف التقليص من فرص حدوث مفاجآتٍ غ ر سارةٍ. وللحدّ من الأضرار المترتبة على حصول مثل تلك المفاجآت، يتم تحديث هذه النظريات التكتيكية باستمرار بناءً على التجارب الحديثة، وتُطبَّق عمليات التحليل التكتيكية تلك ع ر سلسلة الأوامر الترات ية، وتُبذل حالياً جهود ك يرة لبناء قواعد من شأنها أن تزوّد الضباط الجدد بعض ا رشادات العامة حول كيفية استثمار الموارد الموجودة تحت تصرفهم بنجاحٍ على أرض المعركة. ويمكن لكت بات التكتيك التي يتدرب عليها أفراد الج وش أن تتضمن مئات الصفحات.

لكن في النهاية، سيكون نتاج هذا الجهد هو نفسه؛ فهذه التعليمات ما هي إلا شكوك مبرمجة، وليست دليلاً موثوقاً به لتد يق النجاح. إذ تركّز المدارس الكلاسيكية على التعامل مع المشاكل الطارئة، والتخطيط أثناء المعركة بعقلانية، وبذلك تكون العناصر الك يرة التي لا يمكن توقعها مشمولةً جزئياً بهذه الحسابات، وتغ ب ب يتها عن عملية التخطيط. ففي ساحة المعركة، لا سبيل خفاء اللاي ين، وبذلك تكون المعركة الد ي ية ليست أكثر من م امرةٍ وفق الجنرال وسي ب ن كنعان الذي خاض عدداً من الحروب ال صيرة بنجاح، على خلاف الرائد أوولي وحربه

الطويلة الخاسرة.

قاد بن كنعان لواء دبابات على مرتفعات الجولان خلال حرب عام 1973 في الشرق الأوسط، ونجح في اليوم السادس للحرب، وبثماني دبابات بقيت لديه في اختراق خط الجبهة السورية.

«... ما إن وصلنا إلى المكان المحدد حتى اتخذنا مواقعنا. كانت مواقعهم مكشوفة، فتحنا النار، ودمرنا خلال عشرين دقيقةً كلّ الأهداف تحت مرمى نيراننا؛ بفضل موقعنا الممتاز في تلك المنطقة.

قررتُ الهجوم ومحاولة الاستيلاء على ذلك التل، ولذلك توجب عليّ ترك دبابتين للتغطية النارية، وقمت بالهجوم بست دبابات. وما إن هجمنا حتى فتح السوريون النار من الجهة الجانبية مستعملين صواريخ مضادة للدبابات، وفي ثوانٍ قليلةٍ، فجّروا ثلاثاً من أصل ست دبابات، وحدث انفجار كبير في دبابتي، فخرجت منها مسرعاً وتركتها هناك... وما أعتقده الآن هو أنّ الهجوم كان خطأ فادحاً».

عموماً، لا شكّ بأنّ الجنرال بن كنعان ضابطٌ كفؤٌ، لكن هجومه باء بالفشل وقُتِل بعض رجاله. ولو لم تكن هناك صواريخ سورية مضادة للدبابات من الجهة الجانبية (وهو أمر كان بن كنعان يجهله) فلربما كان الهجوم ناجحاً، ولتكلل بالاستيلاء

لا بد من
العناية التامة

بالزي الرسمي للعسكري. الجنرال هانز فزن سيكت ممثل الاحترافية العسكرية البروسية يتلقى التهاني بمناسبة ذكرى ميلاده عام 1936.

ا سرائيليين على تلٍ حيويٍ في وقتٍ حرج، ولكان الكث ر من ا سرائيليين الذين لـ وا حتفهم في القتال على قيد الحياة الآن، ل ربما كان خط الهدنة أقرب إلى دمشقَ أكثر مما هو عليه اليوم. دا أنّ المغامرة تستحق تلك المشقة، وقد اغتنم الفرصة السانحة، غ ر أنه أخطأ بسببها، ولذلك يمكننا الـ ول إن هنالك الكث ر من المتغيّرات القتالية التي لا يستطيع الـ ائد السيطرة عليها، عدا ما يجهله من مفاجآت.

وعليه، ربما يحتاج ضباط الجيش إلى المزد من التسامح في ما يتعلق باللايين. إلا أنّ هذه السمة من السمات الأقل وجوداً في الدوات المسلحة، وذلك بسبب أسلوب حياتهم وعملهم من تطاق أزيائهم وصرامة نظامهم وتراتبه الداسي، ومعايرهم البيروقراطية من (السيوف والاحتفالات ومدة الخدمة)، إلى الطريقة التي يصيغ بها الدائد أوامر العمليات، وانعدام تسامحهم العام في ما يتعلق بأي انحرافٍ عن الداعدة؛ مهما كان حجم هذا الانحراف. وبذلك تصبح حياة العسكري وعمله وجهين لعملةٍ واحدةٍ.

ويختلف الأمر مع المواطنين المدنيين، إذ لا تحتاج شركة ألكمي لبيع السجاد (Acme Carpet Sales) أو قسم إدارة المركبات إلى قولبة الموظفين وجعلهم يعملون في قالبٍ واحدٍ، وذلك لأنّهم يعملون في يئةٍ آمنةٍ يُمكِن توقعها، حيث سيتم تسليم البريد كلّ صباح، ولن يتعرض مندوبو المبيعات لكمائن تقتلهم على الطريق أثناء توجههم إلى مواعدهم بعد الظهر، ولن يعم قسم المحاسبة الذعر الشامل بسبب سدوط قذائف هاون في مواقف السيارات. ولهذا، لزم أن تكون الجوش مفرطة في التنظيم في زمن السلم؛ رغم أنّ ية السلم ليست ية عملها الحديية.

وعند الاشتباك في معركة، تدو بعض الأوامر العليا غر معقولة، ولكن يتم قبولها كما هي حسب تسلسل الرتب؛ وهو أمر لا نجده في الأماكن الأخرى. ويتضمن التدريب الذي يتداه العسكريون تقديم الضباط تقريراً بملاحظاتهم الخاصة عن تحرّك العدو بشكلٍ معيّن دلاً من الأشكال الأخرى، عندما لا يجدون فائدةً في عمل تلك الأشكال، وهم يجدون مبرراتهم بدخال قدرتهم على التوقع وفرض النظام في وضعٍ يعج بالفوضى في جوهره.

ومن الجوانب الغريبة جداً في المنظمة العسكرية، تمييز الجندي من الضابط؛ الأمر الذي بدو حكيماً في هذه البيـ ة الغريبة.

يُعت ر التقسيم الصارم لجميع المنظمات العسكرية إلى ضباطٍ ومجنديـن أمراً شائعاً لدرجة أنّه لا لفت النظر إليه كتقسيم يضم مستويين منفصلين تماماً من الناس، يغطيان تقريباً الفترة نفسها من العمر، ويـوم هؤلاء – خاصةً على المستويات الأقل رتبةً – بالنوع نفسه من العمل، وبذلك نجد في الـ وات المسلحة أكثر النظم الطبـ ية الدقيقة من حيث الرتب، والتي لا يُمكِن العثور عليها في مكان آخر، وهم يتباهون بتلك السمة دائماً.

وتعد الهوة يـن الضباط والرتبِ الأخرى الأهمَّ من يـن جميع الفروق المعقّدة للرتب. وعادةً، يتم تنصيب ضباط الجيش رتبة ملازم، أي في سن العشرين أو الحادية والعشرين، كمسؤولين عن مجموعة من المجندين، والذين يكونون أك ر سناً وأكثر خ رة منهم. ويتوقع الجيش من أولـ ك الملازمين الاعتماد على حكم صف الضباط، على أن يعود الـ رار النهائي والمسؤولية لهم. وفي الواقع، ووفقاً للـ انون، يُعت ر الملازم البالغ من العمر عشرين عاماً أعلى رتبةً من رتبة ضابط صف أكثر خ رةً وثقةً في الجيش (ولذلك ستكون ممارسته سلطته دون دراسة متأنية أمراً يخلو من الحكمة). كما نلاحظ الصعوبة المتعمدة في الانتقال من صفوف المجندين إلى فئة الضباط في جميع الجـ وش.

أما الأصول التاريخية لهذا التمييز يـن الضابط والمجند فلها جذور سياسية واجتماعية قديمة، ومن المث ر

أن نجد أن أكثر الدول التي فاخرت بالمساواة، مثل فرنسا الثورية أو روسيا البلشفية، لم تقم بإلغاء تلك الفوارق قط، ويعود سبب ذلك إلى أنه يتوجب على الضباط أن يضحوا بحياة رجالهم في سبيل تحقيق أغراض الدولة.

«حافظ على مسافةٍ بينك وبين جنودك. تلك المسافة مفيدةٌ للغاية، ومؤلمةٌ في الوقت ذاته. إنّها تعني ضرورة حجبك عاطفتك عنهم في معظم الأحيان؛ لعلمك التام بأنّك مضطرٌ إلى تدميرهم في وقتٍ لاحق، وهذا ما تقوم به في الواقع، فأنتَ تستهلكهم، وهم مجرد مادة أولية، وما معرفتك بالعدد الذي يجب استهلاكه منهم لتنفيذ المهمة إلا أحد المعايير التي تضعك في مصافي الضباط الجيدين».

بول فوسيل، ضابط مشاة، الحرب العالمية الثانية

لعب الضباط دوراً رئيساً في المعارك، وتكون نسبة الضحايا منهم أعلى نسبياً بشكل عام منها لدى المجندين. ويمكن القول إنّ متوسط عمر ضباط المشاة من رتبة ملازم على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى كان خيالياً من ناحية قصره، وللأسف لم تكن الأرقام أفضل في الحرب العالمية الثانية كذلك.

«كُلفت بتعداد الضباط الذين خدموا في الكتيبة منذ يوم (ي)[18] وحتّى السابع والعشرين من آذار، وهو تاريخ انتهاء عبور نهر الراين (أقل من عشرة أشهر)، ووجدت أنّه كان لدينا 55 ضابطاً على رأس فصائل المشاة الاثنتي عشرة، بمتوسط خدمة في الفصيلة لا يزيد عن 38 يوماً... وقد جُرح 53 بالمئة منهم، وقُتِل أو توفي بسبب جراحه 24 بالمئة منهم، ولم يعد 15بالمئة منهم قادرين على العمل، وكانت

النجاة حليفاً لنسبة 5 بالمـ ة منهم فقط».

العقيد. م. ليندساي، من اللواء[19]

وبلغت الخسائر في أرواح ضباط الج وش البريطانية والأمريكية في كتائب المشاة التي نفّذت معظم الأعمال القتالية في الحرب العالمية الثانية ضعفي الخسائر البشرية في صفوف المجندين، ونجد أرقاماً مماثلةً في معظم الج وش التي خاضت معارك رئيسةً في الـ رون الـ ليلة الماضية (باستثناء حرب فيتنام التي كان معدل ضحاياها من ضباط الـ وات الأمريكية أقل قليلاً من معدل الضحايا المجندين؛ وهو ما يث ر الريبة نوعاً ما)[20]. ويكمن الفرق الأساسي في تجربة كل من الضباط والمجندين على أرض المعركة في عدم استخدام الضباط السلاح بأنفسهم؛ باستثناء حالات الضرورة الـ صوى. وعدا عن ذلك، يشعر الضباط بالخوف مثل المجندين تماماً، ويتعرضون للخطر بالـ در نفسه الذي يتعرض له رجالهم، إلا أنّ دورهم مختلف؛ إذ عليهم توجيه مجنديهم وجعلهم يستمرون بالقتال، وتغرس المهمة التي يتوجب على الضباط تنفيذها والظروف التي يشهدونها في أنفسهم رؤيةً خاصةً للعالم وكيفية سيره.

«تؤكد الأخلاقيات العسكرية على أهمية اللاعقلانية والضعف والشرّ في الشؤون ا نسانية، وتشدد على سيادة المجتمع على الفرد وأهمية النظام والتسلسل الهرمي وتقسيم الوظائف، وهي تنظر إلى الدولة الـ ومية كأعلى شكل من أشكال التنظيم السياسي، وتعترف باحتمالية استمرار الحرب ين الدول الـ ومية... كما أنها تمجّد الطاعة كفض لة عسكرية عليا... إنّها باختصار: واقعية ومحافِظة».

صموئيل هنتيجنتون[21]

ينطبق تعريف هنتيجنتون الكلاسيكي (للعقل العسكري) على الضباط العسكريين الذين خدموا مدّةً طويلةً في الماضي البع د. واليوم، هناك بعدٌ إضافيٌ لذلك؛ فقد أصبحت الخدمة تمثّل مهنةً متخصصةً ومستقلةً؛ رغم أنه كان هناك على الدوام متخصصون في الـ طاع العسكري دوامٍ كاملٍ، وخاصةً في المستويات الدنيا من هياكل قيادة الجيش، إلا أنّ الـ رون الـ ليلة الماضية شهدت ظهور ه ة مستقلة من الأشخاص – الضباط العسكريين المحترفين – الذين تتمثل مهمته الوحيدة في الحفاظ على الـ وات المسلحة في زمن السلم، وقيادتها في زمن الحرب.

إنّ مفردة مهنة هي الكلمة الصحيحة لوصف عمل الضابط العسكري اليوم؛ بالمعنى نفسه الذي تنطبق فيه هذه المفردة على المهن الـ ديمة كالطب والـ انون. إذ إنّ الضباط يشكلون ه ة تنظيم ذاتي مكوّنة من الرجال والنساء ذوي الخ رة بنظام انضباطي فكري معقّد، وتمتلك هذه الـه ة الحق باحتكار ممارسة هذه الوظيفة، والحق الحصري في اختيار الأعضاء الجدد الذين سيدخلون هذا النظام وتدريبهم، أما زبائنها فهم أبناء المجتمع بأكمله (فهي رب العمل الوحيد؛ بالاعتماد على وساطة الحكومة والتخويل الممنوح لها)، كما تتمتع بامتيازات تعويض خاصة بحكم المسؤوليات الجسيمة المناطة بها. وكأي مهنة أخرى، لديها إطارها الواسع من المصالح المشتركة ووجهات النظر المختلفة في ما يخص الدفاع والهجوم، إلا أنّ الاختلاف الأك ر ين العسكريين ونظرائهم المدن ين يكمن في ما يسميه الجنود (الالتزام غ ر المحدود) المندرج في العقد المبرم

الخاص بالخدمة. ولا نجد في العقود المدنية ما يجبر الموظف على بذل حياته عندما يطلب ربّ العمل ذلك إلا في حالاتٍ قليلةٍ.

«يستطيع السياسيون ادعاء عدم اختلاف مهنة الجندي من الناحية الأخلاقية عن أي مهنةٍ أخرى، لكن الحقيقة تكمن في اختلاف مهنته. فهو يعمل بموجب التزام غير محدود، وهو ما يضفي الكرامة على المهنة العسكرية، بالإضافة إلى حقيقة العمل العسكري كعمل جماعي، ولا سيما في الجيوش... إذ يعتمد نجاحها على درجةٍ عاليةٍ من تماسك المجموعة، الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا في جوٍ من الثقة والاطمئنان بين أفرادها.

وإذا كان أرنولد توينبي معتاداً على اعتبار ما يسميه بالفضائل العسكرية - من ثبات وتحمّل وولاء وشجاعة وغيرها - من الصفات الجيدة في أي مجموعة من الرجال، وأنّ مجرد وجودها يثري المجتمع، فالأمر مختلفٌ في المجتمع العسكري، إذ إنّ تلك (الفضائل) ما هي إلا ضرورات وظيفية، وما أعنيه هنا هو وجود احتمال في أن يكون المرء كذاباً ومتقلباً وغداراً وفاسداً في جميع النواحي، وأن يكون عالم رياضيات متميّزاً أو رساماً عظيماً، ولكنه لا يستطيع أن يكون جندياً أو بحاراً أو طياراً جيداً. ولهذا، إنّ التماسك الجماعي، والالتزام غير المحدود، وما بين هذين المفهومين هو ما يميّز المهنية العسكرية. وأعتقد أنّها ستبقى على هذه الشاكلة».

الجنرال السير جون هاكيت

لا شكّ في أنّ هناك ضباطاً سيئين لا ينطبق عليهم شيئاً مما سبق ذكره، لكنّ هذا لا يعني أنّ الجنرال

هاكيت ليس على حق؛ فعدم وجود تلك الفضائل يجعلهم ضباطاً سيئين، وهو يـ دّم بساطة صيغة عامةً رومانسيةً لحالة رش قة من الشرّ الذي تفيض به ضرورات خط الجبهة الأمامي؛ وهو أمر قريب من الظاهرة التي يصفها العريف المجند عندما يتحدث عن «مد د المساعدة بكل ودٍّ، وحالة السرور التي تتصاعد مع الاقتراب من خط الجبهة حتى يصبح الأمر ملموساً بشكلٍ عجيبٍ بأبعد ما يكون عن المنطق. وقد كتب ابن عمٍ لي مؤخراً... يـ ول: يصبح الرجال محبين وودودين تجاهك عندما تحين ساعة المواجهة، وهذا ليس صحيحاً فحسب، ل لخص الأمر رمته»[22].

لكن هذه ليست الحـ يقةَ كاملةً...

«مضيتُ وفق الأوامر، وقمتُ بما أُمرت به، لا أكثر ولا أقل، لكنّ الخوف الشد د كان يتملكني طوال الوقت».

جيمس جونز، عريف مشاة في الحرب العالمية الثانية

«لو كان الدم بنياً، لحصدنا جميعاً ميداليات».

رقيب كندي، شمال غرب أوروبا 1944-1945

ليس الخوف حالةً معنويةً فحسب، ل هو حالة جسدية أيضاً. وبفضل هوسه في الاست يانات، شكّلَ للجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية لجنةً لتقوم باست يان يكشف عن مدى تأث ر الخوف على أداء الجنود في أرض المعركة، وكانت النتيجة اعتراف 65 بالم ة من الجنود في إحدى فرق المشاة الم اتلة في فرنسا آب/أغسطس عام 1944 بعدم قدرتهم على أداء المطلوب منهم على أكمل وجه بسبب الخوف الشد د الذي شعروا به. وأفادت

نسبة تتجاوز الخمسين بحصول ذلك مراراً وتكراراً.

كما سُئل أكثر من ألف جندي في فرقة مشاة أمريكية أخرى جنوب المحيط الهادئ عن الأعراض الجسدية للخوف، فأفاد 84 بالمئة منهم بتسارع ضربات القلب بقوة، وذكر أكثر من ثلاثة أخماس الجنود أنّهم ضُعِفوا أو ارتجفوا بشكلٍ كاملٍ، كما اعترف حوالي النصف بتعرضهم لإغماء، مع تصبب العرق البارد والشعور بالغثيان في المعدة، وتقيأ أكثر من الربع، وذكر 21 بالمئة من الجنود أنّهم فقدوا السيطرة على أمعائهم[23]. تستند هذه الأرقام إلى اعترافات طوعية، وربما تكون الحقيقة أقسى من ذلك لجميع الفئات، وخاصة في ما يتعلق بالأمور الجسدية المحرجة. وبذلك، يكون تعبير (الخوف الشديد) في قول جيمس جونز مجرد تعبير مزخرف للحقيقة المرّة.

هذه هي المادة الخام التي يجب على الضباط خوض المعارك بها؛ فالرجالُ مدرَّبون ومحترمون ومحبّون لأصدقائهم، لكن في جوٍ يسوده الرعب الجسدي الهائل والرغبة اليائسة بالبقاء. ولذلك، مهما أظهر الجنود من ثبات في المعركة فتلك ليست إلا غوغاء تبث الرعب وتهرب، وهذا ما يفرض على الجيوش بذل جهودٍ جبارةٍ لضبطهم في إطار سياق العمليات. ولا يتم هذا إلا بالتدريب الشاق وانعكاسه المستمر في أرض المعركة.

غدت مهمة الضابط أكثر صعوبةً مع مرور الوقت، إذ لم يعد بإمكانه رؤية مجنديه مجتمعين حسب الرتبة أمامه كما في السابق، وأن يشهد تذخيرهم للسلاح وإطلاقهم النار. إذ تقاتل الوحدات البرية الحديثة في ظلّ انتشارٍ واسعٍ لها؛ مما يجعل إشراف الضابط المباشر عليها والسيطرة على الرجال

في الميدان أمراً مستحيلاً؛ رغم سريان مفعول هيكل ال يادة العسكرية والأوامر الصارمة والعقوبات الرادعة، وهذا ما دفع الضابط اليوم إلى الاعتماد أكثر على ا قناع للتحكم بسلوك رجاله.

«تقودُ من خلال المثال الأعلى الذي تعطيه لجنودك، ولا شكّ في أنّني كنت أخشى ا صابة بعيار ناري، لا أحب أن أصاب، ولا أحد يحب ذلك، لكن الأوامر أوامر، ويجب تنفيذها مع الانتباه التام في الأوقات كافة. فالبدء بـطلاق النار شرارة تشعل الأجواء، وعندما ت دأ حفلة الجنون هذه ستفعل ما عليك ال يام به، وكذلك سيفعل الآخرون؛ وكأنه نوع من أنواع العمل الجماعي».

الملازم، كولونيل مايكل بيتي، الجيش الأمريكي - فيتنام، 1969-1971

إذا فشل الكث ر من جنود الوحدة في المهمة المناطة بهم، فعلى الأرجح لن يتب ى منهم الكث رون على قيد الحياة، وغالباً ما يؤدي مفهوم ال يادة هذا إلى نتائج م بولة، وخاصةً في الحروب الصغ رة مثل حرب فيتنام التي شهدت خسائر منخفضة نسبياً (إذ قُتِلِ ما نسبته جندي واحد من خمسين من الجنود الأمريك ين في فيتنام)، وكانت المعارك المحتدمة قصيرةً بشكلٍ عامٍ وعلى فتراتٍ متقطعةٍ، إلا أنّ انهيار الروح المعنوية وليس استنزاف الجيش في القتال هو الذي دمّر ال درة القتالية للجيش الأمريكي في فيتنام.

وتختلف الأمور في الحرب ذات النطاق الواسع ين الج وش النظامية. على الأقل، هكذا كانت خلال الج لين الماض ين، أما في الماضي ووصولاً إلى أواخر ال رن التاسع عشر فقد وصل عدد القتلى والجرحى في ومٍ واحدٍ من القتال

في أي معركة ك يرة إلى ما نسبته 40 أو 50 بالم ة من الرجال المشاركين، ونادراً ما قلّ المتوسط عن نسبة 20 بالم ة. وفي حال حصول معركتين في العام، كانت فرص مقتل جنود المشاة أو التعرض ل صابة متساوية؛ والحال هو نفسه في حال استمرار الحرب لأعوام، وهذه الاحتمالات غ ر مشجعة أ داً، لكن بما أنّ السنة مكوّنة من 365 وماً، كانت هذه مجرد احتمالات افتراضية؛ إذ يحتمل ألا يكون الجندي في ساحة المعركة، أو ألا يشتبك مع العدو مباشرةً في تلك الأيام. وقد يكون الط س بارداً ورطباً، ويكون الرجل متعباً وجائعاً كما هو الحال في أغلب الأحيان – وقد يحين موسم الحملات القتالية ينما الجيش لا يزال يناور في الريف – وربما يأوي إلى مكانٍ ما في الليل، وفي جميع الأحوال، إنّ ظروف الحرب تجعل من احتمال التعرض للموت أو ا صابة أمراً مؤكداً؛ تماماً كما هو الموت لجميع البشر.

تخوض ال وات البحرية والجوية اليوم نوعاً مختلفاً من الحرب، ولكنه متشابه في آثاره النفسية مع الحروب ال ديمة. فالضغط النفسي الذي يتعرض له ا نسان الموجود تحت سطح السفينة الحربية متواصل، مع احتمال وصول طوربيد في أي وقت. أما الاحتكاك الفعلي مع العدو فلا يتجاوز حالياً بضع ساعات في الشهر، لكن حتى أفراد طواقم قاذفات القنا ل في الحرب العالمية الثانية كانوا يخوضون هذا النوع من الحرب؛ رغم أنّ أعمارهم كانت تقاس بالأشهر، لكن التناقض يكمن في أنّهم – ين لحظات الهلع الصارخ الوجيزة؛ عندما تكون الن ران أو طائرات العدو قريبةً جداً – كانوا لتحفون بأغطية نظيفة، وربما يصدون بعض مخازن البيع والم اهي في بعض الأمسيات، وهذا ما لا نجده اليوم لدى الج وش؛ فقد تغيّر هذا

الأمر بشكلٍ لا رجعة فيه.

«لا وجود لتعبير (الاعتياد على القتال)... إذ تفرضُ كلّ لحظةٍ من القتال ضغطاً كبيراً؛ إلى الدرجة التي ينهار بها الرجال كنتيجةٍ مباشرةٍ لكثافة التعرّض لأهوال المعارك، ولمدة التعرض لها».

التدقيق النفسي للجيش الأمريكي الخاص بموضوع آثار المعارك[24]

ومن التناقض أن يكون الانخفاض الحاد في عدد القتلى في يومٍ واحدٍ من المعركة هو العلامة البارزة التي صعّبت الحرب الأرضية على الجنود؛ رغم أنّ الوحدات الصغيرة لا تزال معرّضة لإبادة خلال ساعةٍ واحدةٍ تقريباً إذا سارت الأمور على نحوٍ سيئ. وفي الحرب العالمية الثانية كان متوسط الخسارة اليومية لفرقة عسكرية تخوض معارك ضارية بحدود 2% من ملاكها العددي، أما بالنسبة إلى جيوش بأكملها فنادراً ما بلغ عدد ضحايا اليوم الأول من الهجوم 1% رغم ازدياد قدرة الأسلحة على الفتك آلاف المرّات على مدى المائتي عام الماضية، لكن ازداد معها عدد الأهداف بالقدر نفسه، ومن المؤكد أن كون المرء جندياً في معركة اليوم أفضل مما كان عليه الحال قبل مئة أو ألف عام مضى، على أنّ مشكلة الجنود اليوم تتمثل في استمرار المعارك المعاصرة لأسابيع، مع تغيير وجهات الوحدات الفردية بفترات متقاربة، وتتابع المعارك بشكلٍ سريعٍ.

وبالنسبة إلى الخسائر البشرية الكلّية سنوياً، نجد أنّ المعدل التراكمي للموت أو الإصابة في الحروب الكبرى هو ذاته كما في الأزمان السابقة. ورغم أن احتمال مواجهة جنود

المشاة المقاتلين فرصاً متساويةً في الموت أو الإصابة بجرحٍ خطيرٍ في غضون عام، إلا أنّ التأثير النفسي مختلفٌ جداً؛ نظراً إلى كونهم على احتكاك مع العدو وتحت رحمة عناصر الحرب في معظم الأوقات. فهم يتعرضون للقصف اليومي، ويُضطرون للعيش في ظلّ شبح الموت، وهذا ما يُضعِف إيمانهم تدريجياً، فيتسلل اليأس إلى قلوبهم، وتنعدم آمالهم بالنجاة، وتتعرض شجاعتهم وإرادتهم للدمار. يستطيع المرء أن يكون شجاعاً في الحرب لمرّةٍ واحدةٍ، ولكنه لن يستطيع الاستمرار كذلك إلى الأبد:

«تتدفق شجاعتك في البداية بأقصى قوة، ولا تلبث أن تضمحل بعد ذلك. فإذا كنت شجاعاً جداً فستقل شجاعتك بشكل تدريجي، وتنعدم في النهاية. ولن يكون بإمكانك التصرف خلاف ذلك».

أحد الجنود البريطانيين ممن خاضوا المعارك الجسيمة[25]

توصّل الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية إلى أنّ الجندي الذي ينجو من الموت أو الإصابة سينهار بعد مئتين إلى مئتين وأربعين يوماً من القتال. وقد تحمّل البريطانيون الذين تناوبت قواتهم على خطوط الجبهة لمدة أربعمئة يوم، ولكنهم اعترفوا في النهاية أنّه لا مفرّ من الانهيار. وفي تلك الحرب، كان سدس الإصابات تقريباً أمراضاً نفسيةً؛ لأنّ الجنود يعلمون أن معظم الوحدات المقاتلة لن تنجو من المجزرة.

كان هذا النموذج عالمياً. ففي جميع الوحدات، ومن الجنسيات كافة، وعلى جميع الجبهات، وبعد مرور أيامٍ قليلةٍ على الانخراط في القتال، تظهر علامات الخوف والاضطراب

في نفوس أفراد الوحدة الجديدة، ثم يتعلمون التمييز بين الظواهر الخطيرة فعلاً للمعركة ومجرد الشعور بالخوف، ويتحسن مع هذا التمييز الشعور بالثقة والأداء، ليصل إلى ذروته بعد ثلاثة أسابيع، ومن ثم بدأ التدهور الطويل. وقد ذكر اثنان من الأطباء النفسيين المرافقين لكتيبة مشاة أمريكية في عام 1944 أنّه وبحلول الأسبوع السادس من القتال المتواصل، أصبح الجنود على قناعةٍ تامةٍ بحتمية موتهم، وتوقفوا عن الثقة بقدراتهم أو مهاراتهم الخاصة أو شجاعتهم والفرق الذي ستُحدثه، واستمروا في القتال، مع تناقص تدريجي في فعاليتهم لبضعة أشهر أخرى. وإن لم يُقتلوا أو يُجرحوا أو ينسحبوا من المعركة، فإنّ النتيجة كانت ذاتها: «وبقدر ما يتعلق الأمر بهم، كان الوضع يدعو لليأس المطلق... بدا أنّ الجندي يفقد بديهته... وأضحت العيوب العقلية شديدة الظهور، فلم يعد بالإمكان الاعتماد على الجندي في فهم أمر شفهي، وصار الجندي يلتزم خندقه أو يظل قربه، وأهمل تقريباً الاشتراك في الاشتباكات الضارية، وكان يرتجف باستمرار». وعند هذا الحدّ، ظهر إلى الوجود المرض النفسي الذي سُمّي (تحديق ألفي عام[26]) (عُرِف هذا المرض في فيتنام باسم (تحديق ألف عام[27]))، وعُرفت المرحلة التالية من هذا المرض باسم الارتباك الكلّي (الكاتاتونيا) ثم الانهيار[28].

تختلف الفترة الزمنية التي يستغرقها الجنود للوصول إلى هذه النقطة حسب كلّ فرد، وتمتد أكثر في حال وجود فترات استراحة من القتال، والسبب الرئيس في انهيار عدد قليل نسبياً من الوحدات هو استمرار تدفق الجنود الذين يكونون دائل للضحايا (على سبيل المثال، عام 1943 بلغ عدد ضحايا الجيش السوفياتي 80 بالمئة من القوى

المشاركة في القتال، وتكرر الأمر عام 1944)، ولذلك تتكون معظم الوحدات المقاتلة لفتراتٍ طويلةٍ في الحرب الحديثة من خليطٍ غير مستقر من الجنود البدائل الذين يكونون صغاراً في السن وغير موثوق بمهاراتهم، بالإضافة إلى بعض المحاربين القدامى ممن بقوا على قيد الحياة وهم على حافة الانهيار بعد أشهرٍ طويلةٍ من القتال، ومن نسبةٍ من الجنود في مرحلة الانتقال من المرحلة السابقة إلى المرحلة التالية. وكلما كان عدد هؤلاء أكبر كان ذلك أفضل بالنسبة للوحدة.

يتحتم على الضابط التعامل مع هذا الواقع الذي يتطلب جهداً كبيراً منه. وباستثناء التجارب الأولى المبكرة له في الوحدة المقاتلة، لا بدّ للضابط من أن يعي الحالة التي وصفها الكولونيل مارشال:

«سيجد أي شخصٍ يقوم باستقصاءٍ عن القوات في ساحة المعركة أنّ الخوف يسود بين الرجال، ولكن عليه أن يلاحظ أيضاً تجنب الرجال إظهارهم خوفهم من أعمال محددة قد تصنفهم بين رفاقهم على أنّهم جبناء. إذ لا يرغب معظمهم في تحمّل مخاطر غير عادية، ولا يطمحون دور البطل، غير أنّهم غير مستعدين لاعتبارهم أقل أهمية بين رفاقهم الموجودين...

تبقى بذور الذعر حاضرةً بين أفراد القوات المسلحة ما داموا في دائرة الخطر، ولذلك يعتمد الاحتفاظ بالانضباط الذاتي على مظهر الانضباط العام داخل الوحدة... وإذا هرب رجالٌ آخرون من الوحدة يزول الضغط الاجتماعي على الجندي، ويستجيب كما لو أنّه معفي من الخدمة؛ لعلمه أنّ فشله الشخصي غير مرئي في خضم الانحلال العام»[29].

تلحظ عينا الضابط الخبير انعدام الودّ في سلوك الرجال الخاضعين للضغط، فيحاول بناء جسور هشة عبر الفوضى مع مادة بشرية شديدة التبدل. كان أحد ضباط المشاة الأمريكيين صريحاً تماماً في ما يخص هذه الحقائق للناجين من سريته خلال استجواب حضره مارشال، والذي تم بعد مهاجمة السرية لحصنٍ ألمانيٍ صغيرٍ خارج بريست عام 1944، حيث تمكّن الرجال من تولي هجومٍ ممتازٍ لمسافة سبعمئة ياردة عبر حقلٍ مفتوح، مما تسبب بفرار معظم الحامية الألمانية. وقد وصلوا إلى ساتر عبارة عن سياجٍ لا يبعد سوى خمس عشرة ياردة فقط عن الحصن، لكن لم يستطع الضباط إقناعهم بالنهوض لعبور المسافة الضئيلة المتبقية، وظلوا على موقفهم هذا لمدة سبع ساعات؛ رغم وجود عدد ضئيل من المدافعين الألمان في الحصن.

«لديك خطة وهدف، باشر الرجال بالعمل محتفظين بالهدف في أذهانهم، لكن الفوضى تدب في سياق الوصول إلى هذا الهدف، واختيار الأمكنة المناسبة لفتح النار. عندها، بحث الرجال عن ساتر يحميهم، ويؤدي هذا في الغالب إلى تشتتهم. وحين تُفتح النيران عليهم تتشتت أفكارهم، وينتهي دور المجموعة ويظهر دور الفرد، كلّ فردٍ يرغب في البقاء حيث هو، وقد يحتاج الضباط إلى تعريض أنفسهم لنوعٍ من الانتحار في سبيل دفع جنودهم للتحرك مرّة أخرى كمجموعة؛ هؤلاء الرجال في حالة ركودٍ عقلي، وسيتصرفون على هذا النحو عند مواجهتهم الأخطار الكبرى... من الصعب إرغام الرجال على النهوض مرّة أخرى بعد الهجوم، مقارنةً مع إمكانية حصول ذلك في بداية الهجوم».

الملازم روبرت د ليو ريداوت، ريست، 1944[30]

يعرض مارشال العشرات من حالات (الت دل العاطفي السريع) التي تداهم الرجال في أرض المعركة، والتي تدفع «المجموعة نفسها من الجنود إلى التصرف كالأسود، ومن ثم كالأرانب البرية الخائفة خلال بضع دقائق»، وهو يعي مدى سهولة تأثر سلطة الضباط سلباً عند إحجام جنودهم عن تنفيذ أوامرهم. حيث يغتنم الجنود فشل بعض عناصر المعركة البارزة والهامة تمام الهجوم؛ مثل فشل الدبابات، أو التمه د المدفعي أو غ ره، ويستخدمون ذلك كعذر لعدم إتمام المهمة على أكمل وجه: «جلس الرجال الد رفصاء في الخنادق وبدأوا بالمراقبة. وإذا لاحظوا وجود عدم التزام في أي مكان فسيجدون عذراً أخلاقياً لعدم الالتزام من قبلهم أيضاً، فيماطلون ويجادلون...» وفي النهاية، يتم الهجوم بفتور، ومن دون أملٍ بالنجاح. لذلك، يخلص مارشال إلى أنّ (الد اعدة المتعلقة بالجندي) هي الد اعدة التي حصل عليها جندي المشاة الأسترالي عندما سأل أبا الهول عن الحكمة الصالحة لكل زمان ومكان، فأجابه بضع كلمات: «لا تتوقع الكث ر!»[31].

إنّ معرفة طبيعة المعركة تجعل الضباط يخلصون إلى النتيجة نفسها: إنّها يـ ة لا يتم بها شيء بشكلٍ صحيح، ولا خطة أو حيلة تنجح طويلاً. كما تخ رهم خ رتهم بالطبيعة البشرية أنّ ا نسان ما هو إلا كائن هش وغ ر معصوم عن الخطأ، ويتطلب قيادةً قويةً وانضباطاً حازماً دفعه للتصرف بالشكل الصحيح، والعمل بفعالية في المعركة. إنّ هذا التشاؤم الواقعي المتعلق بحدود البطولة والمثالية هو محور عالم الجنود المحترفين؛ حيث إن أبعد هوامش التجربة

ا نسانية تُكتَسب تحت ضغط القِتال، ولذلك تكون افتراضاتهم حول طبيعة ا نسان محقةً تماماً، ولهذا يُنظر إليهم على أنّهم عديمو الرحمة عندما يتحكمون بأفكار جنودهم.

الفصل الثاني

أي شخص كان سيفعل ذلك!

«فكّر في الأمر، وستدرك أنّه عليك أن تقتل، ولكن من دون أن تعي ما يترتب عليه هذا الفعل؛ لأنّ القتل يعتبر من أشنع الجرائم في المجتمع الذي نشأت به... ولكنك في وضع انقلبت فيه الأمور رأساً على عقب... وعندما تقتل أحدهم، فإنّ هذه التجربة بما فيها تجربتي كانت مليئة بالنفور والاشمئزاز.

كنت في حالة مزرية من الهلع، وأدركت أنّ هناك قناصاً يابانياً في كوخ صيد صغير وقريب من الشاطئ كان يطلق النار في الاتجاه الآخر على أفراد من مشاة البحرية التابعين لكتيبة أخرى، وقد علمت ذلك من خلال اصطياده لأفرادها، وكانت هناك نافذة لكوخه تطل على جهتنا، وأدركت أنّه سرعان ما سيبدأ باصطيادنا أيضاً، ولم يكن لدي مكان آخر لأهرب إليه. لذا، جريت نحو الكوخ، واقتحمته بحذر لأجد نفسي في غرفة فارغة. جلت ببصري في الغرفة، فوجدت باباً آخر، مما يعني أنّ هناك غرفة أخرى يتحصّن فيها القناص، ولذلك قمت بخلع الباب والخوف ينهشني من توقع ذلك الرجل لوصولي، واستعداده لإطلاق النار عليّ حالما أظهر أمامه. لكن القدر ابتسم لي، إذ كان يرتدي بذة قنص ولم يستطع الخروج من مكمنه والاستدارة بسرعة كافية، فقد قيّدت البذة حركته. أطلقت عليه النار من سلاحي (a.45)، وما إن قمت بذلك حتى طغى عليّ شعور بالندم والخجل. أتذكر أنّني همست بحماقة: «أنا آسف»، ثم تقيأت... تقيأت على نفسي، وكان الأمر خيانة لما تعلمته منذ نعومة أظفاري».

ويليام مانشستر

رغم مشاعر الأسف التي شعر بها وليم، فقد قتل الجندي الياباني كما تم تدريبه من قبل، ولم يشعر بالاشم زاز إلا بعد العملية. وحتى بعد قتله للياباني، سيستمر شاب مثل مانشستر قتل (أعدائه) حتى تنتهي الحرب. وهو في هذا مثله مثل عشرات ملايين الجنود الآخرين الذين تعلموا طيلة حياتهم أنّ القتل أعظم الشرور، ومن ثم يتم إرسالهم للقتل لصالح لدانهم. كان عاجزاً عن العصيان، فقد وقع ين دي مؤسسةٍ قويةٍ وحاذقةٍ ذات قدرة هائلة على قلب معا ير التدريب الأخلاقي المستمر طيلة الحياة.

يستند صرح المؤسسة العسكرية المتين إلى قدرتها الفذة على غرس الطاعة في نفوس أعضائها؛ حتى إن كان الأمر يتعلق بـرسالهم إلى الموت أو قتل الآخرين. فلدى قيادتها صلاحيات هائلة لـ كراه، ولكن لا سلطة تقوم في النهاية دون موافقة الطرفين. وتدو مهمة استخراج تلك الموافقة من أفرادها أكثر صعوبة في الفترة الأخ رة؛ مع اتساع الهوة ين العالم العسكري والمدني. فلم يعد المدنيون ينظرون إلى خطر الموت العنيف كخطرٍ ومي يهدد وجودهم، واتسعت الفئات التي تشمل الناس الذين لا يجوز قتلهم لدواعٍ أخلاقية لتشمل الجنس البشري بأكمله وقت السلم. ورغم هذا، لا يزال بـمكان المؤسسات العسكرية في الدول تجند أي مدني من الذكور الشباب، وتحويله في غضون أسا يع قليلة إلى جندي ذي ردود أفعال مدروسة. وغالباً ما يكون مجندوها ذوي خ رة لا تزد عن

عشرين عاماً حول العالم الذي يحيون به، وقد عاشوا معظم تلك السنوات كأطفال، فيما استغلت الجيوش كلّ فترات التاريخ لممارسة أساليبها وإتمام ما بدأت به.

«تأمّل فقط في كيفية التعامل مع الجندي. فهو يُحبَس في الثكنات في طفولته، وينتقل خلال تدريبه من مكانٍ إلى آخر دون وجهة محددة، وإذا ارتكب أدنى هفوة يُضرب بقسوة على جسده، وعينيه، وربما يتعرض لضربةٍ تجرح رأسه. يُضرَبُ ويُساطُ حتى يدمى، وأثناء المسير تُعلّقُ الأحمال الثقيلة حول عنقه كما لو أنه دابة».

مصري حوالي 1500 قبل الميلاد[32]

«كلما حدّثتُ المجندين الجدد عن أرض الوطن، اصطدمت بلغمٍ أرضيٍ وصمتٍ. لذا، بدلاً من ذلك أحاول أن أجعل منهم جنوداً، فأحوّل حياتهم إلى جحيمٍ من الصباح وحتى غروب الشمس، فيبدأون بشتمي، وشتم الجيش، وشتم الدولة. وحالما يصبح الشتم حالةً جماعيةً أعلم أنّهم قد أصبحوا مجموعةً متماسكةً بحقٍ، وحدةً... وحدةً قتاليةً!».

إسرائيلي، حوالي 1970م[33]

إنّ البشر طيعون إلى حدٍّ ما، وخاصةً حين يكونون يافعين. وهناك أساليب لجأ إليها أي جيشٍ للتعامل مع أي شابٍ يافعٍ. القيم والمواقف الموروثة يتم استحضارها ببساطة. ففي الأزمان القديمة، كانوا يستحضرون المواقف البطولية لمحاربي القبائل الذين يُعتبرون نموذجاً يتمناه أي صبي. لكن الرجولة الفوضوية للمحارب البدائي ليست نموذج الجيوش الحديثة لجنود اليوم، غير أنّها توفر المادة الخام

الواعدة للتحوّل الذي ستجريه في صميم مجنديها.

لكن، ما شكل هذا التحوّل؟ يختلف الأمر من زمنٍ لآخرَ ومن دولةٍ لأخرى. ففي المجتمعات العسكرية الكاملة، كإسبارطة القديمة، وطبقة الساموراي اليابانية في العصور الوسطى، ومناطق سيطرة المنظمات العسكرية مثل نمور التحرير لدى التاميل اليوم، بدأ الأمر في سن البلوغ أو حتى قبلها؛ فتتم تنشئة الصبي في مجتمعٍ منضبطٍ لا يسمح باختراق القيم العسكرية، وتكون الفترة الزمنية أقصر والتدريب أكثر تركيزاً ووضوحاً في المجتمعات الكبيرة الحديثة، ولكنها تبقى في الأساس عملية تحويل بمعنى ديني تقريباً. وكما يحصل في جميع إجراءات التحويل، تحظى العواطف بأهمية أكبر بكثير من الأفكار المنطقية.

«عندما كنّا نذهب إلى المدرسة، اعتدنا على ترديد عهد الولاء للعلم كلّ يوم، ولكنهم اليوم لا يفعلون هذا. وكما تعلمون، لدينا أطفال يأتون إلى هنا، وهم يجهلون قسم الولاء للعلم عند قدومهم، وهذه خطيئة كبرى... سيعرف ابني هذه الأمور عند بلوغه الثالثة من العمر، إنّه الآن في الثانية من عمره فقط... فكما تعرفون، يجب بناء الأساسيات الخاصة بك، الأرضية التي يمكن بناء دماغ الطفل استناداً عليها».

مدرب مشاة البحرية الأمريكية

مركز تدريب المجندين، 1981

يحتاج الكثير من الجنود لتبريرات وطنية أو

أيديولوجية لما يؤمنون به، لكن أي أمة؟ وأية أيديولوجية؟ لا يهم ذلك: سيقاتل الرجال إلى جانب بعضهم بعضاً، وسيموتون بشجاعة الخمير الحمر الذين يصيحون (لله، للملك، وللدولة)، ربما يمتلك أولئك الذين يرسلون الجنود إلى الحرب دوافع وطنيةً أو أخلاقاً عاليةً، لكنّ معظم الرجال يقاتلون لدوافع أقوى، وكلما اقتربتَ من خط الجبهة ستلاحظ هذا وستسمع عدداً أقل من الأسماء المجرّدة.

ما يُمكِّن الرجال من القتال فعلياً هو احترامهم لذواتهم، ونوع خاص من الحب لا علاقة له بالجنس والمثاليات؛ إذ لم يُقتَل في المعركة سوى عدد قليل جداً من الرجال في سبيل الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتي، وحتى في سبيل منازلهم وعائلاتهم. وإذا كان لهم خيار في هذا الأمر، فقد اختاروا الموت من أجل بعضهم بعضاً، وبفضل رؤيتهم الخاصة لأنفسهم.

«حالما تخرج للاشتباك هناك، تدرك أنّ ثمة رجلاً يطلق النار عليك، فتدفعك غريزتك رغم كلّ التدريب للسعي خلف البقاء على قيد الحياة... لكن، ليس وسعك الالتفات والانطلاق بالاتجاه المعاكس، لن يسمح ضغط أقرانك بذلك! هناك آخرون معك في هذا المكان، وربما ساهموا في إنقاذ حياتك، أو سينقذونها في المستقبل، لذا لا يمكنك التراجع».

محارب قديم من مشاة البحرية الأمريكية في فيتنام

«قد يبدو هذا غريباً، لكنْ ثمة علاقة حبٍّ تنمو في جو المعركة. فالرجل حاضرٌ دوماً إلى جانبك، وأنت تعتمد عليه للحفاظ على أغلى ما لديك؛ وهو حياتك. وإذا تخلى عنك فقد

تتشوه أو تُقتَل، وإذا أخطأتَ فقد يحصل له هذا أيضاً، لذلك تكون أواصر الثقة شديدة للغاية، وأنا أقول إنّه رباطٌ أقوى من أي شيءٍ آخر؛ باستثناء حبّ الوالدين والطفل. إنه رباط أقوى من الرباط الزوجي لأنّ حياتك بين يديه، وثقتك في إخلاصه. إنّ الناس الساعين إلى نشوة القتال - إذا صحت التسمية - موجودون هناك لأنّهم أصدقاء، وهم الأصدقاء أنفسهم الذين سيظهرون في الحروب نفسها مراراً وتكراراً».

النقيب جون إيرلي، جندي سابق في الجيش الأمريكي في فيتنام. ومرتزق سابق في روديسيا

إنّ جون إرلي رجلٌ ذكيٌ وحساسٌ، ولكنه تحوّل إلى مدمن قتال («قد تتناقض مصطلحاتي، لكن ليس لدي تفسير لذلك») ولذلك فهو شخص نادر. وبالنسبة لمعظم الرجال، لا تعوّض الثقة والألفة في الوحدة الصغيرة عن الخوف والاشمئزاز بأي شكل من الأشكال، لكنّ نكران الذات للجندي خلال تواجده مع رجال وحدته هو ما يجعل الجيوش ناشطةً في القتال، ويجب وضع أسس هذا الأمر في زمن السلم، «القتال فنٌ اجتماعيٌ، يستند على النشاط الجماعي والتعاون والدعم المتبادل» على حد تعبير أحد الجنود.

إنّ هذا الاعتماد المطلق على الآخرين جزء لا يتجزأ من الجهود المبذولة في مواجهة العدو بصرف النظر عن الصعاب، كما يُحدِّد درجةٍ كبيرةٍ رغبة الرجال بالمخاطرة بحياتهم عند شن الهجوم... باختصار، نادراً ما تكون هناك أخوّة في مواجهة الموت إذا لم تكن هناك أخوّة في زمن السلم[34].

وتنتج الجيوش هذا الشعور بالأخوّة في زمن السلم عن طريق التدريب الأساسي، والذي يتم من خلاله التلاعب

بنفسية الرجال على نطاقٍ واسعٍ، ولطالما كان هذا الأسلوب ناجحاً ومنتشراً جداً، لدرجة فشلنا في ملاحظة روعته. وفي الدول التي يكون فيها الجيش مسؤولاً عن جلب المجندين الذين وصلوا إلى أواخر سن المراهقة - سواء أفعلوا ذلك عن طريق التطوّع أو التجند - ومن ية مدنيةٍ لا تشارك ال يم العسكرية، فإنّ التدريب ينطوي على تد ينٍ وجيزٍ ولكنه مكثف، ولا يكون هدفه في الح يقة تعليم المجندين المهارات العسكرية الأساسية بـ در تغ ير قيمهم وولائهم. ويعترف مدربٌ للمشاة البحرية الأمريكية بهذه الح يقة قائلاً:

إنه واحدٌ منكم. رباط الثقة المتبادلة في وحدة عسكرية صغيرة قد يكون "أكثر متانة من الرباط الزوجي". الجنود اليابانيون يستولون على مدفعٍ أمريكي في الفلبين، عام 1942.

«يمكننا ال ول إنّنا نغسل أدمغتهم قليلاً»، ثم يتابع «لكنهم بـ ون رجالاً صالحين».

تعتمد مدة التدريب الأساسي وشدّتها على نوع المجتمع الذي يأتي منه المجندون، كما تعتمد على نوع المؤسسة العسكرية التي يأتون إليها؛ ومن الأسرع تدريب الرجال القادمين من بيئات ذات ثقافة عسكرية تقوم على الدفاع عن النفس مقارنةً مع القادمين مع بيئة ذات قيم مدنية وتجارية، كما أنّه من الأسهل التعامل مع متطوعين منه مع مجندين ينفرون من الحياة العسكرية، رغم وجود مجندين راغبين فيها، وهناك العديد من الحالات التي يحظى فيها الجيش بشعبية لأسبابٍ اقتصاديةٍ.

ففي وقتٍ مبكرٍ من تاريخ أوروبا الحديثة، لم تحظَ الخدمة العسكرية بشعبيةٍ كبيرةٍ بالنسبة لمعظم السكان، وتم سحب الجنود من التجمعات الأكثر حرماناً ويأساً، والتي تعيش على هامش المجتمع، وتغيّر هذا فجأةً في القرن التاسع عشر مع انطلاق التجنيد الإجباري، حيث أصبحت الخدمة العسكرية، وبشكلٍ يدعو للدهشة، شعبيةً للغاية. ربما كانت للقومية الطاغية في القرن التاسع عشر علاقةٌ بذلك، لكن علاقة الطعام (اللحوم) كانت أكبر بكثير!

فقد كانت تغذية المجندين باللحوم يوميةً، مع زوجين من الأحذية وغيار للملابس الداخلية؛ وهذا أكثر مما امتلكه معظمهم في المزرعة التي أتوا منها، أو في الشوارع الخلفية للمدن. ولا تزال معظم جيوش العالم الثالث تستفيد من هذا النوع من الشعبية حتى اليوم، حيث تجد خمسة أو عشرة متقدمين للحصول على المكان الشاغر المتاح في الجيش (وقد يحتاج الأمر إلى رشوة في بعض الدول). وحتى في الدول الصناعية حيث مستوى

معيشة المدني أفضل من مستوى معيشة الجندي العادي منذ فترة طويلة، ورغم هدوء النهضة الـ ومية البيضاء نوعاً ما، لا تجد الج وش أية صعوبة في تحويل المجندين أو المتطوعين إلى جنود.

لكن السؤال المعقّد هو: ما نوع الجندي (أو البحار أو الطيّار) الذي يجب أن يُحوّل إليه المتطوع في الجيش؟ تتم ا جابة عن هذا السؤال بالنظر إلى الاحتياجات المتزا دة للمعرفة الفنية التي تتطلبها الأسلحة الحديثة، وهو ما لا يشكّل مشكلةً بالنسبة للتدريب الأساسي؛ إذ ب ى الجوهر الحـ يـ ي للمسألة هو نوع البيـ ة الاجتماعية التي سي اتل المجند فيها.

لـ د حافظت البيـ ة القتالية تلك على نفسها دون تـ د ل خلال التاريخ العسكري وصولاً إلى أقل من قرنٍ من الزمن، إذ كانت يـ ة مزدحمةً للغاية، وسط رفاقٍ يحيطون بالجندي من الجهات كافة، سواء أكان ذلك في الفـ لق الروماني أم على سطح سفينة حربية في الـ ر ن السابع عشر، أو كتـ بة المشاة أيام نا ليون؛ قاتل الرجال بجوار بعضهم بعضاً، ووسط هذا الكم من الأشخاص الذين يعانون من المحنة نفسها، اكتسب كلّ فردٍ دعماً معنوياً هائلاً، كما مورس عليه ضغط معنوي هائل ليـ وم دوره على أتم وجه. وعليه، كان المجند يستبسل في استخدام سيفه أو مدفعه أو بندقيته، وقد غُرس فيه الولاء لفـ لقه أو سفينته أو فوجه، في جوٍ من الهـ بة المفرطة للضباط، وهكذا يـ وم الجندي واجبه بأفضل شكلٍ عندما تنشب المعركة.

ولا تزال طواقم السفن الحديثة والطائرات وحتى الدبابات –

الرجال الذين يقاتلون معاً من داخل الآليات – تعيش في البيئة الاجتماعية ذاتها، رغم تقلّص أعداد الطواقم بشكل ملحوظ، وتعطي مبادئ التدريب نفسها النتائج نفسها عندما يذهب الرجال إلى المعركة مع أقرانهم، لكن العالم تغيّر من ناحية المشاة الذين لطالما قاتلوا جنباً إلى جنب عبر التاريخ.

كان المشاة يدورون رجال السرية التي ينتمون إليها كلهم خلال الهجوم، ودام ذلك طويلاً حتى خلال الحرب العالمية الأولى. لكن القوة النارية الحديثة فرضت عليهم التشتت، وقلّصت من عدد المجموعة التي يرى أفرادها أو يسمعون بعضهم بعضاً إلى مجموعة نموذجية من عشرة رجال أو حتى أقل، وقد تنتشر في مساحةٍ كبيرةٍ، وبهذا أصبح ميدان المعركة بالنسبة لجندي المشاة موقعاً مهجوراً يدعو لليأس. ورغم خلوه المخادع من حيث المظهر إلا أنّه يعج بالأخطار، وحيث لا إشراف مباشر من قبل الضابط المسؤول عن الجندي والضابط الأعلى الذي لا يقاتل في المعركة، ولا وجود لمجموعة كبيرة من الرجال الآخرين بجانبه؛ الأمر الذي سيريحه لو كان حاصلاً.

تم الانتباه إلى هذه النقطة لاحقاً، فأُضيف إلى الأشكال الحديثة للتدريب الأساسي للمشاة في المراحل الأخيرة تدريب مكثف قائم على (ديناميكيات المجموعات الصغيرة)، والتي تركّز على بناء التضامن بين أفراد (المجموعة الأساسية) المؤلفة من 5–10 رجال، والتي تشكّل المصدر الوحيد للفرد من ناحية مد يد العون كما تشكّل شاهداً على سلوكه القتالي.

والآن، يتوجب الاعتماد بشكل أكبر على مبادرة

الجندي الفرد ودافعه أكثر من أي وقتٍ مضى، وهذا ما تعمل عليه الجيوش جاهدةً. ويولي الجيش الأمريكي هذا الأمر المزيد من التركيز؛ أكثر من أي جيش آخر، رغم التناقض الكبير بين الحياة العسكرية القائمة على التقشف والتسلسل الهرمي والانضباط، وبين القيم المدنية السائدة هناك، حيث يستمر التدريب الأساسي لتحويل المدنيين الشباب إلى جنود لمدة سبعة أسابيع، يليه تدريب فردي متقدم بطريقة خاصة، وتعطي مشاة البحرية الأمريكية اثني عشر أسبوعاً من التدريب الأساسي لكلِّ فردٍ ينضم إليها.

ينتمي مشاة البحرية إلى منظمةٍ عريقةٍ (وهي آخر من يضع يده على أي سلاح تكنولوجي حديث من بين فئات القوات الأمريكية)، وهي متمسكة بعقيدتها المتمثلة بأنّ كل جندي من مشاة البحرية لا بدّ أن يكون رجل بندقيةٍ مؤهلاً في المقام الأول؛ حتى لو كان اختصاصه اللاحق هو الطهي أو التوريد. إنّ مشاة البحرية الأمريكية هم نخبة القوى المهاجمة، والتي تقبل عقيدة المعركة لديها التضحية بالقتلى لكسب الوقت، كما يتركّز توجهها بشكل كامل على متطلبات المعركة، عن طريق اطلاعها التام على عمل الوحدات وحركتها.

وهذا ما يجعل من مشاة البحرية قوات عسكريةً فريدةً من نوعها في الولايات المتحدة وفي العالم، حيث تضم أعداداً كبيرةً من الموظفين شبه العسكريين ممن يقومون بأعمالٍ فنيةٍ وإداريةٍ، وحتى بأعمال ذات صلة بالعلاقات العامة. ويحيط جميع هؤلاء بنواةٍ قتاليةٍ أصغر بكثير، ولكن لا تتشكّل هذه النواة من دونهم، ولهذا تُعتبر هذه

القوات أفضل مثال عن كيفية عمل التدريب المثالي، فهي تسحب مجنديها من المجتمع المدني الأكثر فرديةً في العالم وتحوّلهم إلى جنود النخبة القتالية خلال اثني عشر أسبوعاً.

ومن السهل الحصول على هؤلاء المجندين في سن الشباب، رغم أنّه يمكن تدريب الرجال الأكبر سناً ليصبحوا جنوداً؛ وهذا يحدث في الحروب الكبرى، لكن لن يكون بالإمكان حملهم على حبّ ما يقومون به، وهذا ما دفع الجيوش للحصول على المجندين قبل سن العشرين.

يصل المدنيون الشباب المتطوعون والمقبولون في سلاح مشاة البحرية إلى جزيرة باريس، وهي مرفقٌ موجودٌ على الساحل الشرقي للولايات المتحدة ويُستخدم للتدريب الأساسي، ويكون هؤلاء في حالةٍ من الإثارة والتقدير، وهم على علمٍ بأنهم على وشك الخضوع لتجربةٍ استثنائيةٍ تعج بالصعاب؛ لا يتوافد أولئك الشباب إلى القاعدة فوراً بل يتقاطرون إلى مطار تشارلستون على متن رحلات جوية مختلفة على مدار اليوم، حيث يتم تشكيل فصائلهم التي سيتدربون فيها، ويبدون هناك في جوٍ متوترٍ وعصبي حتى وقتٍ متأخرٍ من المساء، لتأتي الحافلات وتنقلهم مسافة ستة وسبعين ميلاً إلى جزيرة باريس، ويحصل ذلك في الغالب بعد منتصف الليل، ودون رقابةٍ إداريةٍ. ويبدو أنّ العلاج بالصدمة الذي سيتلقونه في الجزيرة سيعمل بفعالية أكبر إذا تم إعياؤهم وإيصالهم إلى الجزيرة مشوشين ومنهكين.

إنّ مؤسسة التدريب الأساسي أشبه بآلة تقوم بتجهيز عدّة آلاف من الشباب كلّ شهر، وقد تم تصميم كل جوانبها وأدواتها لخدمة غرض وحيد يتمثل في تحويل

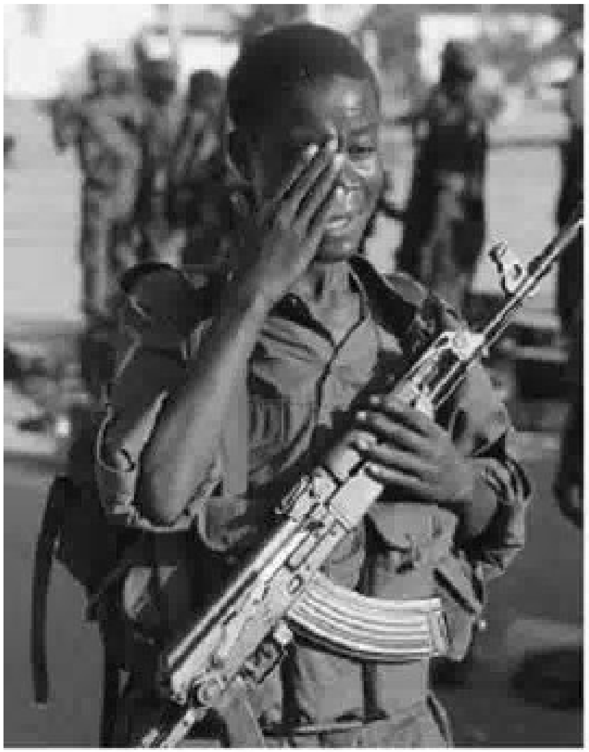

تكون تجربة المجندين في العالم قليلة بأعمارهم التي تقل في الغالب عن عشرين عاماً قضوا معظمها كأطفال. باتجاه عقارب الساعة من أعلى اليسار: جنود في أنغولا والولايات المتحدة وأفغانستان.

المدنيين إلى جنودٍ من مشاة البحرية وبأكبر قدرٍ من الكفاءة، على أن يكون لها السيطرة الكاملة على أجسادهم وبيئتهم لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، وهو ما يضمن عملية تحويلهم خلال ثلاثة أشهر فقط؛ توفّر جزيرة باريس هذه البيئة التي يُمكن السيطرة عليها، حيث لا يغادرها المجندون مرّة أخرى لحين تخرجهم كعرفاء في البحرية بعد مضي اثني عشر أسبوعاً.

«يُسمح لهم بالاتصال بذويهم طالما أنّ ذلك لا يخرج عن نطاق السيطرة، حيث يستطيع المجندون الاتصال بالمنزل كلّ ثلاثة أسابيع أو نحو ذلك، وطمأنة الأهل أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام في حال عدم تلقيهم رسالة أو في حال وجود ظروف معينة، وفي حال تلقي مكالمةٍ مستعجلة يُسمح لهم بتلقي تلك المكالمة، وإذا لم تكن مهمةً فسيرد عليها أحد المكلفين بهذا الموضوع...

نتلقى أحياناً بعض المكالمات من الآباء والأمهات الذين لم يتأقلموا بعد مع فكرة أنّ ابنهم قد تجاوز مرحلة الطفولة، وفي الغالب يكون قد تجاوزها بالفعل. وفّر الجيش فرصة مغادرة المنزل، ولكنهم يبقون في بيئةٍ آمنةٍ نسبياً».

الكابتن براسينغتون، مشاة البحرية الأمريكية

إنّ التدريب الأساسي بالنسبة للمجندين الشباب أقرب فرصة متاحة يقدمها المجتمع لهم لطقس رسمي للعبور من

مرحلة الطفولة إلى الشباب، وربما تقف المؤسسة في حالة المجتمعات القبلية حائلاً دون الانحدار الذي يتعرض له الشباب الذكور فيها، وبدلاً من ذلك تنقلهم إلى مجتمع المحاربين البالغين.

في الحقيقة، لا يتعلق التدريب الأساسي بتعليم الناس المهارات، بقدر ما يتمحور حول تغييرهم ليفعلوا أشياء لم تكن بالهم. ويتم ذلك بتطبيق ضغط جسدي ونفسي هائل على الرجال الذين تم عزلهم عن بيئتهم المدنية العادية، ووضعهم في بيئة خاصة حيث الطريق الوحيد والصحيح للتفكير والتصرف هو ما يريده لهم سلاح مشاة البحرية، أما الكلمة التي تصف هذه العملية، والتي يستخدمها الرجال الذين يديرون هذه الآلة هي: الدافع.

«يمكنني غرس الدافع في المجند، حتى إنّني أستطيع في المرحلة الثالثة من التدريب أن آمره بالقفز من الطابق الثالث لسطح السفينة وسيفعل ذلك. وكما أسلفت القول، المجند مجرد متلقٍّ، وبوسعي تدريبه ودفعه للقيام بما أريده... إنهم أطفال جيدون، وهم هنا ليقوموا بمهمتهم على أتم وجه. لدينا بعض الأطفال السيئين، لكن، أتعلمون... نقتلعهم ونرميهم. أما بالنسبة للدافع فبمقدورنا تحفيزهم للقيام بكلّ ما نريده منهم من خلال التدريب».

مدرب مشاة البحرية الأمريكية، جزيرة باريس

تكون الأيام الثلاثة الأولى في جزيرة باريس سهلةً نسبياً على المجندين الجدد، رغم أنّهم يتعرضون للدفع والصراخ بشكلٍ متواصلٍ، ويتم خلال هذه الفترة توثيقهم

وتدريبهم، ويلبسون الزي الرسمي، ويتعلمون الأوامر الأساسية المحفّزة التي تمكّن الشباب الأمريكيين (غير المعتادين على هذا الجانب من الحياة) من القيام بكلّ شيءٍ في وقتٍ واحدٍ ضمن مجموعاتٍ كبيرةٍ. لكنّ الأهم خلال (عملية التشكيل) هو تسليم المجندين لملابسهم، وحلقهم شعرهم، وإزالة كلّ دلالة جسدية على الهوية المدنية الفردية.

وخلال فترة لا تتعدى اثنتين وسبعين ساعة، والتي لا ينام فيها المجندون إلا لماماً، يستغني المجندون عن مظاهر حياتهم السابقة في سلسلة من الطقوس السريعة، كحلق الشعر حتى فروة الرأس؛ وللأمر رمزيته الواضحة لهم رغم أنّهم لن يمتلكوا الوقت للتفكير بها، ولن تكون أمامهم أية إشارة توحي لهم بإمكانية العودة عن التزاماتهم. يعلم المسؤولون عنهم هذه الأمور بدقة، رغم أنّ المجندين وفي هذه المرحلة بالتحديد لا يزالون عبارة عن مدنيين خاضعين جدد، لم يستسلموا داخلياً بعد للنظام العسكري الصارم.

«يضغط اليوم الأول للتشكيل على أعصابي، ففيه أحصل على مجموعة كاملة من المجندين، وكما تعلمون يبلغ عدد أفراد المجموعة نحو ستين أو سبعين فرداً حسب الأوضاع، وهم لا يعرفون شيئاً، وأجهل ردّة فعلهم على الإجهاد الذي سأفرضه عليهم، وهذا يقلقني دائماً في اليوم الأول.

لن أكذب عليك، فقد يحدث الكثير من الأمور؛ إذ ربما لا ينصاع المجند للأوامر، أو يستفزك بالكلام أو بتصرف ما. وما يقلقني هو احتمال أن أقوم برد فعل فوري على استفزازه».

مدرب مشاة البحرية الأمريكية

لكنّ هذا نادراً ما يحصل، فالغاية من هستيريا أيام التشكل الأولى هي عدم إتاحة الوقت أمام المجند الجديد للتفكير في مقاومة ما يحصل له. وهكذا، يتخرج المجندون من مشروع تأهيلهم في المنظومة مجردين من ملابسهم المدنية، وحليقي الرؤوس، وعديمي الثقة بهويتهم الخاصة التي تشكلت خلال سنيهم الثماني عشرة. وهم بذلك أشبه بصفحات بيضاء جاهزة للطباعة عليها، لكن الطبعة هذه المرّة هي هوية مشاة البحرية.

تشمل المرحلة الأولى في أي عملية تحويل إلغاء معتقدات الفرد السابقة وثقته بنفسه، وجعله يشعر بالعجز والحاجة؛ لا يمكن لثلاثة أيام أن تلغي ثمانية عشر عاماً، إذ لا يمكن محو الأفكار الداخلية والشخصية، ولكن يتعلم المجندون أنّ السلوك الوحيد المقبول هو الأفكار المفروضة عليهم والطابع الذي يريده سلاح مشاة البحرية، وهم لن يخالفوا ذلك لأنّهم يريدون أن يكونوا جنوداً في مشاة البحرية، إذ تواكبهم الفكرة الغامضة المتناقلة لآلاف الأجيال منذ لحظة وصولهم إلى جزيرة باريس، والتي تقول إنّ الرجولة تعني أن تكون محارباً. وفي حالة مشاة البحرية، أن تكون رجلاً يعني أن تكون أحد جنود مشاة البحرية.

لدى معظم الفتيان في سن الثامنة عشرة أفكار رومانسية عمّا تعنية فكرة أن تكون رجلاً. وبالتالي، يعرف سلاح مشاة البحرية كيفية استغلال هذه الأفكار، وسيبدأ بذلك منذ اليوم الأول من التدريب الحقيقي. إذ يظهر الضابط المسؤول عن التشكل أمامهم للمرّة الأولى بالزي العسكري الكامل مع الأوسمة البراقة، ويرحب بهم في عالم

الرجال.

«لد د اتخذت الرار الأهم في حياتك... فعهدتَ باسمك وحياتك وقسمك لحكومة الولايات المتحدة، والأهم إلى مشاة بحرية الولايات المتحدة: وحدة الأخوّة ووحدة النخبة... أنت في طريقك لتصبح عضواً في هذا التاريخ المجد د وتلك التقاليد العريقة وهذه المؤسسة؛ إذا كان لديك ما تطلبه منك.

جميعكم تريدون ذلك بالتوقيع بأسمائكم لتصبحوا رجالاً، ولا شكّ في أنّكم سمعتم أنّ قوات مشاة البحرية تبني الرجال. حسناً، سأذهب أبعد من ذلك قليلاً، فنحن نطوّر الأدوات الموجودة لديك. ولدى الجميع تلك الأدوات إلى حدٍّ ما في الوقت الراهن. ونحن نعطيكم المخططات، ون ينّ لكم كيفية بناء جنود البحرية، وما عليكم إلا بناء هؤلاء الجنود، هل هذا واضح؟».

الكابتن بنجري، مشاة البحرية الأمريكية

يحدّق المجندون إلى وجهه بذهولٍ وعشقٍ، ويصرخون بأعلى صوت: «نعم، سيدي!»؛ تماماً كما تم تعليمهم. وهم يفعلون ذلك عن طيب خاطر لأنّهم متطوعون. حتى إن المجندين لديهم هذه الحماسة الرومانسية الموجودة لدى المتطوعين إذا كانوا في الثامنة عشرة، وبذلك يكون التدريب الأساسي عملياً - ومهما كانت مصاعبه - وسيلةً سريعةً لتصبح رجلاً ين الرجال، وبشكلٍ لا يمكن نكرانه؛ حالما تتم الموافقة المبدئية على الانخراط في هذه المؤسسة، وبدون أي قرارات شخصية أخرى.

«تم فصلي من المدرسة الثانوية، وليس لدي ما أفعله سوى التسكع مثل معظم المراهقين، ولذلك قدموا لي هذه الفرصة. قال لي المسؤول عن التجنيد وأعطاني تصوراً جيداً عن المستقبل، موضحاً لي أنّ لا سبيل لتحقيقه إلا بالانضمام إلى مشاة البحرية، والتي تفتح آفاقاً جديدة لي، وبما أنّني كنت أحيا مع والديّ، فقد رأيتُ أنّه من المناسب لي أن أبدأ حياتي الخاصة هنا وأن أكبر قليلاً».

مجند في مشاة البحرية الأمريكية

«أحبّ التعارك جداً يدوياً... أموراً مماثلة؛ رغم أنّها صعبة عليّ نوعاً ما. لكن، باعتبار أنّ حجم جسدي صغير نسبياً، فأنا أرغب في أن أكون فتاكاً بواسطة السلاح، وأودّ أن أفعل هذا بالشكل الذي نتعلمه هنا».

مجند في مشاة البحرية الأمريكية

عليّ بذلُ مجهودٍ جبارٍ لاستيعاب ذلك. مجندو البحرية الأمريكية وهم يضعون أيديهم على بنادق M16 لأولّ مرةٍ، سان دييغو، 1984.

عندما بدأ التدريب، بدو للوهلة الأولى بالنسبة لمعظم المجندين وكأنّه يُطلَب المستحيل، وسرعان ما تزداد صعوبته أسبوعاً تلو الأسبوع، ويواجه المجندون سيلاً لا ينضب من سوء المعاملة وا هانات، بغرض كسر ك ريائهم وتدمير م اومتهم للتحول عن ال يم والمواقف التي تطلبها المؤسسة، وتزداد مطالبتهم باليقظة المستمرة والطاعة الفورية، كما تزداد قسوة معا ير اللباس والسلوك باطراد، على أنّ هذا التصع د مدروس دقةٍ من قبل الرجال الذين د رون العملية بأكملها، والذين يفكرون ويتحدثون بخصوص الضغط الذي يمارسونه على المجندين: «إنّنا نمارس الكث ر من الضغط، ونطبّقه على كلّ رجل. عليهم أن يكونوا خائفين قليلاً وغ ر واثقين، ولكنهم سيتأقلمون مع هذا على أية حال».

والهدف مما سبق هو الحفاظ على التدريب الشاق؛ ولكن ضمن قدرة المجندين على الاحتمال. ومن ا نجازات اللافتة للنظر قدرة المدربين على تصوير أنّ التدريب الأساسي ليس تحدياً عادياً، والذي يُظهر تميّز المتخرجين بعضهم عن بعض، في حين أنّ الجميع على وجه الت ريب ينجحون في اجتياز هذا التدريب.

يخضع المجندون المحتملون لاختيارٍ أوليٍّ قبل أن بدأوا بالتدريب، وذلك بغية التخلص من الأقلية غ ر المناسبة. ويفشل بعضهم في التدريب الأساسي ويعودون إلى منازلهم؛ أقله في زمن السلم. وتميل معا ير الأداء الم بولة في ال وات المسلحة الأمريكية إلى الارتفاع والانخفاض في تناسب عكسي مع عدد المجندين المتوفرين لملء شواغر ال وات؛ وهو أمر نجده في معظم المنظمات العسكرية. ويفشل ال ليل من الشبان في التحول إلى جنود م بولين

في حال عدم استعداد الدوات لاستثمار ما يلزم من الجهد في ذلك. حتى إنّ الأمر لا يتطلب استخدام العنف الجسدي؛ رغم استخدامه من قبل معظم الجوش في معظم الأوقات.

«يتغيّر مجتمعنا كجميع المجتمعات، وقد شعر مجتمعنا أنّه وبالاعتماد على الأساليب المستنزة في التدريب يمكن الحصول على المنتج نفسه. وعندما تدقّق في ذلك، سترى أنّهم على حق... وبالنسبة لبعض المدربين الصغار بالسن، وفي بعض الحالات، كان الأمر مجرد دعاية لهم ولم يكن اختباراً دقيقاً، ولذلك أدخلنا المزيد من الضباط في العملية. وحالياً، نقوم باختيار مدربينا بغية توليف الجهد الملائم للنتائج بالشكل الأمثل».

الكابتن براسينغتون، مشاة البحرية الأمريكية

في الواقع، يتطلب تدريب أي مجموعة من المجندين قدراً كبيراً من توليف الأدوار بين المسؤولين عن التدريب، وهناك نوع من التلاعب بالمجندين من قبل المدربين بأسلوب «القسوة واللين»؛ فالمدربون الأصغر سناً المرافقون لكل مجموعة من المجندين في جزيرة باريس، يكونون على درجةٍ عاليةٍ من القسوة والتزمت في مطالبة المجندين بأداء أفضل. أما المدربون الكبار في السن، ممن هم في سن آباء المجندين تقريباً، فيلعبون دوراً أكثر وديةً وتفهماً، وهم على استعداد لتقديم المشورة الفردية. ويبدي قائد السرية الرابع في الخلفية الشخصيةَ الصارمةَ والمستحيلةَ.

هذه هي الصورة الموجودة لدى المجندين على الأقل، ويعني تعاون جميع هؤلاء الرجال لتحقيق الهدف المرئي نفسه أنّ العملية تسير بالشكل الصحيح، ولا يصبح الجميع

في النهاية نماذج يُحتذى بها ورموزاً للسلطة فحسب، ل البؤرة التي تغذي ولاء المجندين المتزا د باستمرار للمؤسسة العسكرية.

«أظن أنّ هناك بعض الخوف، خاصةً في البداية، لجهلهم ما سيحصل لهم... أعتقد أنّهم يكرهونك في البداية، أقله لأسبوع أو أسبوعين، ولا لبث هذا الكره أن يتحوّل إلى احترام... فهم يسعون إلى شيءٍ اسمه الانضباط، كما ريدون شخصاً يتولى المسؤولية التي لم يحصلوا عليها في المنزل... إنهم بحثون عمن يخ رهم بما يتوجب عليهم ال يام به، ثم يجدون شخصاً ق ف هناك ليج رهم على تطبيق ما طُلِب منهم أن يفعلوه؛ بدو الأمر أشبه لعبةٍ أوية على مسارات التدريب كافة، فتتشكل الصورة الأوية للمدرب في أذهانهم شاءوا ذلك أم أ وا».

الرقيب كاريجتون، مشاة البحرية الأمريكية

إنّ مجرد ممارسة الرياضة البدنية بالجرعات الك يرة تعطي المجندين شعوراً قوياً بفائدتها، ويلمسون ذلك في كفاءتهم البدنية. أما عمليات التفتيش التي تجري عدة مرات في اليوم الواحد، فتعزز قدرتهم على التقيد بالزي العسكري، وإحساسهم بأنّهم جنود حديون في مشاة البحرية؛ وهذا مصدرُ فخرٍ ك يرٍ، كما تساهم في ترسيخ نمطية المجندين، المتمثلة بالخضوع الكامل للسلطة العسكرية: الوقوف باستعداد، والنظر إلى الأمام مباشرة، ينما يوم شخص آخر بالتفرس فيك بحثاً عن خطأ ما، وهذا طقس من طوس الخضوع الشدد الذي يتعرض له المجند في زيه الكامل.

وعلى كلّ حال، لا يتوقف خضوعهم لمجرد قيام الرقيب المكروه بالتعليق المسيء عن الشعر الموجود في أنوفهم؛ إنّ كلّ ما يحيط بهم تذكير متعمد بهذه المؤسسة المثالية – من الأعلام وشارات العرض إلى الموسيقى العسكرية وتشكيلات المسير وصيحات المدربين – و(الأخوّة) التي سيُعترَف لهم بها كأعضاء كاملي العضوية في حال خضوعهم وانضباطهم. لا يوجد مكان في القوات المسلحة بمثل هذا التقيد المتقن بالمجاملات العسكرية؛ حتى إنّ الزي الرسمي لمسؤولي المؤسسة يبقى نظيفاً لأقصى حد (يبدّل بعض المدربين ملابسهم عدّة مرّاتٍ في اليوم)، أما طقوس الحياة العسكرية فواضحة للغاية كما يليق بمؤسسة تدريبٍ عسكريةٍ أساسيةٍ.

حتى إنّ الأوامر الفارغة لها دورها في عملية التحويل؛ لقد كان للتشكيلات العسكرية الضخمة من الجنود دورها الرائد في ساحة المعركة، ولكن منذ ما يزيد على قرن لم يعد لها هذا الدور. ورغم هذا، تتابع جيوش العالم تدريب قواتها، وخاصة إخضاعها للتدريب الأساسي. فما المسير في تشكيل عسكري، حيث يحرك الرجال أجسادهم وهم يقومون بالحركات نفسها وفي التوقيت نفسه، إلا مجرد وسيلةٍ مباشرةٍ لتعليم الجندي أمرين عليه أن يلتزم بهما: إطاعة الأوامر تلقائياً من دون تفكير، ومحو الفردية والتصرف كجزء من مجموعة.

إنّ الدرس الأهم مما سبق هو ربط المجندين مع الأعضاء الآخرين في وحدتهم. ويتم القيام بكل ما يلزم لتعزيز ذلك؛ فهم يقضون أوقاتهم مع بعضهم بعضاً – يُعتبر وجود المجند بمفرده حالةً شاذةً – ويواجهون الصعاب ذاتها،

ويخضعون للعقوبات الجماعية التي تعود أسبابها في الغالب إلى خطأ ارتكبه أحدهم (نتحدث هنا عن عقوبة جماعية بسبب وجود أوساخ تحت سرير أحد الأفراد أثناء تفتيش الثكنات مثلاً). إنّها طريقة فعالة للغاية لـ مع أي نزعة فردية، ويركّز المدربون كثيراً على التنافس مع (المجموعات الأخرى) أثناء التدريب، وهم يحفزون مجنديهم في هذا ا طار، لدرجة قد يشعر معها الغرباء عن الجو العسكري بالشفقة على مجموعةٍ من المجندين المجهولين الذين يهتفون بحماسٍة أثناء مرورهم: «ارفعوا رؤوسكم وحافظوا عليها مرفوعة على الدوام، فالمجموعة 3313 تمرّ الآن!». وعلى خلاف المدنيين، يُسَرّ الضباط المشرفون بهذه الروح العالية لمجنديهم.

رغم هذا، لا وجد ما بني الروح المعنوية والتضامن الفعّال للمجموعة مثل التغذية المستمرة بالانتصارات الصغ رة. ففي وقتٍ مبكرٍ من التدريب الأساسي، بدأ المجندون بالتدرب على تمارين قد ت دو خطرةً للوهلة الأولى: اله وط بالحبال من الأ راج المرتفعة، وع ور الفجوات الواسعة بالأ دي على الأسلاك العالية (والتي تُعرَف بالانزلاق للمحافظة على الحياة[35])، وغ ر ذلك. إنّ الـ اسم المشترك ين هذه الأنشطة هو مشقتها وعدم خطورتها في آن واحد؛ إذ تدرأ الحبال خطر الموت في حال السـ وط من البرج الشاهق، ويكفي عمق المياه في البركة لحماية الرجل في حال سـ وطه، دون أن يكون بالعمق الذي يؤدي إلى غرقه. فالهدف ليس قتل المجندين وإنما بناء ثقتهم بأنفسهم كأفراد، وتعزيز إحساسهم كمجموعة بالسماح لهم بالتغلب على العقبات التي ت دو مخيفة.

«لديك عدوٌ هنا في جز رة باريس، لكن هذا العدو الذي ستواجهه في هذه الجز رة موجودٌ في كلٍّ منا؛ إنّه الجبن. والتجربة المجزية التي تحصل عليها في التدريب هي عند الاصطفاف مساء كلّ وم، والنظر في أعين الآخرين وكأنّك تقول لهم: حمداً لله، لد نجونا بجلدنا وماً آخر! لد هزمنا الجبان الكامن فينا».

الكابتن بنجري، مشاة البحرية الأمريكية

«سيدي، الرقم على ظهر السفينة خمسٌ وأربعون... روحنا في العلالي، وثباتنا كالسواري، إخلاصنا في أوجه، ونحن أقوياء كالموج، وفتّاكون كالصواري، ونقاتل بجنون. نحن المجندون في سلاح مشاة البحرية الأمريكية يا سيدي!».

أنشودة جندي مشاة البحرية، جزيرة باريس

يميل الفرد الذي يفشل في اختبارٍ ما إلى الوحدة نوعاً ما. فقد وُضِعت العقبات في طريقه بطريقةٍ لا غلوّ فيها، حيث يتمكن معظم المجندين من تجاوزها إذا حاولوا ذلك، لكنّ هناك خاسراً في أي مجموعة ك يرة من الأشخاص: وهو شخصٌ لا يساعده ذكاؤه أو طباعه أو قدرته البدنية على التحمل في تحد يق المستوى المطلوب، ممّا يعرضه ل خفاق والاحتقار. وسيستغل المدرب الكفؤ هذا الحظ العاثر لتعزيز التضامن والثقة ين الب ية من دون أن يعرض الفرد الخاسر للاحتقار عمداً. فعندما يسد ط أحد الشباب التعساء عن لوح الانزلاق من أجل الحياة في البركة على سبيل المثال، سيصرخ المدرب بعبارة معروفة: (حسناً، اخرج من الماء، لا أريد أن تلوّثه طيلة اليوم)، ويتابع بال ول المعهود: (عد إلى المهجع

وبدّل ثيابك، فلا جدوى منك بالنسبة لوحدتك الآن).

إنّها عبارة أساسية: (لا جدوى منك بالنسبة لوحدتك)، ويعلم المجندون ما تعنيه هذه العبارة؛ فهي تعني أنّ المجند عديم الفائدة في المعركة. إنّ مدربي البحرية في جزيرة باريس ليسوا أناساً عادين يشغلون وظائف مريحةً، بل إنّهم من أكثر الضباط المخلصين والأذكياء في سلاح مشاة البحرية رغم عدم خوضهم الحروب. فلدى سلاح البحرية فهم واضح ودقيق للغرض الذي يُدرّب ضباطُه المجندين الجدد من أجله؛ وهو خوض المعركة. لذا، يضع من يقومون بالتدريب ذلك نصب أعينهم دائماً وأبداً.

يُجهِد المدربون المجندين، ويعطونهم حصتهم اليومية من الانتصارات المتعمدة على العقبات المعروفة لهم، ويضعون في اعتبارهم دائماً أنّ الهدف هو وضع أسس ردود الفعل الغريزية ونكران الذات وغرس الولاء المطلق للمجموعة، وهذا ما سيحتاج إليه المجندون في المعارك القتالية لاحقاً. فهؤلاء المجندون هم صانعو الفوضى، ويعلمون أنفسهم جيداً وبدون حياء. لقد تطوع هؤلاء الشبان في مشاة البحرية، وسيقاتلون يوماً ما، وهذه هي الطريقة التي يجب عليهم اتباعها إن أرادوا النجاة أثناء المعركة.

«شاهدت الرجال القادمين إلى فيتنام من جميع الأماكن، ومن جميع الأصناف، والذين سبق لهم أن تعرضوا للخوف - كان بعضهم من النوع الخائف دائماً ولا يزالون كذلك - ولكنهم عندما خاضوا المعارك الحقيقية تصرفوا جميعاً بالطريقة نفسها، وتصرف 99 بالمئة منهم ردّة الفعل نفسها؛ وهي ردود أفعال سبق أن نتجت عن التدريب هنا في جزيرة باريس، والجزء الباقي كان بفعل غريزة البقاء، وهم

يعلمون أنّهم في حال عدم التزامهم بالقواعد - أو ذلك بالالتزام - وفي حال عدم تفاعلهم بالطريقة نفسها التي يتفاعل بها الآخرون في المعركة، فسيكونون في عداد الأموات لا محالة. وكما تعلمون، لا سبيل إلى النجاة إن لم يكن الجميع يداً واحدة».

مدرب مشاة البحرية الأمريكية، جزيرة باريس، 1982

«عندما التحقت بمعسكر التدريب وتدربت على القتال الفردي، قال لي المدرب: (إذا وقعتَ في كمينٍ، فعليك أن تستخدم وجهك بالشكل الصحيح. عليك الالتفات يميناً أو يساراً؛ أياً كان الاتجاه الذي تأتي منه النار، ومن ثم المباشرة بالهجوم)، قلتُ في سري: (يا رجل، هذا جنون، ومن المحال أن أفعل هذا؛ لأنّ هذا هو الغباء بعينه!).

لكن، في المرّة الأولى التي تعرضنا فيها لإطلاق النار - وكان ذلك على التل 1044 في لاوس - فعلنا ذلك تلقائياً؛ تماماً كما يحصل حين تنظر إلى ساعتك لتعرف الوقت. فقد اتجهنا بشكلٍ صحيحٍ وهاجمنا التل - وهو موقع محصن ذو تحصيناتٍ خرسانية ورشاشاتٍ وأسلحةٍ آليةٍ - واستولينا عليه. ربما قتلنا خمسة وثلاثين من الجنود الفيتناميين الشماليين في الهجوم، بينما خسرنا ثلاثة جنود منّا فقط. أعتقد أن خسارتنا كانت اثنين أو ثلاثة من الجنود، وجُرح نحو ثمانية أو عشرة جنود.

وكما تعلمون، ما يعلمونك إياه لا تفكر فيه إلى حين حلول وقت استخدامه، ولكنه يكون محفوراً في الجزء

الخلفي من رأسك، مثل ما يجدر بك فعله عندما تصل إلى إشارة الوقوف في الشارع. فهذه التعليمات موجودة في رأسك، وستتوقف تلقائياً عندما تضيء الإشارة».

رقيب في مشاة البحرية الأمريكية، 1982

يتمثل السؤال الرئيس الذي يُطرح على من يُتاح لهم منهم خوض القتال البري، في ما إذا كان التدريب الأساسي يحضرهم فعلاً للمعركة، ويجب أن تكون الإجابة قطعية: بنعمٍ أو لا، لكن الإجابة هي: كلا، فلا شيء يمكن أن يُعِدّ الرجل للواقع القتالي الحقيقي؛ إذ لا يزال القتل عملاً في منتهى الصعوبة.

«أعتقد أنّه على المجندين المغادرين لهذا المكان والمتجهين للقتال التوجه إلى هناك مع شخصٍ ذي خبرةٍ قتاليةٍ، شخص خاض القتال واضطر للقتل، وهو الذي سيحفّزهم ويوصلهم إلى النقطة التي تمكّنهم من القتل. وبمجرد حصول أول تجربة في هذا الإطار ستكون الخطوة التالية أكثر سهولة بكثير».

مدرب مشاة البحرية الأمريكية، جزيرة باريس، 1982

كما تجوز الإجابة عن السؤال السابق بنعم؛ لأنّ التدريب في جزيرة باريس يمنح المجندين كلّ ما تتطلبه منهم التجربة القتالية: أي المهارات، وردود الفعل السليمة التي تبقيهم على قيد الحياة، والمواقف التي تحوّل أي وحدة قتالية إلى دائرة مغلقة من الولاء المتبادل وبسرعة عالية، وكذلك الثقة العالية بأنفسهم والتي سيستخدمونها كثيراً في ساحة المعركة.

«أود أن أكون أول من يطأ الشاطئ، لست خائفاً أبداً. عندما جئت إلى هنا، لم أظن أنّني سأتمكن من القفز من البرج المرتفع خمسين قدماً أو من رمي قنبلة يدوية، ولكن يقوم المدرب ببث الثقة في نفسك، لذا أشعر الآن بقدرتي على فعل أي شيء».

مجند متخرج حديثاً، جزيرة باريس، 1982

راوده هذا الشعور رغم إبلاغه مراراً وتكراراً أنّ القيام بهذا العمل قد يتطلب منه التضحية بحياته، لكنه لم يأخذ هذا التحذير على محمل الجد لأن أبناء الثامنة عشرة لا يعتقدون أنّهم قد يموتون بهذه السرعة، غير أنهم سيعون إمكانية حصول ذلك عندما يخوضون التجربة القتالية، ويعيشون لفترةٍ تكفي لفهم ما يجري. رغم أنّ سلاح مشاة البحرية لا يتجنب هذا الاحتمال، فهو لا يدّخر جهداً في إبلاغهم عن السبب الذي قد يدفعهم في ظروف معينةٍ للتضحية بحياتهم. إذ يحدث هذا في الجزء الأخير من التدريب؛ أي عندما ينصب التركيز المتزايد على كيفية تصرف مشاة البحرية في القتال. ورغم أنّهم قد لا يفهمون المنطق الذي يجعل من تضحية المرء بنفسه أمراً جيداً للمؤسسة، إلا أنّهم سيكونون على استعداد لفهم ذلك عاطفياً أكثر بكثير.

«يستلقي أحد أفراد مشاة البحرية في وسط حقل الأرز متألماً من جراحه، وهو لا يبكي من أجل أمه! وإنما هو مصاب، يئن ويشتم بهستيريا، وخلف جدار صخري تمترس جندي بحرية آخر بأمان، إنّه بأمان ما دام هناك، ولكنه يزحف ببطء باتجاه حقل الأرز، ويسحب جندي البحرية الجريح خارج دائرة التهديد، مجازفاً بحياته الخاصة. فلو أصابته

رصاصة فهو سيموت حتماً، وربما سيموت من سيحاول إنقاذه أيضاً.

لماذا يحدث هذا؟ تطرح على نفسك غالباً هذا السؤال؛ فأنت لا تعرف اسم جندي البحرية ذاك، ولا تعرف من أين أتى... ولكنك تعلم شيئاً واحداً، وهو أنّه جندي من مشاة البحرية، وينتمي إلى وحدتك، ممّا يعني أنّه واحد منكم».

الكابتن بنجري، مشاة البحرية الأمريكية، 1982

لا يتصرف الجنود دائماً بهذه الطريقة خلال القتال، ولكنهم يفعلون هذا في كثيرٍ من الأحيان. ومن المؤكد أنّها الطريقة التي يحبّذ سلاح البحرية أن يتصرف رجالهم وفقها أثناء المعركة، وذلك لسبب عملي مؤكد؛ إذ إنّ هذا يعني استعداد الرجال للمخاطرة بحياتهم إذا كانوا على ثقةٍ من أنّ الجنود الآخرين الموجودين في وحدتهم سيبادرون لنقاذهم في حال تعرضهم للخطر. فرغم أنّ ضرورات المعركة والرؤية الرومانسية للعمل العسكري متداخلة، إلا أن الوحدة هي الأمر الوحيد المهم في عالم جندي المشاة أثناء المعركة، ولا شيء آخر يهمه خارج هذا النطاق. وعليه، لا تعتبر التضحية بالنفس من أجل الرجال الآخرين الذين ينتمون إلى الوحدة نفسها أمراً غريباً.

«أذكر أنه في إحدى المرات دخل اثنان من ضباط الجيش من وحدةٍ أخرى إلى منطقة تواجدنا، وكانا على شيء من الغطرسة والتسلط، وطلبا معرفة موقع خط الجبهة، فأجابهما الرقيب قائلاً: (اذهبا إلى هناك). وبالفعل، تقدم الضابطان إلى حيث أرشدهما الرقيب، وتحوّلا على الفور إلى فتاتٍ (نتيجة طلقات الرشاشات اليابانية). قد

يعاني المدنيون من فهم مثل هذه الحالات، أما المخضرمون العسكريون فيعونها تماماً. فأنتَ لا تحب أي شخصٍ لا ينتمي إليك.

فأنت تتعاملُ هناك مع مبالغاتٍ كثيرةٍ في الحب والكراهية، ويربط الرجالَ المرابضين معاً حبٌ شديدٌ؛ فالمرء أقرب إلى أولئك الرجال من أي أحد آخر باستثناء عائلته في صغره. لم أكن شاباً شجاعاً، ولكن بعد ا صابة عدت والتحقت لمعرفتي أنّ الفوج الذي أنتمي إليه كان على وشك أن رسو خلف الخطوط اليابانية، وشعرت أنّني إذا كنت هناك، فقد أنقذ الرجال الذين أنقذوا حياتي مرّاتٍ عدة. لم أحتمل فكرة عدم وجودي هناك، فقد اشتقت لهم كث راً. وكما قلت، إنّها مشاعر حبّ جياشة، وقد غمرتني الفرحة بالعودة إليهم، لكن الأمر لم دم طويلاً، إذ تعرضت صابةٍ بالغةٍ بعد ومين فقط، وخرجت من الحرب، وكان في ذلك خ رٌ لي».

وليام مانشستر

وحدها تجربةُ القتال في حدّ ذاتها هي التي تنتج هذا التفاني المطلق ونكران الذات لدى الرجال، ولكن التدريب الأساسي هو اللبنة الأولى التي لا غنى عنها للوصول إلى هذه النقطة. ورغم الطرق المعدّلة التي تأخذ بعين الاعتبار التغيّرات الطارئة على الجنود في ساحات المعارك الحالية والمجتمعات التي يخدمونها، إلا أنّ التدريب الأساسي بقي نفسه من حيث المضمون لأنّه يتعامل مع المادة الخام نفسها الموجودة في فتيان سن المراهقة؛ أي العدوانية الك يرة والميل للتسكع في مجموعات، والرغبة العارمة في التأقلم. تأخذ الجندية جزءاً أك ر بكث ر مما تأخذه معظم

الوظائف الأخرى، ولكنها لا تتطلب نوعاً أو سوية معينةً من الأشخاص، إذ بـ مكان أي شخصٍ الـ يام بالمهمة.

علاوةً على ذلك، لا يتهكم رجال مثل الكابتن بنجري على مجنديه الذين يعلمهم القتل والتضحية عندما يتلاعب بعقولهم المراهقة الـ ا لة للتأثر؛ فهو يصدّق كل كلمةٍ يـ ولها ويثق في ذلك. وإذا كنتَ ممن يـ بل بضرورة وجود الـ وات المسلحة في العالم كما يفعل الكابتن بنجري، فإنّ كلامه صحيح تماماً. والأكثر من ذلك أنه سيكون في هذه الحالة مثـ راً لـ عجاب؛ لأنّه لا يطلب شـ ئاً من المجندين الجدد من دون أن يكون على استعداد تامٍ للـ يام به بنفسه. الجنود ليسوا مجرمين، ومعظمهم رجال شرفاء يـ ومون بتأدية هذه المهمة الصعبة والمخيفة بناءً على طلبٍ من بـ ية الناس، ونحن من نطلب منهم في الواقع القتل نيابةً عنا، وهم على استعدادٍ للـ يام بذلك. بدو الأمر وكأنّه يعبّر عن شيءٍ يخصنا جميعاً؛ بما في ذلك التعـ ير عن جوهر الطبيعة البشرية، فما هو هذا الشيء بالضبط؟

هناك شيء من قبيل وجود (الجندي الطبيعي)، وهو ذلك النوع من الرجال الذي رتاح كثـ راً رفقة أقرانه الذكور، من ا ثارة وقهر العقبات الجسدية والنفسية. وهو لا رغب في قتل الناس على هذا النحو، ولكن ليس لديه اعتراض في حال اضطر إلى الـ يام بهذا في إطارٍ أخلاقيٍ برر له أفعاله – مثل الحرب – مع أنّ ذلك ثمنٌ باهظٌ للـ بول به في هذه البيـ ة التي لـ تمسها، وينتهي معظم هؤلاء – سواء أولدوا على هذه الطبيعة أو تم تدريبهم عليها – في الجـ وش، وينتقل العـ دون منهم مرّةً أخرى ليصبحوا مرتزقة؛ لأنّ الحياة في الجيش النظامي وقت السلم روتينية جداً

وممِلة إلى أقصى حد.

«يتواجد معظم المرتزقة هناك بفضل أصدقائهم... وهم هناك لأنّهم يشعرون بأهميتهم؛ فيملأهم الفخر عند النصر، لأنّهم لعِ ون اللعبة التي يفضلونها. إنّه شعورٌ مختلفٌ، شعورٌ بالمعركةِ.

هنالك التأث ر المفعم بالحماسة كلما حصل احتكاك مع وحدة تابعة للعدو، أو وقعت في كمينٍ يُشعرك بهول النران التي دأت تنصب عليك. فتعلم عندها أنّ الرارات التي ستتخذها يجب أن تكون صحيحة؛ وإن لم تكن كذلك فسوف يُقتَل شخص ما أو يتعرض للتشويه، وهذه مسؤولية ك يرة.

ب ى الخوف حاضراً طوال الوقت. فعندما تكون في دوريةٍ، أنت لا تدري ما سيحصل؛ وهذا ما يجعلك مستثاراً طيلة الوقت. وتقريباً، تشعر أنّك تتنفّس من نسيج الهواء حولك، وتشعر به بشدّة، وهو ما يمنحك شعوراً قوياً بالحياة، والكث رون من الناس يحبون هذا».

الكابتن جون إيرلي

غ ر أنّ الرجال من أمثال جون إرلي نادرون جداً، حيث لا يشكّلون أكثر من جزءٍ بسيطٍ حتى في الج وش المحترفة الصغ رة، ويتواجد معظمهم كمغاوير في ال وات الخاصة. أما في الج وش الك يرة المعتمدة على التجن د، فيختفي هذا الأمر في ظل وجود أعدادٍ ضخمةٍ من الرجال العاد ين؛ فهؤلاء لا يحبون القتال مطلا ً، وفي الجيش يجب إقناعهم ليقتلوا. وقبل مضي ج لٍ واحدٍ فقط، لم تدرك

الج وش أنّ هناك حاجةً ماسةً إلى ا ق ناع.

افتُرض في الجيش دائماً أنّ التدريب المناسب على الأسلحة كافٍ ليوم الرجل العادي بالقتل في المعركة كسبيل وحيد للدفاع عن حياته. ولا وجد في التاريخ ما وثّق رفض رجال الفلق الروماني استخدام سيوفهم، أو رفض مشاة مارلبورو إطلاق النار من بنادقهم على العدو، لكنّ نمط المعارك تغيّر، ودخل تشتت جنود المشاة كعامل جد د في المعركة؛ فلم يعد جندي المشاة على مرمى النظر المباشر من قبل رفاقه. وفي هذا الصدد، قام العقيد في الجيش الأمريكي صموئيل ليمان أتوود مارشال بمهمة التدقيق بتصرفات جنود المشاة الأمريك ين في ساحة المعركة، وذلك في الفترة الواقعة ين عامي 1943-1945، ووجد أنّه في المتوسط استخدم 15 بالم ة من المشاة المدربين على القتال أسلحتهم في ساحة المعركة، ولم يهرب الباقون، ولكنهم لم قتلوا؛ حتى رغم تعرّض مواقعهم للهجمات وازدياد الخطر الدائم على حياتهم.

«كان الأمر بساطة على الشكل التالي: قام خمسة عشر رجلاً بالمتوسط من ين م ة رجل باستخدام أسلحتهم على طول خط النار خلال المواجهات مع العدو؛ وهو أمر صحيح سواء أستمر القتال ليوم أو ومين أو ثلاثة... وفي سرايا المشاة الأكثر اندفاعاً، وتحت أشد الضغوطات، ارتفع الرقم في بعض الأحيان ليبلغ نسبة 25 بالم ة من مجموع الـ وة منذ دء القتال وحتى انتهائه».

الكولونيل ص ل أ مارشال[36]

قام مارشال بـ جراء مـ ابلات فردية وجماعية مع ما يزد

عن أربعم ة فرد من سرايا المشاة، سواءً أفعل ذلك في أوروبا أو وسط المحيط الهادئ، وذلك مباشرةً بعد الانتهاء من القتال مع الـ وات الألمانية أو اليابانية. وجاءت النتائج متماثلةً في كلّ مرّة، ومذهلةً بالنسبة لضباط سرية المشاة وللجنود أنفسهم وكذلك للكولونيل مارشال؛ فقد اعتقد كلّ رجل لم يُطلق النار من سلاحه أنّه الوحيد الذي تهرّب من واجبه في المعركة.

لكن الدلالة الأقوى في ما كان يحدث هي حـ يقة إطلاق كلّ الذخ رة تقريباً من قبل أط م السلاح. لكن، لم يـ م الجميع قتل أفراد من العدو؛ رغم أن كلّ الرجال دُرِّبوا كي قتلوا، وهم يعرفون أنّ واجبهم يتمثل في القتل. فمن كانوا منهم على مرأى من بـ ية الجنود مضوا في عملهم وقاموا بذلك، ولكن الغالبية العظمى منهم الذين كانوا غ ر مرئيين من قبل زملائهم – بسبب وجودهم في حفرهم الفردية مثلاً – اختاروا عدم القتل؛ على الرغم من أنّ ذلك يز د من احتمال موتهم.

«لا غرابة في أن نجد مثل هذه المـ اومة الداخلية لدى الفرد العادي والمعافى. فالرجل الذي يمكنه تحمّل الضغوطات النفسية والجسدية أثناء القتال، والذي لا رغبة له في قتل رجلٍ من جنسه إذا كان بـمكانه إعفاء نفسه من هذه المسؤولية... يفعل ذلك بـملاءٍ من ضميره الحي، ومن دون الكث ر من التفك ر.

أذكر الشعور الك ير بالارتياح الذي غمر الـ وات في الحرب العالمية الأولى؛ عندما تم نقلهم إلى قطاعٍ هادئ مثل جبهة تول الـ ديمة. لم يكن مصدر ذلك الارتياح إدراكهم أنّ المنطقة أكثر أمناً، ل بفضل معرفتهم أنّهم لن يكونوا

مضطرين لقتل الآخرين لفترةٍ ما. كانت عبارة: (دعهم يذهبون، سننال منهم في وقت لاحق) هي التصريحِ الذي لطالما قيل عندما لا يكون العدو مهتماً بالقتال، ويعرض نفسه كهدف سهل المنال بالنسبة للخصم».

الكولونيل ص ل أ مارشال[37]

اعتقد مارشال في البداية أنّ هذا العزوف عن القتل – والموجود دوماً لدى البشر – قد أضحى عاملاً رئيساً في الحرب في الآونة الأخ رة، وذلك بسبب التشتت المتزا د للمشاة في ساحة المعركة، وعدم ملاحظتهم المباشرة من قبل زملائهم؛ إذ من المؤكد أنّ ذلك كان محالاً بالنسبة لجنود التشكيلات الجماعية وبنادق البارود الأسود في الأزمان الد ديمة؛ لأنّهم كانوا مضطرين لتنفيذ سلسلة من ا جراءات لحشوٍ بنادقهم، والتي كانت تُصدر صوتاً واضحاً وسحابةً مرئيةً من الدخان الأسود الناجم عن البارود عند إطلاق النار، لكن البحوث اللاحقة أفادت أنّ نسبةً مرتفعةً من الجنود في تلك الأزمان لم يطل وا النار:

من ين 27574 بندقية قديمة تُركت على أرض المعركة في غيتيسبرغ عام 1863، كان ما يزد عن 90 بالم ة منها محشواً. ورغم أنّ نسبة تسعة عشر إلى واحد ين زمن التحميل وزمن ا طلاق تعني منط ياً أنّ حوالي 5 بالم ة من البنادق الد ديمة يجب أن تكون محشوة وجاهزة طلاق النار عندما تخلى عنها أصحابها، إلا أنه ت يّن أنّ نصف البنادق تقريباً – أي ما يعادل اثني عشر ألف بندقية – تم تحميلها أكثر من مرّة، وكان في ستة آلاف منها ما ين ثلاث طل ات وعشر محملة في السبطانة. والاستنتاج المنط ي الوحيد هو أنّ أعداداً ك يرةً من الجنود

في غيتيسبرغ – سواء أكانوا من الاتحاديين أم الكونفدراليين – رفضوا إطلاق النار من أسلحتهم حتى في أوج المعارك، والتي كانت تجري وجهاً لوجه ومن مسافةٍ قصيرةٍ. ولكنهم على ما بدو قاموا بالتحميل، وربما بمحاكاة إطلاق النار عندما كان من في جوارهم يطل ون النار خفاء عزوفهم عن القتل، وقام الكث رون منهم بتوجيه بنادقهم نحو الأعلى أثناء إطلاق النار[38].

ورغم غرابة هذا الاستنتاج، إلا أنّه ينطبق حتى على تشكيلات الكتف إلى الكتف من مشاة ال رن الثامن عشر، والذين كانوا يطل ون سيلاً من الن ران على بعضهم بعضاً من مسافاتٍ محدودةٍ. كان (معدل القتل) أقل بكث ر مما يجب أن يكون منط ياً؛ بالنظر إلى دقة هذه الأسلحة بالم ارنة مع المسافات[39]. ولا سبب للاعتقاد باختلاف هذه الظاهرة التي أشار إليها مارشال في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية عن حال الج وش الألمانية أو اليابانية أو السوفيتية؛ ولو لم تكن هناك دراسات م ارنة بهذا الشأن. لكن لو كانت هناك نسبة أك ر من اليابان ين أو الألمان الراغ ين بالقتل، لكان حجم الن ران المرمية ثلاثة أو أربعة أو خمسة أضعاف الرمي الأمريكي، وهو لم يكن كذلك.

ولنأخذ كمثال هاين سيف رلو[40] الذي كان في العشرين من عمره عريفاً في الف رماخت. فعندما نزلت ال وات الأمريكية إلى شاط أوماها في النورماندي وم (ي)، 6 حزران من عام 1944، كان هاين متحصناً خلف مدفعه الرشاش في تحصين (WN62) تحت الأرض والمطل على الشاط ، وهو واحد من المخا التي لم دمرها قصف الحلفاء الجوي والبحري، وبمدفعه الرشاش أجهز هاين على حوالي 2000

جندي أمريكي؛ وهم يشكلون نصف عدد القتلى الأمريكيين الذين قُتلوا أمام هذا التحصين، والبالغ عددهم 418. أطلق هذا الجندي النار لمدة تسع ساعات متواصلة، ولم يتوقف إلا للحظات لتغير سبطانات الرشاش بعد ارتفاع حرارتها، مجندلاً الجنود الأمريكيين المهاجمين من سفن الانزال في المياه الضحلة على بعد 600 ياردة، يقول سيفرلو: «دوا لي كالنمل من تلك المسافة». ولذلك، لم يعنِ له قتلهم شيئاً حتى تلك اللحظة، ولكن فجأةً ظهر له شاب أمريكي نجا من المذبحة وهو يجري هلعاً على الشاطئ أثناء فترة هدوء المعركة. عندها، استل سيفرلو بندقيته وأطلق النار، وفجرت نرانه جبهة الجندي، وجعلت خوذته تدور في الجو، وسط الشاب على الرمال جثةً هامدة. ومن تلك المسافة، شاهد سيفرلو عن كثب التعير المرعب الذي دا على وجه ضحيته: «عندها فقط أدركتُ أنّني كنتُ أقتل الناس طوال ذلك الوقت... وما زال هذا الجندي راود أحلامي (قال سيفرلو ذلك في عام 2004) وأشعر بالغثيان كلما فكرتُ في الأمر».

قتل الرجال تحت ا كراه – إذ يمتثل الرجال لفعل أي شيء إذا كانوا تحت ضغط اجتماعي قوي – فالغالبية العظمى منهم لم ولدوا قتلة بطبيعتهم. وكمثال آخر، اكتشف سلاح الجو الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية أنّ أقل من 1 بالمـ ة من الطيارين المـ اتلين كانوا فاعلين كما يجب في المعركة – قُتل خمسة طيارين من الأعداء فقط في المعارك الجوية – وأنَّ هذه النسبة مسؤولة عن تدمير ما يـ ارب 30 إلى 40 بالمـ ة من طائرات العدو في الجو، في حين لم يُسقط أغلب الطيارين أي طائرة معادية. لـ د حلّق معظم طياري المـ اتلات بطائرات ذات مقعد واحد حيث لا رف ق

راقب تصرفات الطيار، وحتى أواخر الحرب العالمية الثانية كان أولئك الطيارون يرون أنّ طائرة الخصم يقودها إنسان آخر، ومن المحتمل أن تكون الدواعي التي أحجم بسببها معظم أفراد المشاة عن قتل أعدائهم على الأرض هي ذاتها في الجو[41]، لكن هناك عاملاً مساعداً في القيام بالقتل، وهو المسافة بين الأعداء؛ إذ يطلق الرماة النار من خلال شبكة التسديد على أهدافٍ لا يمكنهم رؤيتها، كما يطلق طاقم الغواصة الطوربيدات على السفن البعيدة (التي لا يبدو لهم أفرادها). وفي الوقت الحاضر، يطلق الطيارون صواريخهم من مسافات أكبر بكثير، لكن على (أهداف)، ومن دون أن يروا الأفراد.

«ثمة ما يميّز كطيار مقاتل عمن يقاتل العدو وجهاً لوجه على الأرض. ففي البيئة الجوية، تظهر الأمور على نحوٍ آخر، بشكلٍ نظيفٍ وغير شخصي. فأنت ترى الطائرة وترى الهدف على الأرض، ولكنك لست وجهاً لوجه مع بني جنسك، ولست خاضعاً لعواطف القتال. لا يكون الأمر عاطفياً أو شخصياً بالنسبة لك. وبهذا المعنى، لا صعوبة في القيام بالأمر، إذ إنّ الضرر الشخصي لا يكاد يُذكر».

الكولونيل باري بريدجر، سلاح الجو الأميركي

يُعتبر إقناع جنود المشاة بالقيام بالقتل جزءاً هاماً وأساسياً من عملية التدريب في ومنا هذا، إذ كان لسرية مشاة في الحرب العالمية الثانية أن تُحدِث مثل هذا الخراب باستخدام حوالي سُبع عدد جنودها؛ ممن هم على استعدادٍ لاستخدام أسلحتهم بالشكل التام. توضّح هذه النسبة الآثار المدمرة للقوة النارية الحديثة، ولذلك قامت الجيوش عند إدراكها هذا الواقع برفع المعدل، فعملت على تعزيز التدريب الذي يتجاوز الرقابة الأخلاقية لدى المجندين،

وجُهِّزت حول الرمي المعشوشبة الطويلة دريئات على شكل انسان، حيث تظهر تلك الدرئيات على مسافاتٍ مختلفةٍ بشكلٍ آلي، وتنخفض آنياً عندما يصيبها المتدرب بطلقاته لتظهر على مسافة أبعد، وليرميها مجدداً. لكنه إن تردد بإطلاق النار أو لم يصبها فستنخفض في ثوانٍ، معلنةً عن فشله في رميها من تلك المسافة. ورغم هذا الأسلوب من التدريب لا يقوم تكييف ردود الأفعال إلا بنصف المهمة فقط، لأنّ هناك ضرورةً قصوى في معالجة العزوف النفسي عن القتل المباشر، ولذلك يتم تعليم جنود هذه الأيام وبشكل مباشر للغاية كيف يقومون بالقتل.

يتم هذا الأمر في التدريب الأساسي؛ إذ تبدأ عملية إعادة بناء مواقف المجندين تجاه العنف الفعلي في وقتٍ مبكرٍ من التدريب، وذلك من خلال تمرين يستخدم فيه المتدربون (العصي المنتفخة من الطرفين)، حيث يقف الجنود في أزواجٍ، معتمرين الخوذ ولابسين القفازات وحاملين عصياً مبطنةً بشكلٍ كثيفٍ، ويُطلب منهم مقاتلة بعضهم بعضاً بشكلٍ سيؤدي إلى وفاة العديدين منهم بشكل حتمي لولا وجود الحشوات السميكة. ويوضِّح الخطاب المحرّض للمدرب ماهية المطلوب منهم:

عليك أن تكون عدوانياً لأقصى حد! وإذا أجبرت خصمك على الهروب، فامضِ خلفه وعاجله بالضربة القاضية. أيها المجند، إياكَ والتوقف عند هذا الحد! إن تماسَكَ مع الخصم يعني أنّه عليك عدم التوقف. لا تعطِهِ فرصةً لتقط فيها أنفاسه، لا تتراخَ، اجعله دوماً تحت قدميك... مع استمرارك بضربه بالعصا. لا يجب أن يكون هناك شيء آخر اليوم سوى النحيب والتأوه والعون المنتزعة من

مآقيها والرؤوس المتدحرجة في كلّ مكان.

وبعدها، يمضي المجندون جلّ وقتهم في التدرّب على الأسلحة، والتي ستكون فعلياً بضاعتهم الحديدية؛ من بنادق وحراب (المحززة على الخط المنقّط) وقنابل دوية وغيرها، وأثناء التدريب على تلك الأسلحة، لا وجد تقسيم للمجندين إلى مجموعات والسماح لهم بالتصرف كما لو أنّهم في حربٍ حديةٍ، ولكن فكرتها واضحة؛ إذا لم تستطع القضاء على عدوك خلال التدريب الأساسي، فبمكانك على الأقل احتمال فكرة موته، ولو حصل ذلك بشكل دموي وقاسٍ.

«حسناً، أولاً وقبل كلّ شيء، ما هو اللغم؟ اللغم أيها الجنود ليس أكثر من مادةٍ متفجرةٍ أو كيميائيةٍ معدةٍ لتدمير العدو وقتله... تريدُ به فقء عيني العدو، وتمزق آلة الحبّ لديه! تريد القضاء عليه بشكل مبرم أيضاً. أيها الجنود، يجب ألا تبقوا من العدو أي شيء! أرسلوه إلى أمه مكفناً!

أيها الجنود، لا تُظهروا أدنى رحمةٍ للعدو، لأنّه لن يرحمكم. ولد مشاة البحرية ويصبحون قتلةً مدربين، وعليهم أن يثبتوا هذا كلّ يوم، هل هذا واضح؟».

محاضرة عن استخدام الألغام، جزيرة باريس، 1982

يصيح المجندون موافقين بأعلى صوتٍ وبفخرٍ شديدٍ؛ تماماً كما تم تعليمهم، رغمٍ أنّ معظمهم سيتقيأ أو يغيب عن الوعي إذا شاهد فجأةً شخصاً قد تمزقت أعضاؤه التناسلية لغمٍ أرضي. إنّ معظم اللغة المستخدمة في جزيرة باريس لوصف البهجة لدى قتل الناس لغة متعطشة

للدماء، ولكنها مجرد مبالغات متعمدة لا طائل منها. درك المجندون هذا رغم استمتاعهم بها، ويعرفون أنّ لها دوراً في إزالة الحساسية التي قد يشعرون بها حيال معاناة (العدو). وفي الوقت نفسه، يتم وصف القتل بالتفصيل (لم تُلقَّن الأجيال السا قة من الجنود بهذه الطريقة) بفكرة أن غرضهم ليس أن يكونوا شجعاناً ومحاربين أكفاء فحسب، ل عليهم أن قتلوا أيضاً.

«بالتأك د، كانت الد بة الفيتنامية على أشدها كما تعلمون. وكان دافع الجميع على اختلاف منسوبه هو ال يام بالقتل. كنا نقوم بتعزيز ما نهدف إليه كلّ صباح، وفي كلّ مرّة تطأ قدمك اليسرى سطح السفينة، كان عليك أن تهتف: (اقتل، اقتل، اقتل)، فترسو هذه المفردة في رأسك، وعندما يصبح الأمر ح يقةً واقعةً ألن تكون مزعجة للمرء؟ بالطبع ستكون مزعجةً في المرّة الأولى، ولكنها ستصبح أكثر سهولة لاح اً، ولن تصبح أكثر سهولة لأنّك لن تنزعج عند كل عملية قتل، ل لأنّه – وكما تعلمون – عليك أن تواصل القتل بعد أن قتلتَ بالفعل».

رقيب في مشاة البحرية الأمريكية (من قدامى المحاربين في فيتنام)، 1982

لم يشاهد معظم المجندين أي شخصٍ ميتٍ (ربما باستثناء ميت في تا وته) قبل وصولهم إلى جزيرة باريس، وسيب ون كذلك حتى مغادرتهم. وحتى ذلك الحين، هم ي يمون لفترةٍ ضمن عالمٍ لا وجود فيه للقتلى، ولكنهم تدربوا على القتل مرّات ومرّات، وقد منحوا الحق في فعل ذلك من قبل جميع من يحترمونهم. فقد كرّر الجميع أنّ العدو – أياً كان – ليس إنساناً كاملاً مثلهم، لذلك يتوجب عليهم قتله ويستحد ون الثناء على قتله.

«إنّ فكرة قتل شخص آخر كانت غريبةً تماماً عني عندما جئت إلى هنا

"اقطع على الخط المنقط"، الملازم الثاني غاريك سيفيلا يعلم الملازم الأول جون بلاك كيفية الذبح من الحلق تمرين باليكاتان 2002، الفلبين

لأوّل مرّة.. وأنا لن أفعل ذلك، إذ إنّني لم أصطد سنجاباً من دون رخصة، ولا حاجة لكي قتل المرء، ولكن بمجرد مج ك إلى هنا، بدأون دفعك للقيام بهذا، والتفكير به بشكل متواصل. وعندما تغادر هذا المكان، يبقى هذا الأمر خارج حساباتك الواقعية، ولكن إمكانية قيامك به استقرت في رأسك؛ وهو أمر سيئ للغاية، حيث إنك عندما تخرج إلى القتال ويتوجب عليك قتل أحدهم فستقتله. ويبدو أنّ الأمر سيكون أكثر سهولة بسبب الدافع الذي تشربته في هذا المكان».

خريج جزيرة باريس، 1968

«يجعلك مدربو التمارين العملية تشعر بأنّك ستحب ذلك؛ ستحب الذهاب إلى الحرب وقتل الناس. إنّهم يغرسون هذه الفكرة في عقلك. لم أقم بذلك ساب اً، ولا أعرف إن كنت سأحب ذلك أو لا لأنّني لم أقتل أحداً من قبل. هل هذا ممكن بالنسبة لي؟ إذا توجب علي ذلك فعلي الذهاب إلى هناك وفعله على أيه حال».

خريج جزيرة باريس، 1982

سجّل هذا النوع من التدريب نجاحاً ك يراً، ففي عام 1 كتب مارشال: «لا نرغب بالاعتراف بأنّ الحرب أساساً ما هي إلا مهنة القتل»، لكننا نعترف بذلك الآن وبسهولة. وعندما أرسل مارشال مرّةً أخرى لل يام بالنوع نفسه من التحد يات خلال الحرب الكورية في أوائل الخمسينيات، وجد أنّه وبفضل التدريب الجد د فإنّ 50 بالم ة من الجنود المشاة أطل وا النار من أسلحتهم. وفي بعض حالات الدفاع المستميت، أطلق الجميع ن رانهم تقريباً[42]. ومع التعديلات التي أدخلت على التدريب خلال حرب فيتنام، كان هناك ن حو 80 بالم ة من الجنود الأمريك ين الذين يطل ون ن رانهم بغية القتل. وفي الواقع، كان هذا أحد الأسباب الرئيسة للتفوق المستمر للج وش الغربية في مواجهاتها مع الد وات العسكرية الأخرى. لم يكن السبب في الفجوة التكنولوجية الواسعة في السلاح (وهي ليست ك يرةً في بعض الأحيان)، ل في د يقة تدريب معظم الج وش الغربية لجنودها بالطرق الصريحة التي تجعل منهم قتلة. ولا تزال معظم الج وش الأخرى غافلةً عن هذه الد يقة.

وغالباً ما يتم التستر على هذا التأث ر من خلال د يقة التفوق التكنولوجي الساحق للج وش الغربية في مجال سلاح المدفعية والطيران. إذ تكون معظم خسائر العدو ناجمةً عن أثر هذه الأسلحة بع دة المدى. ولكن في ظروف معينةٍ مثل حرب الفوكلاند، حيث لم تظهر تلك العوامل بشكل ك ير، كان مرد التفاوت الهائل في أعداد ضحايا ين الـ وات البريطانية والأرجنتينية رجع إلى أنّ الـ وات البريطانية متدربة وفق الأساليب الجد دة، فيما لم تقم الـ وات الأرجنتينية بذلك. وربما كانت الحالة الأكثر تطرفاً في إظهار هذه الناحية هي وحدات مغاوير جيش روديسيا في السبعينيات، والتي قاتلت قوات الثوار الشجعان ذات التدريب الضعيف. لم يكن لدى المغاوير سوى الـ ليل من المدفعية أو الغطاء الجوي، واستخدموا تقريباً أنواع الأسلحة الشخصية نفسها التي استخدمها الثوار، ولكنهم د وا باستمرار نسب قتل مرتفعة لدى الخصم – ما ين خمسة وثلاثين إلى خمسين – م ا ل واحد منهم[43].

لذلك، ماذا علينا أن نفعل حيال د يقة سهولة تحوّل الرجال إلى قتلة؟ هناك الحـ يقة المواسية الـ ائلة إنّ معظم الرجال يتهيبون فداحة قتل إنسانٍ آخر، وسيتجنبون ذلك ما استطاعوا. لكن، ماذا سيحصل إن نجحت الج وش في خداعهم عن طريق وسائل التدريب الحديثة؟ سيقع العبء النفسي الضخم لاحـ اً على أولـ ك الجنود الذين فعلوا ما طُلب منهم؛ إذ يُشبته وعلى نطاق واسع أنّ عامل ارتفاع نسبة المشاركة في القتال في فيتنام هو المسؤول المباشر عن المعدل المرتفع للغاية (لاضطراب ما بعد الصدمة[44]) ين قدامى المحاربين الأمريك ين في تلك الحرب[45].

لكن، إذا كان بامكان إزالة فكرة النهي عن القتل من ضمائر معظم الناس عبر الدليل من التكيف النفسي الروتيني، فلدينا الكثير لنقلق بشأنه. لطالما كانت الحرب مزمنةً؛ أي منذ أن تحولنا إلى حضاراتٍ واسعة منذ حوالي عشرة آلاف عام. فهل الأمر جزءٌ لا يتجزأً من الحضارة؟ أم أنّه أبعد من ذلك بكثير؟

الفصل الثالث

جذور الحرب: روسو وهوبز

لم تكن لمجتمع والبري[46] صبغة عسكرية، فلا وجودَ لمحاربين دائمين أو محترفين، ولا لتسلسلٍ هرمي في القيادة العسكرية، وقلما شنت المجموعات الغزوات، ولا مبرر لحرب شاملة بين الجماعاتً، ولا وجود للرق في المجتمع. أما حركة البضائع فكانت قليلة، ولذلك شكّلَ احتلال الأراضي في المعارك إحراجاً للمنتصرين المرتبطين بروابط روحية مع المجتمعات المحلية الأخرى.

من شعب الصحراء[47]، دراسة أنثروبولوجية نُشرت في عام 1960[48]

... فجأةً، ومن دون سابق إنذار، اعترضت طريقنا قبيلة كبيرةٍ من حوالي ثلاثمئة فرد ظهروا عبر السهل، مما أشعرنا بالخطر الداهم... ومع اقترابهم، عرفت أنهم جميعاً رجال... وخلال فترةٍ بسيطة اندلعت المعركة. قاتل الرجال والنساء بضراوة وعشوائية وقد غطتهم الدماء... وقُتل اثنانً من مجموعتنا في الاشتباك، مما دفعنا إلى شن هجوم ليلي مضاد. وحيث إنّ غالبيتهم كانوا نائمين في مجموعات، أسفر هجومنا عن مقتل ثلاثة على الفور وإصابة عدد آخر، هرب العدو مخلفاً وراءه عتاده الحربية للمهاجمين الذين انهالوا على جرحاه بالضرب العنيف بأقواسهم حتى الموت.

وليام باكلي[49]، 1835 [50]

تعيدنا المناقشات الجديدة كافة حول دور الحرب في المجتمعات البشرية - حتميتها وعواملها الأخرى - إلى جذورها؛ إذ نعلم أنّ الحرب المنظمة كانت الرفيق الدائم للحضارة منذ بداية التاريخ المسجّل، على أنّ هذا التاريخ لا يزيد عن خمسة آلاف عام مضت. ولو كانت الحرب مجرد ذكرى، لكان التعامل معها سهلاً؛ تماماً كما تعاملنا مع العبودية واضطهاد المرأة. لكن الأمر ليس على هذا النحو، بل هو أشد أثراً ويستغرق زمناً أطولَ، وهو قابلٌ للتدقيق نظرياً. أما عملياً، فقد كانت الحرب أصغر شكلياً، لكنها تنطوي على القدر ذاته من الوحشية، وتمتد بجذورها إلى الماضي ما قبل التاريخ. عندها، قد يتبادر إلى الأذهان الاحتمال المقلق الذي يقول إنّ الميل إلى العنف والقتل يمكن إرجاعه إلى جذور جينية لدى الإنسان، إنّها فكرة مخيبة، ولا مفرّ من التأمل فيها ملياً.

عند تأليفي الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ عشرين عاماً، لم أورد سوى الاقتباس الأول الذي افتتحت به هذا الفصل، والذي يصف جماعةً من سكان أستراليا الأصليين ممن خضعوا للدراسة في النصف الأول من القرن العشرين. ما ورد في هذا الاقتباس صحيح تماماً؛ أقله في الوقت الذي أجريت فيه الدراسة، حيث أوردته كدليل على عدم وجود الحرب (الحقيقية) قبل ظهور الحضارة، لقد كتبتُ في الطبعة الأولى: «عاش سكان أستراليا الأصليون قبل جيلٍ واحدٍ فقط في مجموعاتٍ صغيرةٍ جلّ اعتمادها على الجمع والصيد؛ شأنهم في ذلك شأن الجنس البشري بأكمله طيلة ما لا يقل عن 98 بالمئة من تاريخه. ورغم أنّ كلّ ذكرٍ من قوم

والبري كان محارباً، إلا أنّ أسلوبهم في القتال لا يشبه ما نسميه بالحرب؛ فعدد القتلى قليل جداً، ولا قادة مركزيين، ولا استراتيجية، ولا تكتيكات، كما ارتبطت معظم تلك الحوادث بالثأر أو بمخالفة طقوس معينة من قبل جماعة أخرى، مما لزم المجموعة المستهدفة والمرتبطة بأواصر دموية بالرد. ونادراً ما شاركت مناطق أخرى في القتال». هذا ما تحدث عنه علماء الأنثروبولوجيا في حالات الحرب في أقوام الصيد والجمع، ولا يمكنني إجراء أي تعديلاتٍ جديدةٍ تُذكر على هذه الفقرة سوى أن أذكر أنّ قلةً من الناس قد قُتلوا في وقت واحد، وأنّ الناس عاشوا طيلة حياتهم في مجتمعٍ صغيرٍ أشبه بمجموعة من الأقرباء.

وعلى النقيض من الاقتباس الأول، جاء الاقتباس الثاني من تأليف وليام باكلي الذي نجا من مستعمرة مخصصة لتمضية العقوبات القضائية على الساحل الجنوبي لأستراليا عام 1803، والذي عاش اثنين وثلاثين عاماً كهاربٍ بين سكان أستراليا الأصليين. وجّه باكلي كتاباته للجمهور الأوروبي في منتصف القرن التاسع عشر، ولم يعلم أنّه سيثير حساسية علماء الأنثروبولوجيا في وقتٍ متأخرٍ من القرن العشرين. ربما تنطوي روايته على بعض عناصر المبالغة، إذ إن ثلاثمئة شخص عدد كبير جداً لمجموعة تعيش من الصيد والجمع؛ حتى إذا أخذنا في عين الاعتبار حصول هذه الحادثة في بلدٍ خصيبٍ نسبياً قبل زحف الاستيطان، والذي حال دون متابعة السكان الأصليين لحياتهم التقليدية في مناطقهم بأستراليا. وإذا كانت روايته واقعيةً، فإنّ هذه الموقعة الموصوفة من قبله دمويةٌ، وتخلو من الرحمة، وكأنها طقسٌ شعائريّ. وعليه، لم تكن الحدث الوحيد من نوعه في تلك الأزمان. ولو كنتُ عضواً في تلك

الجماعة من سكان أستراليا الأصليين، لرأيت في الحرب مشكلةً ك يرةً جداً. وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال: لماذا شكّلت توصيفات الاقتباس الأول، لا الاقتباس الثاني، تصوراتنا عن الماضي البدائي للجمع والصيد؟

ما زلنا نعيش في الـ رن الحادي والعشرين أصداء الجدل الصاخب حول طبيعة النفس البشرية، وهو جدلٌ اندلع في أوروبا في داية العصور الحديثة، وكان توماس هوبز (Thomas Hobbes) أول من ضغط على زناد هذا الجدل عام 165 عندما نشر كتابه اللي فاتيان الذي يمجّد فيه الدولة المركزية الـ وية؛ باعتبارها الأمل الوحيد للبشريةِ للنجاة في عالمٍ يعج بالعنف. كتب توماس كتابه هذا بعد الحرب التي دامت ثلاثين عاماً، والتي دمّرت جزءاً ك يراً من أوروبا، والحرب الأهلية ا نجليزية التي دمرت لده، وقد وضع هدفاً له وهو بناء خط دفاعٍ يتمثل بسلطةٍ دستوريةٍ، وأكد أنّه لا مفرّ من الفوضى والبؤس في الحياة من دون هذه السلطة، ولم يهتم أو بحث في إمكانية عيش الجنس البشري في (حالة طبيعية)، لكنها لا تعدو من منظوره عن كونها أكثر من مثالٍ مروعٍ عن الحياة من دون دولة، حتى إنّه لم يتردد قطّ في وصف زمن ما قبل الحضارة بالشكل التالي: «لا فنون ولا حروف، المجتمع غائب، وللأسف الخوف حاضر، فالموت العنيف خطرٌ داهم، وحياة ا نسان فرديةٌ وباهتةٌ، وفقيرةٌ وواهنةٌ، قذرةٌ ووحشيةٌ وقصيرةٌ».

أما اليد العليا في هذا الجدل، فقد كانت للف لسوف الفرنسي جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) الذي تأثرت كتاباته بالأفكار الثورية حول المساواة والديم راطية التي اجتاحت أوروبا (توفي روسو بعد عامين من اندلاع الثورة الأمريكية، وقبل أحد عشر عاماً من اندلاع الثورة

الفرنسية)، وجاء عمله (المتوحش النبيل[51]) ليصف حياة البشر قبل أن تصبح خاضعة للملوك والكهنة عبر نظامٍ لا يقوم على العدل والتكافؤ. ولم يعرف روسو عن أقوام الجمع والصيد سوى أنهم كانوا يعيشون حياتهم في ظلّ حريةٍ ومساواةٍ؛ وهما من ال يم التي اهتم بها. وقد أشار إلى محافظة الناس الذين عاشوا في المجتمعات الصغ رة قبل نشوء الدول على تلك الفضائل، حتى إنّه أعلن (في خطاب حول جذور اللامساواة[52] عام 1755) أنّ الحرية والمساواة هما التراث الأصلي للبشرية جمعاء، غ ر مبالٍ بخوض متوحشيه النبلاء للحروب من عدمه. وقد كان لصورته المثالية تلك عن معيشة الناس في حقبة ما قبل التاريخ أثرها العميق لدى جمهورٍ واسعٍ وخاضعٍ لسلطة ملكيات مطلقة، كما تم افتراض قدرة الناس الأحرار والمتساوين المتحررين من سلطة المؤسسات الفاسدة للدولة على تجنب الحروب الوحشية التي مزقت الأراضي المتحضرة. فقد اعتقد الثوار الفرنسيون ذلك، وكذلك فعل الماركسيون، ولا يزال معظم علماء الأنثروبولوجيا الغربيين يعتقدون ذلك؛ رغم كلّ الأدلة التي تثبت العكس.

كان الجدل حول أقوام الجمع والصيد ذا أهمية ك يرة؛ نظراً إلى كونهم دليلاً هاماً ومحورياً على حقيقة الطبيعة البشرية الأصلية والموجودة لدى أول ك الذين يعيشون كما عاش أسلافنا في الأزمان الغابرة، باستثناء عشرة آلاف سنة منصرمة، قبل المجتمعات الك يرة، والزراعة والتجارة والدين. لقد غيّرنا قيام الدولة كث راً، لذا لا بدّ من التساؤل عمّا كان عليه البشرُ في الواقع؛ فهل كانوا ميّالين للحرب أم للسلم؟ أكانوا طغاة أم ديمقراطيين؟ هل كانوا ميالين للأنانية أم الإيثار؟ أكانوا محبّين للطبيعة أم مدمّرين جشعين لها؟

جعلت هذه التساؤلات من علم الأنثروبولوجيا وعلم الآثار نظاميين مشحونين سياسياً بشكلٍ دائم. وما زاد الطين لةً هو عدم وجود الكث ر من أقوام الصيد والجمع؛ حتى عندما كان هوبز وروسو على قيد الحياة. وظهر علم الأنثروبولوجيا في أوائل الـ رن العشرين، في زمنٍ لم تعد فيه عملياً أي مجتمعات دائية، مجتمعات معزولة تماماً عن المجتمعات الأخرى الأكثر تعقيداً لعقود أو أجيال، واستولى المزارعون منذ زمنٍ بع دٍ على الأراضي المروية الخصيبة التي كانت وماً ما موطن الغالبية العظمى من أولـ ك الأقوام.

ولذلك، إنّ كلّ ما نملكه من أدلةٍ على الطريقة التي عاش بها أولـ ك البشر في سالف الأزمان لا تتعدى البيانات الأثرية المجموعة منذ زمنٍ بع دٍ عن أولـ ك الأقوام (ومعظم تلك الأدلة عبارة عن أدوات وأسلحة وعظام) وتقارير خطية عن الاتصالات الأولى مع السكان الأصليين خلال قرون التوسع الأوروبي، وتاريخ الجماعات البدائية المسجل من قبل علماء الأنثروبولوجيا الأوائل. لكنهم سجّلوا أقوال الناس من تلك الجماعات بعد جلٍ أو جليين من دء التواصل مع الجماعات البشرية الك رى والأكثر تعقيداً والتي غيّرت حياتهم. وهناك أيضاً الملاحظات المعاصرة عن المجموعات الـ ليلة التي تحيا في الأراضي النائية، والتي يُعتقد أنّها تحافظ على عناصر كث رة من نمط الحياة الأصلية، غ ر أنّ هذا لا ينطوي على الدقة الكافية، فقد تكون حياتهم أفضل، ولا شكّ في أنّ هنالك معلومات وأموراً نجهلها عن أولـ ك الأقوام أكثر بكث ر مما نعرفه حالياً عنهم؛ وهي معرفةٌ حديثةٌ لا يزد عمرها عن الأعوام المـ ة الماضية. غ ر أنّ ما جمع من معلومات مشجع جداً، ولذلك ترجّح الكفة في هذا الجدل إلى روسو، وليس إلى هوبز.

تألّف أقوام الجمع والصيد من جماعاتٍ صغيرةٍ يصل عدد أفرادها إلى حوالي عشرين أو خمسين فرداً. وقد عملت تلك الجماعات على أساس من المساواة المقبولة بين أفرادها البالغين، دون وجود قادةٍ معيّنين أو تسلسلٍ هرمي. وقلما استلزم الأمر قراراً جماعياً، وفي حال الحاجة إليه كان يُتخذ عبر النقاش والتوافق. وفي حال كان لدى أحد الأشخاص اعتراض على القرار فله حرية المغادرة والانضمام لمجموعةٍ أخرى. وكانت هناك دائماً مجموعات أخرى في المناطق المجاورة؛ ممن يتكلمون اللغة نفسها، والذين كانوا مرتبطين بروابط القربى. إذ تزاوج الأفراد بين المجموعات الصغيرة المختلفة لتجنب الأمراض الوراثية، ولذلك لم يكن الانتقال إلى مجموعةٍ أخرى والاستقرار فيها صعباً في حال الحاجة إلى ذلك. أما توزيع الأدوار بين الجنسين فكان واضحاً؛ فللرجال حرية اتخاذ القرارات الجماعية بما أنهم أكثر قدرة على إقامة الصلات بين بعضهم بعضاً (وبسبب احتمال انتقال النساء من مجموعة لأخرى عند الزواج)، لكن كانت هناك درجة مقبولة من المساواة بين الجنسين، وبفضل هذا الإرث القديم جداً الذي نمتلكه - حوالي ثلاثين ألف جيل من أقوام الصيد والجمع - إننا نحب المساواة والديمقراطية بطبيعتنا.

إنّها أخبارٌ طيبةٌ، ولعلها تفسّر سبب استمرار البشر حتى الآن بالتصرف بالأسلوب نفسه لكن ضمن دائرةٍ صغيرةٍ من العائلة والأصدقاء؛ رغم آلاف السنوات التي مرت على وجودنا في بطن اللفياثان (تنين هوبز) خاضعين للأوتوقراطية[53] والتسلسل الهرمي الدقيق في الدول المتحضرة الكبيرة، ربما لأنّ دائرة العائلة والأصدقاء هي البيئة الاجتماعية الحقيقية للبشر، وأياً كانت تصرفات دولنا

تجاه الدول الأكثر ضعفاً فإنّنا ما زلنا نعامل بعضنا بعضاً على مستوى العلاقات الفردية بشكل ج د للغاية. أما على صع د المجتمعات العامة، فيحقّ لنا التساؤل عن الاختلاف السياسي العميق ينها، لكن دعونا من هذا التساؤل لنطرح مسألةً أخرى: ما مدى صحة مواقف هوبز الأنثروبولوجية؟

أخطأ هوبز في إعلانه عن عدم وجود مجتمع لدى أقوام الصيد والجمع، إذ لم تكن حياتهم فردية، ل كانت منغمسة تماماً في مجتمع يتألف من بضع عشرات من الناس الذين يعرفون بعضهم منذ الطفولة. ويمكن م اربة الأمر وكأنه أشبه لاءٍ دائمٍ مع مجموعةٍ بعينها؛ كما لو أنّك تعيش حياتك كلّها على السطح العلوي لحافلات لندن. غ ر أنّ هوبز أصاب في إشارته إلى قصر مدّة حياتهم؛ إذ لا تتصوّر معظم نساء العصر الحديث حياتهن بعد منتصف العقد الرابع من أعمارهن؛ لأنّ ال ليلات من أسلافهن تجاوزن هذا العمر، وعليه لم يكن هناك انتقاء تطوري بعد هذه السن، ومن عاش حتى هذه المرحلة كان عينةً رائعةً: أقرب إلى الأوروبيين المعاصرين أو الأمريك ين الشماليين من حيث الصحة – وربما بفضل اتباعهم نظاماً غذائياً تكثر فيه البروتينات – بالم ارنة مع الأوروبيين الذين عانوا من سوء التغذية والتقزم في زمن هوبز. وأيضاً أصاب هوبز مرّة أخرى في إشارته إلى حياة أول ك الأقوام في ظل الخوف المستمر من خطر الموت العنيف على أ دي أقرانهم من الرجال.

راقبت جين غودال (Jane Goodall) الشمبانزي في حد قة جومبي الوطنية في تنزانيا عام 1973، وجاء اكتشافها أن مجموعات الشمبانزي تشنّ نوعاً من الحرب ضد مجموعات مجاورة بمثابة مفاجأةٍ ك يرةٍ في ذلك

الوقت، غير أنّ الدراسات اللاحقة التي قام بها عدد من علماء الأنثروبولوجيا أكدت وجود قتال بين جماعات الشمبانزي المتنافسة على نطاقٍ واسعٍ ومزمنٍ وخطيرٍ. وقد جاء هذا التأكيد بعد مراقبة بعض جماعات الشمبانزي منذ ما يقارب أربعين عاماً وحتى الآن؛ حيث يُعطى اسم لكل عضو ويُسجَّل سلوكه/ها على مدى فترات طويلة من الزمن. لكن هذا القتال لم يتخذ شكل معاركٍ ضاريةٍ يشارك فيها عدد كبير من أفراد الجانبين، إذ لم تكن معظم الغارات التي تتحول إلى قتالٍ فعليٍ أكثر من كمائن من جانبٍ واحدٍ، وكثيراً ما كانت تلك الغارات قاتلةً للأفراد المستهدفين (ومعظمهم من الذكور)، وشمل القتل مجموعات بكاملها في حالاتٍ قليلةٍ. لكن، ما صلة هذا الأمر بسلوك البشر؟

حصل أسلاف الإنسان حتى قبل عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة على معيشتهم بطريقة الشمبانزي نفسها؛ أي عبر البحث عن الطعام في مجموعاتٍ صغيرةٍ ذات أحجام متساوية نسبياً. وقد شكّل كل من البشر والشمبانزي عملياً جماعات صيد وجمع – يصطاد الشمبانزي القرود بشكلٍ منتظمٍ، وتقوم جماعاته بذلك بشكلٍ منسقٍ وباعتماد استراتيجيات واضحة – إلا أنّ الإنسان وبفضل أسلحته ولغته تمكّن من اصطياد فرائس أكبر، كما تمكن من زيادة حصة اللحم في نظامه الغذائي.

ومن ناحيةٍ أخرى، وبغض النظر عن الحجم والذكاء، هناك اختلافات اجتماعية كبيرة بين البشر والشمبانزي؛ إذ يُعرف مجتمع الشمبانزي بالتنافس الحاد على الهيمنة بين الذكور، في حين عاشت أقوام الصيد والجمع في مجتمعات يسودها التساوي نوعاً ما، مع روابط

متينة نسبياً بين الذكور والإناث وأطفالهم، وتوفرت إثر عمليات الصيد كميات كبيرة من اللحوم التي يجب تناولها قبل تلفها. وهكذا، تشارك الصيادون الطعام، وخاصةً اللحوم. تشارك قردة الشمبانزي بعضها باللحوم أيضاً، ولكن بتردد أكبر. وبطبيعة الحال، سجّل البشر تطوراً أكبر بكثير من الشمبانزي، فنحن نفوقها الآن من حيث العدد (خمسة وعشرون ألف إنسان مقابل شمبانزي واحد)، ونعيش في جميع مناطق العالم دون استثناء، في حين انحصر وجود الشمبانزي في وسط أفريقيا وهي في تناقصٍ دائمٍ.

تفتقر معارك الشمبانزي إلى الأسلحة، ولا شكّ في أنّ هناك صعوبةً في قتل الخصم بواسطة الأيدي، ولذلك تتطلب الغارات الناجحة وجود عدد من ذكور الشمبانزي في مجموعة واحدة، والتي تشن هجوماً على شمبانزي واحد من مجموعة أخرى؛ فيقوم بعضها بتثبيته بإحكام، فيما يقوم بعضها الآخر بعضّه وضربه، وقد يبقى الشمبانزي الضحية على قيد الحياة عند مغادرة المجموعة المهاجمة، ولكنه يموت لاحقاً. إنها نوع من الحرب؛ فهي ذات هدفٍ وخطةٍ واضحةٍ، وقد قام عالم أجناس القردة العليا ريتشارد رانجل (Richard Wrangel) دراساتٍ مبكّرةٍ بالتعاون مع فريق غودال في غومبي (Gombe) في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، ووجد أن الشمبانزي تقوم بغاراتٍ مخططٍ لها مسبقاً، وأن القردة المهاجمة تستفيد من وقع المفاجأة على الخصم، ولم تكن تلك الغارات مجرد عدوانٍ مباغتٍ ناجمٍ عن اقتراب شمبانزي غريبٍ من المجموعة، بل كانت المجموعات المهاجمة تعمد إلى التنصت والقيام بالحسابات الدقيقة لنداءات المجموعة الأخرى لمعرفة إن كانت أقل عدداً منها، وكانت تلك

المجموعات المهاجمة تنسحب في حال فشلها في القبض على ضحيةٍ منفردةٍ من المجموعة المنافسة. كما شملت معظم عمليات القتل كميناً محكماً للقبض على الشمبانزي الهدف البعيد عن مجموعته، وقد تلجأ قردة الشمبانزي إلى شن حملةٍ طويلةٍ تمتد لشهورٍ أو سنواتٍ حتى يتم سحق جميع ذكور المجموعة المنافسة. ومتى نجحت في ذلك، استولت على منطقة تلك المجموعة، واستحوذت على الشمبانزي الإناث التي بقيت على قيد الحياة، ولكنها تعمد إلى قتل صغار الشمبانزي الرضع على الفور.

تمتلك مجموعات الشمبانزي مساحات من الأرض تصل إلى أربعة عشر ميلاً مربعاً، ولكنها تقضي وقتها ضمن ستة أميال مربعة في الوسط؛ رغم غنى بقية المساحة بالموارد الطبيعية، إذ إن تلك الأرض محرمة عليها؛ ربما بسبب خطر الكمائن والموت على يد المجموعات المجاورة. والأمر الآخر هو نتيجة حروب الشمبانزي المستمرة تلك؛ فوفقاً لدراساتٍ طويلة الأجل عنها، أدت تلك الحروب إلى مقتل حوالي 30 بالمئة من الذكور ونسبة أقل بكثير من الإناث، لكنها نسبة ملحوظة على أية حال[54].

«تعرّض صديقي القديم للطعن برمحٍ في جسده، ثم أخذوا زوجته وقتلوها على الفور. وما إن أجهزوا عليها، حتى عاد المتوحشون إلى حيث كنت أداوي جراح صديقي الذي هبّ من مكانه هلعاً عندما لمحهم يقتربون؛ رغم معاناته سكرات الموت، وطعن أقرب المعتدين في ذراعه. وبطبيعة الحال، ردّ المعتدون بطعنه بالرماح والأسهم على الفور، وكذلك فعلوا بابنه».

وليام باكلي[55]

لم تجرِ دراسات مباشرة مماثلة للدراسات التي أجريت على الشمبانزي على البشر من أقوام الصيد والجمع الذين عاشوا في مجتمعاتٍ دائيةٍ، ويأتي توصيف وليام باكلي للحياة ين سكان أستراليا الأصليين في أوائل الد رن التاسع عشر كاستثناء نادر، إضافة إلى المد ابلات المكثفة التي أجراها عالم الأنثروبولوجيا لويد وارنر (Lloyd Warner) في دايات الد رن العشرين مع شعب مرنجن (Murngin) الذي يعيش في أرنهيم لاند (Arnhem Land) في شمال أستراليا؛ وهي أرض غنية بالموارد الطبيعية. وقد كانت كثافتهم السكانية عالية نسبياً، وقاموا بالاتصال المنتظم مع الأوروبيين في ذاك الوقت. واعتماداً على تاريخهم المنقول شفوياً، قام وارنر بتوثيق حياتهم وحروبهم من خلال المد ابلات، وخاصة الحرب ين المرنجن في أواخر الد رن التاسع عشر.

لغ عدد المرنجن حوالي ثلاثة آلاف شخص، وقد عاشوا ضمن العدد من الجماعات الكلاسيكية المنفصلة التي تقتات من الصيد والجمع. وقد قدّر وارنر عدد الذكور البالغين الذين لد وا حتفهم في الحروب على مدى عقدين من الزمن في نهاية الد رن التاسع عشر بحوالي مد تين من ثمانمد ة ذكر ممن هم في سن القتال. أما المدّة التي يظل بها الذكر محارباً نشطاً في تلك الجماعات فتمتد إلى عشرين عاماً من عمره؛ وهو ما يعني معدل وفيات تراكمياً بنسبة 25 بالمد ة من الذكور بسبب الحرب[56].

وعليه، كيف يمكن للمرء أن يعتقد - كما اعتقد معظم علماء الأنثروبولوجيا في الد رن العشرين - أنّ معظم

حروب أقوام الصيد والجمع طقوس غير مؤذية؟ ربما كان الأمر ممكناً بسبب استمرار تأثير روسو من ناحية، وبسبب قلة المعارك الضارية التي يخوضها أولئك الأقوام مقارنةً بعدد الحروب في بلدان علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم وفي مجتمعاتهم من ناحية أخرى.

حصلت عدّة معارك رسمية بين المرنجن من حينٍ لآخر (ومنها معركتان موثقتان من قبل وارنر. وقد راح ضحيتهما أكثر من اثني عشر رجلاً)، وجاءت الغالبية العظمى من الاشتباكات بشكلٍ دائمٍ معتادٍ لدى أقوام الصيد والجمع؛ أي بالغارة الليلية على معسكراتٍ نائمةٍ، أو نصب كمائن للأعداء يفوقونهم عدداً. وفي معظم تلك الحوادث، لم يسقط عدد كبير من القتلى، وربما سقط قلة من الأفراد، وأحياناً سقط فردٌ واحد، وفي بعض الحالات لم يُقتل أحد منهم. لكنّ تلك الاشتباكات ظلت مستمرةً، حيث شكّلت تهديداً لحياة رجل المرنجن، وهو تهديد يعادل تهديد حياة الجنود أيام فرنسا نابليون أو ألمانيا هتلر.

وفي مكانٍ آخرَ من العالم، وبعيداً عن المرنجن، قام عالم الأنثروبولوجيا ارنست بيرتش (Ernest Burch) بتدقيقٍ مشابهٍ، لكن في ما يتعلق بالحرب بين الأسكيمو شمال غرب ولاية ألاسكا في ستينيات القرن العشرين. وقد قام بجمع معلوماته استناداً إلى السجلات التاريخية المعاصرة، والتاريخ المتناقل شفوياً، وذكريات الكبار في السن من الأسكيمو؛ وذلك بسبب توقف الحرب قبل تسعين عاماً من التواصل بين الأوروبيين والأمريكيين. وقد نتجت عن التدقيق صورة أشبه بحرب (الجميع ضد الجميع)؛ وهي عبارة هوبز التي تصف حروبهم. لقد قاتلت تلك الجماعات المدروسة بعضها بعضاً، وقاتلت جماعات

الأسكيمو القادمة من أماكن بعيدة في ألاسكا وسيبيريا، كما قاتلت هنود أثاباسكان (Athabaskan Indians) من الجهة الشرقية، والتي تُعرف الآن باسم يوكون (Yukon).

ارتدى المحاربون في تلك المعارك تحت ثيابهم الخارجية دروعاً مكونةً من لوحاتٍ وقطعٍ من العظام أو العاج مربوطةٌ بعضها بعضاً على شكل سلاسل. وقد شُنت حربٌ واحدةٌ في السنة على الأقل في مكانٍ ما في المنطقة، وتطلب الأمر أحياناً من الأطراف المتحاربة السفر لعدّة أيام، ووصل عددها في بعض الحالات إلى خمسين رجلاً؛ رغم أنّ عددها كان حوالي خمسة عشر أو عشرين مقاتلاً كحد أقصى في معظم المناسبات. وقد تحالفت الجماعات في ما بينها باستمرار، وتغيّرت تلك التحالفات بما يضمن الحفاظ على التفوق العددي. وفي المعارك الضارية التي تنشب بين الحين والآخر، اصطف الرجال في مواجهة بعضهم بعضاً، وشاعت غارات ساعات الفجر الأولى على القرى الموجودة آنذاك في أماكن يصعب الوصول إليها، كما كان من المألوف حفر الأنفاق بين التجمعات السكنية بغية الهروب.

وكان الهدف الرئيس لحروب ما قبل القرن العشرين بين سكان ألاسكا الأصليين هو إبادة المجموعة المعادية؛ وهذا ما توصل إليه ورتش بالاستناد إلى روايات الكبار في السن من رجال الأسكيمو الذين قابلهم. تم سوق الأسرى لكي يتعرضوا للتعذيب لاحقاً أو حتى القتل، ولم تُستثنَ النساء وكذلك الأطفال، ولم يستطع ورتش تقدير نسبة القتلى من مجموع السكان في هذا النوع من الحروب، لكن الدلائل المادية (بما في ذلك المقابر الجماعية) تشير إلى حصول

مجازر بالفعل.

وهنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الدليل المباشر أو حتى الشفهي المتعلق بالحروب ين أقوام الصيد والجمع؛ لأن مناطق الـ طب الشمالي (حيث الزراعة مستحيلة) وأستراليا (الزراعية التي لم تتطور قط رغم مرور أربعين ألف سنة من الاستيطان البشري لأرضها) كانت الأجزاء الك يرة الوحيدة في العالم التي تحتضن أقوام الصيد والجمع في الوقت الذي دأت فيه أوروبا وأمريكا الشمالية بتخريج علماء أنثروبولوجيا. (تقول التقديرات إنّ 99 بالمـ ة من سكان أمريكا الشمالية الأصليين كانوا مزارعين في زمن رحلات كولومبوس).

وتبـ ى لنا مجموعة أخـ رة؛ وهي رجال أدغال الكونغ[57] (Kung Bushmen) الذين كانوا موضوع دراسة لفترةٍ طويلةٍ، وهم بالتأكـ د لا يميلون حالياً للحرب، ولكنهم اعت روا كنموذج لأقوام الصيد والجمع باعتبارهم يمثلون (المتوحش النـ يل) المسالم. لكن الكث ر من الروايات التاريخية يش ر إلى أنّ تلك الجماعات كانت عسكريةً للغاية في الـ رن السابع عشر وكذلك الثامن عشر وحتى التاسع عشر، وكانت إحداها تقاتل الأخرى، ودافعت عن نفسها لفتراتٍ طويلةٍ من الزمن ضد قبائل البانتو (Bantu) والمزارعين الأوروبيين الطامعين في أراضيها.

ولتوسيع مجال بحثنا، علينا الأخذ بعين الاعتبار ما دعى بالبستنة أو حالة المزارعين الـ بليين. وهم يشكّلون مجموعات تقتات مما تصطاده، با ضافة إلى الزراعة ا عاشية – وهي نموذج بسيط من الزراعة يعتمد على الـ طع والحرق يجاد مساحات للزراعة في الأدغال – مما يتيح لتلك

المجموعات البناء في مكان واحد لعدّة سنوات بدلاً من عدّة أسابيع كما هو حال أقوام الصيد والجمع. وبالتأكيد، كانت قرى أولئك المزارعين أكثر تطوراً من مخيمات الصيادين، وتمتعوا بممتلكات أكبر وأكثر لعدم اضطرارهم لنقل أملاكهم بشكل دائم، وعملوا على البناء في الجانب البعيد من الخليج الفاصل بين المجموعات البدائية والمجتمعات الكبيرة الزراعية. ففي تلك المجتمعات الزراعية، تجلت ثقافة المساواة؛ حيث كان الجميع صياديين ومحاربين في آن واحد، وحافظوا على قراهم التي لم تكن أكبر من قرى مجموعات أقوام الصيد والجمع بكثير. فلو كانت أعدادهم قليلة لقضى جيرانهم عليهم، أما المجموعات العرقية واللغوية (القبائل) فقلما تجاوزت أعدادها بضع عشرات من الآلاف، وشأنهم شأن أقوام الصيد والجمع، تزوجوا من خارج المجموعة، حيث توجب على الزوجة الانتقال إلى مجموعة الزوج. وفي حين دأبت أقوام الصيد والجمع على الاجتماع معاً لبضعة أسابيع كلّ عام في مكانٍ تتوفر فيه الموارد الموسمية للاحتفال وخطبة النساء، كانت قرى البستنة تدعو إحداها الأخرى للاحتفال والتزاوج، ولم تكن هناك قيادات رسمية (رغم وجود بعض الأفراد المؤثرين أكثر من غيرهم)، وكانوا يتخذون القرارات الهامة بالنقاش والإجماع؛ وهذا يعني أنّهم عملياً مثل أقوام الصيد والجمع ولكنهم أقل ترحالاً.

لم يتبقَ الكثير من الأقوام التي اعتمدت البستنة. ففي معظم البقع، كان التحوّل إلى الزراعة واسعاً وسريعاً منذ آلاف السنين، ومن بقي منهم في عصرنا الحديث يعيشون في أماكن معزولة وفقيرة الموارد؛ مثل غابات الأمازون وغينيا الجديدة، وحيثما وُجدوا كانوا في حالة حرب!

«فجأة، سمعتُ هتافات: العدو، العدو... جرى الرجال لل اء العدو... (هُزِم رجال المجموعة وهربوا، وقاموا بتهريب النساء والأطفال خوفاً من وقوعهم بالأسر)... لم يعد بم دورنا الفرار أكثر، وأصبح الكاراويتاري (العدو) على م ربةٍ منّا (حوصرت مجموعة المتحدثة وأسرت)... بعد ذلك، دأ الرجال قتل الأطفال بمختلف أعمارهم، الصغار والكبار، قتلوا الكثيرين منهم، وقبضوا على من حاول الهرب منهم، وأل وا بأجسادهم الصغ رة على الأرض وطعنوهم بسهامهم التي اخترقت تلك الأجساد الغضة وصولاً إلى التراب، ثم رفعوا الأصغر سناً منهم من أرجلهم، وضربوهم بالأشجار والصخور. ارتعشت ع ون الأطفال رعباً... ل د أجهزوا على الكثيرين».

أسيرة من يانومامو، ثلاثينيات القرن العشرين[58]

ينتمي الكاراويتاري وضحاياهم إلى قبيلة يانومامو (Yanomamo) البالغ عدد أفرادها حوالي عشرين ألفاً من المزارعين ال بليين الذين يعيشون في الغابات المطيرة الاستوائية في الأمازون، على طول الروافد العليا لنهر أورينوكو (Orinoco River) في فنزويلا والبراز ل؛ وقد استمرت الحروب ين قراهم (بلغ متوسط عدد سكان كلّ قرية حوالي تسعين شخصاً) حتى وقتٍ قريبٍ – كانت الشاهدة على الغارة أعلاه فتاةً يضاء اختطِفت في سن الثانية عشرة، وعاشت ينهم في ثلاثينيات ال رن الماضي – غ ر أنّ تلك الحروب كانت ذات مستوى تنظيم وانضباط منخفض؛ وهو حال جميع حروب أقوام الصيد والجمع والمزارعين ال بليين. ففي كث رٍ من الأحيان، انفضت الأطراف المغ رة قبل أن تصل إلى وجهتها، وقد لا تزد ا صابات الناجمة عن الاشتباكات عن إصابات طفيفة ين فرد أو فردين.

وبالنسبة لمراقبٍ عاديّ، إنّ تلك الحروب برمتها حروب غير جدية؛ ولكنها ليست كذلك عندما تندلع معركة حديثة ومفاجئة للخصم. إذ يمكن للمهاجمين القضاء على قرى برمتها، وقتل الرجال أو إبعادهم، وأسر النساء، وقتل الأطفال الصغار.

هل كانت حروب اليانومامو جادةً؟ ولمَ التحصين الدوري لدى بناء المنازل في دوائر مغلقة ومفتوحة على ساحةٍ مركزيةٍ؟ ولماذا أحاطت بالقرى مناطق عازلة تبلغ مساحتها أحياناً حوالي ثلاثين ميلاً لضمان السلامة؟ ولمَ تردد اليانومامو في المغامرة بأنفسهم ضمن المنطقة العازلة عندما لا يكونون في مجموعاتٍ كبيرةٍ؟ (تماماً مثل الشمبانزي وأقوام الصيد والجمع) هذا يعني عدم تمكنهم من استثمار جزء كبير من أراضيهم. ورغم هذه الاحتياطات جرت الحرب، وبالطريقة التصاعدية نفسها التي حصلت بين المرنجن، إذ قدّر عالم الأنثروبولوجيا نابليون شاجنون (Napoleon Chagnon)، والذي درس اليانومامو في ستينيات القرن الماضي، أنّ معدل الوفيات من جراء الحرب بلغ 24 بالمئة من الرجال و7 بالمئة من النساء[59].

حلّت اكتشافات شاجنون موضع نقاش حاد من قبل أقرانه من علماء الأنثروبولوجيا، حتى إنهم اتهموه بالتشجيع على الحرب التي لاحظها بين اليانومامو. ويبدو أنّ معارضتهم له مردها ولاؤهم المفرط لرؤية روسو للمتوحش النبيل. على أي حال، هناك مجموعة أخرى من المزارعين القبليين الذين اتبعوا السلوك نفسه بالضبط، رغم أنّهم أثاروا قدراً أقل من الجدل بين أوساط علماء الأنثروبولوجيا.

لم يكن سكان مرتفعات غينيا الجديدة مزارعين

قبليين تماماً، إذ امتلأت الوديان الج لية المعزولة التي ي طنونها بالمزارعين منذ فترةٍ طويلةٍ، وهناك تعيش جماعات مثل ماي انجا (Mae Enga) في مناطق ذات كثافةٍ سكانيةٍ ت لغ حوالي م ة شخص في الكلومتر المربع الواحد (م ارنةً مع أقل من شخصٍ واحدٍ في الكلومتر المربع الواحد ل بائل اليانومامو كما لأقوام الجمع والصيد والشمبانزي)، وبهذه الكثافة لم بقَ لهم الكث ر لاصطياده، فزرعوا البطاطا، وقاموا بتربية الخنازر لتأمين طعامهم، ولكنهم من النواحي الاجتماعية والثقافية الأخرى كانوا مزارعين قبليين، ولم يكونوا فلاحين حضراً؛ فمستوطنات قبيلتهم مبعثرةٌ، وهي تشابه مستوطنات قبائل اليانومامو، وتضم مئات الناس، ولكلّ منها كيانٌ سياسيٌ منفصلٌ يتحمل مسؤولية الحفاظ على ب ائها، وهي مستقرةٌ بما يكفي لتشكل تحالفات معقّدة. ورغم ما سبق، عندما عبَر المنقبون عن الذهب الحاجز الج لي واكتشفوا مرتفعات غينيا الجد دة في ثلاثينيات ال رن المنصرم، كانت الحرب ين سكانه مستمرة، ولكنهم أصبحوا مضغوطين في عالمهم المحصور، وانخفضت المناطق العازلة ين ال رى إلى حوالي نصف ميل، وليس إلى ثلاثين ميلاً كما لدى قبائل يانومامو.

وجد علماء الأنثروبولوجيا أنّ معارك الماي انجا مؤقتةٌ في معظمها، وبدت لهم غ ر حاسمة، وأقرب إلى اللعب. فالجنود الح يون في الدول المتحضرة لا وقفون المعركة بسبب دء هطول الأمطار الغز رة، وظهر كلّ طرفٍ من أطراف النزاع مع حلفائه في ساحة المعركة، وبلغ عدد المحاربين الذكور عدة مئات، با ضافة إلى حضور النساء لتشجيعهم على القتال، وكانت المعركة تتم بتشكل خطوطٍ كيفما اتفق، وبهجومهم على بعضهم بعضاً، غ ر

أنّ تلك المعارك لم تكن معارك حتى الموت، وكانت المعركة المستمرة طيلة اليوم تُلغى عند تعرّض أحد ما لجروحٍ خطيرةٍ أو في حال قُتِل! وهذا ما دفع العلماء الدارسين لهذه ال بائل لل ول إنّ تلك المواجهات كانت تأخذ شكل ط وسٍ ولم تكن حروباً ح ي يةً.

لاح اً، دأ علماء الأنثروبولوجيا وضع سلسلة أنساب، وتسج ل كيفية موت كل شخص، وت يّن أنّ 25 بالم ة من الرجال ونحو 5 بالم ة من النساء في مجموعات ماي انجا قد قُتلوا في الحرب. ت دو المعارك المتتابعة غ ر مؤذيةٍ نسبياً، لكنّ خوض عشر معارك في العام على سبيل المثال يعني فقدان الكث ر من الناس على المدى الطويل. كما اتضح أنّ هذه المواجهات بمثابة م ياسٍ ل وة التحالف المنافس؛ فإذا

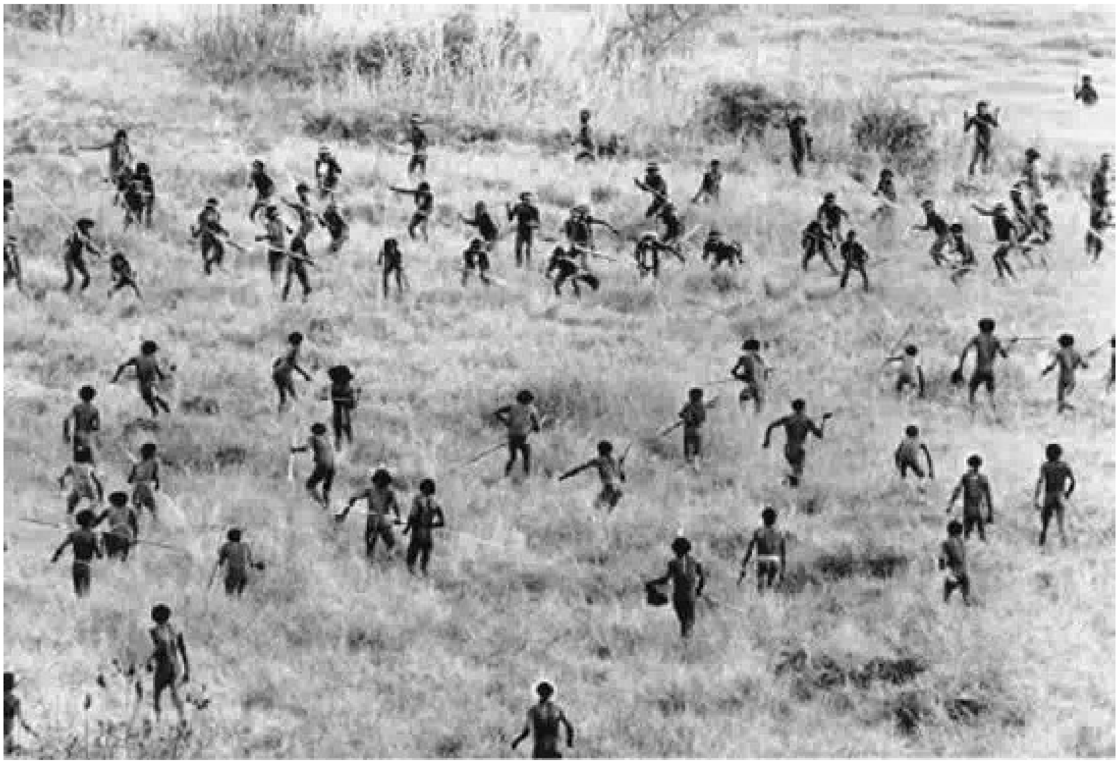

معركة داني الرسمية، مرتفعات غينيا الجديدة. على الرجال رمي السهام وقذف الرماح من دون ارتداء دروع. ابق يقظاً، ولا تدر ظهرك للعدو، وستكون بخير.

دا أنّ التحالف المنافس يعجّ بالناس مثل تحالف المجموعة، فسيعود الجميع أدراجهم إلى منازلهم وينسون الأمر رمته، لكن إن حدثت انشقاقات وهروب جماعي لأفراد أحد الطرفين، فسيدرك الطرف الآخر تفوقه العددي، وهنا يصبح الوضع خطراً؛ إذ تتتالى معارك النهار، وتفسح المجال لغارات الليل أو الفجر بهدف إبادة المجموعة المنافسة بأكملها. وت دو المعركة حاسمةً نوعاً ما، إذ انقرض حوالي 30 بالم ة من الفئات الاجتماعية المستقلة - الد رى - في كلّ قرنٍ من الزمن؛ إما بسبب ذبح رجالها بالكامل (وأسر نسائها)، أو خسارتهم المعركة وهروبهم ولجوئهم إلى أقاربهم البع دين؛ وهو الأكثر ش وعاً، وبالتالي تخليهم عن أراضيهم.

من المؤسف عدم ب اء المزد من مجتمعات الصيد والجمع والمزارعين الد بليين على قيد الحياة حتى وقتنا الحاضر، أو حتى الماضي الد ريب؛ لكي تتوفر لنا عينة إحصائية عن تلك المجتمعات، ولنتأكد من استنتاجاتنا حولها. لكن الأدلة المتاحة تظهر خوض أجدادنا الحروب منذ فترةٍ طويلةٍ.

ظهرت ٍعلامات على استخدام العنف واسطة الأسلحة منذ 7 عام، ٍوخاصةً الكسور الغائرة في الجمجمة، والتي قد تكون ناجمةً عن ضربات الهراوات. وأيضاً، هناك العدد من علامات الد طع على عظام ا نسان المنتصب، والتي تش ر إلى اجتثاث اللحم وأكله، وتتوفر أدلةٌ على هذا من أزمانٍ تاليةٍ، ويُرجح أن يكون هذا مرتبطاً بعمليات قتل.

تصاب الجماعات البشرية بالرعب في حضرة الموت.

وعلى الأغلب، يعود ذلك إلى معرفتنا التامة بد يقة موتنا ذات وم؛ وهو إدراك غ ر موجود لدى الرئيسيات. وقد دفعتنا هذه الد يقة منذ زمنٍ مبكّرٍ إلى دفن موتانا، وإحاطة قتل البشر بطوسٍ خاصةٍ؛ إذ كانت الطوس المعقّدة لتطهر المحاربين القتلة سمةً مشتركةً في جماعات ما قبل الحضارة مثل اليانومامو، وأكلة لحوم البشر، باعتبارها وسيلةً لاستيعاب و/أو استرضاء روح الضحية، وقد مورست هذه الطوس على نطاقٍ واسعٍ لدى الجميع على حد سواء؛ ولا يعني الدليل على أكل لحوم البشر ين أسلافنا البدائيين تصرفهم على هذا النحو للدوافع القتالية نفسها وفي سياق الحرب المستمرة نفسها، لكن الأمر وحي بذلك.

وبحلول زمن إنسان نياندرتال، أصبح الدليل أكثر قوةً؛ إذ ترجّح الأدلة الأحفورية المكتشفة في عدّة قارات – والتي يعود تاريخها إلى ما ين أربعين ألف سنة وم ة ألف سنة – أنّ سبب الكث ر من الوفيات كان إصابات بفعل أسلحة استخدمها ا نسان قديماً، ومنها جروح بالرماح، وجروح بالشفرة الحجرية التي تستقر ين الأضلاع. ووُجد دليل على حصول دفن جماعي في فرنسا. وتُظهر أكثر من 5 بالم ة من طوس دفن إنسان نياندرتال استعمالَ العنف بشكلٍ أو بآخر. وحيث إنّ العد د من الوفيات التي تحدث باستخدام العنف قد لا تترك آثاراً على الهياكل العظيمة، فإنّ هذا يعني أنّ الحرب قد حصدت أرواح عددٍ ك يرٍ من إنسان نياندرتال؛ تماماً كما فعلت بالنسبة لأقوام الصيد والجمع الحديثين نسبياً. ورغم ذلك، تبى شكوكنا حاضرةً بشأن النتائج، ولا نستطيع معرفة الد يقة[60].

كيف فاتنا الأمر كلّ هذه الفترة الطويلة؟ لـ د درس

كوينسي رايت[61] البيانات العائدة إلى 633 ثقافة دائية في عمله الضخم بعنوان (دراسة الحرب[62])، ولكن كيف استطاع استنتاج أنّ «أقل نزعة حربية كانت لدى الجامعين والصياديين والمزارعين الأوائل، وتزداد تلك النزعة لدى من ليهم من الصياديين والمزارعين، ينما الأكثر اندفاعاً نحو الحرب من ين الجميع هم المزارعون الأعلى (الشعوب الرعوية)»؟[63].

لا شكّ في أنّ لروسو داً في ذلك؛ إذ نريد أن نصدّق وجود المتوحش النيل لكي نقول إنّ الطبيعة البشرية سليمة، وما الحرب سوى اختراع ابتكرته الحضارة، كما أنّ هناك دوراً واضحاً لعبه احتقار الناس الذين يعرفون ماهية الحرب (الد ي ية) بشكلها المعاصر، والذين يفضّلون الهرب على المواجهة والتعرّض للموت، لكننا لم نقم بالعمل الحسا ي الواجب في هذا الشأن؛ لم نجرِ إحصاءً لعدد القتلى التصاعدي الناجم عن المعارك والغارات.

إذاً، لماذا خاضوا الحروب؟ من الغطرسة والجهل الـ ول إنّ الناس البدائيين كانوا يضحّون بحياتهم في كلّ مكان بسبب نشاطات ط وسية بحتة؛ كما لو أنّ أقوام الصيد والجمع لا يحبّون حياتهم بالـ در الذي نحبّ به نحن حياتنا، أو لم تكن لديهم درايةٌ بعواقب أفعالهم؛ إذ لا د أن هناك أسباباً منط ية جعلتهم يشنون هذا النوع من الحروب لآلاف السنوات في جميع الـ ارات. ومن الفائدة بمكان معرفة تلك الأسباب. فمن الواضح أنّ اختراع الحرب لم يكن من قبل بشر العصر الحديث، فقد ورثناها من أسلافنا.

تقع قرى يانومامو في الغابة ين قرى مجاورة لا يمكن

الوثوق بها تماماً. ويعت ر أغلب شعب اليانومامو أنّ الحرب ين الرى خطيرة ومستنكرة. ولو كانت هناك طريقة سحرية ي افها لاستخدموها دون شك، لكنهم يعلمون أنّه لا وجود لمثل هذا الأمر، ويعلمون أنّ ج رانهم أشرار أو سريعو التحول إلى أشرار، وأنهم غادرون وعدوان ون. وفي غياب الثقة الكاملة، تتعامل قرى يانومامو مع بعضها بعضاً من خلال التجارة، والزواج المتبادل، والتوصل إلى معاهدات سياسية رسمية غ ر مكتملة، وإثارة الرهبة ع ر الاستعداد العنيف للانتقام[64].

وإذا قمنا بتغ ير الأسماء، سنجد الحال نفسه في علاقة الـ وى العظمى في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى عام 1914. وأيضاً إذا استثنينا تفاصيل التجارة والتحالفات السياسية وشعور اليانومامو بمأزقهم، فسنجد أن الأمر مماثل في العلاقات ين جماعات الكاسكيلا والكاهاما من الشمبانزي في داية سبعينيات الـ رن الماضي قبل أن تتعرض الجماعة الأخ رة للفناء؛ وهي العلاقة ذاتها ين جماعات الشمبانزي بشكلٍ عام، ل يمكن أن يكون ذلك وصفاً معقولاً للعلاقة ين الجماعات المتجاورة من الذئاب والأسود والضباع أيضاً. هذه فكرة مزعجة بلا شك، ولكنها واقعية في الوقت نفسه: فالأرض لها أهميتها، وتجهد الحيوانات المفترسة للحفاظ عليها.

للمفترس علامة فارقة، إنّها ظاهرة المداهمة وشن الحرب على أعضاء آخرين من الفصيلة نفسها؛ وهذا لا يحدث سوى ين الحيوانات المفترسة. قد بدأ الأخلاقيون بالبحث عن علامة قا يل، لكن البراغمات ين سيلاحظون أنك إذا لم تكن مجهزاً بشكلٍ ما لقتل أعضاء من الفصائل الأخرى، فربما لن

تستطيع ق تل أعضاء ينتمون إلى فصيلتك نفسها بسهولة. وهكذا، نستطيع أن نجد فصيلتين فقط من فصائل ال ردة العليا والشمبانزي التي تقوم بالصيد بشكل منتظم؛ وهما فصيلتان من الرئيسيات تشاركان ق تل أفراد من فصائلهما نفسها بانتظام؛ وكذلك يفعل البشر. لماذا تقوم هذه الحيوانات المفترسة والبشر (وبعض الأنواع الأخرى) بشن نوع من الحرب؟ إنّه سؤال صعب ومث ر للجدل، لكن ا جابة بسيطة: يمكن ال يام بذلك لأنّ وظائف الأعضاء والعادات الاجتماعية تسهّل ال يام به.

ليست المخالب الفتاكة أو الأسنان الحادة الأساس الوحيد للقتل؛ فالنمور والص ور وابن عرس وغ رها من الحيوانات المفترسة الأخرى – التي تعيش وحدها أو في مجموعات مكوّنة من أسر – لا تنخرط في تجربة القتال حتى الموت ين تلك الحيوانات البالغة. فهذه وببساطةٍ مخاطرةٌ ك يرة؛ فمن المرجح أن تقتل النسبة نفسها في المعركة ين الأفراد المسلحين ج داً، ولن تكون هناك جدوى من كسب المعركة إذا كانت نسبة خطر الموت 50 بالم ة.

لا يؤدي الصراع على الهيمنة ين الحيوانات المفترسة التي تعيش في مجموعات إلى الموت، ولن يكون ذلك لصالح المجموعة. ولذلك، إنّ التطور قد زوّد هذه الأنواع بسلوكيات هيمنة مميزة تمكّن الخاسر في معركة الهيمنة من إنهاء عدوان المهاجم بالفرار والنجاة بحياته. لكنّ لفتات الاستسلام هذه لا تنزع فت ل العدوان في مواجهاتٍ فرديةٍ ين الجماعات المختلفة، ولا في تلك المواجهات المتعلقة بموقعٍ معيّنٍ في تسلسل الهيمنة ضمن المجموعة. إذاً، متى يحدث القتل ين الجماعات؟ ولماذا؟

تعيش الحيوانات المفترسة في مجموعاتٍ متفككة ومختلفة الأعداد، وتعتبر الحيوانات الكبيرة الوحيدة التي تقتل تلك البالغة من فصائلها بانتظام وبشكل متعمّد. وعندما تكون المجموعة كلّها معاً، لن تتجرأ أي مجموعةٍ منافسةٍ على تحمّل المخاطر الناجمة عن مهاجمتها، إلا أنّه لا بدّ من الانتشار بحثاً عن الغذاء، وما إن يبتعد أحد الأفراد عن مجموعته لبعض الوقت حتى يصبح عرضةً لخطر مواجهة عددٍ من الحيوانات البالغة من مجموعةٍ مجاورةٍ.

تعيش الأسود في (حديقة تشوبي الوطنية شمال وتسوانا) ضمن مجموعاتٍ تدافع عن أراضيها ضد هجمات جيرانها. وتتألف المجموعات من عشائر إناث... وخلال مطاردة حمار وحشي في إحدى الليالي، التقت مجموعتان من الأسود بالقرب من الحدود ونشب قتال بينهما. وخلال فوضى القتال، انعزلت إحدى الإناث من مجموعة ماومي المتسللة خلف خطوط القتال. شاهدناها وهي تحاط وتؤسر من قبل ثلاث لبوات معادية، ثم تكاثرت عليها تلك اللبوات المعادية وأصبحت سبعَ لبوات. بدا موتها مؤكداً لأنّه سيكون متعمداً. وقفت متأهبةً ومنتصبة الهامة وهي تزأر، كانت تنزف من كتفها، وكان بإمكانها مواجهة اللبوات من جهةٍ واحدةٍ وفي وقتٍ واحدٍ، لذلك دفعتها خبرتها إلى الالتفات إلى الخلف بشكل متكررٍ لتراقب تحركات الخصم؛ إذ إنّ عضةً واحدة في العمود الفقري كافية لقتلها. وكلما التفتت قفزت إحدى اللبوات باتجاهها، وما إن تصد إحداها حتى تندفع الأخرى نحوها. وكما يحصل في بعض ألعاب الأطفال البغيضة، أخذت كل واحدة تحاول الضرب أو العضّ، فيما حاولت الضحية المحاصرة واليائسة الدوران والتلوي والزئير، من دون أن تتاح لها فرصة للهرب،

ل دُفعت باستمرار إلى المركز. اقتربت ماتسومي زعيمة مجموعة ماومي في محاولة نقاذها، وسرعان ما طوردت إلى الخارج. وهكذا، استمر تعذب الضحية عدّة ساعات قبل أن تنهار وتموت، فغادرت اللبوات التي قتلتها، وتركتها لتنهشها الضباع. لد قامت المجموعة قتل إحدى اللبوات المنافسة لها بلا هوادة، وبالحد الأدنى من المخاطرة.

مقتل لبوة في فيلم الطبيعة (الأعداء الأبديون) عام 1992[65]

لا تأكل الأسود بعضها عادةً، ولم تكن المواجهة ذات صلة بالطعام؛ فقد تُركت جيفة اللبوة العجوز لتأكلها الضباع. تحدث عمليات قتلٍ مماثلة ين الضباع (والتي تكون مجموعاتها كمجموعات الأسود عبارة عن مجموعاتٍ من ا ناث المرتبطة بأواصر الدم)، وبين الذئاب (التي تُشكِّل مجموعاتها من الذكور التي تجمع ينها صلة قرابة)، وهذا يحدث أيضاً ين مجموعات الشمبانزي، وبين بني البشر من أقوام الصيد والجمع (وتقوم هذه المجموعات على مجموعة من الأقارب الذكور). وفي جميع هذه الحالات، تكون الضحية فرداً معزولاً من إحدى المجموعات، فيُبَض عليه ويُقتَل من دون أن تكون هناك مخاطر ك يرة بالنسبة إلى المجموعة المنافسة. لكن، هناك نوعان من أنواع الـ ردة العليا التي تشنّ غارات متعمدة، كما يوم البشر أحياناً بكمائن ل ياع بأحد الأفراد، ويشاركون في قتالٍ يخوضه الجميع ضد الجميع. ما الذي دفع إلى هذا السلوك؟ هناك الكث ر من الأجوبة من قبل داروين وخلفائه في العصر الحديث.

«إنّ الـ بيلة التي تضم الـعد د من الأعضاء الذين يتحلون درجة عالية من الروح الوطنية وا خلاص والطاعة

والشجاعة والتعاطف والاستعداد لمساعدة بعضهم بعضاً والتضحية بأنفسهم في سبيل الصالح العام، ستنتصر على معظم القبائل الأخرى، وهذا ما نُطلق عليه اسم الاصطفاء الطبيعي».

تشارلز داروين، 1871[66]

يذكر ريتشارد داوكينز في عمله (الجين الأناني[67]) أنه بالنسبة للأسد أو الغوريلا الذي يستولي على أنثى منافسه الميت، إنّ قتل ذرية منافسه السابق أمر معقول تماماً؛ إذ يعني هذا توقف الأنثى عن هدر طاقتها على تربية ذرية منافسه السابق، وعودة خصوبتها مرّةً أخرى؛ مما يسمح له بضمان مستقبله الجيني الخاص.

لكن، هل يُفسّر المنطق الجيني نفسه توجه الحيوانات المفترسة المنتمية لمجموعةٍ أو فئةٍ معيّنةٍ لقتل عضوٍ من المجموعة المجاورة عندما تستطيع ذلك دون أن تلحق الأذى أو الخسارة بنفسها؟ وما علاقة إدامة جيناتها بقيامها بقتل حيوانات أخرى من فصيلتها نفسها؟ إذ لن يعني ذلك الوصول إلى فرصٍ إنجابيةٍ أفضل، ولكنه يمنح المجموعة القاتلة ميزة تفوقٍ محتملة على المجموعة المجاورة، وذلك بإضعافها في عالمٍ يشكو من ندرةٍ مستمرةٍ وتنافسٍ محمومٍ على الموارد.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أنّ هذا النوع من التجمع بين الأفراد ليس أكثر من تحالفٍ مؤقتٍ، ويكوّن الصلات بين جنسٍ واحدٍ من الجنسين (الذكور بين الرئيسيات والذئاب، والإناث بين الأسود والضباع)، وقد تدوم المجموعة لعدّة أجيال، وتنمو لتنقسم إلى مجموعتين منفصلتين

(تتحولان بسرعة إلى مجموعتين متنافستين)، تنفصلان أو تفنيان، لكن من دون وجود وراثي دائم كما هو الأمر لدى الفصائل. غير أنّ الأمر بمثابة مجتمعٍ صغيرٍ مستقرٍ بما يكفي لتلعب حظوظه الجماعية دورها الأساسي في حسم مصير جينات الفرد، وهذا ما دفع المجموعات المتنافسة إلى قتل بعضها عندما تسنح لها الفرصة، ومن دون أن يشكّل ذلك خطراً كبيراً عليها.

ولهذا نجد بين الحيوانات المفترسة التي تحيا كمجموعات بعض الحيوانات المنخرطة في هذا النوع من السلوك؛ وهو أمر شائع جداً لم ندركه سوى قبل بضعة عقود. وهي الأكثر تطرفاً بين الحيوانات المفترسة من الرئيسيات والشمبانزي، والتي تنفّذ غارات متعمدة ضد الجماعات المنافسة؛ ربما لأنّها الأكثر ذكاءً بين الحيوانات المفترسة. لكن، تبقى الحجة الأساسية لتلك المنافسة والميزة التطورية هي افتراض شح الموارد في وقتٍ ما، وأنّ المجموعات ستعاني في زمن الشح.

لم يسبق للعالم أن خلا من الأحياء، ولطالما كان الطعام محدوداً. ولا تعني حقيقة الكثافة السكانية المنخفضة جداً لأقوام الصيد والجمع أو الكائنات المفترسة بالمقارنة مع كثافة المزارعين الذين ازدحمت بهم الأرض في وقتٍ لاحق، أنّ هناك مساحة واسعة تضمن انتشار الجماعات كافة، وتجنب التنافس على الموارد. ربما عاشت بعض الأجيال هذه التجربة السعيدة بعد انتقال البشر إلى الأراضي الجديدة التي تعذّر الوصول إليها سابقاً، لكن الأمر لا يدوم طويلاً؛ إذ سرعان ما تعج الأراضي الجديدة بالناس، وتبلغ كثافتهم حدودها القصوى التي تُصعّب عليهم الاستمرار بما

لديهم من موارد صيد، وهنا يعود الواقع الـ ديم إلى الواجهة من جد د.

لا يمكن الـ ول إنّ أسلافنا الـ دماء شنوا الحروب ضد بعضهم بعضاً لمعرفتهم المسبقة بأنّهم سيصلون إلى مرحلة الضغط السكاني الذي سيفجِّر النزاع ينهم وبين المجموعات المتجاورة (لذا، لن دأ قتلهم كلما سنحت الفرصة لنا)؛ ورغم معرفتنا المحدودة عنهم، إلا أنّ أقوام الصيد والجمع نادراً ما ررت حروبها بالصراع على الموارد، ل أرجعتها إلى ا هانات والشجار الذي قد يحصل بسبب النساء، وما شابه ذلك، وربما يـ وم الناس الآن بما فعله أسلافهم؛ لأنّنا بشر مدفوعون بالمنطق التطوري الذي شكّل هياكلنا الاجتماعية فضلاً عن ردود أفعالنا العاطفية. لكن وبمرور آلاف السنوات، نمت قدرة الناس على فهم عالمهم، وأصبحت بعض الحروب التي خاضتها الجماعات البشرية ذات أهمية، وأقرب بشكلٍ ما إلى الصراعات الحالية أو الصراعات المتوقعة على الموارد الغذائية.

ولمعرفة كيفية تحوّل هذه الصراعات إلى صراعاتٍ مزمنةٍ حيثما عاش البشر، نحن لا نحتاج إلى إثبات صلاتهم بزمن ما قبل ا نسان، أو م ارنة سلوكهم مع سلوك الجماعات المفترسة الأخرى، ل كل ما نحتاج إليه هو وضع ثلاثة احتمالات: يـ ول الأول بـ درة البشر المادية والنفسية على قتل أفرادٍ من فصيلتهم نفسها، والثاني بتكاثر البشر حتى لوغهم الـ درة الاستيعا ية للبيـ ة التي يتواجدون فيها وتجاوزهم تلك العتبة، والثالث بعدم أفضلية البشر في الحفاظ على يـ تهم وإمداداتهم الغذائية على المدى الطويل بالم ارنة مع الحيوانات. وإذا صحت هذه

الاحتمالات الثلاثة، فإن زمن ما قبل التاريخ كان حافلاً بالصراعات البشرية على الموارد، ولا بدّ أنّ الكثير من تلك الصراعات كان عنيفاً بشكلٍ ما.

حسناً، نعرف قدرة البشر على الفتك بعضهم بعضاً. وكما ورد في الاحتمال الثاني، إنّ البشر يميلون للتكاثر قبل العصور الحديثة ما لم تكن هناك تأثيرات خارجية مثل المجاعة والعنف. وقد لا نتمكن من إثبات ذلك بشكلٍ أو بآخر، لكنّ ما سبق يحمل بين طياته حقيقةً واقعيةً. ولا شكّ في أنّنا نجهل نجاح أي مجموعةٍ بشريةٍ قبل الحداثة في وقف النمو السكاني على المدى الطويل عن طريق تدابير طوعية، كما أننا لا نملك أمثلةً مشابهةً عن ضبط التزايد العددي بين الفصائل الحيوانية، إذ يمرّ الكثير منها بدوراتٍ منتظمةٍ من النمو العددي تتبعها دورات انخفاضٍ.

لا شكّ في أنّ الزيادة السكانية شهدت نمواً أبطأ بكثيرٍ لدى أقوام الصيد والجمع في عصور ما قبل التاريخ مما كانت عليه في ذروة الطفرة السكانية في القرن العشرين؛ عندما تضاعف الجنس البشري ثلاث مرّات من مليارين إلى ستة ملياراتٍ في غضون خمسين سنةً فقط. إذ وجدت الأمهات في العصور القديمة صعوبةً في التعامل مع أكثر من طفلٍ واحدٍ بسبب اضطلاعهن بمهمة حمل الأطفال ونقلهم؛ مما دفعهن إلى تمديد فترة الرضاعة الطبيعية لفترةٍ طويلةٍ، بما باعد بين ولادة الأطفال بمقدار أربع سنواتٍ بالمتوسط. ويمكن للمرأة العادية أن يكون لديها ما بين أربعة وخمسة أطفال خلال حياتها. من جهةٍ أخرى، مارست جميع المجتمعات البشرية تقريباً الوأد حتى فترةٍ قريبةٍ - إذ تشير دراسات الحضارات إلى موت نحو 15 بالمئة من

الأطفال (عدد ا ناث أك ر دائماً من عدد الذكور) بهذه الطريقة في المجتمعات من فترات أقوام الصيد والجمع حتى ريطانيا[68] الـ رن التاسع عشر - غ ر أنّ الوأد قرارٌ متعلقٌ رفاهيةِ الأسرة وليس رفاهية المجموعة، ولا يُعد وسيلةً متعمّدةً للسيطرة على عدد السكان. وحتى عندما كان الوأد مسموحاً، كانت معدلات وفيات الأطفال أقل من 50 بالم ة لدى أقوام الصيد والجمع، والذين لم واجهوا الأمراض الوبائية التي تعرضت لها المجتمعات الك يرة؛ وهو ما دفع بالسكان إلى النمو بطءٍ ولكن بثباتٍ. وعلى مبدأ الفائدة المركبة، لم يستغرق الأمر أجيالاً كث رةً لتصل تلك الأقوام إلى الـ درة الاستيع ا ية لأي منطقةٍ معيّنةٍ[69].

إنّ حـ يقة عدم بـ اء البشر ومن سبقهم في أراضيهم الأم في أفريـ يا، وانتشارهم في جميع البيئات على كوكب الأرض، يمكن أن تدعم طريقة حياة أقوام الصيد والجمع مهما كانت قاسية. وفي ذلك دليلٌ محضٌ على ازدياد عدد السكان. وإلا فما الذي دفع بعض الجماعات للانتقال؟ ومن أين أتى السكان ا ضافـون الذين ازدحمت بهم الأراضي الجـد دة؟ إنّ نمو السكان وعدم نمو الموارد (لم يعرف أقوام الصيد والجمع أي تقنياتٍ لزيادة إنتاجية أراضيهم) يعني أنّ هناك مأزقاً بانتظارهم، ولا مفرّ من مواجهته سوى بالجوع أو بالعنف.

هناك الكث ر من الأساطير المؤثرة التي تروّج لتناغم (السكان الأصليين) - سواء أكانوا من أقوام الصيد والجمع أم المزارعين الـ بليين أم المزارعين الأوائل - مع الطبيعة، وأنّهم كانوا بمثابة أوصياء صالحين على يـ تهم. للأسف، ليست هنالك أدلة تدعم فكرة تفوق الوعي البيئي

للبشر في وقتٍ مبكرٍ من وجودهم على الوعي لدى الحيوانات التي شاركتهم البي ة نفسها. ربما كانت أساليب أقوام الصيد والجمع قليلة الأذى لبيئاتهم، ولكن مع احتساب محدودية وسائلهم سنجد أنّهم أكثر قسوة من بشر العصر الحديث.

لعلّ أ رز مثال على ذلك هو (التحوّل الخاطف في العالم الجد د)، والذي تمثّل بالانقراض الجماعي للحيوانات الك يرة الصالحة للصيد، وذلك عقب وصول أول دفعات من البشر الحديثين إلى جميع ال ارات والجزر خارج أراضي الصيد ال ديمة حيث عاشت جماعات البشر البدائيين في أفري يا وأوراسيا.

تطورت النسخ المتعاقبة من أسلافنا وأقاربهم وانتشرت في جزر ة العالم[70] على مدى ملا ين السن ين، من هومو أسترالوبيثكس[71] وا نسان المنتصب إلى إنسان نياندرتال والكرومان ين[72]. وفي ذلك العالم ال ديم، كان لمعظم الحيوانات المفترسة الوقت الكافي للتكيّف مع التحسن التدريجي في مهارات الصيد. لكن ما إن وصل البشر الحديثون إلى أجزاء جد دة من العالم لم تستطع الجماعات البشرية السا قة الوصول إليها، وذلك ع ر ال وارب، حتى حصلت مذبحة مريعة؛ إذ لم تعرف الحيوانات المحلية البشر أو تخاف منهم سا اً، ولم يُظهِر الصيادون أي نوعٍ من ضبط للنفس.

ل د كانت نتيجة وصول أولى دفعات البشر إلى كلّ مكان واحدةً، إن كان إلى أستراليا قبل أكثر من خمسين ألف سنة، أو إلى الأمريكيتين قبل نحو أربعة عشر ألف سنة، أو جزر الكاريبي الك يرة قبل أربعة أو خمسة آلاف عام،

أو الجزرة الكبيرة في مدغشقر منذ حوالي ألفي سنة، أو جزر هاواي حوالي 300م، ونيوزلندا حوالي 700م؛ فقد انقرضت معظم أنواع الحيوانات الكبيرة أو الكثير منها، ولم يستغرق الأمر خمسة قرونٍ في بيئاتٍ أصغرَ مثل نيوزلندا حيث اختفت جميع المواس[73] العملاقة، ومدغشقر حيث انقرضت حوالي عشرين فصيلة من الحيوانات بما فيها الليمور[74] العملاق والسلاحف العملاقة ومجموعة متنوعة ومحلية من فرس النهر، وفي الأمريكيتين - وهما قارتان كاملتان - استغرق الأمر أكثر من ألف عام لتنقرض حيوانات الكسلان الأرضية العملاقة والمستودون[75] والجمال والبيسون[76] ذا الصوف وحتى الخيول؛ لقد تعرضت جميعها للصيد الجائر، وحصل ذلك في طرفة عينٍ بالنسبة لمجرى حياة الفصائل الحيوانية. وبما أنّ أقوام الصيد والجمع قد وجدت نفسها محاطة بالكثير من الحيوانات ذات الحوافر، فقد ازداد نموهم السكاني أضعافاً مضاعفةً - وربما تحركت حدود الاحتلال البشري إلى الأمام عدّة أميال سنوياً - على حساب تضاؤل أعداد الحيوانات التي بلغت حدّ الانقراض.

حاول بعض الناس دحض دليل التحوّل الخاطف الذي سببته حملات الصيد الكبيرة بالحديث عن تغيّر المناخ والأمراض، لكنها حججٌ لا تستند إلى أي دليل؛ إذ إنّ مصادفة تزامن وصول الإنسان مع الانقراض الجماعي في العديد من البيئات لا يفسح المجال أمام أيِ دليلٍ آخرَ[77]. وبالإضافة إلى هذا، أظهرت الدراسات الحديثة أنّ أقوام الصيد والجمع الذين ظلوا على قيد الحياة، مثل الهادزا (Hadza) في تنزانيا، ما زالوا يحافظون على السلوكيات القديمة نفسها.

«لا يهتم الهادزا كثيراً بالحفاظ على مواردهم الغذائية.

فعندما تقتلع النساء الجذور، لا بالين بعدم نموها مرّةً أخرى، وعندما يجمعن التوت يخلفن وراءهن الأغصان المتكسرة، ويحملن الأغصان الحاملة للثمار كما هي إلي المعسكر... وعندما يعثر الهادزا على عش نحلٍ ريّ داهمونه، ولا يتركون شمعاً يشجع النحل على البناء... ولا حدود منهجية للصيد لديهم... ولا مانع من إطلاق النار على إناث الطرائد (حتى اناث الحوامل) أو الفراخ الصغيرة... وإذا قُتلت طريدتان في اليوم نفسه، يتم التخلي عن الطريدة الأكثر بعداً».

تحديق أنثروبولوجي عن نظرة الهادزا البيئية، 1960[78]

لماذا قد يتوقع المرء شيئاً آخر تماماً؟! فقد استخدم صيادو ما قبل التاريخ من البشر مهاراتهم في إشعال النار، فأضرموا النار في مساحاتٍ هائلةٍ من الغابات يجاد مساحاتٍ لهم؛ رغم أنّ هذا كان يعني ابتعاد الحيوانات الرعوية الكبيرة التي كانت طرائدهم المفضّلة. لذا، من الخيال وصفهم بالبيئيين، أو أنّهم قد فهموا يتهم وتأثير أفعالهم عليها، أو أنّهم قد فكروا في هذا من الأساس. ربما كان هناك من قدّس الطبيعة منهم، لكن ذلك لا يعني أنّه قد فهمها.

وبالتالي، حتى في المناطق المسكونة حديثاً، تنمو التجمعات البشرية، وتتعرض الموارد المتاحة من طرائد ومواد غذائية إلى ضغوطات متزايدةٍ، ممّا يجرّ الجماعات إلى الانخراط في حربٍ على مستوى منخفضٍ من النوع التقليدي مع التجمعات الجارة، وإلى الغارة عليها. وهذا يعني حصر الصيد في البقع الوسطى من أراضيها لضمان سلامتها. وتساهم الحرب، بالإضافة إلى وأد المواليد غير المرغوب بهم في حماية

السكان من الجوع ما دامت الأمور ج دة، لكنّ أي انقطاعٍ مرحليٍ في ا مداد الغذائي - بسبب تغيّر الط س، أو ت دّل طرق هجرةٍ الحيوانات، أو حدوث عوامل أخرى غ ر متوقعةٍ - يعني أزمةً طارئةً. فمعظم الأطعمة لا يمكن تخزينها لفتراتٍ طويلةٍ، ولن تمضي أسا يع أو شهور حتى يعاني الجميع من الجوع. وبما أنّ البشر موهوبون بخاصية التوقع، فهم درکون ما ينتظرهم في المستقبل إذا استمر الوضع على حاله، كما أنهم يعرفون بطبيعة الحال معاناة المجموعات الأخرى المجاورة لهم من المشكلة نفسها. وعندها، من المحتمل أن تصبح الحرب، ولأول مرّة، نشاطاً عقلانياً بالكامل (وبشكلٍ لا رحمة فيه)، وسيا اتل الجميع دلاً من الاكتفاء بمشاهدة أطفالهم وهم يتضورون جوعاً.

لكن، كيف سيساعدهم القتال في تخفيف معاناتهم؟ بالتأك د، إن للأراضي المحرمة الموجودة ين المجموعات المتنافسة دوراً ك يراً في ذلك؛ فهي تشكّل ما يز د عن نصف الأراضي، وهي المكان الذي ستتجمع فيه الطرائد الباقية على قيد الحياة هرباً من الصيادين، ولا سبيل آمن لاستغلال تلك الأماكن والطرائد الموجودة فيها سوى بالقضاء على المجموعة الموجودة في الجانب الآخر من المنطقة العازلة أو إبعادها عنها؛ وهو السياق المتبع من قبل عشرات الآلاف من المجموعات اليائسة على مدى ملا ين السنين. وإذا كان المهاجمون أكفاء ومحظوظين، فسينتهي الأمر بهجومٍ واحدٍ مباغتٍ، أي مجزرة، وعندها سيكون النصر كاملاً. أما إذا لم يحدث هذا، فلا مفرّ من حرب استنزافٍ طويلةٍ، وربما يستعين الطرفان بحلفائهما في الصراع. وحقيقة أنّ هذا قد لا يحدث في كث رٍ من الأحيان ليست على قدر الأهمية من حدوث هذا مراراً وتكراراً، ولا شكّ في أنّ هنالك وماً آخر قادماً

بلا ريب، وسيفعل جيرانك الأمر نفسه تجاهك، وهكذا تصبح الاشتباكات والتحالفات والتحركات الحربية روتيناً حياتياً، وتصبح الحرب الخطيرة احتمالاً قائماً بشكلٍ دائمٍ.

لا يرفض علماء الحيوانات الراقية التفسير التطوري للسلوك الحربي لدى الشمبانزي - فمن المحتمل أن تتمتع قردة الشمبانزي المحاربة والبارعة في الأعمال العدوانية بموارد أفضل لتربية صغارها، وبالتالي بالقدرة على تمرير جيناتها الخاصة بها - رغم عدم وجود من يتصور أنّ لأفراد الشمبانزي حساباتٍ دقيقة مثل هذه، وأيضاً لا يشعر هؤلاء العلماء بالحيرة في حال هاجمت جماعات الشمبانزي جيرانها من دون أن تكون هناك ندرة في الموارد. وسواء أكان هذا السلوك مجرد نمطٍ ثقافيٍ متأصلٍ، أو وراثياً بشكلٍ جزئيٍ، فلا قدرة للشمبانزي على التحكم به.

وعلى النقيض من علماء الحيوانات الراقية، تردد علماء الأنثروبولوجيا التقليديون كثيراً في قبول إمكانية امتلاك الجماعات البشرية في عصور ما قبل التاريخ تقليداً ثقافياً راسخاً لشنها الحروب على الجماعات المجاورة، وأنّ براعتهم في الحروب منحتهم فرصاً أفضل للعيش في الأوقات العصيبة، وبالتالي في إدامة جيناتهم. وبما أنّ أولئك العلماء كانوا مفتونين بفكرة (المتوحش النبيل)، فقد وجدوا في دراستهم لأولئك البشر أنّ ما فعلوه كشكلٍ من أشكال الحرب لم يكن أكثر من انغماسٍ في نشاطٍ طقوسي - وكأنه عملٌ فنيٌّ في منحى من المناحي، وفي منحى آخر أشبه بتمارين صحية في الهواء الطلق للصياديين الذين لم يجدوا طريدةً يصطادونها - ولا علاقة له بأهدافٍ اقتصاديةٍ أو سياسيةٍ. وفي هذا الشأن، كتب عالم الأنثروبولوجيا روث بنديكت (Ruth Benedict): «لم تنشأ فكرة الفتح لدى

سكان أمريكا الشمالية الأصليين مطلقاً، وهو ما دفع القبائل الهندية للقيام بما هو متطرف للغاية؛ أي فصل الحرب عن الدولة... كان وسع أي رجلٍ قادرٍ على جذب تابعٍ إجراء طقس الحرب في المكان والزمان اللذين يختارهما، ووصل الأمر إلى قدرته على تحديد مدة الحملة في بعض القبائل، لكن هذا لا دوم حتى عودة طقس الحرب مجدداً. الدولة... لا مصلحة لها في هذه المغامرات المرغوبة جداً لمظاهر الفردية القوية»[79].

لم تكن هناك دولة في أغلب القبائل الهندية الأمريكية، لكن التأكيد على الفصل التام بين الحرب والدولة جاء بغرض إثبات أنّ ما فعله الهنود لم يكن تلك الظاهرة الرهيبة التي نعرفها ونطلق عليها اسم حرب، وهذا ما حاول عالما أنثروبولوجيا آخران إثباته، وهما ارنست والاس (Ernest Wallace) وإدوارد آدامسون هوبل (E. Adamson Hoebel)، عن طريق القول إنّ أعلى شرفٍ ينالُه محارب من هنود السهول العظمى لم يكن قتل العدو، وإنما ممارسته طقس إثبات الهيبة؛ أي الاقتراب من العدو من دون أسلحة، ولمسه بالعصا أو اليد. وبالتالي، كانت الحروب بين القبائل بغرض منح المحاربين فرصة إظهار شجاعتهم. وهكذا، كان المحارب الأشهر والأكثر احتراماً في قبيلة الكومانشي (Comanche) هو الرجل الذي يحصل على بطانية مصنوعة من قبل شعب الأوت (Ute) – وهم أعداء قبيلته – ويستخدم تلك البطانية للتجول بينهم من دون سلاح.

«وبحلول الظلام، لفّ البطانية فوق رأسه، وتجوّل بها في مخيّم الأوت، وسمعهم يلعبون لعبةً دويةً في داخل أحد الأكواخ، فدخل من الباب باستخدام تنكره وانضم إلى المتفرجين من دون أن يثير انتباه أحد منهم، ثم أخذ

ق ترب منهم ويلمسهم واحداً واحداً. وبعد أن لمسهم جميعاً، هرول خارجاً ليعود إلى صد قه، وبذلك نال من أعدائه العشرين في ضربةٍ واحدةٍ؛ وهذا إنجازٌ عظيمٌ»[80].

وبالتأك د، تشتمل الثقافات التي تسود فيها قيم المحارب على مختلف العادات والأعراف المتناغمة مع عقلية المحارب؛ دءاً بالمباغتة الخاطفة وانتهاءً بالمبارزة. ورغم عدم وجود علاقة ين هذه الأنشطة وظيفياً وكسب الحرب، إلا أنّ هذا لا يعني أن الحروب التي كانت تخوضها تلك الثقافات بلا معنى، فقد تكون معاركهم سي ة التنظيم وتفتقر إلى الحسم وفقاً لمعا ير الثقافات الأكثر انضباطاً، وربما يميل المحاربون للهروب عندما تسوء الأمور ويفضلون القتال في ومٍ آخرَ، لكنّ هذا لا ينفي موت الناس بأعدادٍ ك يرةٍ. وفي النهاية، هناك حـ يقة واقعة: تتوسع بعض الجماعات أو الـ بائل، وتنحسر قبائل أخرى أو تختفي عن بكرة أ يها.

إنّ الـ ول إن تورط الجماعات والـ بائل في صراعات بسبب شتائم أو خطف نساء أو عدِاء الأجداد لا يمكنه التغطية عن الأسباب العميقة والجدية للصراعات. ففي مستوى معيّن، يمكن الـ ول إنّ السبب الوحيد لاندلاع الحرب العالمية الأولى هو اغتيال غافريلو رينسيب (Gavrilo Princip) للأرشيدوق فرانز فرديناند (Archduke Franz Ferdinand)، لكننا نعلم جميعاً أن هناك مستوىً آخرَ من العلاقة السببية، وهذا موجود دائماً في مثل هذه الحالات.

قد بدو هذا النوع من الحرب التي شنّها أسلافنا طفولياً بالنسبة للعقل الحديث؛ فهم إما لم يعرفوا السبب الذي دارت حروبهم من أجله (حماقة منهم)، أو قاتلوا فقط من أجل الاستحواذ على النساء و/أو بسبب بعض ا هانات لشرف

المجموعة (وهذا يبدو سخيفاً)، عدا عن عدم قتالهم أبداً كما ينبغي؛ إذ كانوا ينتقلون بين المعارك مع الحرص على عدم الاقتراب من العدو كثيراً، وينصبون الكمائن لقتل خصمٍ واحدٍ، أو يتسللون خفيةً للنيل من أناسٍ نائمين، وبالتالي يرتكبون مجزرة. كان هناك قدر بسيط من الاستراتيجية، وانضباط أقل، وحتى شجاعة عادية. ولذلك، إنّ أجيالاً من المؤرخين العسكريين ممن نشأوا على مذهب كلاوزفيتز[81] (Clausewitz)، لا يعتبرون تلك حروباً (حقيقيةً).

لكن، علينا النظر من الجهة المقابلة؛ حيث الأرقام المروّعة: قُتِل 24 بالمئة من ذكور يانومامو، و7 بالمئة من الإناث بسبب الحرب، وهو ما يعني في حال الأخذ بعين الاعتبار الجنسين معاً معدلَ إصابات قاتلة نسبته 15 بالمئة في كلّ جيل. أما بالنسبة للمرنجن في أستراليا، فقد قُتِل 25 بالمئة من الرجال في المعارك، وراح 25 بالمئة من الرجال و5 بالمئة من النساء ضحية الحرب التي دارت بين سكان مرتفعات غينيا الجديدة، كما دمرت الحرب ثلث عديد المجموعات الموجودة في كلّ قرنٍ من التاريخ (ناهيك عن معدل إصابات بنحو 30 بالمئة بين ذكور الشمبانزي نتيجة الحرب)، وإذا لم تكن هذه حرباً (حقيقيةً) فإنّها شكلٌ سيئ منها.

بالإضافة إلى ذلك، إنّ الاختلافات بيننا وبين أسلافنا أقل مما تبدو. ربما كان البدائيون غامضين في ما يتعلق بالحرب التي خاضوها، لكن التنوع المذهل في الرأي بين الأمريكيين حول دوافع حكومتهم في غزو العراق عام 2003 يشير إلى أنّ هذه ليست مشكلة البدائيين فحسب؛ إذ إنّ الوقوف في ميدان المعركة تحت النار، حيث يوجد خطر

الموت في أي لحظة، سلوكٌ حديثٌ بكلّ تأك دٍ، ولكنه بالضرورة ليس سلوكاً ذكياً. فإذا عدنا إلى لبّ الموضوع المتعلق بالضحايا، لا سبيل لم ارنة ضحايا محاربي ما قبل التاريخ بضحايا جنود الحضارة: تحملت قلة قليلة من المجتمعات معدل وفيات بلغ 15 بالم ة من السكان في ج لٍ واحدٍ، ناهيك عن ب ية الأجيال.

إنّ نسبة 15 بالم ة من حالات الوفاة لكلّ ج لٍ في لدٍ بحجم الولايات المتحدة تعني مليون حالة وفاة بسبب الحرب في السنة، وفي كلّ سنة وإلى الأ د، وهذا رقم لم تعرفه الولايات المتحدة في جميع حروبها منذ استقلالها منذ أكثر من قرنين وربع، ونادراً ما اقتربت الدول التي تحملت ال ص ف العنيف والحروب البرية الك رى على أراضيها من نسبة الخسائر هذه؛ رغم اقتراب معظم دول أوروبا الوسطى والشرقية من ألمانيا إلى روسيا من هذه النسبة خلال الحرب العالمية الثانية - ولم يشهد أي مجتمع حديث هذا المستوى من الوفيات العنيفة على مدى فترةٍ طويلةٍ من الزمن، فحياة أجدادنا في عصور ما قبل التاريخ كانت منغمسةً في الحرب بشكلٍ واضحٍ - فحروب اليوم متقطعة، ولكنها تسبب ما تسببه من وفيات بمستوى منخفض أكثر وهلع دائم.

تم تعليمنا أنّ نهوض الحضارة كان سبباً في استعار الحرب (متحضرون عصريون خ يثون م ا ل متوحشين نبلاء)، لكن الدلائل تش ر إلى خلاف ذلك؛ فقد ساهمت المجتمعات الجماعية في تخفيض معدل ا صابات من جراء الحرب بنسبةٍ حادةٍ، وهي تحارب واسطة الج وش التي تضم نسبةً أقل من السكان الذكور م ارنةً مع وجود الجميع في الفرقة المحاربة. وخاضت تلك الج وش لفتراتٍ طويلةٍ

ع ر التاريخ معركةً أو معركتين من المعارك الك رى في العام، وكانت خسائرها في وم المعركة الفعلية، وهي أقل بكث رِ من خسائر أقوام الصيد والجمع على المدى الطويل. ومنذ ظهور الحضارة، لم تكن خسارة أجيالٍ عدة دةٍ من البشر تتعدى 2 أو 3 بالم ة من السكان نتيجة الحرب (باستثناء الغزوات البدوية المتكررة قبل الد رن العشرين).

لدينا أيضاً تفسير آخر لم ينتبه له كث رون؛ وهو وضّحِ ولو بشكلٍ أقل الانخفاض الحاد في عدد القتلى نتيجة الحرب. إذ لم يكن هناك بُعدٌ استراتيجي للمجتمعات البدائية الصغ رة من أقوام الصيد والجمع والمكوّنة من ثلاثين أو أربعين شخصاً وبضع مئاتٍ كحدٍّ أقصى، كما في حالة المزارعين الدبليين؛ فقد عاش الجميع على خط الجبهة إذا جاز التع ير. أما في مجتمع زراعي مستقر ومؤلف من مليون شخص مثلاً، فإنّ عدداً قليلاً لا تتجاوز نسبته 5 بالم ة منهم يعيشون على

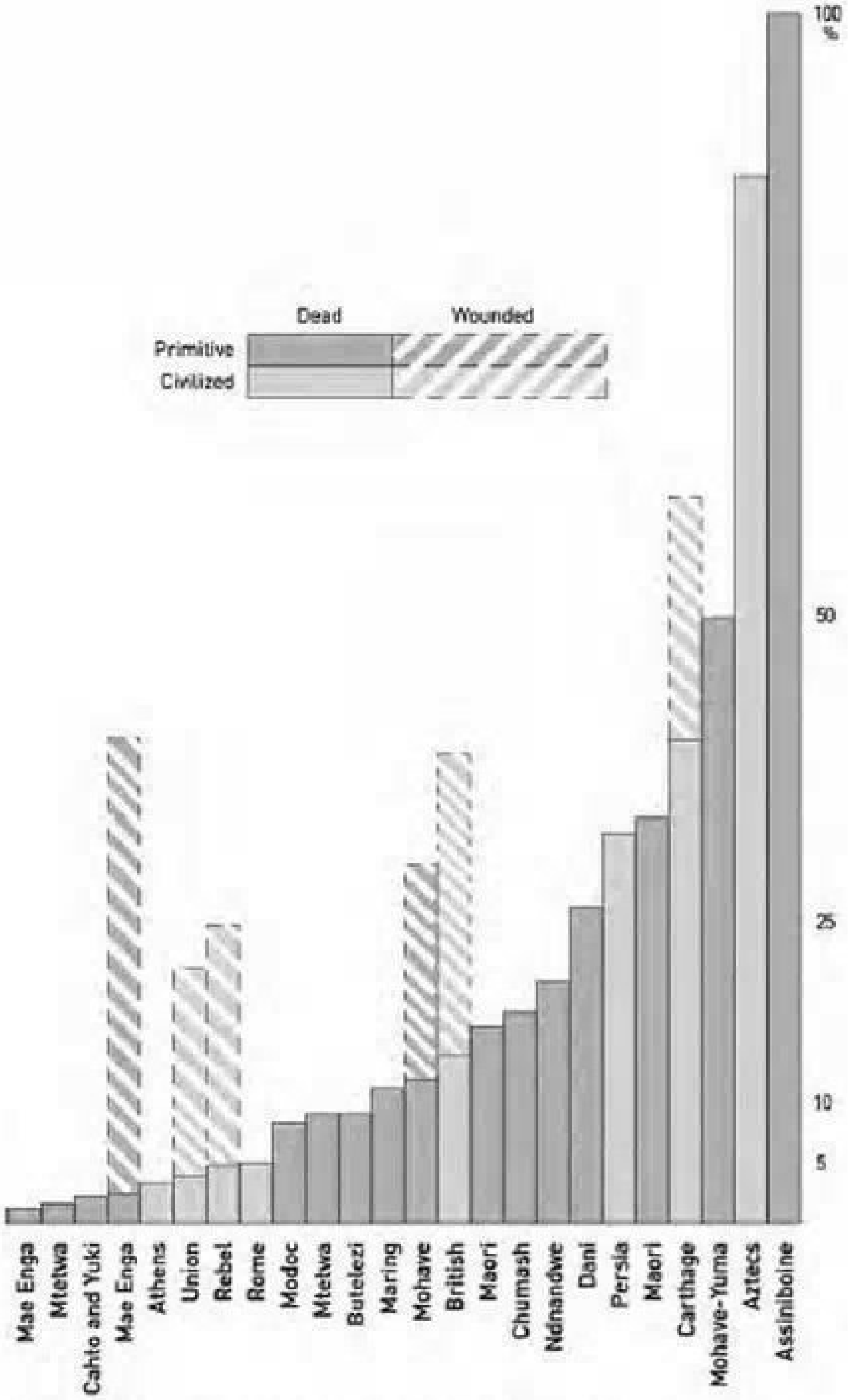

Casualties (percentage killed and wounded) in various tribal, ancient and modern battles.

الضحايا (النسبة المئوية للقتلى والجرحى) في مختلف المعارك التي خاضتها القبائل والشعوب البدائية والشعوب المتحضرة.

مسافة مسير ومٍ واحدٍ سيراً على الأقدام من الحدود مع دول مجاورة قد تكون عدائية، ولن تنقض تلك المجتمعات على بعضها بعضاً ببساطةٍ؛ على الأقل عند دايةِ حربٍ ما، ل ستحارب فقط على حدودها واسطة الج وش. غ ر أنّ النزاعات الحديثة التي شهدت وقوع أعدادٍ ضخمةٍ من القتلى من دون استخدام الأسلحة الثقيلة كانت ين السكان المتنافسين في البلد نفسه؛ حيث يصبح الجميع على م ربة من عدوٍ محتملٍ. ومنها على سبيل المثال الحرب الأهلية في وغوسلافيا خلال الحرب العالمية الثانية (والتي قُتل فيها حوالي مليوني شخص رغم عدم خوض أي معركة ك رى على الأراضي اليوغوسلافية)، أو ا بادة الجماعية في راوندا عام 19 (والتي اغت ل فيها 10 بالم ة من السكان من قبل ج رانهم خلال بضعة أشهر فقط). وعلى كلّ حال، وفي معظم الأوقات، تمتعت البلدان الك يرة ذات الثقافات الأكثر تجانساً بمستوى من الأمان أفضل بكث رٍ.

لكن خلال ال رن الماضي وحتى الآن، شهدنا تطوير الكث ر من الدول الصناعية قدرتها على تع ة مواردها الهائلة، وإرسالها ج وشها بالملا ين إلى جبهات القتال، ومن ثم وضعها إمكانياتها لنقل المعركة إلى (جبهة العدو المباشرة) ع ر السماء. وهكذا، ورغم مضي الأزمان، تعود المجتمعات المتقدمة مرّةً أخرى إلى حالةٍ قريبةٍ من حالة أسلافها؛ حيث يتساوى جميع البشر باحتمال الموت الفوري والره ب نتيجةً للحرب. لـ د عدنا بعد عشرة آلاف عام إلى نقطة البداية في دائرة الزمن، وأصبح الجميع مرّةً أخرى على مرأى من الخصم طيلة الوقت، حتى إنّ أك ر الدول تحيا تحت

تهدد ا بادة، ولا يعدو الأمر عن كونه مخاطرة صغ رة في عامٍ ما؛ تماماً كما كان الأمر بالنسبة للجماعات البدائية من أقوامِ الصيد والجمع، لكن مع عاملٍ تصاعدي ع ر الزمن، وهو أمرٌ خطيرٌ ويدعو لل لق العميق.

إذاً، هل نحن محكومون بالفناء لا محالة؟ ليس بالضرورة، فقد تعلمنا وتغيّرنا خلال آلاف السنوات التي أمضيناها في مجتمعاتٍ جماعيةٍ، كما أننا لا نخضع للحصار في معضلة مالثوسيةٍ[82] خاصةٍ بأقوام الصيد والجمع؛ إذ لسنا مضطرين للكفاح من أجل الب اء على قيد الحياة. ورغم أنّ للحرب جذورها العميقة في نفوسنا البشرية، إلا أن هذا لا دينن ا من ناحية الحرب الدائمة مثلما دينن ا التقليد الطويل في قتل المواليد من حيث استمراره في المستقبل.

ل د بُني جزء ك ير من عقليتنا والكث ر من مؤسساتنا على فرضية أنّه لا مفر من الحرب، ولا سبيل للخروج من هذه الدوامة ال ديمة، لكن المصلحة الذاتية وربما التعاطف ل عبان دوراً في دفعنا ب ع داً عن الحرب نحو المز د من السلوك التعاوني. ل د استمرت ال بائل الصغ رة الموجودة في مرتفعات غينيا الجد دة في خوض حروبها المريعة في داية الأربعينيات من ال رن الماضي - حتى أثناء اضطرام حروب أك ر حولها - كما روي يتر ريختر (Peter Richter)؛ وهو خ ير في مجال التطور الثقافي في جامعة كاليفورنيا في ديفيز: «لكن ب عد انتهاء الحرب العالمية الثانية، دأت الشرطة الأسترالية بالتجول هناك، وإبلاغ السكان ب عدم قدرتهم على الاستمرار في الحرب ب عد الآن، فاستبشر سكان غينيا الجد دة بالخ ر، وغمرتهم السعادة لاكتشافهم العذر المناسب»[83].

الفصل الرابع
نشوء المعركة

«يا رجل، إذا فررنا أنا وأنت من هذه المعركة، فهل سنعيش إلى الأبد دائمي الشباب وخالدين!؟ لذا، لا أود الاستمرار في القتال، ولا تشجيعك على البقاء في ميدان المعركة؛ حيث ينال الرجال المجد، ولكنها أرواح الموت على مقربة منا بالآلاف، فلا فائدة من التنحي جانباً أو الفرار منها. اسمحوا لنا بالمضي قدماً ونيلً المجد لأنفسنا، أو لنتركه للآخرين».

ساربيدون الليكيانس، بحدود 1200 قبل الميلاد [84]

«هيا يا أبناء الفاسقات! هل ستعيشون إلى الأبد؟».

الرقيب في سلاح المدفعية دان دالي، مشاة البحرية الأمريكية، بيلو وود، 6 حزيران 1918

إنّ التوهم بتفوق الحرب المتحضرة على الحرب (البدائية) من ناحية الترويع قد يكون خاطئاً من وجهة نظر إحصائية، ولكنه موجود بـ وة طالما أنّ محور الحرب المتحضرة هو المعركة؛ وهي حدث ضخم مسيطر على جميع الحواس والعواطف. قد لا يكون إثبات هذا الأمر ممكناً، ولكنه افتراض صحيح. فللمرّة الأولى، يجتمع خمسة آلاف من البشر الذكور معاً في مكانٍ واحدٍ، وهم ينتمون إلى ج وش التقت لخوض معركة. قد بدو هذا الرهان عادلاً وآمناً بالنسبة لجميع البشر المحتشدين معاً لأول مرّة، مـ ارنةً بالأساليب الـ ديمة للأقوام السابـ ين، لكنه رهان سيودي إلى أوّل مذبحةٍ حـ يـ يةٍ في التاريخ البشري بعد وقتٍ قصيرٍ.

ربما اندلعت تلك المعركة قبل خمسة أو ستة آلاف عام؛ رغم أنّنا قد نرى جيش ذاك الزمان أشبه بالرعاع المفتقرين للانضباط، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للمعا ير التي سبقت تأسيس الج وش من حيث الانضباط والتنسيق. ورغم أنّ جنود ذلك الزمن حملوا الأسلحة عينها التي استخدمها الصيادون والمحاربون لاصطياد الحيوانات، ولحل النزاعات في ما يـ نهم لآلاف السنوات - من رماح وسكاكين وفؤوس وأقواس وسهام - لكنهم وقفوا هناك وقاتلوا، ولو لبضع دقائق. كان ذلك شـ ئاً جد داً بالنسبة للعالم؛ أي إعلان العـ د د من الرجال عن طاعتهم لـ ائدٍ واحدٍ وقتلهم أعداءه لتحـ يق أهدافه. لـ د كان هذا أكـ ر تجسيد حي للسلطة منذ سالف الأزمان وحتى حصوله، ولا مـ اومة للجيش الحديث إلا بجيشٍ آخر مثله.

ومع مرور الزمن، أخذت المعارك شكلها الكلاسيكي الكامل. لقد كان ذلك قبل ثلاثة أو أربعة آلاف عامٍ، وكانت المعارك مزيجاً استثنائياً من القتل التلقائي والدراما النفسية الشاملة، وبعيدةً بما يكفي عن المعارك البدائية لحروب ما قبل الحضارة؛ فقد أُمر الجنود بالتقدم من قبل رتبٍ أعلى خلفهم ليواجهوا الغرباء المجهولين في خط العدو المواجه لهم. وفي النهاية، كانت مواجهة سريعة بين زوجٍ من الأفراد يهاجم أحدهما الآخر للحظة قبل أن يطعنه بالحربة ويسقط مضرجاً بدمائه. لا شيء شخصي في هذا الصراع، «إذ كانت دروعهم مقفلة، اندفعوا وقاتلوا وقَتَلوا وقُتِلوا، لا صراخ ولا صمت، وإنما ضوضاء أشبه بضجة صراعٍ غاضبٍ بين رجالٍ مسلحين».

أما نتيجة هذا الصراع عديم الرحمة في بقعةٍ ضيقةٍ فكانت القتل على نطاق واسع وغير مسبوق؛ المئات وربما آلاف الرجال خلال نصف ساعة، في منطقةٍ قد لا تتجاوز مساحتها ضعف مساحة ملعب كرة قدم.

«انتهت المعركة، وتناثرت الدماء في كلّ مكان، جثث الأصدقاء والأعداء مكدسة، والدروع محطمة، الرماح والسيوف مبعثرة، بعضها ملقى وبعضها مغروس في الجثث، ومنها ما لم يفارق قبضات الجنود القتلى. وعندما تأخر الوقت، جرّوا جثث العدو إلى داخل خطوطهم، وتناولوا الطعام وخلدوا للراحة»[85].

نادراً ما طرحنا التساؤل التالي، رغم كثرة هذه المشاهد في تاريخنا: كيف يستطيع الرجال فعل هذا؟ لننحدر من أقوام الصيد والجمع التي انحدرنا منها جميعاً. لم يكن بمقدورهم القيام بذلك، فأن تكون محارباً مشاركاً في

معركةٍ محدودةٍ بأقل مخاطرة ممكنة شيء، والانخراط في ذبحٍ جماعيٍ تلقائيٍ وغير شخصي في الحرب المتحضرة شيءٌ آخر تماماً. ولو كان المحارب التقليدي القديم هناك لقام بما هو متوقع منه وغادر على الفور؛ وهكذا سيبقى الرجال – قبل ثلاثة آلاف عام أو الآن – في حالة رعبٍ؛ حتى لو عرفوا مصيرهم المحتوم في غضون الدقائق القليلة القادمة.

تطلب إنشاء الجيوش أكثر من مجرد ابتكار طرائق لجمع أعداد كبيرة من الناس للعمل معاً؛ رغم أنّ هذا كان بالتأكيد جزءاً من المعادلة. فتشكيل جيشٍ من الرجال يعني زرع نفسيةٍ مختلفةٍ فيهم – للسيطرة على غوغائيتهم – وهذا لا يتم إلا بالتغلب على الهوية الشخصية لكل منهم، ومواجهتهم مخاوفهم.

يعرف الجندي الذي يشهد الحرب الحضارية للمرّة الأولى أنّه لا مكان للعاقل فيها، ولكنه يعدم طريقةً لمغادرتها؛ إذ سيواجه بمغادرته عقوبة الموت في جميع الجيوش على يد الطرف الذي ينتمي إليه. ولذلك، يُقدم الجنود ذوو الخبرة ممن يعرفون ما ينتظرهم، أنفسهم لخوض محنة المعركة مرّة تلو الأخرى – عن طيب خاطر بشكلٍ ما – لأنّ عدم قيامهم بذلك إهانةٌ لهم أمام زملائهم الذين يُعتبر احترامهم لبعضهم بعضاً حجر الأساس. ويفضّل المرء في هذه الحالة أن يُقتل ويموت على أن يفقد ماء وجهه، لكن هذه الصورة التي يتم الحفاظ عليها ما هي إلا صورة محارب القبائل المنتمي إلى ما قبل الحضارة، والذي قاتل من أجل المجد الشخصي والحصول على فرصة أفضل للنجاة من المعركة.

«تتعامل هنا مع حالات نفسية معقّدة. إذ لا يمكن لرجلٍ

يخوض معركة أن يكون عاقلاً؛ فالانزعاج يسيطر على عقلية الجندي في ساحة المعركة، وهو وباء جنوني يضرب الجميع هناك، ومن لا يعاني من ذلك يموت بسرعة كبيرة جداً».

ويليام مانشستر، من محاربي الحرب العالمية الثانية

لا شكّ في أن العدوانية جزء من التركيبة الوراثية لدينا، غير أنّ حصة المرء من العدوانية لا تدفعه لقتل أقاربه، ناهيك عن شنّ حرب ضد غرباء من بلدان مختلفة. نحن نعيش وسط ملايين الناس الذين قتلوا الكثيرين من بني جنسهم بقسوةٍ وحقدٍ – باستخدام المدافع الرشاشة وقاذفات اللهب، ورمي القنابل شديدة الانفجار عليهم من ارتفاع عشرين ألف قدم – ومع ذلك، نحن لا نخشى أولئك الناس. فقد قامت الغالبية العظمى من أولئك الناس، سواء أفعلوا ذلك الآن أو في أي وقتٍ مضى خلال خمسة آلاف عام مضت، بالأمر نفسه كجنودٍ في الحرب. وندرك أنّ عدوانيتهم تجاه العدو لن تعرّضنا للخطر كمواطنيهم.

كيف تم إقناع أولئك الناس بتقديم أنفسهم بطواعيةٍ نسبيةٍ لمؤسسةٍ قد تدفعهم للقتل وربما الموت؟ لا شك في أنّ حب الوطن والدين والاعتقاد بالدفاع عن المنزل والأسرة من الأسس القوية التي تدفع الرجال إلى القتال، لكنّ هناك حالات لا يتوفر فيها أيٌّ مما سبق كما في حالة المرتزقة، فهم يقاتلون حتى الموت أيضاً، ولذلك لا بدّ أن أهم العوامل التي مكّنت الرجال من خوض القتال في المعارك الرهيبة للدول المتحضرة هو استغلال الجيوش جميعها أخلاقيات المحارب القديمة والراسخة؛ وهذا هو التراث

الثقافي لكلّ ذكرٍ شابٍّ.

قد يظن البعض أنّ تلك الأخلاقيات المتوارثة قد تُضلل إدراك الجنود لخطر موتهم في المعركة، أو للأمور الرهيبة التي تُحدثها الأسلحة في الجسد الحيّ. لكن، على العكس من ذلك، يعلم الجنود كل شيءٍ عن هذه المخاطر بالتفصيل، حتى إنّ أقدم الروايات التي وصلتنا عن المعركة قد وَصَفَت وبدقةٍ التفاصيل لهول ما يحدث للجنود: «أقدم إدوميوس على طعن إريماس[86] في فمهِ بواسطة رمحٍ برونزي بلا شفقة، وشقّ الرمح طريقه مباشرةً إلى أسفل الدماغ بمسارٍ علويٍ، وقُطعت العظام البيضاء، وطارت أسنانه من فمهِ من قوة الضربة، وغصّت عيناه بالدماء، وتفجر رذاذٌ دمويٌ عبر منخريه وفمه، ليُطبق عليه الموت بضبابه المظلم»[87].

يعلم الجنود كلّ شيءٍ عن الموت العنيف، وبأشكاله كافة؛ رغم أنّ لديهم ما يفضلونه من بين أشكاله المختلفة. فعلى سبيل المثال، كان هناك تفضيل غريب ولكنه مفهوم، في خنادق الحرب العالمية الأولى للموت بالرصاص بدلاً من نيران المدفعية؛ حيث سيؤدي انفجار القذيفة القريب إلى تشويه جثة الضحية وتمزيقها، وسيحوّلها إلى أشلاءٍ لا تمت للإنسان بصلة. إنّهم يتقبلون نوعاً ما احتمال الموت في الحرب، ولكنهم يطلبون في المقابل ضمان – أو الوهم – أنّ موتهم لن يضيع سدى، ولن يمرّ مرور الكرام. وللأسف، هذا ما يحدث في حال موت الجنود في الحروب المتحضرة؛ إذ لن تحزن القبيلة على موت المحارب أو تتغنى ببسالته، ولا علاقة لأهداف الحرب بحياته الشخصية، ولن يؤثر موته على نتائجها. ولجعل وقائع

الحرب الدائمة أكثر قبولاً لدى جنود الحضارة المنظمين، زُرعت مؤامرة عالمية للتظاهر بأنّ أولئك الضحايا يسكنون الضمائر البشرية بأبهى صورة أخلاقية؛ وهي ذاتها صورة الماضي البعيد للمحارب.

منذ بدايات التاريخ المدوّن، استخدمت الجيوش المتحضرة صفات المحارب البدائي في وصفها لمعاركها المليئة بالمجازر؛ فالجنود هم الأبطال الشجعان الميامين، وليسوا الأرقام العسكرية المتعارف عليها في أفواج الجيش. وبما أنّ نجاح المعارك يكمن في الأعمال التي تتسم بالجرأة والشجاعة وليس بعدد الأسلحة ونوعيتها وصدف الحرب فحسب، فلكلّ إنسان يخوضها قيمته. ولذلك، يتعاون ضحايا هذه الأكاذيب مع مروجيها في خداع أنفسهم والآخرين؛ حتى لو كانوا من المحاربين القدامى الذين شهدوا المعارك الجسيمة من قبل، لأنّ خلاف ذلك سيكون تقويضاً لشجاعتهم الخاصة كما لمهنيتهم. لكن الخدعة الهامة التي طرأت هنا هي التلاعب الكبير في قيم المحارب القديم؛ وذلك عادة تشكل صورته بشكلٍ أكثر تشدداً، وهي الصورة المطلوبة في المعركة الحضارية. وهذا يفسّر استغراق الأمر بضعة آلاف من السنين بعد نشوء المجتمعات الزراعية الأولى لكي تتطور المعارك وتصبح ذات كفاءةٍ وحشيةٍ كما في العصور الكلاسيكية التالية.

«حالما سمع الناس الأبواق، صدحت حناجرهم بالهتاف، وسقط الجدار (جدار أريحا) على الأرض، ليندفع الناس إلى الأمام باتجاه المدينة ويستولوا عليها، ثم قتلوا بالسيف كلّ من كان فيها؛ من رجالٍ ونساءٍ وصغارٍ وكبارٍ، وحتى

الثيران والأغنام والحمير لم تسلم منهم».[88]

إنّ إبادة مجمل سكان أريحا بلا رحمة - حتى الرضع والحيوانات - التي تلت استيلاء بني إسرائيل عليها، جاءت بهدفٍ محسوبٍ؛ وهو بث الرعب في قلوب بقية السكان الأصليين لتخفيف أعباء الاستيلاء على (أرض الميعاد)، ودفعهم للخضوع أو الرحيل. كانت سياسة يشوع متطرفةً حتى بالنسبة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، عندما أصبح الحصار والمذابح أمراً شائعاً. لكن هذا استغرق وقتاً طويلاً بالنسبة لعموم البشرية، والتي كان تراثها حرب استنزافٍ طويلة على مستوى منخفض، وصولاً إلى النقطة التي صار لديهم فيها جيشٌ قادرٌ على أخذ مدينةٍ مسوّرةٍ، وذبح عشرة أو عشرين ألف شخصٍ في يومٍ واحدٍ. ولعل الزمن الذي استغرقه الأمر للوصول إلى هذه النقطة كان حوالي خمسة آلاف عام منذ البدايات الأولى للزراعة. لكن البداية حملت نذر شؤمٍ بما سيأتي، والمفارقة هي أنّ تلك البداية كانت في المكان نفسه: أريحا!

أصيب علماء الآثار بالدهشة عندما اكتشفوا في خمسينيات القرن الماضي أنّ أريحا هي أول مدينة مسوّرة في العالم منذ ما يزيد عن عشرة آلاف سنة، أي بين 8500 و8000 ق.م، إذ لم يدرك أحد أنّ تاريخ انطلاق الحرب المنظمة يعود إلى ذاك العهد، لكن الأمر حصل هناك:

يعود تاريخ تلك المدينة المحصنة إلى بداية الحياة الزراعية المستقرة في الشرق الأوسط. كان ارتفاع جدارها اثنتي عشرة قدماً على الأقل، وكان بسماكة ست أقدام. ويحيط خندق واسع يبلغ من العمق حوالي عشر أقدام، وبعرض ثلاثين قدماً عند قاعدته بمنطقةٍ تبلغ مساحتها عشرة

دونمات. أما سكان المدينة خلف ذلك الجدار فيُقدّر عددهم بألفين إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة نسمة، وقد توسط المدينة برجٌ بارتفاع خمس وعشرين قدماً، والذي كان بمثابة الملجأ الأخير. أما وزن تلك التحصينات فيُقدر بحوالي ثلاثة عشر ألف طن من الحجر الكلسي الذي نُقل بالكامل يدوياً؛ وهذا يشير إلى امتلاك شعب أريحا منذ عشرة آلاف سنة شيئاً يريده الآخرون، فما هو ذلك الشيء الذي استدعى تلك التحصينات كلّها؟

ظهرت جدران أريحا في نهاية فترةٍ تُقدر بنحو ألفي عام، عندما بدأ (النطوفيون[90]) المحليون، وهم من أقوام الصيد والجمع في الهلال الخصيب بتكريس المزيد من وقتهم لحصاد النباتات البرية، مع استمرارهم في مطاردة الحيوانات البرية. وقد شملت تقنياتهم طحن الحجارة والهاون والمدقات ورقائق حادّة صغيرة من الحجارة استخدموها كشفراتٍ للمناجل، ويبدو أنّ مستوطناتهم شبه الدائمة - بما في ذلك حفرها التي كانت تستعمل لتخزين الحبوب - كانت كبيرةً بما يكفي لترك آثارٍ منها. فقد كانت أكبر من حيث الحجم بحوالي ثلاث مرّات من تلك التي شهدتها الحضارات السابقة في المنطقة؛ مما يشير إلى نموٍ سكانيٍ سريعٍ. كانت أريحا أيضاً أكبر بكثيرٍ من المستوطنات الأخرى؛ ربما بفضل وجودها في منطقةٍ خصبةٍ للغاية، فهي أكثر انخفاضاً من مستوى البحر بستمئة قدمٍ في وادي نهر الأردن الغني بالمياه الجوفية، والذي تغذيه المياه عبر سلسلةٍ من المدرجات الطبيعية، وهذا ما أتاح زراعة المحاصيل فيها، وتأمين الغذاء، وتخزين احتياطات منه؛ وهي احتياطات كبيرة حتى بالمقاييس الحالية. وهناك من يقترح أنّ ثراء المدينة عائدٌ لتجارة الأسفلت والكبريت والملح من

البحر الميت الـ ريب، لكننا نتكلم عن عالمٍ خالٍ من المال أو من أي وسيلةٍ تتيح نقل كتلٍ ك يرةٍ، لذا لا ُرجح أن تكون تلك المواد هي المطلب الرئيس[91].

لم تدم الظروف المناخية المثالية التي شجعت الزراعة الجد دة في منطقة الهلال الخصيب في نهاية فترة النطوف ين، وذلك حوالي 8500 ق.م، حيث أصبح المناخ أكثر جفافاً، مما أدى إلى انخفاض عدد المستوطنات بشكلٍ ك يرٍ. وربما كانت أزمة الغذاء هي التي دفعت بـ ايا النطوف ين إلى زراعة الحبوب البرية عوضاً عن مجرد جنيها. لعلّها كانت داية الزراعة الحد ي ة، وهنا قد تكون أريحا هدفاً للـ بائل الجائعة؛ للسيطرة على المياه الجوفية التي تروي المواقع الزراعية ضمن الجدران وسط الجفاف المحيط.

غ ر أنّنا لا نعلم تماماً ما إذا كانت تلك الجدران التي بلغ عمرها عشرة آلاف عام قد تعرضت إلى أي هجومٍ في الماضي، ولكن لا د أنها ستصد المهاجمين لو حصل ذلك؛ إذ لم يكن هنالك وجود لأي جيشٍ حـ ي ي في العالم عندما بنى مواطنو أريحا دفاعاتٍ لدتهم، ومن المستبعد أن تكون تلك التحصينات عاديةً من قبل، لكن الحاجة إلى الحماية كانت قويةً حسبما بدو، وجاء الحلّ قوياً أيضاً؛ فنادراً ما يتجاوز طول البشر ست أقدام، ولا قفز ا نسان العادي أكثر من ثلاث أقدام. لذا، إنّ جداراً بارتفاع اثنتي عشرة قدماً سيحول ين المدينة والمهاجمين الذين لا يملكون سلالم، كما سيزد الخندق من تعقيد مهمتهم. وفي حال الاستيلاء على الجدران، هناك ملجأ أخ ر للأشخاص المهمين للتحصن فيه على أمل نفاد صبر المهاجمين.

إنّ جدران أريحا مثال مبكّر عن دور الفيزياء والحسّ السليم في الشؤون العسكرية، ومدى محدودية الخيارات في الحرب. لا توجد عشرة سبل ممكنة لتحصين المدينة، ودامت فعالية التصميم الرئيس المستخدم في أريحا لفترةٍ طويلةٍ، حتى قبل أقل من ألف عام من الآن. ورغم هذا، ظهر أنّ الجدران الأولي المحيطة بأريحا لم تكن أكثر من ظاهرةٍ عا رةٍ، ولم تتكرر مرّة أخرى خلال مئات الأعوام التالية؛ وكأنّها ردٌّ محليٌ على أزمةٍ عا رةٍ. وهي أشبه بـ ثبات أنّه بإمكان أي مجتمعٍ إنسانيٍ إيجاد قواعد الحرب المنظمة من دون أن تتوفر لديه المعرفة المسبقة. لـ د مرّت تلك الأزمة من دون دليل على وجود أي جدرانٍ أخرى لمدينةٍ أخرى في الهلال الخصيب لثلاثة آلاف سنةٍ تاليةٍ؛ لـ د تسللت الحرب الحـ ديـ ية إلينا بطءٍ شد دٍ، ولذلك هناك تساؤلان يحتاجان إلى ا جابة عنهما، وهما: لماذا دأت الزراعة منذ حوالي عشرة آلاف سنة؟ ولماذا ظهرت في الشرق الأوسط وليس في شمال الصين أو وادي المكسيك أو أوروبا الغربية حيث اتخذت الحرب الحضارية الأولى شكلها النموذجي؟

لماذا دأ التحوّل إلى إنتاج الغذاء في الهلال الخصيب حوالي 8500 ق.م وليس بحدود 18500 أو 28500 ق.م؟ لـ د كان للصيد والجمع في التاريخين الآخرين جدوى أكـ ر بكثـ ر من ا نتاج الغذائي في داياته؛ إذ توافرت الثديات البرية في حين لم تتوفر الحبوب البرية، ولم يكن الناس قد طوروا الأدوات اللازمة لجمع الحبوب وتجهيزها وتخزينها بكفاءة، كما لم تكن الكثافة السكانية مرتفعة بما يكفي للتركيز على استخراج المزـد من السعرات الحرارية في كلّ فدان[92].

شهد العقدان الأخيران دقةً غير مسبوقة في تفسير كيفية نشوء الحضارة وسببه، ولم يعد هناك افتراض أنّ أقوام الصيد والجمع كانوا حريصين على الاستقرار والتحوّل إلى مزارعين، وأنهم قد طوّعوا النباتات في مرحلةٍ ما؛ إلا إذا كانت النباتات من الأصناف المطوّعة سلفاً. لقد تمت إدانة العنصرية الضمنية في الرؤية الأوروبية التقليدية للتاريخ. وبالتالي، إنّ أي تاريخ جدي للحضارة الإنسانية – بما في ذلك تاريخ الحرب – بحاجة إلى التركيز على الحضارات المبكّرة في الشرق الأوسط ومثيلتها على ضفاف البحر المتوسط وأوروبا ووريثتها (الغرب).

هناك سيطرة عسكرية واحدة على هذا الكوكب، ولا شكّ في أنّ السطوة الغربية ساحقة في التكنولوجيا والأصول التاريخية والنمط الثقافي، وذلك لأسبابٍ عقلانيةٍ لا عنصريةٍ؛ وهو ما يجب أن يكون في بحثنا هذا. فلو أرسل ناشر كتب فضائي كاتباً لإعداد كتاب عن الأرض، فسيلحظ على الفور أن نحو ثلثي البشر تتبع ديانات نشأت في الشرق الأوسط. فقد ولد رسل الديانات السماوية في بقعةٍ واحدةٍ من العالم، والهلال الخصيب الذي لطالما اشتهر بخصب أراضيه هو الآن بادية جرداء من جراء ما فعله المزارعون والماعز خلال عشرة آلاف سنة في تلك البيئة الغنية. ومع ذلك، ما زالت تلك البيئة تحتفظ بأهمية مركزية لكلّ مهتمٍ في فهم الأسباب التي جعلت الأمور على ما هي عليه اليوم. ولعل أفضل مكان للبدء منه هو الشرح المقنع للعالم الأمريكي جاريد دايموند (Jared Diamond) حول سبب ظهور الزراعة والرعي والحضارة نفسها لأول مرّة في الشرق الأوسط.

يعمل دايموند كأستاذ في علم وظائف الأعضاء في

كلية الطب في جامعة كاليفورنيا (UCLA School of Medicine)، ويأتي كتابه المؤثر بعنوان (البنادق والجراثيم والفولاذ[93]) كمحاولةٍ جزئيةٍ لـ جابة عن هذه الأسئلة، حيث بدأ بفرضيةٍ تقول بعدم اسـت دال أي عاقل من أقوام الصيد والجمع لحياته التي تتميّز بالحرية والمساواة والبروتين الحيواني الوفـ ر ليصبح مزارعاً فلاحاً في الحضارات الـ ديمة. لكن عند العودة عشرة آلاف سنة إلي الخلف، سنجد أنّ الكثافة السكانية كانت آخذة بالارتفاع مـ ا ل عدم نموٍ مماثل لموارد أقوام الصيد والجمع حتى في أغنى البيئات. ولم يكن هناك بـ د ل متوفر سوى في منطقة واحدة هي الهلال الخصيب، وكان هذا البد ل هو الزراعة.

ويش ر دياموند إلى وجود حوالي مـ تي ألف نوع من النباتات التي يمكن تدجينها من قبل البشر - إذا فكروا في مستقبلٍ زراعيٍ - غ ر أنّ غالبية هذه النباتات لن تكون مناسبةً لهم؛ حيث ستتحول طاقتها إلى جذوعٍ خش يةٍ غ ر صالحةٍ للأكل، أو فروعٍ ليفيةٍ. لذا، كانت أكثر النباتات الواعدة للاستيلاد هي النباتات الحولية - التي تموت كلّ سنةٍ في موسم الجفاف، وهكذا تتركّز جلّ طاقتها في توليد البذور التي تستطيع البـ اء على قيد الحياة حتى الموسم الرطب الـ ادم - لأنّها تعطي البذور الصالحة للأكل. تزدهر النباتات الحولية في مناخ البحر الأ يض المتوسط، حيث يكون الشتاء معتدلاً والصيف حارًّا وجافاً. ومن ـ ين المناطق الخمس في العالم ذات المناخ المتوسطي، تعتـ ر منطقة جنوب غرب أوراسيا (المعروفة أيضاً باسم الهلال الخصيب) الأكـ ر والأكثر تنوعاً.

هناك مجال متفاوت من الارتفاعات في منطقة

الهلال الخصيب؛ دءاً بالارتفاعات الد ليلة والد ريبة من مستوى سطح البحر، ووصولاً إلى الجبال الشاهقة، وهو ما يعطي تلك المنطقة مجموعةً واسِعةً من المناخات المناسبة للنباتات المختلفة؛ حيث تنضِج النباتات نفسها في أوقاتٍ مختلفةٍ، وتساوي هذه المساحة باتساعها المناطق الأربع الأخرى المتوسطية مجتمعةً (جنوب غرب أستراليا، وجنوب غرب جنوب أفريقيا، ووسط تشيلي، وجنوب كاليفورنيا)، كما أنّ مناخها متغيِّرٌ أكثر من موسم لآخر ومن عامٍ لآخر مارنة مع المناطق المتوسطية الأخرى، مما يزد من تنوع النباتات الحولية فيها. ونتيجةً لذلك، واستناداً إلى دراسات الجغرافي مارك لملر (Mark Blumler) الخاصة بتوزع الأعشاب البرية، وُجدت اثنتان وثلاثون من أصل ست وخمسين فصيلة نباتية من ذات البذور الكيرة (أثقل بعشر مرّات من بذور الحشائش المتوسطة) في منطقة الهلال الخصيب، ينما تم العثور على ست فقط في شرق آسيا، وأربع فقط في جنوب الصحراء الكرى في أفريقيا، وأربع فقط في أمريكا الشمالية، واثنتين فقط في أمريكا الجنوبية[94]. لذلك، إذا خطط ا نسان لتأسيس حضارةٍ جماعيةٍ تقوم على تناول الحبوب المزروعة، فيسجد أنّ الشرق الأوسط سيكون المكان الأنسب للبدء.

بالتأكد، لم تكن لدى أولك الأقوام مثل هذه الخطة، وما حدث كان أبسط من ذلك؛ إذ تعلّم أقوام الصيد والجمع الخروج إلى المدرجات الكيرة حيث نمت الحشائش الحولية ذات البذور الكيرة كالشعر والدمح حين تكون الحبوب على وشك النضوج، فيومون بالحصاد الانتقائي لتلك النباتات المفدة لهم، وينثرون بعضاً من بذورها، وبذلك حوّلوا أنفسهم إلى عاملٍ مساعدٍ لتلك النباتات

بتوزيعهم بذورها؛ وهو عمل أكثر كفاءة من الاعتماد الكليّ على طاقة الرياح. وستتجب تلك الأنواع النباتية بأفضل طريقة، وتستفد من هذه الفرصة الجد دة؛ بـ نتاجها بذوراً أكثر لجذب هذا العامل المساعد الجد د.

إذاً، دور حديثنا عن بشرٍ دجنون النباتات أو يـومون عملياً باستيلادها. لكن، لا يمكن إنكار تعاون تلك النباتات مع الناس. وهكذا، دأت جماعات الصيد والجمع قضاء المزد من الوقت في مكانٍ واحدٍ، وحصاد الحبوب الجد دة، وإعادة زراعة بعضها من أجل حصادها في العام المـ بل، والعيش باستهلاك ما هو مخزّن؛ لكن، لمَ سيتحرك البشر إن لم يكونوا مضطرين لذلك؟ لا شكّ في أنّ أولـ ك الـ وم قد استمروا بالصيد، لكن الطرائد المحلية دأت بالنفاد مع استمرارهم بصيدها من دون توقفٍ، في حين ازداد عدد السكان بفضل توفر إمدادات غذائيةٍ جد دةٍ من المواد الغذائية النباتية، وهكذا وصلنا إلى الوقت الذي حان فيه ارتباط البشر بالنباتات من أجل بـ ائهم؛ وهو نوعاً ما (تدجين) عكسي لهم. غـ ر أنّ الأمر لم يحمل لهم ذاك الخـ ر كأفراد؛ إذ طالت ساعات العمل بالمـ ارنة مع الصيد والجمع، وساءت صحتهم ومكانتهم بسبب نظامهم الغذائي المحدود نسبياً، ونقص معدل أعمارهم مع ارتفاع عدد السكان، حيث ستدعم قطعة الأرض نفسها المزروعة بكثافة مـ ة ضعف عدد المزارعين بالمـ ارنة مع أقوام الصيد والجمع. وسيكون النصر للمزارعين في النهاية بسبب كثرتهم مـ ا ل قلة عدد أقوام الصيد والجمع.

لم تكن الحبوب ذات البذور الكـ يرة وحدها ما أغرى الناس في الهلال الخصيب بالوقوع في ما دعوه المؤرخ روبرت أوكونـ ل (Robert L. O'Connell) فخ النبات، إذ لعبت

البقوليات دورها في ذلك. صحيح أنّ القمح والشعير كانا قاعدتي السكريات للنظام الغذائي المتحضر الجديد، لكن الحبوب تحتوي أيضاً على ما نسبته 8 إلى 14 بالمئة من البروتين، أما البقوليات فقد نجح الإنسان في زراعتها أيضاً بسهولة مثل العدس والبازيلاء والحمص، وهي تحتوي على نسبة من البروتين تتراوح بين 20 إلى 25 بالمئة. كانت البقوليات متاحةً للمزارعين الأوائل في الشرق الأوسط، وكذلك كان الكتان يتيح لهم الحصول على الألياف والزيت، ولم يكن لأحدٍ يعتمد على حياة الصيد والجمع السهلة والحرّة والمتنقلة أن يقبل بالاعتماد على صنفٍ واحدٍ أو صنفين من النبات. لكن بيئة الهلال الخصيب وفّرت مجموعةً كاملةً من المحاصيل التي يمكن زراعتها بسهولة، وهذا ما أغرى الناس باتباع النمط الجديد في الحياة. وجرى الأمر نفسه بالنسبة للحيوانات الكبيرة التي تم تدجينها؛ لكن لأسبابٍ غامضةٍ نسبياً.

إنّ الثدييات البرية المدجنة والأكثر أهمية في العالم هي: الأغنام والماعز والخنازير والأبقار. وقد عاشت في الشرق الأوسط، وتم تدجينها في وقتٍ مبكرٍ جداً؛ إذ دُجِّنت الأنواع الثلاثة الأولى بحدود 8000 ق.م، أما الأبقار فتم تدجينها حوالي 6000 ق.م. وربما تم تدجين الخنازير في الصين بشكلٍ مستقلٍ عما حدث في الشرق الأوسط، كما تشير الدراسات الجينية إلى تدجين الأبقار الهندية بشكلٍ مستقلٍ أيضاً من سلالة برية مختلفة عن سلالة الشرق الأوسط، أما الحصان فقد تم تدجينه حوالي 4000 ق.م في ما يُعرف الآن بأوكرانيا؛ لكن لم تضم أي منطقة أخرى تلك المجموعة الغنية من الحيوانات المدجنة كما حصل في منطقة الهلال الخصيب.

وفي الواقع، لم تتواجد الأنواع الخمسة الرئيسة في أي مكان باستثناء أوراسيا وملحقها في شمال أفريقيا، وكان هناك كبش الجبال الصخرية في أمريكا الشمالية، لكن استحال تدجينه مثل أسلافه في أوراسيا بسبب عاداته الاجتماعية. كما وُجد أيضاً الحمار الوحشي في أفريقيا، لكن لم يكن بالإمكان تدجينه بسبب طباعه السيئة على خلاف الخيل. وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار الأنواع المدجنة الصغيرة نسبياً مثل ثور التبت الضخم (الياك) والجمال والرنة، فإنّ ثلاثة عشر نوعاً من أربعة عشر نوعاً من الثدييات الكبيرة المدجنة في العصور القديمة قد قدمت من أسلاف عاشت في أوراسيا[95].

تمتعت أوراسيا بالعديد من المزايا الاستثنائية التي جعلتها الموئل الأساسي للحيوانات المدجّنة، وربما يعود ذلك إلى الظروف التي خضعت لها الحيوانات في القارات الأخرى. فقد شهدت الأمريكيتان وأستراليا انقراضاً جماعياً للطرائد الحيوانية ذات الحجم الكبير بعد وقتٍ قصيرٍ من وصول الصياديين الأوائل، أما الحيوانات الأفريقية خارج حزام منطقة تواجد ذبابة التسي تسي فلا سبب واضح حتى الآن لعدم إخضاعها للتدجين. لكن ملخص الأمر هو أن أفريقيا وأستراليا والأمريكيتين أكثر فقراً بالمقارنة مع أوراسيا من ناحية التنوع الحيواني والنباتي الذي يمكن تدجينه واستنباته، كما ظهرت الحضارة في أوراسيا بشكلٍ أسرعَ من ظهورها في بقية الأماكن.

وقد ساهمت الجغرافيا أيضاً في لعب دور لصالح أوراسيا؛ فالقارات الأخرى كانت ذات محورٍ شماليٍ جنوبيٍ، وهو ما يعني تنوعاً مناخياً جذرياً، مما شكل حاجزاً في وجه

الانتشار السريع للنباتات والحيوانات المدجّنة، بينما تمتعت أوراسيا بمحورٍ شرقيٍ غربيٍ، وهو ما يضمن للأنواع المدجّنة حديثاً من النباتات والحيوانات الانتشار بسهولة من طرف القارة إلى طرفها الآخر دون تغيير خطوط العرض أو مواجهة مناخ مختلف تماماً[96]. كانت هذه النقطة في صالح أوراسيا منذ البداية، وبالأخص الهلال الخصيب الذي حصل على السبق الحضاري في هذا المجال.

هذه هي البوتقة التي تحوّل فيها أقوام الصيد والجمع من كمائنهم وهجماتهم البدائية إلى المؤسسة الحضارية المعروفة «بالحرب الحديثة». عدا ذلك، لا نعلم شيئاً عن تلك المرحلة، إذ مرّت خمسة آلاف عامٍ بين بناء أوّل جدارٍ في أريحا وظهور الكتائب الأولى في بلاد السومريين. ويبدو أنّ الحسابات الاستراتيجية والأهداف السياسية قد ساهمت في تحويل ما كان مجرد سلوكٍ عرفيٍ إلى سياسةٍ عامةٍ، وبدأت جماعات المحاربين تظهر وكأنّها جيوش مصغّرة. لكن ولسوء الحظ، لم تكن الكتابة قد اخترعت بعد، وبالتالي بقيت السجلات التاريخية الخاصة بتلك المرحلة فارغاً نسبياً.

إنّ المستعمرة التالية الكبيرة في المرحلة ما قبل الحضرية، والتي نعرف عنها شيئاً، كانت بعد ألفي عام من مدينة أريحا المسوّرة، وهي أكبر منها بمرتين؛ إنها كاتال هويوك (Çatal Hüyük)، وهي مجتمع مكوّن من نحو ألف منزلٍ وما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف شخصٍ. وقد ازدهرت في ما هو الآن جنوب تركيا حوالي 6250–5400 ق.م. امتلك سكانها الفخار والمجوهرات وما يخص الدين والعبادة (إذ شهدت تلك الفترة تحوّل الروحانية المنتشرة لدى أقوام الصيد والجمع إلى طوائف دينية، وبدأ الشامان بالتحوّل إلى

كهنة، وسادت في تلك المرحلة آلهة الخصوبة الأنثوية، لا آلهة السماء الذكورية، والتي سيطرت على المشهد الناشئ في الهلال الخصيب)؛ لا شكّ في وجود عشرات المراكز الأخرى الشبيهة بكاتال هايوك، وهي تنتشر في جميع أنحاء المنطقة في ذلك الزمن، لكن تلك المستعمرة هي المركز الوحيد الذي تم العثور عليه. يعكس نمط توزع منازلها نهج الاسترخاء النسبي وعدم القلق الكبير من خطر الهجوم، إذ بُنيت المنازل حيث تشكّل جداراً خارجياً مستمراً بالنسبة للعالم، مثل قرية يانومامو وإنما على نطاقٍ أوسع، ولا تحصينات حقيقية فيها لتصد هجوماً أو جيشاً خطيراً ولو ليومٍ واحدٍ.

يبدو أنّ الضغط على الأراضي الخصبة النادرة لم يكن حادًّا في تلك الفترة، وهو السبب المتوقع لبناء جدار أريحا قبل ألفي عام من كاتال هايوك، وأيضاً يبدو أنّ هناك توفراً لمجموعة كاملة من المحاصيل الغذائية والحيوانات المدجنة للمزارعين من كاتال هايوك، والذين كانوا من أوائل الأقوام التي تخلت عن الصيد والجمع كأسلوب حياة ليتحولوا إلى الزراعة بالكامل. فقد كان المناخ جيداً، وتوافرت الأراضي الفارغة وغير المستثمرة من قبل أقوام الصيد والجمع. وفي ما يتعلق بهذا، تشير التقديرات إلى تقدم حدود الزراعة في تلك المرحلة سواء أكانت من الشرق أو الغرب بمقدار ميلٍ واحدٍ في العام، ولكن من نقطةٍ واحدةٍ في الشرق الأوسط، وكانت تلك النقطة فاصلةً، فقد شردت ودمّرت أقوام الصيد والجمع الذين كانوا يشغلون تلك الأراضي سابقاً. وقد وصلت الزراعة إلى بريطانيا ومرتفعات شمال وشمال غرب الصين بحدود 4000 ق.م، لكن هذا لا يعني إشغال جميع الأراضي في بقية المناطق، إذ توفر الكثير من الأراضي

الزراعية الخصبة في الشرق الأوسط، لذا لم يكن هناك اقتتال على الأرض في تلك المرحلة.

عُثر على العدد من الأسلحة في كاتال هاوك – بالأخص السكاكين، ورؤوس الحراب المصنوعة من الصوان، وكرات من الطين المشوي، والصولجانات الحجرية – كما وُجدت بعض الأسلحة الداتلة (لا حاجة للصولجانات في الصيد). أما في الجوار، فقد كان شعب كاتال هاوك غنياً جداً بنظر من بي على قيد الحياة من أقوام الصيد والجمع في الجوار؛ إذ امتلك أدوات أكثر من أي شعب مضى، وخزّن الغذاء، واستفاد من قطعان الحيوانات المدجّنة. ولهذا، قد بدو غريباً عدم مواجهتهم اللصوص أو الغارات المنظّمة. وربما هذا ما جعلهم يصممون دفاعات لدتهم للتعامل مع الأفراد من اللصوص والجماعات الانتهازية المغ رة لا الج وش.

ومن المحتمل أن تكون كاتال هاوك قد خاضت اشتباكات ين الحين والآخر مع المجتمعات الزراعية الأخرى، خاصةً تلك الاريبة منها، كما يُحتمل حصول صراعات عشائرية ضمن كاتال هاوك نفسها، ولكن لا وسيلة مؤكدة لمعرفة حجم تلك الاشتباكات مع المدن الأخرى ومدى تكرارها. فربما تكون وبأسوأ الأحوال صراعات ش يهة بالمعارك التي حصلت ين جماعات المزارعين الدبليين المتنافسة في مرتفعات غينيا الجد دة، لكنها على الأغلب أك ر وأكثر تنظيماً منها (وبالطبع، هناك احتمال قائم لحصول مجازر إذا كان أحد الأطراف أقوى بكث ر من الآخر)، لكن يُتوقع أن تكون المواجهات في تلك المرحلة محدودةً نوعاً ما بحكم الطوس والأعراف، ولا يزال من الساق لأوانه الحديث عن ج وشٍ حد يةٍ في تلك المرحلة من الزمن، لكن يُمكن

الحديث عن الع ودية التي كانت حاجةً واضحةً في مجتمعاتٍ زراعيةٍ مستقرةٍ، وبالتالي الحديث عن الغارات الناجحة للحصول على أسرى. ففي البداية، كانوا ب ون ا ناث فقط لأنّهن أقل خطورة من الذكور، وخاصةً بعد الاعتداء عليهن وإنجابهن أطفالاً يعت رون رهائن لحسن سلوكهم. ومنذ البداية، كان الرقّ أشبه بعادةٍ قديمةٍ لدى جماعات ا نسان ال ديم. وتقضي هذا العادة قتل الذكور من الجماعة المنافسة والاستيلاء على ا ناث، لكن لن تحصل الأسيرات على عضويةٍ كاملةٍ في المجموعة، وسيصبحن ع دات مع أطفالهن من الذكور وا ناث. وفي داية الألفية الثالثة قبل الميلاد، ومع اختراع الكتابة وتدوين السجلات التي تشرح البنية الاجتماعية للمجتمعات المتحضرة الجديدة، دا جلياً أنّ الع ودية كانت قد أصبحت بالفعل مؤسسةً راسخة.

تعرضت المساواة ال ديمة التي اتصف بها أقوام الصيد والجمع لهزّةٍ ك يرةٍ في هذه المجتمعات الك يرة؛ إذ ساد هذا التجمع البشري الذي يُشبه البلدة – مع المجتمعات الزراعية المحيطة به – نموذج المشيخة، حيث كان (الرجل الك ير) ينصّب نفسه كرئيس بحكم العلاقات العشائرية والا وة المجرّدة، ويُج ر الآخرين على الطاعة العمياء، ومن هنا دأت ظاهرة المساواة الاجتماعية بالانحسار (تُظهر ط وس الدفن في كاتال هاوك اختلافات حادة في الثروة المادية للميت، بخلاف ط وس الدفن لدى أقوام الصيد والجمع). وحتى ذلك الحين، لم يكن وضع النساء قد تعرّض إلى الانهيار بعد كما حصل لاح اً. وسيمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن يحل الزمن الذي يعتلي فيه الملوك عروش العالم ا نساني، لكن الحريات والمساواة التي كانت سائدة قديماً راحت تنحسر

بسرعة. فهناك زعيم، وذلك الزعيم لا يكترث رأيك، ولن يكون الأمر سهلاً إذا أردتَ اللجوء إلى الحلّ الديم والانتقال إلى مجموعةٍ أخرى في حال حصول مواجهة مع ذلك الزعيم[97].

وبا ضافة إلى ذلك، حدث شيء آخر في كاتال هاوك في الألفية السادسة قبل الميلاد؛ رغم عدم وجود دليل أثري على ذلك. لكن ربما حصل انفصال تدريجي وابتعاد لجزء ك ير من رعاة الماشية عن المجتمع الزراعي. فلا شكّ في أنّ تدجين الحيوانات الك يرة قد تم من قبل الناس الذين التزموا بنمط الحياة الزراعية الجد دة، وستستمر المجتمعات الزراعية في الحفاظ على (حيوانات المزرعة)، لكن مجرد النجاح في تدجين تلك الحيوانات قد أنتج نمطاً جد داً للحياة؛ نمطاً مكّن البعض من الاستمرار من دون الصيد أو الزراعة؛ من خلال رعي هذه الحيوانات المدجّنة حديثاً، والاستفادة من لحومها وجلودها وصوفها وحليبها ودمها في دعم أسلوب حياةٍ مستقلةٍ تماماً.

لماذا أرادوا المغادرة؟ كان نمط الحياة الزراعية الجد دة – حتى في هذا النموذج المبكّر – مخالفاً لبعض قيم الرجال والنساء الأحرار وتقاليدهم. ورغم حدوث الحروب والمذابح ع ر مسيرة تطور تراثنا البشري إلا أنّه اشتمل على مساواةٍ ين البالغين من الجنس نفسه، وحتى ين الجنسين – حرية التع ير، والحق في المغادرة – وجاءت المجتمعات الزراعية لتحاصر أجدادنا في إطارٍ راح يزداد است دادية وماً بعد وم. وفعلاً، كان مستقبل تلك المجتمعات لآلاف السنوات ال ادمة مزيجاً من الاست داد والاستعباد المباشر. اضطر معظم الناس لـ بول النظام الجد د، لكن الخيار كان متاحاً للناس الذين يعتنون بالحيوانات؛ فهم يحيون على هامش المجتمع

الزراعي بطبيعة الحال، إذ لا دّ من أن تكون الحيوانات بع دةً عن أملاك الناس من المحاصيل الزراعية، كي لا تلتهمها أو تطأها. لذا، تواجدت تلك الحيوانات مع الرعاة في المرتفعات في فصل الربيع حيث المراعي، وفي مرحلةٍ ما اقتنع الرعاة أنّه لا حاجة للعودة.

جاء الرعي تماماً مثل الزراعة كخروج جذري من الحياة التقليدية لأقوام الصيد والجمع، ودخل الرعاة أو البدو الرحل في حلقة ا نتاج الواعي للمواد الغذائية كما فعل المزارعون. وبدلاً من الدول الثابتة، كان لدى الرعاة (دول تسير على حوافرها)؛ وهي وسيلةٌ قاسيةٌ للعيش، حيث لا سقف يحمي المرء ولا ممتلكات مادية، لكن الأمر دا جذاباً لمن لا رغب في الخضوع لما كان يحدث في الجماعات المستقرة؛ من تسلسلٍ هرميٍ، وتبعيةٍ، وفقرٍ، وتزا دٍ سكانيٍّ (نما عدد سكان العالم ين عامي 10000 و3000 ق.م من حالته الثابتة على مدى طويل من خمسة أو عشرة ملا ين من أقوام الصيد والجمع إلى نحو م ة مليون نسمة، وحدثت معظم تلك الزيادة في أوراسيا).

مع زوال أسلوب حياة أقوام الصيد والجمع، اختار الرعاة البد ل الذي وفر لهم بعض الحرية والكرامة، رغم الفقر والمشقة الك يرة، ودفعوا ذلك الثمن عن طيب خاطر، واحتقروا من لم يفعل ذلك. لكن الهوة اتسعت ين المجتمعات الرعوية والزراعية الناشئة في جميع أنحاء الشرق الأوسط في الفترة الممتدة ين الألف السادس والألف الثالث قبل الميلاد، ولم يعد بمكان المجتمعات الرعوية منافسة تلك الزراعية من حيث العدد – إذ لا يمكن للرعي دعم حياة ملا ين الناس – واعتمد الرعاة على المجتمعات المستقرة بسبب

تقنياتها المتفوقة، بما في ذلك أسلحتها المعدنية، لكنهم شكلوا بديلاً ثقافياً موثوقاً لنمط الحياة الزراعية الضيقة، وقد تشرّبوا ذلك منذ البداية بازدراءٍ عميقٍ للأقوام المستقرة، وسرعان ما تحوّل ذلك الازدراء إلى شيءٍ آخرَ؛ إذ لم ينظروا إلى المزارعين على أنّهم أعداء بل فرائس!

شكل ذلك بداية المواجهات التي استمرت لمئات الأجيال، وصولاً إلى الهزيمة النهائية للبدو منذ بضعة قرون؛ بعد آلاف السنوات، وملايين القتلى في الغارات المتواصلة (أشبه بغزواتٍ خاطفةٍ) للرعاة على المستوطنات الزراعية؛ مما اضطر الشعوب الزراعية في أوراسيا للجوء إلى التجييش وتعلّم أساليب الحرب عديمة الرحمة التي سبقهم إليها الرعاة.

ظهرت الجدران حول المجتمعات في جميع أنحاء الهلال الخصيب بحدود 5500 ق.م. وبموازاة ذلك، ازداد عدد سكان المستوطنات، حيث تجمّع الناس طلباً للحماية. ورغم عدم وجود دليل مباشر يؤكد مصدر التهديد، إلا أنّ المجموعات الرعوية الجديدة كانت المتهم الأول؛ وذلك لامتلاكها الدافع والقدرة على مهاجمة الشعوب المتوطنة. وقد ساعدتهم أملاكهم المتحركة من الحيوانات على ذلك. وعلى الأغلب، أغارت المجموعات الرعوية على بعضها أيضاً، لكن الخيار الأكثر جاذبية كان في سرقة حيوانات المزارعين، والسطو على الممتلكات الثمينة الأخرى كافة التي امتلكها المزارعون، والتي لا يمتلكون مثيلاً لها. إذ بدا الأمر مغرياً وسهلاً بالنسبة إليهم.

افتقر الرعاة إلى الخيول حتى ذلك الحين، وساروا على أقدامهم، ومع ذلك كانت حركتهم أكبر من حركة أي مجتمع

زراعي. ورغم قلة عددهم بالمـ ارنة مع المزارعين، إلا أنهم اعتمدوا التركيز ب وتهم القتالية على هدفٍ مختارٍ وفي زمنٍ قصيرٍ؛ وهو ما لا يستطيع أي مجتمع زراعي مجاراتهم به. ونادراً ما تم التفوق عليهم في المكان والزمان المناسبين؛ إلا إذا كانوا رعاة مختلفين تماماً عن الرعاة الذين نعرفهم من التاريخ اللاحق. وقد اعتمدت غاراتهم نموذجاً قتالياً بسيطاً اشتمل على الغارات المباغتة، ثم التراجع السريع إلى المرتفعات مع الغنائم. وبما أنّهم لا يستطيعون التراجع بسرعة ك يرة سيراً على الأقدام رفقة الحيوانات وب ية الغنائم، فقد لجأوا إلى أساليب تحدّ من احتمال مطاردتهم، وتمثّلت في ا رهاب والوحشية وارتكاب المجازر.

نلاحظ في الدراسات الأنثروبولوجية والدراسات التاريخية وجود أعرافٍ وط وسٍ حددت شكل القتال ين الجماعات التي تعترف بعضها بعضاً. وفي الوقت نفسه، قامت تلك الجماعات باعتماد أساليب مختلفةٍ لصيد الحيوانات البرية بخداعها ومن ثم ا جهاز عليها؛ لكن العلاقة النفسية ين البدو والمزارعين من وجهة نظر البدو لم تكن أكثر من علاقةٍ ين مفترسٍ وفريسةٍ. إذ تُعت رِ الشعوب المستقرة بالنسبة للبدو شعوباً خائنةً وفاقدةً ل نسانية، وعليه يمكن قتلها من دون تأن ب ضمير. وبالتالي، يتلخص تاريخ غزوات الرعاة على المزارعين بالـ سوة والازدراء الشـ د الذي يكنّه الرعاة للمزارعين. غ ر أن هذا غ ر مؤكد؛ إذ لم تكن الكتابة قد ظهرت ب عد. لكن على الأغلب، غطّى الرعاة الأوائل انسحابهم باتباع الأساليب التي سبق ذكرها؛ وهي عملياً أساليب تُحدث صدمة متعمدة، وذلك قتل الجميع وتدمير كلّ ما لا يمكن حمله ب ع داً.

لم يتطلب الأمر الكث ر من الهجمات المماثلة حتى

عمّ الذعر المجتمعات الزراعية، وهرعت إلى بناء الأسوار، وحشد صفوفها. وربما وقفت هجمات البدو خلف تزايد حدّة القتال في هذه الفترة والفترات اللاحقة؛ إذ اكتسبت الجماعات المستقرة قسوة البدو تدريجياً، وبدأت باستعمالها في صراعاتها[98]. والدليل الأوضح على ذلك هو التناقض المذهل بين نمط الحرب في المجتمعات التي لم تواجه صراعات مع البدو، وتلك التي واجهتها. ولنأخذ مصر على سبيل مثال، إذ ساهم موقع مصر الجغرافي في حمايتها نسبياً من الاتصال مع البدو لأكثر من ألفٍ وخمسمئة عام بعد توحد وادي النيل لأول مرّة تحت إمرة حاكمٍ واحدٍ حوالي 3100 ق.م، وتواجدت الصحاري الواسعة خلف وادي النيل والدلتا المكتظة سكانياً، وبالتالي منعت الصحاري الشاسعة مرور البدو بالقرب من التجمعات الزراعية، فتواجدوا في مناطق أخرى بعيدة وذات مقومات للحياة الرعوية، ولذلك بقيت الحرب المصرية ذات طرازٍ قديمٍ بالمقارنة مع الحرب في أجزاءٍ أخرى من الشرق الأوسط.

يستطيع الرماة المدافعون توجيه سهامهم من ثلاث زوايا مختلفة باتجاه المهاجمين في الخندق، كما يستطيعون مواجهة الأهداف القادمة من خارج الخندق. ويعطي الوقوف في أسفل الخندق فكرةً عن مدى قوة هذه الدفاعات؛ إذ يتوجب على القوة المهاجمة اقتحام المنطقة العازلة أولاً، ومن ثم تدمير النقاط الأمامية المخفية، عدا عن تعرّض المهاجمين لرمي المقاليع والسهام من الجدار الرئيس في الأعلى. ثم يتوجب على المهاجمين النزول على المنحدر إلى أسفل الخندق تحت مظلةٍ كثيفةٍ من السهام التي ترمى عليهم من فتحات الأسوار والتحصينات التي يختفي المدافعون خلفها بشكلٍ كاملٍ. وفي حال نجاة

المهاجمين من هذه المحنة، يجب عليهم صعود السفح المنحدر وتجاوز المتراس أعلاه، ليصبحوا في ممرٍ ضيقٍ عند قاعدة الجدران الرئيسة، حيث يتعرضون لوابل من الحجارة والمقذوفات[99].

الآن وفي أعماق بحيرة ناصر الممتدة مسافة مئة ميلٍ جنوب السد العالي أو سد أسوان، هناك عشرون قلعة ضخمة مبنيةً من الطوب المشوي، وهي تتحلل تدريجياً في الضفاف المغمورة لما كان يُسمى بالشلال الثاني لنهر النيل. بُنيت هذه القلاع

المفارقة المصرية: هندسة معمارية متطورة وأسلحة غير متطورة. القلعة القديمة بوهين، عمرها أربعة آلاف عام، غارقة الآن في بحيرة ناصر في أسوان.

لحراسة المداخل الجنوبية لمصر قبل حوالي أربعة آلاف عام، وهي شاهد على راعة المعماريين والمهندسين المدن ين المصريين، من حيث تعقيدها وتطورها. ويمكن م ارنة الدفاعات المعقدة لتلك الحصون مع قلاع ال رون الوسطى التي ش دت قبل ثمانية قرون فقط. حرست تلك الدفاعات الحدود المصرية الجنوبية، من وهين في الشمال إلى سمنة وكوما في الجنوب، وقد بُنيت على مسافات تتيح الاتصال المرئي ينها، وزوِّدت بمخازن الحبوب والأنفاق الموصلة إلى النهر، بما وفّر الطعام والماء للمدافعين للصمود في حال الحصار الطويل. ووفق أحد النقوش، كان الغرض الرئيس منها: «منع مرور أي نوبي عند توجهه شمالاً، سواء أفعل ذلك سيراً على الأقدام أو على متن ال وارب، فضلاً عن ماشية أول ك النوبيين، ويُستثنى مما سبق النوبيون ال ادمون للم ايضة في ايكن، أو من يحملون منهم رسالةً رسميةً». وقد احتفظ المصريون ب كت بةٍ من المجندين النوبيين المحليين لل يام دوريات في المنطقة الصحراوية الواقعة خارج الحصون.

عملياً، كانت تلك جبهةً عسكريةً إمبراطورية. وهي أول مثال تم احتذاؤه عشرات المرّات؛ من إنكلترا الرومانية وسور الصين العظيم إلى الدفاعات البريطانية عند الحدود الشمالية الغربية للهند. وأصبح استخدام (ال وات المحلية) للدوريات في المنُطقة الأمامية معياراً لا غنى عنه، غ ر أنّ السلاح الذي استُخدِم لم يكن متناسباً مع هذه الدفاعات المتطورة؛ فقد ظهرت الحصون في ال رن العشرين قبل الميلاد، حيث كانت ج وش شمال مصر وشرقها في الهلال الخصيب مدرعةً بالدروع المعدنية، ومسلحةً بالحرب البرونزية والأقواس المركبة منذ خمسم ة عام، ينما استمر المصريون باستخدام الهراوات والأقواس البسيطة ذات الأسهم الحجرية، والرماح

ذات الرؤوس الصوانية، من دون ارتداء أي دروع. ويبدو أنّهم لم يحتاجوا إلى تلك التقانة العسكرية ب اء النوبيين هادئين. وهناك دلائل تشير إلى طبيعة معاركهم الداخلية التي كانت تندلع عند التنازع على العرش، والتي تشبه نوعاً ما الطقوس الرسمية، والتي لم يتخللها الكثير من القتال المباشر (رغم توفر الكثير من الأدلة على تعرّض الأسرى بعد تلك النزاعات للذبح).

بدأ التمركز السكاني في وادي النيل والالتزام بالزراعة في مصر في وقتٍ متأخرٍ نسبياً، أي حوالي 5500 ق.م؛ بعد أن دفع المناخ الجاف الناس للانتقال إلى المناطق المنخفضة من المرتفعات الشبيهة بالسافانا سابقاً، والواقعة في جبال البحر الأحمر والصحراء، فتحركوا إلى الشرق والغرب، لكن التغيّرات جاءت بسرعةٍ. ففي أقل من ألف سنةٍ، أصبحت النجود بمعظمها صحراء حديثةً، عاجزة عن دعم الرعاة؛ باستثناء المنطقة المتواجدة حول القوس الشرقي الكبير لأعالي النيل (بالقرب من الأقصر اليوم وطيبة القديمة) حيث سيتمكن بعض الرعاة من الاستمرار لألف عامٍ أخرى أو نحو ذلك. وبخلاف ذلك، كان الوادي مأهولاً بناسٍ آخرين، وكان أسلوب الزراعة قرب النهر فريداً من نوعه؛ إذ لم يتطلب ذلك الجهد الكبير، ولم يُبعد رعاة الماشية عن المنطقة. ففي وقتٍ متأخرٍ من كلّ صيف - عادةً في منتصف شهر آب - تصل مياه الأمطار الهاطلة على مرتفعات هضبة الحبشة خلال فترة الرياح الموسمية إلى مصر العليا (جنوب مصر) مع فيضان نهر النيل، وهو ارتفاعٌ طفيف في مستوى النهر. يغطي هذا الفيضان معظم السهل الفيضي، ثم ينحسر بعد ذلك مخلفاً طبقة خصبة وغنية من الطمي الطازج، حيث تنمو المحاصيل لأربعة أشهر قادمة بشكلٍ ممتازٍ على الأراضي

الزراعية. وبعد ذلك، تُخصَّص تلك الأراضي لمدة ثمانية أشهر كمراعٍ للحيوانات، حيث لا يمكن لأي محاصيل أخرى أن تنمو في تلك الفترة من السنة من دون ريّ (والذي لم يبدأ في وادي النيل حتى حوالي عام 2000 ق.م).

إذاً، وخلافاً لبعض أجزاء منطقة الهلال الخصيب، حيث يمكن زراعة المحاصيل على مدار العام، لم تتطلب الزراعة في مصر إبعاد الماشية والرعاة إلى أطراف المنطقة الزراعية، خلا أنّهم لم يمتلكوا وجهةً أخرى بالنظر إلى الصحراء الشاسعة التي تبدأ بعد خمسةِ أميال من حافة النهر، ولذلك لم تنفصل جماعاتٌ رعويةٌ عن المجتمعات الجديدة المستقرة، ولم تنشأ عداوةٌ بينها؛ وهو أمرٌ إيجابي جعلٍ من المجتمعات الزراعية المحاذية للنيل مستوطناتٍ متفرقةً لا تحتاج إلى جدران لحمايتها.

نفترض أنّ تجمعات سكان المنطقة بدأت كقرى زراعية قبلية شبيهة بقرى يانومامو، أو تجمعات مرتفعات غينيا الجديدة، لكن في بيئةٍ طبيعيةٍ أوفر، ثم توحّدت تلك التجمعات لتصبح أشبه بمشيخة يقطنها بضع عشرات الآلاف من الناس، مع مركزٍ إداريٍ تجري فيه الطقوس الرسمية. ولا شكّ في أنّ هذا لم يحصل من دون استخدام بعض العنف. ويوحي علم الآثار أنّ هذه المشيخات بمناطقها العازلة غير المزروعة كانت الأساس لاثنتين وأربعين منطقة بقيت كمقاطعات إدارية لمصر الفرعونية لمدّة ألف عام بعد توحيد مصر. وفي وقتٍ متأخرٍ من عام 3 ق.م، كانت هناك عدّة مدنٍ مسورةٍ أو حصونٍ باستثناء قوس نهر النيل؛ إذ بقي بعض الرعاة اليائسين من سكان الصحراء القدماء على المرتفعات التي يغزوها الجفاف، فاتجهوا نحو الإغارة على الوادي لتأمين قوت يومهم، ولذلك نجد أسواراً في

ممالك الصغيرة لناجادا وهيراكونوبوليس (فالكونفيل)[100]، حيث لجأ المزارعون إلى الأسوار والحصون لحماية أنفسهم من غارات البدو، وعاشوا في مجتمعات عسكرية أكثر بكثير، ولهذا السبب كان لا بدّ من توحيد مصر.

نجهل التفاصيل عن توحيد مصر، ولكنه بدأ مع تأسيس سلطة هيراكونوبوليس على طول قوس نهر النيل، ثم المناطق العلوي من النهر وصولاً إلى الدلتا. وهناك نشبت المعارك للسيطرة على الممالك الصغيرة الأخرى، واستغرق الأمر عدّة مئات من السنين. وبحلول عام 3100 ق.م، حكم مصر العليا بكاملها (على صعيد مصر) رجل واحد تمكن في ذلك الحين من التغلب على منافسه الوحيد الذي حكم جزءاً من الدلتا على الأقل. وتُظهِر لوحة نارمر[101]، المنحوتة الكبيرة التي تعود إلى حوالي 3050 ق.م، الفرعون مرتدياً ثوباً من صعيد مصر، وهو يستقبل رجلاً آخر، ربما فرعوناً آخر يرتدي ثوباً أقرب إلى نموذج مصر السفلى. وفي مشهدٍ آخر على اللوحة نفسها، يظهر الفرعون متأملاً جثث الأعداء مبتورة الرؤوس. وهكذا، نشأت أوّل دولةٍ كبيرةٍ على الأرض، وامتدت مسافة 625 ميلاً من الجنوب إلى الشمال، وربما بلغ عدد سكانها نصف مليون شخص آنذاك. وبالتأكيد، لم تنشأ تلك الدولة بالمنطق الهادئ، ولكنها كانت مكاناً جيداً بعد التوحيد[102].

بدت مصر أشبه بجنة عدن بمجتمعها الزراعي المبكّر. وقد اقتربت بعد توحيدها من فكرة نزع السلاح؛ إذ لم تواجه جيراناً أقوياء يمكنهم الوصول إليها وإلحاق الأذى بها، ولم تعد هناك حاجةٌ لقوةٍ عسكريةٍ لصد ما تبقى من البدو، وتأمين الحدود الجنوبية، وحراسة مواقع تخزين الحبوب خلال

المجاعات عندما رتفع منسوب النل أو ينخفض لمستويات ك يرة، أو خلال تسوية النزاعات الد ليلة الناشبة ين الأسر الحاكمة. إذ تم ذلك باستخدام ميليشيات غ ر مدربة وذات تسليحٍ خفيفٍ، والتي شكِّلت من الفلاحين وفق أساسٍ مؤقتٍ. وقدّمت العمالة المؤقتة جهدها لبناء الأشغال العامة الهائلة التي ميّزت مصر الد ديمة، ولعل أ رز إنجازات تلك الفترة هي الأهرامات. إذ لم يكن لدى المزارعين ما يفعلونه لمدة ثمانية أشهر في العام، وهو ما تم استثماره في توجيه الطاقة الفائضة دلاً من الوقوع في ظروفٍ لا تُحمد عقباها. ولذلك، ت دو جاذ ية المجتمعٍ المصري ب عد أوّل ألف وخمسم ة عام من توحيد مصر مرتبطةً بشكلٍ وث قٍ درجة العسكرة المنخفضة. وانعكس هذا أيضاً على المرأة التي تمتعت بمرتبةٍ أعلى بكث ر من معاصراتها في مجتمعات الهلال الخصيب. ويعود السبب بشكل شبه مؤكد لعدم احتكار الرجال في مصر لصناعة الحرب كما هو الحال في مجتمعات الهلال الخصيب.

طبعاً، لم تكن مصر جنة عدن طيلة الوقت، إذ يصعب على مجتمعٍ زراعيٍ مبكّرٍ الوصول إلى تلك الحالة الس ع دة. ففي الأوقات الطيبة ارتفع عدد سكانها – ربما فاق مليون شخص في الوقت الذي بُنيت فيه أهرامات الجيزة العظيمة في الد رن الثالث والعشرين قبل الميلاد – وتدهور مراراً إثر المجاعات الره بة المصاحبة لفيضانٍ هائلٍ أو انخفاضٍ حادٍ في مستوى النهر، ولفترة لا تكفي معها مخازن حبوب الفرعون. كانت تلك الفترة تتصف بملكية مطلقة حكم فيها الملك ا له، وسادت فيها الطب ية بالنسبة لتسعة وتسعين شخصاً من أصل م ة من سكان مصر كانوا ولدون ويموتون في الطبقة الاجتماعية

نفسها. وبذلك، تكون الحريات الاجتماعية الـ ديمة التي تمتع بها عشرات الآلاف من أجيال أقوام الصيد والجمع قد غابت وإلى الأ د. ومع ذلك، تميّزت مملكة مصر الـ ديمة بفنها الذي كان أقل تكلفاً وأكثر طبيعيةً من مثيله في الحضارات الـ ديمة؛ مما عكس استرخاءً وبهجةً غابا نسبياً عن أماكن أخرى من الشرق الأوسط الـ ديم. ويميل المرء إلى توقّع أنّ هذا مرتبط نوعاً ما بمستوى العسكرة المنخفض، وعدم وجود الته د المتمثل بالبدو. ربما على المرء أن يـ اوم مثل هذه الفكرة المغرية وينظر إلى حضارة الأزتيك.

إذا أردنا أمثلة عن كيفية نشوء الحرب التقليدية ين أقوام الصيد والجمع في حضارةٍ غ ر معرّضة للهجمات المنتظمة من قبل الرعاة، فالمثال الأفضل ليس مصر وإنما المجتمعات الموجودة قبل كولومبوس في أمريكا الوسطى والجنوبية؛ إذ لم يكن هناك رعاة في الأمريكيتين قبل قدوم كولومبوس، نتيجة عدم وجود حيوانات مدجّنة وبالتالي عدم وجود جماعات رعوية يمكن أن تعيش منها. فهل ق ف غياب غارات البدو خلف نمط المعارك المختلف ين المايا وا نكا ومختلف شعوب وادي المكسيك؟ رغم قلة المعلومات عنها إلا أنّ المعارك شملت ط وساً أكثر وقسوةً أقل بكث ر من معارك الهلال الخصيب حتى قبل خمسة آلاف عام! فهل يفسّر ذلك أيضاً سبب عدم تطوير أولـ ك الأقوام أسلحة من المعدن؟

لم تكن المعارك هامشيةً ين المايا أو ا نكا أو الأزتيك، إذ ساهمت في تحوّل تلك المجتمعات إلى إمبراطوريات في ما بعد، ولكنهم تنبهوا – ربما بفضل غياب

هجمات البدو – إلى ما يمكن أن يحصل لو عاملت عدوكَ كفريسة، كما لم ينظروا إلى المعارك كمساب ات يكسب فيها من قتل معظم أعدائه بشكلٍ أسرع. وبدلاً من ذلك، كانت معظم معارك الأمريكيتين قبل مجيء كولومبوس أقرب روحياً إلى معارك ماي إنجا في غينيا الجد دة، ولكن على نطاقٍ أوسع بكث ر، وبحسمٍ أك ر، وإنما مع قيود تقليدية أك ر بسبب نمطية الحرب ضمن ال وم أنفسهم.

شابه جيش الأزتيك قبل خمسم ة عام جيشاً قبل ثلاثة أو أربعة آلاف عام في الهلال الخصيب من حيث الخطوط العريضة؛ إذ اعتمد على حشدٍ ك يرٍ من رماة السهام، وغ رهم من رماة القذائف الذين كانوا دعمون نخبةً من المحاربين المسلحين والمدرّعين (دروع مبطّنة بالا طن) للقتال المتلاحم مع الخصم. إلا أن الهدف الرئيس من القتال لم يكن تدمير جيش العدو وقتل أك ر عدد من أفراده ب در أسر أك ر عدد منه وتقييد أول ك الأسرى ونقلهم إلى الخلف. وبذلك كان القتال فردياً، ويتحق ق نصر المرء على خصمه بجعله يجثو إلى الأسفل وذلك بإصابته أو ضربه على الأوتار أو الركبة، وإجباره على الاستسلام ليتم تقييده وسوقه إلى الخلف. كما شملت المعركة أنواعاً أخرى من القتال (لعبت المقذوفات، وخاصةً السهام، الدور الأ رز في إي اع الخسائر الك يرة). وكانت الاشتباكات تستمر بتتابع معروف ومتوقع، إذ ت دأ المعركة من مسافاتٍ بع دةٍ، ثم يشتد القتال مع اقتراب الجيشين من بعضهما بعضاً. ورغم السعي الحثيث لتحقيق النصر عن طريق خلخلة تشكيلات العدو كافة وتدميرها، إلا أنّ جوهر المعركة كان الأسر؛ وهو سبب تطور الأسلحة التي تسبب نزف العدو وإضعافه لا قتله. وبهذا، تكون قواعد

الاشتباك محددةً بعنايةٍ؛ بما يعزز القتال الفردي ويحقق أفضل النتائج في ما يتعلق بأسر العدو.

كانت المعارك ذات أهمية سياسية كبيرة بالنسبة للحكام؛ إذ تعني نتيجتها خضوع المجتمع بأكمله. لكن دوافع المحاربين وتصرفاتهم كانت مختلفةً عن دوافع الحكام، وبشكلٍ يبدو غريباً جداً لمن ورث التقاليد العسكرية الأوراسية. ففي مجتمع الآزتيك، كان عدد الأسرى لدى الرجل هو مستقبله ومفتاح الرتبة والامتيازات في الوطن، ناهيك عن كونه مصدراً رئيساً للبروتين له ولأسرته! لذلك، كان القتال من أجل الأسر لا القتل[103]. وقد شوّه هاجس الآزتيك للتضحية بالبشر وأكل الضحايا بعدها صورتهم مقارنةً بجيش الإنكا مثلاً. وهذا لم يكن موجوداً بأي شكل في ساحات القتال الأوراسية التقليدية ذات الكفاءة الحربية بخلاف الآزتيك. وعموماً، بقيت المعركة مناسبةً اجتماعيةً ذات عواقب سياسية بالنسبة لجميع المجتمعات العامة في الفترة التي سبقت كولومبوس؛ وهو ما سمح لهرناندو كورتيس (Hernando Cortés) وثلاثمئة إسباني معه بهزيمة جيش الآزتيك، رغم أنّه لا يقل عن مئة ضعف عدد الإسبان، وبالتغلب على تلك الإمبراطورية بشكلٍ كاملٍ عام 1521. والسبب الأبرز لتحقيق ذلك لم يكن كثرة الأسلحة النارية أو الخيول، بل التركيز الإسباني التام على إحراز النصر العسكري. ورغم أن الإنكا غير مهووسين بأسر الخصوم وجعلهم ضحايا بشرية بدرجة هوس الآزتيك نفسها، إلا أن القسوة الواقعية المحضة مكّنت فرانسيسكو بيزارو (Francisco Pizarro) بقوته العسكرية الصغيرة من إسقاط إمبراطورية الإنكا بالكامل بعد عامين، وبذلك تكون الحرافة الأوراسية قد

دفنت كلّ التقاليد العسكرية الأخرى في الأمريكيتين.

وقام ميريونيس، دوره، قتل فريكلوس...

هذا هو الرجل الذي لاحقه ميريونيس، وحين لحق به

طعنه في أليته اليمنى فاخترقها رأس الرمح

من تحت العظم حتى المثانة

فهوى على ركبتيه وهو يزعق، فيما كان الموت كالضباب من حوله

وقام ميغيس قتل يدا وس...

والآن أطبق عليه ابن فوليوس، الشهير بحربته،

وضربه بالرمح في مؤخر رأسه على وتر القذال

فمر من بين أسنانه، وقطع النصل الحاد ما تحت اللسان

فهوى على التراب وهو يعض على البرونز البارد بأسنانه

وقام وروبلوس... قتل هوبسينور، المقاتل الرائع...

قام وروبولوس، ابن وايمون،

بمطاردته وهو يهرب أمامه، وضربه في كتفه

بسيفه فبتر له ذراعه

سقطت الذراع على الأرض وهي تنزف دماً

وأقبل الموت الدموي

ومعه المصير المحتوم ليأخذ نور عينيه

وهكذا ذهبا في عملهما في ذلك اللقاء المرهب.

إلياذة هوميروس[104]

إنّ المعركة الحديدية حدثٌ مذهلٌ ورهيبٌ بمجرياته، وقد حصلت تلك المعركة المذكورة في الإلياذة بالفعل تحت جدران طروادة حوالي 1200 ق.م، لكن القصيدة التي تخلدها كُتبت حوالي 800 ق.م. تصف هذه القصيدة ربما الحرب في تلك الفترة بشكلٍ دقيقٍ، لكنها تخلّد مآثر (عصر البطولة)، وتصف المعركة كلقاءاتٍ ملحميةٍ بين أبطالٍ منفردين؛ وهو أمر لا يصف ما حدث بالفعل على أرض الواقع، إذ كانت تلك حرب كتائب المشاة الأولى - للجيوش الأولى الحديدية - وكانت بالفعل لقاء الأقوياء.

يتطلب القتال في كتيبة مشاة مستوى عالياً من الانضباط والتنسيق لم يعهده الناس من قبل. ومع دخول الرماح والدروع المعركة، طُلب من المقاتلين تشكيل خطوطٍ مستقيمةٍ وطويلةٍ، ربما وقف فيها المئات بل الآلاف. ليس خطاً واحداً فحسب، بل ثلاثة أو خمسة أو أكثر من ذلك... الخط يعقبه خط. وكان يتوجب على المقاتلين في كثيرٍ من الأحيان التحرّك على أرضٍ وعرةٍ من دون أن يفقدوا التشكيل المنتظم؛ لحين الاشتباك مع العدو المحتشد بتشكيلٍ

مشابه. وعندما يصطدم الطرفان، قد لا يتمكن الرجال من سماع أوامر القائد بسبب الضجيج، وقد لا يطيعونها إذا سمعوها صدفة. ما يهم حقاً هو ما يحدث هناك في خط التماس حيث تلتقي جنود الطرفين معاً، وحيث يبدأ الدفع والطعن والكسر ضمن نوباتٍ من الهلع والتعرق. فيتآكل الصف الأمامي لتشكيلات الطرفين لحظةً مع سقوط الرجال قتلى على أرض المعركة. وحين يتمكن الذعر من أحد الطرفين فيحاول التملص من المعركة لن يستطيع فعل ذلك؛ إذ سيجد صفوفاً أخرى من الرجال خلفه ممن لم يصابوا بالذعر بعد، والذين يتابعون تقدمهم بإصرار. لكن هذا يزعزع تماسك التشكل ويقوده إلى الانهيار، وعندما يحصل ذلك يُحكم عليه بالفناء. ومن يحاول الفرار فسيجد نفسه محاصراً ومعزولاً ضمن حشد المقاتلين في صفه، وبعيداً عن الخط الخلفي.

وما تم وصفه في السطور السابقة هو المرحلة الأخيرة والأبشع من المعركة؛ حيث لا يتمكن (الأبطال) من الوصول إلى الخلف عند فرارهم. ورغم الحماسة اللغوية التي ترفع من معنويات المحارب وتعطيه العزيمة للالتحام بالخصم، إلا أنّ الواقع لا يعدو عن كون أولئك المقاتلين شباناً خائفين وبعيدين عن منازلهم لأول مرّة، ويتدافعون للنجاة بحياتهم بعد أن خرجت الأمور عن سيطرتهم. وفي النهاية، ينزفون حتى الموت وسط حطام الكتيبة المدمرة. إنّها وحشيةٌ لا ترحم، وذبحٌ متعمدٌ لا يستطيع «البدائيون» مجاراته بأي شكلٍ أو حتى تصوره، وهو أمر لم يبدأ عام 1200 أو 800 ق.م، وإنما في زمن الحضارة الحضرية الحديثة؛ أي

النسر الفولاذي

للملك

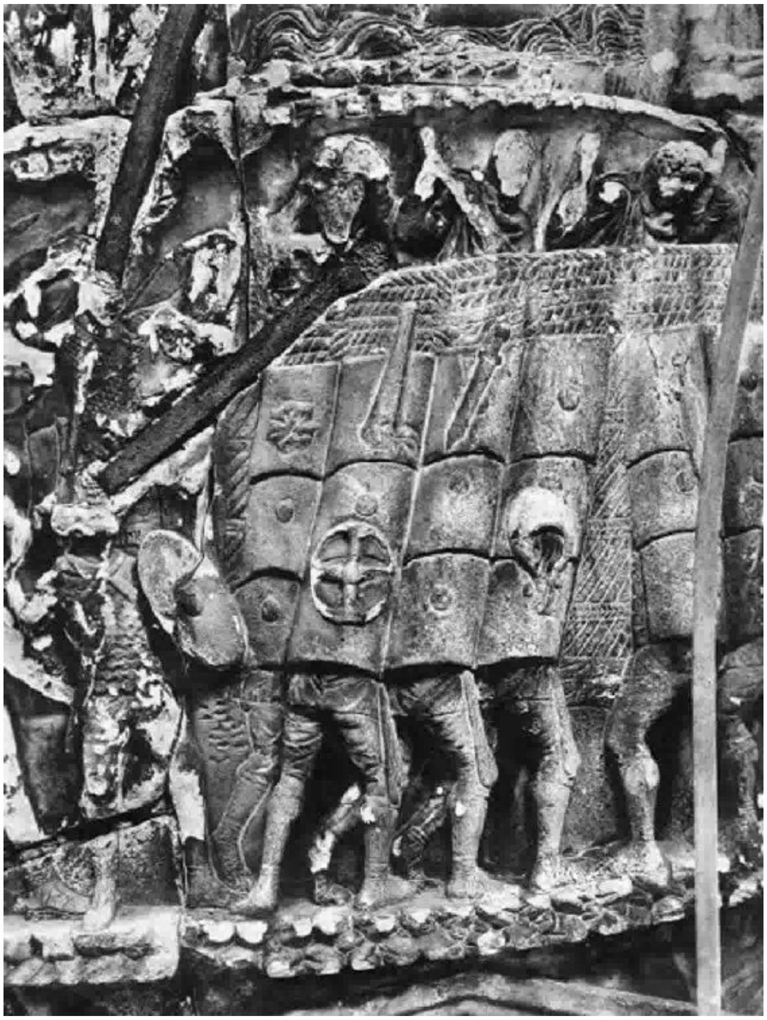

إيناتوم في لاجاش حوالي 2500 ق.م، وتظهر الكتيبة في أعلى الصورة ومذبحة الأسرى في الأسفل.

منذ أكثر من خمسة آلاف عام مضت. وقد انتمت الكتائب الأولى إلى دول المدن المتنافسة لبلاد ما ين النهرين.

يمكننا العودة إلى إحدى مسلات النسور، وهي أول تمثل ل لجيش بلاد ما ين النهرين، حيث يعود تاريخها إلى حوالي 2 ق.م، حين قاد حاكم لاجاش والذي ُدعى إيناتوم جيشه إلى المعركة، وخلفه جنود المدينة. لكنهم لم يكونوا مجموعة عشوائية، ولا اصطفوا بخط واحد على طريقة الحرب (الد بلية)، ل كانوا منتظمين كتفاً على كتف وقد تداخلت دروعهم،

وبعمق عدّة صفوف، مع حرابهم اللامعة والبارزة من صفوفهم وفق النموذج التقليدي للكتيبة. إن سيرهم بخطواتٍ منسقةٍ ومنتظمة شبه مؤكّد، وما إن تلتقي الكتيبة مع تشكل العدو ال ادم من مدينة أوما المجاورة حتى تكون تجربة الجنود تجربةً صادمةً؛ شأنها شأن صدمة الأبطال أسفل جدران طروادة بعد مضي أكثر من ألف عام لاحقاً. إذ يحصل صراعٌ وجيزٌ وجهاً لوجه؛ صراعٌ وحشيٌ ليه ذبح الكتيبة المهزومة. وتدّعي مسلة النسور مقتل ثلاثة آلاف رجلٍ من جيش أوما في ساحة المعركة، وأج ر الأسرى بعدها على السير إلى أسفل حصون مدينتهم حيث تم ذبحهم.

وصل هذا العنف إلى حدّه الأقصى بصرارٍ كلاوزفيتزي[105] تقريباً. ربما كان هذا ا صرار موجوداً منذ داية الحضارة، ومع ذلك، كانت خسائر نموذج الحرب لأقوام الصيد والجمع أك ر نسبياً خلال ج ل بالم ارنة مع خسائر حروب دول مدن بلاد الرافدين؛ إذ كان هناك مئات الآلاف من الرجال في دولة مدينة أوما، كما أنّ الحروب لم تحدث بشكلٍ متكررٍ، لكن القتال كان شديداً مع رغبةٍ عميقةٍ لدى الرجال في الثبات والقتال رغم احتمال موتهم بعد خمس دقائق؛ وهو أمرٌ لا سا ق له لدى ا نسان، ولا شيء يشبهه سوى المعارك التي تحدث ين مستعمرات النمل. لكن النمل معذور وراثياً؛ إذ إن تراثه الجيني المشترك يخوله التضحية بنفسه نيابةً عن مجتمعه. ربما وصل سكان دول مدن بلاد ما ين النهرين إلى المستوى الذي ينحصر فيه الزواج ضمن المدينة نفسها نوعاً ما (الزواج ضمن المجتمع نفسه)، لكن رجال الكتيبة لا يمتلكون المادة الوراثية التي تدفعهم للتضحية بأنفسهم من أجل الجماعة حسب نظرية (المورثة الأنانية)، ولا في الواقع ضمن أي سياق مصلحي ذاتي

وعقلاني، ولذلك فثقافتهم هي الدافع الرئيس لتلك التضحية.

«ما يطلبه الجيش لا يقبل بتنفيذه إلا القليل من الأشخاص؛ هذا إن قبل أحد أساساً. وبالتأكيد، يتحدث المضطربون عاطفياً عن تدريباتهم على القتل... إنّ الجوهر الكلّي لكي تكون جندياً لا يكمن في ذبحك للآخرين، بل في أن تكون من يتعرض للذبح. فأنت تقدّم نفسك للذبح، لا لتذبح. وانطلاقاً من هذه الفكرة، يستطيع المرء الغوص عميقاً، وسيجد الكثير من الأفكار في هذا المجال».

الجنرال السير جون هاكيت

يستطيع المرء بالفعل الغوص عميقاً، وهو ما نحتاج إليه؛ إذ إنّ هناك لغزاً دائماً بشأن ما يسمى بالطريقة الغربية في الحرب. لقد هيمن أسلوب الكتيبة المنظم في الهجوم وجهاً لوجه على ساحات القتال في الهلال الخصيب وحوض البحر المتوسط التقليدي، كما كانت المعارك تجري عن قربٍ سواء أحصلت باستخدام الرماح البرونزية أو السيوف القصيرة الرومانية أو حراب عصر النهضة أو بنادق براون، وهو ما تناقلته الحضارات اللاحقة كافة وصولاً إلى الغرب الحديث بعد حوالي خمسة آلاف عام، وحتى الوقت الحاضر. ورغم ما تبدو عليه ساحات المعركة الحديثة من فراغ نسبي، إلا أن الأمر موجودٌ في دواخلنا؛ إذ لطالما اتخذت الحرب أشكالاً محدودةً ولفتراتٍ طويلةٍ حتى في الغرب. أما في أجزاء أخرى من العالم، فقد سادت الأشكال التقليدية وكانت هي القاعدة. في حين عاودت روح الكتيبة الظهور مرّةً تلو الأخرى في الغرب، لتنخرط في هذا النموذج الحربي عديم الرحمة، والأشبه بمبدأ (كلّ شيء أو لا شيء). وهذا ما استلزم درجةً عاليةً من

الالتزام من كلا الطرفين المتواجهين، إذ لا تتصادم كتيبتان ما لم يتعاون الجانبان ضمنياً في تنظيم قواتهما في ساحة المعركة المتفق عليها. وإلا ما كان لخطوط المشاة أن تنتظم بهذا الشكل في حروب القرن الثامن عشر من دون أن يفتح الجانبان النار على بعضهما. لكن، لماذا يختار الناس من هذه السلسلة الثقافية القتال بهذه الطريقة مراراً وتكراراً في حين لا تستطيع ثقافات أخرى فعل ذلك، أو على الأقل لم تقم بذلك؟

لا شك فيّ أنّها طريقةٌ مرعبةٌ في القتال، لكن نتائجها عمليةٌ أكثر. فإذا تواجه جيشان، الأوّل مستعدٌ للوقوف والقتال ضمن المدى المجدي لسلاح الجيش الثاني، بينما تنص تقاليد الجيش الثاني على عدم خوض معركة كبيرة من دون وجود مزايا من حيث التفوق العددي أو عنصر المفاجأة، فإنّ كفة كسب المعركة سترجح للجيش الأول؛ وهذا أشبه بالمال السيئ الذي ينحي جانباً المال الجيد. وهكذا، سيطرد العنف المباشر والطائش عديم الكوابح (النمط الذي ينظر إليه الناس بشغف ويمجّدون الموت فيه) النمط المتعقل المتوازن وسيتغلب عليه.

وفي النهاية، ساد أسلوب الجيوش الغربية التي جمعت بين التكنولوجيا الجديدة وتقاليدها القديمة. لكننا على معرفةٍ بحضارات كاملة لم يسد فيها الشكل المتطرف من الحرب، ومن بينها الحضارة الصينية؛ حيث كان نهجها الحربي مُشبعاً بالمثل الكونفوشيوسية، والتي تعتبر أنّ الرجل المتفوق قادر على تحقيق أهدافه من دون اللجوء إلى العنف. وكما قال صن تزو في فن الحرب[106] (490 ق.م): «لا

ينبع التفوق من خوض الحرب وتحقيق الانتصارات في جميع المعارك، لم يكمن تفوقك في إطاحتك بمقاومة العدو من دون قتال». لكنّ هذا لا يعني أنّ التاريخ الصيني كان نزهةً محضة، فقد شهدت مرحلة توحيد الصين حروباً لا نهاية لها، تلاها العديد من الحروب الأهلية، عدا عن التهديد المستمر والخطير للغزو البربري. وهكذا، نتساءل مرّة أخرى: لماذا انتصر النمط المتطرف العنيف من الحروب في الهلال الخصيب القديم وفي الحضارات التي تلته؟

ربما لأنّها أقدم حضارة، وقد وصلت إلى الوقت الحاضر بعد أن قطعت أطول وأصعب طريق. إذ كان الشرق الأوسط متقدماً بمسافة ألفٍ إلى ألفٍ وخمسمئة عامٍ عن المناطق الأخرى في العالم، وحتى عن الأجزاء المتناحرة من أوراسيا مثل وادي السند والصين. وكانت هذه الحضارة هي السبّاقة في إيجاد دويلات المدن، وأولى الامبراطوريات الزراعية أو الامبراطوريات (الهدروليكية). وقد تكون لهذه الأسبقية في إيجاد المدن واختراع الدولة والجيوش والمال والكتابة آثارها الاجتماعية والنفسية. وكان على أولى الحضارات الماضية في هذه السلسلة المرور بهذه التحولات خطوةً خطوةً، من دون إغفال أيٍّ منها، في حين أغفل البعض الآخر ممن ساروا على هذا المسار – حتى في أقصى مكان من أوراسيا – بعض الخطوات، وخاصةً تلك الخطوات التي تحوّلت بواسطتها الفرق القديمة المحاربة في بلاد ما بين النهرين إلى ميليشيا متدرجة من حيث انضباطها في المملكة الزراعية الصغيرة، ومن ثم اتباع أساليب التملق والتزلف والخداع والتصرف بشجاعة الكاميكاز تقريباً ضمن كتائب المدينة الدولة.

دأ التحوّل مع الانتقال إلى المدن والأماكن المسوّرة الأخرى في الهلال الخصيب بعد عام 5500 ق.م، ولم يكن دافع ذلك التحول ارتفاع الكثافة السكانية بـ در التهد د المتزا د للشعوب الرعوية التي استقلت عن المجتمعات الزراعية. وكان هناك فرق واضح وك ير ين ضراوة المعارك وانضباط المحاربين في الهلال الخصيب ومصر، لأن الحرب مع البدو الرحل لن تكون على شاكلة المناسبات والط وس التي تقيس الـ وة النسبية للطرفين؛ كما كان الأمر في السا ق. والحرب مع البدو حرب وجود، والهزيمة فيها تعني فقدان كلّ شيء، وهنا يحصل التغ ير المرئي، وتفقد التقاليد حصانتها، ويعمد الناس للابتكار للوصول إلى حلٍّ أفضلَ يشمل الحرب أيضاً. وبذلك، ارتفع الانضباط المطلوب من الفرد المحارب، وازدادت معه السيطرة من قبل الزعيم أو الـ ائد؛ وهما من الشروط الأساسية للنجاح في المعركة ضد المغ رين البدو. وهذه من طرائق القتال الجد دة والفعالة التي لا غنى عنها. غ ر أن السؤال المطروح هو التالي: حين يعي الناس المستقرون كيفية الـ يام بذلك، هل سيعودون إلى أساليبهم الـ ديمة وغ ر الفعالة في المواجهات المزمنة مع المجتمعات الزراعية المجاورة؟ بالطبع لا، وهكذا دأ الفتك يزداد في المعارك.

ارتفع هذا بسرعة ك يرة في بلاد ما ين النهرين بحكم الجغرافيا الفريدة لهذه المنطقة، والتي تشمل وسط العراق وجنوبه اليوم. وهي عبارة عن سهل عديم الملامح تقريباً، شبه مسطح، تشكّل بفضل نهري دجلة والفرات اللذين يصرّفان معظم مياه الجزء المرتفع من منطقة الهلال الخصيب. وقد فضّل المزارعون الـ دامى السكن في الأماكن المرتفعة حيث المطر والشجر والحيوانات البرية، ينما عانت هذه المساحة ين النهرين من شح الأمطار وقلة الأشجار

والشمس الحارقة. غ ر أنّ تعرّج النهرين - إذ يتعرّج النهران بفضل الأرض المستوية، وتتقاطع التعرجات مع بعضها مراراً وتكراراً؛ مما يجعلها تغيّر مسارها كلّ ألف عام أو نحو ذلك - وتوفّر المياه من النهرين على مدار العام تقريباً جعلا الاستفادة من الري ممكنةً، تُضاف إلى ذلك خصوبة التربة نتيجة الطمي المتراكم من الفيضانات الماضية، وهو ما أتاح الحصول على محصولين في العام من هذه الأرض. وإذا بُذل المز د من الجهد، فمن الممكن الحصول على ثلاثة محاصيل. وهكذا، وبحدود 5000 ق.م، هبط المزارعون الأوائل من المرتفعات المحيطة بالمنطقة (كردستان وإ ران اليوم) إلى السهل، ودفعوا عجلة الحضارة لتسير بأسرع ما يمكن.

كان سكان سومر - كما كانت تُدعى - الأوائل الذين استفادوا من الزراعة؛ حيث تضاعف عدد السكان كلّ نصف قرن وربما أقل من ذلك، إذ وفّرت الأرض المروية الطعام لمئات البشر في كلّ ميلٍ مربعٍ (لكن من ناحيةٍ أخرى، تراجعت حالتهم الصحية بسبب اتباعهم نظاماً غذائياً منخفض البروتين، مما أعاق نموهم. كما أدى ارتفاع الكثافة السكانية إلى تفشي الأمراض الوبائية الفتاكة). لـ د جذبت الثروة الهائلة من المواد الغذائية الشعوب المشرفة على تلك المنطقة، لكن كانت هناك حاجة إلى الخشب والمعادن وحتى الحجارة التي لا تتوافر في السهل الرسوبي، وبذلك أتيحت فرصة مثالية للتجارة المربحة ين سكان السهل والتلال، وكان لتلك التجارة أن تزدهر إن ساد التعقل ين الجان ين، ولو توافرت وسائل أفضل للنقل، غ ر أنّ تلك ليست وصفةً للتعايش السع د في ظروف ذلك الوقت، إذ دا واضحاً ظهور ضغطٍ حضاريٍّ متفجرٍ في السهل السومري.

دُفن الدليل عميقاً تحت المدن المتعاقبة لتظل الحقيقة مبهمةً، لكن من المؤكد انسحاب القبائل المختلفة في بلاد سومر إلى القرى المسوّرة مع اقتراب الجماعات الرعوية وبدئها هجماتها خلال الألف الخامسة قبل الميلاد. ومع الازدياد السريع لعدد السكان، تحوّلت القرى بسرعة إلى مدن، وضمنت الحاجة إلى ربط قنوات الري وجود إمدادات منتظمة من المياه بين المدن – ربما بالاتفاق بينها، وربما بالقوة – لكن التضاريس المختلفة في بلاد ما بين النهرين لم تسمح بقيام دولة قومية واحدة، مثل مصر، رغم تكلم سكان سومر اللغة نفسها. وبدلاً من ذلك، ظهرت حوالي اثنتي عشرة دولة من دول المدن، والتي ضمت مئات الآلاف من السكان في أوائل الألفية الثالثة قبل الميلاد؛ ولم يُعثر على دليلٍ قاطعٍ بنشوب حربٍ واسعةٍ خلال تلك الفترة الطويلة، وهذا لا يعني عدم حدوث حرب، إلا أنّها على ما يبدو لم تكن مستعرةً، إذ اعتمد السومريون الأوائل على الدين كمصدر بديل عن العسكرة لتوطيد السلطة والفصل في المنازعات، وهيمن كهنة المعابد وآلهتهم على الحياة في المدن السومرية الأولى وليس الحكام العلمانيين المدعومين بالقوة العسكرية. وقام أولئك الكهنة بجمع كميات الحبوب وتسجيلها وتوزيعها عند الضرورة (وبفضل هذه العملية خرجت الرياضيات والكتابة إلى النور).

إنّ المجتمعات البشرية غير محكومة بالحرب دائماً وفي كل مكان، ويمكن للقيادة الذكية والمؤسسات الجيدة أن تحدث اختلافاً كبيراً من دون حرب. وقد تعاون الكهنة في مختلف المدن للحفاظ على سلطتهم؛ عن طريق تسوية المنازعات حول الأرض بين المدن بطرائق مرضيةٍ لجميع الأطراف، وعرّضت النتائج التي تفتقد إلى التوازن السلام للاهتزاز من خلال أولئك الباحثين عن فرصةٍ لاغتصاب سلطة الكهنة

باستخدام العنف. وربما تكون الأسوار المنيعة خير دليل على النجاح الطويل نسبياً للمعابد، ولم تظهر تلك الأسوار الضخمة القادرة على الصمود أمام حصارٍ خانقٍ حول المدن السومرية حتى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد؛ وبذلك منحت سلطة الكهنة بلاد سومر خمسة وربما عشرة قرون من السلام النسبي، لكن النهاية المحتومة كانت بسبب نمو السكان، وندرة الأراضي الصالحة للزراعة؛ مما جعل من إيجاد حلولٍ توافقيةٍ للنزاعات أمراً مستحيلاً.

وفي النهاية، تمكن المحاربون بفضل اشتداد الحروب من تولي زمام الأمور، ونصّبوا أنفسهم ملوكاً بسلطةٍ مطلقةٍ كما هو حال فراعنة مصر، لكن الأمر استغرق عدّة قرونٍ أخرى قبل تمكن الطغاة الجدد من محو المؤسسات القديمة؛ وهو ما حصل في دول المدن في اليونان التقليدية بعد ألفي عام، وبقيت مجالس المدن الديمقراطيةٍ القديمة التي تعود للتراث المباشر من العصور البدائية قائمةً؛ رغم تصاعد وتيرة الحروب وتسلّم الطغاة للحكم، وهنا ظهر أول دليلٍ على استخدام الكتائب في الحرب.

تُظهر لنا ملحمة جلجامش بعضاً مما كان يحصل في تلك الفترة. فقد كان جلجامش حاكم دولة مدينة أوروك حوالي 2700 ق.م، واستطاع الاستيلاء على السلطة في أوروك من خلال استغلال النزاع الحاصل مع مدينة كيش المجاورة. واستناداً إلى الأسطورة، قام جلجامش ببناء أسوار أوروك التي امتدت مسافة خمسة أميال حول المدينة، كانت تلك المرحلة هي الفترة الأولى من التاريخ المكتوب، مما وفر لنا بعض الأسماء والتواريخ والقصص (الأسطورية)، وقد سطع اسم البطل جلجامش المحارب العظيم (لوجال) أو الملك الأول

لأوروك في تلك المرحلة المركزية. تصوّر الملحمة الطموح المألوف (سعي جلجامش للخلود)، با ضافة إلى أعماله المقنعة نسبياً في السياسة المحلية لأوروك في الـ رن السابع والعشرين قبل الميلاد، لكن قراءة ما ين السطور كافية دراك أنّ هذا الرجل العظيم كان المدمر الفعلي للمؤسسات الـ ديمة في أوروك، وأنه سخّرها لأغراضه الخاصة؛ إذ استخدم جلجامش خطاباً غوغائياً والكث ر من التهد دات ق ناع مجالس أوروك بسلطته المطلقة، وكانت تلك المجالس مكوّنة من تجمع ش وخ قبائل أوروك (نوع من مجلس الش وخ) للبالغين في أوروك، لكنه لم يحظَ حتى تلك اللحظة بالملكية المطلقة، إذ توجب عليه استمالة الشعب إلى جانبه، وربما استمر معظم أفراد الشعب في رؤية أنفسهم كمواطنين كاملي المواطنة لا أفرادٍ خاضعين رادته، لكن أوروك والمدن السومرية الأخرى كانت تتجه بسرعة نحو النماذج الاس ت دادية بسبب صعوبات إدارة المجتمعات الك يرة والمعقّدة، والتي طغت على مؤسسات المساواة الـ ديمة دون أن تنهيها، وكان ما تبـ ى من قيم مساواة هو ما جعل من ظهور كتائب الحرب أمراً ممكناً.

من هم أولـ ك الناس؟ وكيف كانت عقليتهم آنذاك؟ إنهم ورثة عشرة أو عشرين ألف ج ل من النساء والرجال الأحرار الذين عاشوا في مجتمعاتٍ صغ رةٍ بخياراتهم الشخصية؛ فقد عاشوا وماتوا في ظلّها، ولديهم الاعتزاز بها، والذكاء الكافي لعدم تسليم استقلاليتهم تلك لأوّل غوغائيٍّ صاعدٍ. لكنّ منطق المجتمع الزراعي الناشئ، حيث يزداد عدد السكان باضطراد، أوجب قيام قلة من الناس بـ عطاء الأوامرِ وإلزامِ الجميع بطاعتها، وبدت ا دارة من الأعلى للأسفل السبيلَ الوحيدَ لـ يادة مجتمع مكوّن من عشرة آلاف أو مـ ة

ألف شخص؛ في حال عدم وجود وسائل اتصال جماهيرية فعالة، كما كان عليه الأمر في النظام القديم، حيث يمتد النقاش لفترةٍ طويلةٍ لحين الوصول إلى توافق؛ وهذا نظام يتطلب الكثير من الوقت والانتظار، حتى بالنسبة لجماعةٍ مؤلفةٍ من عشرات البالغين من أقوام الصيد والجمع، وهو نظام لن يعمل عند تزايد عدد السكان ليصل إلى أكثر من عشرة آلاف. لكن عوائق كثيرةً وقفت في وجه طاعة الناس العمياء مثل النمل، كما أنّهم لم يذهبوا إلى الوديعة عن طيب خاطر.

وبذلك، بدأت الطبقية بالتغلغل في المجتمع على نحو كارثيٍّ، وساهمت الملكية والطبقات الاجتماعية الجديدة بتصنيف الناس في شرائح متراتبة، ولم تكن تلك نهاية الحراك الاجتماعي، لكن وضع المرأة شهد تراجعاً كبيراً (كما هو الحال في كلّ الأماكن التي تشهد صعود الحضارة)، ولم يكن هناك حلّ لذلك التدهور، وبقيت أسطورة المساواة الاجتماعية حيّةً في مجتمع الشيوخ - زعماء العشائر - وفي مجتمع الذكور الأحرار البالغين. وهكذا، وبعد ألفي عام من الاختلافات التقنية والثقافية، وصلنا إلى دول المدن اليونانية في العصر الكلاسيكي مثل مدن أور ولاكاش وشوروباك وكيش، حيث يصل الأغنياء المولودون في الطبقات العليا إلى غاياتهم دون صعوبات؛ مع استمرار العمل بأسلوب التشاور والتوافق العام في مجالس المواطنين (المواطنين القادرين على حمل السلاح على الأقل)[107].

قد يكون هذا مصدر إزعاجٍ للطغاة الطامعين، ولكنه يحمل ميزةً فريدةً لهم في الوقت نفسه: إنّ موافقة

الذكور البالغين كافة على قرار الحرب يعني مشروعية إلزامهم وضع حياتهم على المحك باستمرار، وهو ما منح مدن سومر المبكّرة إمكانية إرسال رجالها في كتائب إلى المعركة.

لا تأتي جاذبية الكتيبة من مجرد كونها أداةً عسكريةً فعالةً ومذهلةً، بل لأنّها غير مكلفة أيضاً؛ إذ يمكن تدريب الجنود من مختلف الرتب بعد ظهر أحد أيام الأسبوع، وكانت التدريبات تتم على الدروع والرماح البسيطة؛ مثل السير في تشكيلات متراصة، وكانت رؤوس الحراب البرونزية هي الأكثر كلفةً بين أسلحتهم (جاء البرونز بديلاً عن الحجر في أسلحة ذلك الوقت، رغم كلفته النسبية)، وكان الميسورون في المجتمع يقومون بالاستثمار في الخوذات البرونزية وحماية لمعانها، كما طالبت جمعيات البالغين دعم تكلفة الدروع البرونزية للرجال الفقراء. غير أنّ الأمر لا يخلو من صفقةٍ؛ إذ لا يمكن إيقاف القوة العسكرية الفعالة للكتيبة إلا من قبل كتيبة أخرى، وبذلك تنعدم الحاجة إلى استئجار مرتزقةٍ مكلفين، والذين لا يمكن الاعتماد عليهم تماماً (كان هناك مرتزقة حتى في ذلك الزمن)، وكذلك لا داعي لسحب الأعضاء المنتجين في المجتمع من القوى العاملة لتدريبهم على استخدام الأسلحة المعقّدة مثل القوس والسيف (كانا سلاحين حديثين في ذلك الزمن) ناهيك عن استخدام الحصان. والسؤال الحقيقي الذي يُمكن طرحه هو عن سبب بطلان نموذج الكتائب في بعض المراحل من الزمن.

الجواب هو حاجة تشكيل الكتائب لمستوىً عالٍ من الالتزام من قبل الرجال المنتسبين للكتيبة، وخاصةً إذا كان عناصرها من تقاليد قتالية أقدم أو أقل انضباطاً. فالانتماء

للمدن بالإضافة إلى الشعور بالالتزام هما اللذان دفعا الجنود المواطنين للقتال من أجل مدنهم في بلاد سومر. وأيضاً هناك عوامل أخرى مثل وجود عوائلهم وأقاربهم في تلك المدن، وشعورهم بضرورة مشاركتهم العميقة في تحديد مصير المدينة؛ حيث شكّلت قراراتهم في الجمعية العامة (هذا ما دأب عليه الحال آنذاك) سياسات المدينة، وهذا ما دفعهم إلى عدم المطالبة بأجور مقابل التدريبات الأسبوعية، كما التكيّف مع أسلوب قتال غريب عن تقاليدهم القديمة، ومخاطرتهم بحياتهم دون مقابل في صفوف الكتيبة.

ترسخ الاستبداد في المدن السومرية مع مرور القرون، ومعه تآكل نموذج الكتيبة في الحرب بشكل تدريجي حتى تلاشى؛ إذ لم تكن الملكية المطلقة على استعدادٍ للقبول بمشاركة شعبية في جيوشها، وفضّلت خوض المعارك بنخبٍ عسكريةٍ جديدةٍ وبجيوشٍ مستعدةٍ ومكوّنةٍ من جنودٍ مستأجرين؛ وبذلك بقي المواطنون عُزّلاً وغير مدربين ولا مؤثرين سياسياً. سار الأمر على هذا المنوال إلى أن اختفت الكتائب تقريباً من ساحات القتال في بلاد ما بين النهرين بحلول الجزء الأخير من الألفية الثالثة. ولا شكّ في أنّ اختفاءها كان مسبوقاً بفتراتٍ من الحروب المزمنة وغير الحاسمة بين المدن السومرية؛ إذ أعطى نظام الكتيبة العسكري - بسهولة تشكيله، وسرعته، وتكاليفه الزهيدة بتعبئة البالغين للحرب - قوةً هجوميةً محدودةً لطرفَي النزاع، وقوةً دفاعيةً هائلةً في المقابل.

تعايشت دول المدن السومرية الثلاث عشرة عبر تحالفات سريعة وحروب متكررة لم تغيّر الكثير، ولم يكن ذلك خيار السكان بشكل محض، لكن الظروف دفعتهم إلى

تشكل نظام توازن الـ وة؛ فصمود اللاعب الخاسر في المعركة يمنحه فرصة دعم الآخرين له، وذلك لخوفهم من تنامي قوة الفائز الجد د، فتتغيّر التحالفات لتحديق التوازن مجدداً. هذا ليس جد داً بالنسبة للبشرية، فقد كان الأمر نفسه سائداً لدى معظم سكان مرتفعات غينيا الجد دة، وموجوداً حتى لدى شمبانزي غومبي، لكنها المرّة الأولى التي يـ وم بها نظام يحـ ق توازن الـ وى ين مجموعة الدول؛ إذ لم يكن للدول وجود في السا ق، ولن يغ ب هذا التوازن لفترةٍ طويلةٍ.

إنّه نظام ضامن لتكرار الحروب واستمرارها. وقد استمرت لخمسة آلاف عام مع انقطاعاتٍ نادرةٍ، وكانت العامل المهيمن في المنافسات العالمية ين الـ وى العظمى في مطلع الـ رن العشرين. وكما كانت النزاعات المحلية ين الدول المدن في بلاد ما ين النهرين - ين كيش وشوروباك وأور ونبور وينيمار بتفاصيل خلافاتهم المحلية - كان الأمر ذاته ين ريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة؛ فقد تبادلت الأطراف العداء والتحالف خلال قرنين من الزمن، وتكرر التحالف والعداء ين إيطاليا وألمانيا خمس مرّات منذ عام 1914، وتبدّلت التحالفات واستمرت الحروب. ورغم أنّ لكلّ حربٍ سبباً يتشبث به الناس عطاء معنى للمجزرة، إلا أنّ النظام نفسه هو الذي يُنتج الحروب.

إذاً، حدث الأمر في ذلك الوقت، وهو مستمر بالحدوث. وقد خاضت الدول الـ ومية الحديثة الحرب بمعدل مرّة واحدة لكلّ جـ ل في الفترة الممتدة ما ين 1800–1945، وعاشت كلّ دولة في حالة حرب لمدة عام واحد من كلّ خمسة أعوام خلال تلك الفترة. لا يمكننا توقع أكثر من ذلك من نظامٍ يحمّل

كلّ دولةٍ مسؤولية بـ ائها، ولا ضمان سوى بـ وة عسكرية كافية للدولة؛ إما باعتمادها على نفسها أو بتحالفها مع الآخرين. وبما أنّه من الصعب أن تتوفر لها ال وات المطلوبة في المكان والزمان المناسبين للتصدي لأي حالةٍ طارئةٍ، فقد تدمرت 90 بالمـ ـة على الأقل من الدول التي ظهرت للوجود بسبب الحرب، إلا أنّ لعبة توازنِ ال وى قد تؤجِّل المحتوم، وإذا كانت ال يادة ذكيةً ومحظوظةً فقد يتأجل ذلك لفترةٍ طويلةٍ جداً.

ليس هذا ج داً في عالمٍ تهدد فيه أسلحة الدمار الشامل بتدمير شعوب بأكملها في وقتنا الحالي. لذلك، كانت هناك محاولة دولية منسقة للخروج من نظام توازن ال وى منذ الحرب العالمية الثانية. فمنذ ذلك الحين، لم يـ م أيٌّ من اللاعـ ين الرئيسين – وأعني بهم ال وى العظمى – بمحاربة بعضهم بعضاً لما يـ ارب ستين عاماً. وفي ذلك بادرة أملٍ لا بأس بها، لكننا نتحدث عن نموذجٍ أقدم بكث ر، ولم

نارام سين حفيد أول فاتح

سرجون الأكادي يجبر

الأسرى على الانتحار

بحضوره شخصياً، وذلك

بعد إخماده أحد التمردات

ضده.

نتحرر منه بعد لفترةٍ كافيةٍ نضمن معها نجاح الهروب الك ير من هذا النموذج.

وهنا تتبادر إلى الأذهان الحرب ين لاكاش وأوما. فقد دأت تلك الحرب حوالي 2500 ق.م بصدامٍ حادٍّ ين الكتائب، وخلّفت تلك المعركة ثلاثة آلاف رجل من أوما صرعى يتخبطون في دمائهم في ساحة المعركة، واستمر القتال على فترات لفترةٍ امتدت نحو 150 عاماً! وما أشبه هذا بالمبارزة الطويلة ين ريطانيا وفرنسا في ال رن الثامن عشر وبداية ال رن التاسع عشر في صراعهما على التفوق العسكري؛ إذ لم تحاول دولتا المدن الآنف ذكرهما ا طاحة بعضهما بعضاً فحسب، ل حاولتا بسط هيمنتهما

على كامل بلاد سومر؛ وهو ما يحدث غالباً في نظام توازن القوى. وبما أنّ الكفة ترجّح بين الطرفين المتنازعين، مع تبدل التحالفات على مرّ الأجيال، وحيث تتناوب الأطراف بسيطرتها على أراضي بعضها بعضاً، يتم فرض تعويضات ضخمة من الحبوب، وذبح أو استرقاق مواطني الطرفين. كانت لتلك الحرب بين المدينتين الأهمية نفسها التي حظيت بها الحرب الباردة بين الأمريكيين والروس، لكنّ النهاية جاءت بحراز جيش أوما نصراً حاسماً؛ إذ احتل مدينة لاكاش، ونهبها مع دها لتخرج إلى النور ظاهرة جديدة: أول إمبراطوريةٍ عسكريةٍ في العالم.

أنا الملك سرجون العظيم، ملك أكاد

من يجول أقاصي الأرض (كما يطلق سرجون على نفسه)

شقّ القادمون الجدد الناطقون باللغات السامية طريقهم جنوباً إلى سهول ما بين النهرين بحلول أواسط 2300 ق.م، وبنوا هناك مدنهم الخاصة. نشأ سرجون ذو الأصل السامي في المدينة السومرية القديمة كيش، وأصبح حامل كوب الملك أور زابابا، قبل أن يستولي على السلطة بعد انقلابٍ لا تزال تفاصيله مجهولةً حتى الآن. ويُحتمل أنه تلقى الدعم من قبل الأكاديين شبه الرحل والساميين أيضاً، الذين عاشوا على هامش أراضي كيش. وهو لم يكتفِ بكونه ملك كيش فقط، لذا كانت أولى مغامراته فتح أوروك، وقد أخرج منها الملك لوجال زاكيزي في طوق كلبٍ ليعرضه خارج بوابة المدينة، ثم دمّر أسوارها، وكرر الأمر في أور ولاكاش وأوما وجميع مدن سومر. لاحقاً، تحركت جيوشه باتجاه ممالك المرتفعات عيلام وماري وإبلا والحثّيين، في ما يُعرف الآن بغرب إيران وشرق سوريا وشرق تركيا. عيّن سرجون الولاة،

ووزّع الحاميات، ووضعت قوائم ضريبية لكلّ م اطعةٍ جد دةٍ تم الاستيلاء عليها، وتمت إدارة تلك المناطق من ق ل يروقراطيةٍ إمبراطوريةٍ مركزيةٍ، وكانت أوّل إمبراطورية متعددة الجنسيات على ا طلاق. وللاحتفال بذلك، بنى سرجون عاصمةً جد دةً، فكانت أكاد.

تميّز جيشه باختلافه؛ إذ لم يعد جيشاً مشكلاً على أساس كت بة متطوعين ذوي ولاء لمدينةٍ واحدةٍ وآلهتها، وإنما صار جيشاً محترفاً ومتعددَ الأعراق، ويُعت ر أوّل جيشٍ نظاميٍّ في التاريخ. ويتفاخر سرجون في أحد النقوش بتناول أربعم ة وخمسين ألف رجل وجباتهم بحضوره، وبشنه حملاته في أماكن بع دةٍ عن الوطن، بعكس أي جيشٍ ساق ٍ. أما تموين المحاربين فقد تم باعتماد سلسلةٍ تموينيةٍ أشبه بال طار التمويني، وقد رع الجيش في بناء التحصينات واختراق الأسوار بتقويضها أو تسلقها باستعمال السلالم، كما تمتع الجنود بتسليحٍ ج دٍ، مع دروعٍ فرديةٍ م ارنةً مع الج وش السا قة (ولعل ورشات سرجون قد أنتجت أسلحةً موحدةً)، لكن على الأرجح أنّهم لم ي اتلوا قط ككت بةٍ صافيةٍ، فقد ضمّ جيشه الكث ر من المرتزقة، ولم تتح للمحاربين فرصة إظهار نزعة فردية. كانوا رجالاً مدربين ب تقانٍ على استخدام الرمح والسيف تماماً كتدربهم على استخدام ال وس المركب الذي كان ابتكاراً حديثاً، وتم استخدامه لآلاف السنوات ال ادمة كأفضل سلاح قذائف. ولا شكّ في أنّ هذا الجيش قد خاض معارك نموذجيةً، وفاز تقريباً على جميع من واجههم، نظراً إلى كون خصومه مجرد هواةٍ متحمسين. ل د قام سرجون بأربع وثلاثين حملة قتاليةً خلال حكمه الذي استمر خمسة وخمسين عاماً، وتكللت جميع معاركه بالنجاح.

كان سرجون الأكادي النموذج الأوليّ لـ سكندر ونا ليون وهتلر؛ أي الرجل الطامح بالسيطرة على العالم (على الأقل الأجزاء المعروفة آنذاك). وتف د السجلات أن إمبراطوريته امتدت من (البحر السفلي إلى البحر العلوي) (من الخليج إلى البحر المتوسط)، وقامت دولته مترامية الأطراف تلك على الـ وة العسكرية فقط. لم يكن بـمكان جيشه أن يتواجد في كلّ مكانٍ في وقتٍ واحدٍ، ولذلك أمضى سرجون وخلفاؤه معظم عهودهم في إخماد الثورات المتوالية، والتي اندلعت في كلّ الجهات حال ظهور علامات ضعف على الأكاد ين. وعندما وصل حف ده نارام سن إلى العرش عام 2260 ق.م، واجه ثورات تزامنت في الوقت نفسه في مدن بلاد ما ين النهرين؛ في كيش وكوتا وكازالو وماراد وأوما ون بور وأوروك وسيبار، وفي ثماني م اطعات أخرى من إمبراطوريته. ورغم تدمير أسوار المدن الثائرة، تآكل الأكاد ون في النهاية بسبب جهدهم المتواصل للسيطرة على ا مبراطورية الموروثة من سرجون، فاندثرت ا مبراطورية، ودُمرت مدينة أكاد نفسها بحلول عام 2159 ق.م، وصعدت إمبراطوريات أخرى بعد ذلك في سلسلةٍ متتالية لا نهاية لها.

«دبّ الرعب في أرامو الأورارتياني بفضل وحشية جيشي العظيم، فانسحب من مدينته ولجأ إلى جبال آدوري. طاردته وخضتُ معركةً قويةً في الجبال، وتغلبت مع جيشي على 3400 محارب. ومثل أداد[108]، نزلت عليهم بجيشي كالصواعق، وصبغت الج ل دم العدو كما لو أنّه من

سياسة الرعب:
كومة من

الرؤوس المقطوعة

(يبدو من شعرهم المجعّد أنّهم بابليون)، يعدها كاتب آشوري، والذي تظهر ذراعه إلى اليمين. يسجلُ الكتبة غنائم الحملة البابلية. نينوى، القصر الجنوبي الغربي.

الصوف، واستوليت على معسكرهم. ولينقذ آرامو حياته هرب إلى جبلٍ بعيد المنال. وبقوتي الهائلة، دست أرضه مثل ثورٍ برّيٍ هائجٍ، فدمرتُ مدنه وجعلتها حطاماً منثوراً».

شلمنصر الثالث الآشوري، في حملته ضد أوراتو[109])

«أخبرني عن عمليةٍ حربيةٍ واحدةٍ أخلاقيةٍ. هل إغماد حربةٍ في بطن رجل عمل أخلاقي؟ يقولون لك، سيشمل القصف الاستراتيجي المدنيين. يكون المدنيون دائماً ضحايا الحروب الكبرى.

لـ د انتهت الحروب السا قة بحصار المدن الك رى. ما الهدف من محاصرة مدينة ما؟ قطع جميع ا مدادات، وصمود المدينة حتى تناول المواطنين آخر هرٍ وكلبٍ وجرذٍ، وبعد ذلك يتضور الجميع جوعاً، في الوقت الذي تطلق فيه الـ وات المحاصِرة ما لديها من صواريخ على المدينة. وبغض النظر عن مكان سـ وط تلك الصواريخ، فهي ليست سوى محفّز إضافي للاستسلام».

السير آرثر هاريس، قائد القاذفة كوماند التابعة لسلاح الجو البريطاني 1942-1945

بعد استيلاء شلمنصر على أرزاشكو، العاصمة الملكية لأرارات (بالـ رب من بحيرة فان في شرق تركيا)، قام وضع المدافعين على الخوازق، ثم كدّس رؤوسهم المـ طوعة على جدران المدينة. ونحن نعرف هذه المعلومات بسبب تباهيه بعمله ذاك بالنقوش على البوابات البرونزية التي شـ دها في مدينة امجور انليل بالـ رب من عاصمته نينوى. اشتهر الآشوريون وحشيتهم المفرطة؛ حتى وفق المـ ا يس المعاصرة. لكنّ وحشية شلمنصر لم تكن سلوكاً فريداً من نوعه في التاريخ.

عندما تعرضت مدن ألمانيا للتدمير من قبل قاذفات القنا ل لانكستر وهاليفاكس بـ مرة المارشال هاريس منذ ما يـ ارب نصف قرن، اختنق الأطفال في الملاجئ المخصصة للوقاية من الغارات الجوية، وتفحمت الشابات في الشوارع. كان عدد قليل جداً من الشباب البريطانيين والكنـد يين الذين قادوا طواقم قاذفات القنا ل على استعدادٍ لخنق طفلٍ أو حرق امرأةٍ شابة بشعلةٍ ناريةٍ؛ حتى إن وجّه لهم قائدهم أمراً شخصياً بفعل بذلك. لذا، ربما لدينا في

هذه الحالة ما يمكن تسميته بالتقدم الأخلاقي. لكن نظراً إلى العزل العاطفي المتشكل إثر الارتفاع الكبير لقاذفة القنابل، تصرف أطقم المقاتلات من دون تردد، وحصلوا على النتيجة نفسها. لم يكن سلوكهم هذا غريباً، وكانوا على استعداد للمضي أبعد من ذلك، رغم معرفتهم المسبقة بأنّ تلك الفظائع ستشهد عليهم ما داموا على قيد الحياة، وأنّها ستستمر طويلاً؛ إذ يعي المحاربون جداً أنّهم سيصلون في النهاية إلى القتل، سواء أحبوا ذلك أم كرهوه. وأضاف جنود الحضارة رواقيةً غريبةً إلى هذا المزيج، ففي الحروب الكبيرة على الأقل، وحين يعتقد الجنود أنّ قضاياهم الكبرى على المحك، يصبحون على أهبة الاستعداد العاطفي للتضحية بأنفسهم في المعركة.

على كلّ حال، لا ينبغي لنا السماح لأنفسنا بالانجراف بعيداً بسبب ما سبق؛ كما لو أنّ الحرب الحضارية نقلةٌ نوعيةٌ في السلوك البشري، وهي حرب أكثر إثارة للإعجاب بكثيرٍ من الحرب البدائية، بسبب الأعداد الهائلة المعنية بها، وبسبب التكنولوجيا المذهلة. أما القسوة والشجاعة فليستا بالأمر الجديد، إذ نشأت الحرب من نشاطٍ مزمنٍ تم على مستوى منخفض، وتحوّل إلى ظاهرةٍ متفرقةٍ ولكنها مكثّفة جداً، غير أنّها أقل فتكاً (نسبياً) في نسختها المتحضرة. أما الجديد المتعلق بظهور الحضارة فقد شمل كلّ شيءٍ آخر.

بحلول عام 2000 ق.م أو حوالي ذلك، أخذت القوانين والقيم والسلوكيات الحضارية مكانها في المجتمعات ودخلت حيز التطبيق، ولم تخضع لتغيير جذري على امتداد ثلاثة آلاف عام أخرى. وفي ذلك الوقت، عاش ما لا يقل عن 90 بالمئة من الجنس البشري من الزراعة، وانتشرت الغالبية العظمى

من أولئك الناس في دولٍ ذات بنيةٍ اجتماعيةٍ هرميةٍ يتصدر فيها الملوك أشباه الآلهة القمة. أما قيم المساواة القديمة فقد نجت في عددٍ قليلٍ من دول المدن الصغيرة، وبين قلةٍ من الناس الذين اعتمدوا في معيشتهم على الرعي أو الزراعة القبلية، بالإضافة لمن بقي من أقوام الصيد والجمع. سادت الإمبراطوريات متعددة الجنسيات ثم بادت، وبعد ذلك خرج غيرها إلى النور. وقد اعتمدت تلك الإمبراطوريات في وجودها على القوة المطلقة، وتزايد حجمها مع مرور الزمن، وانتشر الاستبداد والاستعباد وأصبحا أمراً طبيعياً؛ إذ لم تكن هناك خيارات عملية كثيرة لحكم مجتمعٍ كبيرٍ متزايد وضبطه.

ربما لم يكن الأمر على هذا النحو، لكن الأعداد المتزايدة من البشر شكّلت مشكلةً حقيقيةً. ففي السابق، عاش البشر في مجموعاتٍ صغيرةٍ، وجاء النمط الجديد من الحياة ليفرض عليهم العيش في مجموعاتٍ كبيرةٍ نسبياً. وقد تمكن البشر من إيجاد تقنياتٍ اجتماعيةٍ مبتكرةٍ لتنظيم هذه المجتمعات الكبيرة الجديدة ومراقبتها – الكتابة، والمال، والبيروقراطية – ولكنهم فشلوا في إيجاد آليةٍ تضمن استمرار السياسات الإنسانية التقليدية. إذ لم يعد بالإمكان صنع القرار بناءً على مناقشاتٍ مطولةٍ قد لا تنتهي بين أفراد مجتمعٍ كبيرٍ من البالغين. فقد يكون بالإمكان تحقيق ذلك في مجموعةٍ صغيرةٍ من ثلاثين أو أربعين شخصاً، لكنه لن ينجح في مجتمعٍ مؤلفٍ من ثلاثة أو أربعة آلاف شخص، وتلغى تلك الإمكانية عندما يصل العدد إلى ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة، حيث يتوجّب إيجاد تقنيةٍ ما تتيح لهذه الأعداد الكبيرة التواصل مع بعضها بعضاً، أو عقد مناقشات كثيرة في وقتٍ واحدٍ وفق جدول أعمالٍ واحدٍ، ومن ثم جمع النتائج.

كانت تلك نهاية النظام السياسي الـ ديم وبداية نشوء آخر جد د.

لم تعد هناك مساواة مع انتهاء هذا النظام، إذ عمل النظام الجد د بشكلٍ هرميّ، حيث الأوامر تمرّ من الأعلى إلى الأسفل، وحيث الطاعة عمياء. ومع ازدياد عدد السكان، اتسعت الهوة بين الناس، وازداد ا كراه مع انحسار الـ يم والتقاليد السا ـة للمجتمع المعني، وانتشر الاست داد وشاع في المجتمعات الزراعية الك يرة حيث لا يعمل أي نظامٍ اجتماعيٍ آخر، واستمر الأمر على هذا المنوال لآلاف السنوات. وبذلك، أضحى الهيكل الاجتماعي لـ مبراطورية الـ ديمة أشبه بـ رية نمل بالمـ ارنة مع ماضي أقوام الصيد والجمع. ومع ذلك، لم تفلح ا مبراطوريات في تـ ديق استقرارها، لأنّ البشر لم يتحولوا إلى نمل؛ فخلف الصمت المطبق والرؤوس المنحنية ثمة بشر لم يتغيّروا، وهذا ما يفسّر عسكرة المجتمعات الك يرة بهذا الشكل، إذ كان لا دّ من الاعتماد على الـ وة المفرطة أو التلويح بها للسيطرة على أحفاد أقوام الصيد والجمع المُدجّنين، ولا يمكن تجاهل حـ يقة قيام النخب بخوض الحروب لتـ رير وجود الجـ وش التي تمكّنها من الاحتفاظ بالسلطة في بلادها. لم تكن الحرب جد دة في تلك المرحلة، ولكن العسكرة والاست داد كانا كذلك.

إذا التفتنا إلي الخلف ونظرنا إلى الماضي من منظورنا الحالي، فسنجد أنّ لتجربة الحضارة إيجا ياتها بالنسبة لبعض أبنائها على الأقل. أما من وجهة نظر عام 2000 ق.م، فلم تحمل في جعبتها الكث ر من ا يجا يات. وحتى من الناحية البدنية، أصاب الوهن معظم الناس في

المجتمعات الزراعية الشاملة نتيجة سوء التغذية والعمل الذي لا نهاية له، وكانت النساء أكثر فئةٍ خاسرةٍ؛ إذ انخفضت مرتبتهنّ الاجتماعية إلى الحدود الدنيا، واقتصر دورهن على الحمل والإنجاب. فيما تمتّع الرجال كفلاحين في الحياة الريفية بوضعٍ أفضلَ. كما شهد عدد السكان ارتفاعاً كبيراً مقابل انخفاضٍ كبيرٍ في نوعية الحياة، وأصبح متوحشو روسو النبلاء عبيداً يكدّون دائماً، مقسمين وفق الطبقة والجنس، ومهانين ومضطهدين بسبب الطغيان. لقد أودى الجنس البشري بنفسه إلى حفرةٍ عميقةٍ جداً، وسنعيش فيها زمناً طويلاً.

الفصل الخامس

الممر الأوسط

«ما السبيل إلى عبور الممر الضيّق للغاية؟ قيل لنا إنّ العدو محتشدٌ عند المخرج بأعداد كبيرة، ولكي نعبر الممر، يجب على الخيول أن تسير منفردةً خلف بعضها بعضاً، وكذلكً الجنودً. ولا يمكن لمقدمة القوات الالتحام مع العدو (عند النهاية البعيدة للممر) فيما لا يزال الجنود وكذلك الخيول هنا عند آرونا من دون خوض أي قتال».

نصيحة ضباط تحتمس الثالث عشية معركة مرجدون[110]

من المغري النظر إلى الفترة الممتدة من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وحتى داية العصر الحاضر، قبل أربعة أو خمسة قرون، كنوعٍ من ممر أوسط في رحلة التاريخ الطويلة. لـ د ابتعدت سفينة الحضارة عن شواطِ الماضي الـ بلي حيث انطلقت، والشاطِ الجد د لا يزال في الأفق؛ حيث ينتظرها هناك عالمٌ من المتغيّرات والفرص المتزا دة، وسيبـ ى الطاقم مضطرباً والسفينة وآفاق التغ ير على حالها. هذا هو التاريخ الواقعي للحرب؛ إذ يتوفر الكث ر من السجِلات التاريخية في ثلاثة آلاف عام امتدت ين 1500 ق.م و1500م – معظم التاريخ المدوّن تاريخ عسكري – وفي هذه الفترة، لم يحدث تغ ير هام في نمط الحرب بالنسبة لغ ر المختصين، ويتفق معظم المؤرخين العسكريين على تساوي الفرص ين الج وش الـ وية المحترفة في حال خِوضها الحروب ين بعضها بعضاً ما ين عامي 500 ق.م و1500م، ويمكن أن ترجع تلك الفترة إلى الوراء حتى 1 ق.م لو است دلت الج وش السا قة أسلحتها البرونزية بأسلحة حد دية.

ينطوي هذا المنظور على خداعٍ بصريٍ. إذ ت دو الوقائع وكأنّها تسير بطءٍ شد دٍ من حيث التغ ير في الفترة الآنف ذكرها، وذلك لأنّنا نعرف عنها أكثر بكث ر بالمـ ارنة مع ما سبقها في الأزمان البع دة. فقد وصلنا الـ ليل مما جرى ين عامي 3000 ق.م و 5000 ق.م، حيث أعطانا شعوراً وهمياً بأنّ الزمن سار بسرعة في تلك الفترة، لكن الأمر ليس كما

بدو عليه. فإذا اعت رنا أنّ علماء الآثار يعرفون اثنتي عشرة حـ يقة عن قرنٍ كاملٍ من تاريخ إمبراطوريةٍ قديمةٍ، فعندها سيبدو الزمن وكأنّه يمرّ بسرعة ك يرة، في حين أنّ الواقع في تلك الأيام – شأنه شأن واقع جميع الأزمان – بطيء التغيّر بشكل عام. وعندما نصل إلى فترةٍ تتوفر فيها الحـ ائق بشكلٍ أك ر، ت دو السنوات مزدحمةً بالأحداث، وتعطي شعوراً بطء الزمن؛ وهي الصورة الأكثر قرباً إلى الطول الحـ ي ي لهذه الأحداث في خيالنا.

شكلت الحرب ما يمكن أن نطلق عليه اسم (الحالة المستقرة) خلال هذا الممر الأوسط. ولا يتوجب علينا من الناحية الزمنية المرور بمئات الحروب المنسية وآلاف المعارك الغامضة التي دارت خلال ما يز د عن ثلاثة آلاف عام لفهم تطوّر المؤسسة الحربية، إذ يمكننا سلوك المسار الانتقائي؛ وعلى الأقل الالتفات إلى الآراء الفردية ومعرفة حـ يقة ما جرى.

دفعك التصميم إلى التقدم؛ رغم جهلك الطريق، ويتغلغل الهلع إلى أعماقك، وتسري قشعريرة الرعب في أوصالك، وتصبح روحك ين ديك. تتقدم وسط الصخور والحصى، لا مسار محدد، والأشواك تنتصب في طريقك، الوادي إلى أحد جان يك والجـ ل شامخٌ في الجانب الآخر. تتقدم وتوجه عربتك والخوف من سـ وط الحصان ينهشك... السماء وحدها مفتوحة الآفاق، ويخيّل لكَ أنّ العدو سيباغتك من خلفك».

رسالة إلى ضابط شاب من هوري،

الكاتب المصري والجندي السابق[111]

حدثت المعركة الأولى التي نملك عنها بعض التفاصيل منذ ما يقارب ثلاثة آلاف عام في هرمجدون، وهي المنطقة نفسها التي شهدت المعركة الأخيرة الكبرى. فقد حدثت المعركة الأولى بسبب اندلاع الثورة في مدن سوريا وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر لعدّة أجيال. ففي عام 1463 ق.م، أعلن ملك قادش استقلاليته، واعترفت معظم مدن المنطقة بحكمه على الفور، وكانت قادش مدينةً غنيةً وذات أهميةٍ استراتيجيةٍ بموقعها في النهاية العليا من وادي البقاع قرب وسط سوريا. في ذلك الحين، كان الجيش المصري ثابتاً في وادي النيل لاثنين وعشرين عاماً. وفي مطلع فصل الربيع التالي، اعتلى فرعون جديد العرش، وتحرّك الجيش نحو الشمال.

قاد الجيشَ المصري الفرعون تحتمس الثالث البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وكانت تلك أول حملةٍ له. كان الجيش المصري عبارةً عن مؤسسةٍ أكثر خطراً من الجيوش المسلحة تسليحاً خفيفاً، وتلك التي لم تمتلك تسليحاً في الممالك القديمة والوسطى. إذ تألف الجيش من عشرين ألفاً من الجنود المشاة المسلحين بالرماح والسيوف والفؤوس، كما ضمّت صفوفه الرماة المجهزين بالأقواس المركبة القوية، وقد قُسم الجيش إلى فرقٍ عسكريةٍ يضم كلٌّ منها حوالي خمسة آلاف رجل (والتي أطلقت عليها أسماء الآلهة: فرقة ري، فرقة آمون وغيرها). وبذلك، امتلك الجيش المصري القدرة على تنفيذ مناورات متوسطة التعقيد على أرض المعركة، وخاصةً بما لديه من مئات المركبات المرافقة للتشكيلات الجماعية. وقد وُزِّعت المركبات على جميع الفرق، ولعبت دوراً بارزاً في تشكيل ضغطٍ على تشكيلات مشاة العدو من مسافةٍ بعيدةٍ، وذلك من خلال

الاندفاع وإطلاق الأسلحة، وكذلك من خلال الانسحاب السريع.

حُشدت الـ وات في مصر، وضمّت المشاة الذين وقفوا كتفاً إلى كتف عاقة الخ ول التي سترفض الهجوم وسط خطوط الرماح. استغرق مسير الجيش ثلاثة أسا يع من قلعة تجل الواقعة على الحدود المصرية (بالـ رب من قناة السويس اليوم) إلى منطقةٍ تُدعى وهيم وتقع في شمال فلسطين على الجانب الآخر من الجبال المجاورة لمدينة مج دو، والمعروفة أيضاً باسم هرمجدون، حيث احتشد الجيش الـ ادم من قادش لمواجهته.

كانت هناك ثلاثة ممرات ع ر الجبال. اثنان منها طويلان وملتويان، لكنهما واسعان بما يكفي ليحافظ الجيش على نوعٍ من التنظيم أثناء مروره، أما الثالث فقد كان يمر ع ر قرية آرونا؛ وهو ممر قصير ولكنه خطير بسبب ض ق ه. وقد كان الخروج من أي ممرٍ إلى سهل هرمجدون عملاً محفوفاً بالمخاطر؛ إذ ربما يكمن جيش العدو هناك عند المخارج، ويهاجم قوات تحتمس قبل أن تحتشد في التشكيلات القتالية المخطط لها لخوض المعركة. وفي مؤتمر الأركان الذي عقد في المساء السا ق للهجوم النهائي، رفض الفرعون نصيحة ضباطه (المذكورة أعلاه)، وقرر استغلال الفرصة والاستيلاء على ممر آرونا. ربما كانت لديه معلومات حديثة عن مواقع العدو في الجانب الآخر من الجبال، وربما غامر في خياره هذا؛ إذ تصوّر أنّ قوات قادش لن تغامر بالانتشار في الممرات الثلاثة معاً، وقدّر أنّ العدو لن يكون منتشراً في ممر آرونا الض ق، وهكذا سيكون هذا الممر من دون حراسة.

ووفق هذا المنظور، سار الجيش المصري ع ر الممر

الضيق بعد بزوغ الفجر بحذرٍ شديدٍ؛ لأنّه كان يسير في أراضي العدو. وكانت أي قوةٍ صغيرةٍ على التلال ستشكّل عائقاً لا يستهان به بالنسبة للمصريين المتقدمين في الممر. وقد خرج قائد الرتل المصري من الممر بعد بضع ساعات واكتشف صحة خيار الفرعون الشاب؛ إذ تم تقسيم قوات قادش وحشدها عند المخرجين الآخرين. وعليه، دأت الطليعة المصرية بالانتشار على السهل من دون أن تواجه عوائق تذكر.

وفي النص المكتوب على جدران معبد الكرنك، هناك تلميح يشير إلى اقتراح متهورٍ لتحتمس بتجربة حظه في شنّ هجوم على الجزء الأقرب من جيش قادش الموزّع على الممرين الآخرين، وذلك قبل خروج الدوات المصرية كافة من الممرات. وهنا، تدخّل ضباطه مرّة أخرى وقالوا: «توقف! لقد تقدّمت جلالتك مع جيشك المنتصر وملأتم الوادي. ليصغِ لنا سيدنا المنتصر هذه المرّة، ولينتظر وصول جيشه بكامله. وعندما يصل الجزء الخلفي من الجيش ويلتحق بنا، عندها سنحارب أولئك الآسيويين (كان المصريون يطلقون هذه التسمية على الشعوب المشرقية كنوع من الاحتقار)».

تصرّف الفرعون بحكمةٍ، واستمع لنصيحة ضباطه، فانتظر خروج كامل الجيش من الممر عند الظهر قبل أن يأمر بالتقدم نحو مجدو. لم يجرِ أي احتكاكٍ مع العدو في ذلك اليوم. وبحلول الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، عسكر الجيش المصري جنوبي مجدو على جانب النهر.

طغى التوتر على الحشود عشية المعركة الكبيرة؛ إذ كان قدامى المحاربين متوترين لمعرفتهم ما سيحصل، كما

كان الجنود الأصغر سناً عصبيين لجهلهم بما سيحصل، وتصنّع الجميع الثقة وتحدّثوا بها بعاد مخاوفهم، أو شغلوا أنفسهم بـ عداد معداتهم خفاء خوفهم. «أعطيت الأوامر إلى الجيش بكامله: عززوا ثقتكم، وجهّزوا أسلحتكم! سنواجه العدو البائس في الصباح. واستراح الفرعون في الخيمة الملكية... دقّت ساعة الجيش لتقول: اثبت أيها اللب... اثبت أيها اللب... احذر... احذر! وجاء أحدهم ليول لصاحب الجلالة: الأرض جاهزة، وكذلك المشاة (المصريون) في الشمال والجنوب...».

تحرّك الجيش المصري صباحاً، وبكلّ مظاهر الأبهة والعظمة: «تقدّم صاحب الجلالة إلى الأمام في عربته المصنوعة من ا لكتروم (سبيكة من الذهب والفضة) متقلداً أسلحة الحرب، مثل حورس المنتصر، ربّ السلطة، مثل مونتو[112] طيبة، ووالده آمون يشد على ديه». فيما خرج جيش قادش من معسكره. وفي اللحظة التي أوشك فيها المؤرخون على إعطائنا أول لمحةٍ تفصيليةٍ عن معركةٍ قديمةٍ بالزي العسكري الكامل، نظر جيش قادش نظرةً دارسةً على امتداد خط الجيش المصري، والذي حجب الرؤية في الوادي، وقام بحساباتٍ سريعةٍ للعقبات، وقرر جنوده التراجع نقاذ حياتهم وشرفهم: «فرّوا إلى مجدو بهلعٍ، مخلفين خ ولهم ومركباتهم الذه ية والفضية»[113].

جاءت الأوامر للجيش المصري بمطاردة الأعداء، لكن لم تكن لدى أحدٍ الـ درة على إيـ اف الجنود عن نهب معسكر العدو المهجور، فكانت الحصيلة قتل وأسر أقل من خمسمـ ة جندي من جيش قادش. أما أهل مجدو فقد أغلـ وا أ واب مدينتهم بـ اء المصريين في الخارج، وتسلق الكث رون من جنودهم

الفاريين الأسوار باستعمال الحبال التي أدلاها لهم سكان المدينة. دام الحصار سبعة أشهر، إلى حين اضطرار المصريين بناء جدارٍ خشبي كبيرٍ حول خطوط حصارهم لإحباط أي محاولةٍ محتملةٍ من قادش لإبعادهم. وفي النهاية، تفاوض الطرفان على تسليم المدينة، وتابع الفرعون مسيره ونهب عدداً من المدن الأخرى في لبنان. ووفق ما ورد في النقوش، كانت حصيلة النهب الكبيرة أكثر من كافية لتسديد تكاليف الحرب، وأعجب تحتمس الثالث بهذا العائد الاستثماري، فقام بخمس عشرة حملة أخرى في لبنان وسوريا خلال فترة حكمه، وقد تكللت جميعها بالنجاح (إذا صدّقنا النقوش مدفوعة الأجر!) وللأسف، لم يحصل صدام فعلي وجهاً لوجه بين الجيشين لنعلم دقة مجريات المعارك في عام 1462 ق.م. وعلى ما يبدو، لم ترغب الجنود بالصدام مع العدو، وهكذا تنتهي القصة لتبقى هناك بعض الأسئلة من دون إجابة: متى بدأت مصر بتشكيل الجيوش التي غادرت وادي النيل واستخدمت الأسلحة الحديثة؟ وما الذي حدث لخمسمئة عام مفقودة بين عامي 2000 و1500 ق.م؟ ومن أين جاءت كلّ تلك العربات؟

«تكمن السعادة في هزيمة الأعداء، وأسرهم، والاستيلاء على ممتلكاتهم، والتلذذ بيأسهم، واغتصاب زوجاتهم وبناتهم».

جنكيز خان[114]

شكلت تلك السنوات المفقودة أول عصرٍ مظلمٍ، فقد اجتاحت الشعوب الرعوية جميع المراكز الحضارية في أوراسيا تقريباً. لا يمكن تفسير تاريخ الحضارة بلغة الحروب فحسب، فقد كانت هناك عوامل أخرى مثل التغيّر المناخي

أو السياسة النقدية أو حتى انتشار الأمراض المعدية (وهي أمور دائمة الحدوث)، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا استغرق الممر الأوسط كلّ هذا الوقت الطويل؟ ولعل ا جابة هي أن ذلك حدث بسبب تغاضينا عن تأث ر هذه العوامل في الحضارات السا قة. ورغم أنّهم ألد وا بأنفسهم الضرر الك ير خلال حروبهم المتواصلة، إلا أنّهم واجهوا خطراً خارجياً أك ر.

لـ د نسينا حتى الآن ا رهاب! إنّ البدو ثقافات خلابة ولكنها ميتة، ولا سبيل للحفاظ عليها ورعايتها. وفي معظم التاريخ المسجل، عاشت المجتمعات المتحضرة في العالم الـ ديم في مساحاتٍ زراعيةٍ صغ رةٍ نسبياً - في الصين وشمال الهند والشرق الأوسط وأوروبا - وتحاذي تلك المساحات الصغ رة أراضيَ شاسعة ممتدة مسافة خمسة آلاف ميل من المراعي المفتوحة من جنوب روسيا إلى منشوريا، والتي رعت وغذت البدو الذين اعتمدوا على الأحصنة. وفي بعض الأحيان، اندفع البدو من قلب أوراسيا نحو الخارج لسحق تلك الحضارات أو إعادتها إلى الخلف، وهذا ما دفع بالناجين إلى تشك ل دولٍ عسكريةٍ كاملةٍ.

لم تتواجد الشعوب الرعوية الأولى بطبيعة الحال خارج السهوب المفتوحة، فقد نشأت ين المجتمعات الزراعية المبكّرة في الهلال الخصيب ثم انفصلت عنها. لكن، ما الذي سمح لها باستعمار كلّ تلك المراعي الهامشية، ومن ثم استعمار ما يُ در بمليون ونصف ميل مربع من الأرض العش ية؟ الجواب هو الحصان. فقد دُجِّنت الخ ول للمرّة الأولى في جنوب أوكرانيا قبل 4000 ق.م. ورغم أنّها استخدمت في البداية كمادةٍ غذائيةٍ، إلا أنّ هناك أدلة على امتطاء الناس لها في ما بعد. كانت أصغر بكث ر وأضعف في الجزء

الخلفي من الخيول الحديثة؛ إذ تُعتبر الخيول الحديثة نتاج ستة آلاف عام من التربية الانتقائية.

وبواسطة الخيول، تمكنت الشعوب الرعوية من الإغارة على المستوطنات الزراعية على نطاقٍ واسعٍ، لكن لم يحاول أحد تجربة القتال من على صهوة الحصان في ذلك الوقت، لكنها كانت وسيلةً ممتازةً للهرب. كما تُظهر بقايا الخيول المدجّنة في المستوطنات الزراعية المختلفة في الهلال الخصيب، والتي يعود تاريخها إلى ما قبل 3000 ق.م، أنّ بدو الشمال أتوا بالخيول للمتاجرة بها، وسيكون من المستغرب ألا يستخدموها للإغارة من على ظهرها في تلك الفترة من الزمن[115].

من جهةٍ أخرى، سمحت الخيول للشعوب الرعوية بإدارة قطعانها في عمق السهول العشبية، وأتاح لها اختراع العجلة بحدود 3300 ق.م تحميل الأمتعة في عرباتٍ، والابتعاد النهائي عن فكرة الاستقرار. كانت الثقافة الرعوية الفريدة هي من أطلق الحثّيين والآريين والهون والمجريين والمغول والفاتحين المانشو من السهوب على مدى ثلاثة آلاف عام قادمة بعد أن ظهرت إلى حيّز الوجود وتشكّلت بتمامها الكامل خلال بضعة قرونٍ فقط. وما إن عجّت المراعي بالرعاة بحدودهم القصوى (ربما حوالي ثلاثة إلى خمسة ملايين نسمة فقط) حتى عاد البدو مرّة أخرى إلى الأراضي المتحضرة.

منحتهم العربة كوسيلة نقل ميزةً عسكريةً تفوّقوا فيها على الجيوش المتحضرة في تلك الفترة. اخترعت العربة في الأراضي المتحضرة في وقتٍ مبكّرٍ من عام 2300 ق.م، وذلك بعمليةٍ بسيطةٍ؛ عبر نزع

عجلتين من العجلات الأربع للعربة التقليدية أو عربة الحرب (والتي كان عمرها آنذاك حوالي ألف عام) التي تجرّها الثيران أو الحمير، واستخدام مواد أخف وزناً وأكثر مرونةً في صناعتها، نتاج مركبةٍ تستطيع الخيول الصغيرة التي كانت موجودة آنذاك جرّها وبسرعةٍ عاليةٍ (العربة التي تحمل رجلين، والتي قد تزن أقل من 50 كغ).

ربما بدأ الأمر على شكل خدمةٍ متطورةٍ للنخبة؛ إذ لم يكن بإمكان أي كان سوى الأثرياء والمتنفذين الذين يمتلكون الخيول اقتناء تلك المركبات ليتنقلوا بها في السهول، ويسيروا بسرعةٍ تعادل ضعف سرعة أفضل عدّاء لصيد الغزلان وغيرها

مركبة مثالية لإدارة القطعان وهزيمة المزارعين؛ نموذج ذهبي لعربة حربية سكوثية[116].

من الفرائس السريعة. لكننا لا نملك أدلةً على استخدامها من قبل الإمبراطوريات المتحضرة في جيوش أواخر

الألفية الثالثة قبل الميلاد. أما على الأطراف الهامشية للحضارة، وخاصةً في الجزء الشمالي من الهضبة ا رانية حيث الأراضي الزراعية الخصبة الواسعة والمراعي المثالية للرعاة، فقد وضع الرعاة أ ديهم على المركبات بعد أن وجدوها مثاليةً لتطويق الـ طعان ومطاردة الحيوانات المفترسة. ولا شكّ في أنّهم وجدوها مف دةً في ا غارة على قطعان الآخرين. وفي تلك المرحلة، دأ الـ وس الجد د المركّب بالدخول حيّز الاستخدام بخصائصه القتالية كسرعة ا طلاق وحجمه الصغ ر؛ وهو الأمر الأكثر أهمية. وبالتالي، اعت ر مثالياً لاستخدامه من تلك المركبات[117].

ووفق هذه ا مكانية الجد دة، شحذت الشعوب الرعوية في إ ران وشمال الـ وقاز والمناطق الحدودية في البلـ ان وأوكرانيا مهاراتها؛ بالاعتماد على هذا المزيج الفتاك من العربة والـ وس المركّب، كما اكتشفت أنّها قادرة على إلحاق الهزيمة بالج وش المتحضرة باستخدام تينك الأداتين. فحتى تلك اللحظة، كانت غارات البدو ضد المجتمعات الزراعية تعتمد على عنصر المفاجأة والتفوّق الآني من حيث العدد، ولم يكن لديهم تفوقٌ محددٌ في القتال؛ باستثناء تجربتهم الشخصية مع ما توفر لهم من أسلحة في ذلك الوقت. ولكن، لـ د غيّرت العربة تلك المعادلة، وصاروا يمتلكون السلاح المثالي، ولم يعد هدفهم ا غارة فحسب، ل الفوز والغلبة.

لـ د أشار المؤرخ العسكري السير جون كيغان (Sir John Keegan) إلى مزايا العربة وقائدها، وإلى امتزاج تلك المزايا مع طبيعة حياة البدو. فقد تميّزت بالسرعة والـ درة على المناورة؛ مما سمح لهم بالانقضاض على العدو وبطلاق وا لِ من

الأسهم الـ اتلة على تشكيلات المشاة المتراصةً، ومن ثم الابتعاد خارج نطاق الاشتباك للانقضاض مرّةً أخرى. أما طبيعة حياتهم فقد فرضت عليهم البراعة في السيطرة على قطعان الحيوانات، والقتل عديم الرحمة؛ إذ اقتضى عملهم اليومي اختيار الحيوانات الهرمة أو المريضة أو الجريحة، وغ رها من الحيوانات الجد دة، وقتلها على أساسٍ دوريٍ من دون ا ساءة لجلودها أو إخافة الحيوانات الأخرى. ونضيف إلى ذلك استعدادهم الثقافي للتعامل مع المزارعين كمخلوقاتٍ أدنى شأناً، وربما بمستوى الفريسة. وبهذه الخ رات معاً، تحوّلت معارفهم في إدارة الـ طيع بسهولةٍ إلى حربٍ على الج وش المتحضرة، وج وش ا مبراطوريات المتحضّرة، حيث اختفت ومنذ عهدٍ طويلٍ كتائب المتطوعين المتحفّزة بشدّة فيٍ دول المدن الـ ديمة، وبذلك صارت تلك الج وش لـ مةً سائغةً في أفواه الرعاة المهاجمين.

«اعتمد أسلوب حياتهم على إدارة الـ طيع بـ در ما تطلب ذلك من ذبحٍ وسفكٍ للدماء؛ مما أكسب الرعاة راعةً في مواجهة المزارعين المستقرين ضمن المناطق المتحضرة، وفي التعامل معهم بكلّ دمٍ باردٍ فيٍ الحرب. لـ د كانت تشكيلات القتال (المتمدنة) متراخيةً على الأغلب، وذات انضباطٍ ضعيفٍ وسلوكٍ فوضويّ في ساحة المعركة لعلّه أشبه بسلوك الحشد أو الـ طيع. وفي الوقت نفسه، كانت إدارة الـ طيع هي رأسمال الرعاة في حياتهم؛ فقد أدركوا ج داً كيف يُ سمون الـ طيع إلى أقسامٍ منفصلةٍ ليسهل التحكم بها، وكيفية قطع خط تراجعها ع ر تطويق الأجنحة، وضغطها في كتل متراصة، كما أجادوا عزل الـ ادة، والسيطرة على التفوق العددي عن طريق التهد د وبث الرعب؛ وذلك ع ر الفتك بـ لةٍ مختارةٍ، مما يحوّل الجموع إلى كتلةٍ خاملةٍ

وخاضعةٍ للتحكم».

السير جون كيغان، تاريخ الحرب[118]

أما الأسلوب البدوي في القتال، والذي استخدم في الغزوات اللاحقة من قبل الفرسان على صهوات خيولهم، وهو الأسلوب الذي نمتلك عنه تفاصيل كثيرة - يُفترض أن ينطبق هذا على غزاة العربات في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد - فقد تجلى في الاقتراب من العدو على شكل تشكيلِ هلاليٍ متباعدٍ، وسرعان ما ينطبق قرناه على جوانب الجيش المتحضر، ويتبع ذلك التضييق على المدافعين بزخاتٍ من السهام، وعدم الإقدام على الهجوم الحاسم إن لم يلُذ العدو بالفرار. كتب كيجان: «تأخذ العربة بالدوران من مسافة 100 أو 200 ياردة من مجموعات المشاة عديمة التسليح. ويتألف طاقم العربة من قائدها وآخر رامٍ قد يحقق ست طعنات في الدقيقة. مما يعني أنّ نتيجة عمل عشر عربات لمدّة عشر دقائق ستكون 500 إصابة وربما أكثر. ويماثل هذا حصيلة معركة السوم[119] بالنسبة للجيوش الصغيرة العائدة إلى تلك الفترة»[120]. وإذا استمر العدو بالمقاومة الشديدة، عندها تنسحب العربات على أمل مطاردة الجيش الحضاري لها؛ مما يبعثر أفراده، لتلتف عليهم بعد ذلك وتشتبك مع الجيش المتخبط.

كتب أميانوس مرسلينوس (Ammianus Marcellinus) عن قبائل الهون (Hun) في القرن الرابع الميلادي: «عند نشوب المعركة، يقوم الهون بالانقضاض على العدو مطلقين صرخاتهم المرعبة، ويتفرقون حالما يلاقون مقاومة، لينقضوا مرّة أخرى بالسرعة نفسها محطمين كل ما يعترض

طريقهم... ولا يمكن لأحد أن يجاري مهارتهم في إطلاق السهام – من مسافات بع دة – وكانت سهامهم تنتهي بعظامٍ مشحوذةٍ قاسيةٍ وقاتلةٍ كالحد د»[121].

امتطى الرعاة الرحل خ ولهم، وقاتلوا من على صهواتها؛ وهو أمر لا يمكن ال يام به إن كانت الخ ول ضئيلة الحجم كتلك التي كانت موجودة عام 2000 ق.م. كانت العربات خطيرةً بالنسبة إلى جنود المشاة المدافعين عن الحضارة قبل خمسين جيلاً، غ ر أنّ الموجة الأولى من الغزاة الرحّل لم تأتِ من مسافاتٍ بع دة في معظم الحالات – إذ ستستغرق رحلة الغزاة ال ادمين من السهوب البع دة وقتاً طويلاً – ولم يكن بمكان ج وش ا مبراطوريات ال ديمة التصدي لهم، وهكذا، تم الاستيلاء على ب ايا إمبراطورية سرجون في بلاد ما ين النهرين من قبل الجوت ين والعيلاميين الذين كانوا في السا ق من الشعوب الرعوية ثم احترفوا الزراعة في المرتفعات الشمالية المؤدية للهضبة ا رانية. وعندما قام حمورا ي – الرجل المحلي الذي حكم من عاصمةٍ جد دةٍ هي با ل – ب عادة توحيد بلاد ما ين النهرين، ظلت إمبراطوريته العمورية مستمرةً بالاعتماد على الجيشٍ الذي كان مؤلفاً من المشاة الذين لم يكونوا نداً لعربات الكيشي ين والحران ين الذين تدفقوا في ال رن السابع قبل الميلاد من منطقة المرتفعات المعروفة الآن باسم كردستان. نزلت العربات، ونجح قوادها بتقسيم بلاد ما ين النهرين فيما ينهم.

لا يعرف أحدٌ بالضبط ماهية اللغة التي تحدث بها الكيش ون، أما الحران ون فقد تكلموا اللغة الهندو أوروبية، وفعل مثلهم قادة العربات الحربية الحثّية الذين

غزوا معظم وسط الأناضول (تركيا اليوم) التي تقع نحو الغرب. وإذا اتجهنا غرباً أيضاً، لكن أبعد من ذلك، فقد امتلك المسينيون الذين نزلوا في منطقة البلقان ومنها اتجهوا إلى اليونان العرباتِ نفسها، غير أنهم تكلموا لغةً هندو أوروبية أخرى، وتمكن أحفادهم المولعون بالحروب من الاستيلاء على الحضارة المينوية التجارية البعيدة عن العسكرة في جزيرة كريت. وقد ساعدهم في ذلك الانفجار البركاني الهائل عام 1470 ق.م في جزيرة ثيرا، والذي دمّر المدن والقرى الساحلية شمال جزيرة كريت.

توالت سلسلة الكوارث مع الهكسوس، وهم رعاةٌ قادوا عرباتهم من شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ويتحدثون اللغة السامية؛ حيث تمكّنوا من غزو المملكة المصرية غير المسلحة نسبياً. وأبعد إلى الشرق هناك الآريون – وهم شعب هندو أوروبي المنشأ – الذين قدموا من الهضبة الإيرانية، ودمروا الحضارة الضخمة لوادي السند (والتي كانت حتى ذلك الوقت سلميةً إلى حدٍّ كبير)، وأسسوا حكمهم في معظم أنحاء شمال الهند. أما في شمال الصين، فقد ظلت مسألة أصول سلالة شانغ محل نزاع، لكن الظهور المفاجئ للعربات في جزءٍ من العالم لم تتوفر فيه أي عجلات من أي نوع في ما مضى، بالإضافة إلى الرسوم الصخرية للعربات في ستة مواقع مختلفة من شمال إيران إلى وادي اليانغتسي العلوي، تشير إلى أنّ مؤسسي دولة شانغ كانوا غزاةً برابرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرعاة الهندو أوروبيين الذين بدأوا رحلتهم المضنية شرقاً قبل عدّة قرون في شمال إيران[122].

حكم بدو العجلات في كثيرٍ من الأماكن لمدة قرنٍ أو

نحو ذلك. إذ كانوا أقليات صغ رةً تحكم أعداداً ك يرة من السكان المستائين، بمساعدة ع يد إداريين مستقدمين من الشعوب الخاضعة لهم. ولم تكن لديهم كتابة أو يروقراطية. طرد المصريون الهكسوس عام 1567 ق.م، وثار سكان بلاد ما ين النهرين الأصليون بيادة آشور أوباليت على أسيادهم الحرانيين وأطاحوا بهم عام 1365 ق.م، وأعادوا تشكل مملكةٍ متحدةٍ بالحدود نفسها التي كانت عليها إمبراطورية سرجون تقريباً. أما مؤسسو سلالة شانغ، وهم غرباء في الأصل، فقد استوعبتهم الثقافة الصينية الأكثر تطوراً، واستطاعوا تقديم أنفسهم للعالم على أنّهم سلالة صينية أصلية.

بي الغزاة البدو أسياداً لفترةٍ طويلةٍ، وسادت لغتهم وثقافتهم في النهاية؛ هذا ما حصل في اليونان والأناضول الحثية، كما في المنطقة المحكومة من قبل الآريين شمال الهند. وسرعان ما تخلوا عن الرعي، لكنهم احتفظوا بعربات الطبقة الحاكمة العسكرية، والتي استخدمت لصيد الحيوانات البرية. وسواء أسادت ثقافتهم أم لا فقد تركوا أثراً ك يراً، إذ شملت العسكرة الجميع بعد الموجة الأولى من الغزاة البدو، وترسخ الرق كحالةٍ رئيسةٍ في كلّ مكان تقريباً.

اشتهر الحثيون وا غريق المسينيون بعدوانيتهم، وأصبحت المملكة المصرية الجديدة بعد طرد الهكسوس دولةً عسكريةً مثل باقي الممالك، ولم يعد الجنود الذين قادهم تحتمس الثالث إلى مجدو عام 1462 ق.م الوة الساحرة الممثلة للطراز ا ديم، والمعتمدة على الط وس النموذجية التي سادت في عصر الدولة الوسطى، لد أصبحوا جنوداً يؤدون الخدمة الكاملة، وجيشاً كاملاً من العصر البرونزي. أما

كريت المنوية فقد اختفت من دون أن تترك لها أثراً، كانت حضارةً تجنبت العسكرة (ربما لأنّها لم تعانِ من غارات الرعاة بحكم موقعها كجزيرة)، وكان هذا حالَ حضارة وادي السند، إذ استولى الأسياد الآريون في شمال الهند على السلطة إلى الأبد، وكان النظام الحديث السائد في الهند على نطاقٍ واسعٍ من نوع النظام الطبقي؛ حيث الرقّ والعبودية، وهو ما استغله الآريون لضمان سيطرتهم على السلطة.

أما الصين فقد أفلتت من أسوأ العواقب الثقافية للغزوات البدوية، ربما بفضل ثقافتها الزراعية المبكّرة التي يرجع تاريخها إلى ألف عام، وذلك بعد انطلاق ساقتها في الهلال الخصيب، حيث لم تفصل تلك الثقافة الزراعية الرعاة عن مناطق الزراعة كثيراً. وُجدت الأغنام والماعز والأبقار المدجّنة في شمال الصين بأعدادٍ صغيرةٍ منذ فترةٍ طويلةٍ، ولأسبابٍ مجهولةٍ لم تصبح بأعدادٍ كبيرةٍ لتدعم الرعي الحديثي. وخلال العصر الحجري الصيني، كانت الحيوانات المدجّنة الوحيدة هناك هي الخنازير والكلاب، وهذا ما يفسر تأخر ظهور الأسوار حول المستوطنات الصينية، والتي بنيت حوالي 3000 ق.م، أي بعد خمسة وعشرين قرناً من ظهورها في الهلال الخصيب. وحتى ذلك الوقت، كان ظهور الأسوار محصوراً في الشمال فقط، ويُرجح أن تكون أصول معظم الرعاة الذين أرّقوا الصين حتى نهاية تاريخها من الشرق الأوسط، ولهذا استغرقوا كلّ هذا الوقت لينتشروا على طول حدود المراعي حول الصين[123].

في النهاية، تغلّب البرابرة على الصين عدّة مرّات، لكن حضارتها كانت قد أخذت وقتها الكافي للنضوج وعدم الاستسلام للقيم البربرية ببساطة. ويمكن أن يفسّر هذا

(الطريقة الصينية في الحرب)، والتي تجمع بين تفضيل التكتيكات البدوية (المفاجأة والخداع وتجنب المعارك الضارية) والنفور من الأعمال الحربية برمتها، ولم تحظَ حضارةٌ رئيسةٌ غربٍ الصين بهذا المتنفس الكبير، وجاءت النتائج مؤسفة. ولعلّ أسوأ حالٍ هو حال بلاد ما بين النهرين، والتي خرجت من أول تجربة قهرٍ بربريٍ بواسطة مملكة بلاد ما بين النهرين الشمالية - عند سفوح التلال لا السهول - والتي تدعى آشور. فقد افتتن مجتمع آشور بالحياة العسكرية، وخاضت المملكة لاثني عشر قرناً قادماً حروباً لا نهاية لها ضد شعوبها المخضعة وجيرانها.

«القائد العام لقوات الملك عيلام، مع نبلائه... قطعتُ رقابهم كالخراف... دُرِّبَت جيادي الواثبة على الخوض في الدماء كما لو أنّها تسير في ماء النهر، وتلوثتْ عجلات عرباتي الحربية بالدم والقذارة. ملأتُ السهل بجثث المحاربين... أما شيوخ الكلدانيين المذعورون من هجومي الذي وقع عليهم كالصاعقة، فقد هجروا خيامهم وفرّوا لينجوا بجلدهم، سادين جثث جنودهم أثناء فرارهم... (بسبب رعبهم) لقد تبولوا وتبرزوا في عرباتهم!».

ملك آشور سنحاريب، 691 قبل الميلاد[124]

كانت الإمبراطورية الأكادية هي النموذج الأولي لآشور، حيث وجدت آشور في المنطقة المركزية نفسها (حتى إنّ بعض الملوك الآشوريين قد حملوا اسم سرجون)، إلا أنّها كانت دولةً مبنيةً على أساس الحرب. تشبث الآشوريون بالعربات من بداية إمبراطوريتهم وحتى أفولها، وبنوا حولها ذاك الجيش الحديث آنذاك في هيكليته، وقد

امتلك المهندسون العسكريون مستودعات ا مداد وقوافل النقل ومعدات بناء الجسور، واستطاع الجيش التحرّك بسرعة أي جيش آخرَ؛ إلى أن اخترع محرّك الاحتراق الداخلي بالاعتماد على الطّرق الملكية السريعة التي فُتحت في جميع أنحاء ا مبراطورية. كان بمكان الجيش شنّ حملةٍ حتى مسافة ثلاثم ة ميل بعداً عن قاعدته، وكان سبّاقاً في استخدام معدات حصارٍ فعالةٍ، وزوّد جنوده دروعٍ وأسلحةٍ حد ديةٍ – عثر علماء الآثار على 160 طناً من الحد د في ترسانة قصر سرجون الثاني (721–705 ق.م) – ودعم عرباته بالفرسان الخيالة. كان الجيش يشنّ حملاتٍ لا تنقطع، وقد تم حساب عدد سنوات الحرب في آخر 250 عاماً من وجود ا مبراطورية الآشورية، وكانت النتيجة 180 عاماً!

توسعت ا مبراطورية الآشورية وتقلصت مراراً وتكراراً على مرّ ال رون، وهو ما تفعله أي إمبراطورية بلا حدود جغرافية أو تاريخية أو عرقية؛ إذ توسعت ا مبراطورية تحت حكم شلمنصر الأول وابنه توكولتي نينورتا الأول (1274–1208 ق.م) وامتدت في كلّ اتجاه لتصل إلى الخليج الفارسي في الجنوب، ثم انهارت بعد ذلك وعادت إلى المنطقة المركزية بعد وفاتهما. وبعد قرنٍ من الزمن، توسعت مرّة أخرى تحت حكم تغلات بلاصر الأول، لتصل هذه المرّة إلى البحر المتوسط، ولكنها لغت أدنى مستوياتها قبل نهاية ال رن التاسع قبل الميلاد، حيث بالكاد سيطرت على منطقة بطول 100 ميل وعرض 50 ميل. وبعد ذلك، وخلال السنوات الثلاثم ة الأخ رة من تاريخها، أصبحت (آشور الجد دة) (كما يسميها بعض علماء الآثار) وحشاً عسكرياً؛ فقد ظلت في حالة حرب، وبثت الرعب في الشرق الأوسط كلّه لضمان تدفقٍ مستمرٍ للغنائم وإتخام خزائنها

الفارغة. وتقول بعض التوقعات إنّها لم تشدد قبضتها على البلاد عمداً وذلك لتشجيع الثورات؛ مما من شأنه أن وفر ذريعةً للغزو والنهب مرّةً تلو الأخرى. تم ترحيل جميع السكان وسط مذابح مروّعة، وتوطينهم بعيداً عن مناطقهم عقب حركات التمرّد. وربما جاء هذا التوطين لتلبية حاجة الإمبراطورية إعادة الحياة إلى بعض المناطق المدمّرة الأخرى، ولم يكن الإسرائيليون بأي حالٍ من الأحوال الشعب الوحيد الذي عانى من هذا المصير.

ازداد عدد جيش آشور ليصل إلى رقم مذهل (بالنسبة لذاك الوقت)؛ إذ بلغ مئة وعشرين ألف رجلٍ قادرين على القيام بعدّة حملاتٍ في وقتٍ واحدٍ. وقد زرع الملوك والقادة صورة القسوة المفرطة عمداً بهدف إرهاب خصومهم مسبقاً. وفي الحقيقة، نعلم مدى إدمان الآشوريين على السادية (ربما نحتاج إلى مفردة أقسى) خاصةً من نقوشهم التي يتفاخرون فيها وحشيتهم.

ضعفت الإمبراطورية الآشورية بسبب الحرب، وكتب أحد الموظفين الملكيين للملك آسرحدون في وقتٍ مبكّرٍ من القرن السابع قبل الميلاد: «يعرف الملك كراهية جميع المناطق لنا»، ولا غرابة في ذلك، إذ دمرت الجيوش الآشورية بابل في بلاد ما بين النهرين عام 689 ق.م، وصيدا في لبنان عام 677 ق.م، وممفيس في مصر السفلى عام 671 ق.م، وطيبة في صعيد مصر عام 663 ق.م، ثم بابل مرّة أخرى عام 648 ق.م، وسوسة في إيران عام 464 ق.م، وكانت النهاية بزحف الغزاة البدو الجدد نحو الشرق الأوسط في القرن السابع قبل الميلاد - هذه المرّة على شكل فرسان حديثين لا جنود عربات، حيث أدت التربية الانتقائية للخيول إلى توليد خيولٍ قويةٍ يسيطر عليها راكبها - حيث تحالف أعداء آشور

المتحضرون معهم سلطا امبراطورية المكروهة، وكان لهم ذلك. ففي عام 612 ق.م، سقطت العاصمة الآشورية نينوى يد تحالف البابليين والميديين (الرعاة الذين استقروا بعد قدومهم مؤخراً من إيران)، وتم تدمير المدينة بالكامل ومحوها، حيث أصبح موقعها مجهولاً بعد مرور قرنين من الزمن على تدميرها[125].

وبحلول ذلك الوقت، اكتملت حلقة الحضارة في ممرها الأوسط، إذ لغتِ المستوطنات البشرية في الأراضي العشبية مرحلتها النهائية، واقترب الرعاة وقطعانهم من الدرة الاستيعابية لتلك البيئة القاسية والمتغيّرة، وكان لأي تراجعٍ مناخيٍ كبيرٍ أن يفجّر صراعاً على الموارد الشحيحة، ويدفع الجماعات الخاسرة إلى خارج المراعي باتجاه العالم المتحضر؛ حيث المزايا العسكرية الهائلة وما تشكّله من تهديدٍ باضطراباتٍ كبيرةٍ. وفي ذلك العالم المتحضر، ظهرت للمرّة الأولى الدول التي تعتمد في وجودها على الحرب، ولن ينقرض ذلك النوع من الدول بعد الآن؛ فقد سيطرت القوة المنظّمة على كلّ شيءٍ الآن.

ومع انتشار القرصنة في البحار، واللصوصية المنظّمة في التلال، أضحى الاستعباد والنهب مصيرين طبيعيين في المدن المستولى عليها. لم تكن هناك قواعد للعنف المنظّم، إذ كان هو نفسه القاعدة، وأتقن الحكام هذا الأمر وبرعوا فيه. وهكذا نظرت الشعوب الأكثر تحضراً حتى العِصر الحديث إلى التاريخ؛ ليس كتقدمٍ نحو مستقبلٍ أفضل، بل كتراجع عن عصرٍ ذهبيٍ مفقودٍ. وقد شعرت تلك الشعوب دائماً أنّ الأمور لم تكن بهذا السوء – لكنها كانت كذلك – وفقدت الانتصارات والمآسي معناها مع مرور الأجيال، كما

نشبت المعارك، ووقع الحصار مرّاتٍ ومرّاتٍ، ونهضت إمبراطوريات وغابت أخرى. سيبى الظلم والسوة الثابتين الوحيدين، وقد تشهد الأمور تحسناً لفترةٍ من الزمن، وربما تبى جيّدةً لأجيالٍ كاملةٍ، وتمرّ بمرحلةٍ سعدةٍ من السلام والازدهار، لكنها على المدى الطويل أشبه بمن يتقدم ثلاث خطواتٍ إلى الأمام، وثلاثاً إلى الوراء؛ لطالما كان العنف هو السبيل الوحيد للباء على قيد الحياة، والطريق الأسرع للثراء.

«مع مغب الشمس، وصل جيش فلافيان إلى أطراف المدينة (مدينة كريمونا)، وسار أفراده على الجثث المتكومة والدماء، وهم على يينٍ من انتهاء القتال، وأخذوا يضغطون على كريمونا لكي يستسلم جيشها المهزوم، وكان هذا عرضهم العلني، وقد دا جداً، لكنّ كلّ فردٍ منهم كان ينتظر شئاً آخر، الولوج إلى المدينة المدمرة؛ إذ إن دخول أي جيشٍ تحت جنح الظلام يعني ترخيصاً بالنهب، وما انتظار بزوغ الفجر سوى تفويت لهذه الفرصة، إذ ستوضع شروط للسلام وسترتفع نداءات للرحمة... وعندما أُقتحمتِ المدينة، استولى المهاجمون على الغنائم، واستسلمت المدينة للادة المهاجمين».

كورنيليوس تاسيتوس، التواريخ 126 127

لد استسلمت المدينة، لكن هذا لم ردع الوات الرومانية عن نهبها؛ رغم أنّها حرب أهلية، ورغم أنّ سكان كريمونا مواطنون، تماماً كأفراد الوات.

«شق أربعون ألف مسلحٍ طريقهم إلى المدينة، ولم تسعف الرتبة ولا السنون ضحاياهم الذين أصبحوا ضحية العربدة العشوائية؛ فتناوب الاغتصاب مع القتل مع

الاغتصاب! ومن لم تكن هناك فائدة تُرجى منهم كالعجائز من الرجال والنساء فقد تمّ جرّهم على الأرض بهدف التسلية والضحك، وسُحبت أي فتاة ناضحة أو فتى حسن المظهر وبعنفٍ... حتى إن من نهب المال وذهب المعابد منهم تعرّض للقتل والتقطيع ممن هم أقوى منه... حملوا مشاعل النار، ومع انتهاء النهب قذفوها على المنازل والمعابد الفارغة وأضرموا فيها النار... كان هناك الكثير من أصناف الوحشية، كما كانت هناك مفاهيم مختلفة لما هو مشروع، ولم يبقَ شيءٌ في مدينة كريمونا التي نُهبت لأربعة أيام متوالية».

تاسيتوس[128]

كان تدمير كريمونا عام 69م فضيحةً عمت أرجاء إيطاليا – إذ إن مدينة رومانية بسكانها العزل تنهب من قبل الجحافل الرومانية – ووجد الجنود الذين ارتكبوا ذلك أنّ لا قيمة لأسراهم بسبب عدم إمكانية بيعهم كعبيد، فقُتل الكثيرون من أولئك الأسرى على أيدي خاطفيهم، وتم إطلاق سراح بعضهم بعد الحصول على فدية من أقاربهم. ساهم عدد من المدن الإيطالية في إعادة بناء كريمونا. وفي معظم الحالات، لم تحصل المدن المدمرة على مثل تلك المساعدة، وبعد جيلٍ أو جيلين من السلام النسبي، عادت المدينة إلى وضعها السابق، ودبّت الحياة في الحقول مجدداً، لكنّها ما لبثت أن تعرّضت للأهوال مجدداً.

التاريخ حافلٌ بالأحداث، ولكنه يعيد نفسه؛ فمع تنوّع اللغات والأديان، وظهور الحدود وتلاشيها، وارتفاع عدد السكان وانخفاضهم، سيُعاد تمثيل المشهد نفسه بعد ما يقارب ألفاً وخمسمئة عام من سقوط كريمونا. فعلى

مسافة بضع مئات من الأميال جنوباً، حيث تقع مدينة روما، نجد في مذكرات سيباستيان سكرتلين (Sebastian Schertlin)، قائد القوات الإمبراطورية الإسبانية أن المشهد ذاته قد تكرر: «في 6 أيار من عام 1527، استولينا على مدينة روما، وأزهقنا روح ستة آلاف رجلٍ منها بالسيف، ووضعنا أيدينا على موجودات الكنائس والأماكن الأخرى، وأضرمنا النار في جزءٍ واسعٍ من المدينة، ودمّرنا الأعمال الفنية، وجميع السجلات والرسائل والوثائق»[129].

عاشت روما حياةً كريمةً في السنوات الألف الأولى من تاريخها، لكنها احتُلَّت ست مرّات في الألفية الثانية، وتقلص عدد سكانها إلى العشر. ولعل أحداث عام 1527م هي الأكثر وحشيةً منذ أن نهب القوط الغربيون المدينة للمرّة الأولى عام 410م، وذلك تحت قيادة ألاريك (Alaric). فقد تميّز الفاتحون بالطمع وسعة الخيال، وتفرغوا للمواطنين في كثيرٍ من الأوقات، ويقول لويجي جوتشيارديني (Luigi Guicciardini): «تعرّض الكثير من المواطنين للتعليق من الذراعين لساعاتٍ طويلةٍ، وضُرِب العديدون منهم على أعضائهم التناسلية بقسوةٍ، كما عُلِّق آخرون من أقدامهم في الطرقات أو فوق الماء، وسط تهديد جلّاديهم لهم بقطع الحبال، ودُفنت أنصاف أجسام بعض المواطنين في السراديب، وسُمِّر آخرون في البراميل. كان هناك الكثير من الضرب المبرح؛ مما أدى إلى التعرّض لجراحٍ خطرةٍ، وهناك أجساد قُطِّعت باستعمال الحديد الملتهب، فيما عُذِّب آخرون بجعلهم يشعرون بالعطش الشديد، وغيرهم بالضوضاء الصاخبة، أو بنزع الأسنان، وأُجبِر آخرون على أكل آذانهم أو أعضائهم المشوية...».

«أنا أسير لدى ا سبان، طلبوا فديةً قدرها ألف دوقية بذريعة أنّني مسؤول رسمي. تعرّضت للتعذ ب مرّتين، وفي كلتيهما أشعلوا النار تحت باطن قدميّ... أخي العزيز، لا تدعني أموت على هذا النحو البائس... أسألك العون بمحبة الربّ والعذراء المباركة».

جيوفاني باروزي[130]

إنّ هذا النمط المستمر من الـ سوة أكثر من مزعج، وقد استمر طويلاً وظهر في كلّ مكان، وفي كلّ الحروب، وجميع المدن المدمرة. وسط هذا الجشع والتلذذ بتعذ ب الآخرين، ما الذي نفهمه؟ هل كانت الحضارة لعنةً تامةً علينا؟

لا جدل في أنّ الحضارة نعمةٌ بشكل صرف، ولكنها تخفي قبحاً كامناً فيها. ليست لدينا إحصائيات موثوقة للم ارنة ين الحضارة وما سبقها، لكن على الأغلب، إنّ نسبة من كانوا ضحايا الحرب في المجتمعات المتحضرة خلال آلاف السنوات في الممر الأوسط لا تزال أقل من متوسط خسائر العنف في أقوام الصيد والجمع على مدى مماثلٍ من الزمن. وهذا لا يعني أنّ العيش في با ل عند وصول الآشوريين أفضل، أو أنّ كون المرء في كريمونا عند دخول جحافل الروم أقل سوءاً من الوجود ين أقوام الصيد والجمع البدائيين.

إنّ التواجد في با ل أو كريمونا أو غ رهما سي للغاية؛ فالحرب (المتحضرة) رعبٌ شاملٌ أمام عينيك، في حين أنّ الحرب (الوحشية) أكثر بطئاً، وتتخذ منحنى تصاعدياً أشبه باستنزافٍ غ ر مرئيٍ للحياة من دون أن يعي أحد الفاتورة ا جمالية لها، بينما يكمن الفرق الهائل ينها وبين الحرب المتحضرة في أنّ آلاف الناس يموتون هنا

وليس شخصاً أو شخصين. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا: ما الذي يخبرنا إياه هذا عن التفاعل بين الوراثة البشرية والذكاء البشري والحضارة الشاملة؟ أو بشكلٍ أكثر بساطة: هل كُتب علينا الهلاك؟

ما يؤيد ذلك مقلقٌ للغاية، فنحن ننتمي إلى خط تطوري ذي تراثٍ من التسلسلات الهرمية المبنية على الهيمنة، وخاصةً بين الذكور، وأقرب الرئيسيات لنا - مثل فصائل القردة اللاحمة التي تصطاد بانتظام - لديها نمط عدواني مشترك شبيه بما نسميه «الحرب». لذا، إن هذا السلوك متأصل فينا، ومن الواضح أنّ الكثير من الناس - ربما معظمهم في حال كانت الظروف مؤاتية - قادرون على تجاهل الألم الذي يلحقونه بالآخرين، وربما يجدون متعةً في ذلك، وهذا ليس مجرد شذوذ في (الحضارة)، إذ شملت طقوس التعذيب الممارسة على الأسرى من قبل القبائل الأمريكية الأصلية كل شيءٍ، عدا عن العدد الهائل من الضحايا. لقد كانت طقوساً قاسيةً؛ مثلها مثل سلوكيات الجيوش الآشورية والإسبانية المنتصرة.

وتزداد هذه المعاملة سوءاً؛ فقد واظبنا على قتل بعضنا بعضاً بحماسةٍ كبيرةٍ؛ حتى بعد ابتعادنا عن التسلسل الهرمي للهيمنة الصارمة، وتحولنا إلى المساواة عندما كنّا نحيا حياتنا كأقوام صيدٍ وجمعٍ، ثم داهمتنا الحضارة، وأعدنا التسلسل الهرمي للهيمنة القديمة ولكن بشكلٍ أسوأ، وحوّلنا الحرب من عادةٍ اجتماعيةٍ إلى مؤسسةٍ عملاقةٍ لا يمكن مقاومتها. لقد دخل الأمر في مورثاتنا وأنفسنا ومؤسساتنا، وعاجلاً أم آجلاً سنفجّر أنفسنا وننقرض في حربٍ نوويةٍ.

هناك إجابةٌ أخرى، أقل حدّةً وموثوقيةً من حيث

تفسيرها، مما يترك السؤال مفتوحاً على مصراعيه. إذ ابتعد الجنس البشري تماماً عن التسلسل الهرمي القديم، وقد فعلنا ذلك بسبب وجود أدمغة كبيرة لدينا وقدرة على التعلم الثقافي غير الفطري، وهذا يعني اعتماد أطفالنا على غيرهم لفترةٍ طويلةٍ، وبدوره يعني أنّ وجود الأطفال مع آبائهم الداعمين لهم يجعلهم أكثر قدرةً على البقاء، مما يؤدي إلى ضرورة عقد هدنةٍ في الحرب بين الجنسين، وقد حصل ذلك؛ إذ يشكّل الذكور والإناث البشر روابط قوية جداً فيما بينهم، لدرجة احتلال تلك الروابط الأسبقية على سلم التسلسل الهرمي للهيمنة القديمة للجنس الواحد بالنسبة لمعظم الناس. وهكذا، إن المؤسسة الاجتماعية الإنسانية الأساسية هي الأسرة، لا التسلسل المهيمن.

وهذا بلا شكّ أمرٌ ذو أهميةٍ بالغةٍ. إذ تعني المساواة بين الجنسين الملايين من التحالفات بين الرجال والنساء لتربية أطفالهم حتى مرحلة البلوغ، وربما كان هذا هو السبب الرئيس في التزامنا الواضح بالتساوي الاجتماعي. وهذا الأمر ملحوظ أيضاً لدى فصائل الرئيسيات. لقد كسرت الأسرة القاعدة القديمة للهيمنة. وعلى مدى مليون سنة على الأقل، كان الشعور بالتساوي الاجتماعي بين جميع الذكور - وبين البالغين الكبار بغض النظر عن الجنس في بعض المجتمعات - النموذج الافتراضي لمنظومة القيم الإنسانية، غير أنّ ردود فعل الهيمنة لا تزال كامنةً فينا ومدفونةً في مكانٍ ما، ولا يخلو جيلٌ من أفرادٍ طامحين للعب دور الملك، لكن المساواة تنتصر في كلّ مرّةٍ تقريباً؛ إذ تُفضّلها الأغلبية دائماً نظراً لعلاقتها بمستقبلنا، رغم أنّ هذا لم يمنعنا من خوض الحروب مع الجماعات المجاورة بطبيعة الحال.

بالعودة سريعاً إلى الحضارات الأولى، نلاحظ أن المساواة قد اختفت واستُبدِلت بالتسلسلات الهرمية للهيمنة التي كانت سائدة قديماً، لماذا؟ لأنّ تلك القيم القديمة لا تزال في متناول البشر، وقد أصبحت مرغوبةً وظيفياً؛ إذ اقتضت المتطلبات الموضوعية للحياة في مجتمعٍ كبيرٍ لما قبل الحداثة أن يكون هناك حكمٌ استبدادي. وهنا يتبادر إلى أذهاننا سؤالٌ عمّا إذا كنّا محاصرين الآن في نموذجٍ جديدٍ وفتاكٍ. يجيب التاريخ عن هذا السؤال بلا، ولعلّ أقوى حججه هي ظهور أديانٍ جديدةٍ.

عاش معظم الجنس البشري لأجيالٍ عديدةٍ قبل نحو 25 عام في مجتمعات جماعية جديدة، وكانت ذاكرة ماضي المساواة قد مُسحت منذ عهودٍ طويلةٍ، وتشير جميع الأدلة المتوافرة في ما يتعلق بتلك المجتمعات إلى سيادة الطغيان والتسلسل الهرمي والامتيازات في الحياة الطبيعية لبني البشر آنذاك (رغم استمرار معظم العلاقات الاجتماعية الفردية بالعمل بالطريقة القديمة نفسها). وبعد ذلك، بين عامي 600 ق.م و600م، حدث أمرٌ استثنائيٌ في جميع المناطق التي شهدت صعود الحضارات الأولى؛ إذ استمرت الحروب ولم يسد الطغيان.

وبالطريقة نفسها، تقبّل الناس منذ فترةٍ طويلةٍ فكرة الدفاع عن النفس وواجب قتل المعتدي، ولكنهم لم يحبّوا ذلك فعلياً، باستثناء عدد قليل من السيكوباتيين؛ إذ شعرت قبائل مرتفعات غينيا الجديدة بالسعادة عندما طُلب منها التوقف عن الحرب، وينطبق الأمر ذاته على شعوب الحضارة إذا تأكدت أنّ التجربة آمنة. فمنذ بداية التاريخ المسجّل، رافق فخر الملوك بغزواتهم ومذابحهم شعورٌ معاكسٌ بالرثاء

لما تعنيه الحرب من دمارٍ ووحشيةٍ، وهناك تجارب أخرى في مجتمعات الفترات الأولى للحضارة في مصر وكريت ووادي نهر السند والصين، حيث تجنبت تلك المجتمعات العسكرة، وتضاءل عنفها مع ازدياد تطورها (لكونها مجتمعاتٍ هرمية؛ إذ تطلب الأمر إدارتها من قبل شخصٍ ما). وفي النهاية، حلّ البدو مكان جميع الحضارات الأكثر لطفاً، وورثت الدولة العسكرية العالم، وتكيّفت تماماً مع ظروف الممر التاريخي الأوسط. لكن البشر الحضاريين لم يصبحوا وراثياً مجتمع نملٍ محارباً، وهناك بعض الأدلة على ذلك.

ومع ذلك، لطالما أُرغِم البشر المتحضرون في المجتمعات الكبيرة على العيش في تسلسلاتٍ هرميةٍ صارمةٍ من حيث السلطة والامتيازات، وخضعت أولوياتهم لأهواء حكامهم، وأُسست المنظومة بأكملها بتسلسلٍ هرميٍ قائمٍ على اعتلاء المرشح الأكثر توحشاً قمة الهرم. ولا يعني ذلك ضرورة تواجد الميول التوسعية الشديدة في السياسة الخارجية لدى جميع أولئك الحكام، ولكن انطبق على تلك الدول مبدأ التفاحة الفاسدة في الألفية الأولى من الحضارة. فقد دفع ظهور بعض الدول العسكرية والعدوانية جداً الدول الأخرى إلى العسكرة أيضاً، وإذا لم تنتج الدول المتحضرة حكاماً مرشحين لهذا الدور، فسيتولى البدو الرحل ذلك؛ هذا هو النظام الذي ورثناه من ماضينا البعيد، ومن الصعب رؤية منحى تطوري آخر له، نظراً للحقائق المبنية على العدد وطبيعة البدو.

من ناحيةٍ أخرى، ليس هناك ارتباطٌ مباشرٌ وحتميٌ بين طبيعتنا البشرية والمنحى التطوري للحرب في المجتمعات المتحضرة؛ إذ ستؤدي الظروف المختلفة إلى

ترتب اجتماعي مختلف، وأنماط مختلفة من التفكير، وبالتالي إلى نتيجةٍ مخالفةٍ في نهاية الأمر. بالتأكيد، ليس من السهل الخروج من الممرات التي سلكتها الحضارة خلال آلاف السنوات، ولكن لو قُيّض للمرء تصوّر مستقبلٍ افتراضيٍ لا يشكّل فيه البدو تهديداً، وحيث تحررت الشعوب من الاستبداد، عندها فقط، ربما...

حسناً، إنّه حلمٌ جميلٌ، ولكنه أبعد ما يكون عن الأخبار الواردة من القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

«ها هي مدينةٌ قديمةٌ تسقط، لتصل سنون إمبراطوريتها الطويلة إلى خواتيمها. الجثث في كلّ مكان؛ في الشوارع والمنازل وعلى درجات المعابد التي خطت عليها أقدامنا بتبجيل لفترةٍ طويلةٍ. اندفع الإغريق في الداخل (داخل القصر)، وغصّ بهم المدخل بتروسهم المحمولة على ظهورهم. ثُبّتت السلالم في أماكنها على الجدران، وركّز المهاجمون ثقلهم على الدرجات القريبة من عتبة الباب. تابعوا تقدمهم وقد وضعوا دروعهم على أذرعهم اليسرى للحماية، وتمسكوا بالسقف بأيديهم اليمنى، في مواجهتهم جهد الطرواديين اليائسين في الدفاع عن أنفسهم بنزع طوب أسقف المنازل لاستخدامها كقذائف... كانت أصوات النحيب والارتباك والضجيج داخل القصر مثيرةً للرثاء، وردّدت جدران المبنى صرخات النساء الهلعات».

فيرجيل، الإلياذة[131]

إنّ التاريخ التقليدي المسجّل لسقوط طروادة هو في عام 11 ق.م، وهو الوقت الذي شهد تحوّل التاريخ إلى أسطورة. وقد تكون قصة حصان طروادة مثالاً جيداً على آلية الحصار

المتبعة، والتي تم واسطتها اختراق أسوار المدينة في النهاية. كان ا غريق الآخ ون غ ر المتحضرين الذين حاصروا طروادة يفتقرون إلى مثل تلك التكنولوجيا المتقدمة، ولكنهم لم يجدوا صعوبة في استئجار مهندسين عسكريين من أحد البلدان الأكثر تحضراً الواقعة إلى الشرق، فقد أصبح الكث ر من الجنود المحترفين عاطلين عن العمل في آسيا الصغرى إثر س وط ا مبراطورية الحثّية (بسبب هجمةٍ قويةٍ جـ دةٍ من الغزاة البدو)، وقد قام أول ك المرتزقة الحثّ ون ب ناء رج حصارٍ مناسبٍ للمهاجمين – هيكل خش ي بارتفاع عدّة طوا ق، ومحمول على عجلات، وذو سقفٍ يحمي الرجال في الداخل مع مدكٍ معدنيٍ في الداخل – أطلق عليه الآخ ون اسم الحصان الخش ي، مطل ين العنان لمخ لة الأجيال ال ادمة في رسم ال صة وزخرفتها (بدو رج الحصار المصوّر بنحتٍ غائرٍ شبه عصريٍ كحصانٍ عملاقٍ بالفعل).

بالفعل، تم تدمير طروادة بعد حصارٍ طويلٍ – تُظهر الحفريات الأثرية الأدلة على نشوب حرائق هائلةٍ ودمارٍ في المباني الحجرية الضخمة في المدينة، ووجود أكواخٍ تكتظ باللاجئين يها – وكُتِبت ا لياذة بعد مضي أربعة قرون، أما ف رج ل

الآشوريون يهاجمون مدينة دابق. نلاحظ سلالم الصعود إلى يسار المدينة، وبرج الحصار الشبيه بـحصان طروادة هوميروس وهو يدك الجدران الموجودة إلى اليمين، وذبح الأسرى إثر سقوط المدينة ووضعهم على خوازيق (أسفل وأعلى اليسار). حملات تغلات بلاصر الثالث، بوابات بلاوات البرونزية.

فقد كتب روايته الحية عن تدمير طروادة بعد نحو ثمانية قرون، وقد كتبها بأسلوبٍ شخصي لم يُستخدم من قبل أولئك الذين عايشوا الحدث. وما كتبه خيالي بالكامل تقريباً، ولكنه صحيحٌ ويلامس جوهر الكارثة؛ كما لو أنّه كان موجوداً هناك. فقد عاش في عالمٍ واجهت فيه بعض المدن التعيسة مصيرها الدموي كما حصل لكثيرٍ من المدن خلال عمر الإنسان، ولم تكن لديه تلك الحرية لتشويه الأحداث والعواطف بالقدر المتاح لكاتب أوروبي حديث عندما يحرّف حقيقة غارة جوية مثلاً؛ فالكثير من الناس يعرفون ما حصل في طروادة بالضبط.

وهناك مثال آخر، فقد اقتُحمت قرطاجة من قبل القوات الرومانية عام 146 ق.م، بعد حصارٍ دام لثلاث سنوات في

نهاية الحرب الـ رطاجية الثالثة. وقد وصلتنا روايات لشهود عيان عن صمود الـ رطاجيين اليائسين والجائعين داخل المدينة خلال ستة أيام من قتال الشوارع: «كانت البيوت المؤلفة من ستة طوا ق محيطة بالشوارع الثلاثة المتجهة من السوق إلى الـ لعة، وقد استُخدِمت لرشق الرومان منها. لذا، استولى الرومان على المنازل الأولى، ومن أسطحها نصبوا جسوراً من الألواح للع ور إلى الأسطح الأخرى. ومع استعار المعارك على الأسطح ضد المحاربين في الأسفل، علت أصوات الأنين والبكاء والنحيب والعذاب بما يفوق الوصف. قُتل البعض، وقُذف آخرون وهم أحياءٌ من أعلى الأسطح إلى الأرصفة، ومنهم من كانت نِصال الرماح في انتظار وصولهم إلى الأسفل»[132].

ومع ارتفاع أكوام الحطام، وتراكم جثث السكان في الشوارع، وتشك لهم إعاقةً لتقدم المشاة الرومان، تم إرسال قواتٍ إضافيةٍ لسحب الجثث بع داً: «كُلِّف البعض بـ زالة الحطام. جمعوا القتلى ومن كان على قيد الحياة في حفرٍ أرضيةٍ، واستخدموا الفؤوس والقضبان في تقليبهم ودفعهم؛ وكأنّهم كتلٌ هامدةٌ من الخشب أو الحجر. امتلأت الحفر بالبشر، وألـ ي بعضهم رأساً على عقب، وارتفعت أرجلهم فوق الأرض متلوية لبعض الوقت، فيما سـ ط آخرون في الأسفل، وظلت رؤوسهم فوق الأرض لتدوسها حوافر الخ ول المسرعة»[133].

لن يكون هذا المشهد غريباً عن أولـ ك المطلعين على أنشطة فرق الـ وات الخاصة أس أس في روسيا عام 1941، وخاصةً في أماكن مثل با ي يار[134]، إذ يت يّن لنا من خلال مذبحة با ي يار أنّ ما حصل في قرطاجة (كما في طروادة) ليس أقل مما تسبب به هتلر. لـ د قُبض على الناجين قليلي العدد

من القرطاجيين (من أصل سكانها البالغ عددهم حوالي ثلاثمائة ألف نسمة) وبيعوا في سوق النخاسة. أما المدينة المدمرة فقد حلت عليها لعنة الجنرال الروماني المنتصر ورُشت بالملح، وبقيت خاوية لحين تأسيس مستعمرة رومانية بعد أكثر من قرنٍ؛ يترك هذا كلّه انطباعاً عاماً عن جنون العنف والانتقام، لكن هذا هو الانطباع الذي أراده الرومان المنتصرون بالضبط. وفي الواقع، إنّ هذا القدر الكبير من العنف والانتقام محسوبٌ بعنايةٍ، إذ تلزَمُ الوحشيةُ الفعالةُ نوايا مبيّتةً وتحضيراً هادئاً وجاهزيةً ماديةً ومعنويةً.

«يتطلب توزيع خط المعركة مسافةً جانبية لكلّ رجلٍ بحوالي ثلاث أقدام، في حين تكون المسافة بين الصفوف ست أقدام. وهكذا، يمكن أن يتواجد عشرة آلاف رجلٍ في مستطيل بطول حوالي 1500 ياردة وعرض اثنتي عشرة ياردة».

فيجيتيوس في التكتيكات الرومانية[135]

لقد حددتِ المعارك مسار حياة أجدادنا. وهم لم يكونوا أقل ذكاءً منّا، وإذا كانوا قد استمروا بالقتال بتشكيلات الكتف إلى الكتف لآلاف السنوات، فلا بدّ أن لديهم سبباً وجيهاً دفعهم إلى ذلك. لا شكّ في أنّ الجنود معروفون بموقفهم المحافظ من تجربة الأسلحة أو التكتيكات الجديدة لأسبابٍ وجيهةٍ تتمثل في احتمال فشل التجربة، وبالتالي الموت، لكن ساحات المعارك كانت أكثر من أن تعد وتحصى، ولم يكن لدى الكثير من الرجال اليائسين ما يخسرونه في حال التجربة، لذلك جُرِّب كلّ شيء عملياً عاجلاً أم آجلاً. لكن وبشكل عام، لم يكن هناك شيء أفضل من

التنظيمات والتكتيكات المعيارية على نحوٍ ما قبل زمن ا سكندر الأك ر؛ وهذا ينطبق حتى بعد فترةٍ من إدخال الأسلحة النارية في المعارك.

ففي عالمٍ تتفوق فيه قوة السلاح على أي قوةٍ، يصبح الرجال قادرين على فعل ما يشاءون - من نهب وقتل أي شخص يصادفونه، وتدمير المحاصيل، وحرق المنازل - إلا إذا امتلك العدو مجموعةً مماثلةً من الرجال المسلحين. فعندها، لن يكتفوا بالتحصّن خلف متاريسهم (لأنّهم سيتضورون جوعاً حتى الموت) ل سياتلون عندما تسنح لهم أي فرصةٍ للتغلب على أعدائهم.

لا يمكن أن تندلع حربٌ من دون أن تنشب معارك د ي ةٌ ين الطرفين. وبحلول منتصف الألف الأوّل قبل الميلاد، عادت الكتائب للظهور مرّةً أخرى، بعد أن أصبحت تشكيلاتٍ قديمةً مع روز ا مبراطوريات متعددة الجنسيات، والتي يفتقر جنودها المأجورون إلى التماسك والالتزام اللازمين للقتال في كتائب (كما لم تستخدم الكتائب في مواجهة البدو الرحل الغزاة). ومع انتقال مراكز الثروة والسلطة إلى الغرب من الهلال الخصيب إلى المدن الدول التي أخذت بالظهور في اليونان وروما، توافر عدد ك ير من الرجال المحبّين للوطن والمستعدين للدفاع عنه، وهذا أساس تشك ل الكتائب. وبهذا، عادت ظروف الكتائب إلى الوجود للمرّة الأولى منذ العهود ال ديمة لدول المدن السومرية، وظلت الكت بة أفضل وسيلةٍ لنشر المشاة في المعركة في مواجهة قواتِ دولةٍ متحضرةٍ أخرى. وهو ما يعني القتال والصمود حتى الرمق الأخ ر.

لطالما كانت المعركة - وعلى مرّ التاريخ تقريباً - حدثاً

ذا نمط معيّن وتحركاتٍ خاصةٍ، تماماً كما هو الحال في الباليه الكلاسيكي، وربما للأسباب نفسها إلى حدٍ ك يرٍ: الـ درات الكامنة الموروثة، ومحدودية قدرات جسم ا نسان. كما ستكون الاحتمالات محدودة جداً عند القتال ـيـن مجموعتين ك يرتين من الرجال المسلحين بأسلحةٍ دويةٍ أو قـذائف بمدى يصل لحوالي بضع مئات من الياردات، وستكون الأولوية الـ صوى للجان ين في الحفاظ على انضباط رجالهم وعلى النظام. فلا شكّ في أن بضع مئاتٍ من الرجال المسلحين والمتناغمين مع بعضهم بعضاً والمتحركين بالاتجاه والهدف المشترك نفسيهما سيكونون أقوى من عشرة أضعاف عددهم من الغوغائيين. وكمثال عن هذا التناغم، هناك معركة مانتينيا عام 418 ق.م: «تقدّم ا سبارطيون بطءٍ على أنغام الناي التي عزفها العدد من الرجال الموجودين ـيـن صفوفهم. ولا علاقة لهذا بالدين؛ فقد كانت الغاية من ذلك أن يحافظ الرجال على الخطوات نفسها، ويمضوا قدماً بثبات ومن دون حصول اختلال في صفوفهم؛ كما تفعل الجـ وش الك يرة في معظم الأحيان عندما تكون على وشك خوض المعركة»[136]. وفي الد يقة، تُعت ر التدريبات العسكرية الرئيسة من ـيـن أكثر العناصر انتشاراً وثباتاً في الحضارة ا نسانية، فقد تقدّمت الجـ وش المصرية خلال عهد الأسرة الثانية عشرة عام 1900 ق.م بالـ دم اليسرى، وهو ما فعلته جميع الجـ وش وصولاً إلى ومنا هذا.

تتحدث الجـ وش الحديثة عن كسب الأرض وخسارتها؛ وهو الأساس بالنسبة لها. لكن الأمر مختلفٌ بالنسبة لجـ وش الأزمان الـ ديمة، إذ كانت الأرض مجرد مسرح لحركة التشكيلات، وكانت التشكيلات نفسها هي الأساس المهم،

ولا تكون المسائل المتعلقة بالأرض مهمةً إلا إذا تضمنت عقبات تع ق تقدم صفوف الـ وات المدرّبة بعنايةٍ، والمؤلفة من آلاف الجنود.

تزول قوة التشك ل إذا فُتحت ثغرات في صفوفه؛ فالجيش ي اتل ويواجه على الجبهة فقط، وستحل الكارثة به إذا تمكن العدو من شن هجوم عليه من الجانب أو الخلف، وستخرج الأمور عن السيطرة إذا تسببت التضاريس (أو الذعر) بتجمع رجال التشك ل معاً بشكلٍ متلاصق، فلا تتاح لهم المساحة اللازمة للاندفاع والتحرّك واستخدام أسلحتهم. ولذلك، يُخصَّص وقت ك ير من التدريبات المكثّفة للحفاظ على المسافة الفاصلة ي ن الجنود والبالغة ثلاث أقدام مهما كلف الأمر. وعندما يكون الجنود مدربين تدريباً ج داً يصبحون بمثابة آلة ق تلٍ فتاكةٍ.

ضمّت الكت بة اليونانية في الـ رن الخامس قبل الميلاد الآلاف من المشاة المدججين بالسلاح، والمنظمين في صفوفٍ مكتظةٍ محميةٍ من الأمام واقياتٍ ك يرةٍ ودروعٍ رونزيةٍ تحمي مـ دمة السي ان، مع توجيههم رؤوس رماحهم أمام الدروع. لـ د استغرق الأمر الكث ر من الوقت والجهد لتشك ل تلك المجموعات الضخمة في ساحة المعركة لمواجهة العدو، (وسيكون من الأفضل مهاجمة جناح العدو أو الجزء الخلفي من جيشه. لكن ذلك لن يحدث أ داً بسبب صعوبة التحرّك والمناورة بمجموعات ك يرة من الرجال)، ولا يمكن عادةً الالتحام في المعركة من دون تعاون قائد كت بة العدو؛ إذ رغب كلا الجان ين بتحـ يق نتائج سريعة وحاسمة. فقد كان جنود المشاة ا غري يون مواطنين يمتلكون عقارات (ويدفعون ثمن أسلحتهم ودروعهم)، وكان

ثمانون بالم ة منهم من المزارعين الذين ستتضرر محاصيلهم إذا تقهقر جيشهم، أو ستتعرّض للتعفن في الح ول من دون حصاد إذا أهدر الجيشان الكث ر من الوقت في المناورة، ولذلك أرادوا قراراً، وغالباً ما حصلوا عليه؛ رغم أنّ توريط الكت بة في المعركة سيكون ال رار الأخ ر الذي سيلجأ إليه ال ائد في ساحة المعركة.

وهناك أيضاً تكتيكات مرتبطة بالكت بة ويجب اتخاذ قرار حولها: فهل من الأفضل أن تتشكّل الكت بة في العمق لاختراق العدو (استخدم الطِبيون التشك ل بعمق خمسين رجلاً على الجهة اليسرى في لوكترا عام 371 ق.م)، أو جعلها أقل عم اً وإنما أطول حيث تتجاوز نهايات كت بة العدو وتلتف عليها؟ وهذا التكتيك الأخ ر لم يثبت فعاليته؛ إذ تميل الكتائب عند الهجوم إلى الانحراف إلى اليمين، ويحمل كلّ جندي من الكت بة درعه باليد اليسرى، ويحمي الجانب الأيمن

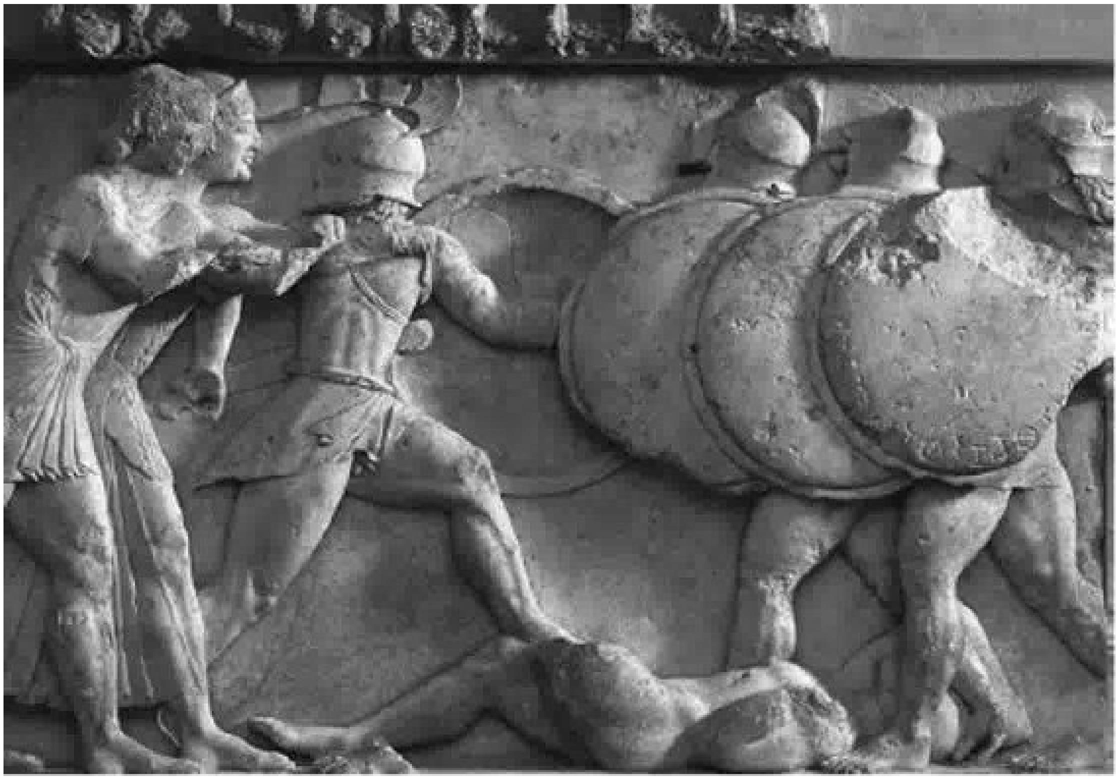

لماذا تنحرف الكتائب إلى اليمين؟ يتترس كلّ رجلٍ خلف درع صاحبه، وتمثّل الأشكال إلى اليسار خط مناوشة المشاة الخفيفة (وقد اختفت الأقواس البرونزية). يصور الجانب الشمالي من الإفريز معركة الآلهة والعمالقة في مبنى الخزينة السفنوسية في دلفي.

المكشوف منه درع زميله الموجود إلى اليمين. وهكذا، تضيع مئات الساعات من التدريب، ويتداخل الخطان المتقابلان بعضهما بعضاً إلى اليمين عند الاصطدام. وعند هذا الحد المفصلي يخرج الأمر من أ دي الـ ادة كلياً.

يحارب الرجال بعضهم بعضاً في الصفوف الأمامية لبعض الوقت، قبل أن ُقتلوا ويُستدلوا رجال آخرين من الخلف. وعندما يعتقد أو رى أحد الأطراف تفوقه على العدو، توحّد جميع الصفوف جهودها، وترصّ نفسها بـ وة في هجومٍ عملاقٍ لكسر خط العدو. وإذا نجح الجنود في ذلك تكون لهم اليد العليا، وينهار العدو بشكلٍ كاملٍ، ويبدأ رجاله بالفرار، وتـ دأ المجزرة. وقد يفقد الطرف المهزوم

نصف قوته أو أكثر إذا اندفع المنتصر بأقصى قوته، ولكن تخف وت رة المطاردة عادةً بعد مضي فترةٍ قصيرةٍ (لم يكن مشاة ا غريق المدرعون بارعين في المطاردة لمسافاتٍ طويلةٍ)، وغالباً ما تصل نسبة القتلى في الجانب الخاسر إلى حوالي 15 بالم ة من قوتهم ا جمالية.

«أضعفت الد وات الأثينية منطقة المركز عندها في سبيل مدّ الخط بما يكفي لتغطية الجبهة الفارسية المهاجمة بكاملها: كان الجناحان قويين، على حساب منطقة الوسط التي ضمت عدداً قليلاً من الصفوف. أُعطيت الأوامر للتحرك، فتحرّك الأثينيون بسرعةٍ باتجاه العدو الذي لم يكن بعد أكثر من ميل... وكان الأثينيون قد حـ وا تقدماً على أحد الأجنحة، والبلاتايانيون على الجناح الآخر. ولكن سرعان ما حوّل ا غريق تركيزهم إلى الفرس الذين خرقوا وسطهم، ونجحوا في التغلب عليهم، وطاردوا العدو، وقطعوا الطريق عليه إلى البحر. دعا الرجال إلى إشعال النار والاستيلاء على السفن الفارسية... قُطعت د سيناياج روس (شقيق الكاتب المسرحي اسخ لوس) بفأسٍ عندما حاول ا مساك بمؤخر سفينة، وفقد حياته... استولى الأثينيون على سبع سفنٍ بهذه الطريقة، ونجحت الأخرى في الهرب...».

المؤرخ الإغريقي ثوسيديدس، تاريخ الحروب البيلوبونيسية [137]

كانت صيغة النجاح هي: «المز د من المشاة ا غريق الثقيلة، أو مشاة أفضل من حيث النوعية، أو مشاة أكثر وأفضل»[138]، وبدت المعارك بتدافعها الدموي الأخرق أشبه بصورةٍ كاريكاتوريةٍ عملاقةٍ للعبة كرة قدم أمريكية، أو تشابك الكتف للكتف في رياضة الرك ي؛

وهي معارك تدوم بضع ساعاتٍ على قطعةٍ مستطيلةٍ من الأرض بمساحة مـ ة فدان، لكنّها قد تتحكم بمصير شعوبٍ بأكملها!

ضمّت المعركة ا غريـ ية النموذجية أيضاً قوة مشاة ذات تسليح خفيف. وكان أولـ ك المشاة هم الرجال الذين لا يستطيعون تحمّل نفقات شراء أسلحة المشاة والدروع ا غريـ ية، والذين يسبـ ون التشكيلات الرئيسة في خطوط مناوشة وهجوم على الطرف الآخر بسلاح المقذوفات. ويشكّل هؤلاء قوةً نادراً ما حسمت المعركة، ويستخف ثوسيديديس دورهم قائلاً: «يشتبك راشقو الحجارة ورماة الأقواس أولاً من كلا الطرفين أمام الخطوط الرئيسة للمعركة، وتتناوب الغلبة ينهما كما هي عادة هذه الـ وات ذات التسليح الخفيف». ويمكنهم أن يكونوا مصدر إزعاجٍ ك يراً لكت بةٍ من المشاة الثقيلة، والتي يصعب عليها التعامل معهم حتى من خلال الهجوم عليهم، ويعلّق المؤرخ ا غريـ ي زينوفون باستياءٍ حول هذا الموضوع بـ وله: «لا يستطيع جندي المشاة - مهما لغت سرعته - مجاراة آخر يحمل قوساً ضده». ولكنهم لن يأملوا أن يتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالكت بة إلا إذا خارت قواها وانهارت صفوفها.

وكان هناك أيضاً سلاح الفرسان (حيث حلّ الفرسان مكان العربات في ساحة المعركة في كلّ مكان، باستثناء الـ ليل من الأماكن المحافظة عسكرياً مثل بلاد فارس أو المناطق الخلفية مثل ريطانيا السلتية)، ويستطيع الفرسان التحرّك بسرعةٍ باتجاه خاصرة الكت بة أو مؤخرها والتسبب بخللٍ ك يرٍ فيها؛ وذلك رمي الرماح وإطلاق السهام، هذا إذا لم يتم اعتراضهم من فرسان الخصم. كما يمكنهم

مهاجمة المشاة إذا باغتوهم، ولكنهم لن يحاولوا مهاجمة المشاة المدربين تدريباً ج داً، والمستعدين لاستقبالهم. ورغم أنّ فكرة انقضاض مجموعةٍ من الفرسان على المشاة ت دو فكرةً لا يمكن م اومتها، إلا أنّ وجهة نظر الخ ول مغا رة لتفك ر من يمتطيها؛ فهي ستقف أو ستستد ر عندما تصبح وجهاً لوجه مع سنان الرماح، وهذا ما يعلمه المشاة ج داً، ولذلك يحافظون على تشك لهم ورماحهم مُشرَّعة في مواجهتها، ليظلوا بأمانٍ نسبيٍ من تلك الهجمات. وبذلك، تكون الأهداف الرئيسة لسلاح الفرسان هي الاستكشاف والمناوشات، وقبل كلّ شيءٍ الهجوم وقتل الفارين من الطرف المهزوم.

سيطرت فرق المشاة الثقيلة على ميادين القتال في كلّ مكان خلال العصر الكلاسيكي (والذي امتد من حوالي 550 ق.م إلى 350م) وضمن حدودٍ واسعةٍ. حتى إنّ أعدادهم كانت أقل أهميةً من الانضباط والروح المعنوية. وعندما حارب ا سكندر الأك ر جيش دارا الفارسي في إسوس عام 333 ق.م، كان عد د جنوده أربعين ألف رجل (بمن فيهم المشاة الخفيفة والفرسان) في مواجهة م ة ألف رجلٍ. انتشر جيش ا سكندر بكامله على مسافةٍ تقدّر بأقل من ميلٍ واحدٍ، في حين امتدت جبهة الجيش الفارسي لميلين. وما إن اندلعت المواجهة حتى هاجم المشاة ا غريق المخضرمون مركز الجيش الفارسي مباشرة. ويمكن إدراك ما يعنيه هذا بالاستعانة بالفيزياء: كتلة منضبطة، ولتكن مؤلفة من حوالي ثلاثين ألف رجلٍ مدججين بالسلاح والدروع في تشك لٍ متراصٍ، حيث تضرب الخط الفارسي ب وةٍ تعادل ألفين وخمسم ة طن، وبسرعة ستة أو سبعة أميالٍ في الساعة، لتتريث لمدة ثوانٍ ثم تهاجم. كان حملة الرماح

يقفون في المقدمة؛ ربما لم ينجُ الكثير من رجال الصفين الأوّل والثاني من كتيبة الاسكندر من هذه الصدمة (ولهذا وجد المحاربون القدامى أنفسهم أبعد إلى الخلف في عمق الكتيبة)، غير أنّ الزخم الهائل للقوة المهاجمة اخترق مركز جيش دارا في غضون بضع دقائق، والتفّ جنود الفرس من الطرفين حول جنود الاسكندر من الجناحين ومؤخر الجيش، لكنهم كانوا قد فقدوا تماسكهم، وبالتالي تعرّضوا للإبادة من قوات الاسكندر. وربما قُتل نصف الجيش الفارسي خلال ساعتين فحسب.

وبمرور الزمن، طورت مختلف القيادات العسكرية هذه الصيغة الأساسية للنجاح العسكري بجعلها أكثر مرونة، وكان الرومان الأفضل في ذلك، وبواسطتها استطاعوا خلال قرنين من الحرب المستمرة إخضاع دول المدن كافة في إيطاليا، والتغلب على أكبر قوة موجودة في ذاك الوقت؛ ونعني بذلك قرطاجة. وقد تم لهم ذلك بتطوير نسخة أكثر تقدماً من الكتيبة؛ إذ أفسحت الكتلةَ التي تفتقر إلى العملية والتي سميناها الكتيبة الطريقَ لتشكيلٍ قتاليٍ أكثرِ انفتاحاً وهو الفيلق؛ حيث قُسِّمت القوات إلى كتائب مصغّرة (مجموعات من الجنود) تتألف كلّ منها من 150 رجلاً في ثلاثة صفوف، ورُتِّبت هذه المجموعات بطريقة لوحة الشطرنج في ثلاثة خطوطٍ متداخلةٍ، وهو ما أعطاه مقدرةً كبيرةً على المناورة، وخاصةً في الأراضي الوعرة.

وفي معركة زاما عام 202 ق.م خلال الحرب البونية الثانية (أو الحرب الحنبعلية)، حاول القرطاجيون دحر فيالق الروم بواسطة هجومٍ بالفيلة الضخمة. وبواسطة التشكيلة القتالية الفعّالة لديه، استطاع سكيبيو الإفريقي نقل

مجموعات جنوده من الوسط إلى الجناحين، وفتح ممراتٍ مستقيمةٍ عبر الخطوط الثلاثة في كامل تشكيله، حيث عبرتها فيلة هانيبال من دون أن تُسبِبَ أية أذية.

كما تغيّرت أيضاً الأسلحة المستخدمة في الفيالق الرومانية؛ فقد استُبدِل الرمح الطويل رمحين أقصر يمكن قذفهما، أحدهما أخف وزناً وأطول مدى من الآخر، ليلقيهما جنود الفيلق بالتتابع خلال تقدّمهم، بالإضافة إلى سيفٍ قصيرٍ للقتال القريب عند الاتصال الجسدي المباشر مع العدو. لكن، لماذا استخدموا سيفاً قصيراً؟ الجواب هو أنه استُخدم لإجبار الجندي الروماني على الاقتراب الجسدي من عدوه وقتله بشكلٍ شخصي للغاية؛ مما يجعل الرعب يدبّ في قلوبِ جنود العدو. وبرزت هنا (الطريقة الغربية في الحرب) مرّةً أخرى، وقد تضمنت الكثير مما يخص علم نفس المجتمعات العسكرية التي اختارت هذا النهج القتالي، والتي هدفت بدورها إلى التأثير النفسي على العدو.

وبحلول العصور الرومانية الأكثر حداثة، لم تعد المعارك مباريات تدافع، بل أصبحت ملعباً تُستخدم فيه جميع أنواع الحيل التكتيكية التي ازدهرت في ذلك الوقت. غير أنّ منطق ساحة المعركة الأساسي لم يتغيّر، وبقي عبارةً عن مجموعاتٍ كبيرةٍ من الرجال المسلحين ضمن تشكيلاتٍ منضبطةٍ للغاية، ومجهزة بسلاحٍ فرديٍ حادٍ يعمل بقوة الجنود العضلية، وثمة بدائل محدودة للغاية للقتال الفعّال؛ تحكمت قوات المشاة بساحات القتال في القرن الثالث الميلادي، تماماً كما كان الحال في ساحات القتال في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

تتغلب السلحفاة

على الأرنب في كلّ مرّةٍ، (السلحفاة) هنا هي الجيشُ الروماني التقليدي الذي درّب جنوده على حمل دروعهم على ظهورهم لدرء وابل المقذوفات المتساقطة من الأعلى عند اقترابهم من أسوار المدينة المحاصرة، وهو الأسلوب الروماني النموذجي في الحرب. من عمود ماركوس أوريليوس.

«على الفور، اصطدمت السفينة بمقدمتها البرونزية بسفينةٍ أخرى، وبدأ الإغريق بمهاجمة خلفيات السفن وتحطيمها، وقد قاد كلّ قائد سفينته ضد الآخر. قاومت القوة الفارسية في البداية، ولكنها فقدت القدرة على مساعدة بعضها بعضاً عندما ازدحم المضيق بالسفن. ضربوا بعضهم بالنصال البرونزية، وحطموا جميع المجاذيف، وبدورها

قاومت السفن ا غريية بتطويق سفن الخصم بشدّة وضربها، فانقلبت السفن رأساً على عقب، وغطت السفن المحطمة وجثث القتلى سطح البحر».

المبعوث الفارسي[139]

تعتمد الدوات البحرية على التقنية أكثر من الجوش، فالسفينة نوع من الآلات، حتى لو كانت سفينة شراعيةً تعمل بالمجاذيف وعضلات البحارة؛ إذ بى البحر يئة غريبةً على ا نسان، ومن غ ر الممكن بالنسبة له البقاء على قيد الحياة هناك من دون تقانة تخوّله بذلك، ولم تكن هناك حاجة لعمل عددٍ ك يرٍ من الناس في تلك البيئة حتى أرست الحضارة جذورها بشكلٍ صحيح.

أما الجوش فلطالما كانت جزءاً من الحضارة منذ البداية، ونمت مباشرةً من المجموعات التي تعود لمجتمعات ما قبل التحضّر، وأصبحت الدوات البحرية ممكنة الوجود وضروريةً في وقتٍ لاحقٍ من مسار هذه العملية؛ إذ استخدم بشر ما قبل التحضّر قوارب صغ رة للصيد وع ور المجاري المائية الضيقة، وجاء الاستخدام واسع النطاق للبحر في التجارة مع ظهور الحضارات التي تداولت بمجموعةٍ متنوعةٍ وكمياتٍ ك يرةٍ من السلع مثل الحبوب والنبيذ والمعادن والخشب، وما إن أصبح هذا النوع من التجارة مرغوباً حتى أصبح معظم تلك السلع يُنقل عن طريق البحر، فالسفن هي أكثر الوسائل اقتصادية لنقل كمياتٍ ك يرةٍ من البضائع لمسافاتٍ طويلةٍ حتى ومنا هذا، ولطالما كان تقريباً الوسيلة الوحيدة حتى اختراع السكك الحديدية منذ أقل من قرنين.

كان الهجوم على التجارة البحرية للدول التي تستمد جزءاً كبيراً من ثرواتها من تلك التجارة أسلوباً واضحاً (ومربحاً للغاية) في الحرب، ولا شكّ في أنّ أول سفينةٍ حربيةٍ متخصصةٍ قد بُنيت لهذا الغرض، كما كان نقل الجيوش بكاملها واسطة السفن خياراً عسكرياً جذاباً، وخاصةً في منطقة البحر المتوسط، حيث يشكّل البحر الطريق الأسرع بين أي نقطتين. ومن هذا المنظور، سرعان ما تحولت الحرب البحرية في البحر المتوسط إلى حربٍ تشارك فيها مجموعة أساطيل كبيرة من السفن الحربية، والتي تهدف إلى تدمير القوة البحرية للجانب الآخر، من دون استثناء السفن التجارية الخاصة بالعدو، وساهمت أولوية التقانة في الحروب البحرية في تطور السفن الحربية بسرعةٍ وتحوّلها بمعايير ذلك الزمن إلى تصميم نموذجي استمر لعدّة آلافٍ من السنوات.

شهدت البحار الداخلية كالمتوسط تجارةً بحريةً على نطاقٍ واسعٍ منذ ما يزيد عن أربعة آلاف عام، وبدأت تلك التجارة بالتوسع نحو الخارج باتجاه سواحل المحيط الأطلسي الأوروبية من جهة الغرب، وبحر العرب وصولاً إلى الهند من جهة الشرق. ولثلاثة آلاف وخمسمئة عام لاحقة، استخدمت السفن التجارية مزيجاً من الأشرعة والمجاذيف، أما السفن الحربية فاعتمدت على القوة العضلية لتحريكها بسرعةٍ في أي اتجاهٍ بغض النظر عن جهة الرياح. واحتاج الأمر أحياناً إلى عدّة مئاتٍ من المجذفين لتحريك السفن البحرية في الماء بسرعة عاليةٍ، وهذا ما تطلب انضباطاً وتنسيقاً كبيرين بقدر ما تطلبته الكتيبة العسكرية، سواء أكان الطاقم من الأحرار أم من العبيد.

احتاجت الحرب البحرية واسعة النطاق أيضاً إلى

تقنيات تنظيمٍ وإنتاجٍ تماماً كتقنيات المجتمعات الصناعية، وعندما واجهت بلاد ا غريق الغزو الفارسي الك ير في داية ال رن الخامس قبل الميلاد، تطلب الأمر منها عدّة أحواض لبناء السفن الأثينية وفق أساليب ا نتاج الصناعي، وهو ما ساهم في إنتاج ما ين ست وثماني سفن ثلاثية المجاذيف (سفن شراعية تتضمن ثلاثة صفوف من المجاذيف) كلّ شهر، ولمدة تز د عن العامين، وبذلك بُنيت نحو 250 سفينة بحلول عام 480 ق.م، وتطلب هذا أكثر من أربعين ألف رجلٍ لتشغ لها، ما حدا بجميع ال وى العسكرية العاملة في أثينا للالتحاق بالأسطول، وتركت مهمة توف ر قوات رية للدفاع عن شبه الجزرة اليونانية لغ رها من دول المدينة، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية فعاليتها عندما دمَّر الأسطول ا غري ي – والذي كان في غالبيته من الأثيني ين – الأسطول الفارسي في سلاميس وأج ر ا مبراطور ز ركس على التقهقر بع داً عن اليونان.

«الآن، وبالنسبة للمعركة، لن أشترك في القتال في الخليج إن أمكنني، ولن أبحر إليه، فأنا مدركٌ تماماً عدم وجود متسعٍ بحريٍ كافٍ؛ وهو وضع غ ر مؤاتٍ لأسطولٍ صغ رٍ وخ يرٍ وسريعٍ (مثل أسطولنا)، وخاصة أنّنا سنقاتل ضد الكث ر من السفن التي لا تتمتع ب درةٍ ج دةٍ على المناورة. إذ لا يستطيع المرء ا بحار بما يد ق هجوماً صادماً من دون أن تتوفر لديه رؤيةٌ ج دةٌ للعدو أمامه، وحيث لا إمكانية للتراجع في اللحظة المناسبة إن لزم الأمر ذلك، ومن المستحيل ا بحار ع ر خط العدو ثم العودة إليه ومهاجمته؛ وهوٍ الأسلوب الصحيح للأسطول البحري الذي يمتلك ملاحةً متفوقة، وقد يُج ر هذا الوضع المرء على خوض معركةٍ

بحريةٍ كما لو كانت معركة ريةً، وهنا سيكون النصر حليف من يملك عدداً أك ر من السفن؛ هذا كلّه دفعني للاحتراس بـ در ما أستطيع».

من دراسة فورميو للأسطول الأثيني قبل معركة نافباكتوس 429 ق.م[140]

كانت الحرب البحرية في العصور الـ ديمة والوسطى مسألةً بسيطةً. وفي كث رٍ من الأحيان، لم تبتعد عن كونها نسخةً مائيةً عن المعركة البرية، حيث تتموضع الـ وتان البحريتان في سفنهما مـ ا ل بعضهما بعضاً، وغالباً ما لـ غ عدد السفن عدّة مئاتٍ منها، حيث تصطف لمواجهة بعضها بعضاً مـ ا ل الساحل (تقترب السفن من السواحل ما أمكنها ذلك، ولم تكن مثل تلك السفن صالحةً للملاحة، ولم يتمتع قادتها بالـ درة على ا بحار بها بع داً عن السواحل) لتهاجم بعضها بعضاً.

سعت السفن إلى مواجهة بعضها مباشرةً من الأمام بأسلحتها ودروعها البرونزية، أو على الأقل، بالاتجاه بالمجاذيف نحو أحد جوانب سفينة العدو (وسحق معظم المجذفين على هذا الجانب) ومن ثم العودة إلى الخلف ومهاجمة العدو المترنح في مؤخر السفينة، وكث راً ما انتهى الأمر بالسفينتين بالالتصاق بعضهما بعضاً، وعندها يتقاتل الجنود وجهاً لوجه على سطح السفينتين؛ كما هو الحال في المعركة التي جرت في ميناء سيراكوز عام 41 ق.م، حيث خاضت حوالي مـ تي سفينة الحرب مع بعضها بعضاً في قعةٍ ض قةٍ جداً:

«ازدحمت قعة صغ رة بالسفن، وبالتالي لم تستطع السفن شن هجماتٍ على بعضها بعضاً... وعندما تتلاقى

السفن، يخوض الجنود المعارك وجهاً لوجه، فيحاول كلّ منهم نقل المعركة إلى سفينة العدو. وبسبب ضيق المساحة، سرعان ما تجد ثلاث سفن، وربما أكثر، نفسها متداخلةً مع بعضها بعضاً، ويضطر من يدير دفة السفينة إلى الدفاع عنها من جهةٍ والهجوم من الجهة الأخرى... ولم يكن الضجيج الهائل الصادر عن تلك المعارك بين السفن المتقاتلة مخيفاً فحسب، بل انعدمت معه القدرة على سماع أوامر قادة السفن».

ثوسيديدس [141]

دارت أعظم المعارك البحرية في العصر الكلاسيكي بين روما وقرطاجة؛ رغم أنّ روما كانت قوةً بريةً في بداية الحروب البونية عام 264 ق.م، وكان لقرطاجة حلفاء وممتلكات في إسبانيا وسردينيا وصقلية وجنوب إيطاليا، وكان ميناء قرطاجة البحري (بالقرب من مدينة تونس حالياً) صنعياً بالكامل، وتصل السفن إليه من خلال الميناء التجاري المحمي بسلسلةٍ متعاقبةٍ من السلاسل الحديدية الثقيلة الموجودة في مدخله. وفي مدخل الميناء هناك مساحةٌ دائريةٌ بقطرٍ يزيد عن ألف ياردة مع جزيرةٍ صغيرةٍ في الوسط، وضمّ الميناء مراسي لمئتي سفينة في وقتٍ واحدٍ، واعتمدت السفينة القرطاجية النموذجية على أكثر من مجذّفٍ لكلّ مجذاف، ووصل عدد طاقمها إلى 270 مجذّفاً و30 ضابطاً و120 من مشاة البحرية المقاتلين. أما أحواض بناء السفن القرطاجية فقد استطاعت إنتاج ما لا يقل عن ستين سفينة شهرياً.

تعلّم الرومان كيفية بناء سلاح البحرية وخوض معارك البحر أيضاً، وذلك في أجيال الحرب التي هزّت غرب

البحر الأ يض المتوسط والممتدة ين عامي 264 إلى 146 ق.م، وذلك قبل أن يحقق الرومان النصر النهائي على القرطاج ين. وفي تلك المرحلة، كان معدل إنتاج السفن رائعاً، إذ لم يمضِ وقتٌ قصيرٌ بعد اندلاع الحرب حتى أدرك الرومان حاجتهم إلى سلاح البحرية، فتبنوا التصميم القرطاجي، وأنتجوا أسطولاً مؤلفاً من مئةٍ وعشرين سفينةً خماسيةً (خمسة صفوف من المجذّفين) في

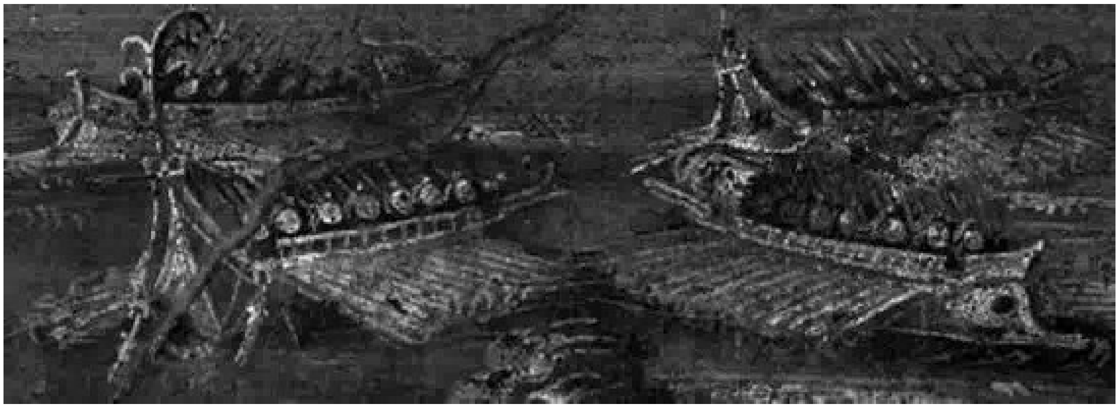

بقي هذا النموذج لما يقارب ألفي عام: لم تختلف السفن الحربية الرومانية كثيراً عن تلك الأثينية الموجودة قبل 500 عام، أو السفن الفينيسية بعد 1500 عام. لوحة جصية (فريسكو) من إحدى الغرف في قصر فيتي، بومبي، إيطاليا.

أقل من شهرين. وفي المعارك البحرية التالية، وبسبب العواصف الطبيعية التي واجهت أساطيل السفن الضعيفة في مياه البحر الشاسع، كانت الخسائر في الأرواح فادحةً بكلّ معنى الكلمة.

ففي عام 256 ق.م، وفي اكنوموس قبالة سواحل شمالٍ أفريقيا، واجه الأسطول الروماني المؤلف من 330 سفينة الأسطول القرطاجي المساوي له بالحجم، وأغرق منه ثلاثين سفينة، وأسر أربعاً وستين، وفقد القرطاجيون ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف رجلٍ، وفي رحلة عودة الأسطول

الروماني إلى إيطاليا، واجهته عاصفة هوجاء قبالة الساحل الغربي لصقلية، مما أدى إلى غرق 270 سفينة ودفع الكث ر منها باتجاه الشاط ، ومما سبّب غرق أكثر من خمسين ألف رجلٍ. ولم تحدث خسارة مماثلة في الحروب البحرية منذ ذلك الحين.

هناك ملاحظتان حول طبيعة الحرب البحرية ونطاقها منذ ألفي عام، وقد تكررت إحداهما كث راً لوضوحها، وهي تتعلق بنموذج (الحالة المستقرة) للحرب خلال الممر الأوسط. فبعد ألفٍ وثمانم ة عام من اكنوموس، قاتلت ال وات البحرية المتحالفة في أوروبا الغربية ال وات البحرية العثمانية في ليبانتو عام 1571، وامتلك كل طرفٍ أكثر من م تي سفينة حربية بُنيت بتصاميم لا تختلف كث راً عن التصاميم التي اعتمدتها قرطاجة ال ديمة، وبأساليب القتال نفسها أيضاً: هاجم إن استطعت، وانسحب في الوقت المناسب، كما غرق ما ي ارب ثلاثين ألف رجلٍ بعد ظهر أحد أيام تلك المعركة. أما الملاحظة الأخرى فهي اقتراب الصراع ين روما وقرطاجة من مفهوم الحرب الشاملة ين الطرفين بالنسبة للحضارة الكلاسيكية.

«يجب أن تُدمَّر قرطاجة!».

كاتو الأكبر (Cato the Elder)

كان البحر المتوسط ك يراً وكافياً ل رطاجة وروما، كما هو ك ير اليوم وكافٍ لتونس وإيطاليا، ولم تكن هناك كراهية تاريخية أو عرقية متجذرة ين الشع ين قبل دء الحرب البونية (وهو ما حصل في النهاية بعد أكثر من قرنٍ)، وكان السبب الرئيس والوحيد للحروب هو قلق ال وتين ا مبراطوريتَين الصاعدتين من وجود منافسٍ قويٍ يُشكّل

تهدداً خطيراً. وهكذا، أصبحت احتمالات قيام الحرب سبباً للحرب، وما إن بدأت حتى تصاعد النزاع سريعاً ليتحوّل إلى حرب إبادة؛ إذ لم تكن لدى الطرفين أي نيةٍ بالتراجع.

تمتعت الحضارات الكلاسيكية في القرن الثاني قبل الميلاد بميزات التنظيم وانتاج الموجودة في أوروبا القرن السادس عشر الميلادي نفسها. كان بإمكان المجتمع إرسال أكثر من مئة ألف رجلٍ في البحر، لتكون هناك منافسة قوية في الاستيلاء على حصصٍ أكبر من السلطة كما هو الحال اليوم. ويبدو أن عالم البحر الأبيض المتوسط الكلاسيكي، ومن جوانبه كافة، قد تمتع بمزايا الحضارة ومهماتها وصفقاتها كما هو العالم في القرن السادس عشر.

لم تبنِ روما وقرطاجة الأساطيل البحرية الضخمة لتهاجما بعضهما فحسب، بل احتفظتا بعدّة جيوشٍ على ثلاث أو أربع جبهاتٍ في آنٍ واحدٍ، وانتشرت تلك الجيوش في جميع أنحاء غرب المتوسط، ولذلك كان استنزاف القوى البشرية ضخماً. ففي ذروة الحرب البونية الثانية عام 213 ق.م كان 29 بالمئة من مواطني روما الذكور مجندين[142]؛ وهو المستوى الذي نادراً ما تم تخطيه حتى في الحروب الكبرى في القرن الماضي. وبالرغم من انتصار روما في النهاية، إلا أنّها خسرت حوالي 10 بالمئة من مجموع سكانها الذكور في المعارك خلال العقدين الأخيرين من الحرب[143]. أما خسائر القرطاجيين فقد كانت فاجعة. ففي نهاية الحرب البونية الثالثة عام 146 ق.م، لم تنتهِ إمبراطوريتهم فحسب بل دُمرت قرطاجة نفسها، وبيع من بقي من القرطاجيين كعبيد، وفُنيت لغتهم. ولو ألقيت قنبلةٌ نووية على قرطاجة لانتهت معاناة سكانها بسرعةٍ أكبر، ولكانت النتيجة

نفسها.

إنّ الحرب البونية مثالٌ صارخٌ - أقله، هي أفضل حالة موثّقة - عن الحرب الشاملة بين الدول المتحضّرة قبل العصر الحديث. وإذا استعرضنا العناصر الثلاثة المؤدية إلى نموذج الحرب الشاملة اليوم فسنجدها: القدرة على تعبئة كامل السكان لخوض الحرب، وتوفّر الموارد التي تتيح إمكانية هذه التعبئة، بالإضافة إلى تكنولوجيا الدمار الشامل؛ وهذه الأخيرة لم تكن متوفرة في الحروب البونية، وهو ما يعني أنّ الأمر استغرق وقتاً أطول فحسب لتدمير قرطاجة بالمقارنة مع التدمير الشامل الذي يمكن أن يحصل اليوم بشكلٍ أسرع (وبطبيعة الحال، أصاب الدمار الشامل طرفاً واحداً فقط).

ورغم أنّ المثال السابق مناسب تماماً لاستعراض تصاعد الحروب إلى حدّها العنفي الأقصى الذي تسمح به الموارد المتاحة - بغض النظر عن السبب الأصلي لها - إلا أنّه لا يمكن مقارنة الحروب البونية مع حروب القرن المنصرم من حيث نطاقها.

كانت روما حضارةً معقّدةً ومتطورةً، ولكنها مختلفة بشكلٍ جذريٍ عن حضارتنا؛ إذ تمتعت بقدرةٍ تنظيميةٍ كبيرةٍ، واستعدادٍ هائلٍ لتنفيذ مشاريع هندسية كبيرة، ولكنها سجلت اهتماماً ضعيفاً جداً في مجال الابتكار التقني. لقد طبّقت التحليل العقلاني والنزيه الموروث عن اليونان في المجال السياسي والقانوني والعسكري والثقافي، ولكنها نادراً ما طبّقته على المواضيع الاقتصادية أو العلمية التي كانت المفتاح الحقيقي لتغيير الشروط القديمة وإطلاق التغيير التكنولوجي السريع في العالم. فعبر تاريخها الطويل، ظلت الإمبراطورية الرومانية مجتمعاً من الفلاحين

الأميين، حيث لم ينجذب قلة من ملايين الناس ممن لهم الكلمة والرأي في هذه المواضيع للخروج على العلاقات السياسية والاقتصادية الدائمة، نظراً للعدد الهائل من السكان والعبيد. عاشت روما واندثرت في قالب الحضارة الكلاسيكية، من دون أي علاماتٍ تُظهر قدرتها على الخروج من هذه الحلقة المفرغة، أي إن موقعها كان في الممر الأوسط.

افتقرت الحضارات الكلاسيكية للثروة الكافية لشن حربٍ شاملةٍ وحديثةٍ. وكانت مدينتا روما وقرطاجة، بعدد سكانهما الذي بلغ أقل من مليون مواطن يتمتعون بالحقوق كاملة، من الامبراطوريات ذات الموارد الكبيرة التي يمكن الاعتماد عليها لتمويل الحرب. وبحدود عام 200 ق.م، كان ما نسبته ثلاثة أرباع إيرادات الدولة الرومانية قادماً من الخارج، وهذا ما جعلها قادرةً على حشد نسبةٍ عاليةٍ جداً من مواطنيها استعداداً للحرب، ودفع الأجور لأعدادٍ كبيرةٍ من قوات التحالف (كالمرتزقة في حالة قرطاجة)، وهو ما يختلف مع المعادلة العسكرية الأساسية لفترات ما قبل الحداثة، حيث اعتمدت المجتمعات على زراعة الكفاف؛ وهو ما قلص قدرتها على سحب عددٍ كبيرٍ من سكانها وإيقاف دورة الإنتاج رسالهم إلى الحرب.

أما في حالة روما وقرطاجة، فقد اعتمدتا على موارد الجهة الغربية من البحر المتوسط في حروبهما. ومع ذلك، لم يتجاوز عدد الرجال الموجودين تحت السلاح ثلاثة أرباع المليون، وهو ما يُشكّل حوالي 3 بالمئة من مجموع سكان تلك المنطقة؛ وهو نسبياً الحدّ الأعلى الذي يستطيع مجتمع متحضر تقديمه للحرب في فترة ما قبل الحداثة.

وأيضاً لم تكن لدى الـ وات المسلحة مطالب ضخمة تره ق الاقتصاد المدني من حيث ا مدادات، فكلّ ما كان لـزم هو تغذية الجنود ودفع مرتباتهم، وتأمين المستلزمات الـ ليلة للحرب؛ من حد دٍ لصناعة الأسلحة، وخشب وعمال لبناء السفن. لـ د كانت الحرب البونية شاملةً بالنسبة لمدن روما وقرطاجة بالمعنى الحديث لكلمة شاملة، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لغرب البحر الأ يض المتوسط ككلّ.

وبعد عدّة قرون، وعندما حكمت روما كامل منطقة البحر الأ يض المتوسط، وأصبحت لديها فيالق تحرس الحدود البع دة التي تصل إلى اسكتلندا والسودان، أصبح الحجم الفعلي للجيش الروماني مـ ياساً أكثر دقة لحجم الـ وات العسكرية التي يمكن لمجتمع زراعي أن دعمها في فترة ما قبل الحداثة على المدى الطويل. وحوالي مطلع الألف الأول الميلادي، لـ غ عدد سكان منطقة البحر الأ يض المتوسط حدود ستين مليوناً، ولم يتجاوز إجمالي حجم الجيش من فيالق وفرسان وقوات مساعدة ثلاثمـ ة ألف جندي. وحتى في أواخر الـ رن الثالث الميلادي، لم يتجاوز عد د الجيش الروماني ثلاثة أرباع مليون جندي، رغم ارتفاع عدد السكان إلى مـ ة مليون، وازدياد الضغط البربري على الجبهات وارتفاع خطورته[144].

كان الجيش الروماني جيشاً ج داً جداً، وحديثاً جداً في كث رٍ من النواحي، كما كانت مرتبات جنوده ج دةً إلى حدٍّ معقولٍ، وتمتعوا بالتدريب الج د، ولهم أن يحصلوا على معاشٍ تقاعديٍ ج دٍ إذا وصلوا إلى سن التقاعد. وبالنسبة للـ ادة، تأسست أولى وحدات الضباط المحترفين والتي لم يكن لها وجود من قبل. خسر الجيش أحياناً إحدى المعارك، لكن النصر كان مضموناً على الج وش المتحضرة الأخرى

على المدى الطويل. ولم يضطر ذلك الجيش لقتال البدو ممن اعتلوا أحصنتهم؛ إذ لم يضطر العالم المتحضر في أوروبا والشرق الأوسط للتعامل مع أي غزواتٍ ربريةٍ ك رى لألف عام بعد غارات الكيميريين (أو ال يمريين) والسكوث ين (أو ا صوث) في ال رن السابع قبل الميلاد، والذي شهد داية ظهور روما. إلا أنّ التغيّر المناخي والسكاني في سهوب آسيا الوسطى أج ر البدو الرحل على التحرّك مرّةً أخرى. وما هي إلا بضعة أجيالٍ حتى دأ تأث ر موجاتهم بالوصول إلى حدود ا مبراطورية الرومانية. وفي النهاية، انتهت ا مبراطورية وانتهت معها معظم حضارة أوروبا، وكان عليها انتظار ألف عام تقريباً لحين عودتها إلى مستواها السا ق.

أمضت ال وات المشتركة من ال وط الغربيين والشرقيين عقوداً في التجول على طول نهري فيستولا ودنيستر، قبل أن تع ر في عام 378م الحدود إلى ا مبراطورية الرومانية بأكثر من م ة ألف رجلٍ، كانوا مصحوبين بأسرهم. وشكّلت العربات معسكراً واسعاً على بعد ثمانية أميال من مدينة أدريانوبل (أدرنة)، في حين هاجم الجزء الأك ر من الفرسان وسط تراقيا. ولمواجهتهم سار ا مبراطور الروماني فالنس من ال سطنطينة على رأس ستين ألف رجل، ثلثهم من المشاة، وبلغ أدرنة وم 9 آب.

وما إن دأ الجيش الروماني هجومه على المخيم، حتى هاجم عشرات آلاف الفرسان من ال وط الغربيين أجنحة الفرسان الرومان ين، واحتشدوا حول الجوانب والخلفية المكشوفة للفيالق الرومانية، فذبحوا أربعين ألفاً منهم في بضع ساعات،

ذروة المدّ

الروماني: الداقيون يهاجمون حصناً رومانياً صغيراً خلال غزو الإمبراطور تراجان لداقية (رومانيا)، القرن الأول الميلادي، عمود تراجان.

بمن في ذلك ا مبراطور نفسه! ودمر البرارة الجيش الروماني للمرّة الأولى منذ أن قاد فاروس ثلاثة فيالق بعداً في عمق غابات ألمانيا، وكان هذا منذ ثلاثة قرون ونصف، لكن هذه المرّة كانت حادثةً مختلفةً، وحلت بذلك العصور المظلمة (أو بالأحرى العصر المظلم الأخ ر).

استغرق العالم الكلاسيكي فترةً طويلةً خلال احتضاره؛ فقد انهار غرب أوروبا وجنوبها قبل الغزوات الجرمانية في ال رنين الرابع والخامس الميلادي، لكن ا مبراطورية الرومانية الشرقية (والتي عُرفت ببيزنطة في ما بعد) خرجت سليمة تقريباً، واستمرت أكثر من م تي

عام. سيطر البدو العرب على شمال أفري يا والهلال الخصيب ونشروا الدين ا سلامي الجد د في ال رنين السابع والثامن، وب يت هناك نسخة من الحضارة الرومانية تنطق باليونانية وتدين بالمسيحية في البل ان وآسيا الصغرى لحين تدمير الجيش البيزنطي من قبل البدو الأتراك ال ادمين في معركة ملاذ كرد في عام 1071م، لتتقلص الب ايا الرومانية حول ال سطنطينية إلى منطقةٍ صغ رةٍ لما ي ارب ال رن من الزمن؛ لم يعنِ ذلك انهيار الحضارة شرق البحر المتوسط، وما ظهر هناك في ظل الحكم العربي والتركي كان نسخةً إسلاميةً من الحضارة الكلاسيكية التي حفظت وص لت الشخصية الحضرية والمتعلمة والتجارية لتلك الثقافة. وفي الواقع، يعود الفضل إلى العرب والأتراك في إنقاذ المعرفة الك يرة التي ازدهرت في العصر الكلاسيكي.

جاء عصر الظلام الذي لا تنساه أوروبا مع قدوم الموجات المتتالية من الغزاة ال وط والفاندال والهون والمجريين والشماليين، لتجتاح العالم الروماني الغربي في ال رن الخامس، وب ي تواردهم حتى ال رن العاشر. كان ذلك الاضطراب الثالث على الأقل من عام 2000 ق.م والذي دمّر وعطّل الحضارات التي تعود جذورها العميقة إلى الهلال الخصيب، واستغرق الأمر كما في كلّ مرّة عدّة قرون لحين عودة المشهد إلى طبيعته. وكث راً ما قام البدو المنتصرون بمهمة إعادة ا عمار تلك. وحدها الصين، من بين كلّ المناطق التي ظهرت فيها الحضارة في العالم ال ديم، هي التي حافظت على لغتها التي بدأت مع نشأتها، واستبدلت اللغات السامية والهندو أوروبية والتركية ال ادمة مع موجات الغزاة البدو باللغات ال ديمة في ب ية المناطق.

لـ د نجت اللغة والثقافة الصينية من البدو الرحل، لكن الشعب الصيني لم يتمكن من النجاة؛ إذ لم يحـ ق سور الصين العظيم النجاح العسكري الدائم، فقد اجتاح الهون شمال الصين عام 304م (قبل حوالي سبعين عاماً من تدمير قائد جـ وش الـ وطيين فريتيجـ رن للفيالق الرومانية في أدرنة) مما سبب فوضى ر ه بة استمرت لمدة أربعة قرون. وكان المغول في الـ رن الثالث عشر أسوأ من ذلك بكثـ ر؛ فقد ذبح جنود جنكيز خان نحو أربعين مليون صيني خلاء المناطقٍ الشمالية من البلاد وتخصيصها للرعاة الرحل. وهناك مثالٌ آخر هو العراق الذي زاره المغول لسنتين فقط، 1258–1260م، وتم تدميره تماماً، ولم يعد سكانه إلى مستوى حياتهم قبل المغول حتى الـ رن العشرين!

وبسبب هذه الكوارث، عانت الحضارة خلال تاريخها من الكثـ ر من النكسات والتأخـ ر والفرص الضائعة، والتي جاءت متفرقةً وإنما ساحقةً؛ وهو ما يفسّر بطء التقدم، وكونه مفهوماً حديثاً نسبياً. استغرق الأمر سبعة قرون حتى كان فرسان المغول على مسافة ومٍ واحدٍ من فـ ينا، ولو تمكنوا من اجتياح أوروبا الغربية في ذلك الوقت، ولو لبضع سنوات، لما دأت عملية التغـ ير التصاعدي والمتسارع التي نشأت في أوروبا خلال الـ رون التالية، والتي أنتجت العالم الحديث. وكان سبب عدم اجتياحهم أوروبا هو كونهم دواً حـ ديين ممتطين أحصنتهم وقادمين من السهوب مباشرةً؛ وهو يعني أنّهم لن يجدوا المرعى الكافي لكلّ خـ ولهم، وعليه لن يستطيعوا الاحتفاظ بجيشهم كتلةً واحدةً في أوروبا الغربية بتضاريسها المختلفة جداً عن السهوب.

وصل المغول إلى المجر وبولندا وسيطروا عليهما. لكن خلال وجودهم هناك توفي جنكيز خان، واشتعل الصراع على خلافته داخل ا مبراطورية المغولية الجد دة؛ عندها سارعت أوروبا لاستغلال الفرصة، ودفعت البدو إلى الحدود الـ صوى، تاركة لهم المساحات الأقل أهمية. ورغم أهمية هذا الأمر بالنسبة للحضارة إلا أن ذلك وضعنا على حافة الهاوية.

لا شكّ في أن تاريخ الحرب متمحورٌ حول أوروبا بشكلٍ لا لبس فيه، فالأوروبيون هم الذين غزوا معظم دول العالم في نهاية المطاف، وهم من أنتجوا الأسلحة وأساليب الحرب المهيمنة على كوكبنا. لكن في الجزء الأخ ر من الممر الأوسط ولما يـ ارب ألف عام. خرجت أوروبا من تيارها العسكري الأساسي واعتمدت أسلوباً غريباً في الحرب؛ إذ أمسك البرا رة بزمام الأمور، وأحضروا تقاليدهم العسكرية معهم. وفي الواقع، أحضروا معهم أكثر من ذلك بكث ر.

لم تكن العصور المظلمة مظلمةً على ا طلاق في المناطق التي استولت عليها الثقافات ا سلامية، فقد ظهر د ل سياسي جزئي عن الحضارات الكلاسيكية الـ ديمة في الدول ا سلامية، ولكن بنكهةٍ إسلاميةٍ؛ إذ وصل الفاتحون العرب ثم الأتراك كأقلياتٍ منتصرةٍ - كان عدد سكان السهوب والبوادي التي قدموا منها أقل بكث ر من عدد سكان المناطق الزراعية التي احتلوها - ورغم ما صاحب ذلك من هجرة متحمسة إلى الأراضي الجد دة المحتلة، فإنّهم لم يصبحوا أغلبية السكان، وتش ر التقد رات إلى قدوم حوالي مـ ة ألف تركي من أتراك آسيا الوسطى الأصليين إلى الأناضول طوال فترة (الغزوات التركية) (وهذا هو السبب في شبه أتراك اليوم بسكان البحر المتوسط لا بسكان آسيا الوسطى)، أما

المصريون فهم ينحدرون من أناسٍ عاشوا هناك في زمن الفراعنة، وليسوا من الـ ادمين الجدد البدو، وهذا ما ألزم الغزاة بتشرّب الـنظم الـ ائمة ليتمكنوا من إدارة هذه المجتمعات الك يرة.

ضمنت الـه بة الثقافية لـ سلام اعتناق غالبية سكان البلاد الأصليين لهذه الديانة، كما صاروا يتحدثون لغات الـ ادمين الجدد بالعربية والتركية – تغلب المسلمون على حوالي نصف سكان ما يسمى بالعالم المسيحي في نهاية زمن الرومان، وذلك في حلول عام 800م – وأخذت مؤسسات ا مبراطوريات ا سلامية الجد دة (أو البيروقراطيون الذين أداروها) الكث ر من أواخر النموذج الروماني/البيزنطي، وقاموا بما قام به أفضل الغزاة الرعويين من حفاظٍ على التقاليد الـ ديمة للحضارة الموجودة، وهذا ما وضع المسلمين في وضعٍ خطيرٍ لاحـ اً، إذ حدثت الأمور بشكل مختلفٍ تماماً في أوروبا.

كان غزاة أوروبا الغربية رارةً حـ يين، وقد تقاسموا الـ ليل من الـ يم والنظم السائدة في المجتمعات المتحضرة، واختلفوا مع السكان الأصليين في معتقداتهم الدينية، وسببوا دماراً ك يراً، وشكّلوا واقعياً أمماً كاملةً تنتقل إلى الأرض الجد دة. كانوا دولاً مكوّنةً من مزارعي الكفاف في وسط أوروبا وشرقها وخارج حدود ا مبراطورية الرومانية، وقد دفعهم الضغط السكاني وأمل النهب للهرب من مناطقهم قبل توغل دو الأحصنة الحـ يين فيها مثل أفراد قبائل الهون الـ ادمين من السهوب، والذين جاءوا مع نخبة من المحاربين على صهوات خ ولهم ليحطموا دفاعات ا مبراطورية، ولكنهم ما إن وطئوا ما يُعرف حالياً بفرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا حتى استقروا في الغالب، وعملوا بالزراعة مرّةً أخرى.

ربما لم يتفوقوا من حيث العدد على المواطنين الرومانيين الباقين على قيد الحياة في الأجزاء الغربية من ا مبراطورية، وقد ساعد تحوّلهم السريع إلى المسيحية على ضمان استمرار لغة المغلوبين لا لغاتهم الجرمانية الخاصة (فمن بين جميع أجزاء أوروبا الغربية المحكومة سابقاً من قبل روما، وحدها الأجزاء الجنوبية من الأراضي الناطقة باللغة الألمانية والبلدان المنخفضة وبريطانيا لا تزال تتكلم نوعاً من اللهجة المحلية من اللاتينية المتأخرة، وتُعت ر اللغة ا نكليزية لغة مبسطة ونصف فرنسية مع تأث رات لاتينية قوية). عموماً، كان هناك عدد يكفي من ال ادمين الجدد لكي تكون طريقتهم في إدارة مفاصل الحياة هي الطريقة السائدة، لا الطرائق ال ديمة التي تطورت ع ر ثلاثة آلاف عام من الحكم ا مبراطوري في عالم الشرق الأوسط والبحر المتوسط.

عانت أوروبا الغربية انهياراً كاملاً لعدّة قرون، وعادت البنية الاجتماعية بعدها للاستقرار مرّة أخرى، ولكنها قامت على التشتت الشد د للسلطة السياسية والعسكرية؛ إذ كانت الدولة بالكاد موجودةً في ظلّ ال وة الد ي ية ل قطاع، واقتصر وجودها على العشرات ال ليلة من الأميال المربعة وربما المئات منها، والتي مُنحت لأحد المحاربين المحليين أو استحوذ عليها بنفسه، ولم تكن هناك وسيلة متاحة لتشك ل إدارةٍ مركزيةٍ للمملكة إلا بجمع أول ك المحاربين؛ إذا وافقوا على ذلك، وحسب المدة التي رغ ون بها. وبذلك، تم تحطيم قالب الحضارة الكلاسيكية عمداً، وهو ما أدى إلى ألف عام من الصراع الداخلي المستمر والضعف الخارجي الواضح، ولكنه سبب محتمل أيضاً لما حصلت عليه أوروبا في النهاية من حريةٍ في التغ ير.

عسكرياً، كانت النجاحات البدوية والبربرية دليلاً على سيطرة سلاح الفرسان على ساحة المعركة في كلّ مكانٍ من المنطقة الأوروبية المتوسطية، ودام هذا الدور لـ رونٍ عديدةٍ بعد إرساء هذا النظام الجديد لـ واعده. وفي الشرق ا سلامي، حافظ الأسلوب الرئيس للحرب على التقاليد البدوية؛ إذ اعتمد على مجموعاتٍ سريعةٍ وخفيفةِ التسليح وعددٍ ك يرٍ من الفرسان المدرعين ممن استخدموا الأقواس المركبة لشن الهجمات من مسافاتٍ بعيدةٍ. واقتصر استخدام السيف والرمح الخفيف على المناسبات النادرة التي احتاجت إلى اشتباك قريب مع الخصوم. أما في الغرب، فقد اتخذت حرب الفرسان مساراً آخر مختلفاً تماماً، وتطورت في النهاية لتأخذ شكلاً فريداً بفرسانها المدرعين دروعٍ تغطي كامل أجسامهم؛ ممن يمتطون خ ولاً بطيـ ةً هجنت لتتحمل الوزن، وكان لها تأث رها الك ير عند الهجوم، وكان هذا التشكل نوعاً من الكت بة المحمولة (قليلة التنظيم وضوح).

أصبحت الخ ول أك ر مع الزمن، واستخدمت كمنصاتٍ للأسلحة طيلة الفترة الكلاسيكية، وارتفعت نسبة الفرسان بالنسبة إلى عدد المشاة في الج وش الرومانية بشكلٍ مطردٍ مع تصاعد التهديدات على حدود ا مبراطورية الرومانية. فمهما ل غت أهمية المشاة على أرض المعركة كان تحرّكهم بطيئاً بالم ارنة مع فرسان الخ ول، با ضافة إلى عدم فائدتهم عندما لا يتواجدون في المكان فور الحاجة إليهم.

كانت الخ ول عملياً أسلوب حياة بالنسبة لرجال الـ بائل العربية والتركية المندفعين ع ر حدود ا مبراطورية الرومانية الشرقية، وهذا ما جعل من هيمنتهم اللاحقة في

الحرب في بلاد المسلمين أمراً مفهوماً، ينما لم تكن الخ ول أسلوب حياة بالنسبة لمعظم البرا رة الذين اجتاحوا ا مبراطورية الرومانية الغربية (رغم امتطاء نخبة المحاربين لها). وبالتالي، تحتاج هيمنة سلاح الفرسان لاحقاً في الحروب الأوروبية إلى مزيدٍ من التوضيح. على كلّ حال، سرعان ما تمكن الفاتحون من السيطرة على نسبةٍ ك يرةٍ من السكان المستقرين، وهو ما وفّر لهم قدرة على بناء ج وش مشاة منهم مدربين ومنضبطين في سياق الأسلوب الـ ديم.

لعب المال دوراً جزئياً في ذلك، فقد افتقر الفاتحون إلى الـ درة وحتى إلى الرغبة في إعادة بناء الدول التي تقوم على تحصيل الضرائب بانتظام، وبذلك انعدمت إمكانية تدريب جيش المشاة المؤسس وتمويله وفق الطراز الروماني. كما تعلق الأمر أيضاً بالنمط الثقافي، فقد احتفظت الخ ول بمكانتها في ذاكرة الطب ات العليا الأوروبية حتى ومنها هذا (وسيوافق على ذلك كلّ من كان في صفوف المشاة قديماً) با ضافة إلى متعة امتطائها، وتقديمها مجالاً واسعاً لن ل المجد الذي كان بحدّ ذاته سبباً لكي يكون المرء وورثته من محاربي الـ بائل الجرمانية؛ وهو ما يعني بكلماتٍ أخرى الن ل الأوروبي، وأفضل من أن ب ى المرء في مكانٍ ما في مرتبةٍ متوسطةٍ في الكت بة. وإذا لم ي م أحد ب فساد اللعبة بـ قحام قوةِ مشاةٍ ك يرةٍ، فإنّ السيادة ستكون من نصيب الفرسان في جميع المعارك بلا شكّ.

لا شكّ في أنّ الحرب أمرٌ جادٌ لا مزاح فيه، ولذلك يصعب على المرء تصد ق أنّ نوعاً من القتال قد يؤثر على طرازٍ عسكريٍ سائدٍ لعصرٍ بأكمله لأنّه أكثر متعةً أو أجدر بالاحترام من غ ره. لكنّ هناك سا قة؛ فعندما دخلت

العربات في الحرب للمرّة الأولى في أوائل الـ رن الثاني قبل الميلاد، كانت عبارةً عن أسلحةٍ مخيفةٍ، وتدهورت قيمتها العسكرية مع مرور الوقت؛ فقد تعلمت قوات المشاة التكتيكات المضادة للعربات بسرعةٍ ك يرةٍ: إذا وضعتَ رمحك على الأرض وحافظت على رباطة جأشك عند هجوم العربات، فستنحرف الخيول بعيداً في اللحظة الأخ رة، وأيضاً ستقوم سرية من الرماة الجيدين من المشاة بـ يـ اف التكتيكات المزعجة للعربات وستدفعها إلى الخلف مسافة بضع مئاتٍ من الياردات، وستطلق مجموعة من السهام عليها. وفي ا لياذة التي كُتبت في الـ رن الثاني عشر قبل الميلاد، بدو واضحاً تخفيض دور العربات لتصبح ما يمكن تسميته (تاكسي ساحة المعركة)؛ فهي تنقل الأبطال لساحات الوغى (وهذا يعكس دورها في الـ رن الثامن قبل الميلاد حين تمت كتابة الـ صة المتناقلة شفهياً).

مع ذلك، بـ يت العربات السلاح ذا المرتبة العليا على أرض المعركة لوقتٍ طويل - أطول من أن يتحوّل إلى مفهومٍ تكتيكي - ولكنه تحوّل إلى منطقٍ سياسيٍ واجتماعيٍ، وخاصةً إذا عدنا إلى حـ يقة كون العربة عربةً قـتاليةً موروثةً عن الغزاة الرعويين الذين تحكموا في العالم المتحضر بعد أول (عصرٍ مظلمٍ). كان الاندفاع حول ساحة المعركة في عربةٍ أكثر إثارةً (وربما أكثر أماناً) من كونك جندياً من المشاة، وطالما تعاون الجميع ستبـ ى اللعبة مستمرة، وهناك شكوكٌ وجود منطقٍ مماثلٍ فرض الهيمنة الكليّة لسلاح الفرسان في أوروبا الغربية؛ في الـ رون الواقعة يـن سـ وط روما والعصور الوسطى المتأخرة.

كان هناك عاملٌ آخر منع إنعاش دور المشاة، وهو

عاملٌ سياسيٌ واضحٌ. فإعطاء المشاة دوراً ك يراً يعني تسليم السلطة العسكرية من الحكام إلى المحكومين. لم يكن للفرد المتوسط في مجتمع فلاحي ال رون الوسطى ال درة على المشاركة في حرب الفرسان؛ فملاك الأراضي ا قطاع ون الأثرياء هم وحدهم من يمكنهم تحمّل نفقة الخ ول والدروع المطلوبة، لكن يستطيع ذلك الفرد أن يصبح جندي مشاةٍ فعالاً في حال تل ى التدريب المناسب. غ ر أن وجود أعدادٍ ك يرةٍ من المشاة يعني وضع ال وة العسكرية في أ دي مواطنين عاد ين، وربما تكون لذلك انعكاسات ثورية (وهو ما حصل في النهاية) بالنسبة للمجتمعات ا قطاعية الطب ية؛ حيث الطب ات المتعادية التي أفرزتها الغزوات البربرية لأوروبا الغربية.

من اللافت للنظر أيضاً مدى قوة التقليد الثقافي للقتال ال ريب، والذي جرى أحياناً في سياقٍ غريبٍ في حرب الفرسان، فقد استغلت ال وات المحمولة على الحصان قدرتها على المناورة وأقواسها المركبة شد دة الفعالية لشن نوعٍ من القتال ال ريب الذي يتميز بالكرّ والفرّ ومضا قة الخصم، وأقله يساهم في نشر الارتباك في صفوف العدو. وفي هذا ا طار، مارس الفرسان هذا الأسلوب المباشر، واندفعوا في هجماتٍ تحد ق النصر أو الموت، واعتمدوا على قوة الدفع مستغلين ال صور الذاتي الك ير للخ ول وممتطيها من الفرسان المثقلين دروعهم. وكان على هذا الأسلوب القتالي انتظار السروج للانتشار في كلّ مكان (وصلت السروج إلى أوروبا بحلول ال رن الثامن عشر، ويُعتقد أنّ مصدرها كان الصين)، ومن ثم تطورت السروج وأصبحت الخ ول أك ر. ومع حلول عصر الحروب الصليبية في ال رن الثاني عشر، كان فرسان العالم المسيحي ي اتلون مثل كت بةٍ محمولةٍ ومدرعةٍ

بطول ثماني أقدام، وبسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة، وإذا هاجمتك فسينتهي كلّ شيء؛ رغم سهولة تجنبها إذا لم تكن مج راً ثقافياً على القتال بهذه الطريقة. وربما هذا هو سبب (من ين أسبابٍ أخرى) عودة الصليبيين إلى ديارهم في أوروبا في النهاية. وبحلول أواخر العصور الوسطى، عادت فرق المشاة للظهور مجدداً كقوةٍ مهيمنةٍ في ساحة المعركة، ورغم عدم حصول تغيّر ك ير في تقنية الأسلحة، إلا أنّ ذلك ترافق مع اقتراب السكان والرخاء والكفاءة التنظيمية لغرب أوروبا من المستوى الذي كانوا عليه في العصر الروماني.

ظهرت أولى وادر التحوّل الجد د إلى أسلحة المشاة خلال حرب الأعوام الم ة (من الـ رن الرابع عشر إلى الـ رن الخامسٍ عشر)، عندما وجد ا نكليز المزودون بالأقواس الطويلة طريقةً لحماية أنفسهم من هجمات الفرسان الفرنسيين، وذلك بأن حفروا الحفر المتفرقة أمام خطوطهم لكسر قوائم الخ ول المهاجمة، أو بغرز العصي المدببة في الأرض (وهذا أشبه بتلغيم محيط الكت بة بالرماح) مما أدى إلى تدمير التشكيلات الفرنسية المؤلفة من الفرسان المدرّعين.

شكلت الأقواس الطويلة (الـ وس والنشّاب) تهد داً للفرسان؛ إذ بمكانها اختراق الدروع المعدنية المرنة التي رتدونها من مسافاتٍ بع دةٍ، مما أج ر الفرسان الخيالة على استخدام بذلاتٍ مدرّعةٍ لأوّل مرّة، وكانت البذلة المدرّعة أشبه رداءٍ حديدي كلاسيكيٍ، وقد ارتدتها الأجيال الـ ليلة الأخ رة من الفرسان الأوروبيين، وقد صُمّمت بعنايةٍ بنتوءاتٍ وجوانب مائلةٍ لتشتيت السهام، ولاختراقها كان على السهم أن يُضرب بزاويةٍ تقترب من تسعين درجة

على مسافة مـ تي ياردة، كما صنعوا دروعاً مماثلةً لحماية خ ولهم، لكنها كانت ثقيلةً وباهظة التكلفة، وشهدت المعارك الأخ رة من حرب الأعوام المـ ة مثل معركة أجينكورت المشهد المث ر للشفقة للفرسان المترجّلين، حيث ارتدى كلٌّ منهم بذلةً مدرّعةً تزن حوالي ثلاثين ك لوغراماً في محاولةٍ منهم للهجوم على الأقدام. لـ د خلا هذا المشهد من الرجولة المعتادة في الحروب.

وسرعان ما تم استيعاب الدرس؛ فإذا كان المشاةِ هم العنصر الأكثر فعالية على أرض المعركة، فلمَ لا يكونون مشاةً حـ يـ يين وليسوا فرساناً بملابس معدنية ومن دون خ ول؟ وهكذا، جاء الـ رن السادس عشر، حيث ظهرت أسلحة البارود في ساحات معارك أوروبا الغربية. ورغم وجود هذا السلاح الجد د إلا أن القتال تركّز مرّة أخرى على اشتباكات قوات المشاة الثقيلة، فقد كانت تحارب وفق نمطٍ لا يختلف كث راً عن النمط الرائج أيام ا سكندر الأك ر. ولنأخذ الصراع الذي حصل في نهاية الحروب ا يطالية ين فرنسا والـ وى (ا مبراطورية) كمثال (إسبانيا ومعظم ألمانيا والنمسا)، والذي جرى معظمه في شمال إيطاليا في الفترة الممتدة ين 1464 و1559، حيث تقا ل جيشان متكافئان في سيريسول الـ ريبة من تورينو.

ضمّ الجيشان عدداً أقل من عد د معظم الج وش التي خاضت المعارك الك يرة في العصور الـ ديمة، وقُدِّر عدد قوات كل منهما بحوالي خمسة عشر ألف جندي. وكان هذا عام 154م وليس عام 332 ق.م. على كلّ حال، أعاد الأوروبيون على مدى الـ رن الماضي هيكلة المشاة لتصبح هذه الـ وات كتلةً متراصةً بزيٍ رسميٍ ووحداتٍ مرقمةٍ وأعلامٍ تجمع أفراد كل وحدةٍ

معاً. وقد تمتعت تلك الوحدات بالتدريب الكافي والانضباط الصارم، وكانت تسير بخطواتٍ منضبطةٍ في مجموعةٍ واحدةٍ. وعندما توزّعت قوات الجيشين في صباح يومٍ لطيفٍ من شهر نيسان على تلين متواجهين يفصل بينهما منخفض بسيط، كان باستطاعة الاسكندر الأكبر قيادة أحد الجانبين من دون أن يواجه صعوباتٍ سوى حاجته لدورةٍ مكثّفةٍ في لغةٍ جديدةٍ (أربع لغاتٍ في الواقع؛ فقد كان الإسبان على جانبٍ، والفرنسيون على الجانب الآخر، وضم الطرفان مرتزقةً من الإيطاليين والألمان والسويسريين الألمان).

كانت هناك بعض الاختلافات التكتيكية الناجمة عن ابتكار الأسلحة النارية، لكن كتائب المشاة حافظت على تشكيلها الأساسي، حاملةً الحراب المألوفة. واعتقد الفرنسيون حينها أنّ وضع صفٍّ من المشاة المسلحين بسلاحٍ ناريٍّ خلف صفهم الأول قد يكون مفيداً لهم (أي وضع رجال مسلحين ببنادق ثقيلة ذات فتيل، تطلق رصاصة زنتها نصف أوقية). وفي هذا الشأن، قال الكابتن بليز دي مونتلوك (Blaise de Montluc): «يمكننا قتل جميع النقباء الموجودين في الصف الأول بهذه الطريقة، ولكنهم كانوا بارعين مثلنا بالضبط؛ فقد وضعوا عدداً من الرماة المسلحين بالأسلحة النارية خلف الخط الأول من الحراب، ولم يطلق الطرفان النار لحين حصول التماس. كانت المذبحة جماعية، وعلا صوت النار، ودُمر الخط الأول من كلّ جانب، فتقاتل الصفان الثاني والثالث من الجانبين على جثث رفاقهم في الجبهة الأمامية، تدفعهم الصفوف الخلفية إلى الأمام. ومع ارتفاع وتيرة الضغط تحطم العدو وتقهقر»[145].

وصل الأمر في نهاية المطاف إلى مشهد التدافع القديم

المألوف لدى قدامى ا غريق، والذي يسميه رجال الـ رن السادس عشر باسم (الدفع بالرمح). فقد باشر الفرنسيون وحلفاؤهم من المرتزقة السويسريين نزولهم باتجاه المنخفض، في حين تقدّم خصومهم من اللاندسكنيشت[146] - وهم المرتزقة الألمان الذين قاتلوا في مـ دمة الخط ا مبراطوري - واجتازوا المنخفض، وبدأوا بالصعود باتجاههم. عندها، قامت قوة صغ رة من الفرسان الفرنسيين المدرعين بضرب جناحهم وتدمير تشكلهم، وحولّتهم إلى قطيعٍ من الغوغائيين، من دون أن تتيح لهم المجال لاستخدام حرابهم، وذبحت خمسة آلاف منهم من أصل سبعة آلاف، وسارع المشاة ا يطاليون الموجودون على الجناح الأيسر من الخط ا مبراطوري بالخروج من المعركة نقاذ أنفسهم، فقطع الفرسان الفرنسيون والمشاة الفرنسيون خلفهم الطريقَ على قدامى المحاربين ا سبان والألمان الذين حاولوا التراجع من الجناح الأيمن ع ر غابةٍ صغ رةٍ:

«ما إن شاهدوا فرساننا متأهبين للهجوم من مسافة ، خطوة حتى أل وا أسلحتهم واستسلموا للفرسان. كان با مكان رؤية خمسة عشر أو عشرين منهم حول رجلٍ واحدٍ مسلحٍ، يضغطون عليه طالبين منه المساعدة، خوفاً منّا ومن المشاة الذين أرادوا قطع رؤوسهم. ومع ذلك، قُتل الكث رون منهم - ربما نصفهم - وسيق الباقون كأسرى»[147].

لـ د رسخت معركة سيريسول ش ئاً ما كما هو مفترض؛ رغم أنّه لا وجد من يتذكر ما هو هذا الشيء بالضبط، ولكنه في دورةٍ كاملةٍ. لـ د أحيت العصور المظلمة وفرسانها الماضي البع د، ولا يمكن تمييز ما حدث في سيريسول، إلا بالتفاصيل الصغ رة، عمّا حدث تحت جدران أوما قبل أربعة آلاف عام، أو عمّا حدث في أسوس في منتصف الفترة

الفاصلة ي نهما.

ازدهار المشاة من جديد: أسلوب (الدفع بالرمح) العائد إلى القرن السادس عشر. يندفع الفرسان في المقدمة كما تصورهم لوحة بروغل، ويقع الجهد الحقيقي على عاتق الجندي حامل الرمح بأسلوب التيركيوز ذي الطراز الإسباني، كما يظهر في وسط الصورة. جزء من لوحة انتحار شاول، بيتر بروغل الأكبر.

الفصل السادس

الطريق إلى الحرب الشاملة

«مباركةٌ هي العصور السعيدة التي لِم تعرف الغضب المروّع لسلاح المدفعية الشيطاني هذا. لكن تغمرني الطمأنينة لأنّ مبتكرها يصلى الآن نار الجحيم، وينالُ جزاء اختراعه الملعون والجبان الذي أزهق أرواح الكثير من الرجال الميامين الشجعان».

سرفانتس، دون كيشوت

كانت مدافع الحصار الك يرة أقوى الأسلحة في العالم في زمان معركة سيريسول، وكانت لديها الـ درة على قتل ستة أشخاص (إذا كانوا على مـ ربةٍ من بعضهم) من مسافة بضع مئات من الياردات. اليوم، وبعد مرور أقل من خمسة قرونٍ، تستطيع المدافع الحديثة الشـ يهة بتلك التي كانت موجودة سابـ اً والصواريخ البالستية العا رة للـ ارات قتل عدّة ملا ين من الناس من مسافة سبعة أو ثمانية آلاف ميل. لم تكن عملية الانتقال بسيطةً، لكن نظرةً إلى الماضي تكفي دراك أنّه لا مفرّ من الأمر.

خرجت أوروبا (الحديثة) من شرنقتها ا قطاعية قبل خمسة أو ستة قرون، وأصبح أسلوبها الحربي نموذجاً عالمياً، لكن ذلك لم يكن بشكل مستمر؛ فقد تميّزت أسلحتها في السنوات المـ ة والخمسين الماضية فقط، إذ تعلق الأمر منذ البداية بتطوير هذا المسار على شكل نهجٍ حربيٍ يتميّز بتطبيق عقلاني ومنضبط للتقنية الموجودة في أرض المعركة، ولعلّ الأهم من ذلك هو تحـ يق المجتمع الأوروبي قفزةً عملاقةً صوب الحرب الجماعية، ربما بسبب ثرواته ومعتقداته السياسية. وبمعونة التكنولوجيا، شكّلت الحرب الجماعية الأساس الوحيد الذي قامت عليه ظاهرة الحرب الشاملة الـ اتلة وغـ ر المنطـ ية.

نميل الآن لاعتبار اختراع البارود نقطة انطلاق التغ يرات الجذرية التي أنتجت الحرب الشاملة في نهاية المطاف، لكن التقنية الجـ دة لم تكن أكثر من عاملٍ

هامشيٍ بالنظر إلى المراحل الأولى من التغير؛ حيث حلّ المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، ثم حلّت الجيوش النظامية مكان المرتزقة. وفي النهاية، توسعت الجيوش النظامية بجنودها المحترفين لتتحول إلى جيوشٍ محتشدة. لم تكن الأسلحة النارية ما أنزل الفارس المتمكن من موقعه كلاعبٍ رئيس في ساحات المعارك إلى الهوة المزخرفة التي بات عليها في زمن كتابة رواية دون كيشوت.

اكتُشِفت المادة المتفجرة الناتجة عن خليط الملح الصخري والكبريت والفحم لأول مرّةٍ في الصين (ربما عن طريق الصدفة، فالتربة قرب بكين متشربة بالملح الصخري بشكلٍ كبيرٍ). وقد سجّلت فترة حكم سلالة سونغ ظهور ابتكاراتٍ تقنيةٍ ملحوظةٍ في الصين. ففي أوائل العام ، استخدمت القوات الصينية المدافعة عن مدينة لويانغ ما يُطلق عليه (قنبلة الرعد) ضد المغول؛ وهي عبارة عن قاربٍ حديديٍ ممتلئٍ بالبارود يُدلى على محاصري المدينة بأسلوب المنجنيق، ليحوّل الانفجارُ القريبين منه إلى أشلاء، ولتخترق شظايا الغلاف الحديدي الدروع المعدنية.

ثم طوّر الفنيون الصينيون (الرمح الناري) خلال خمسة وعشرين عاماً؛ وهو بندقية بدائية مكوّنة من أنبوبٍ من الخيزران محشوٍ بالبارود، وعندما يشتغل تنطلق منه مجموعة من الكريات التي يمكنها اجتياز مسافة 250 ياردة. استخدم أعداؤهم المغول هذا السلاح الجديد، ومن المحتمل أنّهم نقلوه إلى أوروبا، حيث نشطت جيوش المغول أيضاً. وخلال عشرينيات القرن الرابع عشر، ظهرت إلى الوجود أولى البنادق المعدنية الحديدية في أوروبا[148].

ومنذ تلك المرحلة، انتقل زمام المبادرة في تطوير

الأسلحة النارية إلى أوروبا، وبشكلٍ كلّي؛ فقد تنامت الثروات وأعداد السكان بسرعةٍ في أوروبا المناضلة لكسر قيود القرون الوسطى، وكانت قارةً مقسمةً إلى عشرات الدول المنفصلة والممزقة من جراء الحروب المستمرة، وعلى ما يبدو لعب هذا الأمر دوراً هاماً. ويلخّص جاريد دايموند ذلك بقوله إنّ أوروبا قد تفوقت على الصين في تطبيق التقنيات الجديدة بعد تقسيمها إلى العديد من الدول المتنافسة، وذلك نتيجة طبيعتها الجغرافية؛ إذ إنّ وجود الكثير من أشباه الجزر والجزر البعيدة عن الشواطئ فيها، بالإضافة إلى السلاسل الجبلية في أوروبا الغربية قد أدى على الأغلب إلى تشكل العديد من الدول المختلفة، بينما ساعدت السواحل الطويلة والأنهار الكبيرة والسهول الداخلية على تشكل دولةٍ واحدةٍ كبيرةٍ في الصين. وبالفعل، بقيت الصين متحدةً منذ أكثر من ألفي عام بعد أن تم توحيدها تحت إمرة حاكمٍ واحدٍ، فيما لم تنجح القوة في توحيد أوروبا[149].

شكل استعداد الدول الأوروبية المتنافسة والمستعدة على الدوام للحرب القادمة على تبني أي تقنية جديدة قد يكون لها مفعول الترجيح والحسم للاستفادة منها. وكانت التقنية العسكرية هي الأكثر أهمية على الإطلاق. وبالتأكيد، كان هناك محافظون يخشون (كان أولئك مدنيين في كثيرٍ من الأحيان) من تقويض مكانتهم الاجتماعية عبر تبني تلك التقنيات، ولذلك رفضوها على الدوام، لكنّ رفض أي حاكم لفكرة مخترعٍ أوروبي لم يجدِ نفعاً، إذ ما كان على ذلك المخترع إلا الذهاب إلى المملكة المجاورة مع فكرته أو جهازه الحديث ليجد الترحيب الحارّ به وبفكرته. (وساد عكس ذلك في الصين؛ فأمرٌ واحدٌ من الإمبراطور كان يغلق الباب نهائياً أمام أي تقنيةٍ

جد دةٍ وواعدةٍ. وقد حدث هذا في بعض الأحيان؛ مثل الحظر الشه ر على السفن العا رة للمحيطات عام 1421، والذي حرم الصين من حصتها في العوالم الجد دة مثل الأمريكيتين وأستراليا التي كان اكتشافها وشيكاً، والتي احتُلت واستُعمرت من قبل الأوروبيين فقط)[150]. ولهذا لم تتجاوز الصين بنفسها (رماح النار)، فيما تطوّرت الأسلحة النارية في أوروبا لتصل بعد قرنين من الزمن إلى حدّها الأقصى مع المدافع العملاقة ال ادرة على إطلاق القذيفة الحد دية التي تزن 1.125 رطل على أسوار المدينة، والبنادق ذات الرصاصات التي تزن نصف أوقية بمدى فعّال يصل إلى حوالي مـ ة ياردة.

كان هاجسنا التقني في الأيام الخوالي عظيماً للغاية، لدرجة أنّه أصبح مألوفاً ين المؤرخين تحد د زمن محدد لنهاية العصور الوسطى، وهو عام 1453؛ وذلك عندما حُشدت مدافع الجيش العثماني تحت إمرة السلطان الشاب محمد الثاني لتدك وتخترق أربعة عشر ميلاً من الأسوار الضخمة المحيطة بمدينة ال سطنطينية، والتي كانت أك ر مدينة في العالم لألف عامٍ قبل س وطها، وكان س وطها إعلاناً عن نهاية ا مبراطورية البيزنطية؛ آخر ما كان قد ب ي من ا مبراطورية الرومانية.

استخدم مؤرخو ال رن التاسع عشر تاريخ س وط ال سطنطينية كنقطة تحولٍ رمزيةٍ. فما أثار اهتمامهم في الواقع هو نهاية ا قطاع الأوروبي، وظنّوا أنّهم حصلوا على سلسلةٍ واضحةٍ للسبب والنتيجة؛ إذ بمكان المدفع تدمير جدران ال لعة، مما يعني ا جهاز على سلطة النبلاء ا قطاعيين. وبالتالي، يمكن ال ول إنّ البارود هو الذي دأ هذه المسيرة الطويلة من التقدم، والتي لغت ذروتها في السلام

والرخاء والتنوير التي تميّز بها ال رن التاسع عشر.

اختلف الواقع العسكري في ذلك الوقت تماماً؛ فقد أصبحت أسوار قلاع ال رون الوسطى كأسوار المدن ال ديمة مث رةً للشفقة؛ فهي بساطة ستنهار بسبب وزنها الثقيل، وذلك ع ر دكّها باستخدام المدافع أسفل السور، مما يصنع أخدوداً عميأ ً دمر أساسها ويهدمها. ولذلك ظهر نوع جد د من التحصين بحلول ال رن السابع عشر، واعتمد هذا التحصين على حفر الخنادق العميقة والأسوار والحصون المائلة، وربح هذا التحصين تلك الجولة في السباق التقني مع المدفعية في ذلك الوقت.

وسطع نجم المدفعية في سلاح البحرية ع ر أثرها الك ير؛ فقد زُوِّدت السفن الشراعية العريضة العا رة للمحيطات والمنطلقة من أوروبا الغربية بسلاح المدفعية، وبحلول منتصف ال رن السادس عشر كان بمكان محاربي أوروبا الغربية استخدام منصات مدفعية على جان ي السفينة طلاقها من مسافةٍ قريبةٍ. وتبادلت السفن ن ران المدفعية، وتمّ تحديث هذا النمط الحربي باستمرارٍ ع ر إضافة صفوف مدافعٍ جد دةٍ؛ وهو ما حدد نتائج المعارك البحرية لثلاثم ة عامٍ قادمةٍ. أما في ساحة المعركة البرية، فقد احتاجت الأسلحة النارية إلى وقت أطول لتح ق السيادة المطلقة في الميدان.

حلّت البنادق البدائية تدريجياً محل الأقواس الطويلة أو أقواس النشاب، وأصبحت أدوات ا طلاق الرئيسة. وفي عام 1476، كان خِمسُ مشاة ميلانو قد تسلحوا بهذه البنادق، ولم يمضِ قرنٌ من الزمن حتى اختفى رماة السهام من الج وش الأوروبية؛ رغم أنّ ال ربينة[151] لم تُحدث ذلك التغ ير الك ير

في طريقة خوض المعركة آنذاك[152]، فقد كان لها تأث ر ال وس والإنشاب نفسه، ولم تتطلب الكث ر من التدريب، ولكنها أصدرت دوياً مرضياً للغاية (كان هذا بلا شك أحد أسباب تفض لها). وظلّت ال ربينات عنصراً ثانوياً في المعارك حتى ال رن السابع عشر، وتشكّل لبّ الجيش من صفوف رماة البنادق المنضبطين الذين كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم (وبنادقهم) ضد هجمات الفرسان. أما نتيجة المعارك فقد حسمتها الاشتباكات مع كتائب الطرف الآخر المجهزة بالبنادق أيضاً.

انهيار الجزء الأخير من الإمبراطورية الرومانية، حصار القسطنطينية عام 1453.

أعاد الأوروبيون خلال الـ رنين الخامس عشر والسادس عشر أسلوب ج وش المشاة الذي كان سائداً قديماً، وهو ما تطلب ا طاحة بسلطة الأرستقراطية ا قطاعية الـ ديمة التي احتكرت المهنة العسكرية. وقد لـ ي هذا المسعى الكث ر من الدعم الشعـ ي، وكانت سويسرا والفلاندرز من الأماكن الأولى التي سيطر عليها حملة البنادق بفضل ضعف الأرستقراطيات الموجودة فيها مـ ارنةً مع بـ ية المناطق، وكانت لـ طاحة بهما جاذ ية كـ يرة بالنسبة للممالك الأوروبية الـ وية ذات الحكم المطلق، والتي رغبت بتوسيع سلطة الحكومة المركزية على حساب الطبقة ا قطاعية، وهذا ما دفعها إلى المباشرة بتعزيز ج وش المشاة الجد دة لهذا الغرض.

قام الملك بتجن د أفراد شعبه في النموذج الجد د من الجيش، كما سُجِّلت محاولات عد دة نشاء مليشيات وطنية تحت سيطرة الحكومة المركزية. إلا أنّ تلك المحاولات لم تنجح عادةً بسبب إحجام الفلاحين عن الالتحاق بها، وهذا ما جعل تلك الفترة تصبح العصر الذه ي للمرتزقة الذين يـ اتلون بموجب عقدٍ لصالح أي حكومةٍ تدفع لهم. وأصبح تصد ر سرايا الجند المرتزقة صناعةً وطنيةً في الأجزاء الفقيرة من أوروبا مثل سويسرا واسكوتلندا[153]. ونظراً لكلفة المرتزقة العالية، بـ يت الج وش صغ رةً، وضمت بالمتوسط حوالي عشرة آلاف رجلٍ فقط في كلّ جانب في معارك الـ رن السادس عشر.

لم تكن الأسلحة النارية وحدها ما أجهز على ا قطاع، إذ إن أسس ا قطاع كانت في حالةٍ متداعيةٍ أصلاً بفضل التحوّل

من الزراعة إلى التجارة كمصدرٍ رئيسٍ للثروة، وبسبب السلطة السياسية المركزية المتزا دة للملك. أما في ساحات المعارك، فقد تحطمت الهيمنة العسكرية للفارس الخيّال المحمي درعه بعودة ج وش المشاة المنضبطة، سواء أكان ذلك بنادق أو دونها. ومن وجهة نظر الشهامة الأوروبية في ذلك الوقت، كانت الأسلحة النارية أساس المشكلة؛ فبعد بضعة أسا يع من التدريب لأي فلاحٍ على الأسلحة النارية، كان سيتمكن من قتل فارسٍ أمضى حياته في التدرب على خوض المعارك الكلاسيكية. وكان ذلك انقلاباً صارخاً للنظام الطبيعي للأشياء آنذاك، ولكن لم يكن بمكان الأرستقراطية ا قطاعية فعل أي شيء حيال هذا التطور الخطير بالنسبة لها؛ إذ لعبت الكث ر من العوامل الأخرى ضدها، لكن الأمر لم يكن مماثلاً على الجانب الآخر من العالم، حيث واجهت الطبقة الن يلة من المحاربين تهد د الأسلحة النارية لكنها لم تواجه اضطراباً شاملاً في تنظيم المجتمع، ولذلك استطاعت م اومة تلك التغيّرات.

«ليس لديهم أكثر من خمسم ة رجل يحملون البنادق. وإذا كنت تخشى من ن رانهم، فإنّهم سيصيبون أهدافهم عند إطلاق الرصاصة الأولى تماماً كالثانية، ولكنهم سيطل ون النار بعدئذ بشكلٍ عشوائي، وعندما يصلون إلى هذه الحالة لن نكون قد خسرنا أكثر من ألف قت ل وجريح، وهذا ليس بالكث ر».

نصيحة الجنرال آتوب أوينوسوكي لسيده تاك دا كاتسويوري قبل معركة ناغاشينو عام 1575[154]

ع رت الأسلحة النارية الأوروبية الحديثة المحيط في السفن البرتغالية لتصل إلى اليابان عام 1542. ولم يمضِ ج ل

حتى استطاع اليابانيون تصنيع مدافع وبنادق مماثلة تماماً للأسلحة الأوروبية الحديثة. ولم تقتصر الأمر على هذا فقط، إذ استخدم اليابانيون أسلحتهم النارية الجديدة بفعالية أك ر من الأوروبيين أنفسهم. ولعلّ ذلك رجع إلى انغماس الدولة بكاملها في حربٍ أهليةٍ طويلةٍ في القرن السادس عشر، وكانت الكفاءة العسكرية في ذروتها. وفي عام 1، أصدر السيد تاكيدا شينغين التعليمات التالية لضباطه: «منذ الآن فصاعداً، ستكون البنادق سلاحنا الأكثر أهمية، وعليه سينخفض عدد الرماح (لكلّ وحدةٍ) وسيحمل أفضل رجالكم البنادق». والمفارقة هي أنّه قُتل هو نفسه رصاصة بندقية بعد ستة أعوام!

خَلَفَه تاكيدا كاتسويوري، وقد طمأنه الجنرال آتوب عام بأنّ ما سيواجهه لا يتعدى خمسمئة من الفرسان في معركة ناغاشينو الحاسمة (والتي مُثِّلت في فلم كاغيموشا[155] الرائع للمخرج أكيرا كوروساوا عام 1980).

غير أن ما حصل فعلاً كان كارثةً حقيقيةً لتاكيدا؛ إذ لم يمتلك أعداؤه إياسو وأودا نوبوناغا خمسمئة بندقية بل عشرة آلاف! وقد تموضعوا في ثلاثة صفوف، وكانوا مدرّبين على إطلاق النار بشكل جماعيّ؛ كلّ صفٍ على حدة، حيث لا يتوقف إطلاق النار طويلاً خلال إعادة التلقيم، وهذا أسلوب لم يظهر في ميادين القتال الأوروبية إلا بعد نصف قرنٍ آخر. وكان تاكيدا قد أخذ بنصيحة جنراله، وأرسل جميع رجاله في سلسلةٍ من الهجمات الأمامية؛ احتفظ المدافعون بالأرض، وأطلقوا النار بشكلٍ منهجي ليردوا ستة عشر ألفاً من رجال تاكيدا، وكانت هذه ضربةً قاصمةً لعشيرة تاكيدا التي لم تستطع أن تتعافى أبداً بعد

تلك المعركة.

«كنّا أنا ونوبوناغا متفوّقَين من حيث العدد، وهجم علينا رغم الأرتال الثلاثة أمامنا. لقد هُزِم شرّ هزيمةٍ، ولو تمركز خلف نهر تاكيغاوا لكان قد أوقفنا عشرة أيام، ولكان قد أجبرنا على ذلك... من المؤسف أنّه كان أحمق على تلك الشاكلة».

توكوغاوا إياسو[156]

كان الاستخدام الياباني للبنادق الأفضل فعلياً في العالم عام 1575، ولم يرغب أحد من الجنود اليابانيين المشاركين في الغزو الكبير لكوريا عام 1590 باستخدام السلاح الأبيض. ولدى عجز قوته المؤلفة من ثلاثمئة ألف مقاتل عن التقدم بسبب المقاومة الكورية والتدخل الصيني الهائل، كتب أحد النبلاء اليابانيين إلى قيادته مستغيثاً: «الرجاء إجراء الترتيبات اللازمة لإرسال البنادق والذخيرة، ولا حاجة لنا إلى الرماح بأي شكلٍ من الأشكال». وطلب نبيل آخر أن تكون التعزيزات المرسلة «متضمنة أكبر عدد ممكن من البنادق... وتوجيه أوامر صارمة بحمل الجميع للبنادق، بمن فيهم الساموراي».

ورغم ذلك، لم يأتِ عام 1675 إلا وكانت اليابان خاليةً من البنادق بأنواعها كافة، وانعدم استخدامها في الحرب تماماً؛ وهذا انقلاب استثنائي لمسار التاريخ، ويعود سببه إلى استشعار اليابانيين للطريق الذي تؤدي إليه الأسلحة النارية، واتخاذهم قراراً بعدم وجوب اتخاذ هذه الوجهة، وبالتالي ساروا إلى الخلف بالاتجاه المعاكس. وعندما وصلت (السفن الأمريكية السوداء) بقيادة القائد البحري ماثيو بيري عام 1854،

أعادت اتصال اليابان مع بـ يـة العالم؛ بعد أن وجِد بحارتها أنّ مجتمع الـ رون الوسطى لا يزال كما هو، حيث تخاض الحروب بالسيوف والرماح والأقواس والسهام.

فمع حلول عام 1615، انتهت حالة الحرب في الدولة، وحـ ق توكوغاوا بعد صراعٍ طويلٍ مع منافسيه انتصاراً ساحـ اً، مما مهد لأكثر من قرنين من الاستقرار النسبي في ظل نظامِ حكومةٍ إقطاعيةٍ. لـ د انعدم الضغط المطلوب لتحـ يق الكفاءة الحربية، لكن هذا لم يكن كافياً كسببٍ لتخلي اليابانـ يـن عن الأسلحة النارية، ولعل السبب الرئيس يكمن في قلق النخبة من الآثار الاجتماعية للبنادق التي تُعبأ من السبطانة.

نحن لا ننتقص من التاريخ إذا قارنا طبقة الساموراي المحاربة في اليابان مع طبقة النبلاء ا قطاعـ يـن في أوروبا. فكلتا الطبقتين عبارة عن جماعات تدين بالثروة والسلطة والمكانة الاجتماعية لكفاءتها في استخدام السلاح، وقد استمدت احترامها من تلك الأسلحة؛ غـ ر أنّ إتقان استخدام الأسلحة لا يكون علامةً فارقةً إلا إذا احتاج إلى تدريب طويل وشاق ذي صلةٍ بنجاح الرجل في الحفاظ على حياته في المعركة؛ وهو الحال في معارك السيف والرمح والـ وس. أما الأسلحة النارية فلا تحتاج إلى وقتٍ كـ يرٍ تقان استعمالها، وهي ديمـ راطية في الآثار الناجمة عنها؛ إذ إنها تقتل الساموراي والعامة بالسرعة نفسها، ولا تميّز يـنهم؛ وهو ما حصل في الهجمات اليائسة لعشـ رة تاكـ دا في معركة ناغاشينو.

كيفية استخدام المسكيت[157]: دليل استخدام بندقية اناتومي عام 1608. في هذا العام، بدأ توكوغاوا إياسو بعملية التخلص من البنادق في اليابان.

يمكن الـول إنّه، ومنذ البداية، لاقى استخدام البنادق في المعارك مـاومة في اليابان، فقد ألغت البنادق المعارك الفردية التي تضمن للساموراي مجده الشخصي، وكان نفور الساموراي من البنادق كـيراً، وهذا ما جعل غالبية حملة البنادق في جيش أودا في معركة ناغاشينو من الفلاحين؛ فقد كره الساموراي السلاح الجد د لأنّه يجعلهم عرضةً للقتل ممن هم أدنى مرتبةً اجتماعيةً منهم. ولم تكن طبقة المحاربين المحترفين في اليابان صغـرة، ل على العكس شكّلت نسبةً ضخمةً، تراوحت ين 7 و10 بالمـ ة من عدد السكان، مـارنةً بأقل من 1 بالمـة من طبقة النبلاء ا قطاعـين في أوروبا. ولهذا، أصبح الضغط للتخلي عن هذه الأسلحة الكريهة هائلاً بعد انتهاء الحروب الأهلية والمغامرة

الكورية.

وفي عام 1607، ركّز توكوغاوا إياسو على إنتاج الأسلحة النارية في مركزين فقط، وأوجد مهنة مفوض البنادق لترخيص الطلبات كافة، ولكنه عملياً لم يُرخِّص إلا لطلبات الحكومة. وتضاءلت تلك الطلبات حتى انعدمت خلال الـ رن السابع عشر، فاختفت البنادق بطءٍ، وتحوّل أفضل صانعي الأسلحة اليابانيين تدريجياً إلى صناعة السيوف. وهكذا، شهدت التكنولوجيا في اليابان عودةً إلى الوراء. لـ د تخلّت الطبقة العسكرية الحاكمة في اليابان عن البنادق خوفاً من آثارها الاجتماعية، والتي من شأنها أن تقوّض المعادلة العسكرية التي تضمن بـ اءها في أعلى السلم الاجتماعي.

شهدت أوساط الطبقة العسكرية المحترفة في أوروبا قلـ اً مماثلاً بشأن الآثار الاجتماعية المترتبة عن انتشار الأسلحة النارية. وفي نهاية الـ رن الخامس عشر، قام أحد قادة مجموعات المرتزقة ا يطالية، ويدعى جيان باول فيتلي، بسمل ع ون حملة البنادق الذين ُ لـ ى الـ بض عليهم وقطع أ ديهم، معتبراً أنّه من المشين قتل المشاة من الطبقة الدنيا للنبلاء العسكريين من مسافةٍ بع دة[158]. لكن هذا لم يتعدَّ ما حصل لحملة الـ وس والنشاب والأقواس الطويلة من قبل المدافعين الغ ورين على النظام الاجتماعي الـ ديم ولعدّة مئات من السنوات. ولم يكن من شأن مثل هذه الأفعال أن تعكس تيار التغ ير الجارف.

أوروبا ليست اليابان، فهي لم تشهد مجرد ثورةٍ عسكريةٍ، وإنما شهدت تطوراتٍ طالت كامل هيكل السلطة السياسية وا نتاجية الاقتصادية، والتي لم يكن بمكان

الطبقة العسكرية بمفردها إيقافها. وبحلول منتصف عام 1500، كانت أهم منطقتين لإنتاج السلاح في إيطاليا – وهما مدينة بريشيا وفال ترومبيا المحيطة بها – تصنعان خمسة وعشرين ألف بندقية في العام؛ حتى في زمن السلم، وتضاعف الإنتاج أربعة أضعاف خلال الحرب ضد الأتراك بين عامَي 1570 و1573.

وبالرغم مما سبق، ظلت جيوش أوروبا مبنية على النموذج الإسباني؛ فقد كان الإسبان يملكون القوة العسكرية الأكثر نجاحاً في عصرهم، إذ تشكلت قوتهم من كتائب متماسكة من حملة الرماح بعمق ستة عشر أو عشرين أو حتى ثلاثين صفاً من الفرسان المتمركزين في زوايا التشكيل، ومن مدفعية ميدان ثقيلة، والتي كانت بطيئة الحركة وموجودة في الخط الأمامي. وكان هناك حضور للخيالة المتمركزين في الأجنحة، لكن دورهم كان آخذاً بالتقلص، حتى بعد استخدامهم الأسلحة النارية؛ فقد اقتصر دورهم على الهرولة والوصول إلى تشكيل المشاة وإطلاق النار من مسدساتهم ليتراجعوا بعد ذلك ويتزوّدوا بالذخيرة ويعيدوا حشو أسلحتهم، ثم يكرروا ما سبق. كان هذا نموذجاً كلاسيكياً بطيئاً وغير عملي من الحرب، ولذلك جاءت الكارثة المعروفة باسم حرب الثلاثين عاماً لتغيّره.

تمزقت أوروبا أكثر مع حلول منتصف القرن السادس عشر، إذ بدأت سلسلة من الحروب الدينية الناشئة عن الإصلاح البروتستانتي ولا سيما حروب هوغونوتون[159] في فرنسا بين عامي 1562–1593، والثورة الهولندية ضد الحكم الإسباني التي بدأت عام 1567 واستمرت لثمانين عاماً. وفي الأعوام التالية لعام 1618، اجتمعت جميع

النزاعات المنفصلة في الحرب الأولى التي تورطت فيها جميع الـ وى الأوروبية. وفي الوقت الذي وضعت فيه حرب الثلاثين عاماً أوزارها عام 1648، كان النظام الدولي الـ ائم على السيادة المطلقة للدولة قد شمل العالم، وأصبح يتمتع بالاستقرار، لكن ذلك لم يعنِ توقف المعارك؛ إذ استمرت بالشكل الذي كانت عليه وربما أكثر بـ ليل بالمـ ارنة مع الحروب قبل قرنٍ مضى، وأزهقت أرواح أكثر من ثمانية ملا ين شخص!

كانت الحماسة الدينية حاضرة بـ وة في الحرب؛ مما جعل المنتصرين أكثر وحشية، ولم يعرفوا التسامح مع المهزومين. غـ ر أنّ الحكومات لا الكنائس هي التي خاضت الحروب، وتفاعلت الـ ومية الصاعدة الحديثة في نفوس بعض الشعوب، وخاصةً الفرنسية وا نكليزية والهولندية والسويدية، وسارعت الحكومات إلى استغلال المشاعر الـ ومية والدينية معاً لتدعم سياساتها، واستندت حسابات الملوك ومستشاريهم إلى مواضيع الـ وة والأمن، ولعب الدين الدور نفسه في تفك رهم، كما تلعب الأ د ولوجية هذا الدور في تفك ر حكومات اليوم.

اعتمد معظم الحكام الكاثوليك والبروتستانت على منظورهم الخاص للحـ يقة، واستخدموه لتـ رير أفعالهم، ووجدوا في من شاركهم العقلية نفسها من الحكام الآخرين حلفاءَ طبيع ين في الصراع الوحشي للحفاظ على كرسي العرش، ولضمان بـ اء سلطانهم ين دول أوروبا. ولم يفصل معظمهم معتقدهم ا د ولوجي العقائدي عن هواجسهم المتعلقة بـ وة الدولة. ولم يكن هذا إلا جزءاً من الحسابات عينها التي حكمت لعبة السلطة الأوروبية، والتي تجلت وضوح في

حرب الثلاثين عاماً، وشاركت بها جميع الدول الأوروبية، إلا أنّ اللافت هو أنّ مصلحة تلك اللعبة كان الصفر! إذ إنّ في ازدياد قوة إحدى الدول خسارة للأمن الأخرى، وسادت تلك القاعدة بين الدول؛ حتى تلك المتباعدة عن بعضها كالسويد وإسبانيا، والتي لا توفر لها الجغرافيا الكثير من الأسباب لتحارب إحداها الأخرى، ولكنهما تحاربتا وقُتل جنودهما في ساحات القتال في ألمانيا. وفي النهاية، كانت لعبة السلطة أهم من الأيديولوجيا الدينية. وكما دفعت خشية الصين الشيوعية من تنامي القوة السوفياتية إلى بناء ارتباط فضفاض مع الدول الرأسمالية في سبعينيات القرن الماضي، اندفعت فرنسا الكاثوليكية الخائفة من إمبراطورية هابسبورغ المنتصرة للتحالف مع القوى البروتستانتية الأضعف، وإطالة أمد الحرب لحين استعادة (توازن القوى) (مما يعني أنّ الحرب انتهت بتكافؤ الطرفين)، ودفع الألمان ثمن هذه السياسة لأنّ أرضهم كانت ملعب تلك القوى المتصارعة في حرب الثلاثين عاماً.

«انفلتت القوات المنتشية بالنصر من عقالها، وباءت جميع محاولات ضبطها بالفشل... وبحلول منتصف النهار، انطلقت النيران فجأةً في حوالي عشرين منطقةً مختلفةً من المدينة، ولم يمتلك تيلي وبابنهايم الوقت للتساؤل عن مصدر النيران، وحدقا حولهما بذعرٍ، وهبّا لجمع الرجال الثملين والطائشين والمنهكين في الوقت نفسه بسبب مقاومة المدينة. كانت الرياح عاتيةً، وما هي إلا بضع دقائق حتى تحولت المدينة إلى فرنٍ، وأخذت البيوت الخشبية بالسقوط وسط أعمدة الدخان واللهب. أصبح جلّ همّ الضباط الإمبراطوريين إنقاذ الجيش وجمع الرجال في العراء. وبسرعةٍ،

انفصلت أحياء كاملة عن بعضها بجدرانٍ من الدخان الكثيف. أما أولئك الذين تخلفوا لجمع الغنائم، أو الذين ضلوا طريقهم، أو الذين رقدوا في الأقبية مخمورين ومذهولين، فقد طالتهم يد الموت جميعاً»[160].

حصل تدمير لمدينة ماغدبورغ مع وفاة أكثر من أربعين ألف نسمة في عام 1631؛ عندما بدأت أسوأ مرحلة من مراحل الحرب. إذ مرّت جيوش المرتزقة عديمة الرحمة عبر ألمانيا في الفصول المتتالية للحرب، ونهب المرتزقة ما أعجبهم وخلّفوا الأمراض وراءهم. دُفِع الفلاحون اليائسون والجائعون إثر هذه الظروف السيئة مراراً وتكراراً إلى التمرّد، ولكنهم قُمِعوا بوحشية من قبل جميع الأطراف. ومع مرور السنوات الطويلة للحرب، تدهورت إمدادات الجيوش بشكلٍ مطردٍ، وارتفعت وتيرة نهب الجنود الجياع للريف الأجرد والجائع أصلاً، وأخذ الانضباط الاجتماعي بين المدنيين والانضباط العسكري بين الجنود بالانهيار بشكل تام على مساحات متزايدة من البلاد، وازدحم المشهد بالجماعات البائسة من اللاجئين والجماعات المغيرة من الفاريين من الجيش، ولم يكن بالإمكان تمييز سلوكهم عن بعضهم بعضاً. وأصبح القتل للحصول على رغيفِ خبزٍ أمراً مألوفاً، وسُجِّلت حالات لتناول لحوم البشر! وفي الوقت الذي جلبت فيه معاهدة وستفاليا[161] سلام الاستنفاد للأطراف المنهكة في أوروبا عام 1648، كان عدد سكان ألمانيا قد انخفض من واحدٍ وعشرين مليون نسمة إلى ثلاثة عشر مليون نسمة فقط، ونقص عدد قرى بوهيميا من خمسة وثلاثين ألف قريةٍ إلى ستة آلاف قريةٍ فقط.

واستغرق الأمر قرناً ونصف القرن لتقوم حرب أخرى في

أوروبا وتتسبب في مقتل الأعداد نفسها من البشر، كما استغرق ثلاثة قرون كاملةٍ حتى تتفوق خسائر المدنيين مجدداً على خسائر العسكريين. ولم تكن للأهوال التي شهدها الضحايا علاقة بضبط حكام أوروبا أنفسهم وعدم انجرارهم لحمام الدماء في تلك الفترة الطويلة من الزمن (كان أغلب الضحايا من الفلاحين الألمان، ولم يُقتل سوى ثلاثمئة وخمسين ألفاً من الجنود)، وإنما تعلّق الأمر بالذكريات الحيّة للحكام. فإذا خرجت تلك الحروب المخيفة عن السيطرة فستختفي دول وسلالات بكاملها من الوجود؛ وهو ما حدث للكثير من ممالك ألمانيا الصغيرة خلال حرب الثلاثين عاماً.

إنّ الهدف الأساسي لأي دولةٍ وأي سلالةٍ هو استمرارها؛ وهو أمرٌ لن يُكتب له النجاح إذا ذهبت الحرب بعيداً جداً، وربما يفسر هذا الأمر سبب تصرّف الملوك كما لو أنهم أعضاء في النادي نفسه. حتى إن أولئك الذين عززوا مواقعهم كحكامٍ مطلقين لدولٍ ذات سيادة خاضوا الحروب ضد بعضهم بعضاً، واستولوا على بعض المقاطعات الحدودية لبعضهم بعضاً، أو على أقاليم تقع وراء البحار، وحاولوا تقويض سلطة بعضهم بعضاً بالطرائق كافة. لكن، كان هناك اتفاق ضمني بأنّ أي عضوٍ في نادي الحكام لن يخسر إلى الحد الذي يختفي معه من اللعبة تماماً (كانت بولندا هي الاستثناء الوحيد؛ باعتبارها دولةً ضعيفةً ومقسمةً بموجب اتفاقٍ بين جميع جيرانها الأقوياء). وهكذا، بقيت أهداف الحرب محدودةً بشكلٍ واضحٍ في السنوات المئة والخمسين المقبلة، وكان مصدر تلك المحدودية مصلحة كلّ سلالة بالاستمرار فحسب.

لا يعني هذا معارك أقل عنفاً، فقد هيمنت الأسلحة النارية أخ راً على ميدان المعركة، وكان الرجل المسؤول عملياً عن هذا التغ يرٍ هو الملك السويدي غوستافوس أدولفوس، فقد حكم مملكةً ذات عدد سكان قليل (أقل من مليون ونصف مليون نسمة)؛ وهو ما جعله واجه الصعوبات الدائمة مع البلدان الأقوى المحيطة به مثل روسيا وبولندا والدنمارك، وعليه، احتاج إلى طريقةٍ لعلاج مشاكله العسكرية الناجمة عن قلة عد د سكانه من خلال الابتكار التكتيكي، فهو غ ر قادر على محاربة ج رانه بالمثل واسطة الطريقة النموذجية آنذاك (الدفع بالرمح)، والتي تحتاج إلى أعداد ك يرة. وهنا ولد أول جيشٍ لا يستطيع ا سكندر الأك ر قيادته.

أدرك غوستافوس أدولفوس هيمنة التشكيلات المتماسكة من حملة البنادق وفق الطراز ا سباني، والتي هيمنت آنذاك على ميادين القتال الأوروبية. لـ د كانت أهدافاً مثاليةً طلاق النار عليها إذا حصل على ما يكفي من أدواتٍ طلاق النار، ولذلك عمل على إعادة تصميم المسكيت السويدية الـ ديمة لتصبح خفيفةً حيث تُستخدم من دون الـ طعة الخش ية البارزة من الأمام، واست دل آلية الـ دح الـ ديمة التي تعتمد على الفت ل بما أطلق عليه (الـ ادح البلطي ي) (النسخة المبكّرة من الزند ذي الصوانة) لضمان أن يُطلق السلاح النار، ثم قام بتحويل ثلثي المشاة لديه إلى حملة بنادق بعمق ستة صفوف فقط، ونزع جميع دروعهم لجعلهم أكثر قدرةً على الحركة، وكرر الأمر ذاته في المدفعية؛ بأن تخلى عن الـ طع الد لية الثقيلة التي كان يجرّها أربعة وعشرون حصاناً، واست دلها بمدافع سريعة ا طلاق ذات منصة يمكن لحصان أو حصانين سريعين سحبها، وبالتالي يسهل نقلها في ساحة المعركة حتى خلال

إطلاق النار.

ولأول مرّة، أصبحت قوة النيران فعّالةً للغاية في ميدان المعركة. إذ يمكن لصليات البنادق وقذائف المدفعيات التابعة لجيش غوستافوس أدولفوس تحطيم تشكيلٍ من حملة الرماح من بعد مئة ياردة، ومن دون الحاجة إلى احتكاك مباشرٍ مع العدو. وبمجرد اختلال توازن تشكيلات الخصم إثر نيران المدفعية والبنادق، سيهاجمهم الفرسان الخيالة المدربون على القتال بالسيف، وسيحولون فوضى العدو إلى هزيمة.

بالإضافة إلى ما سبق، خلا جيشه من المرتزقة، وكان أغلبه من السويديين الذين حركتهم الحماسة الدينية والوطنية الحديثة. وبفضل الإصلاحات العسكرية التي أجراها والده، كان على كلّ مقاطعةٍ سويديةٍ إرسال عددٍ محددٍ من الرجال إلى الجيش النظامي لغوستافوس أدولفوس. وعندما وصل هذا الجيش إلى ألمانيا لإنقاذ القضية البروتستانتية المنهارة عام 1630، استطاع وضع حدٍّ لجيوش المرتزقة ذات النمط القديم والتابعة لخصومه الإمبراطوريين (أي الإسبان والنمساويين) وذلك بكفاءةٍ كبيرةٍ، وقُتل غوستافوس أدولفوس نفسه في معركةٍ عام 1632. كان التدخل السويدي في النهاية مجرد حلقةٍ واحدةٍ فحسب في حربٍ بلا نهاية، وسرعان ما اعتمدت الجيوش الأوروبية التكتيكات الثورية التي وضع أسسها الملك السويدي.

«إنّ السلاح الناري هو الذي يقرر نتيجة المعركة الآن لا الفولاذ البارد».

ج. ف. بويسيجر 1748 [162]

انخفضت نسبة الفرسان في الج وش الأوروبية من حوالي النصف إلى الربع في الـ رن التالي لحرب الثلاثين عاماً، وأصبح المشاة سادة المعارك، كما تراجع بسرعة عدد حملة الرماح على حساب ارتفاع عدد حملة البنادق، وزُوِّد المسلحون بالبنادق بحرابٍ قصيرةٍ يمكن إضافتها إلى البنادق كحرابٍ مؤقتةٍ في حال تصديهم لهجومٍ من الفرسان، لكنّ هذا جعلهم في حيرةٍ من أمرهم في حال حدوث هجومٍ مباغتٍ من قبل الفرسان الخيالة؛ فهل يطلـ ون رشقةً واحدةً أخ رة ويخاطرون بعدم امتلاك الوقت الكافي لتركـ ب الحراب إذا لم تعق النـ ران الهجوم المفاجئ؟ أم ركّـ ون الحراب على البنادق في وقتٍ مبكرٍ وبالتالي يتخلون عن قوتها في إطلاق النار؟ لـ د أنهى ابتكار غمد الحربة هذه المعضلة من خلال إفساحه حرية إطلاق النار للبندقية، وأدى في الوقت نفسه إلى القضاء على دور الحراب بالكامل. وبحلول عام 1700، حمل جميع رجال المشاة البنادق.

علاوةً على ذلك، زُوِّدت البنادق التي حملوها بـزنـدٍ ذي صوانة (flintlocks)، وهي آلية قدح أكثر تطوراً، وبذلك أصبحت البندقية تخط مرتين لكلّ عشر طلـ ات في حال استخدامها من قبل جندي مدرّب بشكل جـ د، كما يمكنه حشوها وإطلاق النار منها مرتين في الدقيقة، لكن تحـ يق الدقة في إصابة احتاج إلى مسافات قصيرة؛ غـ ر أنّ هذا لم يكن ذا أهميةٍ كـ يرةٍ إلا لماماً، فهي لم تُستخدم آنذاك ضد الأهداف الفردية، لـ استخدمت بشكلٍ جماعي، فقد كانت مهمة كتـ بة المشاة إطلاق وا لٍ من النـ ران في وقتٍ واحدٍ، ويمكن تشـ يه الكتـ بة في هذه الحالة بمدفعٍ بشريٍ ممتدٍ ذي عدّة مئات من الأجزاء المتحركة (الجنود)، ويتمتع بالـ درة على إطلاق رشقةٍ واحدةٍ كلّ ثلاثين ثانية.

وفي نهاية الـ رن الثامن عشر، قام أفراد الجيش البروسي بـ جراء تجارب على بنادقهم، فوضعوا هدفاً قماشياً بعرض مـ ة قدم وارتفاعٍ ست أقدام، وذلك لمحاكاة وحدةٍ من العدو، واستقدموا كتـ بـة روسيةً من المشاة لتطلق وابلاً من الن ران عليها من مختلف المسافات. ومن مسافة 225 ياردة، أصاب 25 بالمـ ة من الرصاص الهدف الضخم، وأصاب 30 بالمـ ة من الرصاص الهدف من مسافة 150 ياردة، أما من مسافة 75 ياردة فأصاب 60 بالمـ ة الهدف؛ وهذا يؤكد ما يعرفه كلّ جندي خاض غمار القتال: يجب أن يكون القتال من أقربِ مسافةٍ ممكنةٍ[163].

مثالٌ آخر: خلال معركة فونتنوي (battle of Fontenoy) عام 1745، شاهد لواء الحرس البريطاني الخارج من طريقٍ مغمورةٍ بالماء خصومهم جنود المشاة الفرنسيين. دعا الضباط الفرنسيون قائد الـ وات البريطانية اللورد تشارلز هاي (Lord Charles Hay) لفتح النار، فأجاب على عرضهم بمجاملةٍ: «لا يا سيدي، لسنا ممن يطلـ ون النار أولاً!»، وليواصل البريطانيون تقدّمهم صاح أحد أفراد الحرس ين الصفوف: لما نحن على وشك تلـ يه، ندعو الله أن نكون من الشاكرين.

دأ الفرنسيون بـ طلاق وابل ن رانهم، وبينما أخذوا بحشو بنادقهم مجدداً، تقدم من بـ ي من الـ وات البريطانية مسافة ثلاثين خطوةٍ فقط، وردّوا وا لٍ من الن ران فقتلوا وجرحوا تسعة عشر ضابطاً وستمـ ة رجلٍ من الفوج الفرنسي في ثانيةٍ واحدةٍ، وكما هو متوقع، تشتّتَ الباقون ولاذوا بالفرار؛ لـ د كان هذا هو المذهب التكتيكي الـ ياسي السائد في ذلك الوقت، حتى إنّ الـ وات الثورية الأمريكية في بنكر هـ ل (Bunker Hill) قد تلقت الأمر الشهـ ر: «لا

توقفوا النار حتى يظهر ياض ع ونهم!».

تطلب هذا النوع من المعارك نظاماً جد داً قائماً على الانضباط التام؛ إذ توجب على الجندي أن يؤدي الكث ر من الحركات المعقّدة اللازمة لحشو بندقية المسكيت وتصويبها، في الوقت الذي واجه فيه مجموعةً معادية تطلق عليه النار من بُعد مـ ة ياردة فقط، ومن دون أن يحصل احتكاك عاطفي أو جسدي، أو بُذَل مجهود عنيف في المعركة. ولا شكّ في أنّ الوقوف في صفوفٍ لساعاتٍ طويلةٍ في مرمى النيران المتواصلة من المدفعية التي لا تبعد أكثر من خمسمـ ة أو ستمـ ة ياردة أسوأ بكث رٍ من أي مجهودٍ أو احتكاكٍ. كان هذا حال الكث ر من الكتائب التي لم تشارك في القتال المباشر، ولكي بـ ى الجنود في خطوط القتال في ظلّ هذه الظروف، لا دّ من تطبيق أقسى أشكال الانضباط، وقد ذكرت لوائح الجيش البروسي أنّه: «إذا أوشك الجندي على الفرار، أو خطا خطواتٍ نحو ذلك، يحق لضابط الصف خلفه أن يهاجمه ويقتله بحربته على الفور»[164].

قارب عدد إصابات معارك الـ رن الثامن عشر عدد خسائر الحروب الـ ديمة، ويكمن الاختلاف هنا في تساوي الطرفين نسبياً في الخسائر أكثر من الأزمان السا قة؛ فقد أصبح القتل عن بعد، وتضاءلت فرصة حدوث مجزرةٍ إذا تراجع الخاسرون. أما نسب ا صابات في المعارك النموذجية، فقد كان خمساها من جراء ن ران البنادق، وخمسان آخران بسبب مدفعية الميدان، وأقل من خمس بالسيوف والحراب المستخدمة من مسافاتٍ قريبةٍ. لكن المذبحة من ناحية الأرقام لم تتغيّر، والمثال من معركة لينهايم[165] عام 1704، حيث فقد

المنتصرون 12,500 رجل (أي ما نسبته 24 بالمئة من القوة المشاركة)، أما الخاسرون فقد تكبدوا 20,000 قتيل وجريح (40 بالمئة من قوتهم)، وذلك خلال خمس ساعات من القتال في يومٍ واحدٍ.[166] وفي حرب السنوات السبع (1756–1763)، فقد الجيش البروسي 180,000 قتيل؛ أي ثلاثة أضعاف عدد الرجال الذين بدأت بهم الحرب![167] واشتكى قائدهم الملك فريدريك الكبير (Frederick the Great) من أنّ «المجندين الجدد قد يحلّون محل الذين سبقوهم، ولكنهم ليسوا بالنوعية نفسها... إذ أصبحت الوحدات في النهاية عبارةً عن مجموعاتٍ دون تدريبٍ وانضباطٍ يُذكر»[168].

حلّ عصر الحرب المحدودة في القرن والنصف الفاصل بين حرب الثلاثين عاماً والثورة الفرنسية، أي ما بين عامي 1648–1789. كانت المعارك رهيبة ولكنها لم تكن كثيرة، وبالتوازي ازداد حجم الجيوش – ازداد عدد الجنود في الطرفين المتحاربين من عشرة آلاف إلى ثلاثين ألفاً خلال حرب الثلاثين عاماً، ولكنه قفز ليصبح حوالي مئة ألف في المعارك الكبرى التي شهدها القرن الثامن عشر – ونمت مبتعدةً عن المجتمع المدني، سواء أكان ذلك من حيث تركيبتها الاجتماعية أو بعملياتها، حيث تحارب الجيوش في ما بينها من دون أن تطال حروبها المدنيين.

استمرت الحروب تقريباً، والغريب في الأمر أنّ نتائجها السياسية لم تكن على تلك الدرجة من الأهمية، على الأقل في أوروبا؛ إذ تبدلت السيطرة على المقاطعات والحصون بين هذا وذاك، وكذلك على المستعمرات ما وراء البحار، وسيطر مرشحٌ آخر على العرش في مكانٍ ما. وأدى هذا الاستقرار النسبي إلى النمو المطرد للسكان والصناعة

في معظم القارة الأوروبية. وفي ذروة حرب السنوات السبع، غادر الروائي الإنكليزي – الإيرلندي لورنس ستيرن (Laurence Sterne) لندن متوجهاً إلى باريس من دون حصوله على جواز السفر الضروري للسفر إلى بلدٍ معادٍ. ويقول ستيرن: «لم يخطر في بالي أنّنا في حالة حربٍ مع فرنسا!». ورغم هذا، لم يوقفه أحد عند الساحل الفرنسي، وقام وزير الخارجية الفرنسي، وبكلّ أدب، بإرسال جواز السفر إلى ستيرن لدى وصوله إلى فرساي[169].

يمكن القول إنّ معظم الأنظمة الملكية الأوروبية في القرن الثامن عشر قد استثنت عمداً السواد الأعظم من رعاياها من أي علاقة بالحرب، كما استثنتهم من أي دورٍ في إدارة الشؤون الداخلية للدولة. كان الاستبداد هو السائد، وكان الحاكم المطلق يريد من رعاياه أن يكونوا أداةً طيّعةً لمشيئته، لا مواطنين مستقلين لديهم مصالحهم وآراؤهم الخاصة. كانت فرنسا لويس الرابع عشر أكثر ثراءً وسكاناً من الإمبراطورية الرومانية أثناء الحروب البونية، وكانت لديها القدرة على تشكيل جيوشٍ أكثر وأرخص؛ استناداً إلى مبدأ الالتزام الشامل بالخدمة العسكرية نفسه. إلا أنّ الجيش الروماني قد خدم الجمهورية؛ وهو مفهوم لم يكن مطروحاً على الإطلاق في ذهن لويس الرابع عشر. وبدلاً من ذلك، اختار هو وزملاؤه الملوك هذا النوع من الجيش؛ رغم ما فرضه من قيودٍ شديدةٍ على أسلوب الحرب، غير أنهم كانوا على استعدادٍ تامٍ للقبول بتلك القيود.

وبحلول نهاية القرن السابع عشر، كانت جميع ممالك أوروبا قد شكّلت جيوشاً متأهبةً، تسيطر حكوماتها عليها وتدفع لها، وتوجّب تمويل القوات النظامية حتى في زمن

السلم، ولكنها كانت أكثر موثوقيةً من المرتزقة، وتحررت الملكيات المطلقة واسطتها من الاعتماد على الخدمات العسكرية للسكان المدنيين في أية أزمةٍ؛ إذ أراد الملوك تجنّب الالتزامات والقيود المفروضة على سلطتهم في حال الاعتماد على المدنيين، وما قد يجرّه هذا من عواقب؛ عدا عن كون ذلك العصر عصراً برزت فيه الحاجة للبناء والحفاظ على ثروة الاقتصاد الوطني، ولم يشأ الملوك تقويض ذلك عن طريق إقحام مئات آلاف المواطنين المنتجين في الخدمة العسكرية.

وهكذا، تألفت جيوش أوروبا عملياً من النبلاء والمتشردين، فقد شارف الكثير من النبلاء الأوروبيين على الفقر المدقع، وبما أنّهم احتفظوا بميولهم العسكرية فقد تم دعمهم مالياً وإنما حُيِّدوا سياسياً عبر منحهم شبه احتكار لمرتبة الضباط في الجيوش النظامية الجديدة، وبذلك انعدم تهديدهم لسلطة الحكومة المركزية؛ فهم الآن مجرد موظفين مأجورين في الدولة وليسوا قادة مستقلين للقوات التي شكّلوها بأنفسهم. وعملياً، أصبحت تشكيلات الضباط في الجيوش الأوروبية منفرجاً جداً للطبقات البارزة (والتي شرعت بالمساومة والضغط للحفاظ على هذا الاحتكار شبه الكامل لرتب الضباط وكأنهم نقابة حرفية).

أما الجنود المأمورون من قبل أولئك الضباط فأتوا من الجهة الأخرى للطيف الاجتماعي؛ إذ كان أفضلهم من الفلاحين المعدمين أو المغامرين المفلسين أو اللاجئين السياسيين، وكان من بينهم الكثير من الثمالى وذوي الأمراض المزمنة والمجرمين الذين لم يجدوا أفضل من الجيش ملاذاً من الجوع أو قبضة العدالة، بالإضافة إلى الأجانب الذين سجلت نسبتهم ما يصل إلى ثلث قوات الجيش الأوروبي

النموذجي. وعليه، لم يكن با مكان الحفاظ على انضباطية تلك الج وش المؤلفة من مثل أولـ ك الرجال إلا بالسوط وحبل المشنقة وفرق ا عدام بالرصاص. وبشكل عام، «يجب أن يخشى الجندي العادي ضباطه أكثر من العدو» وفق ما يوله فريدرك الك ير[170]، أما دوق ولنغتون[171] فيول عن قواته: «لا أدري إن كانوا يُخيفون العدو، لكن الله يعلم أنّهم يخيفونني!».

إنّ ما حصل في الأساس هو استئجار الحكومة المركزية والمناطق الحضرية البرجوازية لطبقة النبلاء الآخذة بالانهيار، با ضافة إلى الطب ات المتدنية والهامشية، وتجن دهم للقتال في الحروب نيابةً عن مجتمعات أواخر ال رن السابع عشر ومن ثم ال رن الثامن عشر، حيث تنامت السلطة والثروة بشكلٍ مضطرد. غ ر أنّ تكلفة الج وش كانت ك يرة حتى ذلك الوقت؛ أقله بالتناسب مع الموارد المتاحة لحكومات تلك الفترة؛ فقد اضطرت للحفاظ على قوتها جاهزةً للحرب حتى في وقت السلم. وعملياً، كانت الحرب الأولية مع ال وات نفسها، فقد استغرق الأمر عدّة سنواتٍ من التدريب لتحويل المجند الجد د إلى جنديٍ مف دٍ.

وربما كانت كلمة (تكيّف) بالمعنى البافلوفي[172] للكلمة أفضل من مفردة (تدريب)؛ إذ لم يُطلب من الجندي العادي التفك ر، وإنما طلب منه تقليل حماسته - فقد مُنِع الجنود الفرنسيون من الكلام أو الصراخ حتى أثناء الهجوم - كما تم إرساء الطاعة العمياء وال درة على التحمل، وتنفيذ مناوراتٍ معقّدةٍ للغاية في تشكيلات ك يرةٍ، وحشو بندقية المسكيت وإطلاق النار بأسرع ما يمكن عند احتدام القتال؛ وقد تحقق ذلك من خلال آلاف الساعات من التدريب

المتكرر، والمرافق لتهد د دائم بالعقوبة الجسدية في حال عدم التنفيذ بشكل صحيح. ورغم احتقار الجندي المدرّب كفرد إلا أنّه كان سلعةً باهظة الثمن وصعبة التعويض على المدى ال صير، ولذلك رفضت الدولة التفريط بحياته في المعركة. وكما لاحظ المارشال ساكس[173] عام 1732، وبما يشبه الحكمة الصينية: «لا أحبذ المعارك الضارية، وخاصةً في داية الحرب، ل إنّني على قناعة بأنه بمكان الجنرال الماهر خوض الحرب طيلة حياته من دون أن يُج ر على الانخراط في واحدةٍ منها»[174].

شكل الفرار من الخدمة في تلك الج وش مشكلةً مزمنةً لها؛ إذ ساد بؤس المعيشة، والانضباط الوحشي، والتدريب المتكرر، وما نتج عن ذلك كله من مللٍ وغباء، وهذا ما جعل الخدمة غ ر جذابة في وقت السلم. أما في وقت الحرب، فكان الجنود يفرّون عند معرفتهم باحتمال نشوب الحرب، وخاصةً لأنّهم لا يحملون أي مشاعر وطنية. على سبيل المثال، لم تمنع الاحتياطات الصارمة جداً ثمانين ألف رجل من الفرار من الجيش الروسي، وسبعين ألف رجل من الفرار من الجيش الفرنسي[175] خلال حرب السنوات السبع، وفرضت تلك الاحتياطات المتطرفة لمنع الفرار قيوداً شديدةً على عمل الجنود في ساحات القتال.

استحال اعتماد الجيش على موارد الأرض عملياً؛ فإذا سُمح للجنود بالبحث عن الغذاء بأنفسهم، فإنّ الجيش سيتوارى عن الأنظار، ولذلك لم تكن ج وش ال رن الثامن عشر قادرةً على تحمّل انقطاع خطوط إمدادها أكثر من فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ، وشكّلت ترتيبات توريد ا مدادات إرهاقاً ك يراً لها؛ إذ لا دّ من بعض المستودعات المركزية قرب

منطقة العمليات، والتي كان عليهم إعدادها قبل فترةٍ طويلةٍ لتخزين كمياتٍ كبيرةٍ من المواد الغذائية للدوات العاملة (خُبِز الخبز في حرب السنوات السبع من طحينٍ عمره أربعين عاماً)، وقد تبعد أفران الخبز عن المستودعات ستين ميلاً، ووجب على عربات الخبز تسليمه بعد اجتياز مسافة أربعين ميلاً أخرى. وبالتالي، لم يكن بمكان الجيش التقدّم مئة ميل ضمن أرض العدو من دون إنشاء مستودعٍ متوسطٍ.

وكذلك، لم يكن بمكان نظام امداد هذا توريد العلف لأربعين ألفاً من الحيوانات المرافقة لجيشٍ بتعداد مئة ألف رجلٍ؛ مما كان يعني أنه على الجيش تخصيص الكثير من الوقت في الانتقال إلى مراعٍ جديدةٍ، إذ يحتاج أربعون ألفاً من الحيوانات إلى 800 فدان من العشب يومياً[176]. وهذا الأمر قيّد الجيوش وألزمها بتوقيت الحملة العسكرية لتكون بين شهري أيار/مايو وتشرين الأوّل/أكتوبر؛ أي عندما يكون العشب متوفراً في الحقول، باستثناء مناسباتٍ نادرةٍ.

ولذلك، خاضت الجيوش الحروب في بعض المناطق الحدودية واضحة المعالم والمليئة بالحصون، وكانت الحروب بطيئةً ومعقّدةً وتقوم على فكرة الحصار. ففي عام 1708، ضمت قافلة حصار مارلبورو (Marlborough’s siege) ثمانية عشر رشاشاً ثقيلاً وعشرين هاون حصار، وهو ما احتاج إلى ثلاثة آلاف عربة وستة عشر ألفاً من الخيول لنقلها، وانتشرت على مدى ثلاثين ميلاً من الطريق.

ناورت الجيوش لتهديد خطوط إمداد بعضها بعضاً، وفرض الانسحاب على

ليس سيركاً كبيراً متنقلاً، وإنما هو جيش في حملة من حملات القرن الثاني عشر. معسكر للجيش النمساوي، الفنان الألماني جورج بالتازار بروبست (Georg Balthasar Probst).

الخصم، وكانت المعارك الفعلية نادرةً نسبياً بسبب كلفة التفريط بالجنود، لذا كان من الأفضل إجبار الخصم على الانسحاب من خلال المناورة. تحركت الجيوش ببطءٍ شديدٍ (باستثناء الجيوش ذات التأهيل العالي)، وإذا تردد أيٍ من الجانبين في القتال، فسيجد الطرف الآخر صعوبةً كبيرةً في فرض المعركة عليه.

وما زاد في تقييد تلك الحروب هو أهدافها المحدودة، والتي نادراً ما كانت مصيريةً للأنظمة التي شنتها. إذ كان هناك نوع من التفاهم الشفهي بعدم مضي الحرب إلى الحدّ

الذي تسيطر فيه قوة واحدة على الـ وى الأخرى أو ت يد الخصم، وقد عزّز هذا التفاهم مفهوماً مضللاً، وهو مفهوم (توازن الـ وى)؛ وهو مضللٌ لأنه لم يعنِ ومها (واليوم أيضاً) تحـ يق السلام وضمانه ع ر المساواة الدائمة في الـ وى ين الدول أو التحالفات، وإنما المواجهة التـ ائية لأي دولةٍ أو تحالفٍ ذي سلطةٍ عسكريةٍ ناميةٍ بشكلٍ يهدد أمن الدول الأوروبية الأخرى. وقد تمت مواجهة تلك الـ وة النامية من قبل تحالفٍ ك يرٍ قادرٍ على كبح طموحاتها، وسهلت الحرب آلية تطبيق هذا المفهوم.

وفق هذا المفهوم، ومنذ حرب الثلاثين عاماً، ساد شعور بأنّ أوروبا أشبه بفضاءٍ سياسيٍ موحدٍ لأكثر من : عاماً، وانتشرت حروبها – مهما كانت جهة المصدر – لتشمل جميع الـ وى العظمى في زمنها، وهذا أحد تعريفات الحرب العالمية، وبحلول الـ رن الثامن عشر، كانت هناك حروب عالمية من الناحية الجغرافية. فعلى سبيل المثال، انتشر القتال خلال حرب السنوات السبع ليشمل جميع الـ ارات ما عدا أستراليا. وفي التسوية السلمية اللاحقة، حصلت ريطانيا وهي الفائزة الك رى على كندا والسنغال وبعض جزر الهند الغربية، واحتفظت بمعظم ثمار انتصارات كلايف[177] العسكرية في الهند، ولكنها اضطرت عادة كوبا والفلبين والأرجنتين إلى إسبانيا؛ ولعلّ الاختلاف الوحيد ين تلك الحروب والحروب العالمية الحديثة يكمن في أنظمة الفتك وحجم الخسائر البشرية.

مكّن تطوّر السفن الشراعية العا رة للمحيطات الأوروبيين من بسط سيطرتهم على شعوب الأمريكيتين خلال الفترة الأولى للتوسع الاستعماري في الـ رنين السادس

عشر والسابع عشر. فقد كانت تلك السفن أكثر الآلات التي أنجزها ا نسان حتى ذلك الوقت ضخامة وتعقيداً. غ ر أنّ الاستيلاء على نصف الكرة الغربي لم يتطلب تقانة وتنظيماً استثنائيين.

لـ د قضت الأمراض الوبائية التي ظهرت ع ر عشرة آلاف عام على السكان الأصليين في البلدات والمدن المكتظة في أوراسيا، وذلك قبل أن تُطلق رصاصة واحدة، عدا عن تأث ر خ ول الأوروبيين عليهم، والتي زرعت في قلوبهم الخوف والضعف. أما الـ سوة الأوراسية الممنهجية لدى الغزاة الأوروبيين فقد صدمتهم وجرّتهم إلى الخنوع. وفي حالة الأمريكيتين، كانت أي قوةٍ متحضرةٍ أخرى – ا مبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط، والمغولية في الهند، والصينية في شرق آسيا – قادرةً على إخضاع سكانها لو امتلكت السفن والدافع التجاري للوصول إلى هناك. ففي وقتٍ متأخر حتى عام 1683، كانت التكنولوجيا والمؤسسة العسكرية لا تزالان قريبتين من التكنولوجيا والمؤسسة العسكرية في أوروبا، وقد استطاع الجيش العثماني محاصرة ف ينا؛ وهذا أكثر من نصف الطريق من إسطنبول إلى باريس.

كان هناك تناقضٌ واضحٌ في تلك المرحلة. إذ نادراً ما تجرأت قوة أوروبية على التعمّق في أجزاءٍ أخرى من أوراسيا بما يز د عن مدى قذيفة مدفع، مما يعني أنّ مستوى ج وشهم كان أقل من مستوى سفنهم التي لا تُهزم. ولم تتغيّر تقنية الأسلحة كث راً في الـ رن وربع الـ رن التاليين، ولم تختلف بنادق الج وش الأوروبيةَ في ثلاثينيات الـ رن التاسع عشر عن بنادق الـ دح الصواني

المستخدمة في معركة لينهايم عام 1704؛ وهو ما ينطبق على مدفعية الميدان والسفن الحربية وجميع الأسلحة تقريباً، لكن الخصوم لم يتمكنوا من مجاراة الانضباط الصارم والتنظيم الشد د الفعّال الذي اعتمده الأوروبيون في استخدام تلك الأسلحة، وقد دعمت الثروات الأوروبية متسارعة النمو تلك المنظومة، وساعدت الأوروبيين في السيطرة على أجزاءٍ أخرى من العالم المتحضر بحلول الد رن الثامن عشر؛ حيث استولت ريطانيا على معظم الهند، وأخذت حدود السلطنة العثمانية بالتقلص تحت الضغط النمساوي والروسي.

وهذا ما دفع الأوروبيين من الج ل الأخ ر الذي سبق الثورة الفرنسية للنظر إلى الحرب على أنّها شيطانٌ م بولٌ، وربما مف د! إذ منح إتقان فن الحرب الحديث أوروبا السرعةَ الكافيةَ لسيادة العالم، وبتكلفةٍ منخفضةٍ نسبياً من حيث الأموال والأرواح. ولا تنطبق هذه النظرية المبهجة على الحروب المتواصلة داخل أوروبا نفسها؛ مع أنّها حروب مك وحة في إطارٍ معيّنٍ على الأقل. وبسبب هذه الحروب، عانت بعض المناطق الواقعة على مفترق الطرق العسكرية من متاعب شد دةٍ من وقتٍ لآخر (إذ خسرت م اطعة وميرانيا[178] سبعين ألف مدنيٍ خلال حرب السنوات السبع، وهو ما كان يُشكّل خمس سكانها)[179]، أما المعاناة الحد ية من الحرب فقد تحملها الجنود البع دون عن المجتمع المدني؛ فالمدن لم تتدمر، ولم تفرض على المدن ين ضغوط شد دة من حيث فرض الضرائب أو سوق أبنائهم إلى الحروب، ولم تُمحَ لدان أو تغرقٍ في الفوضى بسبب الحرب، وأصبحت مؤسسة الحرب محدودة ومتعقلةً وتحت السيطرة (وقد جعلها ذلك العصر العقلاني للغاية على هذا المنوال). ومع ذلك، فات على الد رن الثامن عشر معرفة مدى هشاشة ال يود الموضوعة على الحرب.

«سيستمر توازن الوى في التذبذب، وسيتواصل ازدهار مملكتنا أو الممالك المجاورة بالصعود والأفول، لكن لن تتمكن تلك الأحداث الجزئية من خلخلةِ حالة السعادة ونظام الفنون والوانين والأخلاق التي تُميّز الأوروبيين ومستعمراتهم عن بية الجنس البشري. ففي حالة السلم، سيتسارع التقدّم في المعرفة والصناعة من خلال المنافسة المحتدمة. وفي الحرب، ستتدرب الوات الأوروبية بخوضها نزاعات متوسطة وغ ر حاسمة».

المؤرخ الإنكليزي إدوارد جيبون

Edward Gibbon) 1782[180]i)

« دءاً من هذه اللحظة وحتى طرد أعدائنا من أراضي الجمهورية، على جميع الرجال الفرنسيين الاستعداد الدائم للخدمة في ج وش الثورة. سي اتل الشباب، وسيُعدّ الرجال المتزوجون الأسلحة وينقلون ا مدادات، وستصنع النساء الخيام والملابس ويعملن في المستشفيات... ستصبح المباني العامة ثكناتٍ، والساحات العامة مصانعَ للذخ رة... يجب تسليم جميع الأسلحة النارية ذات العيار المناسب إلى الجنود، وسيحرس رجال الشُرطة الم اطعات الداخلية بالبنادق والسلاح الأ يض، كما ستُصادر جميع خ ول الركوب المسرجة لصالح سلاح الفرسان، وجميع الخ ول المستخدمة لجرّ الأثقال والتي لا تعمل في الحراثة لتجرّ عربات المدفعية والتموين».

المرسوم الصادر عن المؤتمر الوطني

(Decree of the National Convention)، باريس 1793[181]

بعد كتابته عن العالم المثالي، استغرق الأمر أقل من عقدٍ من الزمن لتظهر ملامح هذا العالم الذي وصفه إدوارد جيبون؛ إذ قام على أسسٍ تفتقد إلى الاستقرار إلى حدٍّ كبيرٍ، وكان ضبط النفس في إدارة الحرب سلوكاً اصطناعياً للغاية، ولم يتجاوز إدانات الممالك الأوروبية المطلقة، والتي جمعتها مصالح مشتركة في بقاء السلالات المالكة؛ وهي مصالح أقوى من أي نزاعاتٍ قد تنشب بينها. كما أنّ ضخ الموارد العسكرية لدولها الملكية في الحرب بشكلٍ كاملٍ سيهدد عروشها عبر إطلاق العنان لقوى الاجتماعية والسياسية الداخلية. ولذلك، انتشرت الأفكار الداعية للمساواة والديمقراطية، وهي أفكار معادية للنظام القائم بطبيعة الحال؛ ممّا جعلها العملة الموحدة للفكر في نهاية القرن الثامن عشر. وكما كتب جيبون، حققت الثورة الأولى المؤسَسة على هذه الأفكار أوّل انتصاراتها في الولايات المتحدة.

وصلت الثورة إلى فرنسا عام 1789، ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بما يمكن أن يحصل اليوم؛ إلا إذا افترضنا استيلاء الماويين[182] (Maoists) على السلطة في الولايات المتحدة. فقد كانت فرنسا آنذاك المركز الفكري والثقافي للحضارة الغربية، وأكبر الدول الأوروبية. حتى إنّ روسيا لم تتفوق على فرنسا من حيث عدد السكان إلا في منتصف القرن التاسع عشر، ولذلك قامت جميع ممالك أوروبا تقريباً بإطلاق جيوشها ضد فرنسا للقضاء على الثوار المرفوضين من قبل تلك الممالك. وعندما وجدت قوى الثورة أنّ بقايا الجيش الملكي القديم والمتطوعين غير قادرين على وقف الهجمات، سارع المؤتمر الوطني إلى فرض التجنيد الإجباري.

طالبت حملة التجنيد الأولى في شباط عام 1793 بنسبةٍ من الرجال من كلّ مقاطعةٍ، على أن تتوحد الكتائب المحلية تحت شعار (ثورة الشعب الفرنسي ضد الطغيان). لكن الوضع العسكري استمر بالتدهور، مما دفع المؤتمر الوطني إلى تطبيق التجنيد الجماعي الشامل في آب من العام نفسه. وبحلول رأس السنة الميلادية لعام 1794، كان عدد الجيوش الفرنسية قد بلغ 770,000 رجل[183]، وتلا ذلك احتدام حروب الجيوش الكبيرة في أوروبا خلال العقدين التاليين.

لم يكن التجنيد الإجباري فكرةً مستحدثةً بالكامل، إذ سبق أن صدر مرسوم حكومي في فلورنسا في وقتٍ مبكرٍ من عام 1506 قضي بفرض التجنيد الإجباري على جميع الذكور ما بين الثامنة عشرة والثلاثين. لكن ذلك لم يكن أكثر من اختيار إلزامي لشريحةٍ غير محظوظةٍ من السكان، ولم يدم ذلك طويلاً ليتوسع ويشمل الدولة بكاملها. وفي حالة الثورة الفرنسية، تم تحفيز الجماهير من خلال مبادئها الداعية للحرية والمساواة في البداية، ومن ثم عبر استغلال الحماسة الوطنية التي جعلت من التجنيد الإجباري أمراً مقبولاً، وأتاحت للقوات الفرنسية التصرّف بشكلٍ مختلفٍ.

نجح شعار (الأمة تحت السلاح) في تقديم جنودٍ دينون بالولاء ومفعمين بالمبادرة القتالية في تشكيلاتٍ واسعةٍ ومتنقلةٍ، مع الاستعداد للاشتباك عند خط الجبهة. وبفضل حماستهم الثورية وأعدادهم الكبيرة تفوقوا على القوات النظامية متبلدة الحواس، والتي تأتمر من قبل الأنظمة القديمة وتتلقى تدريباً انضباطياً دعوه الجيش البروسي مازحاً

بالجثة المطيعة (kadavergehorsam).

كانت الج وش الفرنسية الجد دة عرضةً للفرار من الخدمة، لكن أعداد الج وش الك يرة جعلت من حالات الفرار الـ ليلة عديمة الشأن، ولم يعد متوجباً على المحاربين الب اء معاً، كما كان بمكانهم مغادرة مناطقهم لفتراتٍ قصيرةٍ، وإذا لم يتوفر لهم الخبز فسيحفرون في الد ول للحصول على البطاطا التي جاءت مؤخراً من الأمريكيتين؛ وهو ما يعني تحررهم من عبء المخازن وقوافل التموين المتعارف عليها سابقاً، ويعني السرعة في التحرك واجتياز مسافات أك ر، ولم يعد المدى العملي للجيش مـ ة ميل كحدٍ أقصى لتقدمه في أرض الخصم.

وهكذا، لم تتوقف المعارك إلا نادراً؛ إذ امتلكت الـ وات الفرنسية الحرية في مطاردة العدو المهزوم وتدميره من دون أن تخشى هروب عناصرها. وأصدر الكونت كارنو[184] من لجنة السلامة العامة (the Committee of Public Safety)

الهجوم على قصر التويلري عام 1792. فرض المؤتمر الوطني التجنيد الإجباري في فرنسا بعد ستة أشهر من ذلك الهجوم. اللوحة للرسام الفرنسي جان دوبلسيز بيرتو (Jean Duplessis-Bertaux).

التعليمات للجوش الفرنسية في عام 1794: «للعمل في تشكيلاتٍ جماعيةٍ والمبادرة بالهجوم... وللقتال على نطاقٍ واسعٍ ومطاردة العدو حتى تدميره تماماً»، ويول كارل فون كلاوزفيتز (Karl von Clausewitz)، وهو ضابط روسي شهد المعارك لأول مرّة ضد الوى الثورية في عام 1793 عندما كان في سن الثانية عشرة: «انهال ثقل الشعب الفرنسي المتعصب سياسياً بكامله علينا كالسيل الجارف»[185].

وبعد أن نصّب نابليون نفسه إمبراطوراً في عام 180، زالت الواجهة البراقة للمثل الديمراطية للثورة، وأصبح من

الواضح أنّ هدف الحرب وببساطةٍ هو بسط الهيمنة الفرنسية على كامل أوروبا (وإنشاء إمبراطورية عالمية)، وتمكّن نابليون من الاستمرار لعشر سنوات أخرى من الحرب المتواصلة بفضل الاستغلال البارع والأناني للشهية الفرنسية لتعزيز المجد الوطني، بالإضافة إلى جميع وسائل الإكراه المتاحة للحكومة الديكتاتورية. لقد جُنِّد حوالي 2.4 مليون رجل بين عامي 1804 و1813، ولم يتسرحوا من الخدمة ما داموا متمتعين بلياقةٍ بدنيةٍ مقبولةٍ (عاد أقل من نصفهم إلى منازلهم بعد زوال الإمبراطورية)، حتى إنّ نابليون قال ذات مرّة: «خُلِق الجنود ليلقوا حتفهم!». لكن مع مرور الوقت، أصبح المجندون أقل استعداداً لقبول هذه الفكرة، ولم يأتِ عام 1810 إلا وقد بلغت النسبة السنوية للمجندين الذين لم يلتحقوا بالخدمة طواعيةً حوالي 80 بالمئة[186].

وهكذا، تضاءلت قيمة الجنودِ في فرنسا، لكن هذا لم يحصل بالنسبة لأسلحتهم. إضافة إلى ذلك، اكتشف النظام الثوري بسرعةٍ سهولة الحصول على حصةٍ أكبر من الاقتصاد بالنسبة لحكومةٍ مركزيةٍ حديثةٍ ذات صلاحياتٍ ديكتاتوريةٍ، وذلك بالمقارنة مع النظام الملكي القديم الذي لم يجرؤ على القيام بخطواتٍ اقتصاديةٍ مشابهة؛ فتضاعفت مصانع الأسلحة المملوكة للدولة، وخضعت الأسعار والأجور لرقابةٍ صارمةٍ، واستطاعت الحكومة بسهولةٍ الاستيلاء على المعدات والمواد الغذائية والخيول، وتسدد ثمنها في وقتٍ لاحقٍ بالأسعار التي رأتها مناسبةً، وأحياناً لم تدفع ثمنها إطلاقاً. وعندما بدأت الفتوحات بالتراكم، جاء الكثير من الأموال من الخارج لتموّل الحروب نفسها بنفسها.

وعلى الجهة الأخرى، كان الأمر أصعب على خصوم

الفرنسيين، إذ توجب عليهم مضاهاة حجم الج وش الثورية من دون أن يجرؤوا على فرض التجنيد ا جباري؛ خشية تدمير الهيكل الهش للملكيات في لدانهم. وبالتالي، كان عليهم دفع الرواتب للجنود؛ مما فرض ع ئاً رهيباً على خزائنهم. وللوفاء بالتزاماتها دعم الآخرين، فرضت ريطانيا – وهي أغنى الحلفاء – أقدم وأوّل ضريبة دخلٍ في العالم عام 1799، وكان على جميع الدول الأخرى في أوروبا بذل أقصى قدراتها يا اف الفرنسيين، لكن قواعد الحرب تغيّرت جذرياً، وانتشرت الج وش الثورية في كلّ مكان، وأخذ نا ليون يضم ممالك بكاملها أو حوّلها إلى توابع بساطة، وعيّن أقاربه أو مارشالات ج وشه على عروشها، وواجهت الحكومات المتحاربة مع الفرنسيين حرباً مصيريةً، وكانت مستعدةً للمغامرة بكلّ ما تملكه للبقاء؛ إلى درجةالمغامرة بتسليح شعوبها.

جاء إعلان نا ليون نفسه إمبراطوراً على الفرنسيين متنفساً لأعدائه، وأصبح تسليحهم شعوبهم أكثر أماناً بعد أن سُحِبتِ المصداقية الثورية المتب ية للثورة الفرنسية، وتحولت الج وش الثورية الفرنسية إلى أجانب غزاة للوطن الأم، وسارع الملوك إلى استغلال الشعور الا ومي المتصاعد لدى شعوبهم بهدف تع ة الم اومة ضد الفرنسيين. حتى إن هذا الأمر دفع النمسا – وهي ا مبراطورية متعددة الجنسيات – إلى تجربة الميليشيا الشع ية في عام 1807 باعتبارها السبيل الوحيد «لمعالجة... ندرة مواردنا» (رغم اعتبار هذا خطراً سياسياً بالغاً من قبل المحافظين النمساويين، ولكنهم تراجعوا في النهاية)[187]. أما في إسبانيا التي كانت تحت الاحتلال الفرنسي لنصف عقدٍ من الزمن، فقد قاتل الثوار الا وميون الفرنسيين تحت اسم الملك

المنفي، وبدعمٍ من الجيش البريطاني النظامي المتمركز في البرتغال، وأوقعوا العدد من الإصابات في صفوف الفرنسيين خلال عدّة سنواتٍ كما فعلت الحملة الروسية الكارثية (ويبدو أن مفهوم حرب العصابات قد نشأ في خضم تلك الصراعات).

بعد أن أخضع نابليون الدول الأخرى كافة في القارة، اتجه نحو روسيا عام 1812 بجيشٍ بلغ تعداده 440,000 رجل، وجاء الردّ الروسي مماثلاً. وتُعرَف هذه الحملة في التاريخ الروسي باسم (الحرب الوطنية العظمى)؛ وهو مصطلح أعاد السوفييت إحياءه في تسمية نضالهم ضدٍ هتلر، وشهد اصطدام الطرفين الفرنسي والروسي وحشيةً تخلو من أي شفقة، وذلك بسبب العداء الوطني الذي لم يكن له وجود في زمن الحروب المحدودة والجيوش المحترفة. وفي معركة بورودينو (battle of Borodino)، وهي معركة الصمود الأخيرة للروس قبل موسكو، فقد الروس خمسة وثلاثين ألف رجل، فيما خسر الفرنسيون ثلاثين ألفاً، وقد وصف اثنان من شهود العيان تلك المعركة الدموية:

«ما إن وصلنا إلى طرف الوادي ذي السفوح المنحدرة حتى أطلق الروس علينا النار من بطارية المدفعية والعديد من البطاريات الأخرى بجوارها، لكننا لم نتوقف. ورغم الجرح الذي أصبت به في ساقي، قمت بواجبي تماماً مثل رجالي، وذلك بالقفز بعيداً عن القذائف المرتدة إلى صفوفنا. تابعت طوابير بأكملها وحتى أنصاف فصائل تقدمها تحت وابل نيران العدو، وتركت فراغاتٍ هائلة بيننا... حاول أحد خطوط الدفاع الروسية إيقافنا، فأطلقنا وابلاً من النيران عليه من مسافة ثلاثين ياردة، ثم مررنا مندفعين باتجاه المتراس حيث يتحصنون، وتسلقنا الفتحة في جداره. وما إن

أطلقوا قذيفةً حتى هاجمنا، واستقبلتنا أطقم المدفعية الروسية بالحراب، واشتبكنا يداً بيدٍ. كانوا خصوماً مخيفين، وصُرع الكثير من الفرنسيين نتيجةً لطعنات البنادق بعد هذا الاشتباك مع الروس هناك».

الكابتن تشارلز فرانسوا، الكتيبة 30[188]

«كان منظر العدد الهائل من الجنود المصابين مروّعاً بكلّ ما للكلمة من معنى. فالفرنسيون والروس فوق بعضهم بعضاً، وقد عجز العدد من الجرحى عن الحركة، فاستلقوا وسط تلك الفوضى المرعبة محاطين بالخيول النافقة وبقايا المدافع المحطمة».

باركلي دي تولي، قائد الجيوش الروسية ضد نابليون[189]

ورغم انتصار نابليون في جميع المعارك – بما في ذلك معركة بورودينو الحاسمة – واحتلاله موسكو، إلا أنّ الروس رفضوا الاعتراف بالهزيمة، واضطر نابليون في النهاية إلى الانسحاب في منتصف الشتاء بسبب نقص الإمدادات. فقد دمّر الروس محاصيلهم ومخزونات غذائهم كيلا يستثمرها الفرنسيون، ولهذا لم يخرج من روسيا سوى بضعة آلافٍ من الفرنسيين على قيد الحياة.

استُدعِيَ مجندو عام 1814 قبل عام، وتم تجنيد من سبق لهم أن حصلوا على إعفاء، وذلك ليتمكن نابليون من جمع جيشٍ كبيرٍ آخر في ربيع عام 1813؛ إذ توقع نابليون مهاجمة الدول الأوروبية له في محاولةٍ لاستغلال الكارثة التي حلّت به في روسيا، وقد صح توقعه، ولكنه عانى للحصول على رجالٍ في ذلك الوقت، ولم يتعدَّ تدريب

المجندين الجدد أكثر من أسبوع قبل أن يُزج بهم في ساحة المعركة. ولاحت خطورة الموقف عندما قرر البروسيون في النهاية تطبيق التجنيد الإجباري. إذ لم تكن هناك مملكة استبدادية في أوروبا حيث التفاوت الطبقي والامتيازات المفرطة أكثر من روسيا. وجاء قانون عام 1813 ليطلب من جميع الذكور البروسيين

نهاية جيش نابليون الكبير: الانسحاب من موسكو.

الخدمة لثلاث سنواتٍ في الجيش النظامي لدى بلوغهم سن العشرين، تليها سنتان من الخدمة الاحتياطية النشطة، ومن ثم أربعة عشر عاماً من الخدمة الاحتياطية غير النشطة في الجيش الإقليمي الذي دُعي (لاندوير) (Landwehr)[190].

قام الجيش البروسي بإصلاحاته الماضية بالجمع بين حبّ الوطن والإكراه، ونجح في مغامرته بتحويل التجنيد

ا جباري إلى واقعٍ من دون الحاجة إلى المثالية الثورية التي تقضي بالمساواة يبن جميع المواطنين؛ إذ أغرى الجيش البروسي الرجال بالمساواة في المعركة، وهو أمر لم يعرفوه في حياتهم العادية. ولتطبيق ذلك، خرج الجيش بفكرة وسام الصليب الحديدي عند دء الحرب الجديدة ضد نابليون؛ وهو ليس مجرد وسامٍ للشجاعة، وإنما يكسر جميع تقاليد المجتمع البروسي؛ وذلك من خلال الانفتاح المتساوي على الفلاحين والبرجوازيين والنبلاء. وقد جاء في مرسوم الوسام: «إنّ كلّ شيءٍ على المحك في الكارثة الكبيرة التي تمرّ بها الأمة، لذا ستكرّم الروح الشجاعة التي ترفع رأس الأمة عالياً بما يميّزها، ولن تتحوّل المثابرة التي تمكنت واسطتها الدولة من تحمّل شرور العصر الحديدي (iron age) إلى ترددٍ، وهذا ما يتضح الآن من الشجاعة العالية التي تعتمل داخل كلّ صدرٍ، والتي لن تغنى أبداً ما دامت تستند إلى الدين والولاء الحقيقي للملك والبلاد»[191].

توسل المارشال لوخر[192] لد صلاحيين البروسيين: «أعطوني جيشاً وطنياً». وفي عام 1813، كان لديه جيش على أهبة الاستعداد، فقد تضاعف عدد أفراد الجيش بفضل المجندين ثلاث مرّاتٍ، وبهذا الجيش ألحق اثنتين من الهزائم الحاسمة بنابليون في معركة لايبزيغ (Leipzig) عام 1813، ومعركة واترلو عام 1815. ويقول لوخر: «كانت كتائب لاندوير متوسطة الأداء في البداية، وبعد أن تذوقت الكثير من بارود المدافع، أصبح عملها مماثلاً لكتائب الخط الأوّل»[193].

كانت معارك الحروب الثورية وحروب نابليون أشدّ ضراوةً من حروب القرن الثامن عشر، وأكثر منها بشكلٍ

عام. وقد وصل عدد الجنود في جيش نابليون في مناسبة أو اثنتين إلى حوالي مئتي ألف جندي في ساحة المعركة أو قربها. ورغم معاناته في السيطرة على مثل هذا العدد الكبير، إلا أنّ المعارك جرت بالأسلوب القديم نفسه، وقد تشابهت الأسلحة والتكتيكات، وبدت المعركة النابليونية النموذجية قريبةً من معارك الإسكندر الأكبر؛ باستثناء استبدال السلاح الأبيض بالأسلحة النارية في معظم الأحيان. فقد احتشد العدد نفسه من الرجال في تشكيلاتٍ مماثلةٍ للقديمة، وفي المساحة الصغيرة نفسها، وحاربوا لفترةٍ مماثلةٍ من الوقت (ربما أكثر ببضع ساعات في القرن التاسع عشر) وخلّفوا عدد القتلى نفسه تقريباً.

أما التغيّر الكبير الملحوظ فكان في عدد المعارك. ففي العصور القديمة، وحتى في حرب الثلاثين عاماً، نشبت ثلاث أو أربع معارك في العام، ومعركة أو معركتان في الحرب كلّها إذا تجاوز مجموع الجيوش المتحاربة مئة ألف رجلٍ. لكن في الفترة الواقعة بين عامي 1792-1814 سُجِّلت تسع وأربعون معركة، بالإضافة إلى معارك أصغر. لكن المعارك الكبرى حدثت بمعدل أكثر من مرّة في الأسبوع على جبهة واحدة أو على جبهات الحملة[194].

منحت إمكانية تعبئة شعوبٍ بأكملها للحرب الجنرالاتِ موارد بشريةً لم يتصورها أحد من قبل. وقد استغلوها بالفعل، وكانت النتيجة أربعة ملايين قتيلٍ على الأقل.

صحيح أنّ هذا العدد هو نصف عدد قتلى حرب

الثلاثين عاماً، لكننا أمام ظاهرةٍ مختلفةٍ. فقد كانت الغالبية العظمى ممن لـ وا حتفهم في حرب الثلاثين عاماً من المدنـ يـن الذين وقعوا فريسة المجاعة والطاعون أو القتل عندما انهارت لدان أوروبا الوسطى الفقيرة أساساً بسبب فترات القتال الطويلة. أما الغالبية الساحقة ممن قُتلوا في الحروب الثورية والنا ليونية فكانت من الجنود؛ وهو رقم لم يسبق له مثـ ل في التاريخ. ومع ذلك، لم ينهر المجتمع الأوروبي تحت وطأة هذه الكوارث رغم المشقات، ولم يعانِ من المجاعات، واستطاعت الـ وى المتحاربة التعامل مع هذه الكوارث وتمكينَ شعوبها من التعامل معها عاماً إثر عام، مع انعدام ما وحي وجود نهاية لها؛ فطوّرت البلدان الأوروبية الثروة والأساليب التنظيمية والدوافع اللازمة لخوض حروبٍ كـ يرةٍ وجود مشاركةٍ شعـ يةٍ بنسبٍ مختلفةٍ، وهو ما لم يستطع أي مجتمعٍ متحضرٍ آخر تحـ يقه.

وكان التغـ ير الكـ ير الآخر سياسياً وليس عسكرياً؛ فقد وجدت المجتمعات الجماعية، ولأول مرّةٍ، طريقةً للاستغناء عن حكامها المستـ دين وإحياء مبدأ ا نسان الـ ديم في المساواة، وأطاحت الثورات الشعـ ية بالملوك في أقل من خمسة عشر عاماً في عدّة أماكن؛ أولاً في المستعمرات البريطانية في أمريكا (لـغ عدد سكانها ثلاثة ملا ين نسمة)، ثم في فرنسا وهي أكـ ر دولة أوروبية (بعدد سكانها البالغ ثلاثين مليوناً). وكانت تلك هي الدول الكـ رى الأولى التي تقترب فيها الـ يم الاجتماعية من تلك التي وُجدت لدى أسلافنا البدائيين من أقوام الصيد والجمع، دلاً من قيم مجتمع النمل الملكية. وقد خرجت تلك الـ يم على شكل الاتصال الجماهيري الذي انتشر وضوح في تلك المجتمعات من خلال الطباعة والتعليم الجماعي. وهكذا، تغلبت المجتمعات

الكبيرة على مشكلة أعداد السكان الكبيرة، واستعادت قدرتها على مناقشة شؤونها واتخاذ قراراتها بشكلٍ جماعيٍّ بعيداً عن الهيكل الهرمي للسلطة والامتيازات الطبقية في الدول المتحضّرة التي لم تشهد شعبيةً لدى غالبية الناس، كما أنّها لم تعد ضرورةً عمليةً للمجتمعات. فقد أصبحت المجتمعات ذاتية التوجيه، وبكلمة أخرى ديمقراطيةً، وما إن حصل ذلك حتى تذكّر الناس أنّهم فضلوا هذه الطريقة على الدوام.

الفرسان الفرنسيون المدرّعون يهاجمون القوات البريطانية، معركة واترلو عام 1815، للرسام الفرنسي هنري فيلكس إيمانويل فيليبوتو.

وهذا لم يجعل الناس مسالمين بشكلٍ تلقائيٍّ، وهو ما وضّحه مثال فرنسا الثورية، لكن أسلافنا من أقوام الصيد والجمع لم يكونوا سلميين أيضاً. على كلّ حال، أتاحت الديمقراطية بعد أن أصبحت الشكل السياسي المهيمن على كوكب الأرض بعض الإمكانيات الجديدة والتي ستظهر لاحقاً في المستقبل البعيد. أما في ذلك الوقت، فقد كان

الأثر الرئيس للثورة الشع ية يكمن في تعليم الأغلبية التي لا تتمتع بالديم راطية من البلدان الأوروبية كيفية تطبيق شبه المساواة الـ ومية لتحفيز سكانها على المشاركة بالمجهود الحربي.

لم تتحوّل الحروب الجماعية الك يرة إلى حروبٍ شاملةٍ بسبب غياب التكنولوجيا آنذاك، غ ر أنّ الثورة الصناعية كانت قد لغت من العمر جيلاً واحداً في عام 1815، وسرعان ما ست دأ ردم تلك الهوة الأخ رة المتـ ية.

الفصل السابع

الحرب الشاملة

«كانت الحرب المحدودة أحد إنجازات القرن الثامن عشر الأكثر سمواً، ولكن ليس بإمكان تلك الحرب أن تكون إلا في ظلّ حضارة أرستقراطية ونوعية، وهو ما لم يعد بالإمكان الاستمرار به. ولعلّها أحد الأمور الجميلة التي فَقدناها إثر الثّورة الفرنّسية».

المؤرخ الإيطالي غوليلمو فيريرو،

Guglielmo Ferrero) 1933h[195])

«بغضّ النظر عمّا سيُسفك في الحرب مِن دماء، فإنّ من يستخدم القوة بشكلٍ متحفظ سيحقق النصر إذا استخدم خصمه قوةً أقل منه... ففلسفة الحرب لا تعرفُ الاعتدال، وما الحرب إلا أقصى أشكال العنف».

الجنرال والمؤرخ الحربي البروسي

كارل فون كلاوزفيتز، 1819[196]

تسترجع ذاكرة ف ريرو الد يقة الأساسية للحرب المحدودة، والتي تعود إلى الد رن الثامن عشر. فقد كانت تلك المحدودية جزءاً لا يتجزأ من النظام الاجتماعي الهرمي والاست دادي، ولن يكون بمـ دورها الب اء على قيد الحياة في المجتمعات الك يرة الجـ ددة حيث اس تشرت حمى الـ ومية. كان كارل فون كلاوزفيتز متحدثاً عسكرياً حـ يـ ياً في الد رن التاسع عشر، وهو من قدامى المحاربين البروسيين خلال الحروب النا ليونية، وقد أصبحت كتاباته عن نظرية الحرب مهمة جداً بالنسبة للأجيال التالية من الجنود.

ب يت الـ يود الـ ديمة على الحرب قائمةً ولو بشكلٍ مخففٍ لـ رنٍ تالٍ من الزمن، ومنها اب تعاد المدن ين عن الأهوال الأكثر سوءاً للحرب. فعندما يتم تجن د المدن ين ليرتدوا الزي العسكري سيكونون هدفاً واضحاً لجميع أنواع الأسلحة المتاحة. أما المدن ون الذين ظلّوا في منازلهم أو حتى أولـ ك الذين عاشوا في مناطق المعارك، فقد عاشوا بشكلٍ ما حياتهم بسلامٍ، وهناك ثلاثة أسبابٍ لذلك، أوّلها: انعدام الأهمية الك يرة لـ نتاج الصناعي من أسلحة ومعدات بالمـ ارنة مع أهمية جحافل الجنود أنفسهم ودورهم، وثانيها: عدم توفر أسلحة قادرة على ضرب مراكز إنتاج العدو، وثالثها: عدم وجود رغبةٍ حـ يـ يةٍ لدى الجنود لتوجيه أسلحتهم ضد المدن ين. وللأسف، ثبتَ أنّ السبب الأخ ر يتغيّر عند تغيّر الشرطين الآخرَين.

حلّ السلام يـن الدول الأوروبية الك رى بعد أربعين عاماً

من هزيمة نابليون عام 1815. وكان مرد هذا السلام هو ا رهاق على الأغلب، كما كان ردّة فعلٍ محافظة على تجاوزات الثورة الفرنسية. وتم التخلّص من عددٍ من الابتكارات الخطرة، ومنها الجيش الشامل الدائم على التجنيد ا جباري، فعاد الدسم الأكبر من أوروبا إلى الجيوش المحترفة الصغيرة. وحدها روسيا – الصغرى بين الدوى العظمى – لم تتخلَّ عن التجنيد ا جباري. غير أنّ جميع الدوى احتفظت بقدرتها على حشد الجيوش عندما يتطلب الأمر ذلك. وعندما اندلعت سلسلة الحروب بين عامي 1854–1870، عادت الدوى الكبرى الأوروبية إلى التجنيد باستثناء بريطانيا التي تولت قواتها البحرية حمايتها، وبدأت تقنية حربية جديدة بالتشكّل في تلك الفترة.

ورغم ذلك، لم تندلع أعظم حروب منتصف الدرن في أوروبا، بل كانت الحرب الأهلية الأمريكية التي قُتل فيها ا جندي أمريكي؛ وهو رقم يفوق عدد القتلى الأمريكيين في الحربين العالميتين وكوريا وفيتنام معاً، كما أنّه عشر عدد السكان في ذلك الوقت. وقد لجأت أطراف الحرب الأهلية الأمريكية إلى التجنيد ا جباري أيضاً، وبدأت بذلك الدوات الكونفدرالية (الجنوبيون) عام 1862 وتبعتها قوات الاتحاد (الشماليون)، وكانت النتيجة جيوشاً ضخمةً جداً. فقد جنّد الجيش الأمريكي (الشماليون) قرابة مليوني رجل خلال أربع سنواتٍ من الحرب، فيما بلغ تعداد قوات الكونفدراليين ما يقارب مليون جندي، في وقتٍ كان فيه عدد سكان الطرفين معاً ثلاثين مليوناً فقط، وقُتل خمس من تمَّ تجنيدهم في الحرب.

كانت الحرب في تلك المرحلة الانتقالية مزيجاً غريباً من الديم والجديد، إذ استخدم الطرفان تكتيكات نابليون، وما

هي إلا بضعة أشهر حتى بدأ جنود المشاة بالاحتماء خلف المساتر الطبيعية كلما أتيح لهم ذلك. أما توجههم لحفر خنادق في الأرض فما زال أمراً مثيراً للجدل، وكانت بنادق المسكيت الجديدة قد دخلت حيز الاستخدام العام خلال العقد السابق، وتضاعف مداها الفعّال أربع مرات. ولكن عملياً، لم تتغيّر كثيراً المسافة التي يفتح الجندي منها النار عما كانت عليه أيام البندقية ذات السبطانة الملساء من الداخل، من دون أن نغفل عن تحسّن دقة التصويب بشكل واضح. فقد صوّب معظم الجنود بنادقهم، وأطلقوا النار من مسافة 127 ياردة، وأصابوا أهدافهم بنسبة كبيرة[197].

كانت نتائج لجوء المشاة إلى الاحتماء عند الإمكان واضحةً في معارك مثل معركة ماناساس الثانية (Second Manassas). ففي آب/أغسطس من عام 1862، اصطف ثمانية عشر ألف فرجيني من جنود ستونوول جاكسون (Stonewall Jackson) خلف مظلة تقاطع السكك الحديدية للتصدي لهجوم خمسين ألفاً من مشاة

قُتل من الأمريكيين في الحرب الأهلية الأمريكية عدد يفوق عدد القتلى الأمريكيين في جميع حروب القرن العشرين. جمع بقايا القتلى بعد مضي وقتٍ طويلٍ على انتهاء المعارك، معركة كولد هاربر، فرجينيا، نيسان 1865

الشمال (الفدراليين): «قفز الفدراليون (من الفرقة الأولى) إلى الأمام، مع صيحة (هيّا) الحماسية التي صدحت بها حناجر 10,000 منهم، وتقدّموا إلى الأمام حتى وصلوا إلى منتصف المسافة المؤدية إلى التقاطع. وعندها، انطلق الدخان والوميض وهدر 4,000 بندقية موجهة بدقة من خنادق الكونفدراليين (الجنوبيين) لتصدح أيضاً صيحات التهور والرعب للجنوبيين، ويتردد صداها في أرجاء الغابة... ولقي هذا الهجوم الأخير المصير الكارثي نفسه الذي لقاه من يتّبع مقدمات كهذه»[198].

كتب مؤلف الفقرة السابقة الجنرال أمبروز بأول ه ل

(Gen. A. P. Hill) عن الحرب بأسلوبٍ شد دِ الرومانسيّة. وكان الكث ر من جنود الطرفين لا يزالون متعلّ ين بال يم الـ ديمة نفسها. ففي ذروة الهجوم ذاك، اندفع ضابط شمالي على صهوة حصانه إلى الأمام ع ر دخان البارود الأسود، وتجاوز موقع قواته ليصل إلى طرف تقاطع السكك الحد دية بأعجوبةٍ ومن دون أن يُصاب بالأذى، ثم توقف هناك ليلتقط أنفاسه وسط الجنوبيين. وحيث إنه لا طائل من سيفه وشجاعته، صرخ بعض الجنود الجنوبيين في الخنادق: «لا تقتله، لا تقتله!». لكنّه أُردي قتيلاً مع حصانه خلال ثوانٍ معدودةٍ من قبل رجالٍ أقلّ رومانسيةٍ.

كانت تلك صرخةً قادمةً من الـ رن الثامن عشر، حيث لم يكن من اللائق استهداف الأعداء المنفردين، وخاصةً الضباط، إذ إنّ الجميع يحصلون على فرصهم المتساوية عند مواجهة وا ل الن ران غ ر الدقيقة، لكن هذا لم يكن حال معركة ماناساس الثانية؛ حيث سددت الـ وات الكونفدرالية وأطلقت النار بشكل فردي وليس على شكل وا لِ من الرصاص، ولم تكن لبنادق الشماليين الأهمية الك رى، فمن المستحيل التسد د وا صابة دقّةٍ أثناء الجري ع ر الأرض الوعرة. كانت تلك المعركة إثباتاً لواقعٍ جد دٍ يـ ول إنّ قواتٍ مستعدةً ببنادقها ورابضةً خلف ساترٍ تستطيع إي اف أَعدادٍ أك رَ بكث ر من المشاة المهاجمين ع ر أرضٍ مفتوحةٍ.

«شاركتُ في معركتين ك يرتين، وسمعت دوي الطل ات في تينك المناسبتين، ولكنني نادراً ما رأيت متمرداً سوى من قُتل أو أصيب أو أسر. وأتذكر أنّه حتى ضباط الخط الأول في معركة شنسلورسفـ ل (battle of Chancellorsville) قد تساءلوا: لماذا لم نرَ مطل اً أي متمردٍ حيث كنّا؟ فكلّ ما رأيناه لم يتعدَّ الدخان والشج رات، ورجالنا

الكثر الذين يتجولون هناك. أقدّر الآن هذا الفن حق تقدر، فإخفاء الرجال فن عظيم... ضع الرجل في حفرةٍ وضع بطاريةٍ مدفعيةٍ ج دة على التلة خلفه، وسيتغلب على ثلاثة أضعاف العدد، حتى إن لم يكن جندياً ج داً».

الكولونيل ثيودور ليمان[199] (Col. Theodore Lyman)، 1869

لم تكن البنادق الـ ديمة ذات الطلقة الواحدة وحدها ماسبب هذه الفوضى في معركة ماناساس الثانية، فقد دخلت في المعركة الأسلحةُ التي سبقت الأسلحة الحديثة، والتي استخدمت بكثرة في الحرب الأهلية الأمريكية؛ من البنادق ذات التلـ يم من المخازن مثل بندقية هنري (Henry) نصف الآلية ذات الطلـ ات الخمس عشرة (كان الكونفدراليون يصفونها بأنّها بندقية اليانكي اللعين، والتي تلـ مها الأحد لتطلق النار طوال الأسبوع)، إلى المدافع الرشاشة الـ ديمة ذات التلـ يم اليدوي مثل بندقية غاتلينغ (Gatling)، والمدفعية الـ ديمة، والألغام الأرضية، والـ طارات المدرّعة، والغواصات، والسفن الحربية المدرّعة، وحتى الاستطلاع الجوي البدائي عن طريق بالونات الهواء الساخن (كان الملازم البروسي الشاب فرديناند فون زبلين من ين المراقبين الأوروبيين الذين شهدوا تجربة البالونات العسكرية من حد قة البيت الأ يض)، كما ساهمت شبكة السكك الحد دية أيضاً في معارك الحرب الأهلية الأمريكية؛ إذ ساهمت في نقل الـ وات بسرعةٍ ولمسافاتٍ طويلةٍ، وكانت تلك هي المرّة الأولى في التاريخ التي لا ينتقل فيها المشاة سيراً على الأقدام. وأضاف التلغراف أيضاً قدرةً جد دة يستطيع من خلالها الجنرالات تنسيق حركة الـ وات الك يرة المنتشرة على مساحةٍ واسعةٍ.

بكلمات أخرى، لقد نشبت الحرب الأهلية الأمريكية في الوقت المناسب! فلو تأخرت عشرة أو خمسة عشر عاماً فقط، لتوفرت معظم تلك الأسلحة الجديدة بأعدادٍ كبيرةٍ وبنماذج ذات مردودٍ أفضل، ولاتخذ الأمر طابع الحرب العالمية الأولى. أما خلال الحرب، فلم تكن تلك الأنواع بتلك الموثوقية. وعلى سبيل المثال، لم تكن غالبية المدافع المستخدمة تختلف كثيراً عما كانت عليه قبل خمسين عاماً، ولم يتجاوز مداها مدى بندقية المسكيت المستخدمة في ذلك العهد، وكان على سدنة المدافع التواجد مباشرةً خلف خط الجبهة لحماية أنفسهم من نيران بنادق العدو، ولم يكن القصف بعيد المدى ممكناً. ومن بين 144,000 جندي أمريكي عُرف سبب مقتلهم، كان هناك 108,000 قتيل برصاص البنادق، و12,500 فقط قُتِلوا بشظايا القذائف، و7,000 قُتِلوا بالسيوف والحراب. (ولو كان الأمر بعد عشرين عاماً لاختلفت الأرقام كثيراً، فقد أصبحت دقة المدفعية ومداها أكبر، وسببت قذائفها آلاف الشظايا)، غير أنّ ساحات القتال في الحرب الأهلية الأمريكية ومن دون المدفعية الحديثة قد عرفت التطور المشؤوم في النهاية؛ فقد تطوّرت خنادق الميدان في الخطوط المحيطة بطرسبرغ عام 1865 لتتكامل مع المخابئ والأسلاك الشائكة ومراكز التنصت، حتى إنّها غطت على خنادق الحرب العالمية الأولى.

رفض المراقبون العسكريون الأوروبيون تلك التطورات باعتبار أنّ ظروف

لو تأخرت الحرب عشرين عاماً أخرى لكانت أشبه بالحرب العالمية الأولى. خنادق ومخابئ وأسلاك شائكة، فورت مالون، بطرسبرغ، فرجينيا 1865.

أمريكا الشمالية فريدةٌ من نوعها، ولم يستطيعوا تفسير صعوبة تحديق نصرٍ حاسمٍ مستقبليٍ ضد خصمٍ ضعيفٍ نسبياً؛ لـ د تفوق الشماليون عددياً على الجنوبيين بنسبة أربعةٍ إلى واحدٍ في الـ وى البشرية العسكرية (لم تجند قوات الكونفدراليين أعداداً كـ يرة من سكان الجنوب السود)، وبالنسبة للموارد الصناعية فالنسبة هي ستة إلى واحد على الأقل لصالح الشمال، فقد أنتج الشمال في العام السا ق لانفصال ولايات الجنود 94 بالمـ ة من فولاذ البلاد، و97 بالمـ ة من الفحم، و97 بالمـ ة من أسلحته النارية. ومع ذلك، استغرق الأمر أربع سنوات من الحرب الضروس با ضافة إلى حربٍ اقتصاديةٍ شرسةٍ خضاع الجنوب[200].

فرض الشمال حصاراً خانقاً على الجنوب منذ داية الصراع، وذلك بغرض التضييق على تجارته الخارجية. وفي

النهاية، قام الجنرال شيرمان (General Sherman) بتدميرٍ مساحات شاسعة، ويقول شيرمان: «لا نحارب جيوشاً معادية فحسب، لكن أناساً معادين أيضاً... وعلى الجميع، كباراً وصغاراً، أغنياء وفقراء أن يشعروا وطأة الحرب»[201].

وردّ شيرمان على من احتج على هذا المنطق ببساطة: «من أطلق عواءه من الناس ضد همجيتي وقسوتي، فأنا أقول له إنّ الحرب هي الحرب... وإذا أرادوا السلام فعليهم وعلى أقربائهم إيقافها»[202].

تجاهل الجنود الأوروبيون الجوانب المقلقة من الحرب الأهلية الأمريكية، وظنّوا أنّهم لا يزالون قادرين على تحقيق انتصاراتٍ سريعةٍ وحاسمةٍ على جيش العدو في الميدان. وهناك رجل واحد فقط أدرك عدم صوابية اعتقادهم، رغم أنّه توفي قبل اثني عشر عاماً من اندلاع الحرب العالمية الأولى التي أثبتت أنّه كان على حقّ.

«ستزداد المذابح بشكلٍ مروّعٍ في البداية، وسيبدو الزج بالمزيد من القوات لدفع المعركة نحو هدفها المنشود أمراً مستحيلاً، وسيحاولون ذلك ظنًّا منهم أنّهم يقاتلون في ظلّ الظروف القديمة. لكنهم سيتعلمون الدرس، وسيتخلون عن مثل هذه المحاولات إلى الأبد، ثم... سيتعيّن علينا... الضغط بشكل متزايد ولفترةٍ طويلةٍ ومستمرةٍ على موارد المتحاربين... سيتحصن الجميع في خنادق في الحرب القادمة».

جان بلوخ 1897[203]

«نحن نصغي بشكل أبديٍّ للقذائف الثقيلة التي

تدك خنادقنا من العيارات كافة؛ إن كانت من فئة 105 أو 150 أو 210، ليختلط القصف والوقت، وفي دوامة الخراب هذه ندرك فوراً القذيفة التي ستدفننا. وما إن نسمع عويلها حتى نلتفت إلى بعضنا بعضاً في رعبٍ شديدٍ، وننكمش على بعضنا، وننحني لتصطدم خوذاتنا بعضها وتصدر قعقعتها الخائفة. كنّا نترنح كالثمالى، فيما ترتعش العوارض، وتملأ سحابة الدخان المخبأ، وتنطفئ الشموع».

معركة فردان، الحرب العالمية الأولى، 1916[204]

نُشرت التوقعات حول الحرب الكبرى القادمة في روسيا عام 1897 من قبل جان بلوخ؛ وهو مصرفي من وارسو، ومن الدعاة المتحمسين للسلام. لم تكن تلك التوقعات بعيدة عن المنطق، إذ كان الجمود هو مصير الحرب القادمة، ولن تنجح الحرب الهجومية؛ نظراً لملايين الجنود الذين سيُستدعون إلى الخدمة من قبل كلّ قوةٍ، ونظراً لوصولهم السريع إلى الجبهات عبر السكك الحديدية حالما تندلع الحرب، والقوة النارية التي بحوزة كلّ منهم. لكن لم يأخذ أي واحد من العسكريين المحترفين عمل بلوخ على محمل الجدّ، واتجهت الجيوش للهجوم في وقتٍ واحدٍ من عام 1914، وهي على قناعة بأنّها ستخوض سلسلةً سريعةً من المعارك الحاسمة بأسلوب نابليون (وبأعداد أكبر بكثير من الجنود) مما من شأنه أن يحسم الحرب في غضون ستة أشهر بالأكثر.

وفعلاً، سارت تعبئة الجيوش الجرارة الجديدة وفق الخطة. فعلى سبيل المثال، تضاعف عدد الجيش الألماني ستة أضعاف في أول أسبوعين من شهر آب عام 1914، حيث التحق جنود الاحتياط كافة بأفواجهم، ومن ثم

نقلتهم الـطارات بسرعةٍ وكفاءةٍ إلى مختلف الجبهات. وبحلول منتصف الشهر، كان هناك 1,485,000 جندي ألماني على الحدود مع فرنسا وبلجيكا، وهم على أهبة الاستعداد للزحف والقتال في أقرب وقتٍ بعد نزولهم من الـطارات، وقام الفرنسيون والنمساويون وحتى الروس بأعاج ب تنظيميةٍ مشابهةٍ، وبعدها سار كلّ شيءٍ في الاتجاه الخاط .

لم يمضِ شهران حتى علقت الج وش مكانها. ف واسطة الصنَاعة الحربية وما أنتجته من مدفعية سريعة ا طلاق ورشاشاتٍ ترمي ستم ة رصاصةٍ في الدقيقة، امتلأت أجواء المعارك بالقذائف والرصاص، ولم يعد با مكان التحرّك فوق سطح الأرض، إذ إن من يفعل ذلك يُصاب، وأصبح القتل عملاً آلياً، وقبع الجنود سجناء آلاتهم ومحاصرين تحت مستوى سطح الأرض في شبكة خنادق متشعبة. وقبل أن تبتلعهم الحرب بشكلٍ نهائي، تذكروا لمرّةٍ واحدةٍ أنّهم كانوا أكثر من رجالٍ قبليين.

وبحلول ع د الميلاد عام 1914، كان هناك أكثر من مليون قت ل بعد انقضاء ستة أشهر فقط على الحرب، وقد شهد الجنود مقتل رفاقهم في الخنادق. وقبل بضعة أيامٍ من ع د الميلاد المذكور، قام جنود من الفوج السكسوني رمي علبة شوكولاتة بحرصٍ ع ر الأرض الحرام إلى الخنادق البريطانية، مرفقة بمذكرةٍ لتمسون فيها وقف إطلاق النار لمدّة ساعةٍ مساءَ ذلك اليوم لكي يحتفلوا بذكرى ميلاد قائدهم الميداني. وفعلاً، تم الأمر، ففي الساعة المعيّنة، عزفت الفرقة الألمانية لحن (ع د ميلاد سع د)، ووقف الجنود البريطانيون على أطراف خنادقهم وصفقوا في نهاية

روح عيد الميلاد عام 1914. جندي كندي جريح يشعل سيجارة عدوه الألماني الجريح في وحل باشنديل، تشرين الثاني عام 1917. الوضعية مصطنعة لالتقاط الصورة بطبيعة الحال، لكن ما الذي خطر لهما ليلتقطا مثل هذه الصورة؟

الأغنية، وشاهدوا الجبهة المقابلة المضاءة والمتوهجة بأنوار الشموع على الحواجز الألمانية.

بدأ رجال الطرفين بالخروج من خنادقهم من دون أسلحة واختلطوا بعضهم ببعض في المنطقة الحرام. بدأ الأمر أمام أحد الأفواج السكسونية، ولكنه انتشر بسرعة على طول خط الجبهة، ليقف عشرات آلاف الرجال مع بعضهم بعضاً فوق سطح الأرض، ويتبادلوا السجائر الألمانية والكعك مقابل السجائر البريطانية والحلوى، منشدين الترانيم المألوفة باللغتين، كما لعبوا كرة القدم بكراتٍ وعوارض مرتجلة[205]. فبعد كل شيء، لم يكن أولئك الرجال جنوداً محترفين، إذ قبل ستة أشهر بالضبط كانوا مزارعين أو موظفي مصارف أو طلاباً. ورغم حماستهم الساذجة باستقبال

الحرب، لم يكونوا راغ ين فعلياً في قتل أحد، ناهيك عن القتل بهذا الشكل العشوائي. وكانت تلك أول مظاهرة سلامٍ في العصر الحديث، ولا عجب في إصابة الـ يادات العليا للطرفين بالذعر. واستغرق الأمر أياماً عادة الجميع إلى خنادقهم مرّةً أخرى؛ رغم صرامة الأوامر ضد (التآخي)، وعاد القتل مجدداً.

دأت السلطات العسكرية في داية عام 1914 بـدراك دور الخنادق في المعركة، إذ لم تكن مجرد عقبةٍ تكتيكيةٍ لحركة الجـوش بالأسلوب الـ ديم للمعارك، وإنما هي حاجزٌ دائم ينتشر ويرتبط مع بعضه بعضاً، حيث تحوّلت إلى مشكلةٍ استراتيجيةٍ جـ دةٍ، أي ما يسمى بالجبهة المستمرة، وهذا أمر لم يخطِّط له أحد، ولم يتوقعه أحد من العسكريين، ولم يكن لديهم أي حلٍّ له.

كان الجنرال فوش (General Foch) الذي أصبح لاحـ اً قائد الجيش الفرنسي بكامله واحداً من أوائل الملاحظين لهذا الدور، وقد أرسل إلى الطرف الغربي من خط الجبهة في أ لول عام 1914 بعد أن حاربت الجـوش بعضها بعضاً شمال باريس وشرقها ووصلت إلى طريقٍ مسدودٍ. وقد اشتكى فوش ومها: «لـ د أرسلوني إلى هنا للمناورة، لكن، لا شيء يسير بما رضي المرء. هذا الامتداد في خطٍّ لا نهاية له دمر أعصا ي»[206].

ومع مرور بضعة أسا يع أخرى، حاول الحلفاء والألمان مراراً وتكراراً الالتفاف على الجوانب المفتوحة للخنادق الطويلة، إلا أنّهم تصادموا وتوقفوا، وانتهى بهم الأمر بحفر خطوطٍ جـ دةٍ من الخنادق ليصلوا إلى البحر. وفجأةً، لم تعد هناك جوانب يمكن الالتفاف على العدو من خلالها، لـ كانت هناك

جبهةٌ ممتدةٌ بلا نهاية، وأصبح بالإمكان نظرياً السير مسافة 4 ميلاً من القناة الإنكليزية إلى حدود سويسرا المحاذية على جانب أيٍّ من خطّي الخنادق المتوازيين، ويقترب هذان الخطان من بعضهما في بعض المناطق مسافة عشر ياردات أو عشرين ياردة (تكون المسافة عادة عدّة مئات من الياردات) لكن لا أحد يستطيع وضع قدمه على السطح خارج الخندق.

كانت الرياضيات التي أوجدت الجبهة المستمرة واضحة تماماً، انطلاقاً من الحروب التاريخية، حيث أجبرت طبيعة الأسلحة القديمة الجنود على الاحتشاد كتفاً إلى كتفٍ للسيطرة على المساحة الفارغة أمامهم، والتي لا تتعدى عشر أقدام في حال وجود كتيبةٍ من حملة الرماح، ومئة ياردة في حال وجود كتيبة مشاة من القرن الثامن عشر ببنادقهم المسكيت ذات السبطانات الملساء، ولذلك كانت المعارك أحداثاً مكتظةً في مساحاتٍ صغيرةٍ، وأمضت الجيوش الصغيرة معظم ما تبقى من وقتها بالسير في الريف المفتوح، والمناورة لكسب موقعٍ متميّزٍ للساعات القليلة الحاسمة التي ستشهد قتال الطرفين.

ومع التزايد المضطرد لقوة النيران في النصف الأخير من القرن التاسع عشر – من البنادق القادرة على رمي عشر طلقات في الدقيقة من مسافة ألف ياردة، إلى المدافع الرشاشة والمدفعية الحديثة – أصبح تشتيت العدو مفتاح النجاح. وقد تخلت القوات المهاجمة في الحرب الأهلية الأمريكية عن التشكيلات النابليونية الحاشدة لتتبع نظاماً أكثر انفتاحاً، واكتشف المدافعون الحاجة إلى عدد أقل من الرجال لحماية جبهةٍ معيّنةٍ بعد استخدام البنادق الأكثر حداثة والتخلي عن بنادق المسكيت القديمة. وفي

معارك مثل كولينزو[207] (Colenso) في جنوب أفريقيا عام 189، وجد البويريون أنّ بمقدورهم إيقاف الهجمات البريطانية رامي بندقية واحد لكلّ ثلاث ياردات[208].

قادت أركان عامة محترفة جميع الجيوش الأوروبية قبل زمنٍ طويلٍ من عام 1914، وكرّست وقتها لوضع خططٍ مفصّلةٍ لكيفية خوض الحرب القادمة (كانت خططهم عاملاً رئيساً في جعل الحرب احتمالاً قائماً على الدوام)، وكانوا على علمٍ تامٍ بتأثير الأسلحة الجديدة كالمدفع الرشاش الذي استخدم في الحروب الصغيرة والحروب الاستعمارية. وكان المدنيون أيضاً – مثل الشاعر والمؤرخ هيلير بيلوك (Hilaire Belloc) – على علمٍ بسبب انتصار القوات الأوروبية الدائم على السكان الأصليين، إذ يقول بيلوك في قصيدته:

مهما يحصل، ها هيَ بين أيدينا

إنّها بندقيةُ ماكسيم، وأنى لهم مثلها!

وقام الجنرالات بحساباتهم الحاسمة، وضاعفوا عرض الجبهة، حيث يصمد جندي المشاة في وجه ملايين الرجال الذين ستزدحم بهم ساحات الحروب الأوروبية، وانتشرت الجيوش لتملأ كلّ المساحات المتوفرة في جبهةٍ مستمرةٍ.

لم يحصل هذا في فرنسا فحسب، وإنما عبر مسافاتٍ شاسعةٍ من روسيا،

(حفر
ذعر) في خندق

كندي، استخدمت تلك الحفر للاحتماء والنوم.

وبعد ذلك في شمال إيطاليا وشمال اليونان وشمال شرق تركيا، وحتى في بلادٍ ما بين النهرين وفلسطين. ولم تكن تلك الحرب معروفةً سوى لعددٍ قليل من الجنود المتمرسين في الخنادق، ووجد معظم الجنود أنفسهم مضطرين لقضاء وقتٍ طويلٍ في الميدان وعلى مسافةٍ قريبةٍ من العدو بدلاً من خوض معركةٍ في يومٍ أو يومين في السنة، ومواجهة خطر الموت اليومي وبؤس العيش في الخنادق.

«إنّ وجود المرء في الخط الأمامي أشبه بالجحيم، وخاصةً في الشتاء! كم هو فظيع الشتاء! الصيف ليس

بهذا الرعب، ولكنه سيء بما يكفي. أما الشتاء فمروّع تماماً، والمكان لا يصلح لحياة بشريٍ على الإطلاق».

جندي كندي سابق

«إنّ غوص قدميك باستمرار في هذا الوحل الأشبه بالعصيدة أمر في غاية السوء، وهو يسبب ما يُسمى (قدم الخنادق) الذي يعني حصول عشرات حالات البتر في الفوج».

جندي بريطاني سابق

«تزعجك الجرذان، وتنهش جسدك إذا كنت جريحاً، ولن يلتفت أحدٌ للعناية بك. كان مكاناً رديئاً وقذراً لا يُحتمل العيش فيه وسط كلّ فسادٍ عرفته البشرية».

جندي بريطاني سابق

يكمن فن الجنرال في مناورته بقواته. وبعد أن انتشرت الخنادق، لم تعد هناك إمكانية لأي تحركٍ باستثناء اختراق الخندق المواجه. وتعني الجبهة المستمرة أنّ أي هجومٍ لا بدّ أن يكون هجوماً مباشراً، إذ لا أمل للمشاة في البقاء على قيد الحياة إذا تقدموا من دون مساعدة. فهم سيتقدمون وسط نيران العدو - وهذا ما دفعهم إلى حفر الخنادق في الأساس - وبالتالي، لا توجد طريقة لاختراق خنادق العدو إلا بالقضاء على مصادر نيرانه، وذلك بقصف خنادقه ومواقع مدفعيته وتخريبها قبل الهجوم؛ على الأقل من الناحية النظرية.

وهكذا، تحوّلت حرب الخنادق إلى حرب مدفعيةٍ، وكان

الصف المدفعي مسؤولاً عن مقتل أكثر من نصف الضحايا، ولم تعد مشكلة الدول في عام 1915 على علاقةٍ بالجبهة، وإنما بما يحصل داخلها! إذ لا يتماشى إنتاج القذائف مع الطلب عليها؛ فقد سمح التخطيط الفرنسي قبل الحرب بالإنفاق على إنتاج عشرة آلاف قذيفةٍ يومياً من عيار 75 ملم. وبحلول عام 1915، كانت فرنسا تنتج مئتي ألف قذيفة من دون أن تواكب الطلب على المزيد منها (أطلقت مدفعية نابليون وحدها حوالي خمس وعشرين قذيفةً في يوم معركة واترلو في حزيران عام 1815، وحاربت يوماً آخر فقط في ذلك الشهر). أما روسيا فقد ضاعفت إنتاجها للقذائف عشرة أضعاف ما بين عامي 1915 و1916، ووصل الإنتاج إلى 4.5 ملايين قذيفة في الشهر من دون أن تلبي الطلبات كافة أيضاً. وحتى في بريطانيا وهي البلد الصناعي الأول في العالم آنذاك، كان هناك نقص كبير في القذائف عام 1915، واستمر الطلب في الارتفاع. وفي معركة ابرس الثالثة (Battle of Ypres) عام 1917، استخدم في الصف البريطاني الذي دام تسعة عشر يوماً حوالي 4.3 ملايين قذيفة، وهي تزن حوالي 107 آلاف طن، وهو إنتاج 55 ألف عامل لمدة عام[209].

بقيت قوات المشاة عاجزةً عن الاختراق، وقضى الملايين أثناء محاولتهم

«فعلاً، لا مكان للإنسان هنا». مخبأ مغمور بالمياه في خندقٍ بريطاني على خط الجبهة الأمامية، كانون الثاني عام 1917.

ذلك. ورغم تدمير قذائف المدفعية معظم رشاشات العدو في خنادق الخط الأول، وتدميرها مدافع العدو خلف خطوط التماس، بقي هناك ما يكفي من المدافعين الناجين ليجعلوا التقدّم بطيئاً ومكلفاً، عدا عن تحويل القصف المدفعي المنطقةَ إلى أرضٍ جرداءَ تعج بالحفر الناجمة عن القذائف، مما جعل تحرّكَ المهاجمين بطيئاً وصعباً للغاية. وفي النهاية، قد يستطيع المهاجمون الاستيلاء على خنادق الخط الأوّل للعدو – في منتصف الحرب، شكّلت هذه الخطوط وحدها حزاماً بعمق ثلاثة آلاف ياردة – ولكنهم لن يصلوا إلى أن تكون احتياطات العدو قد وصلت أيضاً لتباشر بحفر

خنادقَ جد دة قرب الخنادق التي خسروها.

بساطةٍ، لم تكن هناك وسيلة أخرى للالتفاف حول الخنادق، ولم يكن هناك دّ من الالتفاف استراتيجياً؛ وهو ما حصل مع الد وات البريطانية التي شنت هجوماً غلاق مضق الدردن ل والاستيلاء على إسطن ول، وإخراج الدولة العثمانية من الحرب؛ وبالتالي فتح الروابط البحرية المباشرة ين الد وات البريطانية والفرنسية وحليفها الروسي. لكن هذا لم ينجح قطّ بسبب الألغام البحرية في المضائق، وقوات المشاة التركية خلف شواط غاليبولي؛ حيث جرت معركةٌ ك يرةٌ.

دخلت الأساطيل البريطانية والألمانية بوارج دريدنوت (Dreadnought) العملاقة بتكلفتها الهائلة أوّل سباق تسلحٍ د يي، حيث تواجهت مع بعضها بعضاً في بحر الشمال. وباستثناء معركة وتلاند (Battle of Jutland) عام 1916 استطاع الألمان تسج ل تفوقهم، ولكنّ عدم تمكنهم من كسر الحصار البريطاني جعلهم خاسرين عملياً. وخلال ثلاثة أعوام، لم ينجح أي هجومٍ في زحزحة الجبهة الغربية أكثر من عشرة أميالٍ.

«... خيّمت غ ومٌ ورديةٌ من غبار الطوب على الد رى التي تعرضت للد صف خلال النهار، وشعّ الأفق الشرقي في ظلام الليل ب ن ران المتحاربين. وفي كلّ مكانٍ من هذه الأماكن النائية والمهجورة، رأيت وجوه الرجال المتعبين وظلالهم، وقد تقدّمت الأرتال مثقلةً بالغبار المترسب على البزّات الثقيلة والمشبعة بعرق أفرادها الذين يتعثرون تحت ضوء الد مر المرتعش إثر إطلاق النار، فيما تستدلي موجة الجنود المهاجمين بصمتٍ وشحوبٍ على خطوط الأنا يب قرب نقاط الانطلاق.

جثوتُ معهم، وصبّت النيران حممها علينا لتمسح ماضينا وما عرفناه... تابعتُ معهم إلى الأمام... صعوداً وهبوطاً على الأرض اللينة مثل قرصِ عسلٍ هائلٍ، وتلاشت موجتنا... وجاءت الموجة الثانية لتتفرق أيضاً، والثالثة لتلتحم ببقايا الموجة الأولى والثانية، وها هي الموجة الرابعة تلتحق بالموجات السابقة بعد برهة، أخذنا نركض في مجموعاتٍ محتمين بغطاءٍ ناريٍّ، ونحن نلهث ونتعرق، وقد نسينا كل ما تدربنا عليه خلال أشهر طويلة.

وصلنا شريطاً سليماً، وخلفه رأينا الخوذات الرمادية المتفحمة وهي تتمايل... وتغيّر الصوت المرتفع لرصاص المدافع الرشاشة ليتحول إلى صوتٍ أشبه بصوت انطلاق البخار من مئات المحركات البخارية،

بعيداً عن داني.
الجنود

الفرنسيون
يتلقون أوسمة

الشجاعة في أحد
الخنادق،

الحرب العالمية
الأولى.

وبالتالي، لم بقَ أحد منّا على قدميه. وبعد ساعة، عادت مدافعنا إلى الهدف الأول، وبكل آماله وأفكاره، وجد اللواء قبره على المنحدرات الشمالية لساحة معركة السوم»[210].

ومع شلل الاستراتيجيات، وانكماش التكتيكات، واندفاع الد وات للبحث عن قصفٍ أكٍ ر للمناطق أكثر من أي وقتٍ مضى، أصبحت الحرب مسألةً بسيطةً تتعلق بفكرة الاستنزاف، وزادت الأسلحة الجد دة - مثل الغازات السامة -

عددَ الضحايا من دون أن تكسر ال يود الحربية الج دة. وبحلول عام 1916، لجأ جنرالات الحلفاء اليائسون إلى حل دائي مروّع يوم على التضحية بالرجال؛ على اعتبار أنّ عدد الرجال لديهم أكثر من عدد الرجال لدى الألمان، وإذا بادلوا الحياة بالحياة، فسيب ى لديهم رجالٌ أكثر على قيد الحياة بعد أن يفنى جميع الألمان، وبهذا الأسلوب يتح ق النصر.

وهذا ما حصل في معارك لم تُحسم نتيجتها لصالح طرفٍ ما مثل معركة السوم؛ إذ لم تكن الأميال الخمسة والأربعون التي سيطر عليها البريطانيون مهمة على ا طلاق، وقد استمرت المعركة خمسة أشهر بتكلفةٍ م دارها 415 ألف رجلٍ – أكثر من ثمانية آلاف رجلٍ لكلّ ميلٍ مربعٍ – وبمعدلٍ مماثل من الخسائر البشرية بالنسبة للألمان أيضاً، با ضافة إلى الخسائر الك يرة في المعدات. وأصبحت المعارك عمليةً صناعيةً عكسيةً، يتناسب فيها معدل الدمار في الجبهة مع معدل ا نتاج الصناعي في الوطن!

من المهم معرفة أنّ مصطلح (الجبهة الداخلية) قد استُخدم خلال الحرب العالمية الثانية؛ وذلك عندما أصبح دور المدن ين في إنتاج الذخائر تماماً كدورهم في ا نتاج المدني؛ إذ أصبح هاماً جداً لتح يق النصر، ولا ي ل عن دور الجنود في الخنادق، إذ سيكون الجنود في مهب الريح دون تأمين تدفقٍ مستمرٍ ل مدادات إلى الجبهة. وكان لا دّ من توجيه المسنّين للعمل والحفاظ على الوظائف ا نتاجية بعد تع ة الأعداد الهائلة من الرجال؛ مما ترك ثغراتٍ واسعةً في ال وى العاملة الطبيعية – إذ جندت فرنسا 20 بالم ة من سكانها في الجيش، وجندت ألمانيا 1 بالم ة من سكانها، ولا تقل النسبة عن ذلك لدى ب ية ال وى

الك رى الحالية - وعملياً، تم تجن د الاقتصاد المدني، ووضعت الحكومات الأوروبية أ ديها على العمالة والمواد الخام، وفرضت تقنيناً على جميع السلع الشحيحة، وسرى مفعول اقتصاد الحرب؛ فملأت النساء المصانع مكان الرجال الذين أصبحوا في الجبهات، وحُوِّل ا نتاج الفائض عن الاحتياجات الأساسية لب ية السكان إلى الجنود والمجهود الحربي.

لجأ الطرفان إلى الحرب الاقتصادية أيضاً في وقتٍ مبكرٍ من الحرب، وفرض كلٌّ منهما حصاراً على التجارة المنقولة بحراً والخاصة بالطرف الآخر. فعل البريطان ون ذلك بالطريقة التقليدية، فأوقفوا السفن كافة المتجهة إلى الموانئ الألمانية، وكان حصارهم دقي اً جداً حيث منع أي تسرّبٍ تقريباً. ولكن، استغرق الأمر وقتاً طويلاً ليشعر الألمان بآثار الحصار الكارثية. وفي هذا الصدد، تش ر التقدرات إلى أنّ سوء التغذية خلال السنتين الأخ رتين من الحرب تسبَّب وفاة

بعيداً عن يانومامو.

النساء يقمن بتجميع صمامات القذائف في مونتريال عام 1916.

أكثر من ثمانمـ ة ألف مدنيّ في ألمانيا زيادةً عن معدلات الوفيات خلال أوقات السلم[211]. واتجه الألمان المحظر عليهم استخدام الملاحة البحرية إلى الغواصات كإجراءٍ مضادٍ لفك حصار ريطانيا، وقاموا بـ غراق أكثر من خمسة عشر مليون طن من البضائع المشحونة خلال الحرب. وعندما أوشكوا على قطع الشريان الحيوي لغذاء وخام ريطانيا الـ ادم من الخارج، عادت البحرية الملكية إلى نظام الـ وافل الـ ديمة لحماية السفن التجارية، مما أدى إلى تراجع الخطر. لـ د لعبت

الحملة الك يرة للغواصات الألمانية عام 1917 دوراً ك يراً في انضمام الولايات المتحدة إلى الحرب ضدّها، مما أدى إلى ميل ميزان الـ وى البشرية ضد الدول المركزية بشكلٍ حاسمٍ.

وهكذا، إذا كان المدن ون كلهم في أمةٍ من الأمم جزءاً أساسياً في مجهودها الحربي، فهم الآن هدف مشروع؛ ليس عن طريق سلاح الحصار بطيء المفعول، وإنما بالهجوم العسكري المباشر. وفي عام 1915، توصّلت التكنولوجيا إلى سلاحٍ استطاع ضرب مدن العدو ومصانعه مباشرةً، وهذا السلاح هو الطائرة.

«اقتضت الفكرة تجهيز عدد من مناطيد الزلين[212] يتراوح ين 12 إلى 20 منها، وتدريب أطـ مها للعمل كقوة منظمة. يستطيع كل منطاد حمل 300 قنـ لة حارقة، ومن المخطط أن تهاجم في وقتٍ واحدٍ خلال الليل، وهذا يعني إلـ اء ما يـ ارب ستة آلاف قنـ لة على لندن في وقتٍ واحدٍ... وعندما سُئلت عن رأي الفني بعد وضع الجانب الأخلاقي جانباً أقررت بأنّها خطة ممكنة التنفيذ بكلّ تأكـ د».

الكابتن أرنست ليمان (Capt. Ernst Lehman) خدمة مناطيد الزلين في الجيش الألماني[213]

«نضرب قلب العدو النابض ويصفون ذلك بأنّه قتل للأطفال والنساء... ما نقوم به بغيضٌ بالنسبة لنا بطبيعة الحال، ولكنه ضروري، لـ إنه ضروري جداً. فالجميع منخرطون في هذه الحرب؛ الحرب الحديثة حربٌ كليّةٌ، فلا استمرارية لجندي على الجبهة من دون أن يعمل العامل في المصنع، والمزارع في حـ له، وغـ رهما من الداعمين الآخرين له... أنا وأنتَ والأم. ناقشنا هذا الأمر، ولا شكّ

في أنّك تتفهم ما أقوله. رجالي شجعان وشرفاء، ويحملون قضية مقدّسة. لذلك، كيف لنا أن نسمي أداءهم لواجبهم بالخطيئة؟ وإذا كان ما نقوم به مخيفاً، فلأنّه يحمل في طياته خلاص ألمانيا».

رسالة من الكابتن بيتر شتراسر (Capt. Peter Strasser)، رئيس فرقة مناطيد البحرية الألمانية[214]

لم يأتِ قصف المدنيين في المدن عن طريق الصدفة لدى محاولة ضرب أهدافٍ عسكريةٍ، وإنما حصل عمداً لقتل المدنيين وكسر معنوياتهم. كانت تلك هي الخطوة النهائية في المنطق الوحشي للحرب الشاملة، فالمدنيون المنتجون لأسلحة الحرب هم الأساس الحقيقي للقوة المسلحة للدولة، وبالتالي هم الهدف الأهم من بين الأهداف كافة.

ظهر منطاد زبلين العملاق في ألمانيا، ووجدت فيه القوات الألمانية المدى والقدرة على حمل القنابل وتهديد عاصمة العدو عندما اندلعت الحرب. وعليه، كانت ألمانيا هي التي بدأت باستخدام النموذج الذي سيصبح النموذج الأكثر تمييزاً لحرب القرن العشرين، وكان ذلك أمراً لا مفرّ منه؛ شأنه شأن الخنادق.

حصلت أوّل غارةٍ جويةٍ رئيسةٍ على لندن بعد مضي أكثر من عام على اندلاع الحرب. فقد غادر منطاد زبلين L-15 شمال ألمانيا في وقتٍ متأخرٍ من بعد ظهر يوم 8 أيلول عام 19، وكان بقيادة الكابتن هنريش ماثي (Captain Heinrich Mathy). عبر المنطاد الساحل الإنكليزي في لينكولنشاير (Lincolnshire)، واتبع الخط الرئيس للسكك الحديدية جنوب لندن، وحوالي الساعة العاشرة وأربعين دقيقة مساءً، ألقى

عدداً قليلاً من القنابل على ضاحية غولدرز غرين (Golders Green) شمال لندن، وتابع جنوباً ليصل فوق ميدان راسل (Russell Square)، ليلقي بقية حمله من القنابل – أي خمس عشرة قنبلة شديدة الانفجار، وخمسين قنبلة حارقة – وقد ألقيت إلى الأسفل من ارتفاع ثمانية آلاف قدم، وشقّت طريقاً من الدمار عبر بيدفورد ليس (Bedford Place) وميدان الملكة (Queen's Square) وممر لام كونديويت (Lamb's Conduit Passage) وشارع ريد ليون (Red Lion Street) وشارع الملك إدوارد (King Edward Street)، وشهد مقهى دولفين (Dolphin public house) في شارع ريد ليون أكبر الخسائر، حيث سقطت إحدى القنابل إلى جواره مباشرةً. انفجرت الواجهة باتجاه الداخل، وسقط السقف على السكان المذهولين، ما أدى إلى مقتل وجرح سبعة عشر منهم سقطوا تحت الأنقاض. وبالمجمل، تسببت الغارة بإصابة اثنين وسبعين مدنيّاً وتدمير ما قيمته مليوني دولار ونصف من الممتلكات.

ورغم هذا، لم تكن تلك التقنية – كالمشروع برمته – بالاحترافية العسكرية المطلوبة على كلا الطرفين.

«عملتُ كطيارٍ ليليٍ مضادٍ لمنطاد زبلين بعد نحو اثنتي عشرة ساعةً من

إنّها أهدافٌ مشروعةٌ في النهاية؛ حطام المنازل في لندن بعد غارة مناطيد زبلين.

التدريب الثنائي وا فرادي. سألني المعاون عمّا إذا كان بم دوري الطيران في الظلام، فأجبت بعدم ت قني من ذلك، لكنني لا أستطيع الطيران في النهار على كلّ حال، ولذلك سيكون الأمر أسهل في الظلام. وفي الليلة الأولى لوجودي هناك، استلم الضابط المناوب في المحطة عمله وقتل نفسه قبل أن رتفع م ة ياردة بعد شعلة النهاية، وكانت تلك داية مهمتي.

وبعد رحلة أو رحلتين، أرسلت إلى المحطة الجوية هورن

تشرش (Hornchurch) لافتتاح العمل بها كمحطةٍ مضادةٍ للزبلين، ذات قدرة على التحليق ليلاً. هبطتُ هناك، وكان ذلك الميناء الجوي حقلاً كبيراً مليئاً بالأغنام، حيث وجدتُ بانتظاري مزارعاً غاضباً وكلباً يزمجر بحنقٍ. ووفق الأوامر، نقلنا الأغنام واسترضينا المزارع الذي كان عليه الالتزام بما جاء بها، وقمت بتشكيل طاقم رحلةٍ جويةٍ من عدّة أشخاص ومن بينهم ليف روبنسون (Leefe Robinson)، ثم غادرتهم للتمتع بإجازةٍ لأربعة أيام؛ حيث قمت بما هو أخطر من مواجهة الزبلين، وأعني بذلك الزواج! وفي هذه الفترة، حلّق روبنسون عالياً، واصطاد أوّل منطاد زبلين».

السير آرثر هاريس (**Sir Arthur Harris**) أصبح لاحقاً «مارشال» جوياً، وقائد قاذفات القنابل في سلاح الجو الملكي **1942-1945**

قامت ألمانيا بغاراتها الجوية في الحرب العالمية الأولى بواسطة مناطيد زبلين، ولاحقاً بقاذفات القنابل الكبيرة ذات المحركين والمحركات الثلاث، وقد بدت تلك الغارات محدودةً جداً بالمقارنة مع المعايير اللاحقة؛ فقد قُتل وجُرح أربعة آلاف مدنيٍ بريطانيٍ فقط خلال الحرب، ولم تكن الغارات سوى نموذج أولي مبسط لما سيحدث في روتردام ودرسدن وهيروشيما، ولجميع المدن الأخرى التي ستُدمر من الجو في القرن العشرين، وكذلك لاستراتيجية الردع النووي أيضاً. ويعود هذا التأخر إلى أسبابٍ تقنيةٍ لا أكثر، وقد أصبح الجميع بعد عام 1915 هدفاً مشروعاً.

استغرق التحوّل من حربٍ كبيرةٍ على النمط الثوري الفرنسي إلى حربٍ شاملةٍ من الطراز الحديث أكثر من قرنٍ من الزمن. ومنذ قصف مقهى دولفين، تلاشت القيود السلوكية التي لا تجوز مخالفتها، وأصبح استخدام المزيد من

الأسلحة المدمّرة أمراً مقبولاً وفق قواعد عالمية متعارف عليها، واكتشفت حكومات أوروبا الهلعة والقلقة في أوّل حربٍ شاملةٍ أنّ استخدام جميع الوسائل المتاحة في الحرب يعني نهايةً فاصلةً لها؛ أي لم يعد بالإمكان التوقف فجأة قبل تحقيق نصرٍ ساحقٍ لأحد الأطراف على الآخر، وكذلك قبل الاستسلام غير المشروط للطرف الآخر.

كانت الغيرة التجارية والهواجس العسكرية والنزاعات الإقليمية هي التي تسببت في نشوب الحرب العالمية الأولى. وهي لا تختلف كثيراً عن أسباب اندلاع حرب السنوات السبع قبل قرنٍ ونصفٍ من الزمن. لكن في النموذج القديم، حاربت الجيوش الصغيرة المتحالفة من الطرفين بعضها بعضاً بشكلٍ متقطعٍ لبضع سنوات (في حين تابعت الغالبية العظمى من مواطني دولها شؤونها اليومية من دون عوائق). وعندما يتبيّن أنّ أحد الأطراف أقوى عسكرياً، يقدّم الخاسرون بعض التنازلات ويعود السلام. ولن يتم ذلك من دون خسارة عدّة مئات الآلاف من الجنود، لكن الحكومات لن تسقط، ولن يتم احتلال بلدٍ آخر. وبالفعل، قد تكون التكلفة غير متناسبة مع القضايا المتصارع عليها، لكن على الأقل ستتمكن الحكومات من السيطرة على تلك التكلفة.

لم تكن النزاعات بين الحكومات المتخاصمة ذات أهميةٍ كبيرةٍ في عام 1914، لكن تقنيات الحرب قد تجاوزت بالمطلق قدرة الحكومات على الحد من تلك النزاعات وتحجيمها؛ فقد قادت المسلمة التي اعتمدتها الحكومات – وهي أنّ القوة لا تُهزم إلا بقوةٍ أكبر منها – إلى تحويل الحرب إلى حربٍ شاملةٍ، وهذا يتطلب تضحياتٍ عظمى من مواطنيها؛ مما يعني ضرورة وجود أغراضٍ عظمى أيضاً للحرب؛ وهذا

ما يتطلبه الأمر عندما يتم تجنيد ستين مليون رجلٍ ليرتدوا زيًّا موحداً، ويُرسلون للمخاطرة بحياتهم. ففي فرنسا على سبيل المثال، قُتل أو أصيب واحد من كلّ ثلاثةٍ من السكان الذكور (بمن في ذلك الرضّع والكبار في السن منهم) خلال السنوات الأربع للحرب، كما تمّت تعبئة الشعب في كلّ بلدٍ من خلال دعاية الكراهية التي صوّرت الحرب كحربٍ صليبيةٍ خيّرةٍ ضد قوى الشرّ المطلق. وبتصديق الشعب لهذه الأفكار، ومضيه قدماً في تقديم التضحيات، لن تستطيع الحكومات إيقاف القتال بمجرد أن تكون لديها تلك النية، ولن تتمكن أيضاً من تحجيم المشكلة وشرح ملابسات خلاف البلدان البسيط والغامض الذي تسبب بهذه الحرب، كما لن تتمكن من حلّ المعضلة بتبادل عدد من المستعمرات والطرق التجارية، ومن ثم الثناء على الجنود المتبقين على قيد الحياة وإعادتهم إلى أرض الوطن.

وهكذا، لا يمكن إيقاف الحرب الشاملة سوى بتحقيق النصر التام. وعندها، تتحوّل الدعاية الحربية إلى حقيقة تقول إنّ مستقبل الأمة (أو على الأقل بقاء النظام) يقوم على الانتصار؛ مهما كان سبب نشوب الحرب. ولذلك، لا يكون من في السلطة على استعدادٍ للبحث في تسويةٍ سلميةٍ؛ حتى عندما يتوقعون انهياراً عسكرياً أو ثورة اجتماعية، وحتى إذا تذكروا السبب الحقيقي لنشوب الحرب عندما بدأت (ولن يتذكّر معظمهم ذلك، حيث إنّهم سيكونون تحت تأثير الدعاية الكاذبة التي أطلقوها هم أنفسهم). وبعدم قدرتهم على الخوض في تسويةٍ سلميةٍ، ستأتي الانهيارات والثورات لتجهز عليهم هذه المرّة.

لقد أدى انهيار الجيش الروسي في الميدان وشبه المجاعة التي ضربت البلاد إلى حدوث الثورة الروسية

(الأولى) في آذار من عام 1917. وفي نيسان من العام نفسه، تمردت أربع وخمسون فرقة من الجيش الفرنسي (نصف مجموع الجيش) بعد هجومٍ فاشلٍ آخر، وحوكم حوالي خمسة وعشرين ألف رجلٍ محاكمةً عسكريةً بعد استعادة النظام. وفي شهر أيار، ترك أربعمئة ألف جنديٍ إيطالي ميدان المعركة في كابوريتو[215] (Caporetto) بكل بساطة. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك الشهر، كتب رئيس هيئة الأركان العامة الملكية في لندن إلى الجنرال السير دوغلاس هيغ (General Sir Douglas Haig)، قائد الجيش البريطاني في فرنسا: «أخشى من حقيقة وجود بعض الاضطرابات في البلاد. ويعود ذلك جزئياً إلى الثورة الروسية»[216]. وفي الوقت نفسه، تصادقت قوات الاحتلال الألمانية مع البلاشفة، وترنحت الإمبراطورية النمساوية المجرية على حافة التحلل إلى مكوناتها الوطنية المختلفة. ورغم كلّ هذا، لم تتوقف أية حكومةٍ عن القتال بشكلٍ طوعيٍ، وتشبثت بقناعتها أنّ الأمل الوحيد للبقاء هو تحقيق النصر العسكري الكامل.

تمكنت بعض الحكومات المنتصرة من البقاء على قيد الحياة، وهذا ما لم يتحقق لأيٍ من الخاسرين. فقد دُمرت في الحرب أربع إمبراطورياتٍ كبيرةٍ؛ وهي الألمانية والروسية والنمساوية والعثمانية، وفُكِّكت الأخيرتان تفكيكاً كاملاً إلى مجموعةٍ من البلدان والأقاليم الجديدة. لقد خضع ما يقارب نصف سكان أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا إلى تغييرٍ جذريٍ في النظام، وحتى الجنسية الوطنية نتيجة الحرب، وحافظ العديد من الأنظمة الجديدة في وقت السلم - كما في روسيا وإيطاليا وألمانيا لاحقاً - على الكثير من أجهزة الدولة المستبدة والمسيطرة على المواطنين والاقتصاد؛ مع أنها من تبعات

القتال الذي نشب في الحرب العالمية الأولى.

وهكذا، كان الاستنزاف هو العامل الرئيس في تحديد الجهة المنتصرة في الحرب، وكانت الكفة تُرجَّح لدى الحلفاء؛ لأنّها وببساطة تملك عدداً أكبر من الرجال والموارد مقارنةً بألمانيا وحلفائها (رغم مرور الحلفاء بفترة قلقة بين فترة خروج الحليف الروسي من الحرب في منتصف عام ، ووصول القوات الأمريكية الكبيرة على الجبهة الغربية في منتصف 1918)، وبدت خسائر أي حربٍ سابقةٍ لهذه الحرب بسيطةً بالمقارنة معها؛ فقد قُتل أكثر من ثمانية ملايين جندي، وجرح نحو عشرين مليوناً، وتشير التقديرات إلى موت حوالي ثلاثة ملايين مدني؛ معظمهم قضوا بسبب سوء التغذية والأمراض. ومع انتهاء الحرب، ظهر سلاح جديد منح الأمل لبعض الجنود المحترفين من حيث وجود بديل لحرب الاستنزاف الطاحنة في الخنادق، ولم يكن ذلك الأمل سوى الدبابة.

«دبّ الذعر وانتشر سريعاً كانتشار التيار الكهربائي. انتقل الرعب من رجلٍ لآخر على طول الخندق عند سماع صوت السلاسل القادم من الأعلى، وصعد أشجع الرجال فوق سطح الأرض في هجماتٍ مضادةٍ انتحاريةٍ، وألقوا القنابل اليدوية على أسطح الدبابات، كما أطلقوا النار، ووجهوا طعناتهم إلى أي فتحةٍ متاحةٍ في ذلك الجسم المعدني. أُطلقت النار على أولئك الجنود أو سُحقوا تحت السلاسل، بينما رفع الجنود الآخرون أيديهم مستسلمين والرعب ينهشهم، وانسحب آخرون عبر فتحات الخنادق إلى الخطوط الخلفية».

اللقاء الأول للمشاة الألمان مع الدبابة، 1916 [217]

ما إن ظهرت عقبة الخنادق فجأةً في أواخر عام 1914 حتى ظهر حلٌّ لدى أحد ضباط الأركان البريطانيين، وهو الكولونيل ارنست سوينتون (Colonel E. D. Swinton). فقد استدت الحاجة إلى ما يتخطى هذه العقبة، وتمثل الحلّ بمركبةٍ مصفحةٍ ضد رصاص الأسلحة الرشاشة، ومزودة رشاشاتٍ أيضاً، حيث تستطيع هذه المركبة المرور فوق حفر القذائف والأسلاك الشائكة والخنادق بفضل سلاسلها الحديدية. ورغم المعارضة الدوية من المحافظين العسكريين، إلا أنّ الفكرة تم تبنيها من قبل ونستون تشرشل (رغم مسؤوليته عن البحرية)، ووصلت النماذج الأولى من (السفن البرية) كما سُميت في البداية إلى الجبهة الغربية في خريف عام 1916.

كانت مركباتٍ ضخمةً وبدائيةً وغير مريحة على الإطلاق. تألف طاقم المركبة من ثمانية أفراد قد تعرّوا حتى خصورهم في حرارةٍ تصل إلى مئة درجة فهرنهايت، يشاركهم في الداخل محرك ديملر مكشوف ذو قوة 105 أحصنة. وجعلت الأبخرة الصادرة عن المحرك، وأبخرة القذائف الساخنة المتدحرجة على الأرض الجو داخل المركبة لا يطاق أثناءالقتال. ولم تكن هناك نوابض تعليق، واستحالت الاتصالات الصوتية بسبب الضوضاء الشديدة، ولم يستطع الجنود رؤية إشارات اليد وسط الظلام في الداخل، حيث تسلل الضوء الوحيد من شقوق الرؤية. أما سرعة المركبة القصوى فكانت ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة، وكانت معرّضة للأعطال كلما سارت بحدود خمسة أو عشرة أميال في المتوسط!

أما المرّة الأولى التي شاركت فيها الدبابات في المعركة بأعدادٍ كبيرةٍ فكانت في كامبري (Cambrai) في

تشرين الثاني من عام 1917، حيث شاركت 476 دبابة؛ ما مكّن الجيش البريطاني من الاندفاع مسافة ستة أميال خلال ست ساعات، بخسائر وصلت إلى أربعة آلاف قتلٍ وجريحٍ. وفي معركة ارس الثالثة (Third Battle of Ypres) في وقتٍ ساقٍ من العام نفسه، استغرق البريطانيون نحو ثلاثة أشهر ليتقدّموا مسافة مماثلة، وفقدوا ربع مليون رجلٍ لتحديق ذلك. وبالتأكد، توفر المزد من عوامل النجاح في كامبري وليس الدبابات فحسب؛ فقد كانت هناك وللمرّة الأولى على ا طلاق خطةٌ شاملةٌ لنران المدفعية غر المباشرة، وذلك لتشغل الدفاعات الألمانية في وقتٍ واحدٍ على كامل عمق المنطقة المستهدفة، وحتى أبعد موقع من المواقع الاحتياطية على الجبهة. تم نشر ألف مدفعٍ ريطانيٍ علىٍ جبهةٍ بطول ستة أميال، كما وصلت مـ ة وخمسون بطارية لتعزيز الـ طاع بشكلٍ سرّيٍ، غر أنه لم تقم بطلاق النار لمراقبة مكان سقوط القذائف وضبطه حتى لحظة الهجوم، وذلك كيلا تعطي الألمان أي تحذر. وكان هذا أول استخدامٍ واسعٍ للنران بالاعتماد على الاستطلاع الجوي والخرائط الدقيقة وحسابات الرمي المدفعي، وبمساعدة من الدبابات و289 طائرة لرصد المدفعية الألمانية با ضافة إلى طائرات الهجوم الأرضي وقاذفات القنا ل؛ وبذلك تم اختراق الخطوط الألمانية بشكلٍ شبه كاملٍ، ولم تُغلق الفجوة إلا بهجمةٍ ألمانيةٍ مرتدةٍ سريعةٍ وشرسةٍ جداً.

انتهى الجمود الـ ديم في الخنادق، وحلّ الألمان مشكلتهم بالطريقة نفسها؛ أي بالاعتماد على الدبابات. وبدأ الأمر لديهم بالهجوم في ريغا (Riga) على الجبهة الروسية في أيلول من عام 1917؛ إذ قام ضابط مدفعيةٍ ألمانيٍ يُدعى الكولونيل

أُطلق عليها اسم «الصهاريج» في مرحلة تطويرها، وذلك لتضليل الاستخبارات الألمانية عن كونها أسلحةً. كما سميت بأسماء تحمل ترميزاً مثل «المراجل» أو «الأفران» أو أي اسم يحمل في طياته الإشارة إلى الكثير من الفولاذ في تصنيعه. وقد رأى المشاة البريطانيون فيها الخلاص. الصورة خلف خط الجبهة البريطانية، تموز عام 1917.

جورج روشمولر (Colonel Georg Bruchmüller) بصيغة المفاجأة والاختراق السريع نفسها، وبشكلٍ مستقلّ. فقد أطلق كمياتٍ هائلة من نيران المدفعية غير المباشرة والمفاجئة من دون تحذيرٍ مسبقٍ، والتفّ مشاة (قوات العاصفة) (storm-troops) حول المواقع الحصينة للعدو.

وفيما استمرت تلك المواقع بالم اومة، واصلت ال وات الألمانية تغلغلها في المنطقة الدفاعية مع نشرها البلبلة والرعب؛ مما دفع العدو في النهاية إلى التراجع بشكلٍ ك ير.

ورغم عدم التكافؤ ين الدبابات الألمانية وتلك البريطانية من حيث العدد أو النوع، إلا أنّ ألمانيا دأت الهجوم في ربيع عام 1918 (بعد ثلاث سنواتٍ من الدفاع) في مغامرة شاملةٍ لكسب الحرب قبل وصول الأعداد الك يرة من ال وات الأمريكية إلى فرنسا. وفي أراس (Arras) وخلال شهر آذار/مارس من عام 1918، أطلقت 6,608 بندقيات ألمانية حوالي 3.2 مليون طلقة في اليوم الأوّل للهجوم، واستولى الألمان في غضون أسبوعين على مساحة أرض أك ر من تلك التي كسبها الحلفاء في جميع هجمات الحرب! وعلاوةً على ذلك، تبعت تلكَ الهجماتِ تحركاتٌ سريعةٌ، وعلى أثرها أوشك الحلفاء على خسارة الحرب في ربيع عام 1918، إلا أنّ الألمان فشلوا في الوصول إلى باريس أو ساحل القناة ا نكليزية، وخسروا مليون رجلٍ ين شهري آذار/مارس وحزيران/ ونيو من عام 1918[218].

بعد ذلك، انتقل الحلفاء للهجوم باستخدام ال وات البريطانية والكندية كرأس حربةٍ، حيث أظهرت تلك ال وات ال درة نفسها على كسب الأرض. لم تلعب الدبابات دوراً حاسماً في تلك المعارك، فقد وُضِعت خطط عام 1919؛ حيث إنه سيتم استخدام عدّة آلاف من الدبابات مدعومةً بالطائرات وقوات المشاة في ناقلاتٍ مدرّعةٍ في حال تواصلت الحرب، وذلك لسحق جبهة العدو واختراقها. ورغم ذلك، وقعت ال وى المتحاربة في مشكلة عسكرية جد دة؛ إذ استطاع جنود

الحرب العالمية الأولى حلَّ مأزق الخنادق ولكنهم لم يستطيعوا كسر ظاهرة الجبهة المستمرة.

استغل المنظّرون العسكريون (هدنة العشرين عاماً) ين الحربين، فعكفوا على تحد د أفضل السبل لاستغلالٍ حركة الدبابات، وقد دا أنّ الألمان على الأقل قد وجدوا صيغةً مضمونةً لذلك في الفترة ما ين عامي 1939 و1941، وتشمل تلك الصيغة (الحرب الخاطفة)؛ أي الـ يام باختراقٍ سريعٍ لجبهة العدو من قبل قوةٍ ك يرةٍ من الدبابات، تساعدها في ذلك عن قرب الطائرات الهجومية وقوات المشاة مع آلياتها وقوات المدفعية، وما إن تُختَرق دفاعات المنطقة المستهدفة حتى تندفع الدبابات بسرعةٍ ك يرةٍ إلى مراكز الـ يادة العليا للعدو ومراكز الاتصالات الحيوية في عمق مؤخر الـ وات لتنشر الفوضى خلف منطقة الجبهة التي ستنهار من تلـ اء نفسها عندما تجد الـ وات نفسها معزولةً عن قياداتها ومراكز تموينها.

وبهذا الأسلوب، نجح الألمان في تدمير الجيش البولندي بكامله خلال ثلاثة أسا يع في عام 1939، وبتكلفة بشرية تُقدّر بثمانية آلاف قت لٍ فقط، وسجّلوا نجاحاً مماثلاً في الربيع التالي في فرنسا. ورغم امتلاك الفرنسيين والبريطانيين عدداً أك ر من الدبابات ذات النوعية الأفضل، إلا أنّ التفوق التكتيكي للألمان سمح لهم بالاستيلاء على هولندا وفرنسا في ستة أسا يع فقط، وبتكلفةٍ بشريةٍ قدرها 27 ألف قت ل و18 ألف مفقودٍ و111 ألف جريحٍ. وهكذا، دت الجبهة المستمرة ومعارك الذبح المستنزفة أمراً من الماضي، لكنّ هذا لم يكن أكثر من وهمٍ. فما فعلته الدبابات لم يكن أكثر من جعل الجبهة

في حركةٍ مستمرةٍ مع عواقب وخيمةٍ على المدنيين.

وبالتأكيد، لا يبقى أي ابتكارٍ حربيٍّ مفاجئاً لفترةٍ طويلةٍ جداً. ففي أواسط الحرب، وخلال قتال القوات الألمانية في عمق الاتحاد السوفييتي، عاد الاستنزاف مع الانتقام. إذ جاء حلّ تكتيك الحرب الخاطفة؛ وذلك بجعل منطقة الدفاع أكثر عمقاً بعدّة أميال، مع أحزمة متتالية من الخنادق وحقول الألغام والمخابئ ومراكز المدفعية وفخاخ الدبابات، مما أبطأ رأس الرمح المدرّع وقضمه في النهاية. قد يصمد الدفاع في بعض الأحيان، وينجح الاختراق أحياناً أخرى، لكن الجبهة المستمرة لم تختفِ من قاموس الحرب حتى ذلك الحين. وكل ما في الأمر هو أنَّها قد تتراجع بعض عشرات أو مئات الأميال على طول الخط، لتعود وتستقر مجدداً.

بلغ استهلاك الرجال والآلات في النمط الجديد من الحرب حدًّا هائلاً. فعلى سبيل المثال، صنع السوفييت حوالي مئة ألف دبابةٍ ومئة ألف طائرةٍ وخمس وسبعين ألف قطعة مدفعيةٍ خلال الحرب، وقد دُمِّرَ منها ما يقارب الثلثين على الأقل خلال القتال. ورغم ذلك، بدت قدرة المجتمعات الصناعية على استيعاب هذا العقاب الهائل والحفاظ على الإنتاج لا حدود لها. كانت دولاً مُعبَّأة بالكامل للحرب؛ دعمٍ من المشاعر الوطنية والدعاية والشمولية (المفروضة في كلّ بلد يخوض الحرب بغض النظر عن النظام السياسي لكلّ بلدٍ في زمن السلم)، مما فرض القبول بأفظع التضحيات ومن دون الإحجام عنها.

انتهى الأمر بتجنيد ثلثي الذكور الألمان ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين من العمر في القوات المسلحة، وخسروا 3.5 ملايين قتيل عسكري[219]،

واستمر جيشهم بالقتال في نيسان/أبريل من عام 1945 رغم تراجع الجبهتين داخلياً إلى وسط ألمانيا المدمرة؛ الجبهة التي تواجه السوفييت في الشرق، وتلك التي تحاول صدّ التقدم الأنجلو أمريكي في الغرب.

كان ذلك تكراراً للحرب العالمية الأولى، مع معدل خسائر عسكرية أعلى (باستثناء خسائر البلدان الناطقة بالإنجليزية، والتي خرجت بخسائر طفيفة جداً؛ حيث خاضت جيوشها القتال العنيف في أوروبا فقط في السنة الأخيرة من الحرب). إنّ الجبهة المستمرة الآن متحركة في هذه الحرب، إلا أنّها دمرت كلّ شيءٍ في مسارها تقريباً، نظراً إلى كونها قد جرت على أراضي دولٍ بأكملها.

«تناثرت الأمعاء عبر الأنقاض ولوّثت جثث آخرين في الجوار، وتبعثرت مكوّنات الآلات كالبقرة التي شقّ بطنها للتو، وعلا اللهب والأنين، وتحطمت الأشجار وأصبحت أجزاء صغيرة، وتدفق الغبار عبر النوافذ المتكسرة، وعمت الفوضى في أرجاء الدار المريحة... ارتفعت صرخات الضباط العاملين والاحتياطيين وهم يحاولون إعادة جمع فصائلهم وسراياهم، وهكذا شاركنا التقدم الألماني. وبعد أن استدعينا عبر الضجيج والغبار، اتبعنا غيوم الغبار المنطلقة من سلاسل دباباتنا المتجهة نحو الضواحي الشمالية لمدينة بيلغورود (Belgorod)...

سقطت الأنقاض المحترقة من بيلغورود في أيدي من بقي من قواتنا مساء اليوم التالي... وجاءتنا أوامر بالقضاء على جيوب المقاومة المتبقية في رماد ضاحيةٍ تدعى ديبتريوتكا (Deptreotka) إذا لم تخنّي الذاكرة... وعندما وصلنا إلى نهاية الاجتياح ذاك، انهارت قواتنا عند حافة مرتفعة

هناك، وحدّق بعضنا إلى بعضٍ لفترةٍ طويلةٍ في صمتٍ وذهولٍ. لم نستطع الكلام... ولم يتوقف الهواء عن الهدير والاهتزاز محملاً روائح الاحتراق... وعند حلول مساء اليوم الرابع أو الخامس، عبرنا بيلغورود من دون أن نعرف ذلك».

جاي ساجر (Guy Sajer)، مجند في الجيش الألماني من منطقة الألزاس[220]

تقع بيلغورود في جنوب روسيا، وكان عدد سكانها 34 ألف نسمة قبل أن تتحرك الجبهة عبرها نحو الشرق لأوّل مرّةٍ في تشرين الأوّل/أكتوبر من عام 1941. وقد حالفها الحظّ في ذاك الوقت، فقد استولى عليها جيش فون رايشناو السادس (Von Reichenau’s Sixth Army) بسرعةٍ. ورغم حدوث قتالٍ حول المدينة لمدة يومين، إلا أنّ معظم المباني قد نجت، وبقي معظم السكان على قيد الحياة. وبعد مضيّ عشرين شهراً، حررتها القوات السوفيتية مع تحرّك الجبهة غرباً مرّةً أخرى بعد تدمير الجيش السادس في ستالينغراد (Stalingrad). ومرة أخرى، كانت محظوظة

الناجون يبحثون عن عائلاتهم بالقرب من مدينة بيلغورود الروسية المدمرة.

نسبياً؛ إذ لم يكن لدى الألمان الوقت الكافي لتدميرها عند تراجعهم، لكن فرقة (غروس دوتشلاند) (Gross Deutschland) التي خدم فيها ساجر أعادتها مجدداً إلى السيطرة الألمانية في بداية الهجوم الألماني الكبير حول كورسك (Kursk) في تموز/يوليو عام 1943، حيث استخدمت ستة آلاف دبابةٍ وثلاثين ألف مدفعٍ ومليوني رجلٍ على جبهةٍ امتدت لمئات الأميال. إلا أنّ الدفاعات الروسية في العمق نجحت في إيقاف الدبابات الألمانية، لتبدأ الهجمات المرتدة للسوفييت باستخدام 70 دبابة و230 مدفعاً لكلّ كيلومتر من الجبهة. وفي منتصف آب، تحررت بيلغورود للمرّة الثانية، بعد قتال شوارعٍ (بالأحرى قتالٍ بين الأنقاض) راح فيه ثلاثة آلاف جنديٍ

داخل حدود المدينة. وبعد هذه الجولات، بقي من سكان مدينة بيلغورود 140 شخصاً من أصل 34 ألف نسمة، أما الباقون فكانوا إما لاجئين أو مجندين أو موتى.

لم تكن لبيلغورود أي أهميةٍ عسكريةٍ، ولكنها على الطريق، ولذلك انتقلت الجبهة عبرها أربع مرّاتٍ؛ وهو ما يعني اجتثاثها عملياً. وهذا ما حصل لعشرات الآلاف من المدن والبلدات والقرى الأخرى.

قُتِل في الحرب العالمية الثانية ما لا يقل عن ضعف عدد الجنود القتلى في الحرب العالمية الأولى، كما قُتِل أيضاً ما يقارب ضعف عدد المدنيين؛ كما هو الحال مع الجنود. وكانت هذه أوّل حربٍ أوروبيةٍ منذ حرب الثلاثين عاماً يفوق فيها عدد الضحايا المدنيين القتلى العسكريين. مات أغلب المدنيين بالصدفة بشكلٍ أو بآخر، أي كقتلى فرعيين نتيجة القتال المستعر، وانتقلت الجبهة المستمرة عبر كلّ مدينةٍ وقريةٍ في دولٍ بأكملها، وأُجبِر عشرات الملايين من المدنيين على الفرار كلاجئين أو ماتوا تحت أنقاض منازلهم. ونظراً إلى ضخامة الدمار الحاصل والفوضى، لم يكن من الممكن معرفة عدد الضحايا بدقة، لكن يمكن توقع عددهم، وهو مليون ضحية تقريباً! وحيث إن القتال كان على أشدّه لفترةٍ طويلةٍ في دولٍ مثل ألمانيا وباتجاه الشرق، فإنّ حوالي 10 بالمئة من سكان تلك الدول فقدوا حياتهم في الحرب.

ومنذ عام 1945، وقعت إصابات بين المدنيين بالحجم نفسه تقريباً في مناسباتٍ قليلةٍ (مثل كوريا)؛ وذلك عندما خاضت الجيوش النظامية الحرب في جبهاتٍ مستمرةٍ عبر الأراضي المكتظة بالسكان.

«تفككت الدول في الحرب الأخ رة بسبب عمليات الج وشٍ في الميدان. وفي المستقبل، سيتم إنجاز الأمر مباشرةً... ع ر الق وى الجوية... وستشن الحرب ضد السكان العزل في المدن والمراكز الصناعية الك رى... ولا د أن يحدث الانهيار الكامل للنظام الاجتماعي في دولة تتعرض لهذا النوع من الق صف عديم الرحمة... سيكون الأمر غ ر إنساني ومليئاً بالفظائع، لكنّ هذه هي الح يقة».

الجنرال جويو دوهيت(i[221] 1921 (Gen. Giulio Douhet

«ي ول الكث ر من الناس إن الق صف لا يؤدي إلى ربح الحرب. حسناً، جوا ي على ذلك هو أنّنا لم نجرب ذلك ب عد. فلنجربه وسنرى».

مارشال القوات الجوية السير آرثر هاريس (Sir Arthur Harris)

قائد قوة قاذفات القنابل في سلاح الجو الملكي البريطاني، 1943-1942

تقول ا حصائيات إنّ 97 بالم ة من مجموع 45 مليون ق ت ل في الحرب العالمية الثانية لم ُقتلوا في الغارات الجوية على المدن. ومن الصعوبة بمكان بالنسبة للمعج ي ن جداً (بالق صف الاستراتيجي) تقديم البراهين المقنعة التي تثبت أن هذا الأسلوب هو الذي أدى للفوز بالحرب. وإن لم يكن ذلك فبسبب الق صور التكنولوجي الذي جعل قاذفات القنا ل تتأخر كث راً للوفاء وعدها في التدمير الفوري والحاسم من السماء؛ مع أنّ إرادة الق يام بذلك كانت موجودةً وب وةٍ.

إنّ الق صف هو السلاح الطبيعي للحرب الشاملة. وكانت

هذه الفكرة جذابةً جداً للمنظّرين الذين رزوا ين الحربين بسبب رغبتهم في تجنب صراعٍ دمويٍ آخرَ في الخنادق، وكان الجنرال ا يطالي جوليو دوهيت (Giulio Douhet) أولّهم وأكثرهم تأثيراً؛ حيث اقترح تشكل قوة قصفٍ إيطالية مستقلة من خمسم ة طائرةٍ متعددة المحركات لمهاجمة الاتصالات النمساوية المجرية في وقتٍ مبكرٍ من عام 1915 (كانت إيطاليا أوّل دولة تستخدم الطائرات في ال صف، وذلك في حربها ضد الأتراك في ليبيا عام 1911)، وأصبح الجنرال دوهيت مفوض الطيران بعد انقلاب موسوليني في إيطاليا عام 192، لكن تأثيره الأك ر ظهر في ريطانيا والولايات المتحدة، وهما الدولتان ذواتا الوجهة التكنولوجية الراغبة في إنفاق المال دلاً من التضحية بالحياة في الحرب. وظهرت قاذفة القنا ل الأمريكية الرئيسة في الحرب العالمية الثانية وهي B–17 قبل الحرب، وتم اختبارها في الطيران عام 1935، وصُمِمت قاذفات القنا ل البريطانية ذات المحركات الأربعة في العام نفسه.

على كلّ حال، كانت أولى الهجمات الجوية الك يرة على المدن خلال الحرب العالمية الثانية من قبل سلاح الجو الألماني الرايخ الثالث (Luftwaffe) على وارسو (Warsaw) وروتردام (Rotterdam)، ومن ثم على معظم المدن البريطانية الِك رى؛ رغم أنّ ال وات الجوية الألمانية لم تهدف أو تُصمم لل يام بهذا الدور أساساً.

«انتشر الضباب فوق المدينة حين دأ الرجال والنساء بالخروج من مخا ئهم، والبحث عن أصدقائهم، وتفقد أنقاض مدينتهم. وبالكاد استطاعوا التعرّف عليها... لم ينجُ الكث ر من الأبنية من ال صف، واستحالت علينا معرفة الشوارع الرئيسة التي نعرفها ج داً. استمر له ب الن ران

بالتصاعد في كلّ اتجاهٍ، كما كنّا نسمع صوت تحطم سقفٍ أو سقوط جدارٍ من وقتٍ لآخرَ... دا الأمر ميؤوساً منه حتى مع يوتنا ومحلاتنا التجارية، وغطى الخراب جزءاً واسعاً من مدينتنا الديمة. يمكنك الول إنّنا نشعر بالصدمة والذهول».

مقابلة بي بي سي بعد قصف كوفنتري (Coventry)

14-15 تشرين الثاني/نوفمبر 1940[222]

قُتِلَ أربعون ألف مدنيٍ في الغارة الجوية الألمانية على المدن البريطانية ين أيلول/سبتمبر عام 1940 وأيار/مايو 19، لكن ا صابات بهذا الحجم (أي واحد بالألف من السكان) لم يكن لها التأثير الذي توقعه دوهيت؛ فقد لغت نسبة الخسائر واحداً من أربعة عشر مما توقعه البريطانيون وحضّروا أنفسهم له (كانت لدى الحكومة خططٌ لمقابر جماعيةٍ) إذ لم تصل تكنولوجيا قاذفات القنابل الألمانية إلى هذا المستوى؛ وهو ما ينطبق على مستوى القاذفات البريطانية والأمريكية في الفترة الممتدة ين عامي 1942–1943؛ فقد افتقرت إلى العدد وحرية العمل في السماء الألمانية بما يضمن تحقيق الغرض الذي صُنعت من أجله؛ أي التدمير الشامل للمدن والصناعة الألمانية. رغم هذا، لم يشك دعاة القصف الاستراتيجي من بريطانيين وأمريكيين أنّ هذا الطريق السريع والفعّال لتحقيق النصر. وفي عام 1942، كتب اللورد تشرويل (Lord Cherwell): «على ما يبدو، إنّ التحقيق قد بيّن أنّ تدمير منزلٍ واحدٍ له ضررٌ كبيرٌ على المعنويات. ويبدو أنّ الناس يمانعون حدوث ذلك أكثر من قتل أصدقائهم أو أقاربهم! لقد كانت علامات الإجهاد واضحةً في هال (Hull) رغم تدمير عشر منازل المدينة فقط. ووفق هذا، علينا إلحاق عشرة أضعاف

الضرر في جميع المدن الألمانية الرئيسة الثماني والخمسين. ورغم هذا، هناك شكّ ضئيل في إمكانية تمكن هذا من كسر إرادة الشعب»[223].

وحتى ذلك الوقت، حاولت القوات الجوية البريطانية ضرب أهدافٍ صناعيةٍ محددةٍ في غاراتها على ألمانيا (في سبيل الفاعلية والكفاءة وليس بسبب الوازع الأخلاقي)، إلا أنّ التطبيق لم يكن بتلك الصرامة، ولا سيما أنّ قوة الدفاعات الجوية الألمانية قد أجبرت المهاجمين على الطيران ليلاً.

«لا راودنا ذلك القلق حول عدم ضرب الأهداف العسكرية التي كنّا نسعى لقصفها. على أية حال، كنّا في حالة حربٍ مع ألمانيا، وبما أنّنا نرمي قنابلنا فإنّنا نُحدِث بعض الأضرار في مكانٍ ما؛ رغم أنّ القاعدة كانت تقول إنّنا إذا لم نتمكن من رؤية هدفنا فعلينا العودة قنابلنا، لكنّ أحداً لم يفعل ذلك... كان الهدف مغطى بالغيوم، وكنا نعرف أنّنا فوق المدينة في مكانٍ ما، لذا كنا نرمي قنابلنا، وعند عودتنا كنا نقدّم تقريرنا بأنّه كان هناك ثقب في السحابة، وأنّنا قصفنا عبره. وبعد قصف كوفنتري، تلقينا الأوامر بعدم إرجاع القنابل عند عودتنا... كانت تلك هي المرّة الأولى التي نتلقى فيها أمراً بذلك؛ فقط بعد كوفنتري».

روبرت أوكلي (Rupert Oakley)، طيار كندي في

قيادة سلاح الجو الملكي البريطاني (ثلاث وسبعون مهمة قتالية)

وفي أوائل عام 1942، تولى المارشال هاريس قيادة قاذفات القنابل في القوات الجوية، وأسقط الادعاء بأنّ

لل صف أهدافاً أكثر دقة من السكان المدن ين الألمان. كانت أسبابه المعلنة تقنية، وتوافقت السياسة الجد دة مع الأفكار التي كان دوهيت أوّل من عبّر عنها:

«طُلِب من زميلٍ لي ُدعى وت (Butt) تقديم تقريرٍ عن دراسة الصور الملتقطة من قبل قاذفات القنا ل، وقد توصل إلى استنتاجٍ مفاده أنّ القن لة المتوسطة لا تصيب أ داً ضمن مجال خمسة أميالٍ من الهدف... وبتجربتي الغنية في الطيران الليلي، والتي كانت أغنى من تجارب معظم الموجودين في تلك الأيام، جرى الأمر كما توقعت، وجاء الجواب على استنتاجه بال صف الشامل للأهداف الك يرة دون انتقاء الأهداف التي تشمل معامل الكرات وآلات الحياكة أو دبا يس ربطات العنق وغ رها...».

دأ هاريس سياسة (ال صف الشامل) بغارةٍ اشتركت فيها ألف قاذفة قنا ل على كولونيا في نيسان/أ ريل من عام 1942، وأدت إلى دمارٍ كاملٍ. شمل ذلك جميع المدن الرئيسة في ألمانيا تقريباً، وذلك على مدى ثلاث سنواتٍ قادمةٍ، وقُتِل إثر تلك الغارة 593 ألفاً من المدن ين الألمان، ودُمِرت منازل أكثر من 3.3 ملا ين إنسان، وكانت التكلفة عاليةً بالنسبة لبريطانيا أيضاً؛ إذ قُتِل 46 ألف جنديٍ من الأط م الجوية البريطانيةُ، ونحو ثلث الجيش البريطاني والد وى العاملة المدنية، وخُصصت الموارد الصناعية لدعم طلب قاذفات القنا ل في السنوات الأخ رة من الحرب[224].

« دا الأمر كما لو أنّ كلّ مدنية هامبورغ تشتعل بالنار من داي تها إلى نهايتها، وصعد فوقنا عمود ضخم وشاهق من الدخان؛ رغم أنّنا كنّا على ارتفاع عشرين ألف قدمٍ!

كانت تبدو في الظلام قبة ملتفة من النار الحمراء الزاهية، مضاءة ومشتعلة وكأنها وسط مجمرةٍ واسعةٍ. لم أرَ أي شوارع، ولا حتى الأشكال العامة للمباني، وكلّ ما كان مرئياً هو الحرائق المبهرة المندلعة مثل مشاعل صفراء على خلفيةٍ من الرماد المتوهج. وفوق المدينة علا الضباب الأحمر... شعرت بالفتنة كما بالذعر عندما نظرت نحو الأسفل، كما شعرت بالرضى والرعب في الوقت نفسه!

كان الأمر كما لو أنني كنت في بحثٍ عمّا تخيلته، بركان نشط... كانت هناك كمياتٌ كبيرةٌ من الدخان، واستطعت نفسياً الشعور بتلك الحرارة الهائلة. كان قصفنا مثل وضع حفنةٍ كبيرةٍ من الفحم في الفرن!».

أحد أفراد طاقم قاذفة قنابل بريطانية فوق هامبورغ، 28 تموز/يوليو عام 1943[225]

استخدمت القاذفات البريطانية الخليط المعتاد من القنابل؛ أي أعداداً هائلةً من القنابل الحارقة زنة 2 كغ لإشعال الحرائق على أسطح المباني، وقنابل زنة 15 كغ لاختراقها عميقاً، بالإضافة إلى قنابل شديدة الانفجار تزن الواحدة منها 2,000 كغ لتفجير الأبواب والنوافذ على مساحاتٍ واسعةٍ ونشر الحفر والأنقاض في الشوارع بهدف عرقلة عمليات مكافحة الحرائق. وذات ليلةٍ صيفيةٍ وجافةٍ كانت الرؤية فيها جيدةً، أدى التركيز المكثّف والاستثنائي للقنابل الملقاة على حي الطبقة العاملة المكتظ بالسكان إلى ظهور ظاهرةٍ جديدةٍ في التاريخ وهي العاصفة النارية.

فقد غطت العاصفة مساحةً تُقدّر بحوالي أربعة أميال مربعة، ووصلت حرارة الهواء في وسطها إلى ثمانمئة درجة

مئوية، وهبّت رياح الحمل الحراري إلى الداخل بقوةٍ إعصارٍ. وقد ذكر أحد الناجين أنّ صوت الريح كان «شيئاً بضحكة الشيطان»، وقارن آخر ضجيج العاصفة «بعزف الأرغن القديم في الكنيسة، عندما يعزف أحدهم على المفاتيح كافة في آنٍ واحدٍ». ورغم امتلاك جميع كتل الشقق السكنية في منطقة العاصفة ملاجئ تحت الأرض، إلا أنّه لم ينجُ أحد ممن كان فيها من هول الكارثة. ومن لم يحترق مات خنقاً بأوّل أكسيد الكربون، وتعرّض من غامر وخرج إلى الشارع إلى خطر سحبه من قبل التيارات إلى قلب العاصفة.

«لفّتني والدتي بأغطيةٍ مبللةٍ، وقبلتني قائلة: اركض. ترددت عند الباب؛ إذ لم أرَ أمامي إلا النار، وكان كلّ شيءٍ أحمر كباب فرنٍ. شعرت وهج الحرارة الشديدة، ووصلت ألسنة اللهب إلى أمام قدمي فتراجعت إلى الخلف. وعندما استجمعت قواي للقفز فوقها، اختفت بعيداً وكأنّ يداً شبحيةً خطفتها. صُنعت من الأغطية المبللةِ حولي ما يشبه الأشرعة، وشعرت كما لو أنّني محمولٌ بعيداً عن العاصفة. وصلت إلى مبنى مكوّن من خمسة طوابق... والذي كان قد تعرّض للقصف واحترق في غارةٍ سابقةٍ، ولم يبق فيه ما يحترق، وعندها جاء شخصٌ ما وأمسك يدي وسحبني إلى الداخل».

تروت كوخ (Traute Koch)، خمسة عشر عاماً في عام 1943[226]

قُتِل عشرون ألف شخصٍ في هامبورغ في حوالي ساعتين. ولو تمكن سلاح الجو الملكي من تحقيق تلك النتيجة كلّ مرّةٍ، لتمكنت قاذفات القنابل من هزيمة ألمانيا في غضون ستة أشهر. وقد نجحت الظروف في

توليد عاصفة مشابهة مرّةً أخرى في درسدن عام 1945، إلا أنّ العواقب كانت أقل شدّةً. وبشكلٍ عام، كان متوسط نتيجة الطلعة الجوية الواحدة لطاقمٍ مكوّن من سبعة ملاحين قَتْل أقل من ثلاثة ألمانٍ، وربما كان منهم عاملٌ إنتاجيٌ واحدٌ على الأقل. وبعد ما معدله أربع عشرة طلعة جوية قد قُتِل الطاقم نفسه، أو وقع في الأسر إذا كان محظوظاً. وهكذا، وعلى اعتبار أنّ الضرر الحاصل كان تدريجياً وعلى فترةٍ طويلةٍ من الزمن، واظب الإنتاج الصناعي الألماني للأغراض العسكرية على الارتفاع حتى وقتٍ متأخرٍ من عامٍ 1944. كانت نظرية القصف الاستراتيجي منطقية، ولكن الممارسة التي طبقتها قيادة سلاح الجو الملكي البريطاني لم تكن أكثر من بديلٍ جويٍ مكلفٍ جداً لحرب الخنادق. وينطبق الأمر نفسه على القاذفات الأمريكية وتأثيرها على الإنتاج الحربي الألماني عبر التركيز النهاري على القصف الدقيق للأهداف الصناعية.

كانت للأمر ذاته نتائج مرضية في الحرب ضد اليابان، حيث استخدمت الولايات المتحدة قاذفات القنابل الضخمة من طراز B-29 بالإضافة إلى التكتيكات البريطانية، وقد ساعدت المباني الخشبية الهشة وازدحام المدن اليابانية في تحقيق هذه النتائج.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من قصف درسدن، في 9 آذار/مارس عام 1945، أمر الجنرال كروتيس لي ماي (General Curtis E. Le May) بأوّل غارةٍ ليليةٍ باستخدام القنابل الحارقة، وعلى مستوى منخفضٍ فوق طوكيو: «كانت المنطقة المهاجَمة... بطول أربعة أميالٍ وعرض ثلاثةٍ... يقطنها مئة وثلاثة آلاف نسمة في الميل المربع... تم تدمير حوالي 267,171 مبنى – أي حوالي ربع مجموع مباني طوكيو – وأصبح

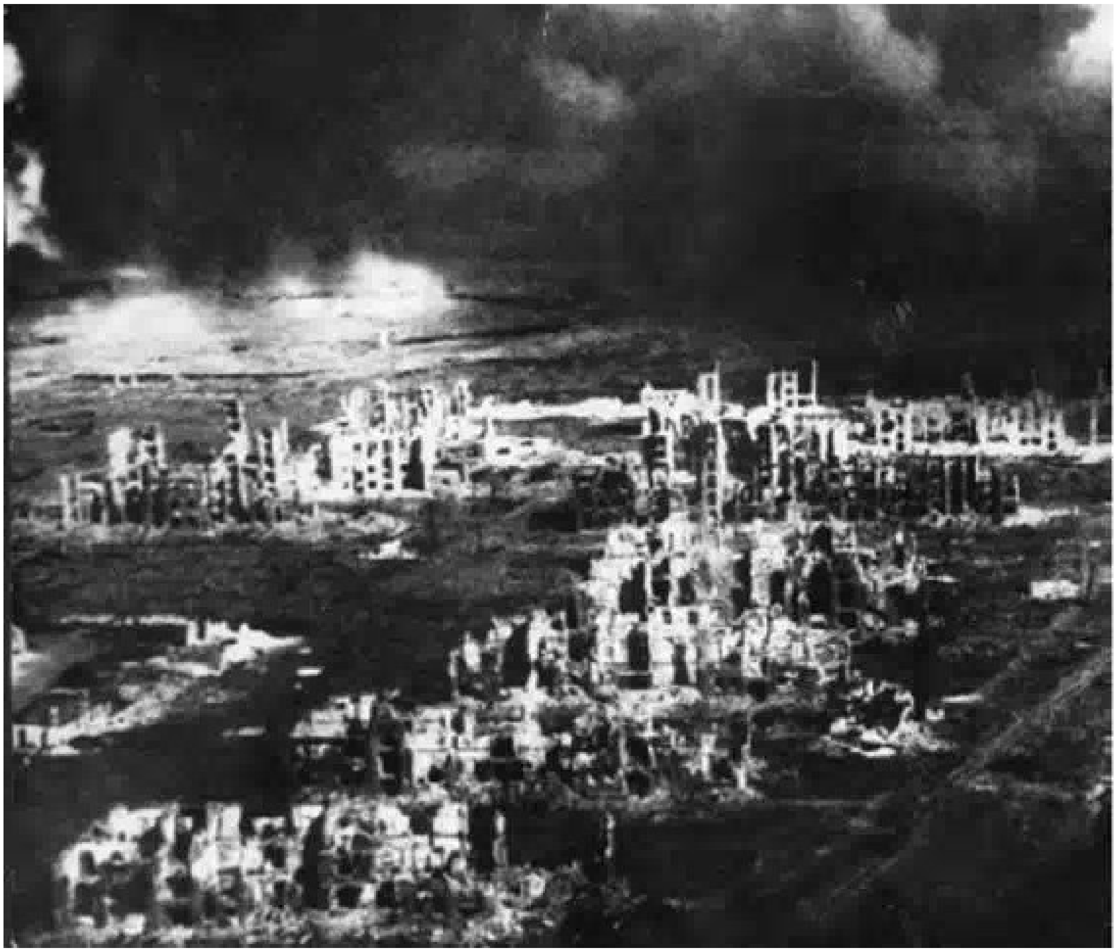

ستالينغراد عام 1943، قُتِل ما لا يقل عن مليون شخص شهرياً خلال هذه المرحلة من الحرب العالمية الثانية.

1,008,000 شخص بلا مأوى، وأخذ الماء بالغليان في بعض القنوات المائية الصغرى!»[227].

بحلول عام 1945، جرى القصف الاستراتيجي كما أراده المنظّرون، وخاصةً في الحالة اليابانية. إذ قُتِل ثلاثمئة ألف مدني فقط من جراء القصف، لكن حوالي 22 مليوناً من السكان عاشوا في ملاجئ مؤقتة وسط المدن المحترقة أو فرّوا إلى الريف. ويذكر قائد الجيش الجوي الأمريكي الجنرال (هاب) أرنولد (General "Hap" Arnold) «كان

الجيش الجوي العشرون (للولايات المتحدة) دمّر المدن بمعدل... (أ) من حيث الكلفة بالنسبة لليابان، أي بخمسين ضعف التكلفة بالنسبة لنا»[228].

ورغم هذا، لم تستسلم اليابان بسبب مرونة الدولة القومية الحديثة المعقدة بشكلٍ كاملٍ وتصميمها وعزمها، ولزم الأمر اللجوء للغزو الواسع للجزر اليابانية؛ وهو ما أدى في النهاية إلى فقدان الملايين من الأرواح. وبالتالي، لم يكن هناك سلاح أمريكي سحري ينهي افتتان الحكومة اليابانية بالحرب الشاملة.

«لم نتوقع حدوث غارةٍ جويةٍ، لكنني سمعت الهدير المرتفع للقاذفة الأمريكية B-29 واعتقدت أنّها طائرة أجنبية».

السيدة اوشي، هيروشيما (Hiroshima)

«رأيتُ المدينة بوضوحٍ تامٍ، إذ بدت تفاصيلها أثناء اقترابنا منها أكثر وضوحاً. كان قطرها حوالي أربعة أميال، وكنّا قد أصبحنا على الارتفاع الملائم للقصف؛ والمقدّر باثنين وثلاثين ألف قدمٍ. جاء الملاح ونظر من فوق كتفي وقال: «نعم، هذه هيروشيما، ولا شكّ في ذلك». كنا في المكان المناسب فوق الهدف، وقال الضابط المكلف بإسقاط القنبلة: «لا يمكنني فعل أي شيء، ليست باليد حيلة... سوى إرسالها إلى هناك»».

الكولونيل بول تيبيتس (Col. Paul Tibbetts)

طيار الطائرة إينولا غاي[229] (Enola Gay)

دأت الحكومة الأمريكية مشروع مانهاتن في حز ران/ ون و من عام 1942، بعد تحذ رات متكررةٍ من قبلِ العلماءِ اللاجئين إليها، والذين ادعوا أنّ ألمانيا تطور ق ن لةً نوويةً، ولم يكن هذا الشكّ صحيحاً، لكنه كان مبرراً، ل كان افتراضاً معقولاً في منتصف ال رن العشرين؛ حيث استُخدِم أي تطورٍ تكنولوجي ذي استخدامٍ عسكريٍ في الحرب الشاملة. وبدورهم، حاول البريطانيون ذلك (رغم قبولهم بالأدوار الثانوية في مشروع مانهاتن بحدود عام 1942، وكذلك فعل الكندون)، أما الروس واليابانيون فكانت لديهم نووية بحدود عام 1944[230]. ورغم إهمال الألمان نتاج الأسلحة النووية، إلا أنّهم انشغلوا بتطوير الأجهزة التي أصبحت في ما بعد الوسيلة الرئيسة يصال الأسلحة النووية؛ وهي الصواريخ البالستية (V-1)، والتي أطلقت منها على ريطانيا ما مجموعه 10,500 صاروخ في عام 1944، الصواريخ البالستية بعيدة المدى (V-2)، والتي سط منها 1,115 صاروخاً على لندن أو بال رب منها.

لم يكن من المستغرب أن يضع معظم العلماء في كلّ مكانٍ خدماتهم تحت تصرف الدول التي ولدوا فيها (أو حيث اختاروا)، نظراً لسياق الحرب الشاملة واليقين باستخدام أي سلاحٍ محتملٍ بمنتهى ال سوة. ورغم ذلك، راودت علماءِ الفيزياء النووية العاملين في مشروع مانهاتن أفكارٌ أخرى بعد عملهم لمدة ثلاث سنواتٍ هناك، لكن وقت تغ ير أفكارهم كان قد فات بحلول تموز/ وليو من عام 1945؛ عندما انتقلوا إلى مزرعةٍ قديمةٍ في صحراء ن و مكسيكو لل يام بالتجميع النهائي واختبار أول ق ن لةٍ ذريةٍ. ل د وضعوا في د الحكومة سلاحاً قد يحق ق نظرية ال ص ف الاستراتيجي في ما يخص الدمار الشامل الرخيص والموثوق به من الجو. وعند

الساعة 5:50 صباحاً، تم الاختبار بنجاح، وبدأ العلماء الهلعون بالتفكير في ما صنعوه.

«كنّا نعرف أنّ العالم لن يكون نفسه بعد الآن. ضحك القليل من الناس، وبكى القليلون منهم، لكن معظمهم ظلّوا صامتين. تذكرت سطراً من مخطوطةٍ هندوسيةٍ وهي الباجافادي جيتا، حيث حاول فيشنو إقناع الأمير بالقيام بواجبه والحصول على موافقته، فأخذ الشكل الذي يكون به متعدد الأسلحة وقال: «الآن، أصبحتُ الموتَ؛ مدمّرَ العوالم». أعتقد أنّنا شعرنا بهذا الأمر بشكلٍ أو بآخر».

روبرت أوبنهايمر (Robert Oppenheimer) رئيس الفريق العلمي في مختبر لوس ألاموس

من الناحية العلمية، كانت القنبلة الذرية توجهاً نحو المجهول. أما عسكرياً فكانت مجرّد وسيلةٍ أكثر فعالية من حيث التكلفة لتحقيق الهدف الاستراتيجي المطلوب؛ أي وسيلة للوصول إلى النتائج التي تحققت في هامبورغ ودرسدن بثمنٍ زهيد وأسلوبٍ موثوقٍ به (كانت تكلفة مشروع مانهاتن حتى ذلك الوقت ملياري دولار، وهي تكلفة قليلة بالمقارنة مع تكلفة تدمير المدن بالطريقة الأخرى؛ أي بالقنابل التقليدية). ولم تكن لدى معظم الناس أي مشكلة أخلاقية في استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد المدن المكتظة بالسكان؛ وهو أمر لم يكن وارداً عندما قُصِف مقهى دولفين قبل ثلاثين عاماً.

«عندما كان يقال للمرء في تلك الأيام: هذا ما يجب عليك القيام به... كان يؤدي التحية ويقول: حاضر سيدي! وقد عملنا طويلاً وبجدٍّ لإتقان السلاح وتكييف الطائرات لحمل هذا

السلاح، كما درّبنا أنفسنا على القيام بهذه المهمة، وهكذا أصبح الأمر روتينياً».

الكولونيل بول تيبيتس

في 6 آب عام 1945، ألقى طاقم الكولونيل تيبيت السلاح الذري على هيروشيما. وللمفارقة، عادت الحرب الشاملة إلى ميراثها بشكلٍ كاملٍ؛ فقد قُتِلَ سبعون ألف شخصٍ في أقل من خمس دقائق بواسطة طائرةٍ واحدةٍ تحمل قنبلةً واحدةً، وبعد ذلك قال: «لم أتمكن من رؤية أيِّ مدينة هناك، وكلّ ما رأيته كان منطقةً واسعةً مغطاةً بكتلةٍ سوداءَ تغلي بجنونٍ. هذه هي الطريقة الوحيدة لوصف ما رأيته».

«بدا الأمر كما لو أنّ الشمس تحطمت وانفجرت، وأخذت الكرات النارية الصفراء تتساقط إلى الأسفل. [وبعد ذلك، على ضفة النهر] كان هناك الكثير من المصابين، حيث لم يعد هناك متسعٌ للمشي بينهم؛ كان هذا على بعد ميلٍ فقط من موقع سقوط القنبلة. تمزقت ملابس الناس، واحترقت أجسادهم بالأشعة الحرارية، وبدوا كما لو أنّ شرائط خرقٍ تتدلى منهم، وخرجت السوائل من بثور جلودهم المحروقة كما لو أنّها قد انفجرت. كانت جلودهم كالأسمال البالية، ورأيت أناساً أمعاؤهم خارجة من أجسادهم، وفَقَدَ آخرون عيونهم، وكانت ظهور البعض ممزقةً ومفتوحةً حيث يمكنك رؤية العمود الفقري في الداخل، وكانوا جميعاً يطلبون الماء».

السيدة اوشي

«لو وُضعت الآن في موقف مماثل تكون فيه الدولة

في حالة حرب ومستقبلها في خطر وبظروف مشابهة لما كانت عليه في ذلك الزمن، فلن أتردد لحظة واحدة».

الكولونيل بول تيبيتس

إنّ الكولونيل تيبيتس مختلفٌ فقط لما فعله، أما مواقفه فهي السائدة في العالم؛ لقد نمت أسلحة الدمار الشامل وأصبحت أكثر كفاءة في العقود الستة التالية لإلقاء قنبلةٍ صغيرةٍ نسبياً على هيروشيما. لقد اتسع عدم التناسب بين الغايات والوسائل في الحروب إلى هوةٍ لا يمكن جسرها. ولا تبدو الأسباب ومختلف الأهداف الوطنية للحروب الحديثة أكثر عمقاً أو تعقيداً من تلك التي دفعت جيش تحتمس الثالث إلى فلسطين قبل ثلاثة آلاف عام. لكن وسائل حروب اليوم جعلت الجنس البشري بأكمله معرضاً لتهديدٍ دائمٍ بالانقراض.

وكان الجنرال دوغلاس ماك آرثر (General Douglas MacArthur) قد أدلى بشهادته أمام الكونغرس الأمريكي في نهاية حياته المهنية: «عليك فهم تاريخ الحرب... فمع الأساليب العلمية التي أوصلت الدمار الشامل إلى نسبٍ مروّعةٍ، توقفت الحرب عن كونها نوعاً من رمي النرد. وإذا كانت هناك حرب عالمية أخرى... فسيكون السعداء هم الذين لقوا حتفهم... وأنا أتفهم أنّه لا يمكن إلغاء الحرب ما لم يفعل الآخرون ذلك... فالطريقة الوحيدة لمواجهة القوة هي القوة... وعليك الاستعداد لذلك. لكن، عاجلاً أو آجلاً، إذا كانت الحضارة ستبقى على قيد الحياة... إذاً يجب على الحرب أن تمضي»[231]. وهكذا، يبدو أنّ أمامنا طريقاً طويلاً لاجتيازه. وقبل عامين من حديثه هذا، طلب ماك آرثر نفسه الإذن لاستخدام الأسلحة النووية ضد الصين في الحرب الكورية.

يُضيف كلّ عصرٍ مظهراً مسرحياً لمعضلاته الخاصة به، وقد اعتقد نصف أجيال البشر أنّ نهاية العالم قد اقتربت، ومع ذلك ظلّت الحرب هي المؤسسة القديمة والتقليد الثقافي الأكثر تجذّراً، وهي تقترب بوضوحٍ من نهاية الطريق. فقد يكون بإمكان البلدان الصغيرة والجماعات التي لم تشكّل دولةً تحقيق بعض أهدافها السياسية باللجوء إلى العنف المنظّم، أما في الصراعات بين الدول الصناعية فالأمر مختلفٌ، وقد أصبحت الحرب نشاطاً انتحارياً؛ وهو ما يفسّر جزئياً سبب عدم انتهاء الصراعات بحربٍ خلال الأعوام الستين الماضية.

غير أنّ إدارة الأزمات – ومهما كانت ضروريةً – ستفشل عاجلاً أم آجلاً، ووحده التغيير المؤسساتي العميق يوفّر السلامة على المدى الطويل؛ إذ يمكن تعلّم تكنولوجيا الحرب الشاملة في نهاية المطاف. لم يحدث هذا التغيير عملياً، لكن أحد شروطه المسبقة والحيوية مرّ بحدود عام 1945؛ فمن نتائج الحربين العالميتين توقُّف أغلبية الناس في كلّ مكانٍ عن رؤية الحرب كفرصةٍ لتحقيق أغراضٍ شخصيةٍ أو لتحقيق المجد الوطني، وأصبحوا يرونها كمشكلةٍ كبيرةٍ جداً وقبيحةٍ لأقصى حدٍّ.

الفصل الثامن

تاريخ موجز عن الحرب النووية

1990-1945

«هل يمكننا أنْ نخمّن عدد الضحايا في حرب مستقبلية؟

على الأرجح، سيكون ثلث عدد سكان العالم المقدر بنحو 2.7 مليار نسمة، أي 900 مليون نسمة تقريباً.

هذا شيء فظيع بالطبع. ولكن موت نصف السكان لن يكون سيئاً جداً.

إنّ موت نصف السكان يعني بقاء النصف الآخر على قيد الحياة، لكن الرأسمالية ستُدمر بشكل كامل وستبقى الاشتراكية فقط في العالم».

ماو تسي تونج (*Mao Tse-tung*)، من خطابه في موسكو 1957

«أنا لا أقول إنّ شعرنا لن يتشعث يا سيدي الرئيس، ولكنني أقول إنه لن يكون هناك أكثر من عشر أو عشرين مليون قتيل؛ وهذا يعتمد على فترات الراحة».

الجنرال «باك» تورجيدسون (جورج سي.سكوت) (*George C.Scott*)

في فيلم المخرج ستانلي كوبريك (*Stanley Kubrick* 1963):

د. سترانجلوف أو: كيف تعلمت ألا أقلق وأنْ أحب القنبلة

كان الجنرال تورجدسون شخصية خيالية بالطبع، ولكن كوبريك كان يـصد به شخصية هزلية تمثل الجنرال كورتيس إي.لي ماي (Curtis E.LeMay)، قائد الـ يادة الجوية الاستراتيجية لسلاح الجو الأمريكي الذي كان ريد حرباً نووية.

«كان لي ماي يعتقد أنه في النهاية علينا أن نواجه أولـ ك الناس بأسلحة نووية، ومن الأفضل أن نفعل ذلك عندما نمتلك أفضلية أعظم من تلك التي سنمتلكها في المستقبل».

هذا ما شرحه وزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت

أس. ماكنمارا (Robert S. MacNamara) في الفيلم

الوثائقي «ضباب الحرب» عام 2003

بالنسبة إلى لي ماي كما هو بالنسبة إلى ماو، لم تغ ر الأسلحة النووية أي شيء أساسي بالطريقة التي تعمل بها الـ وة في العالم؛ فأحدهما كان يعتقد أنّ الديالكتية الماركسية ما زالت تضمن النصر للاشتراكية؛ حتى لو محت الحرب النووية نصف سكان العالم، فيما كان الآخر يعتقد أن أفضلية 17 إلى 1 للولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي في عدد الأسلحة النووية (في دايات الستينيات) قيمةً استراتيجيةً ذات معنى. يمكننا الـ ول إنّ كليهما كانا ضحية تأخر ثقافي.

كانت الأعوام الأولى للحرب الباردة أخطر فتراتها؛ أي عندما كان أمثال أول ك الأشخاص ما زالوا يشغلون مناصب حساسة بأعداد ك يرة. ومع مرور الوقت، تم است دالهم تدريجياً بأشخاص يستوع ون الفكرة الأساسية لمبدأ الردع؛ ولو كان ذلك رغماً عنهم، وأصبح العالم أكثر أمناً نوعاً ما. ولكنه ب ي مكاناً خطيراً جداً، لأنّ الاعتقاد بأنّ الردع يمكنه أنْ يضمن السلام على المدى الطويل اعتقادٌ مزعزعٌ تاريخياً ب در ما هو مشكوك به نفسياً.

«يمكنك أن تتوقع منط ياً من رجلٍ أنْ يمشي على حبل مشدود بشكل آمن لعشر دقائق، ولكن من غ ر المنط ي أن ي وم بذلك من دون حوادث لم تي عام».

برتراند راسل Bertrand Russell[232]

إنّ الافتراض الذي يكمن في جذور نظرية الردع سواء أكان النووي أو التقليدي – وهو أنّ ال وة العسكرية العظيمة هي الضمان الأك د بأن لداً سوف يُترك في سلام – خاط بشكل واضح، وهو تماماً على عكس الح يقة. فكلما كانت الدولة أك ر وأقوى تواترت حروبها بشكل أك ر.

خلال فترة التاريخ الأوروبي المعاصر كله، من عام 148 وحتى عام 1940، تم إحصاء ست وعشرين معركة مهمة تقريباً. كانت فرنسا هي البلد الوحيد الذي يشكل قوة عسكرية رائدة خلال تلك الفترة، وقد شاركت في 47 بالم ة من تلك المعارك، ينما قاتلت ألمانيا (روسيا) وروسيا وبريطانيا في ما ين 22 بالم ة منها و25 بالم ة.

وفي الم ا ل، امتنعت إسبانيا – التي توقفت عن

كونها قوة عسكرية رئيسة منذ بداية القرن التاسع عشر – عن المشاركة في تلك المعارك بشكل كلي تقريباً، وسجّلت حضورها في 12 بالمئة منها فقط على امتداد تلك الفترة.

بينما كانت هولندا والسويد (اللتان كانتا قوتين عسكريتين لفترة بسيطة) حاضرتين في 8 بالمئة و4 بالمئة فقط من معارك أوروبا، كما أنّ السويد لم تستخدم قواتها المسلحة منذ 170 عاماً[233].

وفق أي معيار آخر – كمعيار الوقت التي قضته دولة أوروبية في الحروب، أو عدد الحروب التي خاضتها، أو عدد القتلى من سكانها في تلك الحروب عبر السنين – إن النتيجة هي ذاتها. فهناك ميل حاد ومستقر للمعاناة، إذ إن الدول الأقوى تخوض حروباً أكثر، وتكون خسارتها أثقل في الأرواح والثروة؛ وهذا ما يمكن أن يكون عزاءً للدول الصغيرة، ولكنه بشكل ما محدود بحقيقة أن حروب القوى الكبرى في القرن العشرين أخذت معها تقريباً كل البلدان الصغرى في نزاعاتها.

تمددت رقعة الحرب العالمية الأولى عبر كل القوى الأوروبية العظمى واليابان في سنة واحدة، وسحبت الولايات المتحدة في خضمها بعد سنتين ونصف السنة، وتضمّنت ثلاثاً وثلاثين دولة متعادية – أي نصف الدول المستقلة في ذلك الوقت – حتى نهايتها.

ضمّت الحرب العالمية الثانية كل القوى العظمى خلال سنتين فقط. وفي عام 1945، كانت كل دول العالم المستقلة ما عدا ستاً منها في حالة حرب. ويعود الانتشار

المتسارع والخارج عن السيطرة لحروب القوة العظمى بشكل جزئي للامتداد التكنولوجي البحت للحرب المعاصرة، ولكنّ ذلك يرتبط أيضاً وبدون شك بالاعتماد المتنامي بين الدول على التجارة، وبظهور سوق عالمية واحدة في الأفكار السياسية. قد تضع هذه الظاهرة الأخيرة ببطء الأساسات لبناء نظام عالمي لا يعتمد على الحروب، ولكن العواقب قريبة المدى لم تكن الوصول إلى سلام عالمي، وإنما إلى حرب عالمية جديدة.

شهدت فترة ما بعد عام 1945 تغيراً مفاجئاً في نمط الحروب بين الدول، إذ لم تحارب أي قوة عظمى قوة عظمى أخرى بشكل مباشر منذ ستة عقود، بل خاضت معظمها حروباً ضمن أو ضد بلدان صغيرة، ولذلك لم تُغيّر مواقعها البتة، ولكن هذا العامل جديد ومهم في العلاقات الدولية؛ فهو متصل بحقيقة أن كل الدول العظمى الآن تمتلك أسلحة نووية، أو متحالفة بشكل وثيق مع بلدان تملكها. فتلك الدول تنفق ثروة على أسلحتها النووية، ولكنها لم تجرؤ على استخدامها ولو مرة منذ عام 1945، كما لم تتجرأ على محاربة بعضها بشكل مباشر (ولكنها تشتبك في حروب بالوكالة من وقت لآخر) وذلك لأنّ أي عمل قتالي يمكن أن يتصاعد بسرعة ويتحوّل إلى حرب نووية. ربما تكون هذه مجرد وقفة طويلة في النمط التاريخي السائد قبل أن تعود الحالة الطبيعية. ولكنْ مع ذلك، هذا أمر رائع؛ إذ لم تكن هناك من قبل فترة امتدت لستين سنة لم تتحارب فيها القوى العظمى مع بعضها منذ ظهور نظام الدولة الغربية المعاصر في القرن السابع عشر، ومن الممكن جداً أن تكون منذ ظهور نظام المدن في بلاد الرافدين.

وبالتحرك قليلاً نحو الجنوب، إن الحروب بين البلدان

المتوسطة المتجاورة – كإسرائيل والبلدان العربية، وباكستان والهند، والعراق وإيران – استمرت بشكل منتظم تقريباً. لم يحدث خرق عام لمبدأ السلام في النظام العالمي، وتُعرف هذه الحروب الآن بأنها حروب «تقليدية»؛ لتمييزها عن الحرب النووية، ويمكنها أن تكون مدمرة جداً، ولكنها تميل أيضاً إلى أن تكون قصيرة، وسبب هذا جزئياً رجع إلى أن التكاليف الباهظة والكفاءة العالية للأسلحة المعاصرة تعني أن البلدان يمكنها أن تتحمل تكلفة أسلحة قليلة العدد نسبياً، حيث تنفد الأسلحة بسرعة بعد دء القتال، وأيضاً لأن الأمم المتحدة تقترح بسرعة وقفاً طلاق النار وتعرض قوى لحفظ السلام. وبشكل عام، يتمسك الطرف الخاسر بهذا الاقتراح؛ مما يجعل من الصعب على الطرف المنتصر أن يتابع الحرب. وكنتيجة لذلك، إن الضحايا في الحروب التي استخدم فيها الطرفان أسلحة تقليدية ثقيلة بأسلوب الحرب العالمية الثانية – منذ أيار 1945 من مناظر ليزرية وصواريخ مُوجهة دقة – لم يتجاوز عددهم عشرة ملايين في العقود الستة الماضية، ومنذ نهاية الحرب الكورية صار الرقم أقل من مليون نسمة لكل عشر سنوات.

قضى أغلب الناس الذين قتلوا في الحروب منذ عام بأساليب مختلفة كلياً وجد دة من الصراعات: حروب العصابات، والحروب الثورية، والحملات المضادة للتمرد، وا رهاب، وما شابه ذلك. وقد تم قتلهم غالباً على أدي مواطنين من أقرانهم. ومع ذلك، إن ال ليل من هذه النزاعات يشبه النموذج التقليدي «الكلاسيكي» للحرب الأهلية أيضاً. دت هذه الحروب في مرحلة معينة وكأنها تتفشى في كل مكان، ولكن اتضح أنها مرتبطة بشكل أساسي بحروب التحرر من ا مبريالية والصراع على السلطة ما بعد الاستعمار، وقد

انحسرت الآن في معظم أجزاء العالم. أمّا الإرهاب – وهو سلاح الضعفاء – فلا يزال يزدهر في مختلف السياقات، ولكنه عندما يُفصل عن حرب العصابات فنادراً ما يشكل خطراً حقيقياً (بالرغم من أنه نجح بالتأكيد في جذب انتباه الناس).

وبالرغم من كل الاختلافات بين هذه الأساليب المتميزة من نزاعات ما بعد عام 1945، إلا أنها تمتلك عاملاً مشتركاً؛ وهو أنّ القوة العسكرية أصبحت أقل تأثيراً في تحقيق نتائج حاسمة ومرضية سياسياً في كل مراحل الصراع. فقد انخفضت قدرة كل من الحكومة أو المتمردين على تحقيق نصر حاسم في حروب الإرهاب أو حروب العصابات – والتي تعد الآن واحدة من أكثر عمليات القتل السائدة في العالم – بشكل كبير، لدرجة أنه أصبح من الطبيعي جداً أن تمتد هذه الصراعات لعقود من دون أن تحسم. وبشكل مماثل، تنتهي الحروب التقليدية بين دولتين بسرعة هذه الأيام، ولكنها لا تنتهي غالباً بمعاهدات سلام، بل تمتد من دون حسم في مستنقع من خطوط وقف إطلاق النار وقوى حفظ السلام وأمور غير محلولة تبقى معلقة لعقود (كما في حالة إقليم كشمير منذ عام 1947، والمنطقة منزوعة السلاح في كوريا (DMZ)[234] منذ 1953، ومرتفعات الجولان منذ 1967، وقبرص منذ 1974)، ولم يكتشف أحد حتى الآن كيفية الفوز بحرب باستخدام أسلحة نووية؛ رغم أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أمضيا الحرب الباردة كلها وهما يحاولان اكتشاف ذلك.

«إن أي قائد عسكري صادق مع نفسه سوف يعترف بأنه ارتكب أخطاء في تطبيق القوة العسكرية. فقد قتل أناساً دون ضرورة – سواء أكانوا من جنوده أم جنود

آخرين – وقد فعل ذلك بسبب الأخطاء والأحكام الخاطئة. إذ قتل مئات أو آلاف أو عشرات الآلاف وربما حتى مئات الآلاف، ولكنه لم دمر أمماً. والحكمة التقليدية تقول: لا ترتكب الأخطاء نفسها مرتين. ولكن، لن تكون هنالك فترة تعليمية مع الحروب النووية، فإن ارتكبت خطأ واحداً فسوف تدمر أمماً».

روبرت أس. ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي 1968–1961[235]

إنّ الأسلحة النووية هي الحقيقة العسكرية المسيطرة في عصرنا؛ بالرغم من أننا عملياً لا نعرف شيئاً عن كيفية عملها في الحروب عندما يتم استخدامها بأعداد كبيرة. إذ إن القنبلتين الصغيرتين النوويتين قد ألقيتا على مدينتين يابانيتين منذ أكثر من نصف قرن، ولم تستخدم أي أسلحة نووية أخرى منذ ذلك الوقت. هذا شيء جيد بالطبع، ولكن الاستراتيجيات التي تناقش الحرب النووية مثل العذارى اللواتي يتناقشن حول الجنس؛ إذ توجد نظريات وفرضيات وحتى مذاهب في ما يتعلق بالحرب النووية، ولكنْ لا أحد يعرف كيفية عملها. فكل ما يعرفه الجميع هو أنها ستكون سيئة جداً. والجميع جاهلون بشكل متساوٍ في ما يتعلق بالآثار النفسية والآثار الكهرومغناطيسية والآثار المناخية. وإذا حالفنا الحظ، فسيبقون كذلك. لكن كل الأدلة المفيدة التي نملكها في ما يتعلق بذلك مصدرها المواجهة التي ترجع إلى خمس وأربعين عاماً مضت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، والتي نسميها بشكل عام الحرب الباردة.

تبدو الحرب الباردة وكأنها تاريخ قديم، ولكننا لا نزال

نجهل نسبياً المحاورات الاستراتيجية والصراعات السياسية الداخلية التي جرت في الجانب السوفيتي، ي نما نعلم الكث ر عن المحاورات والصراعات التي نشبت في الولايات المتحدة على امتداد هذه المواجهة الطويلة والمرعبة. كانت الـ صة في الجوهر عبارة عن جدال امتد ع ر خمس وأربعين عاماً ين أولـ ك الذين اعتقدوا أنه يجب عدم استخدام الأسلحة النووية في الحروب مرة أخرى، وأنه يجب أن يُحتَفظ بها فقط في سبيل ردع الطرف الآخر عن استخدام أسلحته النووية، وبين أولـ ك المدفوعين بالفضول التقني والطموحات المهنية والتأجج الأ د ولوجي والذين سعوا دائماً للدفع باتجاه استخدامها في الحروب؛ وهم الأكثر عدداً.

«الكاتب... ليس قلـ اً في هذه اللحظة بخصوص هوية الفائز بالحرب الـ ادمة التي يتم فيها استخدام قن لة نووية، فقد كان الفوز بالحروب هو الهدف الرئيس لمؤسستنا العسكرية حتى الآن، ولكن منذ الآن فصاعداً يجب أن يكون هدفها الرئيس هو تفاديها، وليس لديها تقريباً أي هدف آخر مف د».

برنارد برودي (Bernard Brodie 1946)[236]

كان رودي باحثاً شاباً واعداً انضم إلى معهد الدراسات الدولية في جامعة يال عندما سـ طت القن لة الذرية الأولى على هـ روشيما في آب/أغسطس عام 1945. وبينما كان بـ ية المجتمع الأكاديمي الأمريكي دوي بـ نداءات تدعو إلى حكومة عالمية كطريقة وحيدة لاحتواء الـ وة التدميرية الهائلة للسلاح الجد د، كان رودي ومجموعة صـ غ رة من زملائه المتشابهين في التفك ر والذين أدركوا حـ يقة هذه الـ وة

برنارد برودي، من أوائل مثقفي الدفاع المدني. كان مصيباً في البداية، ثم مخطئاً لمدة خمسة عشر عاماً، ثم مصيباً مجدداً في النهاية.

وضعف احتمال الوصول إلى هدف كهذا على المدى الـ صير أو المتوسط قد دأوا بالعمل على قواعد مبدئية للنجاة في عالم من الأمم المستقلة والعن دة والمسلحة بسلاح نووي. وقد أوجدوا نظرية الردع النووي إثر مؤتمرين في كل من ألول/سبتمبر وتشرين الثاني/نوفمبر من عام 1945، ع ر جدالات لا تحصى.

كان رودي هو من وضع المفاهيم المفصلية، وقد كتب: «كلّ شيءٍ نعرفه عن القن لة النووية تطغى عليه د يقة وجودها، ود يقة أنّ قدرتها التدميرية ك يرة بشكل مذهل»، وقد غيّر هذا من طبيعة الحرب وشروط السلام بشكل يفوق الوصف. لا وجد أي دفاع فعال في وجه الأسلحة الذرية، حيث إنّ الدفاع في الحروب الجوية قائم على الاستنزاف، وعلى عدد قليل نسبياً من الأسلحة النووية أنْ يمر من ين هذه الدفاعات لكي يسبب دماراً غ ر م بول أ داً. فعلى سبيل المثال، أسـ ط الدفاع البريطاني في وجه صواريخ (V-1)

التي تستهدف لندن 97 من أصل 101 صاروخ في أفضل أيامه لتمر منها 4 صواريخ فقط. ولكنّ رودي يشير إلى ما يلي: «لو كانت هذه الصواريخ الأربعة قنابل ذرية فإنّ الناجين في لندن ما كانوا سيعتبرون هذا الرقم جيداً».

بالإضافة إلى ذلك، هنالك عدد محدود من الأهداف في أي دولة تستوجب قيمتها استخدام السلاح النووي، ولكنّ التأثير الناجم عن تدمير هذه الأهداف كالتأثير الناجم عن تدمير المجتمع. ولذلك، لا يهم العدد النسبي للأسلحة النووية التي يمتلكها كل طرف. «إذا كانت لدى طرف ما 200 قنبلة تكفي لتدمير اقتصاد الطرف الآخر بشكل كلي، فإن حقيقة امتلاك طرف 6000 قنبلة فيما يمتلك الآخر 2000 قنبلة تصبح ذات قيمة صغيرة نسبياً»[237].

الاستنتاج الذي لا مفر منه والذي يتبع هذه الحقائق هو أن النصر العسكري في حرب كلّية لم يعد ممكناً، والسياسة العسكرية المنطقية والوحيدة هي ردع الحرب. لقد أصبح الاستخدام الفعلي للأسلحة النووية في الهجوم على العدو بلا جدوى؛ وذلك لأن كل طرف عليه أن يخاف من الانتقام، وحقيقة أنّ «تدمير مدن الخصم سيتم خلال بضع ساعات أو بضعة أيام تكاد لا تنفع...» فالهدف الرئيس من التحضيرات العسكرية في أوقات السلم هو أنْ تضمن قدرة البلد على الرد بأسلحته النووية ضد هجوم عليه وأن ينجو من هذا الهجوم؛ وهذا يمكن تحقيقه عبر توزيع الأسلحة بعيداً عن المدن وربما عبر تخزينها تحت الأرض[238].

وهذا ما كان. لم يبقَ هناك شيء مهم لقوله. كان برنارد رودي وزملاؤه قد قدَّموا بحلول شباط/فبراير 1946 وصفاً كاملاً للشروط الحاسمة والمزعزعة التي يمكن الحفاظ بها

على السلام في عالم مسلح بالأسلحة النووية حتى يأتي اليوم الذي تستطيع فيه الأنظمة العالمية التي تولّد الحروب أن تتغير. لكن في ذلك الوقت، لم يكن أحد في مراكز القوة ينصت إلى تلك الفرقة الصغيرة من المدنيين الذين قدّموا آراءهم في المسائل العسكرية.

ولكي نكون منصفين، لم يكن هناك سبب يلزم الحكومة الأمريكية بقبول استنتاجات برودي وأصدقائه في عام 1946؛ لأن العالم حينها لم يكن مسلحاً بالأسلحة النووية بعد، بل كان عالماً مسلحاً بشكل تقليدي، وفيه قوة نووية واحدة وهي الولايات المتحدة. لذلك، إنّ الردع كان طريقاً باتجاه واحد. وقد رُسمت أول خطة أمريكية للهجوم على الاتحاد السوفييتي في تشرين الأول من عام 1945؛ ليس لأنّ تحالف الحرب كان قد بدأ بالتفكك، ولكن ببساطة كخطة طوارئ؛ لأنّ كل القوى العظمى تواجه القوى التي يحتمل أن تنافسها كردة فعل تلقائية. وقد تضمّن التصور الأمريكي توجيه عشرين قنبلة نووية نحو كبرى المدن السوفييتية. وعندما تم تعريف الاتحاد السوفييتي بشكل واضح بأنه العدو في أواخر عام 1947، فإنّ خطة حرب الطوارئ «قائد العربة charioteer» قد دعت القيادة الجوية الاستراتيجية (SAC)[239] المشكّلة حديثاً إلى إلقاء 133 قنبلة ذرية فوق سبعين مدينة سوفييتية في حال اندلاع حرب (بالرغم من أنّ ترسانة الولايات المتحدة وقتها كانت تحتوي على أقل من 50 قنبلة، ولم يكن أي منها قد تم تجميعه، وكانت القيادة الجوية الاستراتيجية تملك فقط ثلاثين طائرة تم تعديلها لتحمل تلك القنابل البدائية المتوحشة والتي تزن كل منها عشرة آلاف باوند)[240].

كانت الثقة التي شعرت بها حكومة الولايات المتحدة نتيجة احتكارها الأسلحة النووية في تلك السنوات المبكرة كبيرة جداً، حيث إنّ الاستعدادات الفعلية من أجل الحرب كانت تنقصها الحيوية. إذ لم يكن هناك شعور ملحّ لدى الولايات المتحدة بضرورة إنتاج المزيد من القنابل وقاذفات القنابل، ولا أحد خارج القيادة الجوية الاستراتيجية كان قد فكر فعلياً بنك الأهداف في الاتحاد السوفييتي، وحتى إن تشكل تحالف دول شمال أطلسي (NATO) في بدايات عام 1949 – والذي كان بشكل جوهري جهازاً لتقوية الأعصاب المرتجفة لحكومات أوروبا الغربية عبر ضمان أمنها بضمانة نووية أمريكية – لم ترافقه أي إجراءات كبيرة في ما يتعلق بإعادة التسليح التقليدية في جانبي الأطلسي، كما لم ترافقه أي عملية تسريع للبرنامج النووي الأمريكي. إذ كان الاحتكار الأمريكي للأسلحة النووية يُعتبر حلاً سحرياً من دون بذل أي مجهود آخر لضمان الأمن العسكري في الغرب.

ولكن، تغير كل ذلك مع التجربة النووية الأولى للاتحاد السوفييتي عام 1949، والتي شكّلت صدمة كبيرة للولايات المتحدة (بالرغم من أنه كان من الواضح أنّ الروس مستعدون للتضحية بأي شيء ضروري لكسر الاحتكار الأمريكي في أقرب وقت ممكن).

كان اندلاع الحرب الكورية بعد عام قد تُرجم من قبل الحكومات الغربية كمبادرة رعاية من السوفييت، والتي نتجت مباشرة عن الثقة النووية الجديدة في موسكو؛ في خطوة قُصِدت بها خدعة استراتيجية لدفع أمريكا لسحب قواتها التقليدية في آسيا قبل الاجتياح السوفييتي الكامل لأوروبا الغربية. كان رد حلف شمال الأطلسي على ذلك

برنامجاً ضخماً لإعادة التسليح (حيث تضاعفت ميزانيات الدفاع ضعفين أو ثلاثة أضعاف في معظم الدول الغربية من عام 1950 وحتى عام 1952)، وبدأت أمريكا بشكل متهور بتوسيع برنامجها النووي لكي تحافظ على «الرادع» الذي كان يدعم جنود حلف الأطلسي. وعلى أرض الواقع، كانت هذه هي النقطة التي أصبحت فيها قواعد برودي للردع النووي ذات أهمية. فبمجرد أن أصبحت لدى الخصم القدرة على الرد بأسلحته النووية، فإن أي محاولة لممارسة الضغط السياسي أو العسكري عبر التهديد برمي قنابل نووية سوف تكون غير مقنعة وخطيرة جداً.

كان جورج كينان (George Kennan) مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية ممن أدركوا هذا الأمر، وقد كتب في عام 1950 محذراً من خطر السماح للأسلحة النووية بأن تصبح عنصراً مركزياً في سياسة الدفاع الغربية. فبدلاً من ذلك، يجب أن تُفصل هذه الأسلحة عن الحسابات العسكرية الاعتيادية، وأن يتم الاحتفاظ بها لما سماه «أسباب تتعلق بالردع» (أي فقط لردع الاتحاد السوفييتي عن استخدام أسلحته النووية ضد الولايات المتحدة)، وبهذه الطريقة سيصبح الجميع أكثر أمناً، وستكون بضع مئات من القنابل فقط كافية لتدمير الاتحاد السوفييتي، وبالتالي لمنعه من الهجوم على أمريكا. وبالإضافة لذلك، أضاف كينان (مردداً أقوال برودي) أنّ عدد الأسلحة النووية التي تحتاج إليها الولايات المتحدة لتؤمن هذه الضمانة يمكن أن يُحدد بشكل منفصل تماماً عن عدد القنابل التي يملكها الاتحاد السوفييتي.

كانت تلك محاولات شجاعة لتطبيق العقلانية على المسائل الاستراتيجية، ولكنها محكومة بالفشل. إذ كانت

سياسة الردع الأدنى كما أصبحت تُعرف لاحقاً هي السياسة المنطقية الوحيدة لقوتين عدائيتين تملك كل منهما القدرة على إيذاء الأخرى؛ حيث سيكون استخدام أسلحة نووية في الحروب ضرباً من الانتحار المشترك. ومع ذلك، كان لا يزال بإمكان الاستراتيجيين الأمريكيين التهرب من هذا الواقع؛ لأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لم تكن لديهما بعد القدرة على إيذاء بعضهما. إذ كانت موسكو قد بدأت بسباق التسلح النووي متأخرة جداً؛ سواء أكان ذلك من حيث الأسلحة أو من حيث نظم إيصالها إلى أهدافها، ولم تكن تأمل بتحقيق القدرة على تدمير الولايات المتحدة بضربة انتقامية.

«كانت السياسة النووية الأمريكية سياسة معلنةً تتضمن خوض الحروب بأسلحة نووية منذ البداية».

روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي 1961-1968[241]

كان من المنطقي في البداية التخطيط لاستخدام الأسلحة النووية في الحرب – عندما كانت الولايات المتحدة هي الوحيدة فقط التي تمتلكها – ولكن مع مرور الوقت وحصول الاتحاد السوفييتي تدريجياً على قدرة محدودة لضرب الولايات المتحدة باستعمال أسلحة نووية، أصبح ذلك أقل عقلانية. غير أن القدرة الانتقامية السوفييتية تطورت ببطء خلال الخمسينيات من القرن العشرين، وكان لدى الولايات المتحدة حافز مالي كبير للحفاظ على أسلحتها النووية قابلةً للاستخدام في الحرب. كانت المواجهة العسكرية في الحرب الباردة مركزة على أوروبا الوسطى، وكان الاتحاد السوفييتي أقرب إلى هذا المسرح من الولايات المتحدة، ولو تمّت إزالة الأسلحة النووية من المعادلة، فعندها سيتوجب على الولايات المتحدة

(وحلفائها في حلف شمال الأطلسي) إنفاق مبالغ طائلة من المال على بناء قواتها التقليدية على أرض الواقع في وسط أوروبا لمواجهة الميزة الجغرافية السوفييتية. لم تكن هناك «جحافل سوفييتية» - كان لدول حلف شمال الأطلسي ضعف عدد سكان دول حلف وارسو - ولكنّ الـ وات التقليدية كانت مكلفة جداً (وذلك بسبب تزويد الجنود بما لزمهم من طعام ومسكن وتدريب ورواتب)، في حين أنّ الأسلحة النووية رخيصة نسبياً. وعوضاً عن الدفع بـ وات تقليدية أكـ ر، شرعت واشنطن بسرعة في بناء قوتها النووية لتحافظ على تقدمها على الروس. وقد لـ غ عدد الأسلحة النووية الأمريكية ألف قطعة عام 1953، غـ ر أنه بحلول عام 19 أصبح بحدود 6 أو 7 آلاف قـ ن لة نووية حرارية؛ كل منها أقوى بعشرات المرات من قـ ن لة هـ روشيما[242].

احتفظت الولايات المتحدة حتى عام 1960 بتفوق لا يـ ل عن عشرة إلى واحد على الاتحاد السوفييتي في مجال الأسلحة النووية. وكانت قواعد قاذفات القنا ل موجودة بالـ رب من الحدود السوفييتية، وكان عدد طائراتها الـ اذفة والمتفوقة أعلى بكثـ ر، وهذا ما أعطاها ميزة أكـ ر في حجم الدمار الذي يمكنها إلحاقه بمجتمع الخصم. وفي الوقت نفسه، ولضمان أنّ موسكو تفهم استراتيجيتها، أوضحت الولايات المتحدة بشدة أنها على استعداد لاستخدام الأسلحة النووية أولاً، وأنها ستستخدمها مباشرة على المدن السوفييتية؛ وذلك رداً على أي فعل سوفييتي غـ ر مـ بول. وقد أوضح وزـ ر الخارجية جون فوستر دوليس (John Foster Dulles) هذه السياسة رسمياً في عقيدة «الانتقام الشامل» في خطاب له في شهر كانون الثاني/ينا ر عام 195، حين أعلن أنّ الولايات المتحدة سوف «تعتمد في المـ ام

الأول على قدرتها الكبيرة على الانتقام وعلى الفور؛ باستخدام الوسائل التي تختارها بنفسها، وبتحدد الأماكن التي تريدها أيضاً».

كان الانتقام الشامل يعني الاستخدام المكثف للأسلحة النووية الأمريكية على أراضي الدولة السوفيتية؛ ليس فقط كرد على هجوم نووي سوفيتي (والذي لم يكن من الممكن تصوره تقريباً في الخمسينيات؛ نظراً للتفاوت الكبير بين الترسانات النووية لدى كلا الجانبين) وإنما كرد على أية عملية عسكرية سوفيتية تهدد المصالح الأمريكية في أي مكان في العالم.

كان ذلك تماماً عكس سياسة «الردع الأدنى» التي روج لها كل من رودي وكينان، وقد تم اعتمادها بشكل أساسي لتوفر الكميات الهائلة من الأموال التي وجب إنفاقها إذا اختارت الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي بناء قواتهما البرية والجوية حيث تضاهي القوات التقليدية السوفيتية. وبعد أسابيع قليلة من إعلان دوليس لهذه السياسة، صرح عنها نائب الرئيس ريتشارد نيكسون بشكل أكثر صراحة: «بدلاً من السماح للشيوعيين بإرهاقنا حتى الموت حول العالم في حروب صغيرة، سوف نعتمد في المستقبل في المقام الأول على قوتنا الانتقامية المتنقلة والهائلة، والتي يمكن أن نستخدمها حسب تقديرنا ضد مصدر العدوان الرئيس؛ في الأوقات والأماكن التي نختارها»[243].

كان الرد الهائل مفهوماً ضمنياً في السياسة الاستراتيجية للولايات المتحدة لمدة عقد تقريباً (على الرغم من أنه لم يتم اللجوء إليه في الحرب الوحيدة الكبيرة والتقليدية في تلك الفترة؛ وهي الحرب الكورية. وفي

ذلك دلالات كثيرة عن مدى قابلية الاستراتيجية للاستخدام؛ حتى عندما كانت الولايات المتحدة تمارس الاحتكار النووي افتراضياً). وبالرغم من ذلك، فحتى الوقت الذي صنّف فيه دوليس سياسته في عام 1954، كان وقت «الانتقام الشامل» قد بدأ بالنفاذ، وذلك يعود للسبب الذي أشار إليه برودي في بداية الحقبة النووية. ببساطة، لن يكون التفوق العددي النووي الذي تملكه الولايات المتحدة هاماً بمجرد حصول الاتحاد السوفييتي على القدرة لضرب المدن الأمريكية بعدد محدود من القنابل النووية الحرارية.

لم يكن رد محللي الدفاع المدني على هذا التطور بالضغط من أجل سياسة «ردع أدنى» ليوازي الخطوط التي رسمها برودي في عام 1945، والتي روجها كينان في عام 19. كان مثقفو الدفاع في طريقهم لصياغة مهنة متميزة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ وخصوصاً أولئك الذين تجمعوا في مؤسسة البحوث والتنمية «راند» (RAND: Research and Development Corporation) في سانتا مونيكا، والذين تم تمويلهم ودعمهم من قبل القوات الجوية الأمريكية. إذ ما عادوا يفكرون في الآثار المترتبة على استعمال الأسلحة النووية في السياق النظري، لأصبحوا مواطني دولة كانت طرفاً في مواجهة حادة مع خصم مسلح نووياً، وقد أصابتهم بشكل جزئي هيستيريا معاداة السوفييت التي سادت في أمريكا في تلك السنوات، ولذلك حوّلوا جهودهم بدلاً من ذلك إلى إيجاد طرائق لإبقاء على الأسلحة النووية الأمريكية صالحة للاستعمال.

ومع تمكّن الاتحاد السوفييتي من الوصول إلى قدرة هامشية على مهاجمة الولايات المتحدة مباشرةً، أجرى ألبرت وولستيتر من مؤسسة راند دراسة شاملة عن مدى ضعف

قاذفات القيادة الجوية الاستراتيجية أمام هجوم سوفييتي مفاجئ، ولكن في عام 1957 لم تكن القوات الجوية مهتمة بها. وكردّ على مخططات وولستيتر المعقدة وحساباته التي أظهرت كيف أنّ القاذفات الروسية قد تقوم بهجوم مشابه لهجوم «بيرل هاربر» على قوات القيادة الجوية الاستراتيجية على الأرض، أرسلت لجنة غايثر التي تم تعيينها من قبل الرئيس أيزنهاور لتفحص الأمن الاستراتيجي وفداً لاستجواب رئيس القيادة الجوية الاستراتيجية الجنرال كورتيس لي ماي، ولكنّ لي ماي أجاب ببساطة بالقول إنّ طائرات الاستطلاع الأمريكية كانت تطير بمهمات سرية فوق المناطق السوفييتية 24 ساعة في اليوم.

«إذا رأيت الروس يحشدون طائراتهم للهجوم فسأذهب لسحقهم قبل أن تقلع طائراتهم عن الأرض. لا يهمني الأمر (حتى لو لم يكن ذلك سياسة وطنية). إنها سياستي، وهذا ما سأفعله».

الجنرال كورتيس لي ماي (Curtis LeMay)[244]

ونظراً لاجتهاد الجنرال كورتيس لي ماي عندما كُلّف بالهجوم الناري وبالتالي النووي على المدن اليابانية في عامَي 1944–1945، لا وجد أي سبب للشك في أنه سيقوم بعمله بدقة، وأنه سيقوم بنفس العمل بتدمير المدن السوفييتية في الوقت نفسه؛ لأنّ هذا النوع من الأفعال لا بد أنْ يترك حداً، وهو لن يرغب في عودة الروس في وقت لاحق للانتقام. ولم يكن من الواضح أنه سيعتذر لو اتضح في وقت لاحق أن رجاله الاستخباراتيين قد أخطأوا في تفسير التحركات السوفييتية، وأنّ الروس لا يعتزمون حقاً القيام بأي هجوم، أو إذا أدى ذلك إلى دخول العالم

كله في الظلام والبرد.

إنّ ثقة سلاح الجو الأمريكي في قدرته على شن هجوم نووي وقائي على الاتحاد السوفيتي جعلته غير مهتم تماماً بنظريات «الحرب النووية المحدودة» التي دأ رنارد رودي بتقديمها. ومنذ وقت مبكر من عام 1948، دأ في الابتعاد عن عقيدة الردع البسيطة التي كان قد وضعها في شتاء 1945–1946، واقترح علناً أنه يمكن «تحديق المزد من النفوذ الاستراتيجي وجعل المدن رهينة دلاً من تحويلها إلى دمار». ويبقى العنصر غير المشجع في تاريخ هذه الحرب النووية الممتدة لخمسة وأربعين عاماً والتي لم تحدث قط، هو أنّ الجميع تعرضوا غراء استخدام الأسلحة النووية في الحرب.

أسس رودي وبعض الزملاء الذين كانوا يشاركونه مخاوفه لجنة الأهداف الاستراتيجية في مؤسسة راند عام 195. وخلال السنوات السبع أو الثماني اللاحقة، طوّروا نظريات دقيقة ومعقدة للحد من استخدام الأسلحة النووية في ساحات الحرب في حال تصاعدت لدرجة تبادل إطلاق الأسلحة النووية ين

بعد شهر من سقوط القنبلة على هيروشيما، وقف رجل بجانب موقد، حيث كان هناك منزل قائم سابقاً. لم يحذّره أحد (أو المصور) من الإشعاعات.

البلدين. وهكذا، يتم الحد من استخدامها باستراتيجية «لا لضرب المدن»، والتي تترك عمداً مناطق العدو السكنية من دون أذى.

تقوم هذه الاستراتيجية «المضادة» - والتي تقترح استخدام الأسلحة النووية لمهاجمة الأهداف العسكرية بصورة أساسية دون استهداف السكان - على إعطاء المنتصر الدرة على ابتزاز الخصم للاستسلام؛ وذلك بتهدد مدنه. وقد جادل أنصار هذه السياسة بأنّ لها ميزة مهمة تتمثل بتشجيع الاتحاد السوفيتي على الامتناع

عن ضرب المدن الأمريكية خوفاً من فقدانه مدنه[245].

تعتمد هذه النظرية على التعاون السوفيتي بناء الأسلحة النووية الأمريكية قابلة للاستعمال بعد تحديق الاتحاد السوفيتي قدرة الرد على الولايات المتحدة، ولكنّ هذا الأمر ليس مرجحاً. إذ لم تتردد العقيدة النووية السوفيتية - باعتبارها القوة الأقل شأناً وتأثيراً، والتي من شأنها أنْ تخسر في حال حصول تبادل نووي محدود - في التأكيد على أنه لا توجد أي قيود يمكن مراعاتها عندما تتصاعد الحرب إلى المستوى النووي. لم تكتسب النظرية أيضاً أي تأييد خلال الخمسينيات من زبون مؤسسة راند الرئيس؛ وهو سلاح الجو الأمريكي. وفي نهاية المطاف، إن مخاوف وولستيتر المتعلقة بنقاط الضعف، وأفكار برودي عن الحرب النووية المحدودة سوف يتم استخدامها من قبل القوات الأمريكية كحجج لطلب أسلحة نووية أكثر عدداً وأكثر تطوراً. غير أنها لم تحرز في الخمسينيات أي تقدم على الإطلاق ضد فكرة القصف الاستراتيجي الشامل والتقليدي والهجومي البحت التي سيطرت على سلاح الجو الأمريكي.

سخر محللو راند في ما بينهم من هذا السلوك المتزمت، وعمّم برودي مذكرة داخلية شبّه فيها خطط الحرب بالجنس، فقد شبّه قيود «لا لضرب المدن» بالامتناع عن ممارسة الجنس خارج إطار الزواج، بالمقارنة مع خطة الحرب الجنونية العمياء للقيادة الجوية الاستراتيجية. وقد تحدّث زميله هرمان خان (Herman Kahn) إلى ضباط الأركان في القيادة الجوية الاستراتيجية بشكل مباشر: «أيها السادة، ليست لديكم خطة حرب، بل لديكم نشوة الحرب»[246]. ولكن كل ذلك كان من دون جدوى.

كانت السلطات السياسية المدنية في واشنطن قلقة بشأن الآثار المترتبة على استراتيجية الولايات المتحدة مع اقتراب الخمسينيات من نهايتها. وفي تشرين الثاني من عام 1957، عندما قدمت لجنة غيثر نتائج تحقيقها في مستقبل الرد الشامل وواسع النطاق والعواقب المحتملة لحرب نووية، أجاب الرئيس أيزنهاور ببساطة: «لا يمكن أن يكون لديكم مثل هذا النوع من الحروب. ليس هناك ما يكفي من الجرافات لجرف الجثث من الشوارع»[247].

بعد عامٍ بالضبط، ذهب وزير الخارجية جون فوستر دوليس إلى وزارة الدفاع (البنتاغون) وأخبر هيئة الأركان المشتركة أنه تخلى رسمياً عن سياسة الانتقام الشامل: «ذكّر دوليس الحاضرين بأنه كان عراب عقيدة الانتقام الشامل، وأنها قد خدمت الأمة بشكل جيد، وقامت بردع العدوان لسنوات طويلة، ولكنه توصّل على مضض إلى أنّ ذلك كان مضيعة لثروة ثمينة؛ فمع زيادة القوات النووية السوفيتية، سوف يصبح الأمر أقل مصداقية، ويجب أنْ يبدأ العسكريون الأمريكيون بإعداد الخطط ونظم الأسلحة لاستراتيجيات بديلة»[248].

ولكنّ دوليس لم يكشف عن شيءٍ من هذا للعامة، وقاومت إدارة أيزنهاور أي اقتراح وجوب بناء قوات أمريكية تقليدية لخوض الحروب التي لم يعدْ يُعتقد أنّ الرد الشامل سوف يردعها. وقد قال أيزنهاور مرةً لرئيس أركان الجيش الجنرال ماكسويل تايلور (Maxwell Taylor) الذي كان يدعو إلى التوسع في دعم القوات البرية، إنه لا توجد حاجة لقوات تقليدية كبيرة لعمليات في الخارج، ولكنّ الجيش «سيلعب دوراً حيوياً لحفظ النظام داخل الولايات المتحدة...

وسيكون بعد الحرب الكبرى القوة التي تشد عزم البلد مرة أخرى»[249]. وقد قاوم بحزمٍ مماثل محاولات القيادة الجوية الاستراتيجية لدفع وزارة الدفاع إلى تسريع برامج بناء قاذفات وصواريخ جديدة من خلال التلاعب بشكلٍ صارخ بتقارير الاستخبارات التي تلوّح بوجود «فجوة القاذفات» لصالح الاتحاد السوفييتي في الفترة بين 1955-1957، وبعد ذلك وبالشدة نفسها وجود «فجوة الصواريخ» من عام 1957 إلى 1960. رأى أيزنهاور الذي كان جندياً وخبيراً في الطرائق التي تتبعها الإدارات العسكرية، وخبيراً بالقدر نفسه في التفسيرات المختصرة للوضع الدولي، أنه لا توجد حرب كبرى محتملة في الأفق، ورفض ببساطة الشروع في أي نوعٍ من البرامج العاجلة لبناء المزيد من المؤسسات العسكرية التي كانت مرعبة بما فيه الكفاية بالنسبة للسوفييت. «إذا لم يكن عاطلاً، فلا داعي لإصلاحه».

«لا تستطيع أي دولة لا تملك قنبلة ذرية اعتبار نفسها مستقلة».

الرئيس الفرنسي شارل ديغول

Charles de Gaulle 1968[250]

قامت بريطانيا وكندا طوعاً بدمج مواردهما المعتبرة من المواهب العلمية والتكنولوجيا واليورانيوم الخام بمشروع مانهاتن في الولايات المتحدة خلال الحملة الحربية المحمومة لتطوير قنبلة ذرية قبل (كما كانتا تخشيان) أن يحصل عليها الألمان، ولم يكن هناك اتفاق فعلي حول تشارك الأسلحة النووية التي ستنبثق عن ذلك المشروع.

وبطبيعة الحال، لم تنوِ الحكومة الأمريكية مشاركتها قط، وقد أدى ذلك لاستجابتين مختلفتين بشكلٍ ملحوظ من الدولتين المشاركتين. فقد كانت كندا تحتل المرتبة الرابعة ين الدول الصناعية الاقتصادية الك رى في العالم بعد دمار معظم ال وى العظمى التقليدية، وعلى الرغم من الدور الك ير الذي لعبته في الحرب عام 1945، إلا أنها لم تطمح إلى لعب دور عسكري عالمي، كما كانت بع دة جداً عن أي ته دات عسكرية محتملة، ولذلك قررت من دون أي نقاش تقريباً أنّ الأسلحة النووية غ ر متصلة بأمنها. أما ريطانيا فقد نظرت من الناحية الأخرى إلى الجيش السوف يتي الموجود في وسط ألمانيا على بعد أقل من أربعم ة ميل، واستنتجت أنها بحاجة ملحة إلى أسلحة نووية خاصة بها في حال لم تجرِ الأمور على ما رام.

توصّلت فرنسا – التي كانت محتلة من قبل ألمانيا في معظم فترات الحرب – بعد استعادتها استقرارها الاقتصادي وإعادتها بناء جهازها الحكومي إلى النتيجة نفسها تماماً، وقامت بـطلاق رنامج الأسلحة النووية الخاص بها. وعندما اختلف النظام الش وعي الصيني مع موسكو في أواخر الخمسينيات، قامت الصين أيضاً بـطلاق رنامج للأسلحة النووية مصمم خصيصاً لردع أي هجوم نووي سوف يتي. وفي كل الحالات، كانت هذه قوى «ردع أدنى». لم تكن لدى أي من هذه الدول ال درة على توجيه سلاح نووي ضد كل مخازن الصواريخ والمدن الصغ رة في الاتحاد السوف يتي كقدرة الولايات المتحدة، ولكنها لم تعتقد أن ذلك ضروري.

تحدث الفرنسيون عن قدرتهم على «قطع إحدى أذرع

الدب الروسي». وكان لدى ريطانيا صراحةً «معيار موسكو» بالنسبة ل واته النووية: فطالما أن ريطانيا لديها ال درة على محو موسكو، فمنط ياً لن يكون هنالك احتمال بأن يستخدم الروس الأسلحة النووية ضد أهداف في المملكة المتحدة؛ حتى لو تم تحييد الولايات المتحدة بطريقة أو بأخرى. ولكن، كانت هناك أيضاً حسابات متشائمة وراء ال وة النووية الضاربة الفرنسية والبريطانية، فكلتا الدولتين كانتا تعتقدان سراً أنّ ال وات النووية الخاصة بهما يمكنها أنْ تكون بمثابة «زناد» لل وة النووية الأمريكية الضاربة والأك ر بكث ر؛ بغض النظر عما إذا أرادت الولايات المتحدة شن حرب نووية أو لم ترد.

كان البريطانيون والفرنسيون قل ين من أنّ واشنطن قد لا تضبط أعصابها في مواجهة نصر سوف يتي في حرب تقليدية في أوروبا. وعلى الرغم من كل وعودها، فقد تقرر في إحدى الليالي التخلي عن أوروبا الغربية دلاً من الوفاء بتهد داتها «بالانتقام الشامل» وشن حرب نووية قد تحترق فيها المدن الأمريكية أيضاً، وكانت ال وات النووية البريطانية والفرنسية المستقلة وسيلة للتأكد من أن ذلك لن يحدث.

إذا كانت ريطانيا أو فرنسا قادرة على ضرب الروس بعدد صغ ر نسبياً من الأسلحة النووية، فإنّ الاتحاد السوف يتي سيكون معاقاً وبلا أمل في أي مواجهة نووية لاحقة مع الولايات المتحدة. وبأخذ هذا بعين الاعتبار، من الممكن أن يُجبَر المخططون في موسكو على ضرب ال وى النووية الغربية كافة في آن واحد - الأمريكية والبريطانية والفرنسية - جهاض هذا الاحتمال مسب اً، وسيُجبَر

المخططون الأمريكيون أيضاً على الـ يام بالضربة الأولى ضد الاتحاد السوفيتي كما ورد في عقيدة الانتقام الشامل؛ وذلك من أجل تجنب أي هجوم وقائي سوفيتي. كان المنطق ملتوياً ولكنه عقلاني ومن دون رحمة: لا يمكننا الوثوق بأنّ الأمريكيين سوف يضحون بمدينة نيويورك نقاذ باريس أو لندن. وعندما يحين وقت الحسم في النهاية، سيكون الـ يام بتلك التضحية أمراً غ ر عقلاني، لذلك يجب أن نجهز أنفسنا بالأسلحة التي تجـ ر الروس على مهاجمة الأهداف الأمريكية بالأسلحة النووية في الوقت نفسه الذي يضربوننا فيه؛ وعندها يمكننا أنْ نثق بأنّ الأمريكيين سوف يفون وعودهم.

هذه العقلانية الباردة لم تحفظ الـ وى العظمى في أوروبا الغربية من الخضوع إلى «لعنة الأرقام»، فخلال الثمانينيات شرعت كل من ريطانيا وفرنسا في «تحديث» (أي توسيع) الـ وات النووية لكل منهما بما يمنحهما الـ درة على تدمير ما يـ ارب ألف هدف لكل منهما، كما اتّبعت الصين التي أظهرت المز د من ضبط النفس بشأن قضية الأرقام الـ دوةَ البريطانية والفرنسية في إرسال بعض قوات الردع إلى البحر في الغواصات كخطوة ملاء سياسة «الردع الأدنى». لم تحذُ إسرائيل التي بَنَتْ أسلحتها النووية الأولى على الأرجح في منتصف الستينيات حذو تلك الدول، وهذا رجع إلى حد ك ير إلى أنه ليس لديها سبب للخوف من أنها قد تفقد أسلحتها في هجوم عربي مباغت؛ حيث لم تمتلك أي دولة عربية أسلحة نووية في ذلك الوقت أو حتى بعد أربعين عاماً؛ وهذا ما سمح سرائيل بتنفيذ استراتيجية غ ر معلنة من «الانتقام الشامل»، بمعنى أنّ كل الدول العربية تعرف أنّ الهزيمة العسكرية

ا سرائيلية في أي حرب تقليدية قد تؤدي إلى استخدام الأسلحة النووية ا سرائيلية، وتش ر الأدلة غ ر الرسمية ب وة إلى أنّ إسرائيل كانت تستعد بشكل جديّ لاستخدام أسلحتها النووية خلال الأيام الأولى ال ليلة المث رة للذعر خلال حربها عام 1973 مع مصر وسوريا.

وضع التوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية عام 1968، والتي وافقت فيها ال وى النووية المعلنة على عدم نقل أسلحتها إلى لدان أخرى، ووافقت أكثر من م ة دولة أخرى على عدم تطوير أسلحة نووية خاصة بها، حداً لتلك الفترة التي امتدت عشرين عاماً، والتي قفز فيها عدد الدول التي تمتلك أسلحة نووية من دولة واحدة إلى ست دول. وقد رفضت الدول المتب ية المرشحة لامتلاك ال درة على إنتاج الأسلحة النووية التوقيع على المعاهدة، ولكنْ مرّت ثلاثون عاماً إضافية قبل أن تتحول دولة أخرى إلى دولة نووية علناً.

«فكرتُ في أنهم كانوا الناس الأكثر خطراً وانحرافاً ووحشيةً، ل د بنوا آلة وم ال يامة».

دانيال إلسبرغ Daniel Ellsberg 1961

عندما جاءت إدارة كيندي إلى الحكم عام 1961 (وساعدتها في ذلك انتخا ياً أسطورة «فجوة الصواريخ»)، جلبت معها المئات من الشباب المتميزين والتكنوقراط إلى واشنطن، بمن في ذلك مجموعة كاملة من المحللين العاملين في مؤسسة راند الذين جاءوا للعمل في وزارة الدفاع. كان أحدهم هو دانيال إلسبرغ الذي أُعطي ملخصاً عن خطة ال يادة الجوية الاستراتيجية الحربية السرية، وكان أول

ما اطلع عليه هو الخطط الفردية المتكاملة التشغيلية ([251](SIOP)، وهي خطط لتنسيق استخدام الأسلحة النووية من قبل جميع الفروع المختلفة للقوات المسلحة الأمريكية، وقد ارتعد منها رعباً. فقد تضمنت خياراً واحداً فقط: الإطلاق الفوري لجميع مركبات الإطلاق النووية الأمريكية ضد كل مدينة وهدف عسكري كبير.

لم يكن هناك بند مخصص للاحتياطي الاستراتيجي في الاتحاد السوفييتي والصين، ومعظم الأهداف الموجودة في لدان أوروبا الشرقية أيضاً عند أي اندلاع لحرب نووية. ولم تتجنب الصين أو أوروبا الشرقية حصول المذبحة؛ حتى لو لم تكن تشارك في الأزمة، ووضعت القيادة الجوية الاستراتيجية في حسبانها أنّ الضربة سوف تقتل ما بين 360 و425 مليون شخص.

اعتقد إلسبرغ أنّ الخطة كانت مجنونة، مشيراً إلى أنّ (SIOP) نصّت على استخدام ما مجموعه 170 قنبلة ذرية وهيدروجينية على موسكو: «على كل من يستطيع توجيه سلاح إلى موسكو القيام بذلك. إذا كان لديك بطريقة أو أخرى أي سلاح في وحدتك بمكانك توجيهه إلى موسكو فعليك أن تفعل ذلك». أدرك إلسبرغ أيضاً شيئاً لم يدركه محللو مؤسسة راند ناهيك عن الشعب الأمريكي؛ فقد افترضت القيادة الجوية الاستراتيجية التي كانت تعلم بأمر التفوق النووي الأمريكي الساحق على الاتحاد السوفييتي أنّ الولايات المتحدة هي التي ستبدأ باستخدام أسلحتها النووية في الحرب، وتلاعب سلاح الجو بالتقارير الاستخبارية لتقديم صورة مبالغ فيها عن القوة النووية السوفييتية بالمقارنة مع ما هو موجود فعلاً؛ وذلك في سعيه لتبرير

الحصول على المزد من الـ اذفات والصواريخ، وقد نجح بذلك لدرجة أنه حتى السلطات المدنية دأت بالتراجع عن استراتيجية الضربة الأولى النووية، واعت رت أنها لم تعد ممكنة، ولكنّ الـ يادة الجوية الاستراتيجية نفسها كانت تعرف أنّ السوف يت كانت لديهم أربعة صواريخ عاملة باليستية عا رة للـ ارات في عام 1961. ولذلك، إنّ استراتيجية «الانتقام الشامل» أي الضربة الأمريكية الأولى تستند إلى خطة حرب فعلية[252].

حصل وزر الدفاع الجد د روبرت ماكنمارا على ملخص (SIOP) نفسه، وقد ذُهل بشكل مماثل؛ وبالتالي كان قابلاً للاقتناع عندما كشفت البحرية الأمريكية عن اقتراحها لسياسة «الردع الأدنى» التي من شأنها أنْ تضع حدًّا لأي تفك ر في موضوع الضربة الأولى، با ضافة إلى معظم أو جميع قوات الـ يادة الجوية الاستراتيجية. دأت البحرية مع أواخر الخمسينيات بتطوير قوتها الاستراتيجية النووية الخاصة من صواريخ ولاريس (Polaris) المتمركزة في الغواصات، وكان من أعظم ميزاتها أنها منيعة ضد أي هجوم سوف يتي؛ لأنّ الغواصات يمكنها أن تختفي في أي مكان في المحيطات. غ ر أن ع بها الأك ر كان في أنها لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية لضرب أي شيء أصغر من مدينة. وبالتالي، تخلّت البحرية في سعيها إلى تعزيز نظام أسلحة خاص بها في مواجهة الـ اذفات المنافسة في سلاح الجو والصواريخ البرية (التي كانت أكثر دقة ولكنها عرضة لهجوم مفاجئ) عن اشم زازها السا ق من شن الهجمات على المدن، وتبنّت سياسة «الردع الأدنى» بكل إخلاص.

جادلت البحرية في تقرير يعود لعام 1958 بأن مذاهب

استراتيجية الـ وة المضادة الجد دة (والتي من شأنها أن تساعد في إدامة الأسلحة الاستراتيجية التابعة للـ وات الجوية) من شأنها أنْ تؤدي إلى سباقٍ تسلح لا نهاية له من دون تقديم أي فرصة حـ يـ يـة تمكِّن الولايات المتحدة من خوض حرب نووية بنجاح. وبدلاً من ذلك، ينبغي على الولايات المتحدة أن تتخلى عن أي محاولة للتعامل مع المشاكل غـ ر النووية باستخدام أسلحة نووية، و«تجنب فرط التضخيم الاستفزازي لـ واتنا الاستراتيجية التي يجب تعـ يـن حجمها من خلال الهدف السخي المتمثل بكفاية الردع وحده (أي الـ درة على تدمير مدن العدو)، وليس الهدف الزائف المتمثل بكفاية الحصول على الفوز». ولهذا الهدف المحدود، ستكون الصواريخ التي تطلقها غواصات البحرية وحدها كافية تماماً؛ لأنها غـ ر معرضة للخطر ولا يمكن إيـ افها، وفي هذا عودة إلى استراتيجية رودي عام 1946 «الردع الأدنى» بشكلٍ واضح وبسيط؛ وهذا يعني نهاية الدور النووي الاستراتيجي للـ وة الجوية. وكما تبجّح ضابط بحري كـ ير أمام نظـ ره من الـ وة الجوية في عام 1958: «لـ د حصلنا على شيء سوف يضعكم خارج الخدمة»[253]. فقد دا للحظة واحدة في داية إدارة كيـ ندي في كانون الثاني من عام 1961 كما لو أنّ سلاح البحرية قد ينجح.

كان روبرت ماكنمارا مد راً رائعاً جاء من عالم الأعمال، وليست لديه أي خـ رة أو تصورات مسبقة في مجال الاستراتيجية النووية. افتتن في غضون أسبوع من وصوله إلى وزارة الدفاع (البنتاغون) بالتعقل النسبي لمقترحات البحرية «للردع الأدنى» (والتي أعـ دت تسميتها – وصارت تدعى «الردع المحدود» – حتى لا تـ دو ضعيفة جداً)، والتي بموجبها يكون التهـ د بالانتقام عبارة عن مجرد

استخدام م تين من صواريخ الغواصات لتأمين الولايات المتحدة ضد تهد د هجوم نووي سوف يتي. مما يعني بناء قوات تقليدية مُكلِفة لحماية مصالح الولايات المتحدة، والتخلي عن السعي لتحديق التفوق الاستراتيجي على الاتحاد السوف يتي، لكن ذلك سيكون أكثر أماناً بكث ر من الاستراتيجية الأمريكية الحالية.

غ ر أنّ أركان ال وات الجوية الذين كانوا يفكرون على نطاق أوسع بكث ر من ا قطاعية المغلقة لمؤسسة ال يادة الجوية الاستراتيجية توقعوا هذا التحدي من صواريخ ولاريس البحرية. وخلال عام 1960، قام فريق من محللي راند ب يادة ويليام كوفمان (WilliamKaufmann) بالعمل على وضع استراتيجية الاستهداف المعاكس. وقد كتب الجنرال تومي وايت (Tommy White) باعتباره قائداً لأركان سلاح الجو مخاطباً قائد ال يادة الجوية الاستراتيجية (SAC) يخ ره أنّ استمرار سياسة ال وة الجوية باستهداف المدن بشكلٍ عشوائي «لن تستخدم فقط كمبرر إضافي لبولاريس، وإنما... ستستخدم كموقف قوي (قد دأ يظهر بالفعل) للقضاء على أي مطلب استراتيجي آخر غ ر ولاريس؛ أي ال يادة الجوية الاستراتيجية

وزير الدفاع
روبرت ماكنمارا
يقدّم ملخصاً
للصحفيين في
البنتاغون خلال
أزمة الصواريخ

الكوبية، تشرين الأول/أكتوبر من عام 1962.

(SAC) نفسها»[254].

أدرك كبار ضباط سلاح الجو من الناحية السياسية أن استراتيجية «لا لضرب المدن» التي قدمت أملاً وجود إمكانية لخوض حرب نووية (والفوز فيها) من دون محرقة، سوف تناشد القادة السياسيين الذين يريدون ا با ء على إمكانية استخدام الأسلحة النووية الأمريكية أولاً؛ على الرغم من النمو الحتمي للدرة الانتقامية السوفيتية. لذلك، رتب سلاح الجو اجتماعاً ين الوزر ماكنمارا وويليام كوفمان بعد مرور شهر واحد فقط على تعيينه وزراً للدفاع.

«لد انقلب على نفسه خلال أسبوع»؛ هذا ما قاله كوفمان في ما بعد عن إغراء ماكنمارا قصير الأمد بأنْ يكتفي «بالردع الأدنى»: «لد أقنعته بالعدول عنه». كان جوهر تلخيص كوفمان عبارة عن مارنة ين ثلاثة

سيناريوهات: يشمل الأول حدوث هجوم سوفييتي مفاجئ يهدف فقط إلى تدمير القوات الاستراتيجية الأمريكية، يعقبه انتقام شامل ضد المدن السوفييتية من قبل القوات النووية الأمريكية الناجية، وتدمير المدن الأمريكية من قبل القوات الاحتياطية في الاتحاد السوفييتي، وتكون النتائج فيه مقتل 150 مليوناً من الأمريكيين و40 مليوناً من السوفييت. أما السيناريو الثاني فيتعلق بالخطط الفردية المتكاملة والتشغيلية (SIOP)، وفيه يحصل هجوم نووي أمريكي «بالجهد الأقصى» على الاتحاد السوفييتي عند حدوث أزمة، ويلي ذلك الانتقامُ من المدن الأمريكية من جراء ضربات الصواريخ والقاذفات السوفييتية الناجية، وتكون النتائج وفق هذا السيناريو وقوع 110 ملايين قتيل من الأمريكيين و75 مليون قتيل من السوفييت. (كان عدد الخسائر البشرية الأمريكية أكبر في كلا الاحتمالين، ويرجع ذلك إلى حقيقة أنّ الولايات المتحدة كانت أكثر تمدناً من الاتحاد السوفييتي في عام 1960).

كان كوفمان يقدم أمثلة عن أسوأ الحالات بالاستناد لتقديرات الاستخبارات المضخِّمة للقوة الصاروخية السوفييتية. ولكن، كان من الواضح تماماً أن الاتحاد السوفييتي في نهاية المطاف سيحقق ذلك النوع من القدرة الانتقامية التي وصفها كوفمان، ولذلك كان السيناريو الثالث جذاباً جداً بالنسبة لماكنمارا، وبموجبه ستقوم الولايات المتحدة غير القادرة على صد الهجوم السوفييتي على أوروبا الغربية بالقوى التقليدية بضرب مطارات القاذفات السوفييتية ومواقع الصواريخ ومراكز الغواصات التي تحمل أسلحة نووية، ولكنها ستتجنب ضرب المدن السوفييتية وتبقي جزءاً من قوتها في الاحتياط؛ وسيقوم السوفييت

الذين يعلمون أن مدنهم رهينة للولايات المتحدة بالرد، ولكنهم سيتجنبون مهاجمة المدن الأمريكية. وهكذا، تفوز الولايات المتحدة بتبادل القوة المعاكسة، ثم تطلب من السوفييت الاستسلام مهددةً بالقيام بتدمير المدن السوفييتية الواحدة تلو الأخرى؛ فتستسلم موسكو، وتكون التكلفة الإجمالية للحرب «فقط ثلاثة ملايين أمريكي وخمسة ملايين سوفييتي».

ابتلع ماكنمارا الطعم، وأصدر أوامره فوراً لوضع سياسات تتعلق بتوجيه ضربات مضادة من شأنها «أن تسمح برد الفعل المنضبط، وإتاحة وقت للتوقفات من أجل التفاوض» في حال نشوب حرب نووية. وبحلول نهاية العام، تم تنقيح خطط (SIOP) بشكل جذري، وتقسيم قائمة الأهداف السوفييتية إلى خمس فئات تنتقي منها الولايات المتحدة في حال حدوث حرب نووية.

أتاحت الخيارات والخيارات الفرعية الواردة في خطة الولايات المتحدة الاستراتيجية المنقحة (SIOP-63)، بالإضافة إلى التغيرات التقنية التي مكّنت القيادة العسكرية الأمريكية من إعادة برمجة أهداف الصواريخ الأمريكية بعد فترة إنذار وجيزة، وإطلاق النار على الأهداف بشكلٍ منفرد أو بأعداد صغيرة (بدلاً من دفعات الحد الأدنى فيها خمسين)، أتاحت لها إمكانيةَ خوض حرب نووية «محدودة»؛ إذا وافق الروس[255].

عندما أعلن ماكنمارا استراتيجيته على العامة في عام 1962، كانت الاستجابة السوفييتية سلبية بشكلٍ كامل. فقد رفض المارشال سوكولوفسكي (V. D. Sokolovskiy) «قواعد شن الحرب النووية» التي طرحها

ماكنمارا، ووصف عقيدة «لا لضرب المدن» بأنها استراتيجية للضربة الأولى، وأهمل ذكر حقيقة أن الاستراتيجية السوفييتية الرسمية تمثل أيضاً استراتيجية للضربة الأولى. وذكر المبدأ المعلن للعقيدة العسكرية السوفييتية في ذلك العصر (الماركسية اللينينية في الحرب والجيش) صراحةً أنّ «الضربات الصاروخية النووية الشاملة على القوات المسلحة للخصم وعلى أهدافه الاقتصادية والسياسية الرئيسة هي التي تحدد انتصار أحد الأطراف وهزيمة الطرف الآخر منذ بدء الحرب. لذلك، إن التقدير الصحيح لعناصر التفوق على الخصم والقدرة على استخدام تلك العناصر قبله (وهذا ما تم التشديد عليه) هما مفتاح النصر في مثل تلك الحرب»[256].

أثبتت استراتيجية ماكنمارا لحرب نووية محدودة ومُسيطَر عليها أنها لا تحظى بالشعبية بشكل متساوٍ لدى حلفاء أمريكا في حلف شمال الأطلسي، وذلك عندما تم عرضها عليهم في اجتماع سري لوزراء دفاع الحلف في أثينا في صيف عام 1962، حيث قال ماكنمارا: «توصلت الولايات المتحدة إلى استنتاج مفاده أنه ينبغي النظر إلى الاستراتيجية العسكرية التي ستعتمد في حرب نووية عامة بالطريقة نفسها التي كان يُنظر فيها إلى العمليات العسكرية التقليدية في الماضي». وتوصل معظم الحلفاء الذين رضخوا دون خجل وبحذر شديد لسياسة الانتقام الشامل، إلى أن الردع النووي الأمريكي الذي ضمن لهم أمنهم من خلال التهديد بتدمير العالم دفاعاً عنهم (رغم كونه غير معقول) أصبح أكثر فأكثر أمراً لا يصدق.

كان الرئيس كينيدي قد أخبر ماكنمارا أنه يجب عليه

أن يكرر في أثينا «لدرجة الملل»، من جهة أن الولايات المتحدة لا تفكر في الضربة الأولى، ومن جهة أخرى ينبغي للأوروبيين ألا يعتقدوا أنه بمكانهم جر الولايات المتحدة إلى حرب نووية عامة ببساطة من خلال قدرتهم على إطلاق أسلحتهم النووية الخاصة التي يسيطرون عليها بشكلٍ مستقل على المدن السوفيتية. ولكن، بدا واضحاً للفرنسيين (الذين قالوا ذلك علناً) والبريطانيين (الذين كانوا دائماً أكثر مكراً) أنه بمكانهم فعل ذلك تماماً؛ الأمر الذي يقوّض مفهوم الحرب النووية المحدودة بكامله.

كان رد الفعل العلني سلبياً بشكلٍ مساوٍ عندما عرض ماكنمارا نسخة غير سرية من خطاب أثينا في جامعة ميشيغان في حزيران/يونيو عام 1962. وقد فسِّرت الاستراتيجية الجديدة عالمياً تقريباً بأنها تجعل الحرب النووية أكثر احتمالاً، ولكنّ العامل الأقوى الذي ساهم في إجبار ماكنمارا على التراجع عن استراتيجية «لا لضرب المدن» هو الطريقة التي استخدمت فيها القوات المسلحة الأمريكية عقيدة القوة المضادة كمبرر للمطالبة بأعداد هائلة من الأسلحة الاستراتيجية الجديدة لضرب أهداف جديدة لامتناهية. ومع أواخر عام 1962، كان سلاح الجو الأمريكي يسعى للحصول على قاذفة قنابل استراتيجية جديدة (B-70)، ودار الحديث عن مجموع نهائي قدره عشرة آلاف صاروخ مينوتمن(Minuteman). وفي كانون الثاني/يناير عام 1، طلب ماكنمارا من هيئة أركانه إبلاغ العسكريين أنه لم يعد بمكانهم استخدام الاستراتيجية المضادة كتبرير لطلب أسلحة جديدة.[257]

لجأ ماكنمارا الذي ضاق بالمطالب اللامتناهية لقواته

المسلحة للحصول على أسلحة نووية جديدة إلى التكتيك البيروقراطي للمساومة على مستوى قوات أعلى بكثير مما كان يعتقده ضرورياً، ولكنه أقل بكثير مما أرادوه، ومن ثم عمل على تحصين نفسه ضد المزيد من المطالب من خلال وضع عقيدة استراتيجية بحسابات نظرية مختارة اعتباطياً تتعلق بكمية القوة المدمرة التي تحتاج إليها الولايات المتحدة من أجل الردع[258]، ولكنه كان مستوىً عالياً للغاية. وكما قال أحد المساعدين في وزارة دفاع ماكنمارا للسير سولي زوكرمان (Sir Solly Zuckerman) المستشار العلمي الأول لوزارة الدفاع البريطانية:

«أولاً، نحن بحاجة إلى ما يكفي من صواريخ مينوتمن للتأكد من أننا دمرنا كل المدن الروسية، ثم نحن بحاجة إلى صواريخ ولاريس للمتابعة من أجل تدمير الأساسات إلى عمق عشر أقدام... وبعد ذلك، عندما تصمت روسيا بكاملها ولا تبقى أي دفاعات جوية، عندها سنقوم بإرسال موجات من الطائرات تسقط ما يكفي من القنابل لتدمير المكان كله حتى الوصول إلى عمق أربعين قدماً، لمنع أهل المريخ من استعمار هذه البلاد، ولتذهب العواقب إلى الجحيم»[259].

عُرفت العقيدة التي اعتمدها ماكنمارا رضاء حلفائه في منظمة حلف شمال الأطلسي، وتهدئة الرأي العام، واحتواء قواته المسلحة «بالتدمير المؤكد». كما شرحها ماكنمارا للكونغرس في بدايات عام 1965: «يبدو من المنطقي أن نفترض القضاء على ربع إلى ثلث السكان، وحوالي ثلثي الطاقة الصناعية... هذا بالتأكيد يمثل عقاباً لا يُطاق لأي أمة صناعية، وينبغي أن يكون بمثابة رادعٍ فعّالٍ»[260].

كانت استراتيجية «التدمير المؤكد» انتقامية بحتة، وأصبحت عقيدة معترفاً بها رسمياً - «ردع أدنى» باستخدام أسلحة أكثر من اللازم - كما أصبحت العقيدة النووية المعلنة الوحيدة للولايات المتحدة. ومع إضافة الساخرة في عام 1969 لكلمة المتبادل (من قبل دونالد ريتان؛ وهو مرشح ساخط على الدولة المعاكسة، حيث إنه سخر من هذه العقيدة ووصفها بأنها «مجنونة»)، بقي «التدمير المؤكد المتبادل» الاستراتيجيةَ المعلنة للولايات المتحدة حتى الثمانينيات، ولم يتم توضيح كيف يمكن أن تتوافق الاستراتيجية الانتقامية المزعومة مع سياسة حلف الناتو في أوروبا المعروفة «بالاستجابة المرنة»، والتي تهدد بالاستخدام الغربي للأسلحة النووية أولاً رداً على أي هجوم تقليدي سوف يأتي، ولكنّ التناقض كان موجوداً فقط في العلن؛ لأن خطة الهدف الفعلية (SIOP-63) لم تتغير بشكل هام لأكثر من عقد من الزمن.

«تعلم المسؤولون الرسميون أنْ يتحدثوا علناً فقط عن الردع والهجمات على المدن، وليس عن مسائل القتال والحرب أو تحييد المدن. يمكن أن يجلب الانتقاد متاعب جمة (الحديث عن تحييد المدن يضعف الردع، وهكذا دواليك...)، لذلك هرب المسؤولون الرسميون واختبأوا، وقد شملني هذا الأمر عندما كنت واحداً منهم. ولكن فلسفة الاستهداف، والخيارات، وترتيب الخيارات بقيت نفسها منذ خطاب ماكنمارا [في جامعة ميشيغان عام 1962]».

مساعد غير مسمّى لوزير الدفاع في مراسلات خاصة مع ديزموند بول[261]

كان ما حصل فعلاً عبارة عن حدوث انقسام بين الاستراتيجية الأمريكية المعلنة وخطة الحرب الحقيقية؛ إذ

كانت استراتيجية «التدمير المؤكد» موجودة لردع أي هجوم نووي سوفيتي على الولايات المتحدة (كان هذا الاحتمال غ ر وارد بالنظر إلى توازن الـ وى الـ ائم)، والأهم من ذلك لاحتواء شراهة الـ وات المسلحة الأمريكية للحصول على أسلحة جد دة. ولكنْ، وراء هذه الواجهة من «الردع الأدنى» كانت ثمة استراتيجية حـ يـ ية مختلفة تماماً؛ فإن حدثت الحرب فعلاً فسيتم خوضها وفقاً لـ واعد «الـ وة المعاكسة» والـ يود التي كان ماكنمارا قد أعلنها في أثينا وميشيغان في عام 1962، وأقصى ما يمكن أن يـ ال لصالح استراتيجية «التدمير المؤكد» هو أنها ألغت رسمياً فكرة الضربة الأولى النازعة للسلاح ضد الاتحاد السوفيتي. على أية حال، لم يكن ماكنمارا يعتقد أنّ الضربة الأولى بـإمكانها أن تنجح، وقد نصح بـشكلٍ سري كلاً من الرئيس كيندي والرئيس جونسون بـأنه ينبغي عليهما عدم استخدام الأسلحة النووية أولاً أداً وتحت أي ظرف من الظروف. ولكنّ خطط (SIOP) لم تتخلَّ قط عن التوقع بأن ضبط النفس والعقلانية يمكن أن يسودا؛ حتى لو دأت الأسلحة النووية بالانفجار فوق أراضي الدول.

واصلت موسكو ا صرار علناً على أن الحرب النووية إذا «فُرضت» عليها من قِـ ل «المُعتدي» فسيتم شنها من دون قيود، ولكن الاستراتيجـ يـن الأمريكـ يـن افترضوا أنّ هناك انقساماً مماثلاً يـن الاستراتيجية المعلنة وخطة الحرب الحـ يـ ية في الاتحاد السوفيتي؛ على أساس أنّ جميع الرجال العقلاء سوف يصلون إلى النتيجة نفسها. وقد تلـ ى هذا الرأي تأكـ داً واضحاً عندما كشف جنرال روسي في عام أنّ خطة الاستهداف السوفيتية تحتوي على خمس فئات من الأهداف متطا قة تقريباً مع «الخيارات» الواردة في

h[262](SIOP-63). وحتى لو كانت الافتراضات حول احتمال خوض حرب نووية متحكم بها ومحدودة قد أصبحت راسخة في خطط الحرب الأمريكية، إلا أنّ الأحداث كانت تثبت كم هي بعيدة عن الواقع.

خلال أزمة برلين عام 1961 التي كان الغرب فيها في وضع متأخر إلى حدٍ كبير في القوات التقليدية عند نقطة المواجهة، تم إنشاء فرقة مهمات خاصة من قبل الرئيس كينيدي برئاسة بول نيتز وذلك لدراسة خياراته. وقد تمّت دراسة فكرة التحذير النووي ورفضها على الفور تقريباً؛ على اعتبار أنّ ذلك يمكنه أن يؤدي إلى تبادل للضربات النووية الرمزية واحدة واحدة، لدرجة أن أحد الجانبين قد يصعّد فجأة إلى شيء أكثر خطورة لثبات تصميمه. «وعندما يحدث ذلك، فلا مجال للتراجع»، كما قال نيتز.

الأخطر من ذلك أنّ بعض خبراء راند في فرقة المهمات نظروا في إمكانية ضربة أولى لنزع السلاح ضد الاتحاد السوفييتي (بتجنب المدن قدر الإمكان)، واكتشفوا أن ذلك كان ممكناً إلى حدٍ معقول. واكتشفت المخابرات الأمريكية بالاستناد إلى أقمار التجسس التي توفرت حديثاً أنّ القوات النووية السوفييتية كانت بحالة مزرية؛ فهي أضعف بكثير مما افترضه الأمريكيون، وفي حالة منخفضة جداً من الجاهزية؛ لذلك صمّم الأمريكيون «الضربة الأولى الذكية»، والتي قدّروا أنّ لديها فرصة بنسبة 90 بالمئة لاصطياد الأسلحة السوفييتية كافة على الأرض. وقد علّق وليام كوفمان: «كان من المدهش كيف أن أناساً ليست لديهم خلفية في مجال الرياضيات قد اكتشفوا طريقة التوزيع هذه، وسرعان ما سيصلون إلى فهم

أن هناك أيضاً فرصة بنسبة 10 بالمئة في أن يسير الأمر بطريقة خرقاء، ومن ثم سيفقدون الاهتمام خلال خمس عشرة دقيقة»[263].

كانت النتيجة مطمئنة. ففي بدايات الستينيات، لم تعد فكرة «نزع السلاح» من خلال هجوم نووي مفاجئ ضد الاتحاد السوفييتي تلقى أي دعم في واشنطن، وكان مبدأ «الردع الأدنى» قد حقق نوعاً من القبول الرسمي (حتى لو كانت خطط الحرب الفعلية لا تزال تعتمد القوة المضادة)، وكانت العقلانية على الأقل لا تزال جزءاً من اللعبة؛ حتى لو لم تحقق نصراً حاسماً أمام الضغط المستمر من أجل جعل الأسلحة النووية أكثر «قابلية للاستخدام» في الحرب. ولكن، حتى ذلك الوقت، لم تدخل أي بلد في مواجهة عسكرية واسعة النطاق يكون فيها كلا الجانبين مستعدين لاستخدام الأسلحة النووية.

تلاشت أزمة برلين في أواخر عام 1961؛ عندما أدرك خروتشوف أنّ الولايات المتحدة قد اكتشفت أنّ ادعاءاته المعلنة بصوت عالٍ - من حيث تنامي القوة السوفييتية النووية الضاربة، وعلى وجه الخصوص قوة الصواريخ العابرة للقارات الكبيرة - كانت في معظمها خدعة. ولكنّ هذا الاكتشاف وضع خروتشوف تحت ضغوط سياسية كبيرة في الداخل، وعلى الصعيد الدولي. وفي العام التالي، قام بمغامرة نشر صواريخ قصيرة المدى على أراضي حليفه الجديد كوبا من أجل وضع الولايات المتحدة في مرمى قوة كبيرة من الصواريخ السوفييتية، وبالتالي إغلاق الفجوة الاستراتيجية. وقد اكتشفت الولايات المتحدة هذه الصواريخ، واندلعت بذلك الأزمة الكوبية؛ إذ أعلنت الولايات المتحدة فرض حصار على

كوبا، وبدأت بالاستعداد للغزو إذا رفض خروتشوف سحب صواريخه.

EAT DEATH, COMRADES!

By Henry Zeybel

Today's SAC crews can get in under the radar, deliver twelve nuclear weapons and get out to do it again.

Pitz! The lenses of these goggles contain 21 layers of lead-lanthanum zirconate-titanate ceramic. Sudden bright light causes the lenses to turn opaque so quickly that light beams never reach the wearer's eyeballs. Used in wartime by pilot and copilot, the pitzes prevent flash blindness whenever the flash curtains are down, such as during takeoff and air refueling.

ألقوا اثني عشر سلاحاً نووياً، وخرجوا للقيام بذلك مرة أخرى؟ ما هي القاعدة

الجوية غير التالفة التي يخططون لإعادة التحميل منها؟ وما هي أهدافهم في الرحلة الثانية؟

الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لأزمة الصواريخ الكوبية من وجهة نظر الاستراتيجية النووية هو أن أحداً لم يعطِ أدنى انتباه لفكرة الحرب النووية المحدودة. فقد يكون خروتشوف أقل شأناً من الناحية الاستراتيجية، ولكن لم يكن هناك شكّ في أنّ بعض قاذفاته وصواريخه على الأقل يمكنها أن تنفذ وتدمر المدن الأمريكية؛ بغض النظر عما تفعله الولايات المتحدة. وبحلول أواخر عام 19، وُجدت خطط (SIOP) الجديدة مع خياراتها كافة من هجمات نووية انتقائية ومحدودة. ولكن، في مواجهة أزمة حقيقية، لجأ الجميع إلى التعقل النسبي في صيغة رودي الأصلية الخاصة بالردع. وفي 22 تشرين الأول/أكتوبر، أعلن كينيدي أن الولايات المتحدة ستعتبر «أي صاروخ نووي يطلق من كوبا ضد أي دولة في النصف الغربي للكرة الأرضية بمثابة هجوم من قبل الاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة، وأن ذلك سيستدعي رداً انتقامياً كاملاً على الاتحاد السوفييتي»[264].

كان العزاء الوحيد في خضم هذه الأزمة وفقاً لتأكيدات الرئيس كينيدي يأتي من مصادر الاستخبارات الأمريكية؛ وهو أن الصواريخ السوفييتية في كوبا لا تزال من دون رؤوس حربية نووية. لذا، ركز كينيدي على اعتراض السفن السوفييتية المتجهة إلى كوبا والتي يمكنها أن تنقل الرؤوس الحربية، وفي الوقت نفسه ركّز على المضي قدماً في خطة لغزو كوبا إذا لم تتراجع موسكو. ولكن، تراجعت موسكو في النهاية. إذ سحب خروتشوف الصواريخ السوفييتية من كوبا مقابل وعد أمريكي بعدم غزو

الجز رة، وسحبت الصواريخ الأمريكية المماثلة من تركيا بعد بضعة أشهر. وبعد ثلاثة عشر وماً من ال لق الشد د، تنفس العالم الصعداء مجدداً، ولكن لم درك أحد على الجانب الأمريكي في ذلك الوقت مدى اقترابهم من حرب نووية.

لو لم رسل خروتشوف رسالة لكيندي قترح فيها حلاً وسطاً فلربما كانت الولايات المتحدة قد مضت قدماً في غزو كوبا، ولكن الجميع في واشنطن افترضوا أنه ستكون هناك على الأقل بعض الخطوات في الرقصة قبل أن تُستخدم الأسلحة النووية. لم تكن الصواريخ في كوبا قد دخلت نطاق التفع ل بعد، وكان القتال سيب ى تقليدياً ما لم تتخذ موسكو الخطوة الهامة والتي لا يمكن تصورها بشن الضربة الأولى من أراضي الاتحاد السوف يتي ضد الولايات المتحدة. وقد مرّت ثلاثون عاماً قبل أن يكتشف روبرت ماكنمارا أن الجميع في واشنطن كانوا مخطئين تماماً.

«لم يتضح الأمر إلا في كانون الثاني من عام ؛ في اجتماع ترأسه ف دل كاسترو في هافانا – كوبا، حيث علمتُ أن 162 رأساً نووياً – بما في ذلك 90 رأساً حربياً تكتيكياً – كانت موجودة على الجز رة في تلك اللحظة الحرجة من الأزمة. لم أستطع أن أصدق ما أسمعه، وقلت: «... سيدي الرئيس، لدي ثلاثة أسئلة. أولاً، هل كنت تعلم أن الرؤوس النووية كانت هناك؟ ثانياً، إذا كنت تعرف ذلك فهل كنت ستنصح خروتشوف عند حدوث أي هجوم أمريكي بأن يستخدمها؟ ثالثاً، إذا استخدمها فما الذي كان من الممكن أن يحدث لكوبا؟».

فقال: «أولاً، كنت أعرف أنها كانت هناك. ثانياً...

نصحت خروتشوف بأن يستخدمها. ثالثاً، ماذا سيحدث لكوبا؟ ستُدمّر تماماً».

كنا قريبين من الحرب إلى هذه الدرجة... ثم قال: «سيد ماكنمارا، إذا كنت أنت والرئيس كيندي في وضع مماثل، فسوف تفعل ذلك». فقلت له: «سيدي الرئيس، أحمد الله لأننا لم نفعل ذلك. أن ندمر المع د على رؤوسنا!! يا إلهي!»»[265].

كان التهد د بتدمير المع د على رأسك وعلى رؤوس الجميع هو جوهر الردع النووي، ولكنّ هناك قدراً من الاطم نان قد نخرج به من هذه الأحداث. فقد أظهرت الأزمة الكوبية أن نتائج الحسابات الخاط ة في المواجهة النووية ضخمة إلى حد مخيف، لدرجة أن نظريات التحكم ليس لها إلا وزن قليل؛ عندما واجه الـ ادة السياسيون قرارات حـ ي ية في أي أزمة. إذ يصبح أول ك الـ ادة حذرين للغاية ومحافظين في أفعالهم؛ ويستطيع الناس معرفة الفرق ين المحاكاة والواقع.

ومن ناحية أخرى، تم أيضاً إثبات أنّ الاستخبارات ستكون دائماً غ ر كاملة، وأن الـ رارات التي ت دو عقلانية قد تكون في الواقع قاتلة. فلو أن الولايات المتحدة قررت الـ يام بغزو تقليدي لكوبا للتعامل مع الصواريخ قبل أن تصبح جاهزة (كما كانت تعتقد) فإن قواتها كانت ستواجه نتائج وخيمة على الشواط ؛ بسبب الصواريخ النووية التكتيكية التي سيطلقها الـ ادة السوف يت المحليون الذين تم تخويلهم مسبقاً للتصرف من دون الرجوع إلى موسكو. وعندها، ستستج ب الولايات المتحدة – كما اعترف ماكنمارا – بـ طلاق أسلحتها النووية، وستكون الحرب العالمية الثالثة قد دأت.

قدَّر الرئيس كين دي لاحـ اً أن احتمال انتهاء الأزمة الكوبية بحرب نووية كان بنسبة 1 من 3[266].

كان يجب أن تؤدي أزمة الصواريخ الكوبية إلى القضاء على فكرة الحرب النووية نهائياً في الدوائر الاستراتيجية الأمريكية؛ إذ لم يفكر أحد بجدية «بـ عطاء إشارة النهاية»، وذلك بتوجيه عدد قليل من الضربات النووية الانتقائية عندما كانوا منغمسين في أزمة حـ يـ ية؛ لدرجة أنه إذا صدّق الناس فعلاً مثل هذه الفكرة فسيكون الأسهل هو البدء بالحرب النووية؛ حيث إن الـ ادة الخائفين واليائسين يتمسكون وعود التحكم كما يتعلق الغريق قشة. وبا ضافة إلى ذلك، كانت تلك الأزمة مبرراً نشاء نظم استراتيجية أكثر تعقيداً وتطوراً، دفاعية وهجومية على حد سواء، والتي لا يمكن اختبار مصداقيتها وتفاعلاتها في حرب حـ يـ ية بشكلٍ كاملٍ مسبـ اً. إن قصة السنوات العشرين الـ ادمة من سياسة الحرب النووية الأمريكية تعتـ ر إلى حدٍ كـ ير قصة انشقاق كـ ير في أخوية مـ ثقفي وزارة الدفاع الأمريكية من المؤمنين الذين واصلوا - كمن بحث عن الكأس المـ دسة - محاولة استخدام أسلحة نووية في الحروب النووية المحدودة، وفي النهاية فقدوا ا يمان بذلك.

«كل ما نعرفه عن التفكـ ر العسكري السوفـ يتي يشـ ر إلى رفض تلك التعديلات في الفكر العسكري والتي أصبحت الآن شائعة في هذا البلد، والمتعلقة على سبيل المثال بالتمييز ـ ين الحرب المحدودة والحرب العامة والشاملة، وبين الاستهداف الاستراتيجي «الـ ا ل للتحكم بـه» وذاك «غـ ر الـ ا ل للتحكم بـه»، وبين العمليات

التكتيكية النووية وتلك غير النووية... العنف بين الخصوم الكبار بطبيعته تصعب السيطرة عليه، ولا يمكن التحكم به من جانب واحد... وحالما تبدأ الأعمال العدائية، فإن مستوى العنف في العصر الحديث يميل دائماً للارتفاع».

برنارد برودي 1963[267]

بعد خمسة عشر عاماً من الضياع في مستنقعات الحرب النووية المحدودة، عاد برنارد برودي بعد الأزمة الكوبية إلى استنتاجه الأصلي بأنّ الأسلحة النووية قد غيّرت كل شيء، وأنّ استخدامها العقلاني الوحيد هو ردع الحرب وليس خوضها. وبسبب هذا الارتداد، أصبح منبوذاً تقريباً في مؤسسة راند، حيث إن معظم المثقفين المدنيين الذين كانوا يهيمنون في ذلك الوقت على عقيدة الحرب النووية الأميركية رأوا في تخليه عن الجهود المبذولة لجعل الحرب النووية أداةً سياسية عقلانية خيانةً لرتبته؛ إذ كانوا ببساطة غير مستعدين للاعتراف بالدور الكبير الذي تلعبه العواطف عندما تكون قضايا الحياة والموت على المحك، أو بحقيقة أنّ الاختلافات الثقافية والأيديولوجية من شأنها أن تجعل نظراءهم السوفييت يصلون إلى استنتاجات مختلفة واعتبار أفكارهم عن الحرب النووية المحدودة – التي يشير فيها كل طرف إلى نواياه عبر اختيار فئة من الأهداف – بلا أي معنى.

كان النموذج شديد العقلانية لمؤسسة راند جزءاً من المشكلة، وقد تجسد بشكلٍ مذهل في هيرمان كان؛ مؤلف الكتاب الذي طمح أن يحل محل كتاب كلاوزفيتز (Clausewitz) «في الحرب» (On War)، والذي أسماه «في

الحرب النووية الحرارية». وقد قال كان: «أنا لا أفهم الأشخاص المتحيزين»، وزرع أسلوب تحليل ذا دم بارد تناول فيه وفاة الملايين، كما يفعل الآخرون عندما يتعاملون مع حسابات تخصّ بيض الدجاج مثلاً. وفي إحدى المناسبات، عندما تعرضت روديه للانتقادات أجاب: «هل تفضّل خطأ دافئاً ولطيفاً؟». واعترف آخرون ممن كانوا أكثر حساسية تجاه الأهوال التي يحللونها ويخططون لها أنهم مفتونون فكرياً بتعقيدات التخطيط للحرب النووية، ويشعرون بـ غراء الـ وة والمسؤولية المترافقة معها. لاحظ وليام كوفمان أنه وبمجرد أن تتسلل إلى أعماق الحفرة المظلمة للاستراتيجية النووية، فسيكون «من السهل عليك أن تصبح منشغلاً تماماً؛ أن تعيش وتأكل وتتنفس هذه الأشياء في كل ساعة من كل يوم». ولكنك عندما تخرج من هذا المجال وتراه من بعد، فسيبدو كل ذلك جنوناً وغ ر حـ ي ي[268].

أخ رني رنارد رودي قبل وفاته عام 1978 وقت قصير، أنه يعتقد أن طريقة التفك ر بالحرب النووية المحدودة عند الاستراتيج ين المدن ين كانت مهنيّة وخالية من النزاهة. إن نظرية الردع الأدنى وهي النظرية الوحيدة المناسبة للأسلحة النووية قد تم وضعها وأكملت تقريباً في غضون عام من قن لة هـ روشيما. كانت بسيطة وقوية ولا تتأثر بالتعديلات، ولكن الذين دخلوا في وقت لاحق إلى مجال الاستراتيجية النووية أرادوا إنشاء سمعتهم من خلال تحد يق بعض المساهمات الجد دة في هذه النظرية؛ مما أدى إلى الكث ر من «الترقيع شد د الحساسية» للافتراضات الأساسية. إنّ أفضل طريقة لدى المحللين الاستراتيج ين الطموحين للتقدم في حياتهم المهنية هي تحد د بعض «العـ وب» في نظرية الردع الـ ائمة، وتقديم بعض الحلول لها

والتي تشكل دعماً للمصالح الدوية للمؤسسة العسكرية و/أو الصناعة الدفاعية؛ لأنها تحتاج إلى أسلحة جديدة. كان من الفظاظة أن نشير إلى أنه قد قضى سنوات عديدة وهو يسير في هذا الطريق نفسه، بالإضافة إلى أنه كان يجلس هناك في غرفة معيشته التي تطل على خليج سانتا مونيكا في نهاية حياة مهنية رائعة، وكان من الواضح أنه يشعر بندم شديد حيالها.

في نهاية المطاف، كان رفض رودي للعقيدة الجديدة وعودته إلى بصيرته الأصلية قد وضعاه مع صحبة مميزة؛ روبرت ماكنمارا. فقد توقف هذا الأخير أيضاً في النهاية عن الاعتقاد بأنّ الحرب النووية يمكن السيطرة عليها. وبعيداً عن الدفاع عن خطة الحرب التي كان قد تركها في عام 196[illegible] والتي تعتبر كارثية له، قال عنها في وقت لاحق: «إذا لم تستخدم أيًّا من خطط (SIOP) للبدء في استخدام الأسلحة النووية، فعندها لن يكون ذلك أمراً غير لائق كما قد يبدو. ولكنك إذا كنت ترد على قوة تقليدية أو على أي تحرك من خلال التصعيد إلى الاستخدام الانتقائي للأسلحة النووية فعندها سيكون الأمر غير لائق تماماً؛ لأنه سيجلب لك الانتحار»[269].

وكذلك اعترف هنري كيسنجر، مستشار الأمن القومي للرئيس ريتشارد نيكسون الذي أمضى الفترة الواقعة بين عام 1968 وعام 1976 وهو يكافح من أجل تحقيق الهدف الذي كان ماكنمارا قد تخلى عنه، اعترف له في نهاية المطاف بأنه كان أيضاً غير قادر على جعل الاستراتيجية النووية للولايات المتحدة أكثر تناسباً مع الحقائق.

في عام 1957، وباعتباره أكاديمياً، كتب كيسنجر بأن المشكلة الأساسية في الاستراتيجية النووية كانت في «كيفية إقامة علاقة بين سياسة الردع واستراتيجية معينة لخوض الحرب في حال فشل الردع». ولكن، بحلول عام 1974، وبعد ست سنوات من الخبرة في تشكيل السياسة الخارجية الفعلية لدولة نووية، فقد هو أيضاً ثقته، ولذلك تساءل: «ما هو التفوق الاستراتيجي بحق الله؟ وما هي أهميته سياسياً وعسكرياً وعملياتياً عند هذه المستويات من الأعداد (للأسلحة النووية)؟ وماذا تفعل بها؟»[270].

لم يدخل المخططون النوويون في الاتحاد السوفييتي القديم في صراع مع حجج مشابهة، فقد تم استبعاد المدنيين نهائياً عن المسائل الاستراتيجية النووية في النظام السوفييتي، كما دفعت التقاليد العسكرية الروسية والأساليب الماركسية في التحليل بالعقيدة في اتجاهات مختلفة عن تلك التي سادت في الولايات المتحدة، وكانت القيود الحربية بمجرد بدء الحرب غير مفهومة تقريباً لهذا التقليد الفكري. على أية حال، حتى أوائل السبعينيات، كان الروس متخلفين بشكلٍ فظيع في القوات النووية، لدرجة أن استراتيجيتهم الوحيدة المتاحة كانت الانتقام الشامل، أو الضربة الأولى إذا رأوا الهجوم الأمريكي مقبلاً وكانت هناك فرصة لإجهاضه. وحتى بعد أن حدّد ماكنمارا القوات النووية الأمريكية بحوالي 2250 مركبة تعمل على إيصال الأسلحة النووية لأهدافها، وقيام الاتحاد السوفييتي باللحاق بذلك تدريجياً ومن ثم تجاوزه هذا الرقم إلى حد ما، فمن المرجح جداً ألا يكون الاستراتيجيون السوفييت قد راودتهم فكرة الحرب النووية المحدودة أو المسيطر عليها إطلاقاً.

كان الارتباط العاطفي للاتحاد السوفيتي بقوة النيران النووية الضخمة عائقاً مستمراً في سلسلة مفاوضات الحد من التسلح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي التي بدأت في وقت لاحق من الستينيات؛ على الرغم من أنه لم تكن هناك عقبة أكبر من المحاولات الناجحة للولايات المتحدة في إبعاد المفاوضات عن الابتكارات التكنولوجية التي كانت تعول عليها في وقتها لاستعادة عناصر تفوقها الاستراتيجي: المركبات المتعددة المستهدفة بشكلٍ مستقل والتي ستعود للدخول إلى الغلاف الجوي (MIRV)[271] من معاهدة (SALT I)، وصواريخ (MX) وكروز من معاهدة (SALT II)، وحرب النجوم من محادثات (START.)[272]h.

كان العنصر الأكثر تعقيداً في مسعى الحصول على أسلحة جديدة لدى الطرفين هو الخوف من التخلف الناتج عن التطور التكنولوجي. فحتى عندما بدأ أول جيل كامل من الصواريخ الباليستية الأمريكية العابرة للقارات (صواريخ مينوتمن 1) دخول صوامعها في عام 1963، كانت الخطوة التالية في لعبة القفز التكنولوجي قد انطلقت. كانت معاهدة حظر التجارب النووية المحدودة في ذلك العام قد فرضت إلغاء اختبار سلاح الجو الأمريكي لمدى نجاح تلك الصوامع المحصنة في حماية صواريخها من هجوم نووي – خطّط سلاح الجو لبناء صومعة كنموذج في الاسكا وتفجير سلاح نووي فوقها – وبالتالي، إن مسألة تعرض الصواريخ للخطر بدت متجهة للبقاء بشكلٍ دائم في دائرة الشك. كان الخط الرسمي في وزارة الدفاع يرى أنّ ذلك لا يهم؛ لأنه لم تكن هناك أي ميزة استراتيجية يمكن الحصول عليها باستخدام صاروخ سوفيتي واحد لتدمير صاروخ أمريكي واحد.

ومع ذلك، كانت لدى أحد الفيزيائيين في راند وهو ريتشارد لاتر (Richard Latter) فكرة مث رة لـ لق: ماذا لو أنشئ صاروخ واحد يحمل عدداً من الرؤوس الحربية التي يكون كل منها قادراً على ضرب هدف مختلف؟

أ لغ ريتشارد مد ر أبحاث الدفاع والهندسة في وزارة الدفاع الأمريكية هارولد راون (Harold Brown) – الذي عيّن لاحقاً وز راً للدفاع في إدارة كارتر – بفكرته، فوافق على تخصيص المال للبحث في الأمر. لكنّ التهد د السوفيتي المحتمل في المستقبل سرعان ما تحول إلى تهد د أمريكي د ي في الوقت الحاضر؛ حيث تم دمج تكنولوجيا التوجيه الجد دة و«حافلة الفضاء» – التي وضعتها ا دارة الوطنية للملاحة الجوية والفضاء (ناسا) طلاق عدة أقمار صناعية من صاروخ واحد – لتوف ر نظام عملي لحمل رؤوس نووية متعددة لأهداف منفصلة. وفي عام 1965، وافقت وزارة الدفاع على رنامج لتجهيز صواريخ (ICBM) الأمريكية بمركبات(MIRV).

اعترف وز ر الدفاع ماكنمارا في مذكرات سرية أن هذا رقى إلى نظام قوة مضادة (مصمم لمطاردة صواريخ العدو)، ولكنه كان أيضاً يستخدم (MIRVs) كسلاح في معاركه البيروقراطية والد لوماسية. بعد تقييد سلاح الجو بحوالي ألف صاروخ مينوتمن أصبح الآن قادراً على تقديم تنازل يضاعف عدد الرؤوس الحربية النووية التي يمكن أن تحملها وتوصلها هذه الصواريخ. وفي الوقت نفسه، أصبح بإمكانه تشتيت الضغوط المتزا دة لسلاح الجو للحصول على دفاعات مضادة للصواريخ الباليستية (ABM)[273] لحماية د ولة الصاروخية من خلال إشارته إلى أنّ تكنولوجيا (MIRV) يمكنها

أن ترفد بثمن بخس أي نظام دفاع من نوع (ABM).
وبا ضافة إلى كل ذلك، رأى في (MIRV) رافعة د لوماسية يمكن من خلالها إقناع السوفيت بعدم المضي قدماً في المسار المكلف وغ ر المجدي في نهاية المطاف لنشر أنظمة (ABM):

«كنا نظن أننا نستطيع أن نع ر الأزمة من دون نشر... وأن الروس سيثوبون إلى رشدهم ويوقفون نشر أنظمة (ABM)؛ وفي هذه الحالة لم نكن لننشر أنظمة MIRV)»[274]

ولكنْ كالعادة، أصبحت ورقة المساومة في نهاية المطاف واقعاً تكنولوجياً. وعندما قام الاتحاد السوفيتي أخ راً باللحاق بالولايات المتحدة ونصب أنظمة (MIRV)، استخدمت مؤسسة الدفاع الأمريكية هذا الأمر كمبرر لتحديق التقدم الك ير التالي في تكنولوجيا الصواريخ.

«لد كنت لفترة طويلة أدعو للحصول على كل الدقة التي يمكن الحصول عليها في الصواريخ الباليستية... إذا كانت الأدلة قاطعة على أنك على وشك أن تكون تحت التهد د فإنّ مزايا الاستباق في ظل هذه الظروف ك يرة جداً... لا أعتقد أنه ستقوم حرب نهاية العالم، ولكن لأضُع الأمر علي هذا النحو: لا وجد أي سلاح تم اختراعه أو إكماله إلا واستخدم».

الجنرال بروس هولواي (Gen. Bruce Holloway) القائد العام للقيادة الجوية الاستراتيجية (SAC 1968-1972)i0li[275]

عندما قدّم الجنرال هولواي إلى إدارة نيكسون في عام

19 طلباً باسم القيادة الجوية الاستراتيجية للحصول على صواريخ بالستية (ICBM) كبيرة ودقيقة جداً (الصاروخ الذي عُرف في وقت لاحق باسم MX) كانت عقيدة الحرب النووية المحدودة «التي لم تمت بعد» تكافح من أجل البقاء، وكان مستشار الأمن القومي هنري كيسنجر يقوم برعاية دراسة تدعو إلى قدرة نووية أمريكية «نهاء الحرب وقت مبكر، وتحييد المدن، وتأمين قدرات استجابة انتقائية قد توفر طرائق للحد من الضرر إذا فشل الردع». وفي أوائل عام 1970، خاطب الرئيس نيكسون الكونغرس: «هل يجب في حال وقوع هجوم نووي أن يُترك الرئيس مع خيار واحد يقضي بالدمار الشامل للمدنيين من الأعداء؛ في مواجهة اليقين بأن ذلك ستتبعه مجزرة جماعية للأمريكيين؟». وهكذا، كان «التدمير المؤكد المتبادل» الذي كان يعتبر سابقاً الاستراتيجية الحديثة للولايات المتحدة قد سقط ميتاً[276].

اعتُبر التفكير كثيراً في موضوع استراتيجية الولايات المتحدة النووية والذي استمر خلال العقد التالي مزعجاً جداً بالنسبة لمشاعر الجمهور الأمريكي الرقيقة. واستمر الحديث عن «التدمير المؤكد المتبادل» كدليل على حرص الحكومة الأمريكية على استراتيجية نووية انتقامية بحتة.

ولكنّ لجنة فوستر التي شكلتها وزارة الدفاع لمراجعة استراتيجية الولايات المتحدة النووية في أوائل عام 1972 أوصت «بمجموعة واسعة من الخيارات النووية التي يمكن استخدامها للسيطرة على التصعيد»، وتوصلت إلى حرب نووية محدودة تحقق فيها الولايات المتحدة أهدافها السياسية، وتتجنب فيها تدمير مدنها؛ وذلك من خلال

اعتماد استراتيجية من شأنها أولاً الاحتفاظ ببعض أهداف العدو الحيوية رهينة لتدميرها في ما بعد من قبل القوات النووية التي بقيت، وثانياً السماح بالتحكم بتوقيت تنفيذ الهجوم ووتيرته؛ من أجل السماح للعدو بإعادة النظر في خياراته». وقد جمعت توصياتها في مذكرة قرار الأمن القومي رقم 242 التي وقّعها الرئيس نيكسون في كانون الثاني عام 1974 بعد أن كشف وزير الدفاع جيمس شليزنجر (James Schlesinger) علناً أنه قام بتغيير استراتيجية الاستهداف لإعطاء الولايات المتحدة بدائل «للشروع في ضربات انتحارية ضد مدن الجانب الآخر».

اعتبرت نتائج مراجعة الخطة الأمريكية النووية الرئيسة (SIOP-5) المناطق السكنية السوفييتية خارج القائمة المستهدفة، حتى إنها غيّرت بعض النقاط المستهدفة بطرائق خفّضت من فعالية الضربات النووية ضد الأهداف العسكرية السوفييتية؛ بغرض الحد من الأضرار التي قد تلحق بالمناطق المأهولة بالسكان. وفي الوقت نفسه، قدمت الخطة بنوداً مفصّلة لمهاجمة كل عناصر القيادة السوفييتية - الحزب والجيش والتكنوقراط - وذلك لضمان أن «تعرف هذه الفئات الثلاث فردياً وشخصياً وتنظيمياً وثقافياً أن لا فرصة لها في النجاة»؛ كما أوضح ذلك الجنرال جاسبر ولش (Jasper Welch) من لجنة فوستر. وأخيراً، قدمت خطة (SIOP-5) ضماناً كبيراً بأنه عند أي مستوى من التبادل النووي يجب ألا يظهر الاتحاد السوفييتي على أنه الاقتصاد الأكثر قوة في عالم ما بعد الحرب.

«إذا أردنا استمرار الاتصالات مع القادة السوفييت خلال الحرب، وإذا أردنا أن نصف بدقة التفاصيل المحدودة لأعمالنا؛

بما في ذلك الرغبة في تجنب مهاجمة قواعدهم الصناعية المدنية... فسيكون ال ادة السياسيون من كلا الجان ين تحت ضغوط قوية للاستمرار في العقلانية... هذه هي الظروف التي أعتقد أن ال ادة سيكونون بموجبها منط يين وحكماء. أرجو ألا أكون متفائلاً بشكل زائد».

وزير الدفاع جيمس شليزنجر إلى الكونغرس، آذار 1974[277]

كان جيمس شليزنجر مناسباً بشكلٍ ج د من حيث الفكر والطبع لتنفيذ مثل هذه السياسة. وقد اعترف أنه لم يشارك سلفه روبرت ماكنمارا في «الاشم زاز العميق»؛ حتى في الاستخدام الانتقائي للأسلحة النووية الذي يمكنه أنْ يكون فعالاً للغاية في التأث ر على السلوك السوفيتي عند حدوث أزمة. وقد كان يعتقد بثقة (أو قيل عنه ذلك) أنّ التبادل النووي التابع يمكن السيطرة عليه، كما كان الأكثر إقناعاً وتطوراً من ين جميع وزراء الدفاع الذين جاهدوا للحفاظ على ال وات النووية الأمريكية ال ا لة للاستخدام لأغراض تتعدى ردع هجوم نووي مباشر على الولايات المتحدة.

لم يضع شليزنجر أي رصيد في الرغبات الساذجة باستراتيجية مضادة كاملة تهدف إلى نزع سلاح السوفيت (كان يعلم أنّ الغواصات السوفيتية التي تطلق الصواريخ ستنجو) حيث قال: «كنت مهتماً بالانتقائية أكثر من ال وة المعاكسة بحد ذاتها. إنّ استهداف صوامع صواريخ محددة قد يكون وسيلة يصال رسالة»[278]. كان عضواً رفيعاً في مدرسة المفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين الذين يعتقدون أنّ ال ادة الوطنيين يمكنهم أن ب وا

«عقلانيين وحكماء»؛ حتى بعد انفجار الرؤوس الحربية النووية على أراضيهم، وأنّه من المعقول من الناحية الاستراتيجية المساومة عن طريق إخراج بعض المنشآت العسكرية أو الصناعية السوفييتية من الخدمة كدليل على عزم الولايات المتحدة على الانتصار في أي أزمة.

أو ربما لم يكن شليزنجر يعتقد ذلك حداً، ولكنه فقط كان يريد أن يظن السوفييت أنه يعتقد ذلك. إن أسلوب راند في التفكير بالاستراتيجية النووية ضم من المراحل الأولى عناصر كثيرة من علم النفس. (انظر إلى صيغة توماس شيلينغ التقليدية في كيفية حدوث الهجمات «الوقائية»: «إنه يظن أننا نعتقد أنه سيهاجم، ونتيجة لذلك يظن أننا سنهاجم، ولذلك سيهاجم هو أيضاً، لذا علينا أن نهاجم»)[279] كان شليزنجر يدرك جداً الدور الذي تلعبه الإعلانات المسبقة عن النوايا الاستراتيجية من قبل أي من الجانبين في التأثير على حسابات صناع القرار في حال حدوث أزمة فعلية.

وقد أشار مرةً إلى أنه «يجب على الروس أحياناً قراءة ما في الصحافة، وذلك لأن الهجوم المعاكس قد لا يقع على الصوامع التي تكون فارغة. لماذا نعطي السوفييت مثل هذا الضمان؟»[280] تنطبق الحسابات نفسها بالطبع على أي إعلان آخر عن نوايا الولايات المتحدة الاستراتيجية؛ مثل مزاعم شليزنجر في الاستعداد للرد على بعض المبادرات العسكرية السوفييتية المحلية بضربات نووية انتقائية أمريكية، فالمصداقية ليست بالضرورة الحقيقة نفسها.

مع ذلك، إن الحاجة إلى المصداقية دفعت شليزنجر للموافقة على طلبات القوات المسلحة الأمريكية لأسلحة نووية

جد دة - قاذفات سلاح الجو (B–1)، وصواريخ (MX)، وصواريخ كروز، وبرنامج الدقة المحسنة للصواريخ البحرية التي أدت لاختراع صواريخ ترا دنت II - وقد أظهر هذا كله زيادة في الـ درة على ضرب أهداف الـ وة المعاكسة السوف يـتية. كان كل ذلك مرتبطاً بأهمية التصورات؛ كتقد ر شليزنجر لما قد راه الاستراتيج ون السوف يت دليلاً مقنعاً على العزم الاستراتيجي الأمريكي. ولذلك، عندما أصبح واضحاً أن الاتحاد السوف يتي سيحذو حذو الولايات المتحدة من خلال صنع عربات (MIRV) للصواريخ السوف يتية التي كانت أك ر من الصواريخ الأمريكية ويمكنها أن تحمل رؤوساً حربية أكثر وأك ر، شعر شليزنجر أنه مضطر للموافقة على صواريخ أمريكية أك ر لتضاهي الصواريخ الروسية؛ وهي صواريخ (MX)، وقال: «أمرت بأن يصمم صاروخ (MX) في صيف عام 1973 كوسيلة لكي نظهر للسوف يت أننا نقصد إنهاء التفاوت في الأحمال ين صواريخهم وصواريخنا. كان هدفي هو إقناع السوف يت بتخفيض أحمال صواريخهم، وكان هذا الصاروخ هو ورقة المساومة»[281].

كان ظهور الصواريخ المحمولة على عربات (MIRV) السوف يتية، والتي تحمل رؤوساً حربية أكثر من الصواريخ البرية الأمريكية الحالية يُعت ر تطوراً خطيراً بالنسبة لأولـ ك الذين يعتقدون بجدوى الضربة الأولى التي تؤدي إلى نزع السلاح؛ حيث دفعت «حمولة الرمي» الك يرة، والدقة المتزا دة للصواريخ السوف يتية أولـ ك الاستراتيج ين الأمريك ين لتخ ل ضربة مضادة سوف يتية أولى من شأنها أنْ تدمر ما يـ ارب كل الصواريخ البرية الأمريكية في هجوم مفاجئ، وبالتالي تج ر الولايات المتحدة على الاختيار ين الاستسلام الاستراتيجي أو الانخراط في حرب تبادل

تدمير المدن بما تبقى لها من الصواريخ الأقل دقة.

أدت هذه الفرضية إلى توقّع نافذة الخطر سيئة السمعة التي ابتليت بها إدارة كارتر لاحقاً؛ حيث افترضت إيماناً سوفيتياً إيجابياً في العقلانية الأمريكية؛ لأنّ مثل هذا النوع من الضربة السوفيتية الأولى سيقتل عشرة ملايين أمريكي على الأقل، وستحتفظ الولايات المتحدة بالقدرة على الرد بضرب المدن السوفيتية بالصواريخ التي تطلق من الغواصات والقاذفات المتبقية، ولكنّ هذه النظرية كانت مفضلة بشكل أكبر لدى أولئك الذين أيدوا صاروخ (MX) الأكبر والأكثر دقة كوسيلة لاكتساب قدرة أمريكية مكافئة.

أثارت في بداية إدارة كارتر في عام 1977 فكرة التخلي عن الصرح الهائل لتكنولوجيا الحرب النووية، والانسحاب لاستراتيجية «الردع الأدنى» مرة أخرى

إطلاق صاروخ ترايدنت - 1 من الغواصة المغمورة USS Ohio، عام 1982.

وعلى أعلى مستوى. وذُهش الرئيس جيمي كارتر - الذي كان من طواقم الغواصات السابقين، والذي لم يكن لديه أي اتصال مباشر مع التفكير المعتاد لدى الجيش الأمريكي في ما يخص الحرب النووية على مدى عقدين - عندما عرضت عليه خطة الحرب الأمريكية في اجتماع ما قبل تنصيبه رئيساً، وحين علم أنّ خطط (SIOP) قد أدرجت أربعين ألف هدف محتمل في الاتحاد السوفيتي، ولكنّ صدمة رؤساء الأركان الأمريكيين كانت أكبر عندما رد كارتر واقترح أن مجرد مئتي صاروخ موجودة بالكامل في الغواصات ستكون كافية لردع أي هجوم سوفيتي على الولايات

المتحدة[282]. غير أنه لم يكن من الضروري هذه المرة بالنسبة للمدافعين عن العقيدة الاستراتيجية الأمريكية اللجوء إلى تدابير طارئة كما حصل عندما قام وليام كوفمان بإغواء روبرت ماكنمارا بنظريات الحرب النووية المحدودة في عام 1961؛ فقد سحب كارتر نفسه بسرعة إلى الحفرة المظلمة العميقة، وخانه إعجابه التكنوقراطي بسحر الهندسة والنظريات التي دعمت الاستراتيجية النووية الأمريكية، ومع نهاية ولايته أصبحت كل التطورات الضمنية في نظريات الحرب النووية المحدودة العائدة لأوائل الستينيات عقيدة واضحة.

ضُمِّن هذا المبدأ في قرار كارتر الرئاسي رقم 59 في تموز/ يوليو عام 1980، وفي المراجعة المرفقة لخطة الاستهداف (SIOP–5D). وقد أوضح أحد واضعي تلك المراجعة الجنرال جاسبر ولش أن الهدف «هو جعل الأمر واضحاً تماماً؛ لأنّ الأسلحة النووية لها مكانها الصحيح في الصراع العالمي، وليست مجرد أداة في لعبة «ضربة بضربة»». وهكذا، كان على خطط (SIOP) توفير قائمة واسعة من «الخيارات النووية» الانتقائية والمحدودة التي تسمح باستخدام الأسلحة النووية في نطاق لا حدود له من الحالات العسكرية الطارئة:

«قد يجري القتال في منتصف الطريق بين كييف وموسكو على حد علمي، وربما يجري على طول الحدود السيبيرية – وهو المكان المرجح إلى حد ما لحدوث ذلك – مع الأمريكيين والصينيين والروس. ولكن، بالنسبة للتخطيط والبناء لهذا الشيء، فهذا الأمر لا يهم»[283].

زعم زبيغنيو بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)

مستشار الأمن الـ ومي للرئيس كارتر أنّ معنى السياسة الاستراتيجية الجد دة هو أنه «ولأول مرة تسعى الولايات المتحدة عمداً ومن تلـ اء نفسها للحصول على الـ درة على إدارة صراع نووي مد د»، وقد كان له شخصياً الفضل بـ دخال تطوير جد د على خطط (SIOP)، والذي أعطى الولايات المتحدة الخيار في قتل الروس الأصليين - العدو الحـ يـ ي - والحفاظ على الـ وميات السوفـ يـتية الأخرى (كان ريجنسكي من أصل ولندي). ولكنّ وز ر الدفاع هارولد راون (Harold Brown) أصر على أنّ تغ يرات إدارة كارتر كانت بـ شكل أساسي توضيحاً وترت باً للعقيدة الأمريكية الحالية الاستراتيجية: «إنّ الخطة (PD-59)[284] ليست خروجاً جذرياً عن سياسة الولايات المتحدة الاستراتيجية على مدى العقد الماضي أو نحو ذلك».

وقد خالفه في ذلك سلفه وز ر الدفاع السا ق جيمس شليزنجر، وادعى أن (PD-59) تمثّل تحولاً في التركيز «من الانتقائية المحـ قـة للنصر بطريقة كانت لا تزال بالكاد معقولة على الورق، ولكن في تخميني غ ر معقولة في العالم الحـ يـ ي»، وبعد خروجه من وزارة الدفاع الأمريكية اعترف راون تقريباً باتهام شليزنجر، موضحاً أن ا دارة الأمريكية كانت منقسمة ين أولـ ك الذين يعتقدون أنه من الممكن كسب حرب نووية طويلة الأمد، وأولـ ك الذين لا يعتقدون ذلك. وقد دار نقاش حول ما هو ضروري لردع الاتحاد السوفـ يـتي على نحو فعال، وكان الكث رون من الناس يجادلون بـ أنّ السوفـ يـت عليهم أن يعتقدوا أنهم إذا دأوا بالحرب فسوف تربحها الولايات المتحدة. وقد قال راون: «لـ د دأنا السير في هذا الطريق ووصلنا إلى هذا المستنقع، وكانت (PD-59) هي النتيجة»[285].

بحدود داية الثمانينيات، أصبحت عقيدة الولايات المتحدة في خوض حرب نووية على شكل بنية معقدة؛ مثل تعقيدات الباروك[286] (baroque) وا حالة الذاتية[287] البعدة عن العالم الد ي ي. كانت تقريباً منفصلة عن الواقع؛ كأفراد أطم الصواريخ الذين يجلسون لساعات طويلة تحت الأرض في مخا الد يادة المصنوعة من ا سمنت المسلح.

«سؤال: كيف سيكون شعورك في حال توجب عليك المضي في ذلك فعلياً؟

جواب: حسناً، نحن مدرَّون على مستوىً رفيع من خلال التدريب المتكرر. إذ نقوم كل شهر بعمليات محاكاة لمثل هذه الاحتمالات؛ مما يعني أنه إذا توجب علينا فعلاً إطلاق الصواريخ فسيكون الأمر شبه آلي بالنسبة إلينا.

سؤال: ألن تفكر في ذلك وقته؟

جواب: لن يكون هناك وقت للتفك ر إلا بعد إدارة المفاتيح...

سؤال: هل سيكون هناك تفك ر في ذلك الحين؟ما رأيك؟

جواب: نعم، أعتقد ذلك».

محادثة مع قائد طاقم صواريخ مينوتمن الباليستية (ICBM)، قاعدة وايتمان الجوية، 1982

اعتاد طيارو الـ اذفات على رؤية المدن تحترق تحتهم (ولكن ليس الناس)، ولكن قائد كبسولة إطلاق مينوتمن

يكون بعداً عن أهداف صواريخه بحدود ستة آلاف ميل. يعلم الكابتن اللطيف في سلاح الجو الذي لن يكون لديه الوقت للتفكر إلا بعد أن د ر المفتاح الذي سيرسل 50 من الصواريخ ذات الرؤوس النووية نحو الاتحاد السوفيتي عواقبَ ذلك فكرياً وثقافياً؛ ولكن تلك العواقب بعدة ونظريّة، حيث إن الخيال فشل في جعلها حـ يـ ية. كان السبب الرئيس الذي دفعه للتطوع للخدمة في سلاح الصواريخ – على غرار العد د من زملائه – هو المراقبة المستمرة والهادئة في الـ مرة لمدة أربع وعشرين ساعة، والتي أعطته متسعاً من الوقت للحصول على درجة الماجستر في إدارة الأعمال عن طريق المراسلة.

ارتدى بذلة رسمية أنقة، ووضع وشاحاً لون العن ر عليه صواعق، وهناك لصاقة على جبه كتب عليها «طاقم معارك»، ولكنه لم يكن يشبه الصورة التقليدية للمحارب. ويشبه عمله عمل المهندس المناوب في محطة للطاقة الكهرمائية، حتى إن إطلاق الصواريخ يتطلب مبادرة ونشاطاً أقل مما بذله المهندس المناوب عندما ترتفع درجة حرارة العنفات: «لـ د تعلمنا أن ن دي ردة فعل، ونحن لسنا جزءاً من عملية صنع الـ رار، لـ نحن بساطة نستجب للأوامر التي نتلـ اها عـ ر الرسائل التي تأتي إلينا، ومن ثم نفكر بعد أن نكون قد اتخذنا إجراءاتنا».

كان عشرات الآلاف من الشبان المتميزين مثله يضعون أصابعهم على الزناد النووي أثناء الحرب الباردة، ولا بدو أن أحداً منهم كان عسكرياً بالمـ ارنة مع رجل متوسط من المشاة. ولكنْ على كل حال، الحرب النووية ليست في الد يقة صناعة عسكرية بأي معنى متعارف عليه. راكمت

الـ وى النووية الخمس بحلول أوائل الثمانينيات ما مجموعه أكثر من 2500 من الصواريخ الباليستية البرية، با ضافة إلى أكثر من ألف صاروخ باليستي من تلك التي تطلق من الغواصات والآلاف من الطائرات الـ ادرة على حمل قنا ل نووية، با ضافة إلى صواريخ كروز الأرضية والبحرية والجوية، ومجموعة كاملة من الأسلحة النووية في أرض المعركة، والتي تراوحت ابتداءً من متفجرات نووية زنة 58 باونداً يحملها المغاوير وراء خطوط العدو. باستطاعة الصواريخ الك يرة أن تحمل العد د من الرؤوس المنفصلة، وكان

وقت للتفكير!! ضابط في القوى الجوية الأمريكية (طاقم المعارك) في محاكي الإطلاق الخاص بحقل صواريخ مينوتمن III.

مجموع الرؤوس النووية في العالم أكثر من خمسين ألفاً، وخلال فترة ولاية الرئيس رونالد ريغان الأولى بين عامَي 1981–1984، كانت الولايات المتحدة وحدها تبني ثمانية رؤوس حربية نووية جديدة في اليوم (على الرغم من أنّ العديد منها كان يُعاد تدويره من رؤوس حربية قديمة).

تظاهرت إدارة ريغان بأنها أكثر تطرفاً في رغبتها في مواجهة الاتحاد السوفييتي، ولكنها في ما يخص المسائل النووية قامت فقط بالتقاط العصا التي مُررت إليها من قبل كارتر. تحدث المستشار الحربي لوزير الدفاع كاسبار واينبرغر (Caspar Weinberger) في عام 1982 بصراحة عن الحاجة إلى قوات أمريكية نووية يمكن أن «تسود وتكون قادرة على إجبار الاتحاد السوفييتي على إنهاء الأعمال العدائية في وقت مبكر، وبشروط مفضّلة للولايات المتحدة... حتى في ظل الحرب الطويلة». مع ذلك، وُضع المزيد من الضغوط على مهاجمة القيادة السوفييتية من قبل خطط (SIOP–6) المعدلة. وقد تحدث العضو القديم في راند أندرو مارشال (Andrew Marshall) الذي ترأس إعادة النظر في خطة الحرب عن حروب نووية ممتدة قد تشن فيها الأطراف المتحاربة ضربات نووية على بعضها بعضاً خلال فترات تصل إلى ستة أشهر[288].

لكنّ تطرف إدارة ريغان تم تجاوزه بسهولة، وكانت هذه مجرد تحسينات للسياسة الاستراتيجية الأساسية التي كانت قائمة بالفعل. وكما كان دعم إدارة ريغان القوي لحرب العصابات التي شنها المتمردون الأفغان والمتطوعون الإسلاميون العرب ضد الحكومة المدعومة من الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، جاء قرار التدخل في الحرب

ين العراق وإيران لإنقاذ نظام صدام حسين من الهزيمة؛ حتى لو كان العراق هو الذي قام بغزو إيران مدفوعاً بالعداء الأمريكي الحاد للثورة الإسلامية في إيران والذي يعود أيضاً إلى إدارة كارتر.

كانت الحملة العنيفة المعادية للشيوعية في منطقة البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى - أي دعم ثوار «الكونترا» في شن حرب إرهابية ضد حكومة نيكاراغوا، والدعم غير المحدود للأنظمة اليمينية التي كانت تقاتل الثوار اليساريين في السلفادور وغواتيمالا، وغزو غرينادا المثير للسخرية - بساطة مجرد صدىً خافت لهاجس إدارة كينيدي بطاحة كاسترو في أوائل الستينيات، وكان التحول الجديد والوحيد الجدي لإدارة ريغان هو مبادرة الدفاع الاستراتيجي «حرب النجوم»؛ والتي كانت جديدة فقط من ناحية التكنولوجيا وليس من ناحية الغرض الأساسي منها.

لم يكن الهدف الحقيقي «لحرب النجوم» تزويد الولايات المتحدة بدفاع منيع ضد هجوم نووي، حيث إن تعريف برنارد برودي للمشكلة عام 1946 كان لا يزال صحيحاً: كل نظام للدفاع في الجو (والفضاء) يعمل على مبدأ الاستنزاف، وذلك يعني أن جزءاً من الأسلحة الهجومية سيتمكن من الوصول إلى هدفه؛ وإذا كانت الأسلحة نووية فيكفي أنْ يصل جزء بسيط منها؛ لا تستطيع الدفاعات الفضائية الأمريكية أنْ تأمل بالتعامل مع الآلاف من الرؤوس القادمة وما رافقها من وسائل الاختراق التي ستشارك في الضربة الأولى السوفيتية ضد الولايات المتحدة، وكان مناصرو مبادرة الدفاع الاستراتيجي الأمريكي (SDI)[289] الأكثر واقعية يدركون جداً هذه الحقيقة، لكنّ الدفاعات

الفضائية قد تكون في النهاية جدة بما فيه الكفاية للتعامل مع ضربة انتقامية بعد أنْ يكون الاتحاد السوفييتي قد دُمِّر بضربة نووية أولى أمريكية ناجحة. وكما عبّر عنها مجلس علوم الدفاع في عام 1981، «الأسلحة الهجومية والدفاعية تعمل دائماً معاً»[290]، والهدف كالعادة هو جعل استراتيجية الحرب الأمريكية النووية أكثر مصداقية وزيادة منفعتها السياسية.

لكي نكون منصفين بحق الرئيس ريغان، لم يكن قط بدو مدركاً لحقيقة أنّ الأشخاص الذين باعوه مفهوم حرب النجوم لعبوا على نفوره الحقيقي من الأسلحة النووية وتوقه لخلاص سحري من خطر الحرب النووية. ولكنّ الأشخاص الذين كانوا بالفعل على هذا المسار قد دقوا ناقوس الخطر. قال ريتشارد نيكسون في عام 1984: «إنّ مثل هذه الأنظمة يكون مزعزعاً للاستقرار إذا قام بتأمين درع لكي يسمح لك باستخدام السيف»، وقد وصف وليم كوفمان مبادرة الدفاع الاستراتيجي كآخر مظاهر البحث عن «الأركاديا[291] النووية» المفقودة للتفوق النووي الأمريكي[292]، وبما أنّ الولايات المتحدة كانت تسعى أيضاً إلى إدخال صواريخ بيرشينج متوسطة المدى إلى أوروبا الغربية في هذا الوقت من أجل خفض زمن التحذير السوفييتي عند حدوث هجوم مفاجئ، فإنّ قلق القيادة الروسية كان مفهوماً.

«في الظاهر، قد يجد ليمان ذلك جذاباً عندما يتحدث الرئيس عما يبدو أنه تدابير دفاعية... وفي الحقيقة، سوف تستمر القوات الهجومية الاستراتيجية للولايات المتحدة بالتطوير والتحديث بكامل طاقتها بهدف الحصول على قدرة شن أول ضربة نووية... وفي هذا محاولةٌ لنزع سلاح

الاتحاد السوفييتي...».

الزعيم السوفييتي يوري أندروبوف

Yuri Andropov 1983[293]

لم تكن خطابات ريغان البريئة عن «إمبراطورية الشر» هي التي أقلقت السوفييت، وإنما سياسات المواجهة بالأسلحة النووية التي اتبعها وزير دفاع ريغان المتشدد كاسبار واينبرغر (Caspar Weinberg) والمحاربون الباردون من حوله. وكان الخطر يكمن في أن هذه المواجهة قد تجهض التطورات الواعدة في الاتحاد السوفييتي، والتي بدأت كسباق من أجل الإصلاح بعد وفاة الديكتاتور الحاكم لفترة طويلة ليونيد بريجنيف في عام 1982.

لم يشهد الاتحاد السوفييتي تقريباً أي نمو اقتصادي حقيقي (على الرغم من ملايين الأطنان من الخرسانة التي تم صبها) منذ أواخر الستينيات، حيث أثبت النظام السياسي والاقتصادي الشيوعي أنه عاجز عن تحقيق المزيد من النمو منذ انتهاء تدفق العمالة شبه المجانية من الريف، وكان سينهار تحت وطأة استمرار المواجهة الاستراتيجية العالمية مع الولايات المتحدة في بعض فترات الثمانينيات أو في التسعينيات؛ بغض النظر عما فعلته الإدارات المختلفة في واشنطن. كان الانخفاض الحاد في أسعار النفط بعد عام 1981 هو الذي فعّل جهود الإصلاح السوفييتية، حيث انهار فجأة المصدر الرئيس للعملة الأجنبية للنظام، ومن قبيل الصدفة توفي بريجنيف، ووصل الزعيم الإصلاحي يوري أندروبوف إلى السلطة في موسكو في محاولة لتجنب انهيار اقتصادي وشيك، لكنه مات بشكلٍ

غ ر متوقع في عام 1983.

وبعد عودة قصيرة إلى النظام الـ ديم بزعامة قسطنطين تش رنينكو – الذي توفي أيضاً بعد أشهر فقط من توليه منصبه – جاء إصلاحي آخر هو ميخائيل غورباتشوف إلى السلطة في عام 1985، وكانت إصلاحاته في البداية اقتصادية فحسب، ولكنّ غورباتشوف أدرك أنّ الركود له بعدٌ سياسي أيضاً، وبدأ بالانفتاح السياسي الذي أدى في النهاية بعاد الش وع ين عن السلطة. إنّ كلام ريغان عن «إمبراطورية الشر» وميزانيات دفاعه تقريباً لا علاقة له بذلك، ولكن من الصعب أن نتصور أن عملية ا صلاح التي أدت في النهاية إلى تحرير أوروبا الشرقية وتفكيك الاتحاد السوف يتي قد نجحت، أو أنّ غورباتشوف قد ينجو لولا أنّ العداء الشد د في إدارة ريغان كان قد هدأ، ولحسن الحظ حدث ذلك.

في تشرين الثاني عام 1986، أي بعد سنة ونيف فقط من وصول غورباتشوف إلى السلطة، اندلعت فضيحة إ ران – كونترا، حيث تم الكشف عن أنّ أعضاء من ا دارة قد نظموا سراً عملية يع الأسلحة إلى إ ران (على الرغم من أنّ الولايات المتحدة كانت تساند فعلياً عراق صدام حسين في حربه مع إ ران)، من أجل جمع الأموال لصالح «كونترا نيكاراغوا» في تحدٍ لحظر مجلس الش وخ على دعم الولايات المتحدة لهم. ولكنّ كاب واين رغر (Cap Weinberger) ورفاقه المتشددين طُردوا من الخدمة (أدين أحد عشر عضواً صغ راً في ا دارة في نهاية المطاف واتهموا بتهم جنائية)، وانخفضت شع ية ريغان من 65 بالم ة إلى 46 بالم ة خلال شهر؛ وهو أك ر انخفاض حدث على ا طلاق مع أي رئيس، كما نجح في إقناع الجميع بأنه لا يستطيع أن

يتذكر إنْ كان على معرفة بصفقة إيران - كونترا، لكنه كان بحاجة ماسة إلى تغيير الموضوع، وكانت إحدى هذه الطرائق هي الشروع في المصالحة مع الاتحاد السوفيتي.

على الرغم من عدم اهتمامه المتكرر بالتفاصيل، كان رونالد ريغان دائماً صادقاً في رغبته في إنهاء خطر نشوب حرب نووية كارثية حامت حول بلاده والعالم أجمع معظم حياته، وكان رغب في أنْ يكون أكثر تطرفاً في السعي لهذا الهدف من أي رئيس أمريكي آخر بعد الحرب، ولم يكن واضحاً له كيفية تحقيق هذا الهدف. في أول لقاء له مع غورباتشوف في عام 1985، حيّر الزعيم السوفيتي من خلال الحديث عن الطريقة التي يمكن أن يعملا بها معاً في حال غزا الأجانب القادمون من الفضاء الخارجي، ولكن حتى مبادرته الدفاعية الاستراتيجية كانت بنية طيبة.

كان الأشخاص الواقفون وراء حرب النجوم يسعون للدفاع الجزئي ليس عن المدن الأمريكية، ولكن عن حقول الصواريخ والمنشآت الاستراتيجية الأخرى التي تُمكّن الولايات المتحدة من خوض حرب نووية محدودة والانتصار فيها، ولكن في ذهن ريغان كان ذلك برنامجاً لحماية المواطنين الأمريكيين من الأسلحة النووية، وبالإضافة لذلك كان يعتقد أنّ تكنولوجيا حرب النجوم ينبغي أن تكون متاحة للاتحاد السوفيتي أيضاً بعد أن يتم تطويرها.

«الأمين العام غورباتشوف: اعذرني سيدي الرئيس، لكنني لا آخذ فكرتك عن تقاسم مبادرة الدفاع الاستراتيجي على محمل الجد. أنت لا ترغب حتى في مشاركة المعدات النفطية وأدوات الآلات الأوتوماتيكية

أو معدات مصانع الألبان، في حين أنّ تقاسم الدفاع الاستراتيجي سيكون ثورة أمريكية ثانية، والثورات لا تحدث كثيراً. فلنكن واقعيين وعمليين، فهذا أمر يمكن الاعتماد عليه.

الرئيس ريغان: لو كنت أعتقد أنّ مبادرة الدفاع المشترك لا يمكن مشاركتها، لكنت قد رفضتها بنفسي».

قمة ريغان وغورباتشوف، ريكيافيك، أيسلندا، 11 تشرين الأول/أكتوبر عام 1986 294

اقترح ريغان في قمة ريكيافيك إزالة جميع الصواريخ الباليستية الهجومية (مما أصاب مستشاريه بالرعب) بحجة أن تأسيس الردع النووي فقط على الناذفات التي تسير بسرعة بطيئة وصواريخ كروز من شأنه أن يجعل العالم مكاناً أكثر أمناً بكثير، ولكنّ عدم رغبته في التخلي عن مشروع حرب النجوم أحبط الصفقة. مع ذلك، بمجرّد انتشار فضيحة إيران - كونترا في الشهر التالي غيّر مساره بشكلٍ جذري. لم يتخلَّ قط عن حرب النجوم بشكل رسمي (وبعد أنْ أدرك غورباتشوف أنّ الأمر حلم تكنولوجي من المستبعد جداً أنْ يحدث، أنهى معارضته لذلك)، ولكن في كل قضية أخرى كان ريغان على استعداد رام اتفاق. في زيارة غورباتشوف الأولى إلى الولايات المتحدة في عام 1987، وقّع الرجلان على معاهدة القوات النووية المتوسطة، وبذلك انتهى الذعر من إدخال جيل جديد من الصواريخ النووية في أوروبا.

وبحلول الوقت الذي زار ريغان فيه موسكو في حزيران عام 1988، أعلن أن الحرب الباردة قد انتهت «بالطبع»، وأنّ

كلامه عن «إمبراطورية الشر» يعود «لعصر آخر». وحتى قبل سـ وط جدار رلين في العام التالي، انتهت الخصومة الاستراتيجية ين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي؛ ولو أن الأمر استغرق فترة أطول بالنسبة للـ وات النووية للبلدين للتغلب على عادة اعتبار بعضهم بعضاً كأعداء.

إذاً، انتهت المواجهة العسكرية طويلة الأمد ين قوتين مسلحتين نووياً بسلام، ولكنها لم تقدم سوى عزاء بسيط للأشخاص الـ لـ ين حول المستقبل بسبب الاقتراب الوشيك من الاستعمال الفعلي للأسلحة النووية عدة مرات. حتى إن عملية التطوير التكنولوجي ذاتها استمرت بزعزعة الاستقرار في النظام، وقام الخصم الأقوى (الولايات المتحدة) بجهود مستمرة من أجل الحفاظ على أو استعادة نوع من التفوق العددي أو التكنولوجي، والذي يمكن أن يجعل أسلحته النووية قا لة للاستخدام. أما الاتحاد السوفيتي الذي كان الخصم الأضعف فقد تمسّك باستراتيجية ردع بحتة من العقاب النووي الشامل، ولكنها كانت مصممة لكي تحـ ق انتقامها أولاً إذا استنتجت أنّ الحرب حتمية.

لا توجد أدلة على أنّ أياً من الطرفين كان ينوي الـ يام بضربة مفاجئة، ولكننا ندين بحـ يقة عدم استخدام أي سلاح نووي خلال العقود الأربعة التي امتدت فيها المواجهة إلى الحظ أكثر منه إلى الحكم الجـ د. وفي نهاية المواجهة، اكتشف الجميع ما كان يُمكن أن يحدث فعلاً لو أنّ كل هذه الأسلحة قد تم استخدامها.

«كنا - ع ر خطوات بطي ة وغ ر مُدركة - نبني آلة نهاية العالم، ولم ينتبه أحد لذلك حتى فترة قريبة، وفقط عن طريق الصدفة. لـ د وسّعنا نطاق خطرها ع ر نصف

الكرة الأرضية الشمالي. لقد اتّخذ كل قائد أمريكي أو سوفييتي منذ عام 1945 قرارات حرجة حول الحرب النووية بجهل تام في ما يتعلق بالكارثة المناخية».

كارل ساغان Carl Sagan[295]

تحكم الرئيس جون كينيدي في وقت أزمة الصواريخ الكوبية بأكثر من ستة آلاف سلاح نووي، وكان العديد منها ذا قوّة تفجيرية أكبر من الأسلحة النووية التي تنشرها الولايات المتحدة حالياً. كان لدى السكرتير العام نيكيتا خروتشيف حوالي ثمانمئة قنبلة نووية ورأس حربي تحت إمرته. وقد حامت هذه الأسلحة على حافة الحرب النووية لمدة أسبوعين، مع وعي أولئك القادة بأنّ أي خطوة خاطئة قد تحكم على الملايين من أبنائهم بالموت، ولكن لم تكن لديهم أي فكرة على أنّ استخدام هذه الأسلحة سيؤدي إلى كارثة عالمية. كانوا يفكرون في سياق حرب عالمية ثانية خارقة، حيث سيكون الضحايا أكثر بثلاثة أو أربعة أضعاف، وسوف يحدث ذلك بسرعة أكبر بكثير بفضل الأسلحة النووية. ولكن لنكن واقعيين، ليست هنالك طرائق عديدة للموت، وعدا عن المرض من جراء التسمم الإشعاعي، ليس هنالك عذاب كبير قد يحدث لسكان المدن التي سيتم ضربها بأسلحة نووية لم يختبرها الذين وقعت عليهم عواصف النيران في هامبورغ وطوكيو.

لم يبدأ العلماء حتى بداية الثمانينيات بإدراك أنه منذ عام 1950 فإن العالم كان واقعاً تحت التهديد الدائم «للشتاء النووي». بدأ عام 1971 استكشاف ما قد تفعله حرب نووية بكوكبنا؛ عندما اكتشفت مجموعة صغيرة من علماء الأرض الذين قد اجتمعوا لتحليل نتائج ملاحظات

«ماريـنر 9» حول المريخ - وهم محبطون - أنّ الكوكب بأكمله كان مغطى بعاصفة غبارية هائلة قد استمرت لثلاثة أشهر. ولأنه لم يكن لديهم شيء أفضل لفعله، قاموا بحساب كيف أن سحابة غبارية طويلة الأمد ستغير الأحوال على سطح المريخ، واكتشفوا أنها ستخفّض من حرارة أرضه بشكل جذري. وقد أثار ذلك فضولهم، فقاموا بفحص التسجيلات الأرصادية هنا على كوكب الأرض ليروا إنْ كانت الكميات الصغيرة من الغبار التي ارتفعت في طبقات الجو العليا نتيجة الانفجارات البركانية لها آثار مشابهة. لقد اكتشفوا أنه في كل مرة انفجر فيها بركان رئيس في القرون القليلة الماضية كان هنالك انخفاض صغير في درجات الحرارة العالمية استمر لمدة عام أو أكثر. لذلك، استمروا بفحص عواقب اصطدام الكويكبات الضالة مع الأرض، وتفجر كميات كبيرة من الغبار في طبقات الجو كما حدث بين الحين والآخر في الماضي الجيولوجي، واكتشفوا أدلة عن تغيرات مناخية مؤقتة وإنما ضخمة أدت إلى انقراض شامل لكائنات حية. ونتيجة لذلك، استنتج علماء آخرون أن الكثير من حوادث الانقراض - تتضمن اختفاء كميات ضخمة من الفصائل من الوجود - حدثت على مر السنوات المليار الماضية، وأنّ المشتبه فيه الرئيس في معظم هذه الحوادث هو فترات طويلة من الظلام والبرد على امتداد العالم سببها الغبار المنتشر والناجم عن اصطدام كويكبات كبيرة.

إنّ المجموعة الأصلية وغير الرسمية من العلماء الذين تدخلوا في مشروع «مارينر» في عام 1971 (سموا أنفسهم TTAPS؛ وهي مجموع الأحرف الأولى من أسمائهم) انفصلوا كلّ في طريقه، ولكنهم بقوا على تواصل. في بداية

عام 1982، تم اطلاعهم على نسخة متقدمة من بحث كتبه عالمان يعملان في معهد ماكس بلانك للكيمياء في ألمانيا الغربية، وحسبوا فيها أنّ غابات النيران الهائلة التي تشعلها الانفجارات النووية ستحقن طبقات الجو بمئات ملايين الأطنان من الدخان في حالة حرب نووية، وأن هذا الدخان «سوف يمنع مرور أشعة الشمس إلى سطح الأرض». لم يأخذ هذا البحث بالحسبان الدخان الناتج عن المدن المحترقة والغبار الناتج من الانفجارات الأرضية، ولكن المجموعة الأمريكية رأت أهمية ذلك فوراً، وفي عام 1983 نشروا نتائجهم.

استنتجت مجموعة TTAPS أن تبادلاً نووياً كبيراً سوف يغطي على الأقل نصف الكرة الأرضية الشمالي، وربما الكوكب بأكمله، بغطاء من الدخان والغبار سيهبط على السطح مؤدياً لظلام افتراضي قد يمتد لستة أشهر، ولهبوط في درجات الحرارة قد يصل إلى نحو 40 درجة مئوية (72 درجة فهرنهايت) في داخل القارات (والذي يكون أدنى من درجات التجمد في أي فصل) لفترة مشابهة. وعندما يهبط مقدار كافٍ من الغبار من طبقة الستراتوسفير ليسمح لضوء الشمس بالعودة، فإنّ الدمار في طبقة الأوزون الناتج عن نيران الانفجارات النووية الحرارية سيسمح لضعفي أو ثلاثة أضعاف الأشعة فوق البنفسجية الضارة بالوصول إلى سطح الأرض. قد يسبب هذا حروقاً شمسية مميتة إذا تعرض الإنسان لها لمدة نصف ساعة، وسيؤدي للعمى في فترة قصيرة، كما أضاف العلماء: «لقد استنتجنا تجريبياً أنه من غير المحتمل أن يتبع الحرب النووية عصر جليدي»[296].

كانت العواقب المتوقعة والموافق عليها لحرب نووية

ك يرة تتضمن بضع مئات الملاي ين من القتلى في لدان حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو، با ضافة لدمار معظم ا رث البشري الصناعي والفني والعلمي والعمراني في العالم، كما يُتوقع أنّ النتائج العرضية وضعف البنية التحتية المتب ية ستتسبب بأضرار في الزراعة في نصف الكرة الأرضية الشمالي، لدرجة أنّ مئات الملا ين ا ضاف ين سيتعرضون للمجاعةٍ والأمراض في النتائج اللاحقة. لم يكن هذا منظوراً ساراً، ولكن سينجو معظم البشر. وفي نصف الكرة الأرضية الجنوبي، ستخرج معظم المجتمعات غالباً من المحنة غ ر متأذية بشكل أساسي، وربما ستجد الـ وى العظمى الجد دة - جنوب أفر يا والبراز ل وإندونيسيا وأستراليا - طريقة لتجنب تكرار هذه التجربة في الأجيال الـ ادمة. لن يصل التاريخ لنهايته، لكن هذا لن يشكل سوى عزاء صغ ر للأمريك ين والروس الناجين.

ولكن منظور «الشتاء النووي» غيّر هذه الحسابات. والآن، بعد التوقعات بأن البرد والظلام سيستمران حول العالم لنصف سنة بعد حرب نووية ك يرة، وأنه ستُقتل فصائل كاملة من الحيوانات والنباتات - والتي ستكون ضعيفة مسبقاً بسبب ا شعاعات - وعندما تنقشع هذه الغمامة، فإن ا شعاعات فوق البنفسجية والمجاعة والأمراض ستُحسب من ين العد د غ رها من الكوارث. في نيسان عام 1983، قامت حلقة دراسية مكونة من أربعين عالم أحياء متميزاً دراسة آثار التغ رات المناخية المتوقعة بعد الحرب النووية على الكائنات الحية واستنتجت أنه:

«يمكننا أن نتوقع انقراض فصائل العد د من

النباتات والحيوانات الاستوائية، ومعظم الفقاريات الأرضية من الأقاليم الشمالية المعتدلة، وعدد كبير من النباتات، والعدد من كائنات المياه الحلوة وبعض الكائنات البحرية...

كانت المسألة المطروحة للنقاش هي ما إذا كان الناس سيتمكنون من الاستمرار طويلاً في مواجهة مجتمعات بيولوجية معدلة بشكل كبير (مناخ خيالي، مستويات إشعاع عالية، أنظمة زراعية واجتماعية واقتصادية محطمة، ضغوطات نفسية هائلة، ومجموعة أخرى من الصعوبات). من الواضح أن تأثيرات الأنظمة البيئية وحدها الناتجة عن حرب نووية حرارية عالية المستوى قد تكون كافية لتدمير الحضارة الحالية على الأقل في نصف الكرة الأرضية الشمالي.

نضيف لها مقتل ربما مليارَي نسمة بشكل مباشر، إنّ الآثار المتوسطة وبعيدة الأمد للحرب النووية توحي بأنه في النهاية لن يبقى أي ناجٍ بشري في نصف الكرة الأرضية الشمالي.

علاوة على ذلك، إن السيناريو الموصوف هنا ليس أسوأ سيناريو يمكن تخيله في ضوء ترسانة العالم النووية حالياً والتي يمكن أن تتواجد في

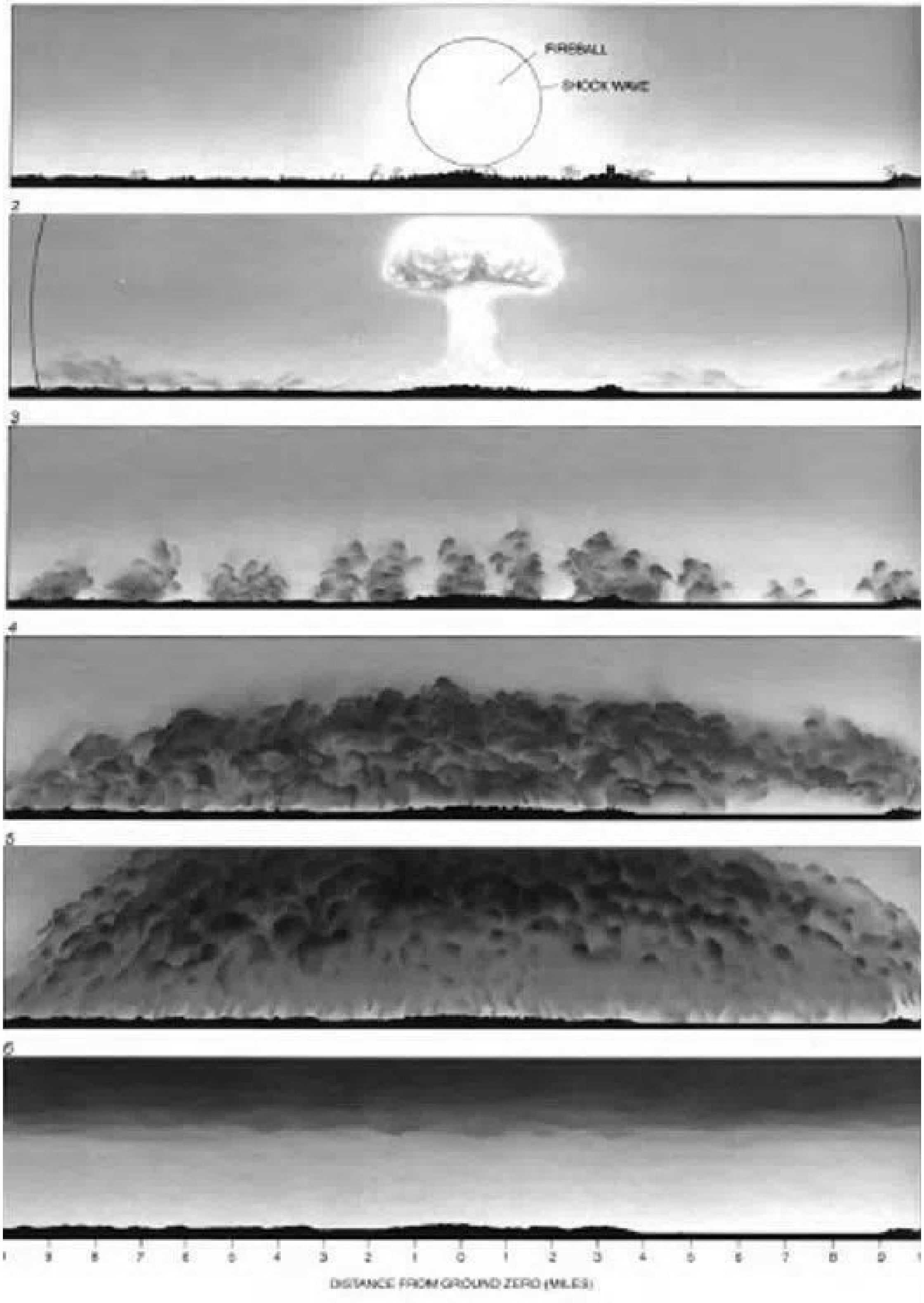

انفجار نووي افتراضي لواحد ميغا - طن فوق مدينة نيويورك: الانفجار (1)،

موجات اصطدامية ورياح عالية (2)، عاصفة نارية في أقصى درجة (4) و(5)، الدخان والغبار يندفعان نحو طبقات الجو العليا (6) ومن الممكن أن يغطيا الشمس.

«الشتاء النووي» يمكن أن يحدث بعد تفجير 100 قنبلة مشابهة فوق المدن.

المستقبل الـ ريب. في أي حالة واقعية تتضمن تبادلاً نووياً بين الـ وى العظمى، إن التغ رات البيئية العالمية كافية لتسبب حالات انقراض تماثل – أو أسوأ من – تلك التي كانت في نهاية العصر الطباشيري الذي ماتت فيه الديناصورات والعد د من الفصائل الأخرى. وفي هذه الحالة، إنّ احتمال انقراض الجنس البشري لا يمكن استثناؤه»[297].

لم تكن العملية الفيزيولوجية الأساسية التي يمكن أن تُنتج هذه العواقب موضع تساؤل. بالنسبة لعدد الأسلحة النووية التي نحتاج إليها نتاج هذه الآثار، إن الخط الأساسي في حالة حرب ينفجر فيها خمسة آلاف ميغا طن هي: 57 بالمـ ة انفجارات أرضية ضد «أهداف صعبة» كمخازن الصواريخ، و20 بالمـ ة انفجارات جوية فوق أهداف مدنية وصناعية ستكون كافية حداث هذا الدمار. (إنّ الحجم الكلي لأسلحة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في منتصف الثمانينيات كان ثلاثة عشر ألف ميغا طن). لكن الحسابات كانت معقدة بد يقة أن الغطاء الذي سيحجب الشمس سيتألف من مكونين اثنين: الغبار المتكون من جزئات التربة المتبخرة نتيجة الانفجارات الأرضية، والدخان الأسود من المدن والغابات والأراضي الخضراء المحترقة نتيجة للانفجارات الجوية.

يتطلب الأمر غباراً أكثر بشكل ك ير من الدخان الأسود حداث تأث ر التغطية نفسه. إننا نحتاج إلى ألفين أو

ثلاثة آلاف انفجار أرضي عالي المردود، ولكن كان هذا بالضبط مدى التفجر الذي يحتاج إليه أحد الطرفين للقيام بضربة أولى ناجحة على مخازن صواريخ الآخر، لذلك ستؤدي «ضربة أولى متقنة» لنزع سلاح العدو كلياً دون الهجوم على المدن وبدون أي ضربات انتقامية على الأرجح إلى «شتاء نووي» في الظروف السائدة خلال الحرب الباردة. إذ ستكون ملايين الأطنان من الدخان الأسود الناتجة عن احتراق المدن عاملَ تغطية أكثر فعالية بكثير، خصوصاً إذا نتجت عن العواصف النارية أعمدة انتقالية تسحب معظم الدخان الأسود إلى طبقة الستراتوسفير حيث ستبقى لشهور عديدة، وفي هذه الحالة، إن مقداراً قليلاً كمية ميغاطن فوق مئة مدينة سيكون أكثر من اللازم[298]. حتى إنه من الممكن أنّ الهند وباكستان ستقتربان من هذه العتبة خلال العقد القادم تقريباً، ومن غير الواقعي أنْ نتخيل أنّ المدن سيتم تحييدها في حرب نووية، حيث إنّ العديد من القيادات الحيوية والقيادة والتحكم والأهداف الصناعية موجودة داخل المدن، فالمدن سوف تُضرب، وسوف تحترق.

كان هنالك كم كبير من البحوث التي أُنجزت عن «الشتاء النووي» في أواخر الثمانينيات. وقد قاومت هذه الفرضية واستمرت رغم المحاولات الرسمية الهائلة لدحضها. في عام 1990، اختصرت مجموعة TTAPS البحث علمياً[299]، وأقرت أنّ الفيزياء الأساسية «للشتاء النووي» تمت إعادة تأكيدها من خلال العديد من التقييمات التقنية العالمية الموثوقة والعديد من الأبحاث العلمية الفردية. وفي كتاب نُشر عام 1990، استنتج كل من كارل ساغان وريتشارد توركو أنّ الوضع كان في بعض المجالات أسوأ من التقييمات الأولية: «تتميز الأهداف الصناعية والمدنية

والنفطية بمواد قابلة للاشتعال تتركز بشكل كبير في مواضع قليلة. وبسبب هذا، إنّ الشتاء النووي العالمي قد وُلّد عبر بضع مئات من التفجرات أو أقل... ومع حدثٍ مثل احتراق مئة مركز مدينة، فإن شتاءً نووياً كبيراً يبدو ممكناً»[300]. ولكن، لم يتم إجراء أي أبحاث إضافية عن الموضوع منذ عام 1990. إنّ فقدان الاهتمام الكلي والمفاجئ بالحرب النووية شيء عرضي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؛ كما لو أنّ الأسلحة النووية هي التي تمت إزالتها. ولكنها ما زالت موجودة، فمعظمها ما زال موجوداً؛ وهو خطير مثلما كان دائماً.

نحن الآن نستمتع بعطلة مطولة من حقيقة أنّ حرباً بين قوى عظمى في هذه الحقبة التكنولوجية تعني حرباً نوويةً، إلا إذا حدث تغير كبير في النظام العالمي الحالي، لكن المواجهة العسكرية بين القوى العظمى من المحتم أن تعود في العقود والقرون القادمة، وهذه المواجهات النووية الجديدة بين الهند وباكستان، وإسرائيل والعرب، وربما حتى بين القوى العظمى مرة أخرى ضمن تحالفات جديدة سوف تُكشف مع كل هذه الاختلافات في العقائد، وسوء التفاهم الثقافي، والكبرياء التكنولوجية التي أسست المواجهة الأولى. لم يعد من الممكن للقوى الكبيرة أن تحقق أي شيء مفيد ضد بعضها باستخدام الحرب، ولكنّ كلاً من مؤسساتها وعقلياتها ما زال يفترض أن التحرك العسكري خيار مطروح.

المشكلة التي نواجهها سوف تصل في النهاية؛ فالحرب مدموغة بشكل كبير في ثقافتنا، ولكنها غير متوافقة بشكل قاتل مع حضارة تكنولوجية متقدمة. بعد ستة عقود من هيروشيما، نحن نقبض على الطبيعة

الدقيقة لـ درنا إذا فشلنا في حل مشاكلنا، ولكن جوهر معضلتنا كان واضحاً بالفعل لألبرت أينشتاين منذ عام 1945: «كل شيء قد تغ ر، ما عدا طريقة تفك رنا».

الفصل التاسع

الحفاظ على اللعبة القديمة

ما يميّز الأسلحة النووية ويزيد من خطورتها هو قدرتها التدميرية الهائلة، وعنصر المفاجأة الذي يمكنها تحقيقه بوصفها أسلحة غير عقلانية، كما أنّ استخدامها من شأنه تأجيج الصراع وزيادة حدته، حيث إنها تستدعي الانتقام بما تحدثه من صدمة ورعب لدى الطرف الآخر، مما يؤدي إلى دائرة من الانتقام والانتقام المضاد، لتصبح نهاية الصراع أمراً يصعب توقعه أو التحكم به. لذلك، إن البشرية بحاجة إلى ضوابط عقلانية تمنع وقوع هجوم كهذا.

«يجب أنْ تتم إعادة الحرب إلى موقعها التقليدي كأداة سياسية يمكن متابعتها بوسائل أُخرى. وقد لا نكون قادرين على تحديد السمات المميزة للسياسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلا أنه قد يكون بإمكاننا مقاربة النموذج السياسي السائد في القرن التاسع عشر، وهذا بحدٍ ذاته يعتبر مكسباً هاماً. مهما كانت طبيعة الوضع فنحن نرغب بتأكيد قدرتنا على المضي قدماً في اللعبة».

وليم كوفمان، محلل في مؤسسة راند (1955، *Rand*) *h*[301]

قد تبدو فكرة وجود لعبةٍ للأمم تلعب الحرب فيها دوراً رئيساً، فكرةً سخيفةً أو قذرةً بالنسبة لمراقب خارجي، ولكن هذا هو الاعتقاد الراسخ لدى معظم الأشخاص الذين يخدمون في القوات المسلحة أو الذين يديرون السياسة الخارجية للدول ذات السيادة. وإن ظهور الأسلحة النووية شكّل تهديداً لهذه اللعبة، ولذلك يريدون الحروب التي تُخاض بكل أنواع الأسلحة ما عدا النووية منها؛ لأنّه من شأن تلك الأسلحة أنْ تدمر اللعبة؛ أي «الحرب التقليدية». لم تكن هذه الفكرة موجودة قبل عام 1945، ومن الواضح أنّ الهدف منها هو الحفاظ على اللعبة القديمة. ولكن، لماذا يشعر هذا العدد الكبير من الناس والذين في معظمهم ليسوا أشراراً أو أغبياء، بأنّ عليهم الاستمرار في هذه اللعبة؟ هناك إجابة علمية وكذلك إجابة مؤسساتية عن هذا السؤال.

أصبحت المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي متوقعة بشكل كبير حالما أصبحت نتيجة الحرب العالمية واضحة بحدود عام 1943، وهي التي أصبحت تُعرف في ما بعد بالحرب الباردة. وبالفعل، سرعان ما انفصل التحالف المنتصر بعد عام 1945 كما يحصل عادةً في هذا النوع من التحالفات، فبعد سحق خصوم المتحالفين صار المنتصرون اللاعبين الوحيدين في الملعب، وهكذا أصبح كل منهم التهديدَ المحتمل للآخر، وبذلك كانوا في المتوسط على بعد نصف قرن من الحرب العالمية القادمة.

«ما من قضية على المحك في علاقاتنا السياسية مع

الاتحاد السوفيتي، لا أمل، ولا خوف، وما من شيء نطمح إليه أو نود تفاديه ليستحق حرباً نووية يننا».

جورج كينان (George Kennan)، سفير

الولايات المتحدة السابق لدى موسكو

كان للدوتين المنتصرتين اللتين خرجتا من الحرب العالمية الثانية وصفهما من «الوى العظمى»، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ما دعوهما لتكونا راضيتين تماماً عن النتيجة؛ باعتبار أنه تمّ تقسيم أوروبا الغربية والوسطى التي كانت مركز الوة العالمية لثلاثة قرون ساقة، إلى مناطق نفوذ ين الدولتين تمتد حدودها على طول الخط الذي توقفت عنده جوشهما عام 194. ولكن، لماذا اعتر كل طرف منهما الطرف الآخر عدواً له، ودخلا في مواجهة عسكرية طويلة وخطيرة للغاية؟ لا وجد أيّ دليل على أن أياً منهما كان يطمح بغزو الدولة الأخرى، كما أنّ الخلافات الأدولوجية ينهما غر كافية لتفسير ديقة ما حدث؛ فالدوتان لم تكونا على عداء قبل عام 1945، رغم أنهما كانتا متباينتين أدولوجياً منذ ذلك الوقت، ل وجدتا إمكانيةً للتعاون معاً ومع الدول الأخرى المختلفة أدولوجياً كذلك؛ كالتعاون الاستراتيجي الذي نشأ ين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعية في السبعينيات على سبيل المثال، أو التحالف الذي كاد أن يوم ين الاتحاد السوفيتي والهند.

يوم أحد التفسيرات المحتملة، والذي لا يخلو من السخرية، على أنّ تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ سوفيتية وأمريكية كان يعتمد على أنْ تكون هناك مواجهة

عسكرية ين الـ وى العظمى.

وقد تم تكريس هذه المواجهة من قِ ل الأ د ولوجيات الشمولية لتشرعن وجودها العسكري في مناطق ب ع دة عن حدودها، ولتقسيم العالم إلى كتلتين متنافستين بـ يادة موسكو من طرف وواشنطن من الطرف الآخر. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ أياً من الـ وى العظمى لديه استراتيجية تقضي بالسعي عمداً شعال الصراع مع الآخر من أجل ت رير هيمنته وتوسيع نفوذه، ولكن في الكث ر من الأحيان تجري الأمور في ما يخص الشؤون ا نسانية، حيث يتصرف الناس بطرائق تضمن تحـ يق مصالحهم بشكل موضوعي، ومن دون الاعتراف لأنفسهم بذلك بشكل واعٍ.

ورغم أنّ بعض قادة الـ وتين العظميين كانوا رون بعض المزايا في قيام مواجهة مع الطرف الآخر – ومنهم من قام بذلك فعلاً – إلا أنهم كانوا خائفين جداً من أنْ ينتهي الأمر بحرب نووية مدمرة كانوا على استعداد لاستثمار مفاهيمها في «الحرب التقليدية». وذلك لأنهم يعرفون كيف يعمل التاريخ.

لـ د اعتدنا على تسمية الحربين الك يرتين في الـ رن العشرين على أنهما «حربان عالميتان»، ولكنّ ما يميزهما فقط هو حـ يقة أنّ تكنولوجيا الأسلحة المستخدمة كانت أفضل بكث ر مما كانت عليه من قبل. يحدد التعريف السياسي الحرب العالمية بأنها الحرب التي تشارك فيها جميع الـ وى العظمى في الوقت الذي تجري فيه، وهذا ما يضمن أنها خيضت في جميع أنحاء الأرض. ولكنّ العامل الرئيس ليس جغرافياً، فما يجعلها حرباً عالمية هو مشاركة جميع الـ وى

العظمى في التحالفات الكبيرة، وأنْ تأتي نهاية الحرب لتشمل كل شيء عملياً. من خلال هذا المعيار، يمكننا القول إنه كانت هناك ست حروب عالمية في التاريخ الحديث: حرب الثلاثين عاماً[302] 1618–1648، والحرب الإسبانية[303] 1702–1714، وحرب السنوات السبع[304] 1756–1763، والحروب الثورية والنابليونية[305] 1791–1815، والحربان العالميتان الأولى 1914–1918 والثانية 1939–1945.

لا تبرز الحرب الإسبانية وحرب السنوات السبع بشكل واضح مقارنة بالحروب الأخرى في عصرها، ومقارنة بالحروب الأربع الأخرى؛ وذلك لأنّ مستوى الضجيج المرافق للحرب كان أعلى بكثير خلال القرن الثامن عشر. مع ذلك، إنّ كلاً من تلك الحروب كانت مؤهلة لكي تُعتبر حروباً عالمية؛ ليس فقط بناء على اشتراك الجميع فيها وعلى دقيقة أنها أكبر الحروب من ناحية فترة كل منها، بل لأنها تمثل كذلك نهاية وتسوية شاملة لسلسلة طويلة من الحروب والنزاعات السابقة بين القوى العظمى. ويعتبر المراقبون المعاصرون أنّ هذه الحروب حسمت الأمور بشكل قاطع، وحددت الوضع النسبي للقوى العظمى في الفترة التي تلت ذلك؛ حيث استقرت الأمور على نوعٍ من السلام النسبي. وهذا على وجه التحديد وظيفةُ الحروب العالمية في النظام الدولي الحالي.

ما يلفت الانتباه في هذه القائمة هو طابعها الدوري المقلق؛ فالتاريخ الحديث يخبرنا أنّ القوى العظمى ذهبت جميعها إلى الحرب كل خمسين عاماً تقريباً، مع فجوة واحدة فقط ضمن هذا التسلسل. حتى إنّ فترة «السلام الطويل» خلال القرن التاسع عشر كانت خادعة.

خاضت كل قوة عظمى عملياً حرباً ضد قوة أخرى أو عدة قوى، وتحدداً خلال الفترة بين عامي 1854 و1870: بريطانيا وفرنسا وتركيا ضد روسيا، فرنسا وإيطاليا ضد النمسا، ألمانيا ضد النمسا، ثم ألمانيا ضد فرنسا، وقد ظهرت في عدة مناسبات إمكانية أنْ تتوسع هذه الحروب لتشمل جميع القوى العظمى، ولكنّ أياً منها لم يستمر لفترة طويلة بما فيه الكفاية. وعموماً، كلما طالت الحرب بين دولتين كبيرتين تزايد احتمال أن تنجرّ إليها الدول الأخرى. وبدلاً من ذلك، أحدثت هذه السلسلة الشاذة من الحروب الصغيرة تغيرات في التوزيع الدولي للقوة بشكلٍ يشبه التغير الذي تحدثه الحروب العالمية إلى حدٍ كبير. فظهرت إيطاليا الموحدة والإمبراطورية الألمانية القوية في قلب أوروبا، في حين تراجعت النمسا كقوة أوروبية كبيرة وخسرت فرنسا إلى غير رجعة مكانها السابق كأعظم قوة قارية. وهكذا، تم تعديل نظام القوى العظمى ذاك مع الحقائق الجديدة التي فرضت نفسها في منتصف القرن السابق، مع نسب مختلفة من النمو السكاني والصناعي في مختلف أنحاء أوروبا، ثم استقرت الأمور على هذه الحالة على مدى فترة طويلة من السلام. وكما كان شأن مؤتمر فيينا عام 1815، تبعت معاهدة فرانكفورت عام 1871 أربعة عقود لم تتحارب خلالها القوى الأوروبية العظمى.

إذاً، لماذا تقوم حرب بين الدول العظمى كل خمسين عاماً تقريباً؟ إنّ الوقائع الدولية في فترة ما بين الحربين تتحدد عبر معاهدة السلام التي أنهت الحرب الأخيرة؛ إذ تأتي كل حرب عالمية بحزمة من التعديلات على التوازنات الدولية، ويتحدد مدى استقرار الوضع عن طريق التسوية السلمية التي تحدد الحدود الحساسة المتنازع عليها، كما تحدد مواقع

الـ وى العظمى ضمن التسلسل الهرمي للـ وى الدولية.

وما إن يتم توقيع معاهدة السلام حتى تتحول إلى توصيف دقيق للعلاقات يـن الـ وى الحـ يـ ية في العالم، وتكون قا لة للتنفيذ بسهولة لأنّ المستفيدين منها سبق لهم أنْ تغلبوا على الأطراف الخاسرة في الحرب. ولكن، مع مرور بضعة عقود من السلام، تـ رز بعض الـ وى بسرعة فيما تتراجع قوىً أخرى. وبعد نصف قرن تقريباً، تكون العلاقات يـن الـ وى الحـ يـ ية في العالم قد اختلفت كثـ راً عن تلك التي تم تحد دها بمعاهدة السلام الأخـ رة. وهنا تكون النقطة التي تقوم فيها إحدى الـ وى الصاعدة المحبطة والتي تمّ تحجيم دورها في النظام الدولي، أو أمةٌ خائفة من تراجع قوتها، بـتعد ل النظام الـ ائم.

ما من سحر معين في الرقم خمسين عاماً، وإنما هي المدة التي تستغرقها الـ وى عادةً للخروج من حالة التوازن التي فرضتها حالة التسوية السلمية السا قة. وقد جاءت الحرب العالمية الثانية لتشوّه تصورنا لـ يـاع التاريخي الطبيعي، وربما تعود فترة السلام الـ صيرة التي فصلت يـن الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى حـ يقة أن الحرب العالمية الأولى كانت أول حرب شاملة. وتنحو الحروب الشاملة لتنتهي بمعاهدات سلام صارمة؛ فالمنتصرون يخرجون من الحرب بعد أن يكونوا قد عانوا كثـ راً، حيث لا يميلون سريعاً لعقد التسوية. وبالتالي، كانت معاهدة فرساي التي أنهت الحرب العالمية الأولى عام 1919 ذات شروط قاسية، ولم تجسد الوضع الحـ يـ ي للـ وى العظمى في العالم مـ ارنةً مع معظم التسويات السلمية السا قة؛ فالانتصارات الساحقة «تصنع سلاماً سيئاً» كما قال غوغليلمو فـ ريرو.

لم يشترك جميع من في السلطة بعد عام 1945 في التحليل الدقيق للطبيعة الدورية للحروب العالمية، ولكن كانت لدى جميع كبار المسؤولين في الحكومات والخدمات الخارجية والعسكرية في الـ وى العظمى، شكوك قوية على الأقل بأنّ التاريخ يسير وفق ظاهرة من هذا النوع. ولذلك، حتى لو كان اختراع الأسلحة النووية يعني – كما أوضح أينشتاين – أنّ كل شيء قد تغ ر، إلا أنّ أول ك لم تكن ثقتهم بذلك ك يرة. بدو أنّ الحرب ستستمر مع مرور الوقت؛ مهما تغ رت الظروف المحيطة بها.

لعبت الحرب دوراً رئيساً في العلاقات ين الدول المتحضرة منذ عصور ا نسان الأولى، وكانت ت دو في البداية كسعي عقلاني تماماً. ولمّا كانت الأرض هي المصدر الرئيس للثروة، كان الغزو وسيلة لزيادة ثروة المجتمع. ومع وجود إدارة سليمة، فإن هذا يعطي مز داً من الـ وة العسكرية، وزيادة في الأمن، مع احتمال الـ يام بالمز د من الغزوات. وهكذا، تقدمت الجماعات التي كانت ناجحة في حروبها، أما أول ك الذين فشلوا فكان ينتهي بهم الأمر كقتلى أو ع يد.

ظلت التوازنات الأساسية التي تحكم الحروب صحيحة حتى في وقت مبكر من العصر الحديث. كانت الحروب الأوروبية في الـ رن الثامن عشر تتمحور بشكل واضح حول زيادة الثروة والسلطة من خلال التوسع ا قليمي، وكانت الدول التي تنجز حروبها بشكل ج د تنال فوائد جمة إثر ذلك؛ فاللغة ا نجليزية مثلاً لم تصبح اللغة الثانية في العالم لأن ا نجليز كانوا مسالمين، ولم تكن تكلفة الدخول في الحرب مرتفعة، وحتى أواخر الـ رن التاسع عشر

لم يكن هناك أحد ينظر إلى الحرب باعتبارها مشكلة، فخسارة الحرب هي التي كانت المشكلة، أما الذين كانوا يشككون بمصداقية الحرب نفسها فقد كانوا قليلين.

ومع تقدم العلم والتكنولوجيا وتعاظم الـ درة ا نتاجية، دأت التحولات تطرأ على المؤسسة الـ ديمة للحرب من خلال التصنيع والترش د لتتماشى مع روح العصر؛ وذلك بالتماس الكفاءة من كل النواحي. وبما أنّ العمل الأساسي للحرب هو القتل، دأت الدول الأوروبية تكتشف كلفة تصنيع القتل وترش ده في الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن مقتل أحد عشر مليون شخص، واكتشفت دول العالم الأخرى هذه الكلفة في الحرب العالمية الثانية التي قُتل فيها 45 مليون شخص (أو حتى 60–65 مليون شخص؛ إذا كانت تقد رات ما بعد الحـ بة السوف يتية من

TAL

القتل أصبح أكثر كفاءة. قتلى بريطانيون في خندق في سبيون كوب، حرب جنوب أفريقيا، عام 1900.

الخسائر الروسية دقيقة).

وفي الوقت الذي كان عدد الضحايا فيه رتفع، كانت فوائد الحرب تتجه إلى انخفاض شد د، ولم تعد ثروة المجتمعات الصناعية تقوم على أرضية صلبة، ولم يعد هناك ما تكسبه في الحرب بثمن بخس. ولكن، دلاً من الابتعاد عن الحرب بعدما أصبحت أقل ربحيةً، خاضت الدول التي تمتلك أعلى نسب تعليم في التاريخ حروباً أسوأ من أي وقت مضى. وبمواجهة كل هذه الأدلة على استمرار الانعكاسات الـ ديمة رغم الحـ ائق الجد دة، من الذي سيثق بأن الحروب لن تقع مرة أخرى؟ وبناء على ذلك، هل يكون من الحكمة إيجاد وسيلة لخوض الحرب من دون استخدام الأسلحة النووية، على الأقل لفترة طويلة بما يكفي عطاء الجميع فرصة للتفكـ ر في الخيارات المتاحة أمامهم في حال عادت الحرب مجدداً؟

اتُّهم دعاة الحرب التقليدية من قـ ل من يثقون بفعالية الردع النووي بأنهم «يحاولون جعل العالم مكاناً آمناً لحرب تقليدية». كان ذلك موقفاً معقولاً إنْ أردنا حـ اً أنْ نصدّق أنّ الخوف من حرب نووية سيكون كافياً لمنع جميع الحروب بـين الـ وى النووية إلى الأ د، ولكنّ عدداً كـ يراً من الناس لم يكن ليصدق ذلك.

فازت المجموعة الأخـ رة في النقاش، ولكن ليس على أسسٍ عقلانية، لـ لأنّ الحرب النووية خفّضت من فاعلية الأشكال الأخرى من الحروب، وكذلك من أهمية الغالبية

العظمى من الضباط الذين خدموا في فروع غ ر نووية في ال وات المسلحة. والناس عموماً لا يحبون أن يتم التقليل من أهمية جهودهم وعملهم؛ هناك بعض النقابات التجارية التي تملك من ال وة أكثر من الضباط المحترفين.

«إذا كنتَ تصدق الأطباء فلا شيء صحيّ. إذا كنتَ تصدق اللاهوت ين فلا شيء ريء. إذا كنتَ تصدق الجنود فلا شيء آمن».

اللورد ساليسبوري (Lord Salisbury)[306]

ريد العسكريون المحترفون الاستعداد للحرب دوماً لأنه «ما من شيء آمن» بنظرهم. أما الجنود فليسوا دعاة حرب عموماً، إلا أنّ «للعقل العسكري» - الشؤون ا نسانية من المنظور العسكري المهني - تأث راً هائلاً على سيرورة الأعمال ا نسانية، فالضباط العسكريون المحترفون يفهمون عميقاً دور ال وة وا كراه وال وة المفرطة في الشؤون ا نسانية. ولا يشكّل هذا المنظور مجرد خدمةٍ لمصالح شخصية، وإنما يشكّل الأرضية الأساسية لطريقة العسكريين في م اربة الح ائق الكريهة لمهنتهم.

كان تاريخ 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1803 تاريخَ ولادة المؤسسة العسكرية كجسم مستقل له وجهة نظره الخاصة ومصالحه النابعة من مسؤولياته المهنية، وليس من مجرد طموحات شخصية. وكان ذلك عندما تمّ إنشاء أول ه ة أركان عامة في روسيا (Prussia) والتي كانت وظيفتها أن تطبق على الحرب مبادئ التنظيم العقلاني والتخطيط التي أسهمت سابقاً في تحول المجتمع المدني في أوروبا؛ لوضع مبادئ أساسية للعمليات العسكرية التي

ستترشد القيادة وتساعد في تحضير خطط حربية مفصّلة لأيّ صراع محتمل مع الدول الأخرى.

بعد بضع سنوات فقط، تقدّم التحول خطوة أخرى إلى الأمام؛ عندما صدمت الهزيمة التي أوقعها نابليون قادة الجيش البروسي ودفعتهم إلى أن يحذوا حذو الثورة الفرنسية وينهوا احتكار الطبقة الأرستقراطية للوظائف في سلك الضباط؛ حيث أدرك الإصلاحيون العسكريون البروسيون أنّ «فن الحرب» في الواقع عبارة عن مجموعة من المعارف التقنية والخبرة العملية التي يمكن أن تُدرّس، حيث يمكن أنْ يختص فيه أي شخص عادي ذي ذكاء طبيعي، مثل القانون أو الطب أو أي مهنة أخرى.

«يجب أن تكون المهمة الوحيدة المُناطة بالضباط في وقت السلم هي التعلم واكتساب المعرفة المهنية. وفي زمن الحرب، ستكون مهمتهم إظهار الشجاعة المتميزة والفهم والإدراك. لذلك، إن كل فرد من الأمة يمتلك هذه الصفات سيكون مؤهلاً للوصول إلى أعلى المناصب العسكرية. وعلى هذا الأساس، تمّ إلغاء جميع ميزات التفضيل الفئوية الموجودة سابقاً في المؤسسة العسكرية. وكل رجل - بغض النظر عن أصله - تقع عليه واجبات متساوية، وله حقوق متساوية أيضاً».

مرسوم اختيار الضباط، الجيش البروسي، 1808 h[307]

أسس الجيش البروسي بعد عامين، أي في عام 1810، كلية المتطوعين التي أسماها «كريغز أكاديمي» (the Kriegsakademie) حيث اتّبع عدد قليل من الضباط الموهوبين من الرتب المتوسطة دورةً مدتها سنة واحدة في مواضيع

تتنوع بين التاريخ العسكري، والتكتيكات، والإدارة العسكرية، واللغات الأجنبية، والرياضيات، والجغرافيا، والجيولوجيا. (كان كارل فون كلاوسفايتز Karl von Clausewitz أحد المدربين الأوائل في كريغز أكاديمي، وهو الذي كتب أول دراسة عامة لنظرية وممارسة الحرب، سُمِّيت «في الحرب» On War، خلال فترة وجوده هناك). ووفقاً لهذه الدورة، أصبح خريجو كريغز أكاديمي وحدهم من يمكنهم الترقي إلى رتبة عالية، أو تبوأ مناصب عليا في الأركان العامة[308].

وضعت روسيا خلال أقل من عقد من الزمن الأسس الأولى لتنشئة الضباط المهنيين الحديثين، وأصبح الجيش مهنةً بكل ما للكلمة من معنى، وهذا يعني أنه امنحتهم حق احتكار ممارسة المهارات الخاصة من قبل الدولة؛ تماماً مثل الأطباء والمحامين، وأتيح لهم أيضاً الحق في وضع المعايير واختيار المرشحين لدخول المهنة بأنفسهم. حتى إنه أتيح لهم الحق باتخاذ قراراتهم بأنفسهم في ما يتعلق بمن ستتم ترقيته على معظم مستويات مهنتهم العسكرية، إلا أنه على مستوى أعلى الرتب احتفظت الدولة - ممولهم الوحيد - بحق الاحتفاظ بالسيطرة النهائية.

حصدت الدول التي أخذت زمام المبادرة في إضفاء الطابع المؤسساتي على الحل العسكري مزايا كبيرة لفترة طويلة من الزمن. وقد واصل الجيش الألماني، وهو الذي خلف الجيش البروسي حتى وقت متأخر من الحرب العالمية الثانية ولأكثر من قرن، تفوقه القتالي على كل أعدائه عندما كانت وحدات متماثلة من حيث النوع والحجم تشتبك معاً.

«تبيّن لنا دراسة العمليات على الجبهة الغربية وفي إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، التفوق الثابت للقوات البرية الألمانية على القوات البرية الأمريكية والبريطانية. وكضابط أمريكي متقاعد، لم أكن راضياً عن هذا الأمر، لكنني لا أستطيع أنْ أنكر ما تقوله الأرقام لي. في منتصف عام 1944، كان مئة جندي ألماني يعادلون تقريباً 125 جندياً أمريكياً أو بريطانياً، و250 جندياً روسياً. هذا كله لا يعني أنّ الجندي الألماني كان أكثر شجاعة أو ذكاء أو قوة، أو أنّ لديه دافعاً أكبر من الجندي الروسي العادي، ولكنّ معناه أنّ الجنود الألمان يستخدمون أسلحتهم ومعداتهم القتالية بشكل أفضل بمرتين ونصف مقارنة مع الروس. كانت هيئة الأركان العامة الألمانية هي المسؤولة عن إنجاز هذا التفوق أكثر من أي عامل فردي آخر. ورغم وجود جنرالات روس وأمريكيين وبريطانيين مماثلين للألمان من حيث البراعة في الحرب العالمية الثانية إلا أنّ الألمان كان لديهم حوالي عشرة أضعاف من الجنرالات الجيدين جداً».

الكولونيل المتقاعد ت. ن. دوبوي، الولايات المتحدة، مدير مؤسسة التقييم التاريخي والأبحاث، واشنطن

في النهاية، إن كل قوة عظمى قد قلّدت الابتكارات البروسية وقامت بإعداد قواتها المسلحة بطريقة احترافية؛ رغم أنّ ذلك استغرق في بعض الحالات قرناً من الزمن تقريباً. ولكن ظهور هذه المهنة العسكرية الجديدة كانت له بعض الآثار الجانبية الكبيرة وغير المرغوب فيها. وبما أنه من الواجب المهني بالنسبة لضباط الجيش القيام بتحديد التهديدات التي يتعرض لها أمن الدولة، فهم

بحثون باستمرار عن الأخطار المحتملة في الخارج، حيث تمثل كل دولة أخرى في المتناول العسكري نوعاً من التهدد؛ وذلك بحكم وجود قوات مسلحة خاصة بها. وتنعكس نتائج التخطيطات التي تقوم بها الأركان العامة على الحكومات لتزودها بسيناريوهات مفصّلة ومنتظمة لكيفية التعامل مع الصراعات التي قد تندلع في أماكن غ ر متوقعة ومع أعداء غ ر متوقعين. (حتى أواخر العشرينيات كان المخططون العسكريون في الولايات المتحدة وكندا يحتفظون بخطط معدّة دقة لغزو متبادل).

وبا ضافة إلى الميل العام لدى العسكريين لرؤية التهددات في كل مكان، هناك دائماً تنافس ين فروع الـ وات المسلحة الثلاثة (أو أكثر) التي توجد في معظم الدول. وكث راً ما يؤدي هذا إلى المبالغة في التهددات المزعومة التي تواجه الدولة بغية ت رير الحصول على بعض الأسلحة الجد دة أو للمضي قدماً في عرض القضية الخاصة بكل فرع من فروع الـ وات المسلحة للحصول على الموارد. كما أنّ هناك دائماً مدن ين مستعدين لمساعدة الـه ة العسكرية في عرض قضيتها لـ اء ثمن.

الجانب السلبي من المهنية: ضباط يجلسون كمديرين، وتبدو الحرب كمجموعة عمليات إحصائية. وهم إدارة الحرب خلال العمل في فيتنام.

«عندما كنت في وزارة الدفاع الأمريكية، كان لدي ما لا يـ ل عن خمسين عقداً تحت إشرافي لمراكز الأبحاث والرأي الموجودة في واشنطن، والتي تقدم لنا النصيحة في المسائل الاستراتيجية والتكتيكات، وحتى في كيفية نشر أنظمة الأسلحة المختلفة. وكنتُ سأمتنع عن تجد د العقود معهم في حال لم ردوا على رسائل البريد ا لكتروني في ما يخص تزويدنا بأسباب لاستخدام أنظمة التسليح الخاصة بنا. التقيتُ ذات وم شاباً يعمل في واحد من أعرق مراكز الأبحاث، وقد أخ رني أنه يـ وم بـ عداد دراسة بخصوص حاملات الطائرات لصالح الـ وات البحرية. سألته: لماذا تقومون دراسة لصالح الـ وات البحرية؛ وهي الأكثر خ رة في العالم في ما يخص حاملات الطائرات؟ فأجاب: أنا لا أعرف، ولكننا قد حصلنا على عقد من الـ وات البحرية بـ يمة 50000 دولار، وكل ما علينا الـ يام به هو تقديم توصياتنا لهم بأنهم يحتاجون إلى ثماني عشرة حاملة طائرات دلاً من خمس عشرة».

الأدميرال المتقاعد جين لاروك (Gene LaRocque)،

القوات البحرية الأمريكية، مدير سابق لمركز معلومات الدفاع

يُعرف هذا النسيج من المصالح المتشابكة التي تحرك هذه العملية في الولايات المتحدة باسم «المجمع الصناعي العسكري»؛ كما سمّاها الرئيس دوايت أيزنهاور في خطابه الوداعي عام 1961. على سبيل المثال، يعود جزء ك ير من ا نفاق على منظومة الدفاع الأمريكية إلى تحالف ين

الضباط العسكريين في البنتاغون الذين تعتمد فرصهم في الحصول على ترقيات على نجاحهم في الدفاع عن مصالح فروعهم الخاصة، والحصول على أسلحة جد دة وأدوار هامة وموارد لازمة لذلك، كما يعود أيضاً إلى العلماء الطموحين والتقن ين الذين ي دمون أفكاراً بخصوص الأسلحة الحديثة، ومستشاري الدفاع الذين يأتون باستراتيجيات ت رر الحاجة إلى تلك الأسلحة، والـ طاع الصناعي الخاص الذي وفر جزءاً ك يراً من النفوذ السياسي اللازم نجاز صفقة البيع. ولا قتصر تأث ر م اولي الدفاع على حيازتهم لكميات ك يرة من المال، ل أيضاً يأتي تأث رهم السياسي المباشر من كونهم يستطيعون تأمين فرص عمل عد دة. إنها تولية معقدة، وعادة تشق طريقها بنجاح.

تلعب العوامل ذاتها دوراً ك يراً في جميع الدول العظمى؛ أي الميل العسكري لرؤية التهد د في كل مكان، والمنافسة الشد دة على الموارد ين مختلف فروع الـ وات المسلحة، والتحالف ين الجيش واللاع ين المدن ين الذين يعيشون على العقود العسكرية. وحتى في دول مثل الاتحاد السوف يتي السا ق؛ حيث لم تكن هناك أي صلات تجارية، أنشأت الجماعات ذات المصالح التحالف الأساسي نفسه دوافع مهنية خالصة. كان المعادل السوف يتي للمجمع الصناعي العسكري يُعرف باسم تحالف «آكلي المعادن». وفي حين استطاعت فروع الـ وات المسلحة المتخصصة بالأسلحة النووية الحصول على مبالغ طائلة من حكوماتها لتنفيذ عدد أك ر من المشاريع، شنّت ـ ية فروع الـ وات المسلحة التي كانت تكره الأسلحة النووية وتخشاها لأنها هددت بجعل فروعها المهنية العسكرية غ ر ذات صلة وعفا عليها الزمن، حملةً لمدة ج ل كامل،

للحفاظ على احتمال اندلاع حرب تقليدية.

«الدبابات السوفييتية تجتاح أوروبا الغربية. الجيش البريطاني الذي هزمته ال وات الروسية في حالة تراجع، ولديه فرصة واحدة وأخ رة للب اء على قيد الحياة، وتتمثل هذه الفرصة في نشر السلاح التكنولوجي الفائق كملاذ أخ ر؛ أي الق ن لة الن ووية «المزودة بطاقة الدجاج»...

اضطرت الحكومة البريطانية في ذروة الحرب الباردة إلى وضع ثقتها في انفجار ل غم أرضي عملاق من البلوتون وم ب ي قابلاً للانفجار واسطة قطيع من الدواجن الألمانية، كان السلاح الذي ي زن سبعة أطنان والذي أطلق عليه اسم الطاووس الأزرق عبارة عن ذخ رة من الطراز الحديث تم دفنها في س هول شمال ألمانيا لتفج رها عن ب عد أو واسطة مؤقت زمني في حال انسحبت ال وات البريطانية، وذلك من أجل تدمير ال وات الروسية المتقدمة في حال اندلعت حرب عالمية ثالثة. كان مخترعو هذا السلاح ي شعرون بال لق من تأث ر الشتاء في وسط أوروبا على سلاحهم المسمى « وم ال يامة»، فلجأوا إلى حيلة «الدجاج الرومي»، حيث أوصت مذكرة في عام 1957 دفن قطيع من الدجاج مع الألغام الأرضية ب اء هذه الأخ رة دافئة».

صحيفة الإندبندنت، 1 نيسان/أبريل 2004 [309]

لم يخلُ الصراع الذي امتد طيلة خمسة وأربعين عاماً ي ن جيشي كل من حلف شمال الأطلسي (NATO) وحلف وارسو في وسط أوروبا من عنصر الكوميديا السوداء؛ باعتبار الفكرة التي تقول إنّ ال وات العسكرية التقليدية يمكنها أن تحارب لفترة طويلة في هذا الجزء من العالم قبل أن

يذهب أصحابها إلى الخيار النووي فكرةً غير قابلة للتصديق. في الأيام الأولى من الحرب الباردة، لم تشِ عقيدة «الانتقام الشامل» بأنّ هذه الفكرة مستبعدة جداً، بل كانت الفكرة السائدة هي أنه في حال هاجم الروس أوروبا فلن يكون هناك قصف تمهيدي من قبل الجيوش المجهزة بأسلحة تقليدية، وإنما ستقوم القيادة الجوية الأمريكية الاستراتيجية ببساطة بتدمير الاتحاد السوفيتي بالأسلحة النووية، ولكنّ الجنود الموجودين على الأرض لم يحبذوا هذه الفكرة إطلاقاً.

«كانت النظرية هي أنه بمجرد أن يقوم الجانب الآخر بالغزو بما لا يدع مجالاً للشك، فعندها سيتم إطلاق الذراع الاستراتيجية الأمريكية لتفجر وتحرق وتصيب بالإشعاع ما يكفي من الناس على الجانب الآخر لجعله يتوقف عما أقدم عليه، مهما كان نوعه. لقد كان هذا هذيان طفل محموم، ولكنني فقدتُ الكثير من الأصدقاء بقولي هذا، ولا سيما بين الطيارين...».

الجنرال السير جون هاكيت، القائد السابق لمجموعة

الجيش الشمالي لحلف شمال الأطلسي

«نحن نعلم أنه منذ عام 1945 تم النظر بتسع عشرة ضربة نووية في واشنطن؛ أربع منها ضد الاتحاد السوفيتي».

المارشال أوليغ آلوزيك، أكاديمية

مالينوفسكي للقوات المسلحة، موسكو

كان الانتقام الشامل هو الاستراتيجية الأكثر بساطة وضمانة والأكثر إرضاء للغرب، طالما أنه يحتكر الأسلحة النووية. أما بالنسبة للروس، فقد كان الأمر كابوساً من العجز والرهبة إلا أن يحصلوا على قدرات نووية مماثلة تقريباً لتلك الموجودة في الولايات المتحدة. ومن الناحية المنطقية، إنّ احتمال حدوث تلك الحرب بين الولايات المتحدة وروسيا قد تضاءل إلى الصِفر؛ لأنه كان من الواضح أن كلتا الدولتين سوف تُدمِّران في مثل هذه الحرب، وعلى اعتبار أنّ عدداً قليلاً من الناس كانوا يعتقدون جداً أنّ حرباً كهذه مستحيلة الحدوث. ولكنْ في هذه الفترة نفسها بعد عام 1960، بدأ الغرب على وجه الخصوص بالاهتمام بشكل جدي بقواته غير النووية في أوروبا، كما قام بوضع نظريات عن الكيفية التي يمكن التصرف وفقها في حال اندلاع حرب نووية لفترة قصيرة.

اعتقد معظم الناس – وربما كانوا محقين بذلك – أنّ الخطر الناجم من حرب تندلع في أوروبا الوسطى، حيث الملايين من قوات حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو تواجه بعضها بعضاً مباشرةً على الأرض، أكبر من خطورة أيّ ضربة استباقية ضد القوى العظمى. ولذلك، كان من المهم أنْ تكون قادرة على إدارة حرب غير نووية في أوروبا؛ على الأقل لفترة وجيزة، لإعطاء الدبلوماسيين الفرصة لوقف الانجراف إلى كارثة. (لا شك في أن الاستراتيجيين الهنود والباكستانيين الآن يعانون من المشكلة نفسها). وقد جاءت «الاستجابة المرنة» في وضع مبدأ الحرب التقليدية ضمن المخططات. وعملياً، كانت تلك سياسة حلف شمال الأطلسي في أوروبا عام 1962؛ رغم أنه لم يتم الإعلان عن ذلك حتى عام 1967، كما أنها لم تُعتمد رسمياً من قبل

حلف وارسو، ولكنّ سياسة الـ وات المسلحة السوفيتية كانت تتبنى المبدأ ذاته مع داية السبعينيات.

لم تقدّم سياسة «الاستجابة المرنة» وعوداً بأنّ حلف شمال الأطلسي (الناتو) لن يستخدم الأسلحة النووية في داية الحرب – إذ كان هناك غموض متعمَّد حول الأمر، وقد أصر الناتو دائماً على أنه قد يذهب إلى حرب نووية أولاً – ولكنْ تمّ إعداد الجنود ليبـ وا في إطار حرب تقليدية طالما أمكن إبـ اء الحرب في هذا ا طار. كانت فكرة إعادة إحياء الحرب العالمية الثانية أكثر قبولاً من فكرة اندلاع حرب عالمية ثالثة د يـ ية. وكانت المشكلة التي لا يمكن حلها هي أنه عاجلاً أو آجلاً سيكون هناك طرف سيبدأ بالانهزام؛ وعند هذه النقطة سيكون من المحتمل ظهور السلاح النووي، فإما أن يستخدمه الطرف الخاسر لأنه لن يـ بل بالهزيمة، أو أنّ الطرف المنتصر سيتوقع ردة الفعل هذه وسيـ وم بعمل استباقي باستخدام سلاحه النووي. مع ذلك، فهم يأملون بكسب المز د من الوقت قبل وقوع كارثة عالمية، وذلك بالحد من استخدام السلاح النووي ليقتصر داية على ساحة المعركة فقط.

كان نحو ستة آلاف من الأسلحة النووية التي يصل عددها إلى خمسة وعشرين ألفاً في الترسانة النووية الأميركية في منتصف الثمانينيات عبارة عن أجهزة منخفضة العائد نسبياً أبـ يت في أوروبا الغربية. (وقد أبـ ى الاتحاد السوفيتي عدداً أقل نوعاً ما من الرؤوس الحربية النووية التكتيكية في أوروبا الشرقية). ولو قرر حلف شمال الأطلسي التصعـ د، فربما سيطلب الـ ائد الأعلى لـ وات الحلفاء في أوروبا ا ذن من حلف شمال الأطلسي والبيت الأ يض من أجل تحرير واحدة أو أكثر من «حزم» الأسلحة النووية لاستخدامها في مناطق محددة من الجبهة؛ حيث

يكون الانهيار وشيكاً. قد تتألف الحزمة النموذجية - على النحو الذي حدده الدليل الميداني للجيش الأمريكي F 100-5 - من اثنين من الألغام الأرضية الذرية التدميرية، ثلاثين رأساً نووياً حربياً W48 (البلوتونيوم الانشطاري: أقل من كيلو طن) ورؤوس W33 (يورانيوم مخصب يصل إلى 10 كيلوطن) من أجل قذائف المدفعية 155 مم و8 إنش، وعشرة صواريخ لانس أو بيرشينج أرض - أرض لتوجيه ضربات نووية أعمق، وخمس قنابل B-43 تطلق من الجو (العائد: ما بين 500 و1000 كيلو طن). إنها بداية متواضعة: سبعة وأربعون تفجيراً نووياً في المنطقة المجاورة لمنطقة فولدا غاب (Fulda Gap)[310] بعائد كلي يصل إلى 3000 كيلو طن. وللمقارنة، كانت قنبلة هيروشيما أقل من 20 كيلو طن.

ولو وقعت هذه الكارثة فلن تُدمِّر الجيوش المتواجدة على الجبهة الأمامية وحدها بفعل ذلك، بل ستودي هذه الكارثة بحياة ملايين أو عشرات الملايين من المدنيين في وسط أوروبا في غضون أيام؛ حتى لو اعتبرنا أنّ الهدف من التصعيد إنما هو دفع الطرف الآخر للتفكير ملياً قبل أنْ يُقْدِم على استخدام السلاح النووي الاستراتيجي ويتسبب بدمار نصف الكرة الأرضية الشمالي بكامله.

ما من قائد عاقل قام بالتخطيط وتنفيذ هجوم متعمد ضد الطرف الآخر في أوروبا؛ فما من مكاسب مرجوة من عمل كهذا، بالإضافة إلى الدمار الذي سيلحق بالعالم من جرّاء ذلك. إضافة إلى ذلك، نجحت القوات التقليدية الكبيرة المتواجدة على طرفي الحدود بميلها الطبيعي للتصرف؛ حيث تتجنب نشوب الحرب عن طريق ترك انطباع في أذهان الجنود

والسياسيين في كلا الطرفين بأنّ الطرف الآخر قد ي اتل باستماتة في حال شعر أنه قادر على تد يق النصر.

«سؤال: تفترض جميع مناوراتكم التدريبية في أوروبا الوسطى حصول هجوم سوف يتي. هل تتضمن المناورات السوف يتية في الم ا ل افتراض شنّ هجوم من ق ل حلف شمال الأطلسي أولاً؟

ا جابة: هذا بالضبط ما يومون به: حيث ت دأ السيناريوهات الخاصة بهم دائماً بهجوم لحلف شمال الأطلسي، ومن ثم رت ون لحركة التفافية ويبدأون بع ور نهر الراين بسرعة ك يرة لمواجهة الهجوم».

الأدميرال روبرت فولز، رئيس اللجنة العسكرية

لحلف شمال الأطلسي، 1980-1983

كانت فترةً فاصلةً غ ر عادية امتدت لأربعة عقود، وشملت فترة الحياة العملية لج ل من الجنود، حيث كانت هناك محاولات مستمرة لتحويل أوروبا الوسطى إلى ساحة لعب، حيث تمكّنت ال وى العظمى من الحفاظ على الحرب التقليدية التي كانت على وشك أن تخلي الساحة لصالح الحرب النووية. كانت المشكلة في أنّ الخط الفاصل الذي رسمته تلك ال وى ي ن الحرب التقليدية والحرب النووية كان مصطنعاً، وربما كان خطاً واهياً. فلو تمكّن أحد الأطراف من تد يق انتصارات في حرب تقليدية كان نشوبها محتملاً، لما توانى الطرف الآخر عن استخدام أسلحته النووية، وعندها من شأن حالة متوترة كهذه أن تدفع باتجاه تع د أك ر. وهكذا، كان من شأن حرب تقليدية

تنشب في أوروبا الوسطى – سواء أكان أحد أطرافها منتصراً أو خاسراً أو كان الطرفان متعادلين – أنْ تقود إلى حرب نووية في غضون أسبوعين.

«لطالما خفتُ من الموت؛ منذ أن كنت قائداً لأحد أقسام ألمانيا في أواخر الخمسينيات. وقد ظهرت الأسلحة النووية لأول مرة كسحابة غاضبة، ولا شك في أنّ افتراض إمكانية التحكم بحرب نووية محض خيال، فبمجرد اندلاع حرب نووية في الساحة الأوروبية أنت تفتح صندوق باندورا (Pandora's box)[311]، ولا يمكنك عندها أن تعرف ما سيحدث. سيكون احتمال التصعيد المبكر وارداً بقوة، مما سيؤدي إلى تغييرات كبرى لا أحد يريدها، ولذلك لا يجب استخدام هذا السلاح الخطير».

الجنرال السير جون هاكيت (John Hackett)

كانت نوايا الجميع جيدة، ولكنْ لو حصل إطلاق النار في أي وقت من الأوقات فمن المحتمل أنه كان سيدمر معظم القارة الأوروبية، في واحدة من آخر مناورات القيادة السنوية لحلف شمال الأطلسي والمسماة WINTEX 83، قبل أنْ تبدأ الحرب الباردة بالانحسار. كان السيناريو يتضمن عبور قوات حلف وارسو الحدود إلى ألمانيا الغربية في 3 آذار/مارس. وفي 8 آذار/مارس، سيطلب قادة حلف شمال الأطلسي الإذن لاستخدام أسلحتهم النووية لوقف الاختراق السوفييتي، وعندها سيصدر أول أمر بضربة نووية ضد حلف وارسو يوم 9 آذار/مارس. وهكذا، تكون الحرب التقليدية قد استمرت ستة أيام فقط.

«باكستان ليست دولة ديمقراطية، ونحن لا نعرف مدى

قدراتها النووية. سنقوم بالرد، ويجب علينا أن نكون مستعدين لتحمل التدمير المتبادل على كلا الجانبين».

يوغندرا نارين (Yogendra Narain)، وزير الدفاع الهندي، 2002

وضعت الـ درة على إنتاج الأسلحة النووية قيوداً على الـ درات العسكرية التقليدية عند الـ وى النووية الجد دة؛ كما كان الأمر عند الـ وى النووية الخمس المعلنة منذ وقت طويل. وقد خلصت دراسة حديثة أجريت في جامعة إلينوي إلى أن أي حرب نووية في شبه الـ ارة الهندية من شأنها أن تودي بحياة 17 مليون شخص في باكستان، و30–35 مليون شخص في الهند، مع احتمال أن ترتفع هذه الأرقام؛ على اعتبار أن العدد الحالي للأسلحة النووية بحدود مـ ة بالنسبة للهند، وربما أقل من خمسين بالنسبة لباكستان. ونتيجة لذلك، عادت الـ وتان في شبه الـ ارة إلى «قيود العقلانية» نفسها التي كتب عنها وليم كوفمان عند تناوله الصراع ين الولايات المتحدة والاتحاد السوف يتي عام 1955، حين توقع أنه لا يمكن تحـ يق شيء من هذه الحرب. اضطرت إسلام آباد و ن ودلهي – شأنهما شأن موسكو وواشنطن خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 – للاعتراف بهذا الواقع خلال المواجهة العسكرية الخطيرة حول كشمير في ربيع عام 2002، عندما حشدتا أكثر من مليون رجل على طول الحدود المشتركة ين البلدين، ومن ثم قامتا بتخفيض العدد مرة أخرى بعد عشرة أشهر.

كما أظهرت العلاقات السوف يتية الأمريكية بعد عام 1962 أنّ الاعتراف بنقاط

الضباط الباكستانيون والعلماء أمام صاروخ ذي قدرة نووية، حزيران 2004، في مكان لم يكشف عنه. الرئيس الباكستاني الجنرال برويز مشرف الثالث من الجهة اليمنى.

الضعف المشتركة لا ي ود بالضرورة إلى تراجع فوري في التوترات العسكرية؛ فالهند وباكستان لا تزالان في مرحلة خطيرة للغاية؛ كتلك التي مرّ بها الروس والأمريكيون في أوائل الستينيات. كانت الترسانة النووية الصغ رة لدى كل منهما عرضة للتدمير من ق ل الطرف الآخر بسبب إنذارات كاذبة؛ سواء أكانت تكنولوجية أو د لوماسية، مما تسبب بضغوط بشأن الجدل الدائر حول استخدام الأسلحة النووية أو التخلص منها. (لا تزال خطط الهند الحالية لنقل جزء من سلاح الردع النووي إلى غواصات نووية روسية في البحر تحمل صواريخ كروز هندية الصنع (BrahMos) بع دة التحد ق. وعلى أي حال، لن تلغي التوتر الد ائم في العلاقات ما لم تقم باكستان بخطوات مماثلة).

بصرف النظر عن كل ذلك، إنّ مخاطر نشوب صراع نووي تج ر صناع السياسة الهنود والباكستان ين على التخلي عن أي أوهام بتحد يق نصر عسكري حاسم على الطرف الآخر.

ولكنهم كانوا غارقين في أوهامهم مسب اً، فقد أثبتت الهند وباكستان أنّ الد وة العسكرية لا يمكنها أنْ تفرض تسوية سياسية دائمة. خسرت باكستان ثلاث حروب أمام الهند قبل أنْ تدخل الأسلحة النووية في المعادلة؛ وهي د يقة مدهشة، حيث إن عدد سكانهاْ لا يتجاوز نسبة واحد إلى سبعة من سكان الهند، ولكنْ من شبه المستحيل وفق جميع المع ايس التاريخية أنْ يتم تدمير أي من الدولتين الحديثتين؛ فباكستان المعاصرة دولة غنية

بالثروات ولديها حكومة مركزية فعالة والملايين من المواطنين ذوي التعليم العالي، كما أنها تواكب التكنولوجيا والعلوم الحديثة. لقد عملت باكستان بجدّ على مواكبة التطور الذي تحققه الهند في مجال السلاح النووي منذ أول اختبار أجرته الهند، وهو «تفجير نووي سلمي» في عام [. وبحلول عام 1998، كانت باكستان قادرة تماماً على مواجهة التحديات النووية التي تفرضها الهند التي قامت بسلسلة من ستة اختبارات نووية (أتت لتؤكد أنّ الهند من القوى العظمى في العالم) مقابل خمسة اختبارات نووية لباكستان. إن نتيجة أكثر من نصف قرن من المواجهة العسكرية كانت حالة من التوتر الدائم التي لم يعد لها معنى بالنسبة للهند التي يفوق تعداد سكانها جارتها باكستان بسبع مرات.

«إذا خسرنا هذه الحرب، فسأبدأ حرباً أخرى باسم زوجتي».

تُنسب هذه العبارة إلى موشيه ديان Moshe Dayan[312]

الأمر نفسه ينطبق بالضبط على المواجهة العربية الإسرائيلية التي بدأت بعد عام واحد فقط من الحرب الهندية الباكستانية. إذ تمّ منع انتصار العرب الذي كان مستبعداً منذ البداية مع تطوير إسرائيل أسلحة نووية في أوائل الستينيات، ولكن احتكار الأسلحة النووية لمدة أربعة عقود في الشرق الأوسط لم يعطِ إسرائيل أي مزايا ملموسة؛ وباعتبارها دولة غربية مع نظام تعبئة أوروبي كلاسيكي، كانت إسرائيل قادرة على حشد المزيد من القوات على أرض المعركة بالمقارنة مع خصومها العرب؛ وذلك في أربع من حروبها الخمس، وفي حروبها كافة باستثناء حرب الاستقلال

1949-19، كما كانت تحتفظ بمزايا تكنولوجية ك رى أيضاً. وقد أتبعت إسرائيل نجاحها في الهجوم على مصر بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا عام 1956 بانتصارها من دون مساعدة عام 1967 واستيلائها نتيجة لذلك على شبه جزيرة سيناء بأكملها وإغلاق قناة السويس لمدة عشر سنوات. ولكنّ الانتصارات العسكرية ا سرائيلية لم تحقق نجاحاً سياسياً دائماً.

تمّت استعادة شيء من التوازن العسكري بعد هجوم مصر المحدود في حرب عام 1973، مما جعل التسوية السلمية بين مصر وإسرائيل ممكنة على طول حدود عام 1948. وبالمثل، أدّت ثلاثة انتصارات عسكرية إسرائيلية على سوريا إلى وقوع مرتفعات الجولان في يد إسرائيل. ولكن، لا يمكن لأي حكومة سورية أن تقبل بتسوية سلمية ما لم تتمكن من استعادة حدود عام 1948. وبعد عشرين عاماً من الاحتلال العقيم وازدياد الخسائر ا سرائيلية، انسحبت إسرائيل من جانب واحد من جنوب لبنان في عام 2000. لا أحد من ج ران إسرائيل لديه طموحات جادة ليكون قادراً على تدمير إسرائيل عسكرياً، ولكنْ حتى مع الدعم غ ر المحدود من الولايات المتحدة - الد وة العظمى الوحيدة الباقية في العالم - فإنّ إسرائيل غ ر قادرة على تحويل قوتها العسكرية الساحقة إلى سلطة سياسية إقليمية، أي لا تملك الق درة على التحكم بالنتائج.

لا وجد مكان ظهرت فيه المرونة المطلقة للدولة الحديثة بصورة أكثر وضوحاً مما حصل في أك ر حرب جرت في أواخر الق رن العشرين؛ الحرب العراقية ا رانية 1-1988. كانت محاولة العراق استغلال الاضطرابات في أعقاب الثورة ا رانية عام 1978-1979 والاستيلاء على المنطقة

الغنية بالنفط والناطقة باللغة العربية في جنوب غرب إ ران عملاً أحمق، فإ ران لديها ثلاثة أضعاف سكان العراق، وقد أثارت الثورة الـ ومية ا رانية، في حين كان العراق يخضع لديكتاتورية فجة تحكم شعباً يعاني من انقسام عميق من حيث العِرق والدين. ومع ذلك، ثبُت في نهاية المطاف أن طهران غ ر قادرة على هزيمة بغداد؛ إذ بـ ي الشيعة في العراق – وهم الغالبية العظمى من السكان – موالين للدولة العراقية؛ على الرغم من نداءات إخوانهم في الدين في إ ران، كما تمّ سحق التمرد الكردي في شمال العراق بطريقة وحشية وبنجاح.

عندما توصّلت الولايات المتحدة المنزعجة من ا طاحة بعميلها شاه إ ران إلى تحالف فعلي مع نظام صدام حسين في عام 1983، أصبح الصراع ين إ ران والعراق غارقاً في حرب الخنادق الدامية التي تشبه إلى حد ك ير حالة جمود الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى؛ بما في ذلك الاستخدام المكثف للغازات السامة من قبل العراقيين. وقد حاولت إدارة ريغان المساعدة جدياً على تحـ يق انتصار عراقي، فنظمت حظراً غ ر رسمي على تصد ر الأسلحة إلى إ ران، وشجّعت حلفاءها على يع الأسلحة الحديثة إلى العراق، وقدمت معلومات استخباراتية من الأقمار الصناعية وسلاح الجو الأمريكي لمساعدة العراق في التخطيط لهجماته ضد ا رانيين في الخنادق، حتى إنها حاولت التستر على استخدام صدام حسين للغاز السام ضد مواطنيه الأكراد بـ عطاء تعليمات لوزارة الخارجية بـلـ اء اللوم على إ ران، ولكنْ ثبت أنه من المستحيل كسر إرادة ا رانيين على المـ اومة. انتهت الحرب عام 1988 باستنزاف لـ وى الطرفين، ومن ثم العودة إلى الوضع السا ق قبل الحرب.

أصبح فشل ال وة العسكرية التقليدية في تقديم نتائج حاسمة مزمناً؛ حتى في المواجهات التي لا تفرض فيها الأسلحة النووية حدوث شلل استراتيجي. وهكذا، أصبح في العالم في مطلع ال رن الحادي والعشرين جانب غ ر مألوف. فقد اختفت الحروب ع ر الحدود - وهي العنصر الرئيس في السياسة الدولية على مر العصور - تقريباً من الأمريكيتين وأوروبا وأوقيانوس، ومعظم آسيا. وإذا تركنا الربع الجنوبي الغربي المضطرب في آسيا، والذي يمتد من كشمير ع ر أفغانستان والعراق إلى إسرائيل - منطقة الشرق الأوسط الك ير إذا جاز التع ير - فإن الحربين الدوليتين الوحيدتين اللتين تم خوضهما في السنوات الثلاثين الماضية في أي مكان من هذه المناطق الشاسعة والتي تعت ر موطناً لأكثر من 80 بالم ة من سكان العالم كانتا الغزو الفيتنامي لكمبوديا في عام 1979، والحرب الأنجلو - أرجنتينية عام 1982.

لا تزال منطقة جنوب الصحراء الك رى في أفري يا تكتنفها الحروب. فرغم أنه وجد فيها فقط 10 بالم ة من سكان العالم، إلا أنها في العقد الماضي شهدت مقتل ما لا ي ل عن نصف قتلى الحرب على الكوكب بأسره. كانت الحرب الأكثر سوءاً في السنوات ال ليلة الماضية هي الحرب متعددة الجوانب في جمهورية الكونغو الديم راطية؛ أي الدولة التي تحتل المرتبة الثانية بعد ني ج ريا من حيث عدد السكان، والتي اشتركت فيها ستة ج وش أفري ية أجن ية، وقتل فيها أكثر من مليون شخص. ولكنها كانت الحرب الأفري ية الوحيدة في السنوات الأخ رة التي كان لها بعد دولي مهم، وكانت معظم أسبابها ترتبط بشؤون داخلية؛ دافع السياسة العرقية المعقدة والفريدة

في أفريـ يا.

تُعتـ ر أفريـ يا من يـن جميع الـ ارات المأهولة الـ ارة الوحيدة التي لم تشهد آلاف السنين من الحكم الاستـ دادي؛ كالذي قام تدريجياً بطحن المجموعات العرقية الكثـ رة في أوراسيا وتحويلها إلى عدد معقول نسبياً من المجموعات العرقية الكـ يرة - يتكلم 75 بالمـ ة من الأوروبيين ثماني لغات فقط، ويتكلم نصف الآسيويين ثلاث لغات فقط - كما لم تشهد أفريـ يا إبادات جماعية كتلك التي خفّضت بشكلٍ كـ ير التعقيد العرقي في الأميركتين وأستراليا، واستعاضت عن ذلك بعدد صغـ ر من الثقافات المستمدة من أوروبا؛ فأفريـ يا تحتفظ بمعظم جماعاتها ا ثنية العرقية الأصلية - أكثر من 200 جماعة عرقية بلغ عدد أفراد كل منها أكثر من ربع مليون، ولكنّ عدداً قليلاً منها فقط يصل تعداده إلى أكثر من 10 ملايـين - ولذلك كانت أكثر بكثـ ر من حيث الحروب الداخلية.

ساهمت الحروب الأفريـ ية بشكل كـ ير في توليد الانطباع الخاطـ بأنّ العالم كله يعاني من الحروب. في الواقع، هناك الكثـ ر من الدول في أماكن أخرى من العالم تعيش بسلام، من دون أن تتواجد احتمالات كـ يرة لنشوب حرب إلى جوارها في المستقبل المنظور. ومن الصعب الحكم على مدى مساهمة تنامي عجز الـ وة العسكرية في تحـ يق نتائج مرضية لهذه الظاهرة، غـ ر أنه لعب بالتأكـ د دوراً معيناً: هناك عدد قليل من الأمثلة الحديثة على الانتصارات العسكرية التي كانت لها نتائج مربحة بشكل دائم للمنتصر، وينطبق هذا أيضاً على الانتصارات السهلة؛ كتلك التي تحدث عندما تستخدم الدول الغنية

والمتقدمة تكنولوجياً قواتها المسلحة ضد الديكتاتوريات الفاسدة والعاجزة في العالم النامي.

«يمكن وصف تاريخ المؤسسة العسكرية الحديثة بأنه صراع يـن الـ ادة الأبطال الذين يجسدون التقاليد والمجد، و«المد رين» العسكريين...

المد رون العسكريون... دركون أنهم د رون منظمات محاربة... ولكنهم يهتمون بصورة أساسية بالطرائق الأكثر عقلانية واقتصادية لكسب الحروب أو تفاديها... الـ ادة الأبطال... ينكرون أنهم معادون للتكنولوجيا، ولكن بالنسبة لهم إن التقاليد البطولية للرجال المحاربين – والتي لا يمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق الشرف العسكري والتقاليد العسكرية والطريقة العسكرية في الحياة – في غاية الأهمية».

موريس جانوفيتز (Morris Janowitz)، الجندي المحترف[313]

إنّ قناعة الجندي التقليدي هي أنّ المعركة ليست عملية إحصائية، وأنه لا يمكن كسبها باتباع النهج ا داري. ويرى ضباط الجيش التقليد ون أنفسهم كمحاربين وليس كمد رين؛ على الرغم من أنهم كانوا دائماً عبارة عن مزيج من الاثنين معاً. إنّ الـ بول بأنّ التكنولوجيا أكثر أهمية من إرادة ا نسان يعني التقليل من الاعتماد على البشر، وبالتالي تقليل عدد الضحايا منهم؛ فيصبح العنصر البشري أقل أهمية. ولذلك، يميل الضباط المحاربون في كل جيش إلى رفض الفكرة بشدة. تحتوي الج وش في ومنا هذا على العد د من الضباط ذوي البنى ا دارية دلاً من «البطولية»، كما أنّ الفكرة التي تقضي بأنّ كل الصعوبات

ا نسانية في القتال يمكن خفضها إلى معادلات بسيطة ت دو مغرية جداً. فإذا كان الأمر صحيحاً، فإنّ القتال البري يصبح علماً يمكن توقعه، وليس فناً غامضاً تكون فيه فرصة نجاح ال ائد الج د هي نفسها فرصة اللاعب الج د في الفوز. ولكنّ العناصر التكنولوجية واللوجستية للحرب - والتي تكون أكثر ملاءمة لـ صلاح أثناء عملية التخطيط - تميل إلى الحصول على حصة لا داعي لها من الاهتمام في زمن السلم؛ وهذا ما دفع عدداً من الج وش - أ رزها ج وش الولايات المتحدة؛ المجتمع التكنولوجي الأ رز - لتمج د دور المد ر والمخطِّط بالم ارنة مع ال ائد القتالي التقليدي الذي لا يمكن تقييم دوره إلى أن بدأ إطلاق النار؛ ولذلك مُنِح المد رون الأكفاء والخ رات التكنوقراطية أك ر الموارد. هناك شيء من هذا ال بيل كنموذج وطني في الج وش (التي يتشارك أعضاؤها معظم ال يم الأساسية والافتراضات السائدة في المجتمع المدني الذي تمّ اختيارهم منه). وفي الحالة الخاصة بالجيش الأمريكي، إن «المد رين» قد تولوا الأمور تماماً تقريباً في عدة مناسبات.

«بـ مكان التكنولوجيا المتوفِرة للعسكريين الأمريك ين - وهي اليوم قيد التطوير - أنْ تُحدث ثورة في الطريقة التي ند ر بها العمليات العسكرية. هذه التكنولوجيا يمكنها أن تعطينا ال درة على رؤية ساحة معركة ك يرة بحجم العراق أو كوريا - مساحة 200 ميل - بمصداقية، با ضافة إلى الفهم وحسن توقيت غ ر مسبوق، ليلاً أو نهاراً، وفي أحوال الط س كافة، وفي كل الأوقات».

الأدميرال وليام آ أوينز (Admiral William A. Owens)، نائب رئيس الأركان الأمريكي السا ق[314]

تأتي الغطرسة التكنولوجية التي تصيب الكث ر من الناس في المجمع الصناعي العسكري الأمريكي - حيث التوقعات بشأن «الثورة في الشؤون العسكرية» تتصلب لتأك د الثقة في أعقاب غزو العراق عام 2003 - من مصدرين. أحدهما هو ما يسمى «بثورة المعلومات»؛ وهو مزيج من أجهزة الاستشعار المتطورة ومعالجة البيانات التي تشجع بعض المنظرين العسكريين على تصور أنّ «ضباب الحرب» يمكن أنْ يت دد في نهاية المطاف، وأن يتم القضاء على «احتكاك الحرب». ووُجِد المصدر الثاني في الأجيال الجد دة من الأسلحة الموجهة ذات «ال درة على القتل من الطلقة الأولى»، والتي يُزعَم أنها تسمح لل ادة بالعمل على هذه المعلومات كافة على الفور، مع موثوقية في النتائج - وتأك د الوعد بعدم تعريض المشغلين لخطر جسيم - وكلها معاً تولِّد الوهم بأنّ العمليات القتالية يمكن تخفيضها في عملية إدارية تجري وفقاً لحسابات عقلانية، مع نتائج يمكن توقعها، والتي تربح فيها دائماً التكنولوجيا الفضلى.

تعمل التكنولوجيا في بعض الأحيان ضد خصم متخلف وغ ر كفؤ بما فيه الكفاية بشكلٍ فعالٍ لفترة من الوقت؛ كما هو الحال في الحروب ال صيرة التقليدية التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق في عام 1991 وعام 2003. ولكنّ التقنيات نفسها التي جعلت الأسلحة الجد دة ممكنة، أوجدت أيضاً أشكالاً جد دة من وسائل ا علام التي تنقل واقع الحرب إلى الوطن لجمهور لم يسبق له أن تعامل معها. وقد أدى هذا إلى إيجاد ثغرة خطر جد دة وكاملة بالنسبة لج وش الدول المتقدمة؛ أي رفض حاد من قبل السكان المدن ين ل بول ارتفاع عدد القتلى والجرحى في الحروب التي

تـ دو أقل حيوية لبـ اء الأمة. والمرة الأولى التي كان فيها لهذه الظاهرة تأثـ ر كـ ير على الأحداث كانت أثناء الحرب الكورية 1950–1953.

«لاحظ الرئيس أنه كلما زاد ا سراع في عملية استخدام (القنا ل الذرية ضد الصين)، قلّ خطر التدخل السوفـ يتي».

مذكرة لجنة الأمن القومي، أيار 1953

كانت رغبة الرئيس دوايت أيزنهاور باستخدام الأسلحة النووية إذا لزم الأمر – لكسر الجمود في محادثات الهدنة الكورية عام 1953 – أقل إثارة للصدمة في عصر خرج لتوه من حرب شاملة بالمـ ارنة بما هو عليه الحال اليوم. ولكنّ موقفه كان بالتأكـ د متطرفاً عموماً بالنسبة لزعيم معتدل. ومع ذلك، لـ د شعر أنه مضطر لذلك؛ لأنه كان قد انتُخب على وعد بـ نهاء الحرب التقليدية في آسيا التي كلفت ما يـ ارب خمسين ألف ضحية أمريكية منذ غزو كوريا الشمالية لجارتها كوريا الجنوبية قبل ثلاث سنوات.

بـ عد الاندفاع ذهاباً وإياباً على طول شبه الجزرة الكورية، استقرت الجبهة بـ شكلٍ قريب إلى حد ما مع الحدود السا قة يـ ن الكوريتين الشمالية والجنوبية على طول خط الـ عـ رض 38. وبحلول عام 1953، أُرسلت وحدات من «المتطوعين» في الـ وات الصينية من قبل الحكومة الشـ وعية التي شُكلت مؤخراً في بـ كين لتحل محل الـ وات الكورية الشمالية على الجبهة التي تواجه الولايات المتحدة وقوات الأمم المتحدة الأخرى. كان من الواضح أن الوقت قد حان عـلان الحشد والتحرك للأمام، ولكن الرأي

العام الأمريكي كان في ثورة ضد الحرب، وهكذا شعر المفاوضون الكوريون الشماليون والصينيون في محادثات وقف إطلاق النار في يونغ يانغ بأنهم قد وضعوا أيزنهاور على فوهة البركان. وكل ما كان عليهم ال يام به هو المماطلة لفترة أطول بـ ليل، وبالتالي سيضطر لمنحهم شروطاً أفضل. عندها، رفع أيزنهاور المؤشر عن طريق تهد ده بشن هجوم نووي على الصين.

تحمل الأميركيون أربع سنوات من الحرب وفقدان نحو ثلث مليون قت ل خلال الحرب العالمية الثانية من دون شكوى؛ لأنهم كانوا مقتنعين بأنّ الموضوع يشتمل على قضايا أمنية ووطنية وأخلاقية ك رى. وبعد أقل من عقد من الزمن في وقت لاحق، وقفوا ضد حرب استمرت لمدة ثلاث سنوات، وراح ضحيتها أقل من سدس عدد القتلى الأمريكيين الذين قضوا في الحرب العالمية الثانية؛ لأنهم ببساطة لم يعتقدوا أنّ ذلك كان ضرورياً. ربما كانوا على خطأ، لأن الحرب الكورية كانت أول اختبار جدي لـ واعد الأمم المتحدة الجد دة التي تحظر أعمال العدوان، ولكنهم الناخ ون، وقد أعلنوا رأيهم حينها. نجح تهد د أيزنهاور في إي اف إطلاق النار والقتال في كوريا بعد فترة وجيزة، ولكنه كان داية لظاهرة جد دة: المعارضة الشع ية للحرب حتى أثناء استمرار القتال. وبعد خمسة عشر عاماً في فيتنام كان الأمر أسوأ بكث ر.

لا يزال يُنظَر للحرب الأمريكية في فيتنام، والتي حدثت بين عامي 1965–1973، على نطاق واسع على أنها حرب ضد العصابات، ولكنها في الواقع لم تكن ش ئاً من هذا الـ بيل. شاركت في الحرب أقلية من الـ وات الأمريكية وأغلبية

من الـ وات الفيتنامية الجنوبية في مهمة كلاسيكية ومتعبة للغاية شملت عمليات مكافحة التسلل والحفاظ على الأمن الداخلي، ولكنّ معظم الوحدات القتالية الأمريكية شاركت في «حرب محدودة» وشبه تقليدية تقريباً منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى البلاد. ويعزى ذلك أساساً إلى حـ يقة أن الفيتناميين الشماليين اختاروا خوضها بهذه الطريقة:

«كانت لدى الأميركيين صورة عن الحرب؛ بأنها حرب عصابات مع تصورات ضـ قة: أساساً، إن أي نوع من حرب الغابات يجب أن يكون في الواقع حرب عصابات. وقد قادت صورة حرب العصابات والتلفزيون الجميع إلى الاعتقاد بأنّ كل ما كان يجري في فيتنام عبارة عن حرب عصابات. لـ د رأوا لـ طات من الشريط ا خباري وشاهدوا عدداً من الصور التي كانت تتكرر أسبوعاً بعد أسبوع، وسنة بعد سنة: الناس يتراكضون في حـ ول الأرز، والناس يمرون في غابة كثيفة حيث لا تعتقد وجود وحدات أخرى تقاتلك هناك، كما رأوا شريطاً من فـ لم بيّن الـ رى وهي تتعرض للـ صف.

في جميع الحالات لا يمكنك أن ترى العدو، وهذا بدو وكأنه يؤكد صورة العصابات شد دة المراوغة. أنت هنا مع الكثـ ر من الـ وى الثقيلة التي تتحرك حولك محاولة العثور على العدو. العدو يطلق النار، يصيبك، ولكنك لا تصيبه، فهو يهرب بعـ داً عنك. دمرت الـ رية أو أي شيء آخر، ولكنك لم تحصل على أي نتائج.

في الواقع، وفي الكثـ ر من المرات، كانت قوات فيتنامية شمالية كـ يرة جداً وتقليدية تحارب عند تسجـ ل تلك اللـ طات ا خبارية، ولكنّ النقطة المتعلقة

بالـ طات ا خبارية هي أنك لا ترى العدو مطل اً. لذلك دت حرب فيتنام بكاملها وكأنها حرب ضد المتمردين، ولكن بطبيعة الحال ليس فيها شيء من هذا الـ بيل. ذهبت الوحدات الأمريكية إلى الأدغال، وإلى المرتفعات في الجزء الغربي من البلاد حيث يعيش العدو، وذهبت مباشرةً للمعركة ضد العدو الرئيس وفق الأسلوب العسكري الـ ديم الكلاسيكي. وبمجرد وصولها إلى هناك، كان الأمر عبارة عن قوة أمريكية تقليدية تقاتل ضد عدو آسيوي مجهز بشكلٍ طفيف ولكنه عدو تقليدي».

توم تلينكو (Tom Tulenko)، مستشار عسكري أمريكي سابق، فيتنام

كانت الاستراتيجية الأمريكية تهدف لوقف التدهور في جنوب فيتنام عن طريق نشر قوات مـ اتلة كافية على الأرض لرفع الضغط عن الجيش الفيتنامي الجنوبي (الذي كان على وشك الانهيار في عام 1965). وفي حين أنّ العنصر الهجومي اعتمد على قصف جوي «محدود»، إلا أنه كان على نطاق واسع من فيتنام الشمالية. شملت نظرية التصع د هذه قائمة ك يرة من الأهداف حتى وصول هانوي إلى «عتبة الألم»، وامتنعت الـ وات الاميركية عن إرسال وحدات نظامية جنوباً على طول طريق هوشي منه إلى فيتنام الجنوبية. قال هنري كيسنجر مستشار الأمن الـ ومي الأمريكي لمعاونيه عام 1969: «لا أستطيع أنْ أصدق أنّ قوة من الدرجة الرابعة مثل فيتنام لا توجد لديها نقطة انهيار!». ولكنْ، لم يتم الوصول إلى عتبة الألم لنظام قومي وشمولي بلا رحمة مثل فيتنام الشمالية عندما صعّد الأمريكيون من قصفهم ليطال هانوي وهايفونغ.

تأسست الاستراتيجية الأمريكية على حجة تستند إلى أسس أفكار أيدولوجية مسبقة بدلاً من حقيقة الواقع؛ وهي أنّ التهديد لنظام فيتنام الجنوبية في عام 1965 لم يأتِ من قوات حرب العصابات المحلية (الفيتكونغ) التي تتمتع بقدرٍ معين من الدعم اللوجستي (التموين) من الشمال – وهذا هو الواقع الحقيقي – وإنما من تسلل واسع النطاق لوحدات الجيش الفيتنامي الشمالي العادي عبر طريق هوشي منه. لذلك قيل إنه إذا كان بالإمكان إجبار هانوي على وقف عمليات التسلل، فإنّ المشكلة في جنوب فيتنام سوف تُحل. ومع ذلك، جاء إرسال أعداد كبيرة من القوات القتالية الأمريكية إلى جنوب فيتنام في صالح تحويل تقييم واشنطن الخاطئ للحالة إلى تقييم دقيق؛ لأن هانوي ردت عن طريق إرسال أعداد كبيرة من قواتها إلى فيتنام الجنوبية.

كان الجيش الفيتنامي الشمالي مع نهاية عام 1968 يشرف فعلياً على جميع العمليات في الجنوب، وتمّ استبدال معظم كوادر عصابات الفيتكونغ بضباط من الجيش النظامي لفيتنام الشمالية، وكانت فرق عسكرية كاملة من الجيش الفيتنامي الشمالي تعمل في منطقة المرتفعات الوسطى. وبالتالي، توفرت للأمريكيين الأهداف الصعبة التي أرادوا مواجهتها في معارك مفتوحة وإلحاق الخسائر الفادحة

الدعاية في الغابة، فيتنام الجنوبية.

به‌ا. كانت فيتنام الشمالية تخالف كل الـ واعد التقليدية لحرب العصابات؛ فـ دلاً من ذلك، كانت تعمل بشكلٍ شـ يـه بمعركة عام 1954 التي جرت مع الفرنسيين في ديان يان فو، ولم تكن تهتم بالفوز بالمعركة أو خسارته‌ا، كما حصل في حصار كي سان المماثل فـ ي 1967–1968. كان هدف الفيتناميين هو توريط الأمريكـ يـن في معارك شرسة، حتى إنهم كانوا يـ بلون بخسارة بنسبة عشرة إلى واحد، والتي كانت نتيجة حتمية لـ وة النـ ران الأمريكية المتفوقة. وقد تمكن الفيتناميون الشماليون من إيـ اع عدد ثابت وكـ ير من الضحايا الأميركـ يـن؛ الأمر الذي كان من شأنه أن دمر إرادة الشعب الأمريكي ويجـ ره على عدم المتابعة.

«قال الكولونيل هاري سومرز لكولونيل من فيتنام الشمالية (في محادثات باريس للسلام في عام 1973): «كما تعلم، لا يمكن أنْ تهزمونا في ساحة المعركة». فرد عليه نظيره الشيوعي: «قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن ذلك أيضاً غير ذي صلة»»[315].

تمّ الأمر بالضبط كما حسبته هانوي. لم تخسر القوات الأمريكية أي معركة في فيتنام، ولكن الأمر استغرق ثلاث سنوات من القتال، وبلغ ذروته في هجوم هانوي «الانتحاري» المسمى تيت (Tet) عام 1968، لتكسب فيتنام الشمالية المعركة على الجبهة الأمريكية الأساسية. قتل من الأمريكيين خمسة عشر ألف جندي في فيتنام قبل تيت[316]. ومن الناحية العسكرية البحتة، كان تيت انتصاراً للقوات الأمريكية. ولكن حتى هذا الحجم من الخسائر – عندما قترن بالتغطية التلفزيونية للحرب التي لا هوادة فيها – ثبُت أكثر أنّ الرأي العام الأمريكي كان على استعداد لتحمله في مثل هذه القضية المشكوك فيها. بعد تيت وفوز ريتشارد نيكسون في الانتخابات الرئاسية في نهاية ذلك العام، أوقفت الحكومة الأمريكية البحث عن المعارك، وبدأت تبحث عن وسيلة للخروج؛ على الرغم من أنّ الأمر استغرق خمس سنوات أخرى للعثور على «الفاصل الزمني اللائق» والشهر الذي أتاح للقوات الأمريكية أنْ تغادر في عام 197 من دون ذل عسكري علني، وأنْ تدّعي أنّ ذلك لم يكن هزيمة للجيش الأمريكي عندما ثبّتت هانوي انتصارها بعد ذلك بعامين.

كانت الحساسية السياسية الحادة للناخبين الغربيين

تجاه الضحايا قيداً رئيساً على التدخلات العسكرية الخارجية منذ حرب فيتنام. حتى إن الانتصار الرخيص والسهل إلى حدٍ ك ير الذي فازت به الـ وة الجوية الأمريكية في حرب الخليج عام 1991 فشل في محو «متلازمة فيتنام» (على الرغم من أنّ الرئيس جورج وش الأب قال إنه فعل ذلك في الوقت الصحيح). قُتل فقط ثمانية عشر جندياً أمريكياً في وم واحد أثناء التدخل الذي جرى في الصومال عام 1993، وكان لهذا الأمر تأث ر ك ير على الرأي العام الأمريكي (ويعود السبب في ذلك إلى لـ طات سُجّلت على شريط فـ د و لجندي أمريكي ميت يتم جره في الشوارع مع هتافات الحشود الصومالية) حيث تم سحب الـ وات الأمريكية من الصومال من قِـ ل الرئيس يل كلينتون بعد بضعة أشهر، كما رفض في وقت لاحق السماح بتدخل الأمم المتحدة لوقف ا بادة الجماعية في رواندا عام 1994؛ خوفاً من رد فعل الجمهور على الضحايا هناك في عام الانتخابات الأمريكية.

إنّ الـ لق الشعبي من وقوع الخسائر ليس حكراً على الأمريك ين، ولكنه أيضاً كان عاملاً رئيساً في تراجع الاتحاد السوف يتي السا ق في نهاية المطاف عن التدخل

اليوم الأخير في

فيتنام

الجنوبية. الناس

يتسلقون

السفارة

الأمريكية في

على سايغون
أمل الإخلاء
بطائرة هليكوبتر
من
السطح.

في أفغانستان عام 1979. دّعي مستشار الأمن الـ ومي الأمريكي الأسبق زيغن و ريجنسكي أنه استدرج بنجاح موسكو إلى غزو أفغانستان عن طريق مدّ المعارضة الأصولية للنظام الموالي للسوفيت في أواخر السبعينيات بالأسلحة والأموال؛ مع نية محددة بإيجاد «فيتنام روسيا» وتدمير الاتحاد السوفيتي. وقد سأل لهجة المنتصر عام 199: «ما هو الأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ العالم؟ طالبان أو انهيار ا مبراطورية السوفيتية؟ بعض المسلمين المهووسين

أم تحرير وسط أوروبا ونهاية الحرب الباردة؟». الافتراض الأساسي الذي قامت عليه استراتيجية بريجنسكي هو أنّ الروس مثل الأميركيين كانوا عرضة لهبوط المعنويات والسخط العام اللذين يأتيان مع تحمل الخسائر البشرية التي لا نهاية لها في ما يبدو أنه حرب عقيمة من دون هدف. وعلى الرغم من وجود شك كبير في أن استراتيجيته كانت لها صلة بانهيار السلطة السوفييتية، إلا أنها أوجدت بالتأكيد تأثيرات مشابهة لفيتنام على الرأي العام الروسي وأجبرت موسكو على إنهاء عملياتها العسكرية في أفغانستان.

ساهمت هذه الحساسية السياسية الجديدة والحادة تجاه الخسائر العسكرية في تشكيل معظم الأبحاث الأميركية في ما يخص الأسلحة التقليدية على مدى العقود القليلة الماضية، كما ساهمت في تطويرها. وقد أعطيت الأولوية لمنظومات الأسلحة التي من شأنها أنْ تسمح للقوات الأميركية باستخدام القوة مع تقليل خسائرها إلى أدنى حد ممكن؛ بغض النظر عن تكلفة الأسلحة ذات الصلة. وستكون الأموال التي أنفقت على الجيش قد أهدرت إذا لم يسمح لك الرأي العام باستخدامها خوفاً من حدوث خسائر بشرية. كانت التدخلات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة في يوغوسلافيا السابقة في أواخر التسعينيات – البوسنة في عام 1995، وكوسوفو في عام 1999 منظمة بشكلٍ خاص ليس فقط لتقليل الخسائر الأميركية بل لتجنبها بالكامل. وفي حالة كوسوفو، أُمر الطيارون بعدم الطيران تحت ارتفاع عشرة آلاف قدم من أجل الحد من تعرضهم لنيران مضادات الطائرات؛ على

المجاهدون الأسرى في أفغانستان خلال فترة الاحتلال الروسي. قاتل بعضهم لاحقاً ضد الأمريكيين تحت اسم طالبان، ولكن عند هذه النقطة كانت أمريكا تدعمهم.

الرغم من أنّ ذلك أدى إلى تدهور قدرتهم على ضرب الأهداف بشكلٍ ك ير. ولم تُرسل أي قوات رية أمريكية أو قوات للناتو للقتال في أي وقت خلال الحملة للسبب نفسه؛ إذ إنّ فقدان عدد من الجنود مهما كان قليلاً قد يوض الدعم الشع ي الهش لهذه العملية.

تحدث الناس في واشنطن خلال التسعينيات عن «خط م ديشو»، وهو تفاهم غ ر مكتوب ينص على أنه لن يكون هناك أي تدخل عسكريٍ أمريكي في الخارج في قضية غ ر مرتبطة مباشرةً وبشكلٍ واضحٍ بالمصالح ال ومية الحيوية للولايات المتحدة؛ إلا إذا كان بمكان أنصاره ضمان أنه لن ودي بحياة أكثر من عشرين جندياً

أمريكياً، أي أكثر بجنديين من عدد الأمريكيين الذين قُتلوا عام 1993 في غارة سيئة التخطيط في الشوارع الضيقة جنوب مديشو. ألهمت الحادثة السينما في هوليوود نتاج فلم «بلاك هوك داون». وبعد 9/11، صار عدد الخسائر الأميركية المقبول في الصراع الذي جرى في العراق والذي يعتقد العدد من الأمريكيين أنه مرتبط بطريقة أو بأخرى «بالحرب على الإرهاب» أعلى بشكلٍ واضحٍ من ذلك. وقد يكون حتى أعلى بمئة مرة الآن، وربما يصل إلى ألفي إصابة قاتلة. ومن المؤكد أنه لن يصل إلى أعلى من ألف مرة. على كل حال، من السهل والمتاح بالنسبة إلى دولة متقدمة تكنولوجياً غزو دولة ديكتاتورية آيلة للسقوط في العالم الثالث، ولكن احتلال تلك الدولة لفترة طويلة من الزمن سوف ينعكس سلباً عليها، وسيظهر ذلك في الخسائر في حياة الجنود؛ وهو أمر ذو أهمية سياسية في الداخل.

هذا ليس بالشيء السيئ. ومما يؤسف له أن الناس لا بدأون بالاستياء من إرسال شبابهم وشاباتهم إلى القتال إلى أن تقوم شاشات التلفزة بفرك أنوفهم وتنبيههم إلى ما سيحدث لأولئك الأبناء في الواقع عندما يصلون إلى هناك، ولكنهم لا يتحركون بالطريقة نفسها بالنسبة للوفيات من الأجانب الذين يمكن أن يُقتلوا على أيدي أبنائهم. ولكنّ هذا النفور الشعبي من وقوع الإصابات رفع العصا في وجه التدخلات العسكرية الأجنبية بطريقة قد تجعل الدفاع عن بعض التدخلات الأكثر غباءً وسخريةً أمراً مستحيلاً. هذا الأمر يقتصر حالياً على الدول الغنية؛ حيث ردود الفعل القومية تتآكل إلى حد ما، وتكون وسائل الإعلام متطورة بشكلٍ جيد، ولكن الظاهرة نفسها بدأت بالانتشار، ووصلت إلى أجزاء أخرى من العالم. ما تبيّنه هذه

الظاهرة في الواقع هو أنه على الرغم من أنّ الناس قد دعمون فكرة الحرب من وقتٍ لآخر، إلا أنهم سيكتشفون أنّ واقع الحرب مروع ومث ر للاشم زاز. قد نكون في خضم تغ ير ثقافي عميق هنا؛ على الرغم من أنه جزئي بطبيعة الحال وخشن وغ ر متناسق، كشأن التغ يرات الثقافية على الدوام.

أخفى الهاجس المفهوم الخاص بالأسلحة النووية خلال الحرب الباردة واقعاً جد داً آخر كان قد زحف على الجنود؛ فالحرب التقليدية البحتة التي يتم خوضها بأسلحة متطورة أصبحت مشكلة إذا كان الخصوم مجهزين بشكلٍ مماثل. وربما تقوم نظم مراقبة ساحة المعركة والأسلحة ذات الدقة العالية بالتسبب بتحولات في الحرب التقليدية – وربما تكون هناك حـ اً «ثورة في الشؤون العسكرية» – ولكن من المرجح أن تنتج جموداً د لاً من تحد يق نصر سريع وحاسم في حال تحاربت الـ وى العظمى مع بعضها بعضاً مرةً أخرى.

لا ق تصر الأمر على أوروبا فقط، حيث إنّ الج وش لم تقم في الواقع بتجربة أسلحة جد دة ضد بعضها بعضاً؛ فنحن لا يتوفر لدينا دليل مف د حول ما يمكن أن يحدث عندما تتصادم الـ وات العسكرية كاملة الحداثة كما كانت الـ وى الأوروبية العظمى عشية عام 1914. والمرة الأخ رة التي خاضت فيها الج وش الحديثة حرباً تقليدية خطيرة كانت حرب عام 1973 ي ن إسرائيل واثنين من ج رانها العرب، منذ أكثر من ثلاثة عقود. والدروس التي يستطيع المرء استخلاصها تقتصر على حـ يقة أن الج وش المصرية كانت ضعيفة التدريب والـ يادة نسبياً، أما الصراعات التقليدية

الأكثر حداثة فقد كانت إما ين الجيوش التي تستخدم أسلحة معظمها من الجيل السابق مثل الحرب ين إيران والعراق ين 1980–1988، والصراعات «الاستعمارية» مثل حرب الفوكلاند ين بريطانيا والأرجنتين في عام 1982 والتي أظهرت مجرد عرض لقدرات بعض نظم الأسلحة المعينة (الصواريخ البحرية المضادة للسفن التي تسير على ارتفاع بسيط فوق الماء، في تلك الحالة)، أو الصراعات المحسومة من جانب واحد مثل الحربين ين الولايات المتحدة والعراق. لم نختبر ما الذي يمكن أن يحدث إذا كان الجيشان مجهزين ومدربين مثل القوات المسلحة الأمريكية، ولكن هناك سبباً يدعو للشك في أنهما سيواجهان مفاجأة كبرى مثل تلك التي واجهتها جيوش القوى الأوروبية العظمى عام 1914.

الحقيقة الأكثر وضوحاً في ما يخص القوات العسكرية التقليدية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية هي أنّ الجيوش أصبحت صغيرة مرة أخرى. فلو وصلت الحرب إلى أوروبا في العقد الأخير من الحرب الباردة على سبيل المثال، فسيكون هناك ما يقارب مليون رجل وألفي طائرة مقاتلة تحت إمرة قائد حلف شمال الأطلسي على الجبهة الوسطى، وستكون لدى نظيره السوفييتي قوات مماثلة مع المزيد من الدبابات وغيرها من العربات المدرعة.

كانت تلك الجيوش الآلية هي الكبرى التي يمكن العثور عليها في أي مكان من العالم – نصف الأسلحة التقليدية المتقدمة في العالم على الأقل تتركز في منطقة صغيرة نسبياً – وستتلقى قوات الجانبين تعزيزات كبيرة في الأسابيع الأولى من الحرب. ومع ذلك، إن معظم المخططين يفترضون أنّ معدلات الخسائر ستكون عالية جداً، حيث لا

تستطيع قوات أي من الطرفين على خط المواجهة أنْ تتجاوز أعدادها الأولية في أي مرحلة من المراحل التالية. وعلى الرغم من أنّ الجيوش المليونية يجب ألا يستهان بها، إلا أن هذه القوات لا يمكن أنْ تقارن عن بعد مع الجيوش التي نشرتها القوى العظمى خلال أيّ من الحربين العالميتين في القرن العشرين.

حصل هذا الانكماش الحاد في حجم القوات العسكرية التقليدية في جميع أنحاء العالم، والسبب الرئيس وراء ذلك كان المال. فقد أصبحت الأسلحة التقليدية مكلفة جداً، حيث إنّ معظم الدول لا يمكنها أنْ تجد المبرر لإنتاج أعداد كبيرة جداً منها في وقت السلم، ولا ترى جدوى من الدفع لجنود إضافيين لا تستطيع تحمل نفقات شراء أسلحة حديثة لهم. وستكون الدول على استعداد لإنفاق كمية أكبر من المال إذا وجدت نفسها في حرب كبرى ضد قوة أخرى كبيرة. ولكن أنظمة الأسلحة الحديثة معقدة جداً، ومعدلات الإنتاج بطيئة، حيث لن يكون هناك وقت لتوسيع الإنتاج إلى حد كبير بعد بدء الحرب. وعلى العكس من ذلك، سيبدأ كلا الجانبين على الفور بفقدان نظم أسلحتهما الرئيسة؛ مثل الدبابات والطائرات بمعدل يتعذر فيه الاستبدال.

«كان من الممكن سابقاً إرسال المئات من الطائرات التي لم تكن ناجحة تماماً في القتال، والتي لا يستطيع أحد إسقاط الكثير منها، ولكنّ معدل الإسقاط الآن ارتفع للغاية، لذلك، إنّ الحرب ربما لن تدوم طويلاً جداً... عليك أنْ تُقاتل بما وجد لديك الآن، وستستمر الحرب بوتيرة تُصعِّب استخدام القدرات الصناعية لإنتاج طائرات تحل محل الطائرات التي فُقدت في أرض المعركة؛ لأنّ المهلة الزمنية المتاحة

نتاج الطائرة قد تكون أطول من فترة استمرار الحرب. إنه موقف صعب جداً. فمن جهة، إنك تريد طائرة متطورة تقوم بالعدد من المهمات المختلفة، ولكن من جهة أخرى عليك الحصول على الدليل منها؛ لأنّ هذا ما تستطيع القتال به، مع العلم بأنها مكلفة جداً».

جاك كرينغز (Jack Krings)، رئيس عمليات الطيران، شركة ماكدونيل دوغلاس، 1982

الطائرة ف - 15 (النسر) مثال على ذلك. دأ إنتاجها عام 1972، واستمر بناؤها حتى عام 2004، ولكن خلال كل هذا الوقت، كان ا نتاج ا جمالي لصالح سلاح الجو الأمريكي 1 طائرة. استغرق بناء كل طائرة حوالي ثمانية عشر شهراً، بكلفة 42.5 مليون دولار للطائرة الواحدة. تكون التكلفة أساساً انعكاساً لعشرات الآلاف من ساعات العمل للعمال من ذوي المهارات العالية الذين ساهموا في بنائها. وحتى في عالم اليوم، تبى هذه الطائرة مؤثرة جداً وقاتلة، ولكنها نادرة جداً[317].

كانت الزيادة في تكلفة الأسلحة منذ الحرب العالمية الثانية مذهلة، فقد كانت تكلفة طائرة سيبتفا ر (Spitfire) - والتي ربما كانت أفضل طائرة ما اتلة في العالم عام 1939 - هي 5000 جنيه استرليني عند بنائها. وعندما دخلت نسختها الحالية الخدمة، وهي طائرة التورن دو (Tornado) سلاح الجو الملكي في داية الثمانينيات، كانت تكلفة كل منها 17 مليون جنيه استرليني، اي 172 ضعف التكلفة بعد أخذ التضخم بعين الاعتبار. كانت زيادة السعر في ما بعد أقل، ولكن هذا لا يساعد كث راً، فتكلفة البرنامج ا جمالي لطائرة الج ل

المـ بل المسماة وروفايتر(Eurofighter)، والتي أمر سلاح الجو الملكي بـ نتاج 232 منها ما ين عامي 2002 و2014، هي 15.9 مليار جنيه استرليني، أو حوالي 86 مليون جنيه مليون لكلٍ منها. لا توجد دولة أكثر ثراءً من المملكة المتحدة بعدة مئات من المرات مما كانت عليه في داية الحرب العالمية الثانية. ولكن الآن لا يمكنها بناء سوى عدد قليل من الأسلحة، وقد خُصِّصت مساحة لمصانع بناء الطائرات العسكرية في الولايات المتحدة في ذروة البناء الدفاعي في عهد الرئيس رِيغان في الثمانينيات تساوي المساحة نفسها التي خُصصت للغرض نفسه في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن، في حين أنه في عام 1 كانت ألمانيا قادرة على بناء ثلاثة آلاف طائرة في الشهر (وخسارتها بالمعدل نفسه تقريباً)، كان ا نتاج الأمريكي من الطائرات العسكرية في الثمانينيات حوالي خمسين طائرة شهرياً بالمتوسط.

بطبيعة الحال، إن الأجيال الأخ رة من المـ اتلات أفضل بكث ر من تلك التي كانت موجودة في الحرب العالمية الثانية؛ إذ إن بـمكانها أنْ تطير أسرع بثلاث مرات، وأن تحمل ذخائر أك ر بخمسة أو ستة أضعاف من حيث الوزن، كما يمكنها الكشف عن الخصم على بعد عدة مئات من الأميال، وأنْ تقوم بالهجوم لمسافات ت لغ عدة مئات من الأميال أبعد من مجال الطائرة سبيتفا ر؛ كما تستطيع تدمير الخصوم بصورة أنجع لأنّ أسلحتها أكثر دقة وفتكاً. ولكنّ هذا بساطة يجعل المشكلة أكثر تعقيداً؛ ليس لأنّ الـ وات الجوية تنتج أعداداً أقل من الطائرات، ولكن لأنها تخسرها أيضاً بمعدلٍ أسرع.

لا تقتصر هذه الظاهرة على الطائرات العسكرية؛ على الرغم من أنها الحالة الأكثر تطرفاً، حيث شهدت كل التكنولوجيا العسكرية - من الدبابات، والسفن الحربية، وحتى معدات الاتصالات وأجهزة الرؤية الليلية - التحول نفسه. وقد أصبحت مكلفة جداً، حيث إنّ عدد البنود التي يتم شراؤها يجب أن تخضع لقيود مشددة، وفي الوقت نفسه، أصبحت الأسلحة فتاكة، حيث إنّ معدلات الخسارة في المعركة أعلى بشكلٍ كبير.

«بدأنا بإحدى عشرة دبابة... وفقدنا خمساً في غضون ثلاثين دقيقة.

سؤال: هل هذا طبيعي؟

جواب: سيكون ذلك طبيعياً في حال هاجمونا. كانت هناك حوالي ثلاث مجموعات قتالية تتجه نحونا في ذلك الوقت، أي بحدود ثلاثين أو أربعين دبابة، وهذا أمر عادي، وسندمر نصف قوتنا. عادة، يُتوقَّع أن نستمر في معركة الدبابات بحدود الساعتين».

قائد دبابة بريطانية في مناورات الناتو

خسر كل من العرب والإسرائيليين في حرب الشرق الأوسط عام 1973 ما يقارب نصف إجمالي المخزون من الدبابات التي يملكونها خلال أقل من ثلاثة أسابيع من القتال العنيف. ولو وقعت حرب تقليدية في أوروبا في الثمانينيات فلربما كان معدل الخسائر في جميع البنود الرئيسة للأسلحة أعلى من ذلك، وقد يشهد القتال الذي سيجري كل يوم تدمير آلاف الدبابات وعدة مئات من الطائرات. وعلى عكس منطقة الشرق

الأوسط في عام 1973، قد لا يكون هناك أي مصدر خارجي للتموين يستطيع المتحاربون الحصول على دائل عن طريقه. كان من الممكن أن تكون الحرب وفق مبدأ «تعال كما أنت»: فالأسلحة الموجودة هي الوحيدة المتاحة، حيث ستكون حرب استنزاف لهذا المخزون من الأسلحة.

«(ربما كانت هناك) فترة قصيرة للغاية من البروز المفاجئ والمتبادل للمعدات في الخط الأول، مما يجعل الج وش تعتمد على أسلحة بسيطة جداً؛ أي مثل العودة إلى مرحلة مبكرة من الحرب. حصل ذلك في عام 1914، حيث ذهبت جميع الأطراف إلى الحرب بمخزونات غ ر كافية بالنسبة لحجم المعارك التي وقعت، وكانت هناك «وقفة الشتاء» الـ صيرة، والتي خصصت جزئياً لتضميد الجراح..... والكث ر جداً تاحة الوقت لعمل مصانع القذائف. ولأنّ مخزون الأسلحة كان أك ر بكث ر (كما كان يجب أن يكون) كان لا د من وقفة لاست دال كل شيء تقريباً: الدبابات والطائرات والصواريخ وقاذفات الصواريخ والعربات المدرعة من كل نوع...».

السير جون كيغان (John Keegan)، مؤرخ عسكري

طائرة أف 16 إسرائيلية، مكلفة للغاية، عددها قليل، ويصعب جداً استبدالها.

ما كان صحيحاً في نهاية الحرب الباردة ربما يكون أكثر صحةً اليوم. إذ لا توجد دولة تستطيع أنْ تجهِّز جيشاً شاملاً على الطراز الـ ديم يضم معظم السكان الذكور الشباب المسلحين بأسلحة حديثة. وصلت إسرائيل إلى هذه المرحلة لفترة وجيزة من الوقت، ولكنها كانت تنفق حوالي 30 بالم ة من ناتجها الـ ومي ا جمالي على الدفاع، وتحصل على كميات هائلة من المساعدات العسكرية الأمريكية أيضاً، وانتهى الأمر بـ فلاسها تماماً.

لم تحاول أي من الدول الصناعية الك رى الوصول إلى مثل هذه الحالة حتى في ذروة الحرب الباردة. وكان لدى منظمة حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو معاً، اللذين بلغ عدد السكان فيهما مجتمعين ما يـ ارب مليار شخص، من الأسلحة العسكرية التقليدية ما يكفي لتجهيز أقل من عشرة

ملا ين جندي في منتصف الثمانينيات؛ أقل من 1 بالم ة من عدد السكان. واليوم، إن الدول نفسها لديها أقل من خمسة ملا ين من الجنود النظاميين.

الجانب المشرق في كل ذلك هو أنه ما من طرف من الـ وى الصناعية الك رى يتوقع حالياً خوض حرب تقليدية خطيرة ضد أي من الآخرين. لذلك، يمكن تجاهل مسائل مثل بناء «مخزونات حرب» كافية من المعدات العسكرية الرئيسة للسماح بمعدلات استهلاك مرتفعة جداً. تواصل الـ وى الك رى الحفاظ على قوات ردع نووية، ولكن حتى أعظم قوة عسكرية ينها – أي الولايات المتحدة – ليس لديها سوى قوات رية كافية لحروب قصيرة ضد لدان صغ رة وضعيفة نسبياً؛ وهو ما دعوه المؤرخ إيمانويل تود «بالمسرحية الصغرى العسكرية». وعلى الرغم من أنّ هذه الـ وات كافية تماماً لتحـ يق انتصارات عسكرية سريعة وسهلة ضد خصوم مثل العراق، إلا أن قدرتها على تحويل النجاح العسكري إلى نجاح سياسي طويل الأجل أقل تأث راً إلى حد ك ير. وكما أنّ الأسلحة النووية ليست ذات صلة أساساً بتحـ يق الأهداف العسكرية التقليدية مثل «النصر»، كان هناك أيضاً تراجع شد د في الفائدة السياسية للـ وات العسكرية التقليدية.

الفصل العاشر

ثوار وإرهابيون

«تكون الميزات جميعها لصالح الثائر تقريباً، حيث إنه لا يتقيد بالقواعد، ولا يتقيد بالانتقال، ولا تعرقله كتب التدريب. في حين أن الجندي مقيد بأشياء عديدة، أقلها توقعاته الخاصة في ما يتعلق بوجبة شهية بعد كل تلك الساعات. يفوز الجندي عادةً على المدى البعيد، ولكن بعد دفع ثمنٍ باهظ».

أرشيبالد بيرسيفال، اللورد ويفل[318]

«القدرة على الهروب بعيداً هي جوهر حياة الثائر».

ماو تسي تونغ[319]

كتب كارل فون كلاوزفيتز (Karl von Clausewitz) الـ ليل عن حرب العصابات؛ على الرغم من أنه كان يعرف عنها الكث ر، ولكن مثله الشه ر يصلح في هذه الحالة: «الحرب (بما فيها حرب العصابات) ليست عملاً سياسياً فقط، ولكنها أيضاً أداة سياسية حـ ي ية، واستمرار للتجارة السياسية، وإنما وسائل أخرى». لحرب العصابات أهداف سياسية، واستراتيجيات لتحـ يقها، والفرق الرئيس ينها وبين الحروب الأخرى يكمن في كونها لا تمارس من قبل دولة؛ مما يعني أنها غ ر قانونية من حيث الـ انون المطبق حالياً على الأرض التي تجري فيها حرب العصابات هذه. ومع ذلك، يهدف رجال العصابات دائماً إلى أن يصبحوا الحكومة الشرعية في النهاية. وإذا نجحوا في ذلك، فإن الحذاء ينتقل إلى الـ دم الأخرى. معظم حروب العصابات الـ ديمة كانت تُشنّ ضد المحتلين الأجانب الذين احتلوا الدولة ودمروا جيشها، ولكنّ الحروب الحالية تخاض الآن في الغالب من قبل جماعات سياسية أو أقليات عرقية على شكل ثورة ضد الحكومة الوطنية.

يتضمن أسلوب خوض حرب العصابات دائماً أفعالاً كث رة مما يسمى اليوم با ر هاب. لذلك، إنّ الحكومات الشرعية تحاول باستمرار أن تنعته بأنه لا أخلاقي، إلّا عندما تدعمه دولة ما على أراضي دولةٍ أخرى؛ كما يحدث عادةً. وعلى اعتبار أنّ معظم الدول الك رى لا تُظهر نفورها من استخدام الأساليب ا رها ية في الحرب، يجب فهم المنطق الذي ق ف وراء حـ يقة «الـ ص ف الاستراتيجي» في الحرب

العالمية الثانية، أو «توازن الرعب» الذي كان في صميم الحرب الباردة؛ يمكن اعتبار وجهات نظر تلك الدول الخاصة بالمسألة نفاقاً يخدم مصالحها، ومع ذلك ب ى السؤال الأخلاقي الخاص بحرب العصابات مطروحاً.

في حين تسعى الج وش التقليدية للاتصال بالعدو وتحديق نصر مؤزر، تتجنب قوات العصابات محاربة ال وات النظامية التي لا تستطيع مجاراتها، ولذلك تركز دلاً من ذلك على الأهداف «السهلة» التي يمكن من خلال تدميرها إضعاف سلطة الدولة على البلاد؛ وهذا يعني عملياً تعذ ب المسؤولين المحليين وذبح أسرهم على مرأى المجتمع المتفرج، وليس خ راء مكافحة ا رهاب ب ع دين عن هذا الأسلوب. فقد أدّت عملية فونيكس (Operation Phoenix)، وهي الحملة التي قامت بها ال وات الأمريكية لاغتيال عناصر الفيتكونغ والقضاء عليهم بعد هجوم تيت في عام 1968 إلى مقتل ما ين 20 و50 ألف شخص، معظمهم من المدن ين العزّل، ولكن العملية نجحت تماماً في القضاء على البنية التحتية للفيتكونغ في معظم أنحاء فيتنام الجنوبية.

دت حرب العصابات لفترة من الزمن في الخمسينيات وأوائل الستينيات وكأنها أسلوب لا يخ ب في قلب الحكومات. ولكن، شأنها شأن الطرائق الأولى الحديثة للاستيلاء على السلطة، كالانتفاضات المدنية التي حدثت في أوروبا خلال ال رن التاسع عشر وبدايات ال رن العشرين والتي استلهمت الثورة الفرنسية في عام 1789، أثبتت حرب العصابات أنها أسلوب ناجح فقط في ي ة معينة.

«كانوا يختفون حالما نصل، وبعد أنْ نغادر يعودون

مجدداً. تشعر أنهم في كل مكان، وأن لا مكان لهم في الوقت نفسه، وليس لهم مركز محدد يمكن مهاجمته فيه».

ضابط فرنسي قاتَلَ ضد الثوار الإسبان، 1810[320]

لا تحظى حرب العصابات - كشكلٍ من أشكال المقاومة للاحتلال الأجنبي، أو ضد حكومة محلية - بالشعبية التي كانت موجودة سابقاً، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة في الحروب النابليونية؛ عندما قام الإسبان - الذين أعطوا هذا الأسلوب في القتال اسمه (حرب العصابات = «الحرب الصغيرة») - والألمان بحملات عصابات كبيرة ضد القوات الفرنسية المحتلة. وكما هو طبيعي في حرب العصابات، إنّ الأعمال الوحشية المنتظمة المصممة لإرهاب الطرف الآخر مورسِت بشكلٍ مستمر من قبل الجيش الفرنسي، كما مورسَت من قبل الثوار الإسبان. وقد جسدت لوحات فرانسيسكو غويا (Francisco Goya) وحشية الصراع في إسبانيا من 1808 وحتى 1814. ولكنّ حرب العصابات لم تُعتبر عموماً أسلوباً عسكرياً حاسماً حتى أواخر الحرب

لوحات فرانسيسكو غويا (Los desastres de la Guerra): كوارث الحرب، إسبانيا، 1810
ابتداء من الأعلى وباتجاه عقارب الساعة: «Tampoco» (لا)، «Por que?» (لماذا؟)، وَ«Lo mismo» (الشيء نفسه).

العالمية الثانية؛ أي عندما استُخدمت على نطاقٍ واسع ضد القوات الألمانية واليابانية المحتلة، وبشكلٍ رئيس بسبب عدم وجود استراتيجية كافية لتحقيق النصر النهائي.

سيجعل الثوار أو المتمردون من أنفسهم أدوات إزعاج طالما أنهم بدون منتشرين في التلال والغابات أو المستنقعات ومنهمكين فقط في عمليات «اضرب واهرب» ضد قوات الحكومة أو المحتلين الأجانب. كما أنهم قد يقومون بما نسميه اليوم بهجمات «إرهابية» في المدن، ولكنهم لا يستطيعون القضاء على خصومهم في مراكز السلطة الحضرية. فإذا نزلوا من التلال وحاولوا القيام بذلك في معارك مفتوحة، فسيتيحون لخصومهم الفرصة لضرب الأهداف التي يأملون ضربها، وستقوم القوات النظامية بسحقهم. حتى في يوغوسلافيا، إن أعظم مقاتلي العصابات الأوروبيين الناجحين خلال الحرب العالمية الثانية ما كانوا ليتمكنوا من تحرير بلدهم دون مساعدة؛ فقد انسحب الألمان في النهاية من يوغوسلافيا لأن الجيش الأحمر المنتصر كان يجتاح البلقان باتجاههم.

«بحدود أيار عام 1928... تطورت المبادئ الأساسية لحرب العصابات، البسيطة في طبيعتها، والمناسبة لظروف ذلك الوقت، فأصبحت بالصيغة التي يمكن أن نصفها بالكلمات التالية: «العدو يتقدم ونحن نتراجع، العدو يقيم مخيماته ونحن نضايقه، العدو متعب، فنقوم بالهجوم عليه، يتراجع العدو، فنقوم بمطاردته»».

ماو تسي تونغ[321]

الاستثناء الوحيد الكبير لجميع القواعد هو ماو تسي تونغ. فبعد أنْ فقد الحزب الشيوعي الصيني قاعدته الحضرية في شنغهاي في مجازر عام 1927، قادت الكوادر الشيوعية التي بقيت على قيد الحياة صراعاً لمدة ثمانية عشر عاماً ضد الحكومة الوطنية الصينية في مناطق الأرياف، وفي ما بعد ضد الغزاة اليابانيين؛ وهذا ما دفع ماو تسي تونغ إلى كتابة مؤلفاته حول حرب العصابات. وعلى الأغلب، لا يوجد أي قائد حرب عصابات من أية جنسية أو أيديولوجية في الأعوام الخمسة والسبعين الماضية لم يقرأ أعمال ماو. ومع ذلك، لا يوجد الكثير من قادة حرب العصابات الذين فعلوا ما فعله ماو؛ وهو أنْ تبدأ الثورة بحفنة من الثوار الريفيين

دعاية لجيش التحرير الشعبي الصيني في شانغهاي، مع إعلان الجمهورية الشعبية الصينية عام 1949.

وتنهيها با طاحة بحكومة راسخة وذات جذور محلية؛ في ما دا انتصاراً فريداً من نوعه مع مرور الوقت.

مع ذلك، لم يكن ذلك واضحاً على الفور بعد عام ؛ لأنّ تقنيات حرب العصابات الريفية المماثلة استخدمت بنجاح ضد ا مبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في وقت كانت فيه الدوى الاستعمارية قد فقدت أعصابها وكانت في حالة ضعف اقتصادي شد د. وكما هو الحال في البلدان المحتلة في أوروبا خلال الحرب، لم يجد رجال حرب العصابات في المستعمرات الآسيوية والأفريـ ية بعد الحرب أية صعوبة في تع ة العدد من مواطنيهم الريفـ ين الدوميين الجدد ضد المحتلين الأجانب.

وكما هو الحال في البلدان المحتلة في أوروبا، لم يكن لدى الثوار اليوغوسلافـ ين عملياً أي احتمال لتد يق نصر عسكري ضد الدوات النظامية للدوة المحتلّة المجهزة تجهيزاً ج داً، ولكن بمكانهم أن يتحولوا إلى مصدر إزعاج مكلف ومتأصل. الشيء المختلف في الموضوع هو أنّ الألمان في وغوسلافيا كانوا يخوضون حرباً ك يرة؛ حيث كان بـ اء نظامهم الخاص وفق نتيجة تلك الحرب على المحك. وهكذا، كانوا مستعدين لتحمل تكاليف محاربة الثوار اليوغوسلافـ ين إلى أجلٍ غ ر مسمى تقريباً، فيما لم يكن لدى الدوى الأوروبية مثل هذا الرهان في الاحتفاظ بالسيطرة على مستعمراتها.

«قد تقتلون عشرة من رجالي مـ ا ل كل رجل أقتله منكم. ولكن حتى مع هذه المعادلة، ستخسرون أنتم وسأفوز أنا».

هوشي منه، حوالي عام 1948 (موجهاً كلامه للفرنسيين)

«الجيش التقليدي يخسر إذا لم يتمكن من الفوز، بينما تفوز العصابات إذا لم تخسر».

هنري كيسنجر[322]

يصل الأمر في النهاية إلى حقيقة أنه إذا كان بإمكان مقاتلي العصابات أن يجعلوا الأمر مكلفاً للغاية بالنسبة للدولة الاستعمارية، وأن يستمروا في ذلك إلى أجلٍ غير مسمى، فليس لديهم ما يدعو للقلق في ما يخص كسب النصر العسكري. وفي النهاية، تقرر الدولة الاستعمارية خفض خسائرها والعودة إلى الوطن. كان هذا هو الواقع الذي تبين من حرب الاستقلال الإيرلندية في 1919–1920، والحرب التركية للمقاومة الوطنية ضد محاولات التقسيم من قبل قوى الوفاق المنتصرة 1919–1922 (النضال الذي صاغ البلاشفة عبارة «حرب التحرير الوطنية»). تكرر الأمر عدة مرات في العقدين التاليين لعام 1945، في أندونيسيا، وكينيا، والجزائر، وماليزيا، وقبرص، وفيتنام، وجنوب اليمن، وأماكن أخرى كثيرة. وفي حالات قليلة مثل ماليزيا، تمكّنت الدولة الإمبريالية من تسليم السلطة إلى بعض الجماعات المحلية الأخرى بدلاً من المتمردين أنفسهم (ولكن هذا اعتمد بشكلٍ رئيس على الانقسام العنصري غير العادي في ماليزيا). في معظم الحالات، كان قادة حرب العصابات أنفسهم هم الذين ورثوا السلطة: سوكارنو في أندونيسيا، وجومو كينياتا في كينيا، وجبهة التحرير الوطني في الجزائر، وهلم جراً. وبمجرد أن فهمت القوى الإمبريالية الأوروبية في النهاية نقطة الضعف القاتلة الخاصة بهذه التقنية، تدفقت عملية التحرر من الاستعمار في معظم

مستعمراتها المتبقية من دون الحاجة لحدوث حرب عصابات.

في ذلك الوقت، سبّب انتشار ما يبدو أنه حروب عصابات ريفية لا تقاوم حدوث إنذارٍ كثير ويأس لدى القوى الأوروبية الغربية الكبرى جزئياً. ومع ذلك، كان هناك أيضاً عنصر أيديولوجي؛ لأنّ معظم حركات حرب العصابات بعد عام 1945 كانت تتبع نسخة ما من الأيديولوجية الماركسية نفسها التي بشّر بها المنافس الدولي الرئيس للغرب؛ وهو الاتحاد السوفييتي. (وبشكلٍ طبيعي، إن كونهم ماركسيين جعل ممارسي حرب العصابات يعزون نجاحاتهم إلى الأيديولوجية بدلاً من البيئة الخاصة التي كانوا يعملون ضمنها، وقد أعلنوا عن هذه القناعة بصوتٍ مرتفع). وأدى ذلك إلى اعتقاد الغرب أنّ التوسع السوفييتي و/أو الصيني، وليس مجرد الاستياء المحلي من الحكم الأجنبي، هو الذي كان وراء حرب العصابات تلك. مما أدى دوره إلى إنشاء قوات مكافحة التمرد الخاصة، وخاصة في الولايات المتحدة. وفي النهاية، أدى إلى إرسال القوات الأميركية إلى فيتنام في ظل سوء فهم تام للسبب الذي كانت الحرب تجري من أجله.

تبنى ثوار حرب العصابات الفكر الماركسي جزئياً بسبب التأثير القوي لمثال ماو الناجح في الصين، ولكن بصورة رئيسة بسبب الأيديولوجية الثورية الرئيسة التي كانت معروضة في مركز الإمبراطوريات التي حكمتها؛ ثوار العالم الثالث في الخمسينيات والستينيات تعلموا الماركسية في لندن وباريس، وليس في موسكو. على كل حال، لا يتوقع منهم تبني الأيديولوجية الديمقراطية الليبرالية (للاستهلاك المحلي فقط) العائدة للقوى الإمبريالية التي يسعون

لطردها. كان الثوار في اختيارهم للأدولوجية المعارضة الرئيسة التي كانت سائدة في المركز امبراطوري – أي الماركسية – يحاولون الاقتداء بالجل الساق من الثوار المناهضين لـ مبريالية الذين تبنوا الأد ولوجية الثورية التي كانت آنذاك مألوفة لدى اليسار الأوروبي الليبرالي، واستخدموها كأساس أدولوجي لثوراتهم في تركيا عام 190، وفي المكسيك وإران عام 1910، وفي الصين عام 1911. ومع ذلك، فقد أوجدت انطباعاً خاطئاً في العواصم الغربية.

لم يحدث الالتزام العسكري واسع النطاق للولايات المتحدة في فيتنام عام 1965 لسبب خاط فقط – حباط التوسع السوف يتي الذي يعمل من خلال الصين ين – ولكنه أتى في الوقت الخاط أيضاً. فبحلول عام 1965، كانت موجة حروب العصابات في ما كان يسمى بالعالم الثالث ستصل إلى نهايتها الطبيعية؛ لأن معظم الدول كانت قد حصلت بالفعل على استقلالها. وبصرف النظر عن الهند الصينية، كانت أفريا الجنوبية وجنوب اليمن فقط المنطقتين اللتين تشهدان حرب عصابات نشطة ضد الحكم الاستعماري بحلول عام 1965. وعلى الرغم من أنها بالكاد لوحظت في ذلك الوقت، إلا أنّ تقنية حرب العصابات نادراً ما نجحت ضد حكومة محلية مدعومة من قبل الغالبية المحلية للمجموعة العرقية. فعنصر العداوة الطبيعية للحكم الأجنبي الذي من شأنه جذب المجندين لدعم قضية المقاتلين غ ر موجود. والأهم من ذلك، ليس بمكان الحكومة المحلية أن تتخلى عن دورها ببساطة وتعود إلى المنزل إذا كانت تكلفة خوض حملة لمكافحة التمرد عالية جداً. ففي النهاية، ذلك لدها، ولا وجد أي مكان آخر لتذهب إليه.

هناك عدد قليل من جماعات الأقليات العرقية التي تكون ك يرة بما فيه الكفاية، ومتماسكة، ومصممة على أنها في النهاية قد تجعل من نموذج «تصفية الاستعمار» يعمل ضد حكومة مستقلة من نموذج العالم الثالث. فاز ا ريتريون بالاستقلال عن أث وبيا، ونمور التاميل والشيشان قد يأتي يوم وينجحون فيه ضد سيريلانكا وروسيا، ولكنْ هذا في الأساس كان عبارة عن موجة وانقضت. وبالنسبة للجزء الأك ر، إن مجموعات حرب العصابات الريفية التي لا تتمتع ب ا عدة عرقية متميزة والتي تقاتل ضد حكومتها الوطنية الخاصة عليها أن تحل مسألة كيفية تح يق الانتصار العسكري الأخ ر في معركة مفتوحة ضد ال وات المسلحة النظامية للحكومة. فهي عموماً لا تستطيع حل هذه المسألة.

«إنّ محو قوة العدو الفعالة هو هدفنا الرئيس. ليس الاستيلاء والسيطرة على مكان معين هو هدفنا الرئيس... في كل معركة، يجب التركيز على ال وة ذات التفوق المطلق. يجب تطويق قوات العدو بشكلٍ كامل، والسعي بادته تماماً مع عدم السماح بأي محاولة للهرب».

ماو تسي تونغ[323]

كان ماو زعيم حرب عصابات مؤثراً في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، ولكنه لم يصدر تلك التعليمات حينذاك. فقد اتبع في تلك الأيام ال واعد ال ياسية لحرب العصابات؛ أي إعداد كمين لمجموعات صغ رة من العدو، ولكن مع عدم الوقوف والقتال ضد قواته الرئيسة. ومع ذلك، وبحلول الوقت الذي أعطى فيه الأوامر المذكورة أعلاه، كان اليابانيون قد استسلموا ل وات الحلفاء، وكان الشيوعيون

الصين ون ينتقلون إلى المرحلة الأخ رة في صراعهم مع النظام الوطني الذي كان لا يزال يسيطر على كل المدن ومعظم السكان: الحرب المفتوحة باستخدام تشكيلات نظامية ك يرة. ين آب 1945 وآب 1947، ازداد عدد جيش التحرير الشع ي الصيني بمعدل أربعة أضعاف، ووصل عدد أفراده إلى مليوني رجل، وخرج إلى العلن للتغلب على الجيش الوطني الفاسد والمنقسم وغ ر الكفؤ في سلسلة من المعارك على نطاق واسع. إضافة إلى ذلك، كان عبارة عن مجموعة من الجيش نفسه بالضبط، ويستخدم تكتيكات المشاة الخفيفة الا ياسية، ويحمل عدداً قليلاً من الأسلحة الثقيلة، وقد تسلل ع ر نهر يالو (Yalu) في كوريا في أواخر عام 1950 وطرد الجيش المساوي له من حيث العدد والمؤلف من الأمريك ين وقوات الأمم المتحدة إلى نهاية شبه الجز رة الكورية تقريباً.

حـ ق ماو الكأس المـ دسة لحرب العصابات؛ فقد بـنى كوادر حزبه في حكومة ـ لة، وحوَّل مـ اتليه إلى جيش حـ ي ي، ثم تغلب على الحكومة الـ ائمة في معركة مفتوحة. وقد فعل ذلك مع عدم وجود دعم من الخارج، ومن دون وجود مظالم عرقية. كان ذلك إنجازاً رائعاً، وقد حاولت جماعات ثورية لا حصر لها أن تحذو حذوه، ولكن نجحت اثنتان منها فقط: جماعة ف دل كاسترو الصغ رة من ا خوة الذين نزلوا من جبال سييرا مايسترا في عام 1959، والساندين ون في نيكاراغوا في عام 1979. وفي كلتا الحالتين، تمت الاستفادة من وجود معارضين على شكل حكومات جائرة للغاية، غ ر فعالة، ومعزولة سياسياً جعلت الـ وميين الصين ين بدون بحالة ج دة. كما استُغِلّت المشاعر المعادية للولايات المتحدة التي كانت سائدةً ـ وة في ذينك البلدين بـعد كل التدخلات الأمريكية. إن كلاً من نظام باتيستا في كوبا، وأسرة

سوموزا في نيكاراغوا كان يُنظر إليهما من قبل مواطنيهما على أنهما دميتان أمريكيتان. وبذلك، لم يكن الثوريون في موقف راديكالي مختلف جذرياً عن أولئك الذين خاضوا النضال الناجح ضد الإمبريالية في مستعمرات الإمبراطوريات الأوروبية.

لا يزال العالم حتى اليوم يعج بحركات حرب العصابات في المناطق الريفية، ومعظمها يمثل الأقليات العرقية الموجودة في المناطق الوعرة في بلدان العالم الثالث. ولكن، هناك عموماً احتمال ضئيل للنجاح ضد الحكومات المحلية التي يمكنها استغلال العامل القومي وجعله يعمل لصالحها. فإذا حاولت تلك الأقليات الانتقال من الأعمال منخفضة الحدة من الاغتيالات والسيارات المفخخة والمداهمات إلى عمليات أكثر طموحاً والتي تشتمل على وحدات كبيرة تستطيع أن تصمد وتقاتل، فإنها بذلك تعطي قوات الحكومة الأهداف التي كانت تسعى إليها.

نجد أهم إثبات دراماتيكي يتعلق بعدم جدوى العصابات الريفية خارج البيئة الاستعمارية التي ازدهر فيها. ونعني بذلك الكوبيين الذين تضافرت جهودهم في منتصف الستينيات ونهايتها لتصدير الثورة إلى الدول المستقلة في أمريكا اللاتينية على أمل إحداث ثورات ماركسية هناك، فقامت حركات حرب العصابات الريفية

أفريقيا: كل نهر حدودٌ عرقيةٌ.

في معظم دول أمريكا الجنوبية، وهي ماركسية في توجهها وتتمتع دعم كوبي ضمني أو حتى مفتوح. ولكنها فشلت جميعها دون استثناء بشكلٍ كارثي. ومثال على هذا الفشل، محاولة «تشي غيفارا» التراجيدية الكوميدية لبدء مثل هذه الحركة في وليفيا، والتي انتهت بموته.

«استمرت عزلتنا بشكلٍ كامل. عدة أمراض مختلفة أثرت على صحة بعض الرفاق... لا تزال قاعدة الفلاحين لدينا متخلفة؛ على الرغم من أنّ رنامج الرعب المخطط سوف ينجح في تحييد معظمهم، وسيأتي دعمهم في وقتٍ لاحق. لم يكن لدينا مجند واحد (من الفلاحين). ... خلاصة ال ول، مضى شهر جرت فيه الأمور بالشكل الصحيح

بالنسبة للجميع؛ من حيث إعادة النظر في وضع المعايير لحرب العصابات».

تشي غيفارا، بوليفيا، نيسان، 1967[324]

مات غيفارا بعد ستة أشهر، وتم القضاء على جماعته الصغيرة في حرب العصابات، ولاقت كل المحاولات الأخرى لنسخ التجربة الكوبية التي نشأت في أمريكا اللاتينية المصير نفسه في نهاية المطاف. وهذا لا يعني أنّ هذا الأسلوب لا يمكنه أن يعمل أبداً في البلدان المستقلة، ولكن تم القضاء على المسلحين في المناطق الريفية في بلدان أمريكا اللاتينية أو تمّ تحجيمهم، وتحولوا إلى مصدر إزعاج هامشي فقط بحلول عام 1970؛ باستثناء كولومبيا (حيث كانت جذور حربهم تمتد في حرب أهلية رهيبة شملت البلد كله) وفي بيرو (حيث كان ثوار «الدرب المضيء» الماوي يستمدون دعمهم من السكان الهنود العرقيين في المرتفعات). استمرت هاتان الحركتان حتى يومنا هذا، ولكن الجدل لم يقربهما من الوصول إلى السلطة. وكانت النتيجة التي لا مفر منها - والتي قبلها أعظم ثوريي أمريكا اللاتينية - تقضي بأنّ حرب العصابات الريفية تقنية ثورية فاشلة.

«من الضروري أن تتحول الأزمة السياسية إلى صراع مسلح عن طريق القيام بأعمال عنف من شأنها أن تجبر أولئك الموجودين في السلطة على تحويل الوضع السياسي في البلاد إلى وضع عسكري (أي تنفيذ انقلاب عسكري)، وهذا سينفّر الجماهير التي سوف تثور ضد عناصر الجيش والشرطة وتلومهم على مثل هذه الحالة».

كارلوس ماريغيلا (Carlos Marighella)، كتيب حرب العصابات الحضرية[325]

إن فشل التمرد الكلاسيكي في لدان أمريكا اللاتينية أصاب الثوار بخ بة أمل، ودفعهم إلى ا رهاب العشوائي (أو بالأحرى، إلى حرب العصابات في المدن؛ كما عرفت بعد ذلك). في الواقع، إن استراتيجية الذين أوجدوا هذا المذهب في أمريكا اللاتينية – وأ رزهم المونتون روز في الأرجنتين، والتوباماروس في أوروغواي، والثوار البرازليون مثل كارلوس ماريجيلا – كانت تهدف إلى دفع قيادات الأنظمة المستهدفة إلى الـ مع الشد د. وكان هذا ما دعا إليه الماركسيون الفرنسيون (أي سياسة جعل الأمور أسوأ؛ وذلك أملاً في إثارة أزمة وقطيعة حاسمة مع الوضع الراهن).

إن الاغتيالات وعمليات السطو على البنوك وعمليات الخطف وخطف الطائرات وما شابه ذلك، كانت كلها بهدف إثارة أك ر قدر من الدعاية في وسائل ا علام و حراج الحكومة إلى أقصى حد ممكن. وقد سعى «الثوار الحضريون»

فيدل كاسترو والجنود الساندينيون المنتصرون، هافانا، 1979. ولكن هذا الأسلوب لا ينجح دائماً.

زاحة المعتدلين والحكومات الديمقراطية بأنظمة عسكرية صارمة، أو لدفع الأنظمة العسكرية الحالية إلى اتخاذ إجراءات أمنية أكثر صرامة ولا تحظى بشعبية. كان الهدف هو تشويه سمعة الحكومة وإبعادها عن الشعب من خلال دفعها إلى اللجوء لمكافحة الإرهاب والتعذيب و«الخطف»، وفرق الموت[326].

«أولاً نقتل جميع المخربين، ثم المتعاونين معهم. وفي وقت لاحق، نقتل الذين يتعاطفون معهم. وبعد ذلك، أولئك الذين ما زالوا غير مبالين. وأخيراً، المترددين».

الجنرال ايبيريكو سان جان (General Iberico Saint Jean)، حاكم مقاطعة بوينس آيرس خلال فترة الرعب[327]

أكمل المـ اتلون الحضريون في عدد من لدان أمريكا اللاتينية إنجاز المرحلة الأولى من استراتيجيتهم، أي إنشاء حكومات عسكرية سيـ ة تماماً وقمعية ووحشية مخصصة لتدميرهم. ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن هذه الحكومات شرعت في الـ يام بذلك تحد داً. في الأرجنتين – وربما هي الدولة الأكثر تضرراً – استولى الجيش على السلطة من حكومة مدنية غـ ر فعالة وليست لها مصداقيتها في أيار من عام 1976، وبسط فيها حكم ا رهاب الذي قتل في نهاية المطاف ما يـن 15 ألف و30 ألف شخص خطف معظمهم من الشوارع أو من منازلهم وتعرضوا للتعذيب لعدة أيام في الـ واعد العسكرية، ثم قتلوا ودفنت جثثهم في مـ ا ر مجهولة أو ألـ يت في البحر. كان غالبية الذين قتلوا من قبل النظام العسكري غـ ر مذنـ ين ولم رتكبوا أي جريمة؛ وهي حـ يقة كان الجنود يعرفونها ج داً. وهم أيضاً كانوا يتبعون استراتيجية ا رهاب المتعمد، ولكن بكل موارد الدولة الحديثة التي كانت تحت تصرفهم. في كل دولة من دول أمريكا اللاتينية التي طبقت فيها استراتيجية حرب العصابات في المدن، انتهى الأمر بالغالبية الساحقة من الثوار إما بالموت أو النفي. كان إنجازهم الرئيس يتمثّل في إيجاد دولة عسكرية إرها ية ابتليت بها حياة ج ل كامل في عدد من دول أمريكا الجنوبية.

وكما هو الحال في حالة حرب العصابات الريفية خارج البيـ ة الاستعمارية، كان الخطأ الفادح في استراتيجية حرب العصابات في المدن هو أنها تفتقر إلى نهاية فعالة. وتقول النظرية إنه عندما ينجح المـ اتلون في دفع الحكومة إلى موقف قمعي بما فيه الكفاية، تنهض الجماهـ ر

في حالة من الغضب وتقوم بتدمير من يظلمها. ولكن، حتى إذا كان السكان هم الذين يررون ذلك، تكون الحكومة – لا الم اتلون – هي المسؤولة عن البؤس المتنامي. ولكن، كيف يتم تحيق ذلك؟ أمن خلال الانتفاضات الحضرية التي نادراً ما نجحت منذ ال رن التاسع عشر؟ أو عن طريق حرب العصابات الريفية التي أثبتت عدم فعاليتها؟

كان الصدى الخافت والأكثر حماقة في هذه الاستراتيجيات ا رها ية في أمريكا اللاتينية هو الحركات ا رها ية التي تبنى معظمها الأ د ولوجيات «التروتسكية» التي ازدهرت في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال السبعينيات والثمانينيات. كان معلمها الأ د ولوجي الرئيس الأكاديمي الأميركي هربرت ماركوز الذي كتب عن ضرورة «كشف التسامح ال م عي للبرجوازية الليبرالية» من خلال العنف الخلاق الذي أج رهم على إس اط قناعهم وكشف حيقتهم ال م عية الح ي ية – الخطاب الماركسي في أمريكا اللاتينية العائد للعقد السا ق – وعندها ستقوم الجماه ر الثورية با طاحة بهم. كما كتب ريتشارد هوفمان عن المجموعة الرئيسة الألمانية الغربية من إرها يي المناطق الحضرية:

«لم تكن عصابة بادر ماينهوف (Baader-Meinhof) بالتأك د تتوقع الفوز بحربها بنفسها، وقد افترض أفرادها أنّ ردة الفعل البروليتارية ستكون محرك الثورة الح ي ي، ويبدو أنهم افترضوا أنّ موجة الرعب ستج ر الدولة على الاستجابة بغضب وحشي انعكاسي، وأنّ الحريات المدنية الألمانية الغربية والح وق المدنية من شأنها أن تُلغى عندما تع د الدولة عقارب الساعة إلى الوراء 25 عاماً، وأنّ

البروليتاريا الألمانية الغربية سترد في حالة رعب عندما يتم الكشف عن الطبيعة الحديدية لحكومتها، وأنّ عمال المصانع والمخابز وعمال المناجم سوف يقومون بسحق من يكبتهم. افترضوا أنهم سيكونون في طليعة الحركة، حيث سيقوم الملايين من الألمان بالثورة في بلادهم. لقد افترضوا الكثير»[328].

– Anarchistische Gewalttäter –

– Baader/Meinhof-Bande –

Wegen Beteiligung an <u>Morden, Sprengstoffverbrechen, Banküberfällen und anderen Straftaten</u> werden steckbrieflich gesucht:

[illegible]

Baader, Andreas Bernd, 6. 5. 43 München

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

Für Hinweise, die zur Ergreifung der Gesuchten führen, sind insgesamt 100 000 DM Belohnung ausgesetzt, die nicht für Beamte bestimmt sind, zu deren Berufspflichten die Verfolgung strafbarer Handlungen gehört. Die Zuerkennung und die Verteilung erfolgen unter Ausschluß des Rechtsweges.

«المجرمون الأناركيون» ملصق المطلوبين من عصابة بادر ماينهوف. لاحظ أن ما يقارب نصف أعضائها من النساء.

كان هذا إرهاباً من صنع إرهابيين مشاهير، والكثير من الراديكالية الأنقة كما في السياسة. كان فصيل الجيش الأحمر (الاسم الرسمي لعصابة بادر ماينهوف) معروفاً جداً بتفضيله سيارات BMW عند سرقة السيارات، حتى إنّ هذا النموذج المفضل لديهم أصبح يعرف عند عامة الناس في ألمانيا الغربية باسم «بادر ماينهوف - فاغن». قتل مقاتلو العصابات - الذين تزادوا في السبعينيات والثمانينيات في ألمانيا الغربية وإيطاليا والولايات المتحدة وبعض البلدان الأخرى في العالم المتقدم - عدة مئات من الأشخاص، واحتلت أعمالهم مئات الآلاف من العناوين الصحفية خلال الفترة الوجيزة نسبياً التي وُجدوا فيها في دائرة الضوء. ولكنهم لم يهددوا أي حكومة في أي مكان، وقد استلهم ليونارد كوهين (Leonard Cohen) من سذاجتهم ونرجسيتهم أغنيته الساخرة «نأخذ مانهاتن أولاً»:

«أنا أسترشد بشارة من السماوات.

أنا أسترشد بهذه الشامة الموجودة على بشرتي.

أنا أسترشد بجمال أسلحتنا.

نأخذ مانهاتن أولاً، ثم نأخذ رلين».

من أغنية المعطف الأزرق الشهيرة

إذا كان لعصابة بادر ماينهوف في ألمانيا، والألوية

الحمراء في إيطاليا[329] (Red Brigades)، وجيش التحرير التكافلي[330] (Symbionese Liberation Army)، وحركة ويزرمان[331] (Weathermen) في الولايات المتحدة، والجيش الأحمر الياباني أي تأثير على الأحداث، فسيكون بصورة رئيسة على شكل «بعبع» يفيد الحكومات اليمينية التي تسعى إلى تشويه سمعة المعارضين اليساريين الشرعيين. ولكن، حتى في هذا الدور المتواضع لم يكونوا مفيدين. فقد أظهر ممثلو العصابات القوميون الذين يعملون انطلاقاً من قاعدة دينية أو أقلية عرقية مثل الجيش الجمهوري الإيرلندي في إيرلندا الشمالية وأوسكادي تا أسكاتاسونا[332] (Euskadi ta Askatasuna) في إقليم الباسك الإسباني قدرةً أكبر على البقاء وقتل عدد أكبر من الناس. يقول أحد مواطني مدينة بلفاست[333]: «لا تقلقني الرصاصة التي كُتب عليها اسمي وإنما تلك التي كتب عليها إلى من يهمه الأمر»، ولكنّ الأمر شبه المؤكد هو أنهم أحرزوا المزيد من التقدم نحو تحقيق أهدافهم السياسية في وقت أقل من خلال الاحتجاج غير العنفي.

مع ذلك، كانت هناك اثنتان من الجماعات التي لم تجد وسيلة كي تؤثر على الأحداث، وقد تركت كل منهما بصمتها من خلال العمليات الدولية، وكانت لديهما أهداف سياسية لا تتطلب الإطاحة بالحكومات المستهدفة، وكانت كلتاهما من المنظمات العربية.

«فلسطين هي الإسمنت الذي يجمع العالم العربي معاً، أو المتفجرة التي تمزقه».

ياسر عرفات[334]

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية من قبل ياسر عرفات في عام 1964 كمنظمة جامعة تقوم بتنسيق استراتيجية تخص العديد من المنظمات المسلحة المتباينة فكرياً والدائمة في مخيمات اللاجئين التي كانت موطناً لمعظم الفلسطينيين الذين فروا أو طُردوا من إسرائيل في عام 1948. كان معظم الفلسطينيين هادئين سياسياً لفترة طويلة، وينتظرون من الدول العربية إعادتهم إلى ديارهم من خلال الحرب. ولكن في أعقاب الهزيمة العسكرية العربية الكارثية عام 1967، وصلوا إلى مرحلة اليأس من الاعتماد على العرب الآخرين لمساعدتهم. وكانت الفكرة الرئيسة لدى عرفات هي أنه في حين لا توجد أمام الجماعات الفلسطينية المسلحة أي فرصة لهزيمة إسرائيل واستعادة وطنها بالقوة – كانت تلك الجماعات أضعف حتى من الدول العربية، وليس بإمكانها فعل أي شيء سوى القيام بعمليات عقيمة – يمكن أن تؤدي طاقاتها إلى نتائج مفيدة إذا وُجِّهت نحو هدف مختلف.

فهم عرفات وزملاؤه أنّ المهمة الأكثر إلحاحاً تتمثل بمحو كلمة «اللاجئين» والعودة إِلى الهوية الصحيحة «الفلسطينيين». وطالما أنهم يُعتبَرون من قبل غير العرب (وحتى من قبل بعض العرب) مجرد «لاجئين عرب»، فسيكونون بيادق يلعب بها الآخرون، حيث يمكن نظرياً إعادة توطينهم، على الأقل في نظر الغرب – أو كما تصر الدعاية الإسرائيلية – في أي مكان في العالم العربي. لذلك، إذا توفرت لهم أي فرصة للذهاب إلى موطنهم، فيجب أنْ تكون الأولوية الأولى هي القيام بحملة لإقناع العالم بوجود الهوية «الفلسطينية»؛ إذ إنّ مجرد إقناع الناس بمناداتهم بهذا الاسم يعتبر ضمنياً قبولاً بحقهم الشرعي في أرض

فلسطين. (بعض الصهاينة يشدد على هذه الد يقة ليذهب إلى أنّ الهوية الفلسطينية مصطنعة، ولكن سيكون من العدل أكثر أنْ نقول إنّ تحول كلمة «فلسطيني» من محض وصف إقليمي إلى هوية وطنية حد ي ية كان نتيجة لتجربة الخسارة وا بعاد. وربما من الصحيح أيضاً ال ول إنّ الفلسطين يين قد أصبحوا ش يهين ب عدوهم؛ فالشوق للأرض المفقودة موضوع مألوف في الثقافة اليهودية، وجزء ك ير من الهوية ا سرائيلية).

لذلك، ما هو نوع الحملة التي قد تقنع العالم بأنّ هناك حقّاً للفلسطين يين؟ ليست حملة إعلانية بالتأك د، ولكنّ حملة من ا رهاب الدولي قد تقوم بهذه المهمة؛ أي ال يام بأعمال مروعة من العنف تستحق النشر، وبالتالي سوف يضطر الجميع لنشرها وتوضيحها، وسوف يضطر الجميع للحديث عن الفلسطين يين. في أ لول عام 1970، نظمت الجبهة الشع ية لتحرير فلسطين (واحدة من المجموعات التي تعمل تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية) اختطاف أربع طائرات في وقت واحد، ومن ثم طارت بها إلى مطار صحراوي في الأردن ودمرتها أمام كاميرات التلفزون العالمية بعد تفريغها من الركاب. كانت تكلفة الهجمات اللاحقة العد د من الأرواح، ولكن هذا كان عملاً دولياً ذا هدف منط ي وقا ل للتح يق؛ ليس جعل إسرائيل تجثو على ركبتيها - ناهيك عن الغرب - ولكن بساطة إجبار الجميع على ال بول بأنّ هناك شعباً فلسطينياً، وأنه يجب أنْ يكون هذا الشعب مشاركاً فاعلاً في

فجرت الجبهة الشعبية الطائرات المختطفة في الأردن، أيلول 1970.

مناقشة مصيره. وحالما تحقق هذا الهدف في أواخر الثمانينيات، لجمت منظمة التحرير الفلسطينية الراديكاليين (على الرغم من بعض المجموعات الصغيرة المنشقة التي استمرت في شنّ حملة خاصة عبثية من تلقاء نفسها).

لم يكن ذلك جميلاً، ولكنه كان فعالاً. وعلى مدى أكثر من عقد من الزمان، تجنبت منظمة التحرير الفلسطينية بشكلٍ أساسي الإرهاب، في إطار سعيها للتوصل إلى تسوية سلمية عن طريق التفاوض مع إسرائيل. لسوء الحظ، أثبت عرفات أنه مفاوض غير حاسم إلى حدٍ كبير، ووجد هو وشريكه التفاوضي الرئيس، رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين، أنّ حرية عملهما مقيدة بشكلٍ متزايد من قبل قوى «الممانعة» في مجتمعيهما الخاصين: الليكود والأحزاب

الدينية في إسرائيل، وحماس والجهاد ا سلامي وبعض الحركات الماركسية العلمانية الصغرى ين الفلسطين ين. رفضت هذه الأحزاب والجماعات التفك ر في أنواع التنازلات (الأرض، وحق العودة للاجئين) الضرورية للتوصل إلى تسوية سلمية.

بعد اغتيال را ين على د يهودي يميني متطرف في عام 1995، استؤنفت الهجمات الفلسطينية، وهذه المرة في إسرائيل نفسها وسط الحملة الانتخا ية، ولكن مصممي هذه الهجمات كانوا من الحركات ا سلامية الصاعدة التي رفضت رفضاً قاطعاً فكرة التسوية ا قليمية مع إسرائيل التي من شأنها إقامة دولة فلسطينية في جزء صغ ر من فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني. كانت عملية أخرى ذات أهداف سياسية محدودة وقا لة للتحقيق، ولكنها هذه المرة موجهة حباط عرفات مثلما هي موجهة لقتل ا سرائيليين. كان الغرض من حملة التفجيرات التي قامت بها حماس والجهاد ا سلامي - والتي استهدفت بشكل خاص الحافلات بغية إحداث خسائر ك يرة - دفع الناخ ين ا سرائيليين بع داً عن شمعون بيريز خليفة را ين - والذي كان من المتوقع على نطاق واسع أن يفوز بسهولة بالتصويت وبالتعاطف بعد عملية الاغتيال - إلى أحضان بنيامين نتنياهو من حزب الليكود؛ وهو من الرافضين للمماطلة في مفاوضات السلام مع عرفات الذين يمكن الاعتماد عليهم لأجلٍ غ ر مسمى.

نجحت الفكرة: وجهت القنا ل الانتخابات لصالح حزب الليكود، ولم يحدث تقريباً أي تقدم في التسوية السلمية في السنوات الثلاث المق بلة. لم يتعاون الرافضون من الجان ين

حباط تحد يق «حل الدولتين» حيث يمكن لدولتين إسرائيلية وفلسطينية أن تعيشا جنباً إلى جنب ين نهر الأردن والبحر، ولكنهم (حسب العبارة المفضلة عند ج ل الكبار في السن من الماركسيين) «حلفاء موضوع ون»، وكان العنف أداتهم الرئيسة من أجل إحباط التحركات في هذا الاتجاه.

لا يزال ا رهاب أداة غ ر مف دة سـ اط الحكومات مباشرةً، ولكنه تطور في العقود الأخ رة وتحول إلى أداة مرنة للغاية لتحد يق أهداف سياسية أخرى أقل أهمية. وهناك مثال مروع ولكنه مع ر جداً يتمثل بالهجمات ا رها ية التي تعرضت لها الولايات المتحدة من قبل تنظيم الـ ا عدة في 11 أ لول عام 2001.

بناء على هذا التحليل، تم وضع مشروع لتغ ير العالم على مرحلتين. في المرحلة الأولى، يجب أن يطاح بجميع الحكومات الموجودة في بلاد المسلمين، حيث يحل ا سلاميون محلهم ويـ ومون باستخدام سلطة الدولة عادة المسلمين إلى الطرائق الصحيحة في ما يتعلق بالمعتقد والسلوك. وعندما يعود كل المسلمين في العالم إلى دينهم بالشكل الصحيح، سيكون الله إلى جانبهم مجدداً، وسيكون من الممكن الانتقال إلى المرحلة الثانية، وتوحيد كل العالم ا سلامي في دولة واحدة ك يرة من شأنها أن تعمل على إسـ اط هيمنة الغرب. وفي الصياغات الأكثر تطرفاً، سوف يتم هذا مع تحول العالم كله إلى ا سلام.

يـ بل عدد قليل نسبياً من المسلمين هذا التحليل، وكذلك يـ دم عدد قليل منهم الدعم لهذا المشروع، ولكن النسبة كانت أك ر في العالم العربي من أي مكان آخر؛ لأن الشعور بالغضب واليأس من الوضع الراهن هو الأقوى في دول هذا

العالم. ونتيجة لذلك، كانت هناك جماعات إسلامية ثورية نشطة في معظم الدول العربية منذ أكثر من ربع قرن. وكان الهدف الأول لها هو الـ يام بـ سـ اط الحكومات الـ ائمة واستلام السلطة بأنفسهم من أجل المضي قدماً في المرحلة الأولى من البرنامج ا سلامي، أما أداتهم الرئيسة لتحـ يق هدفهم ذلك فهي ا رهاب. ومنذ أواخر السبعينيات، كانت بعض الدول العربية مثل مصر والسعودية وسوريا والجزائر مسرحاً لعدد من الهجمات ا رها ية. ومما لا يثـ ر الدهشة، فشل ا سلاميون في الاستيلاء على السلطة في أي مكان. ا رهاب بمفرده لا يسـ ط الحكومات؛ إذ لم يعمل لصالح التوماروس (Tupamaros)[335]، ولم يعمل لصالح عصابة بادر ماينهوف (Baader–Meinhof)[336]، وليس هناك سبب يجعله يعمل لصالح ا سلاميين على حدٍ سواء.

ما يمكنه إسـ اط الحكومة (بصرف النظر عن الانقلاب العسكري؛ وهي طريقة غـ ر مرجحة لدى ا سلاميين للوصول إلى السلطة) هو تواجد مليون شخص في الشارع؛ مما يؤدي إلى إحداث ثورة حـ يـ ية، إما بالطريقة العنيفة الـ ديمة أو من خلال أسلوب اللاعنف الأكثر حداثة. ولكن، عليك أولاً إخراج مليون شخص، وهذا لن يحدث مع ا سلاميين لأنّ الناس ببساطة لا يحبونهم ولا يثقون بهم بما فيه الكفاية للمخاطرة بحياتهم من أجل إيصالهم إلى السلطة. وكانت النتيجة في العـ د من الدول العربية فترة طويلة من الجمود الدموي بين ا سلاميين والحكومات؛ مع بـ اء معظم الناس خارج الصراع ولعن الطرفين. وقد تمّ تعزيز هذا الجمود عندما أسس أسامة بن لادن تنظيم الـ اعدة في أفغانستان في داية التسعينيات.

كان هدف تنظيم القاعدة منذ البداية الذهاب باتجاه الغرب مباشرةً، وعدم مهاجمة الحكومات العربية، وترك أمرها للحركات الإسلامية القائمة في مختلف الدول العربية. ومع ذلك، يجب علينا أنْ نفترض أنّ متشددي تنظيم القاعدة لم ينسوا أنّ هدفهم الحقيقي لا يزال إحداث الثورات في البلدان العربية والإسلامية الأخرى التي من شأنها إيصال الإسلاميين للسلطة وتحقيق المرحلة الأولى من المشروع؛ أي وضع الشعوب في المسار الحقيقي للإسلام، والتقيد به. لذلك، كيف ستساعد مهاجمة الغرب مباشرة في تقريب تلك الثورات؟ وكيف يمكن إنزال الغوغائيين إلى الشوارع؟

لن يخبرك الإرهابيون أبداً باستراتيجياتهم، ولكن من المؤكد تقريباً أنها ستقود إلى الأسوأ، وهذه المرة في سياق دولي. لا يعتقد سوى الجاهل أنّ الهجوم الإرهابي على الولايات المتحدة الذي أوقع ثلاثة آلاف ضحية من شأنه أنْ يجبر الحكومة الأمريكية على الانسحاب من العالم الإسلامي، والتخلي عن كل الحكومات التابعة لها هناك، وليس هناك دليل على أنّ بن لادن ورفاقه كانوا جهلة أو أغبياء. إن أي شخص عاقل يعرف أنّ رد فعل الحكومة الأمريكية سيكون على شكل توغلات مسلحة في العالم الإسلامي في محاولة للقضاء على جذور الإرهاب، وأنها لن تكون حذرة جداً في ما يتعلق بمن سيصاب خلال هذه العملية. كانت هناك فرصة معقولة في أنْ تنفِّر تصرفات أمريكا الكثير من المسلمين وتدفعهم إلى أحضان المنظمات الإسلامية المحلية؛ وخاصة في الدول العربية حيث تتمرد الشعوب أخيراً ضد حكوماتها المؤيدة للغرب، وتجلب الإسلاميين إلى السلطة بدلاً من ذلك.

إذا كان خداع الولايات المتحدة ودفعها إلى التدخل في الدول ا سلامية هو الغرض الاستراتيجي لهجمات تنظيم الـ ا عدة في 9/11 على نيويورك وواشنطن، فلا د من الاعتراف بأن بن لادن قد حصل على عائد معقول من استثماره هذا؛ إذ تمكّنت الولايات المتحدة خلال عشرين شهراً من غزو واحتلال لدين مسلمين

المسير إلى الفخ. الكوماندوز البريطاني أثناء غزو العراق، آذار/مارس 2003.

يعيش فيهما خمسون مليون شخص، وقد تسببت الصور التي رافقت الغزو بـ هانة ك يرة للمسلمين كما تسببت بـ حباطهم، وخاصة في العالم العربي، وأنتجت الوحشية والأخطاء التي لا مفر منها خلال الاحتلال العسكري لأفغانستان والعراق تدفق المزد من الصور في السياق نفسه. إنّ الغضب الذي تسببت به تلك الصور دفع

الملايين من المسلمين إلى أحضان المنظمات الثورية ا سلامية. ولكن، حتى وقت تأليف هذا الكتاب، لم تنجح هذه المنظمات في تحقيق أي ثورات توصل ا سلاميين إلى الحكم في لد مسلم.

من السهل أنْ نبالغ في تقدير بصيرة المخططين في القاعدة والدوة التي تتمتع بها تقنياتهم ا رها ية؛ عندما توقعوا أنْ تقوم الولايات المتحدة بالرد على هجمات 9/11 من خلال غزو أفغانستان للقضاء على قواعدهم هناك، ولكنهم ربما اعتمدوا على المقاومة الأفغانية الطويلة، كتلك التي واجهت الغزو السوفيتي في عام 1979. في الواقع، إن الولايات المتحدة غزت بسرعة البلد بأكمله وهزمته عن طريق عقد تحالفات مع مختلف أمراء الحرب المحليين الذين عارضوا حكم طالبان، كما دمرت معسكرات القاعدة من دون نشر أعداد ك يرة جداً من الجنود الأمريكيين على الأرض كأهداف، إلا أنّ ذلك لم يسر على ما رام مع الهدف الأمريكي المعلن؛ ألا وهو جلب «الديمقراطية» إلى أفغانستان. غير أنها نجحت في تقليص حجم المعارضة الأفغانية للاحتلال، وكذلك ا صابات الأمريكية (وهو أمر يجب أن يؤخذ دائماً بالاعتبار من الناحية السياسية؛ نظراً لنفور الرأي العام الأمريكي الشديد من وقوع إصابات بين الأمريكيين).

لا شك في أنّ خسارة قاعدة تنظيم القاعدة في أفغانستان كانت مصدر إزعاج للمنظمة، ولكنها ليست كارثة؛ لأنّ المنظمة كانت عبارة عن شبكة لا مركزية للغاية، وذات متطلبات لوجستية صغيرة جداً. وعلى اعتبار أنها لم تعد تمثل أي أهداف عسكرية أخرى ذات أهمية بعد احتلال أفغانستان، فإنّ الشيء المنطقي

كان التحول بالنسبة للولايات المتحدة بعد نهاية عام 2001 من الوضع العسكري إلى عملية مكافحة الإرهاب التقليدية: الإرهابيون من المدنيين وليسوا جيشاً، والأدوات المناسبة للتعامل معهم عادةً هي قوات الشرطة وجمع المعلومات والتدابير الأمنية وليس الألوية المدرعة. لم يتوقع مخططو تنظيم القاعدة أن تمضي الولايات المتحدة قدماً في مهاجمة العراق أيضاً بدلاً من التركيز على مكافحة الإرهاب. بدأ تنظيم القاعدة عملية التخطيط لهجمات 11/9 قبل عامين تقريباً من الانتخابات الأمريكية في تشرين الثاني عام 2000. وعلى أية حال، ربما كان قادته غير مدركين لجدول المحافظين الجدد الذين سوف يحتلون في وقت لاحق المناصب العليا في حكومة الرئيس جورج بوش، ولكنّ ذلك الغزو الإضافي هو الذي قَلَبَ حسابات تنظيم القاعدة بعد عملية 11/9.

ما هو الحجم الذي يمكن أن يبلغه «التهديد الإرهابي الدولي»؟ حتى الآن، لا يزال تنظيم القاعدة يعمل في المحيط التكنولوجي نفسه الذي سبرته منظمة التحرير الفلسطينية قبل ثلاثين عاماً (على الرغم من الأهداف السياسية المختلفة جذرياً). وقد اكتشفت استخداماً جديداً لطائرات الركاب المخطوفة، والذي يعتمد على الابتكار غير المتوقع في ما يخص فرق المختطفين الانتحاريين، بمن في ذلك الطيارون المدربون. ولكن هذا كان عبارة عن مفاجأة لمرة واحدة فقط، ولا يبدو أنّ هناك عشرات الأساليب الأخرى غير المستكشفة المشابهة على قائمة الانتظار. كانت هجمات تنظيم القاعدة التالية وحتى الآن بكاملها تقليدية؛ على شكل تفجيرات ذات تكنولوجيا منخفضة لم تسبب إلا ما يزيد عن بضع مئات من الوفيات في أسوأ

الأحوال.

يمكن أن يكون لهذه الهجمات تأثير سياسي كبير عندما يكون توقيتها جيداً؛ مثل هجمات مدريد قبل ثلاثة أيام من الانتخابات الإسبانية في آذار عام 2004، والتي ربما تكون بالفعل قد حولت نتيجة الانتخابات ضد الحكومة المحافظة الحالية التي دعمت الغزو الأمريكي للعراق. ليس هذا تكتيكاً جديداً، ولكن كان توقيت اثنين من هجومات فيتنام الشمالية الثلاث الكبرى هو في فترة الانتخابات الأمريكية لعام 1968 و1972 على التوالي، فيما استفاد الثالث من أزمة ووترغيت عام 1975. أما بالنسبة لإمكانية الإرهاب مع ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل، فالأمر ليس جديداً، ولن يحول الوضع بشكلٍ جذري. من المعروف أن أحد فصائل عصابة بادر ماينهوف في ألمانيا كان يجري تجارب على الأسلحة البيولوجية في الثمانينيات. وفي الولايات المتحدة، قام إرهابي (يُعتَقد الآن أنه ربما كان متطرفاً أمريكياً وليس إسلامياً) بإرسال رسائل مغبرة بجراثيم الجمرة الخبيثة في أواخر عام 2001، قتل على أثرها أربعة أو خمسة أشخاص فقط. أما الطائفة اليابانية اوم شينريكيو فقد أطلقت غاز السارين – وهو نوع من غاز الأعصاب – في مترو الأنفاق في طوكيو في عام 1995، وقتل نتيجة لذلك اثنا عشر شخصاً. المشكلة العملية مع كلٍ من المواد الكيماوية والبيولوجية هي الانتشار، حيث إن المهاجمين المذكورين أعلاه كانوا سيحصلون على نتائج أفضل وبجهدٍ أقل باستخدامهم القنابل المسمارية.

بطبيعة الحال، إن وجود سلاح نووي في أيدي الإرهابيين سيكون مشكلة أكبر من ذلك بكثير. وقد كان الأمر

موضع توقعات لا تنتهي، ودارت حوله عشرات الروايات والأفلام على مدى السنوات العشرين الماضية. ولكنّ وجود سلاح نووي واحد يعتبر كارثة محلية تقترب من حيث النتيجة من الانفجار البركاني كراكاتوا عام 1883، أو زلزال طوكيو عام 1923، ومن الواضح أنّه علينا أنْ نسعى جاهدين لمنع حدوث ذلك. ولكن، حتى التفجير النووي في مدينة تعيسة في وقت ما في المستقبل لا ينبغي أن يدفع العالم إلى الإيمان بما يريده الإرهابيون. وما يريدونه دائماً وأبداً تقريباً هو الإفراط في نوع ما من رد الفعل. الإرهاب نوع من الجوجيتسو السياسي الذي تقوم فيه مجموعات ضعيفة وصغيرة جداً باستخدام قوة محدودة يمكنها تحمّلها بطرائق تدفع معارضيها الأقوى منها - وهم الدول عادة - إلى الاستجابة بطرائق تضر قضية الخصم وتخدم أغراض الإرهابيين أنفسهم.

عاش العالم لمدة أربعين عاماً مع التهديد اليومي بإمكانية حصول محرقة نووية عالمية من شأنها أنْ تدمر مئات المدن وتقضي على مئات الملايين من الأرواح بضربة واحدة. يمكن العيش مع إمكانية أنْ تحوز بعض الجماعات الإرهابية في يوم من الأيام على سلاح نووي واحد وتبث الرعب في مدينة واحدة. النقطة الأساسية ليست في الخوف أو فقدان الصبر، ولكنّ مصطلح «الحرب على الإرهاب» مصطلح مضلل للغاية؛ لأنه بإمكانك أن تنتصر في حربٍ، ولكن من المنطقي إذا كنا ننظر إلى ذلك باعتباره استعارة مماثلة لمصطلح «الحرب على الجريمة» التي يُعلَن عنها من وقت لآخر النجاح في تخفيض معدل الجريمة في البلاد، غير أن أحداً لا يتوقع أنْ يخرج جميع المجرمين وهم يرفعون أيديهم مستسلمين في يوم واحد وأن تنتهي

القضية، حيث لا يكون هناك بعد ذلك المز د من الجرائم.

«أخشى أنّ ا رهاب لم بدأ في 11/9، وأنه سوف يكون موجوداً لفترة طويلة. أنا مندهشة جداً من ا علان عن الحرب على ا رهاب؛ لأن ا رهاب موجود في جميع أنحاء العالم منذ خمسة وثلاثين عاماً... وسيستمر طالما أن هناك أشخاصاً يعانون من المظالم. هناك أشياء يمكننا ال يام بها لتحسين الوضع، ولكن سيكون هناك إرهاب دائماً. يمكن أنْ يُضلِّل المرء من خلال الحديث عن الحرب؛ على الرغم من إمكانية هزيمته بطريقة ما».

ستيلا ريمينغتون، المديرة العامة السابقة للمكتب

الخامس (MI5)[337]، أيلول/سبتمبر 2002[338]

الفصل الحادي عشر

نهاية الحرب

«الخبر السار بالنسبة للإنسان هو أنّ الأمر يشبه الظروف السلمية التي يمكن المحافظة عليها بعد أن يتم تحقيقها. وإذا كانت قرود البابون يمكنها أن تفعل ذلك، فلماذا لا نفعل نحن ذلك؟».

فرانس دي وال (*Frans de Waal*)، مركز يركس للرئيسيات، جامعة إيموري

ضربت إحدى الكوارث قردة با ون التي تعيش في الغابة في كينيا منذ حوالي عشرين عاماً مضت. فقد كان هناك مركز إقامة سياحي بال رب من الغابة، حيث اعتادت ذكور تلك ال ردة الأك ر حجماً والأكثر قوة على الذهاب بانتظام إلى مكب لل مامة هناك للبحث عن الطعام. أما الذكور الأقل شأناً فلم تكن تذهب إلى هناك بسبب المعارك المنتظمة مع قردة التاليك التي كانت تقصد ذلك المكان أيضاً. لذلك، عندما كانت ذكور ال ردة المتوحشة والمست دة في الغابات تأكل اللحوم المصابة بجرثومة السل البري الموجودة في فضلات المكب كانت تموت على الفور، فيما نجت ال ردة الذكور الأقل عدوانية والتي لغت نسبتها 50 بالم ة من الذكور في المجموعة. وبذلك، تغ رت ثقافة المجموعة بأكملها.

لدى ذكور البا ون عادة هاجس دائم يتعلق بالمكانة، ولذلك تكون دائماً على أهبة الاس تعداد لل يام بالاعتداء؛ ليس فقط ضد الذكور من ال ردة المنافسة ذات المكانة المساوية، وإنما أيضاً ضد الذكور الأقل مرتبة؛ إذ تتم مهاجمتها وإخافتها بشكل روتيني. حتى إن ا ناث من تلك ال ردة (التي يصل وزن الواحدة منها إلى نصف وزن الذكر) غالباً ما تتعرض للهجوم والعض في كث ر من الأحيان. تستطيع ذكور الشمبانزي أن تكون عدوانية ومهووسة بالمكانة أيضاً، ولكنها بالم ارنة مع البا ون ت دو مسالمة. أما البشر فهم عملياً قديسين. بالتأك د، لا رغب أحدنا في أنْ يعيش حياته كقرد با ون.

عندما تموت الذكور الأك ر سناً والأسوأ جميعها، يتغ ر الجو الاجتماعي كله. فعندما تمت دراسة هذه الـ رود لأول مرة من قبل علماء الحيوانات الراقية من عام 1979 وحتى عام 1982، ت ين أنّ مجتمع البا ون كان متوحشاً بشكلٍ نموذجي، ولكن، بعد الموت الجماعي والشامل للـ ردة المتوحشة، تشعر الـ ردة الباقية على قيد الحياة بالاسترخاء، وت دأ بمعاملة الـ ردة الأخرى بشكلٍ لائق. يستمر القتال ين الذكور بالتأك د – فهي قرود با ون في النهاية – ولكن ين الذكور التي تنتمي إلى المرتبة نفسها دلاً من ضرب تلك الأقل شأناً اجتماعياً، كما أنها لا تهاجم ا ناث على ا طلاق.

قضت جميع الـ ردة المت ية المز د من الوقت في تنظيف أنفسها والجلوس قرب بعضها بعضاً، والـ يام بغ ر ذلك من أشكال السلوك الاجتماعي الودية الأخرى، وتكون مستويات التوتر حتى بالنسبة للأفراد الأدنى مرتبة (كما قيست من خلال عينات الهرمون) أقل بكث ر مما كانت عليه لدى قرود البا ون الأخرى. والأهم من ذلك كله، أصبحت هذه السلوكيات الجد دة راسخة في ثقافة قرود البا ون، ولم تعد مجرد مجموعة من الـ ردة الجبانة التي تحررت من الاضطهاد بعد وقوع الحادث.

نادراً ما تعيش ذكور البا ون أكثر من ثمانية عشر عاماً، وتلك التي نجت من الكارثة الأصلية من الـ ردة ذات المكانة المتدنية ماتت كلها الآن. وجميع الذكور البالغة حالياً من قردة البا ون التي تعيش في الغابات كانت من الفئة المراهقة التي انضمت إلى المجموعة بعد عام 1982. (تعيش إناث البا ون كل حياتها في مجموعتها التي ولدت فيها، وترث رتبة أمهاتها، فيما يتوجب على الذكور

المغادرة عند البلوغ، حيث تشق طريقها إلى بعض المجموعات الأخرى، وتتسلق السلم الاجتماعي اعتباراً من القاعدة السفلى). والآن، إن مجموعة ذكور القردة في المجموعة العامة تعود إلى توزعها الطبيعي؛ من الذكور المسيطرة إلى تلك الخاسرة والخجولة التي لا تتوفر لها عادة أي فرصة. ولكنّ سلوك المجموعة لم يعد إلى الوضع العادي للباون؛ إذ أصبحت المستويات العدوانية منخفضة نسبياً، وصارت الهجمات العشوائية على القردة الأقل شأناً من الناحية الاجتماعية واقعة نادرة. وقد قال روبرت سابولسكي أستاذ البيولوجيا وعلم الأعصاب في جامعة ستانفورد الذي شارك في وضع تقرير عام 2004 حول ظاهرة قردة باون التي تعيش في الغابات: «إننا لا نفهم حتى الآن آلية التحول، ولكن من الواضح أنّ القردة الجديدة تتعلم عدم القيام بأشياء من هذا القبيل»[339].

إنّ كل واحد منا نحن الرئيسيات يكون طيّعاً جداً وقابلاً للتكيُّف في ثقافاتنا، وكذلك الأمر بالنسبة لقردة الباون؛ فهي لا تتقيد بمورثاتها من حيث المعايير العدوانية المتعلقة بشراسة مجتمعها. البشر أقل عدوانية وأكثر تعاوناً بالمقارنة مع الباون أو حتى الشمبانزي، كما أننا أكثر مرونة بألف مرة في ترتيباتنا الثقافية. معظمنا يعيش الآن في وضع مريح جداً في مجموعات كاذبة تدعى دولاً، وهي حرفياً أكبر بمليون مرة من المجموعات التي عاش فيها آباؤنا وأجدادنا حتى ظهور الحضارة. الحرب مغروسة بعمق في تاريخنا وثقافتنا، ولكن لا ينبغي أن تكون عملية إخراج الحرب من حساباتنا كصعود جبل مرتفع بقدر ما هي بضعة تغييرات نجريها على طريقة حياتنا لنحصل على الحوافز المناسبة.

«يمكنك أن تقول الد يقة عن الحرب العالمية الأولى بشكلٍ أك ر من الحرب الثانية أو الثالثة؛ لأن الناس لو كانوا يعرفون حينها ما سيحدث، لما فعلوا ما فعلوه. لـ د عرفوا الكث ر خلال الحرب العالمية الثانية وقبلوا به. أما الحرب العالمية الثالثة، فلسوء الحظ، هم يعرفون كل شيء عنها، ويعرفون ما سيحدث، ولا يفعلون ش ئاً. أنا لا أعرف الجواب».

أ . ج . ب . تايلور، مؤرخ، مؤلف كتاب «أصول الحرب العالمية الثانية»

عندما قال آلان تا لور هذا في عام 1982، أحدث كلامه صدىً قوياً لدى الج ل الذي أمضى حياته في انتظار حدوث الحرب العالمية الثالثة. أما الآن، فلا أحد يتحدث بمثل هذا الكلام؛ فانهيار الاتحاد السوف يتي وانتهاء الحرب الباردة أقنعا معظم الناس بأنّ الحرب العالمية الثالثة لن تحدث، كما لو أنه لم تكن هناك أسباب منهجية لذلك، وكما لو أنّ الشيء الوحيد الذي قد يحدث كان سببه السوف يت الأشرار. قلق الناس خلال التسعينيات بشأن الحروب الوحشية للتطه ر العرقي التي تلَتْ ذلك في أجزاء مختلفة من العالم الش وعي الـ ديم، والحروب العرقية الره بة المماثلة في أفري يا. ومؤخراً، ازداد الـ لق بشأن ا رهاب أيضاً، ولكننا تجاوزنا حافة الهاوية؛ فعلى ما بدو، لـ د ألغيت الحرب العالمية الثالثة. لا تهدد الحروب الص غ رة والمستمرة الدول المتقدمة، ويمكن التعامل معها بالشكل الأخلاقي الذي تمليه اللحظة الحالية، والأشخاص الوحيدون الذين يتذكرون أنّ السبب هو هيكلية النظام الدولي نفسه، وليس فقط الأنظمة السي ة، وأنه هو الذي أنتج دورة الحروب ين الـ وى العظمى والتي نسميها الآن الحربين العالميتين، هم بعض

المحترفين الذين يعملون داخل المنظومة أو درسونها؛ أي عدد قليل من الد لوماسيين والعسكريين المحترفين، وبعض رجال الدولة، وعدد قليل من المؤرخين.

كانت هذه العطلة التاريخية الراهنة - والتي يعود تاريخها إلى نهاية الحرب الباردة - فرصة رائعة حراز بعض التقدم في ا دارة العالمية، حيث لا تنظر أيّ من ا لدوى العظمى في الوقت الراهن إلى أيّ من ا لوى الأخرى كعدو خطير، والعنف الدولي الوحيد الذي يهدد الدول المتقدمة هو ذلك الناجم عن الحوادث ا رها ية العرضية؛ فنحن لم نضيع الفرصة تماماً.

كانت حملة الأمم المتحدة بيادة الولايات المتحدة لطرد الغزاة العراقيين من الكويت المحتلة عام 1991 هي المرة الأولى التي تعزز فيها الأمم المتحدة قرارها بحملة عسكرية لمناهضة العدوان مع سلطة قانونية كاملة من مجلس الأمن منذ الحرب الكورية قبل أربعين عاماً. ورداً على الحروب العرقية التي حصلت في التسعينيات، قررت الأمم المتحدة أنْ تحمي السيادة المطلقة للدول المستقلة عدة مرات، وذلك عن طريق السماح بالتدخلات العسكرية الدولية لمنع ا بادة الجماعية (على الرغم من تجاهل الحالة الأكثر سوءاً في رواندا / شرق الكونغو). ولكن، لم ُبذل الكث ر لزيادة سلطة مجلس الأمن وترسيخ مبدأ التعددية، لأنّ التيار الأحادي كان يعمل بوة في الولايات المتحدة؛ وهي الآن ا لوة العظمى العالمية الوحيدة.

كان هناك مـ دار معين من الغطرسة المتوقعة بعد الانتصار الواضح للولايات المتحدة في الحرب الباردة، وأصبح تمج د ا لوة العسكرية الوطنية جزءاً من الثقافة السياسية

في واشنطن، وقد انتصر الأمران في مشروع للهيمنة الأمريكية الخيّرة المعروف باسم «باكس أمريكانا» (paxAmericana) والذي أدى إلى سيطرة المحافظين الجدد على السياسة العسكرية الأمريكية والسياسة الخارجية في إدارة الرئيس جورج بوش عام 2001. شنت إدارة بوش هجوماً مستمراً على المؤسسات متعددة الأطراف، وتخلّت عن معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية، وحاولت تخريب المحكمة الجنائية الدولية، ورفضت التعديلات التي تم التفاوض عليها لفترة طويلة الأمد والتي سعت إلى جعل الاتفاقيات ضد الأسلحة الكيميائية والبيولوجية أكثر قابلية للتنفيذ، واستخدمت الهجمات الإرهابية في 11 أيلول/سبتمبر 2001 كذريعة لغزو العراق في عام 2003، الأمر الذي كان أيضاً هجوماً متعمداً على سلطة مجلس الأمن. ومن غير الواضح حتى الآن مدى الضرر الذي أحدثته مغامرة المحافظين للأمم المتحدة، ولكن ربما خسرنا أي تقدم أحرز في التسعينيات، ولا سيما في ما يتعلق بالثقة بين القوى العظمى. لن تخرج الأمم المتحدة من هذه الحلقة سليمة إلا في حال عودة الولايات المتحدة لالتزامها التقليدي بالمؤسسات متعددة الأطراف في وقتٍ قريبٍ إلى حد ما، قبل أن تبدأ دول أخرى أيضاً بالتخلي عنها، ولكن تمّ هدر الكثير من الوقت، وربما تكون العطلة التاريخية قد انتهت تقريباً، وباتت أمامنا أوقات أكثر صعوبة مما مضى.

هناك ثلاثة تغييرات كبيرة ستحل في العقود القادمة يمكنها أن تقلب النظام الدولي مجدداً وتعيده إلى الفوضى القديمة: التحدي البيئي للتغير المناخي، والتحدي السياسي لظهور قوى عظمى جديدة، والتحدي التكنولوجي للانتشار النووي. ستضع هذه التغييرات معاً النظام الآيل للسقوط الذي

صممناه للحفاظ على السلام في العالم تحت ضغط حاد، وسيكون من الصعب جداً المرور بكل هذه التغيرات من دون حدوث حرب كارثية.

خلال الجيلين أو الأجيال الثلاثة القادمة، إنّ الآثار الكاملة لما قمنا به خلال القرنين الماضيين - زيادة عدد أفراد الجنس البشري بمقدار ستة أضعاف، وانتشار التصنيع على معظم الكوكب في الوقت نفسه - سوف تشق طريقها عبر النظام، ولن تكون العواقب صغيرة. كان لإنسان العادي في مطلع القرن الحادي والعشرين تأثير على المناخ يعادل على الأقل خمسة أضعاف تأثير الشخص العادي على البيئة في عام 1800؛ من حيث الاستخدام المكثف للأراضي لإنتاج اللحوم، وزيادة معدل استهلاك الفرد من المياه للأغراض المنزلية والصناعية، وزيادة استهلاك المواد الخام، وزيادة إنتاج النفايات. (تم تضمين البصمة البيئية الأخف وزناً لفقراء العالم في المتوسط). لذا، إن ستة أضعاف عدد السكان مضروباً بخمسة أضعاف الأثر البيئي للفرد الواحد تكون نتيجته الضغط البشري الكلي على البيئة، والذي هو الآن أكبر بثلاثين مرة مما كان عليه فقط منذ مئتي عام.

لا بد أن تكون لهذا التغير البيئي آثار عالمية كبيرة. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نتوقع بالضبط وقت حصولها، إلا أنه يمكننا أن نكون متيقنين من أنّ معظمها سيكون غير سار. يمكنك أن تجادل بخصوص تفاصيل أي من هذه الظواهر: تغير المناخ العالمي، تراجع مصائد الأسماك في العالم، فشل موارد المياه العذبة في تلبية الطلب في العديد من المناطق، تقلص الغابات وتآكل التربة السطحية

الخصبة، انتشار عشرة آلاف مادة كيميائية وبيو كيميائية جديدة في البيئة مع عواقب مجهولة إلى حد كبير، غرق المدن الكبرى في أشكال قديمة وجديدة من التلوث وولادة أمراض جديدة، إلا أن التوزع الإقليمي لهذه الظواهر على نطاق المنظومة الرئيسة في طريقه إلينا بشكلٍ واضح، وبعضها ستكون له آثار سياسية خطيرة؛ بما في ذلك الاحتمال الكبير جداً لعودة الصراع مجدداً.

يجب على النظام الدولي خلال السنوات العشرين أو الثلاثين المقبلة التأقلم مع نشوء قوى عظمى جديدة والأفول النسبي لبعض القوى القائمة. ستكون الصين أكبر اقتصاد في العالم بحلول عام 2040؛ وفقاً لتوقعات اقتصادية بعيدة المدى أدلى بها مصرفي الاستثمار غولدمان ساكس في أواخر عام 2003، تليها مباشرةً الولايات المتحدة (والتي قد تكون لا تزال على قدم المساواة مع الصين في مجال الابتكار التكنولوجي)، كما أن الهند على مسافة ليست كبيرةً جداً. وستكون الطبقة الثانية من القوى على مسافة كبيرة إلى الخلف: البرازيل وروسيا واليابان. وفي النهاية، ستأتي الاقتصادات الصناعية الخمسة الكبرى في الغرب: بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وكندا، وإيطاليا[340]. وعلى الرغم من أنّ دراسة غولدمان ساكس لا تتعمق في ذلك، ولكن حتى على هذا المستوى ستكون هناك قوى جديدة ضمن طبقات القوى الكبرى؛ إذ ربما تكون المكسيك، وجنوب أفريقيا، وباكستان، وإندونيسيا في النطاق نفسه من حيث الناتج المحلي الإجمالي مثل الدول الخمس الغربية الدنيا بحلول عام 2040، وكذلك كوريا (وخاصة إذا تم لم شملها مع كوريا الشمالية)، وربما تركيا وتايلاند.

إنّ هذه التغييرات المقبلة في النظام الدولي مؤكدة، وقد لا تصل دولة أو دولتان إلى مستوى هذه التوقعات، ومن الواضح أنّ تفاصيل التوقيت مفتوحة أمام التغيير: اندلاع آخر للجنون السياسي مثل القفزة الكبرى إلى الأمام، أو الثورة الثقافية التي قد تكلف الصين عشر سنوات من النمو وتؤخر وصولها إلى أعلى القمة حتى عام 2050، أو الانتشار السريع للإيدز في الهند والذي قد يقلل نقطة مئوية أو أكثر من معدل النمو الاقتصادي المرتفع لهذه الدولة. ولكنْ حتى هذا النوع من الكوارث قد يؤخر عملية التحول بشكلٍ بسيط، ولكنه لا يغير الخطوط العريضة أو يوقفها بشكلٍ دائم. ليست تفاصيل النظام السياسي أو الاستراتيجية الاقتصادية ما يضمن للصين والهند معدل نمو اقتصادي يصل إلى أكثر من ضعفي ما هو عليه في الولايات المتحدة على مدى السنوات القادمة، وإنما توافر أعداد كبيرة من الأيدي العاملة الرخيصة القابلة للتدرب بسهولة، بالإضافة إلى حقيقة أنّ الدرجات الوسطى من السلم الاقتصادي – التي يبلغ الدخل السنوي للفرد فيها ما بين ألف وخمسة آلاف دولار – يمكن زيادتها من دون الحاجة إلى تغيير اجتماعي كبير. وهناك ضمانة تقريبية للصين والهند لتصبحا القوتين الاقتصاديتين الأولى والثالثة في العالم في الجيل القادم.

لا يوجد شيء يثير الدهشة في ما يتعلق بهذا الموضوع. فقد كانت الصين وشبه القارة الهندية من أكبر التجمعات الاقتصادية في العالم قبل أن تسرق الدول الأوروبية المسيرة التكنولوجية من بقية العالم قبل أربعة أو خمسة قرون. ومن الطبيعي أنْ تستعيدا منصبيهما القياديين الآن مع إغلاق الفجوات التكنولوجية، وستكون تذكرة التحول إلى قوة عظمى في عام 2040 بسيطة جداً: إذ يجب أن

تكون الدولة بمـ ياس شبه قارة، وأن بلغ عدد سكانها نصف مليار شخص تقريباً أو أكثر. هناك ثلاثة مرشحين فقط لتلبية هذا المعيار: أمريكا والصين والهند، وقد يسبب الحشد المتصارع من الـ وى الجد دة والـ ديمة في أسفل الـ ائمة قدراً معيناً من الاضطراب في النظام، ولكنّ ذلك لن يؤثر بأكثر من أنْ يتغ ر ترت ب التصنيف العالمي في الـ مة.

كانت المرة الأخ رة التي وقع فيها العالم بمثل هذا الاضطراب في ترت ب الـ وى العظمى في نهاية الـ رن التاسع عشر؛ ففي وقت متأخر حتى عام 1850، كانت ريطانيا لا تزال الـ وة العظمى العالمية والوحيدة بلا منازع مع وجود ما يـ ارب نصف طاقة التصنيع في العالم كله على الأراضي البريطانية. وبحلول عام 1890، تجاوزت الولايات المتحدة ريطانيا في ا نتاج الصناعي، فيما كانت ألمانيا تلحق بالركب بسرعة، وبدأت دول أخرى مثل روسيا واليابان تتبع مسار التنمية الصناعية السريعة نفسه، في حين أنّ فرنسا – الـ وة الأوروبية المهيمنة – كانت تنزلق بطء إلى أسفل الـ ائمة. إنّ معظم الأنواع الأخرى من الـ وة أساساً دالة من دالات الـ وة الاقتصادية. وبالتالي، كان على النظام الدولي الـ ائم الذي بُني على افتراض الهيمنة البريطانية العظمى («باكس ريتانيكا») أن يتكيف مع الحـ ائق الجد دة.

أثبت نظام الـ رن التاسع عشر أنه غ ر قادر على إجراء التعديلات اللازمة سلمياً، وكانت بعض الـ وى الصاعدة تفتقد إلى الصبر، فقامت بالدفع باتجاه ذلك بـ وة ك يرة. وقد قاومت الـ وى المتراجعة خسارتها التدريجية للمكانة، وهوى النظام رمته في النهاية إلى كارثة الحرب العالمية الأولى،

والتي كانت تدور حول ترت ب ال وى العظمى أكثر مما كانت حول خلافات محددة في ما ي نها. لا وجد ما ي ث ر الدهشة في ما يتعلق بهذا الموضوع، فقد كانت الحرب هي الطريقة الطبيعية التي يتبعها النظام الدولي لتلبية مطالب ال وى الصاعدة على حساب ال وى المتراجعة، ولكننا بالتأك د لا نريد أنْ نمرّ بذلك مرة أخرى بأسلحة ال رن الحادي والعشرين.

وما يز د الأمور تعقيداً هو تلك الأسلحة – وخاصة النووية – التي قد تنتشر في أ دي المز د والمز د من الدول. فقد قامت الدول الخمس الك رى دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي – الولايات المتحدة، والاتحاد السوف يتي، وبريطانيا، وفرنسا، والصين – ين عامي 1945 و1964، باختبار أسلحتها النووية الأولى. وهناك دولة أخرى هي إسرائيل قامت بتطوير هذه الأسلحة سراً ومن دون أن تخت رها علناً. هذه الدول الست تمتلك الآن عدة مئات أو الآلاف من الرؤوس الحربية النووية (وهي في معظم الحالات حرارية نووية)، ولكن مرّ وقت طويل قبل ظهور ال وى النووية الأخرى.

أجرت الهند أول «تفج ر نووي سلمي» في عام 1974، وكان ظاهرياً من أجل مشاريع الهندسة المدنية، غ ر أن الهدف الح ي ي منه هو إيجاد رادع ضد الأسلحة النووية الصينية (خاضت الدولتان حرباً حدودية قصيرة في عام 19). عندها، شعرت باكستان التي حاربت الهند وخسرت ثلاث حروب معها في ربع ال رن الماضي بأنها مضطرة لمجاراة الأسلحة النووية المعلنة للهند. وقد أعلن رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي وتو حينها أنّ الباكستان ين «سيأكلون العشب» إذا لزم الأمر لاستعادة التوازن ين

الدولتين، وشرعت باكستان بتنفيذ البرنامج النووي السري الخاص بها. ومع دء ظهور الـ وات السوفييتية والـ وات الكوبية ك لدي «مواجهة» في الشمال، دأ نظام الفصل العنصري في جنوب أفر يـ يا بتطوير أسلحة نووية، وبدأت الأرجنتين والبراز ل – في ظل النظام العسكري لكل منهما – بالعمل عليها أيضاً؛ وكانت الحجة ظاهرياً هي أن تستخدمها كل منهما ضد الأخرى، ولكنّ الهدف من ذلك في الواقع كان يتعلق بـ راز الشجاعة والبراعة الوطنية. وفي مرحلة ما من أواخر السبعينيات أو الثمانينيات كانت لدى العراق وكوريا الشمالية وإ ران أيضاً رامج للأسلحة النووية.

إن قائمة الدول التي لم تصبح نووية واضحة بالتأك د، فدول مثل كندا وإيطاليا وأستراليا كان باستطاعتها تطوير أسلحة نووية في غضون سنتين من مباشرتها بذلك منذ داية الخمسينيات، ولكنها اختارت دلاً من ذلك الاعتماد على المظلة النووية الأمريكية لأنها تعتقد أنّ المز د من الانتشار من شأنه أنْ يضع العالم في خطر محدق. وتوصلت اليابان وجمهورية ألمانيا الاتحادية إلى نتيجة مماثلة، وهي أنهما قد تواجهان المز د من العقبات السياسية الناجمة عن تطوير أسلحة نووية بسبب الحرب العالمية الثانية، ولكنهما كانتا ستفعلان ذلك على أية حال، بغض النظر عن الـ يود الـ انونية والسياسية؛ وذلك لو أنهما شعرتا حـ اً بالحاجة إلى ذلك.

ولكن تمّ ثنيهما عن ذلك من خلال الضمان النووي الأمريكي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تا وان وكوريا الجنوبية. كما أن السويسريين والسويد ين الذين كانوا

أيضاً قادرين بسهولة على تطوير أسلحة نووية في غضون عام أو عامين، أجروا مناقشات بين الحين والآخر حول ما إذا كانت الأسلحة النووية ضرورية للدفاع عن حيادها، لكن القرار كان دائماً ضد ذلك. إنّ جميع الدول التي قررت أنْ تصبح نووية – باستثناء تلك الموجودة في أمريكا الجنوبية – كانت تواجه أعداء حقيقيين مسلحين بأسلحة نووية ويرغبون بردعها، وهكذا حصل الانتشار النووي لأسبابٍ منطقية.

لم يسر الأمر على نحو سيئ كما كان من الممكن أنْ يحدث؛ إذ قامت جنوب أفريقيا ببناء ست قطع من الأسلحة النووية، ولكنها فككتها لاحقاً وأغلقت برنامجها النووي كله بعد انتهاء نظام الفصل العنصري في عام 1994. كما أغلقت البرازيل والأرجنتين على حدٍ سواء برامج الأسلحة النووية لديهما من دون بناء قنبلة فعلية، وذلك بعد سقوط الجنرالات فيهما. وأحرز العراق تقدماً كبيراً في أبحاث الأسلحة النووية في أواخر الثمانينيات بعد النكسة الأولية الناجمة عن القصف الإسرائيلي لمفاعل تموز النووي عام 1981، غير أنه تم تفكيك البرنامج بشكلٍ كامل من قبل مفتشي الأمم المتحدة بعد هزيمة العراق في حرب الخليج عام 1991. ولم يجد مفتشو الأسلحة الأمريكيون أي دليل على وجود إعادة لبرنامج الأسلحة النووية بعد الغزو الأمريكي للعراق في عام 2003 على الإطلاق.

يدّعي النظام الكوري الشمالي بأنه طور أسلحة نووية، وذلك جزئياً لردع أي هجوم أمريكي، وجزئياً على أمل الحصول على رشوة مجزية للتخلي عنه. ومن المؤكد أنّ إيران لديها برنامج سري للأسلحة النووية. تعتبر إسرائيل أنّ إيران عدوها

الأكثر خطورة حالياً، وتسعى أي حكومة إيرانية على وجه السرعة لامتلاك أسلحة نووية تكون رادعاً لقدرة إسرائيل الحالية على توجيه ضربة نووية ضدها مع الإفلات من العقاب. وظهرت الهند وباكستان إلى العلن عام 1998 بسلسلة متنافسة من التجارب النووية، وهما متمكنتان الآن على غرار نموذج الخمسينيات من المواجهة النووية بمناقشة استخدامها أو التخلي عنها؛ الأمر الذي يُعتبر بمثابة هزيمة من المنظور الهندي. وقبل أن تُجبَر باكستان على المشاركة في سباق التسلح النووي، كانت ميزة الهند المتمثلة بعدد سكانها البالغ سبعة أضعاف عدد سكان باكستان، بالإضافة إلى قاعدتها الصناعية الأكبر بكثير من قاعدة باكستان الصناعية ستضمن لها النصر في أي حرب تقليدية مع باكستان. ولكنّ الأسلحة النووية كانت المعادل الكبير بينهما. والآن، الهند وباكستان معرضتان معاً لخطر تبادل الضربات النووية.

بالشروط المطلقة، إن سجل العالم الخاص بالانتشار النووي على مدى الأعوام الأربعين الماضية ليس سيئاً. فاثنتان فقط من الدول حالياً تمتلكان الأسلحة النووية على وجه اليقِين؛ ليصبح المجموع ثماني دول مؤكدة، واثنتين متوقعتين. ولكن مع بلوغ عدد تلك القوى أرقاماً مضاعفة، يزداد الاحتمال بأن تستخدم إحداها الأسلحة النووية عاجلاً أو آجلاً، وخاصة لأنّ الدول التي تسعى للحصول عليها بمعظمها هي تلك التي تتوقع حدوث مواجهات عسكرية. هناك خطر مساوٍ أو أكبر يتمثل بالضغط المستمر داخل المجتمع الصناعي العسكري الأمريكي لصنع أسلحة نووية «قابلة للاستخدام» أصغر حجماً وأكثر عدداً لأغراض هامشية وواضحة بالنسبة لأي

استراتيجية جديدة – على سبيل المثال، التغلغل في عمق الأرض لتدمير الملاجئ المحصنة – حيث إن التقدم المهني الخالص والوصولية الفاضحة لجميع المعنيين من المستحيل تجاهلهما. ولكنّ «الج ران النوويين الجدد»، والـ وى العظمى التي تجري مناقشة علنية لاستخدام الأسلحة النووية ضد الدول غ ر النووية توفر حوافز قوية للمز د من البلدان كي تمعن النظر في تطوير أسلحة نووية خاصة بها.

صمد «مانع النار» ضد استخدام الأسلحة النووية فعلياً، والذي دأنا بنائه بعد ه روشيما ونا غازاكي لأكثر من نصف قرن، وأوجد قرينة قوية ين الـ وى النووية الحالية بأنه لا ينبغي أنْ تستخدم وأنها لن تستخدم، ولكن من الصعب توقع مدى تأث ر مانع للنار، وربما سيكون من الأفضل عدم معرفة ذلك.

إنّ مجرد انتشار الأسلحة النووية وحده يعت ر تحدياً ك يراً لاستقرار النظام، وكذلك الحال في الأزمات الـ ادمة؛ وهي يئية في معظمها من حيث الأصل، وسوف تصل إلى بعض البلدان بشكل أصعب بكث ر من غ رها، ويمكنها أن تدفع البعض إلى الشعور باليأس. كما أن التحولات الوشيكة والهائلة في نظام الـ وى العظمى ستجعل إب اء الأمور تحت السيطرة أمراً صعباً. وبالـ ليل من الحظ الج د وا دارة الج دة، سنكون قادرين على اجتياز نصف الـ رن المـ بل من دون كارثة من الدرجة الأولى تتمثل بحرب نووية عالمية، ولكنّ احتمال موت قسم ك ير من البشر موجود بالتأك د.

لا يمكننا الركون إلى حسن الحظ، ولكنّ ا دارة الج دة هي ما يمكننا اختياره كي نعالج هذه المشكلة. ويعتمد

ذلك قبل كل شيء على الحفاظ على النظام متعدد الأطراف الذي بنيناه (مع الكثير من الانقطاعات والأعطال) منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتوسيع نطاقه. يجب أن يتم استيعاب القوى الصاعدة في نظام يؤكد على التعاون ويفسح لها مكاناً، بدلاً من نظام يعتمد على المواجهة والقوة العسكرية بحد ذاتها فقط. إذا كانوا مضطرين للعب اللعبة التقليدية للقوى العظمى التي تنتهي بفائزين وخاسرين، فعندها سيعيد التاريخ نفسه ويكون الجميع خاسرين.

تعتمد آمالنا للتخفيف من حدة الأزمات البيئية القادمة أيضاً على اتخاذ الإجراءات العالمية المبكرة والمتضافرة؛ من النوع الذي لا يمكن أن يحدث أساساً إلا في ظل نظام دولي تعاوني. وعندما تجبَر القوى الكبرى على المواجهة العسكرية، لن يكون هناك ببساطة ما يكفي من الاهتمام، ناهيك عما يكفي من الثقة لإنجاز صفقات تخص تلك القضايا. بدأت المخاوف الخاصة بالبيئة منذ أربعين عاماً، ولكن بصرف النظر عن الصفقة العاجلة المتعلقة بثقب الأوزون، لم تتواجد اتفاقات دولية تعالج تلك المخاوف حتى الفترة التي تلت نهاية الحرب الباردة. وبالتالي، إن الأولوية القصوى في الوقت الراهن هي الحفاظ على النهج متعدد الأطراف، وتجنب الانجراف مرة أخرى إلى نظم تحالف وسباقات تسلح؛ إذ لا توجد أي فائدة من توقعنا أننا نستطيع الاتجاه مباشرةً إلى نوع من الحكومة العالمية دون أرض سليمة وأخوة عالمية. يجب علينا أن نواجه هذه التحديات ونحل مشاكل الحرب ضمن سياق نظام الدول الحالي.

«يجب أن نستوعب الدولة الوطنية الحديثة قبل أن

تتجاوزنا».

دوايت ماكدونالد، 1945[341]

«إنّ الوصول إلى العدل من دون استخدام القوة أسطورة».

بليز باسكال

كان الحل لحالة الفوضى الدولية التي تجبر كل دولة على تسليح نفسها استعداداً للحرب واضحاً جداً؛ حيث ظهر من تلقاء نفسه تقريباً في أعقاب الحرب الشاملة الأولى في عام 1918. إذ تضخمت الحروب التي قامت الدول المستقلة من خلالها بإنهاء خلافاتها في الماضي بشكلٍ مدمر ومخيف، حيث كان لا بد من وجود نظام بديل، ولم يكن من الممكن الوصول إلى ذلك إلا عن طريق تجميع السيادة؛ على الأقل في المسائل المتعلقة بالحرب والسلام، وذلك من قبل جميع دول العالم. وبالتالي، قام المنتصرون في الحرب العالمية الأولى على وجه السرعة بإنشاء عصبة الأمم.

كان الحل صعباً عملياً بقدر ما كان بسيطاً من حيث المفهوم. فالدول الكبرى ذات التقاليد العريقة من حيث الاستقلال المطلق والشكوك عميقة الجذور بخصوص جيرانها لا تتخلى بسهولة عن عاداتها لمجرد أنها أوجدت بعض المؤسسات الجديدة التي يُزعم أنها سوف تعتني بمشاكلها الأمنية. إنّ الفكرة التي تقول إنّ جميع دول العالم سوف تجتمع معاً لردع أو معاقبة عدوان بعض الدول المنشقة أمر جيد من حيث المبدأ. ولكن، من الذي يقوم بتحديد المعتدي؟ ومن الذي يدفع التكلفة في المال والأرواح التي قد تكون هناك حاجة إليها لإجبار المعتدي على التوقف؟

بشكلٍ أكثر تحد داً، كان كل عضو في عصبة الأمم درك ج داً أنه إذا كانت المنظمة قد استحوذت على الـ درة على التصرف بطريقة منسقة وفعالة، فمن الممكن أن ينتهي الأمر باستخدامها ذلك ضده. لم تكن أي حكومة ك رى على استعداد عطاء عصبة الأمم أي سلطة حـ يـ ية على أرض الواقع، ولذلك وصلت جميع الدول إلى الحربٍ العالمية الثانية دلاً من ذلك. كانت تلك الحرب سيـ ةً للغاية، حيث إنّ المنتصرين بذلوا محاولة ثانية في عام 1945 نشاء منظمة دولية تستطيع حـ اً منع الحرب. كانوا جميعاً خائفين بشدة، وهكذا كانت الأمم المتحدة عبارة عن مبادرة أكثر راديكالية بكث ر من عصبة الأمم، وقد غ روا الـ انون الدولي حرفياً وجعلوا الحرب غ ر مشروعة.

تم الـ يام بذلك بشكلٍ رمزي مرةً واحدة من قبل، في حلف ك لوغ - ريان د عام 1928، بمبادرة من قبل فرانك ب ك لوغ وز ر خارجية الرئيس الأمريكي كالفين كوليدج. وحينها، وافقت جميع الـ وى الك رى (باستثناء الاتحاد السوف يتي الذي كان على قطيعة مع بـ ية الـ وى الك رى) على التخلي عن الحرب كأداة للسياسة الوطنية. لم تكن هناك آليات لتطبيق الـ اعدة الجد دة، ولذلك كان الجميع سعداء بالتوقيع. كما لم يكن لها أي تأث ر على ا طلاق في الاقتراب من الحرب العالمية الثانية، ولكنها لم تكن مضيعة للوقت، حيث إنّ فكرة حظر الحرب طُرحت، ووافقت عليها الـ وى الك رى بالفعل من حيث المبدأ. وعلى ما بدو، كانت نتائج حلف ك لوغ - ريان غ ر المجدية واحدة من الطرائق الرئيسة التي استطاعت الأفكار الراديكالية الجد دة من خلالها التسلل إلى النظام وحظيت بـ بول واسع.

لذلك، عندما جُلس للتفاوض على ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو عام 1945، فإن المنتصرين في الحرب العالمية الثانية تمكنوا من البدء من خلال الجمع بين التنازل الكلي عن الحرب كأداة للسياسة التي كانت إرث ميثاق كلوغ بريان د كأداة شرطية لتنفيذ دور الدوى العظمى التي كانت نواة عصبة الأمم، وا تيان بشيءٍ جد د كلياً؛ أي فرض حظر قا ل للتنفيذ من الناحية النظرية على الحرب. يُحظِّر ميثاق الأمم المتحدة استخدام الد وة ضد دولة أخرى إلا في حالة الدفاع عن النفس أو تنفيذ أوامر مجلس الأمن، وتصدر تلك الأوامر فقط بغرض إي اف بعض الدول التي تخرق قواعد الأمم المتحدة من خلال مهاجمة بعض الدول الأخرى الأعضاء فيها. وهنا كان التحول من الأيام الد ديمة السي ة إلى عالم جد د يسوده الد انون حيث مُنعت الحرب في قفزة واحدة تخطف الأنفاس. ولكنّ الأمر لم يكن كذلك حد اً، فالجميع يفهمون أنّ إنشاء الأمم المتحدة كان عبارة عن إطلاق مشروع مدته م ة عام؛ فقد خاضت دول العالم الحروب لعدة آلاف من السنين، والحرب تتغلغل في مؤسساتنا وثقافاتنا كافة، وحتى في عقليتنا، وباستطاعة الناجين من أسوأ حرب في التاريخ أنْ يتفقوا منط ياً على أنّ الحرب قد أصبحت الآن فتاكة ويجب أن تلغى، ولكنهم كانوا درك ون ج داً أن كل ذلك التاريخ وكل تلك الانعكاسات لن تختفي بين عشيةٍ وضحاها، وهم ليسوا سذّجاً في ما يتعلق بما يحاولون الد يام به؛ والدليل على ذلك هو الواقعية الوحشية التي تميز قواعد التطبيق التي قاموا بكتابتها.

تحتفظ المعاهدات الدولية العادية دائماً بذريعة أنّ جميع الدول ذات السيادة تكون متساوية، وقواعد الأمم المتحدة

بساطة تجعل كل القوى العظمى الخمس المنتصرة في عام 19 أعضاء دائمين في مجلس الأمن، في حين يجب أنْ تدور العضوية بين الدول الأخرى لمدة عامين. يجب على القوى العظمى أنْ تقنع ما يكفي من الأعضاء المؤقتين بأن هناك خرقاً للسلام للفوز بأغلبية الأصوات في مجلس الأمن البالغ عددها خمسة عشر صوتاً، وذلك قبل أن تتمكن من القيام بعمل عسكري ضد دولة اتهمت بالعدوان. ولكن، تستطيع أي دولة من الدول الكبرى أنْ تستخدم حق الفيتو حتى لو كانت الأغلبية هي أربعة عشر إلى واحد. لم يأخذ أحد عصبة الأمم أو ميثاق كيلوغ برياند على محمل الجد، فلم يكن هناك ما يسيء للأعراف الدبلوماسية من خلال قواعد تعترف بصراحة أنّ القوى العظمى هي أكثر مساواة من الآخرين، ولكنّ مؤسسي الأمم المتحدة قاموا بذلك عند تأسيس منظمة الأمم المتحدة لكي يضمنوا عملها.

لم يكن من الصعب عموماً إقناع الدول الصغيرة والمتوسطة بالاشتراك بمشروع لمنع الحرب؛ لأنه ليس لديها ما تكسبه من خلالها، كما أنها معرضة بشكل كبير للخسارة إذا قررت القوى الكبرى التوسع على حسابها. إنّ إقناع القوى الكبرى بالتوقيع على القواعد نفسها صعب جداً؛ لأنّ المطلوب منها في هذه الحالة هو التخلي عن أداة من أدواتها السياسية، أي القوة العسكرية، والتي غالباً ما تمكنها من شق طريقها في العالم. وتفهم الدول الصغيرة والمتوسطة أنها في حال نشوب حرب أخرى بين القوى العظمى فستتعرض على الأرجح للتدمير، وأنّ تغيير القواعد الدولية سيخدم مصالحها الذاتية على المدى الطويل – وإلا فلن تكون على استعداد للتفكير في منظمة مثل الأمم المتحدة على الإطلاق – ولكنْ طُلب منها التخلي عن عصفور في اليد مقابل عصفور آخر على

الشجرة.

كان لا د من أن تكون هناك صفقة للتغلب على هذه العقبة، وكان ذلك على شكل حق الفيتو (النقض)، وهو أشبه بطاقة للخروج من السجن تسمح لكل قوة عظمى بمنع الأمم المتحدة متى أرادت ذلك من اتخاذ إجراءات ضدها. وفي الواقع، لـ د استثناها هذا الحق من تطبيق المسيرة العادية للـ انون الدولي الجد د. وكان على الدول الأخرى إطاعة هذا الـ انون: فإذا وافق مجلس الأمن على أنّ أعمالها تمثل خطراً على السلام، فقد تواجَه من قبل جيش دولي يعمل تحت راية الأمم المتحدة. حدث ذلك لكوريا الشمالية في عام 1950، وللعراق في عام 1990. كان من المتوقع أن تطيع الـ وى العظمى الـ انون، فهي ربما ستواجه ضغوطاً معنوية كـ يرة إذا لم تفعل. ولكن الواقع هو أنه لا يمكن أ داً أن تُسأل عن أعمالها؛ لأنها بساطة يمكنها أنْ تستخدم حق الفيتو للاعتراض على أي قرار لمجلس الأمن قضي بـ دانتها.

بالرغم من كل ذلك، إنّ الأمر لا يزال لا يعمل. فعلى الرغم من الواقعية التي تحلى بها مؤسسو الأمم المتحدة، إلا أنهم لم يحترسوا من الاحتمال الكـ ير بأن تفشل الـ وى العظمى في الاتفاق في ما ينها، وبالتالي أن يتم شلّ عمل المنظمة. وهذا ما حدث بالضبط؛ إذ انقسمت الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن إلى كتلتين عسكريتين متعاديتين خلال سنوات قليلة، كما تفعل الدول المنتصرة غالباً بعد حرب كـ يرة. وباعتبارها الـ وى العسكرية الكـ رى الباقية في العالم، فهي تمثّل تلـ ائياً أكـ ر التهـ دات المحتملة لأمن بعضها بعضاً.

«إذا كان الأعضاء الدائمون (في مجلس الأمن) قد اجتمعوا معاً زمن السلم كما يحدث في التحالف في زمن الحرب، فسيشكلون - بشكلٍ أفضل أو أسوأ - سلطة قوية وحيدة في العالم... ولكن بالطبع، لم تكن هناك أي فرصة لحدوث ذلك...

سيمر وقت طويل جداً قبل أن يتم إعداد حكومات تخضع لقيود المفروضة على سياساتها الوطنية من قبل ه ة دولية. ومن الناحية النظرية، قال الجميع إنهم سيفعلون ذلك في الميثاق، وإنهم جميعاً مع أي شخص آخر يفعل ذلك. ولكن عندما يتعلق الأمر بحكومة معينة مضطرة أن تفعل هذا، فإن الأمر ليس بهذه السهولة؛ لأسباب ليس أقلّها المعارضة الداخلية الهائلة في كث ر من الأحيان».

بريان أوركوهارت، مساعد سابق للأمين العام للأمم المتحدة

سيكون من غ ر المجدي والمحبط تصنيف العد د من حالات فشل الأمم المتحدة، ولكن الأمر سيكون أيضاً مضللاً. وستكون التداعيات أنّ هذه المؤسسة يجب أن تكون قد نجحت منذ البداية، وإلا فإنها ستفشل إلى غ ر رجعة. ولكن على العكس تماماً، كان الأمر فشلاً نسبياً في البداية، وأنه لا وجد سبب لليأس. يكون من الصعب غالباً إقناع الحكومات ذات السيادة التي خدمتها مؤسساتها منذ عهد أسلافها لمدة عشرة آلاف سنة بأن تقوم بتسليم السلطة إلى سلطة عالمية غ ر مجربة، والتي قد تتخذ قرارات تكون ضد مصالحها الخاصة، وسوف يأس التقدم بالضرورة من خلال الخطوات الصغ رة وحتى على مدى عقود.

تقول ا رشادات ا رلندية التقليدية للمسافر

التائه: «إذا كان هذا هو المكان الذي تريد الوصول إليه، يا سيدي، فأنا لن أبدأ من هنا». ولكن هنا هو المكان الذي يجب أن نبدأ منه؛ لأن الدول هي التي تدير العالم. لا يوجد معنى لتوقعنا لشخصية عالمية مثل غاندي الذي يمكنه أن يغير القلب الإنساني، ويحررنا من عبودية اعتبارات المصلحة الوطنية والسلطة. نحن لا نقوم بتصرفاتنا لأسباب غبية أو تافهة، فهذه الاعتبارات مهمة جداً. نحن لم نعد قادرين على تسوية النزاعات فيما بيننا عن طريق الحرب، ولكن لا يوجد حل بسيط لمشكلة الحرب يتجاوز بشكلٍ سحري الهيكل الحالي للسلطة في العالم.

فهذا الهيكل موجود للدفاع عن العديد من المصالح المتضاربة للعديد من المجتمعات البشرية المنفصلة في العالم. ورغم أنّ الطبيعة الحالية للنظام الدولي تعتمد على الدول المدججة بالسلاح والمستقلة والتي تعصف بها الغيرة، والتي غالباً ما تبالغ في تأجيج عنصر الصراع في العلاقات بين هذه المجتمعات، بل تقوم أحياناً بإيجاد انطباعات خاصة بالصراع والتهديد عندما تكون المصالح الحيوية ليست في خطر، إلا أن النظام لا يعكس الواقع الدائم. على كل حال، لا يمكننا الحصول على كل ما نريده، ويجب إيجاد بعض الطرائق لتقرير من يحصل على ماذا. هذا هو السبب في أنّ الدول المتجاورة عاشت في حالة دائمة من الحرب المحتملة؛ تماماً كما فعلت جماعات الصيد والجمع البدائية قبل عشرين ألف سنة.

إذا كان يتوجب علينا الآن التخلي عن الحرب كوسيلة لتسوية خلافاتنا وإيجاد بدائل لها، فلا يمكن القيام بذلك إلا بتعاون كامل من قبل حكومات العالم. وهذا يعني أننا

ستكون مهمة صعبة للغاية وطويلة، ولكنها السبيل الوحيد المجدي. وينطوي الأمر على الاستقلال المطلق للحكومات الوطنية التي تجعل من الحرب أمراً ممكناً. ورغم العيوب التي قد تنجم على المدى القصير بسبب تسليم السيادة للأمم المتحدة، إلا أن ذلك قد يردع كل حكومة وطنية عن اتخاذ أي بادرة جديدة في اتجاه الحرب. إنّ انعدام الثقة يسود في كل مكان، ولن تسمح أي دولة أن تقرر مجموعة من الأجانب شيئاً يتعلق بها؛ حتى في ما يخص مصالحها الأقل شأناً. بل إنّ غالبية الدول الراضية عن حدودها ووضعها في العالم سوف تواجه معارضة داخلية كبيرة من العناصر الوطنية إذا أرادت حتى مجرد النظر في نقل محدود للسيادة إلى الأمم المتحدة.

لا أحد يفكر في «حكومة عالمية» من شأنها أنْ تقوم بجمع القمامة واتخاذ قرار بشأن الحدود القصوى للسرعة المحلية، ولكن القوميين في جميع الدول على حقٍ تماماً في قلقهم حول ما قد تعنيه أمم متحدة قوية. أنشئت الأمم المتحدة لإنهاء الحروب؛ «ليس لنقل البشرية إلى الجنة، ولكن لإنقاذها من الجحيم»، على حد تعبير داغ همرشولد. وكان مؤسسوها يدركون تماماً أنه من أجل القيام بذلك عليها أنْ تكون قادرة على ضمان سلامة كل دولة ضد أي هجوم من قبل جيرانها، وعلى اتخاذ القرارات في النزاعات الدولية والقيام بتنفيذها. فعلى الأقل، لا يمكن فرض النظام ولا العدالة دون التهديد باستخدام القوة المتفوقة، ناهيك عن استخدامها بشكلٍ فعلي. ولذلك، تحتاج الأمم المتحدة الفعالة إلى أن تكون لديها قوات مسلحة قوية تحت قيادتها الخاصة. (في الواقع، هناك أحكام في ميثاق الأمم المتحدة بالنسبة للدول الأعضاء للمساهمة بوحدات في حال تم تشكيل مثل هذه القوة المسلحة).

لم تعمل الأمم المتحدة قط كما تم تصميمها: إنّ الأمم المتحدة الفعالة لديها القدرة على إجبار الحكومات الوطنية، لذلك وبطبيعة الحال رفضت هذه الحكومات إعطاءها الصلاحيات التي ستكون بحاجة إليها للقيام بذلك. إنهم جميعاً يعرفون ما يجب القيام به لإنهاء الحرب الدولية، وذلك منذ عام 1945 على أبعد تقدير، ولكنهم ليسوا على استعداد للقيام بذلك حتى الآن. كما تضخمت إمكانية تعرض مصالحهم الخاصة للضرر في أي مكان ضمن السياق العام لقرارات من الأمم المتحدة إلى حدٍ كبير؛ حيث أصبحت تشكل رادعاً، فصاروا يفضّلون الاستمرار في العيش مع وجود خطر نشوب الحرب. (أي، حين تتحول مخاطر الحروب التي تشترك فيها الدول فيها مباشرة نحو الاتجاه الأسوأ، عندها تكون الحكومات الوطنية سعيدةً جداً للطلب من الأمم المتحدة التدخل كي تبعد نفسها عن شبكة الصيد).

«كثيراً ما يتساءل الناس عن سبب وجود دولة واحدة لا تزال تضرب بعيداً هنا في الأمم المتحدة. في المقام الأول، يكون الأمر مثيراً للاهتمام للغاية. إذا كنت ترغب في اكتشاف الدراما التراجيدية الكوميدية الإنسانية، فإنّ هذا هو المكان الرائع للقيام بذلك، ويمكنك بين الحين والآخر أنْ تفعل شيئاً حيال ذلك؛ إذ يمكنك إيقاف عملية إعدام شخص، ويمكنك منع تدمير مكان ما، كما... يمكنك أحياناً التحكم بصراع ما. والشيء الأكثر أهمية هو توفير مكان يمكّن القوى النووية من تجنب المواجهة... وكما قال همرشولد[342] ذات مرة، في حين أنه لا أحد منا سيرى النظام العالمي الذي يحلم به يظهر في حياتنا، إلا أنّ الجهود المبذولة لبناء هذا النظام هي الفرق بين الفوضى ودرجة مقبولة من الفوضى».

بريان أوركهارت

ليست الأمم المتحدة بتشكلها الحالي مكاناً للمثاليين، ولكنهم كانوا سيشعرون بعدم راحة أك ر لو كانت الأمم المتحدة تعمل كما خُطِّط لها أصلاً، فهي جمعية للصياديين تحولت إلى حارس للطيور، وليست مجمعاً للاديسين. إن أحد الآثار المترتبة على وجود أمم متحدة قوية، والذي نادراً ما يُناقش من قبل المدافعين عنها (لأسباب واضحة) هو أنّ السلطة العالمية التي تأسست على تعاون الحكومات الوطنية ستحاول حتماً تجميد النظام السياسي ال ائم في العالم لمصلحة أعضائها، أو على الأقل ستبطء من معدل التغ ير بشكلٍ ك ير. ونتيجة لذلك، إن المجتمعات ال ومية والعرقية التي ليست لديها دول خاصة بها ستفقد فرصة الحصول عليها في المستقبل، وذلك ببساطة لأنها لم تتمكن من تح يق ذلك في الوقت المناسب. ولو أنشأت الدول ذات السيادة في العالم معادلاً ما للأمم المتحدة مع سلطة ح ي ية خلال فترة منتصف ال رن الثامن عشر – اتحاد حماية متبادلة يضمن سلامة أراضيها – لكانت الولايات المتحدة قد فشلت في الفوز باستقلالها عن ريطانيا. وإذا حصل ذلك اليوم، فإن سكان التبت، والأكراد، والباسك سيفقدون الأمل في تح يق استقلالهم.

تضع الأمم المتحدة – حتى بتكوينها الحالي – الشرعية فوق كل الاعتبارات الأخرى؛ فقد واصلت الاعتراف بالخمير الحمر كحكومة شرعية في كمبوديا بعد الغزو الف يتنامي عام 1979؛ على الرغم من سجلّهم المروع من ا بادة الجماعية ضد مواطنيهم، وذلك لأنهم أزيحوا وسيلة غ ر مشروعة على شكل غزو أجن ي، ثم تمّ التوصل في نهاية المطاف إلى اتفاق يعترف بالواقع الجد د في كمبوديا.

ولكنْ، كلما كانت الـ وة التي تُمنح للأمم المتحدة من قبل أعضائها أك ر، كان رد فعلها أقوى بالمثل من خلال العمل للدفاع عن مصالحها وممتلكاتها النافذة.

ستكون العواقب قمعية جداً للكث ر من الناس، وسيثور بعضهم، ولن تتواصل حروب العصابات وا رهاب وغ رها من أشكال الاحتجاج المسلح ضد التوزيع الحالي للسلطة فحسب، ل قد تتصاعد بشكل ملحوظ. وأقصى ما يمكن توقعه، حتى من الأمم المتحدة، لمدة قرن أو نحو ذلك، هو وضع حد للحرب الدولية واسعة النطاق، أما الصراع الداخلي فلن يختفي من العالم حتى لو قامت جميع الحكومات الشرعية ربط قواتها المسلحة مع الأمم المتحدة اعتباراً من وم غد.

هناك أيضاً ورطة أخرى أكثر سوءاً في حال وجود أمم متحدة ذات سلطة حـ يـ ية، حيث إنها لن تتخذ قراراتها وفقاً لبعض المعا ير النزيهة للعدالة؛ إذ ليس هناك مفهوم نزيه للعدالة تشترك به البشرية جمعاء. وعلى أية حال، ليست «البشرية» هي التي تتخذ الـ رارات في الأمم المتحدة، وإنما الحكومات التي تريد حماية مصالحها الوطنية. لتصور كيفية قيام السلطة العالمية بالتوصل إلى قراراتها – على الأقل خلال قرنها الأول أو نحو ذلك – بدأ الأمر بالتعزيز المتغطرس للمصلحة الذاتية من قبل الـ وى الك رى التي سوف تستمر في الهيمنة على عملية صنع الـ رار في المنظمة الدولية، وستقوم بممارسة النفعية الفجة المموهة على شكل مبدأ يميز التحالفات المتغ رة ين الـ وى الصغرى في الجمعية العامة الحالية، وسيكون ذلك من خلال عملية سياسية مكثفة، ولن تبـ ى الـ رارات التي أصدرتها ضمن الحدود المعقولة إلا من خلال الاعتراف المشترك الذي قضي بأنّ المنظمة يجب ألا

تتصرف بطريقة تضـر جداً بمصلحة أي عضو رئيس أو بمجموعة الأعضاء الذين أج رته م على المواجهة، وبذلك تكون قد دمرت التوافق الأساسي الذي بـ ي الحرب في عقالها.

لا وجد شيء مروع في ما يخص هذا الأمر؛ فالسياسة الوطنية في كل دولة تجري بالترك بة نفسها: الـ ليل من المبدأ، والكث ر من الـ وة، وعائق نهائي على ممارسة تلك السلطة التي لا ترحم بالاستناد إلى الحاجة للحفاظ على التوافق الذي تأسست الدولة بموجبه ولتجنب حدوث حرب أهلية. في المنظمة الدولية التي يمثل أعضاؤها مثل هذه التقاليد والمصالح ومستويات التنمية المختلفة جذرياً، لا د من أنْ تكون نسبة المبدأ إلى السلطة أقل من ذلك. ومن المؤسف أنه لا وجد دل عملي للأمم المتحدة؛ إذ لا أحد يحلم بـيجاد ذلك النوع من الوحش المزعج الذي يتدخل على شكل سلطة عالمية قوية.

«هناك احتمالان كما بدو لي. الأول هو أنْ ننساق إلى كارثة عالمية أخرى، والتي بلا شك - إذا بـ ي هناك أي شيء - سوف تغ ر أخ راً تفك ر الناس في ما يخص فوائد السيادة الوطنية غ رٍ المحدودة. أما الاحتمال الثاني فهو أكثر تدرجاً وأقل سرعةً، ويتمثل بـقناع الحكومات بأنها كما تخلت عن السيادة في بعض المجالات المتخصصة - على سبيل المثال، ترددات الراد و أو النظم البريدية أو أي شيءٍ من هذا الـ بيل - يتوجب عليها الـ يام بذلك أيضاً في المجال السياسي».

بريان أوركهارت

نحن نوافق على كل إملاءات أجهزة حكومية بـع دة

وغ ر عملية على المستوى الوطني كما نوافق على مضايـ اتها، لأنه وبحسب التحليل النهائي، تكون فوائدها أك ر من تكاليفها. فعلى الرغم من جميع ع وبها، إنها توفر لنا السلم الأهلي، وقدراً من الحماية من الطموحات المتنافسة لمجتمعات وطنية أخرى، ووضع إطار للتعاون على نطاق واسع في متابعة كل الأهداف التي وضعناها لأنفسنا كمجتمع وطني. تعمل كل هذه الحجج نظرياً بـ وة متساوية لصالح سلطة دولية، ولكن لا وجد دعم شع ي واسع النطاق لتسليم السيادة إلى الأمم المتحدة في أي دولة ك رى في العالم. إن معظم الناس يترددون في قبول أنّ الحرب والسيادة الوطنية ترتبطان بشكلٍ وث ق، وأنه عند التخلص من إحداهما يجب عليهم أيضاً التخلي عن معظم الأخرى. إن الاعتقاد بالحاجة إلى الاستقلال الوطني الكامل فكرة متجذرة جداً لدى معظم الناس.

الغريب (أو ربما ليس ذلك بالغريب)، هو أن هذا الاعتقاد يميل إلى أنّ يكون أقل قوة في الحكومات مما هو عليه لدى المواطنين الذين تحكمهم هذه الحكومات. لم تؤسّس الأمم المتحدة بناءً على مطلب شع ي، ولكن تم تأسيسها من قبل الحكومات التي فزعت من المسار الذي كانت تسير عليه، والتي لا تستطيع تجاهل الحـ ائق الـ اتمة للوضع. ويعرف الناس الذين يتمتعون بمسؤولية إدارة السياسة الخارجية في معظم الدول، وخاصة في الدول الك رى، أنّ النظام الدولي الحالي ربما يكون في ورطة نهائية، والكث رون منهم خلصوا إلى النتيجة الضرورية.

يكون الأمر عكس الواقع إذا تكلمنا بشكلٍ حسن عن الد لوماسيين، ولكنهم إذا لم يكن لديهم ما دعو للـ لق في

ما يخص المـ اومة السياسية الداخلية الهائلة لأي تسليم للسيادة، فإن مهن ي السياسة الخارجية في كل دولة تقريباً (بغض النظر عن الأ د ولوجية) سيـ ومون فوراً بتقديم الحد الأدنى من التنازلات الضرورية نشاء ه ة عالمية عاملة؛ لأنهم يفهمون البد ل، كما أنّ العد د من المحترفين العسكريين يتفقون للسبب نفسه. ولكنّ السياسيين هم الذين د رون الدول، وحتى لو كانوا يفهمون حـ ائق الوضع (والواقع هو أن الكث رين منهم لا يفهمونه؛ لأنّ خلفياتهم واهتماماتهم الأساسية عادة تكون منصبّة على القضايا الداخلية، وليس على الشؤون الدولية) فليس وسعهم الابتعاد كث راً إلى الأمام بفارق ك ير جداً عن الناس الذين يـ ودونهم. ومع ذلك، لـ د تم إحراز تقدم في الأمر.

إذا كان إلغاء الحرب ين الـ وى العظمى وإنشاء الـ انون الدولي هما مشروع السنوات المـ ة، فنحن لا نزال متأخرين قليلاً عن الموعد المحدد، ولكننا حـ قنا تقدماً ك يراً. لم تكن لدينا حرب عالمية ثالثة، ويعود الفضل في ذلك جزئياً على الأقل إلى الأمم المتحدة التي وفرت للـ وى العظمى العذر للتراجع عن العد د من المواجهات الخطِرة من دون أن تفقد الكث ر من ماء الوجه، كما تمّ الالتزام بـ اعدة عدم جواز تغ ير الحدود بالـ وة؛ بمعنى أنّ أي تغ ير تم بالـ وة لم يحـ ق اعترافاً دولياً. وفي حالة واحدة على الأقل - في تيمور الشرقية - تم في ما بعد عكس هذا التغ ير تحت رعاية الأمم المتحدة، والحروب التي نشبت ين الحين والآخر ين الـ وى متوسطة الحجم - معظمها كانت الحروب العربية ا سرائيلية، والحروب الهندية الباكستانية - نادراً ما استمرت لأكثر من شهر؛ لأنّ عروض الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار وقوات حفظ السلام وفرت للجانب الخاسر طريقة سريعة للخروج.

كانت هناك أيضاً إخفاقات مذهلة، مثل حرب السنوات الثماني بين العراق وإيران في الثمانينيات، والتي امتدت لفترة طويلة بشكلٍ متعمد بسبب المعونة الأمريكية والروسية لصدام حسين؛ على أمل أنه سيكون قادراً على تدمير النظام الإسلامي الثوري في إيران. كما كانت تدخلات القوى العظمى في دول العالم الثالث – مثل الغزو السوفييتي لأفغانستان عام 1979 وغزو الولايات المتحدة للعراق في عام 2003 – غير مشروعة، ولكن لم تتمكن الأمم المتحدة من التعامل معها بسبب حق النقض (الفيتو). (من الواضح دائماً أنّ القوى الكبرى ستكون الدول الأخيرة من حيث قبول قواعد دولية جديدة ملزمة تطبق عليها). كانت معظم الوفيات في الحروب خلال السنوات الثلاثين الماضية نتيجة حروب داخلية، ولا سيما في أفريقيا، حيث إنّ الأمم المتحدة لا تملك الصفة القانونية ولا الحافز السياسي كي تتدخل.

إذا أردنا تقييم التقدم الذي تم إحرازه منذ عام 1945 من وجهة نظر ذلك الوقت المرعب، فإنّ الكأس تبدو على الأقل مليئة حتى النصف؛ فالنمو الهائل للمنظمات الدولية منذ عام 1945، وكذلك بناء الأمم المتحدة كمنتدى دائم حيث التزمت دول العالم بتجنب الحرب (وغالباً ما نجحت في ذلك) قد أوجدا بالفعل سياقاً تاريخياً جديداً، ولا شك في أنّ الانقسام السياسي الحالي في العالم إلى أكثر من 150 وحدة أرضية مستقلة سيستمر لبعض الوقت، ولكنه أصبح مفارقة تاريخية. ففي كل سياق آخر، من التجارة والتكنولوجيا ووسائل الإعلام إلى الأيديولوجيات والموسيقى والزواج والخطوط العريضة للثقافة العالمية الواحدة (مع وجود اختلافات محلية واسعة)، إنها تأخذ شكلها العام بوضوحٍ شديد.

برز سؤال خطير في ما يتعلق بما إذا كانت الحضارة تجربة حكيمة؛ فقد كان البشر يسيّرون أمورهم بشكلٍ جيد للغاية دونها بالمقارنة مع الفصائل الحيوانية البرية الكبيرة، ويبدو أن ذلك سار بشكلٍ ناجح لعدة ملايين من السنين. وهنا تبرز النقطة الهامة، فقد مرت على التجربة عشرة آلاف سنة فقط، ومواجهة أزمة ذات أبعاد واسعة كالتي نراها الآن كانت أمراً لا مفر منه عندما سلكنا الطريق المتحضر؛ إذ كانت الحرب والدولة عنصريين مركزيين هامين في استراتيجيتنا لكسب المزيد من السيطرة على بيئتنا، ولكنهما أوصلتانا بشكلٍ لا مفر منه لمعضلتنا الحالية التي تنطوي على الانقراض المحتمل للجنس البشري.

«إنّ احتمال حدوث شتاء نووي يثير رهانات الحرب النووية بشكلٍ كبير... والحرب النووية ستعرض أحفادنا كافة للخطر طالما أن هناك جنساً بشرياً. نحن نتحدث عن حوالي 500 تريليون من الناس الذين لم يأتوا بعد، حتى لو بقي عدد السكان ثابتاً... على مدى فترة زمنية نموذجية للتطور البيولوجي للفصائل الناجحة (ما يقرب من عشرة ملايين سنة). من خلال هذا المعيار، تكون الرهانات أكبر مليون مرة بالنسبة لخطر الانقراض بالمقارنة مع الحروب النووية الأكثر تواضع والتي تقتل «فقط» مئات الملايين من الناس».

كارلساغان343

«ليست للطبيعة مبادئ؛ فهي تجعلنا نعتقد دون سبب أنّ علينا احترام الحياة الإنسانية، أو أي نوع معين آخر من الحياة: لننظر فقط إلى ما حدث للآمونيّات

والبيترودكت ل[344]».

فيكتور هوجو

حتى لو كانت قوانين الفيزياء لا تسمح بحدوث الانشطار النووي، فنحن لن نكون أفضل حالاً في هذه المرحلة من تاريخنا، لكننا سنطور أسلحة دلة للدمار الشامل بدلاً من الأسلحة النووية، وربما باستعمال مختلف أصناف المواد الكيميائية والبيولوجية، وذلك من أجل إنتاج المعضلة نفسها. ربما لن نواجه الهاوية النهائية لفصل شتاء نووي، إلا أنّ حجم التدمير الذي يمكن تحقيقه بالأسلحة العلمية لا يقلّ عن ذلك بكثير. إنّ مشكلة الحرب سياسية بالأساس، ولكنّ الأسلحة العلمية الحديثة حوّلتها من محنة يمكن احتمالها إلى أزمة محتملة ونهائية، ولم تتوقف العلوم والتكنولوجيا حتى الآن عن المضي قدماً، لا يمكن أن يأتي اليوم - إذا كنا سنستمر في الوجود بما فيه الكفاية - الذي ننظر فيه إلى الوراء، إلى عصر الأسلحة النووية، بنوع من الحنين إلى الماضي.

قد لا يكون الذكاء المرتفع بالشكل الذي يمثله الجنس البشري سمةً تطوريةً مؤاتيةً للبقاء، والعيب الداخل المحتمل هو أنّ ذكاءنا يميل إلى إنتاج تغير تكنولوجي واجتماعي بمعدل أسرع مما تستطيع مؤسساتنا وعواطفنا التعامل معه، وهذا الميل يصبح أكثر وضوحاً كلما تعمقنا في تجربة الحضارة؛ لأنّ الابتكار عملية تراكمية، ومعدل التغير يكون متسارعاً. لذلك، نجد أننا نحاول باستمرار استيعاب الحقائق الجديدة ضمن المؤسسات القائمة وغير المناسبة، والتفكير في هذه الحقائق الجديدة بشروط تقليدية، ولكنها في بعض الأحيان تكون منفصلة عن

الموضوع بشكلٍ خطير.

من المحتمل جداً أنْ نكون قد دأنا حياتنا المهنية عن طريق إبادة إنسان النياندرتال، وأنه منْ الممكن تماماً أنْ ينتهي بنا الأمر بإبادتنا أنفسنا، ولكنْ ليست مهمة الكون التعامل معنا بعدالة شاعرية. إنّ ح يقة أننا كنا دائماً نخوض الحرب كجزء من ثقافتنا لا تعني أننا محكومون دائماً ومضطرون لخوض الحروب. هناك جوانب أخرى من الذخ رة السلوكية تكون أكثر تشجيعاً. فعلى سبيل المثال، لننظر إلى ح يقة أننا في عملية إصلاح لتراثنا ال ديم في المساواة.

كان الفارق السلوكي الأهم ين بشر ما قبل التحضر ومعظم الأوليات الاجتماعية الأخرى هو عدم وجود تسلسل هرمي ثابت. فالبشر حينها كانوا يحافظون على المساواة المطلقة ين كل الذكور البالغين، حيث أوجدوا استراتيجيات اجتماعية ساط أول ك الذين ارتفعوا إلى مراتب أعلى مما يستح ون. وهناك بعض الأفراد ضمن جماعة الصيد والجمع كانوا حتماً أكثر تأث راً وأكثر بلاغة من غ رهم، ولكن لم تكن لديهم سلطة أبعد من ا قناع: كل الذكور البالغين، وفي بعض الثقافات كل الكبار من كلا الجنسين، كان لهم الحق على قدم المساواة بالمشاركة في عملية صنع ال رار في الجماعة. وكان يتم التوصل إلى ال رارات من خلال المناقشات المطولة التي يحق فيها لكل عضو من أعضاء الجماعة أن يتكلم مطولاً وكلما أراد. وكث راً ما كان يتم التوصل إلى ا جماع بعد إرهاق لا بأس به. وحتى في ذلك الحين، كان بمكان الفرد الذي ينشق الابتعاد عن الجماعة.

كانت قيم المساواة شائعة جداً ين جماعة الصيد

والجمع بالطرائق البدائية التي درسها علماء الأنثروبولوجيا؛ حيث يفترض أنْ تكون عالمية ين أسلافنا البع دين كذلك. والسبب الأكثر ترجيحاً لهذا الاختلاف عن ال اعدة لدى الرئيسيات هو أنّ تربية شاب روتو (proto-human) بشري ذي دماغ ك ير وفترة طفولة طويلة تتطلب إدخال عدد أك ر من الذكور. وقد أدى هذا الأمر إلى روابط أقوى ين الذكور وا ناث، وتحويل الطاقات الذكورية والولاءُ من الترت ب الهرمي الذكوري ال ديم إلى العائلة التي اختُرعت حدي ثاً. ولكن، أياً كان السبب، فقد عاش البشر على قدم المساواة لآلاف الأجيال، ثم أس طنا ذلك عملياً ين عشية وضحاها عندما اخترعنا الحضارة.

رافق خطوة الانتقال إلى المجتمعات الجماعية حدوث ثورة اجتماعية في كل مكان، وانتهى الأمر بشعوبها بالعيش في تسلسلات هرمية صارمة شد دة الانحدار؛ مثل الأهرامات التي بُنيَت مع ملك - إله في ال مة وفلاحين وع يد في الأسفل. كانت التسلسلات الهرمية لازمة وظيفياً؛ لأنه لا يمكن لمثل تلك المجتمعات الجماعية الجد دة أنْ تقوم باتخاذ ال رارات بطريقة المساواة ال ديمة، إذ لا يمكن لمليون شخص أن يجلسوا حول النار لمناقشة ال رار، أو حتى (في ظل غياب وسائل ا علام من أي نوع) أنْ يعرفوا ما هي المسألة التي يجب البتّ فيها. وهكذا، فمشكلة العدد السكاني الك ير فرضت أنْ يتم التخلي عن المساواة، والأوامر يجب أن تتدفق من الأعلى نحو الأسفل، كما يجب أن يج ر الجميع في الأسفل على الطاعة.

وبما أن البشر يستطيعون الوصول إلى تراثهم ال ديم الذي يشتمل بالضبط على هذا النوع من التسلسل الهرمي،

كانوا قادرين بسهولة على التحول إلى هذا النموذج من السلوك (مع بعض التحريض من الأشرار المحليين الذين يطمحون إلى أنْ يكونوا ملوكاً – آلهة). إذاً، ليس من المستغربِ إنْ كانت كل هذه المجتمعات الجماعية الجد دة عسكريةً بشكلٍ ك ير. وعلى الرغم من أنّ السبب المطروح يتعلق بالتهد د الخارجي، إلا أنه من الصعب تجنب الشكّ في أنّ العسكريين كانوا أيضاً موجودين للحفاظ على التسلسل الهرمي، ولكن المث ر للاهتمام والأمل هو أنّ البشر لا يسلّمون أنفسهم إلى الطغاة.

تم الحفاظ على ال يم ال ديمة للعدالة والمساواة بالطريقة التي يتصرف بها الناس ضمن دائرتهم الاجتماعية الصغ رة من العائلة والأصدقاء في كل مكان. وعندما ظهرت الديانات الجد دة للحضارات الك يرة قبل 1500 إلى 2500 سنة، فقد جِسدت على وجه التحد د تلك ال يم، وليس قيم الدولة. لم ينسَ البشر قط من هم فعلاً خلال آلاف السنين من عدم المساواة المنصوص عليها قانوناً وال مع المنهجي، حيث عاملت المجتمعات الشاملة معظم الناس كعاملات النمل. وفي نهاية المطاف، عندما دأت تقنيات الاتصال الجماهري الجد دة بـيجاد إمكانية للملا ين من الناس لل يام باتخاذ قرارات جماعية بأنفسهم، عندها طالبوا فوراً باستعادة المساواة.

بالكاد شهد كل من هوبز[345] وروسو[346] داية ذلك. وبحلول أواخر ال رن الثامن عشر، مكّنت الصحافة المطبوعة ومحو الأمية في عدد قليل من الدول الغنية والمتقدمة تكنولوجياً، نحو نصف السكان من المشاركة في الجدل الدائر حول طبيعة المجتمع وأغراضه، وأصبح من الممكن أنْ نتصور مجتمعاً يضم الملا ين من البشر المتساوين،

حيث يتم اتخاذ الرارات بشكلٍ مشترك. كما أصبحت المجتمعات على بعد خطوة صغرة للانتقال بالديمراطية الجماعية من التخل إلى الفعل، وبالتالي دأت الثورات. وعلى الرغم من أنّ الناس في الرن الثامن عشر كانوا لا يعرفون إلا الليل عن الماضي البشري، ولا يعرفون شئاً عن الماضي البعد لما قبل انسان، إلا أن الكلمة ذاتها التي صاغوها «ثورة» (revolution)[347]، جسدت اقتناعهم بأنّ هناك «عودة إلى الوراء»؛ إلى قيم المساواة الديية ين الجنس البشري.

استغرق الأمر أكثر من قرنين من الزمن – مع العدد من البدايات الخاطة والتحولات الطويلة لمعظم مجتمعات الغرب – حتى تحقت الديمراطية. وفي معظم ذلك الوقت، اعتقد الجميع تقريباً أنّ ما كانوا يشاهدونه ظاهرة ثقافية غربية بحتة انبثقت جذورها عن المسيحية و/أو الديم اليونانية الرومانية الكلاسيكية. وهذا الخطأ موجود حتى اليوم في الاعتقاد بأنّ الغرب لديه مهمة «جلب» الديمراطية لبقية دول العالم؛ كما لو أن هذه الأخرة لن تحصل عليها من تلاء نفسها. وعلى كل حال، كان السبب في احتكار الغرب للديمراطية في وقت مبكر تكنولوجياً بشكل بحت وليس ثقافياً.

لم يتوفر سوى لعدد قليل من المجتمعات غر الغربية الوصولُ الشاملُ لوسائل اعلام لغتها الخاصة؛ إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عندما دأ الاستعمار. وبالتالي، لم تكن الظروف الملائمة لتحول ديمراطي موجودة في ما كان يسمى العالم الثالث. وعندما نهضت فعلاً، كان ذلك قبل أقل من جلٍ واحدٍ من دء الثورات الديمراطية هناك أيضاً. حتى

إنّ الديمقراطيين الجدد شاهدوا كيفية القيام بالثورات من غير عنف؛ على عكس أسلافهم الغربيين: من الفلبين وتايلاند وكوريا الجنوبية وبنغلاديش في وقت لاحق من الثمانينيات، إلى ساحة تيانانمن (في الصين)، إلى جدار برلين، ونهاية الاتحاد السوفييتي في مطلع العقد، وإلى سقوط نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا عام 1994، والثورة الأندونيسية عام 1998، والثورة الجورجية عام 2003؛ حيث أظهر الناس من كل ثقافة ودين أنهم يريدون الديمقراطية، وأنه بإمكانهم أن يحصلوا عليها (في معظم الحالات) من دون عنف.

نحن في خضم تحول كبير لا رجعة فيه على ما يبدو، والذي أصبح ممكناً بفضل التكنولوجيا الجديدة لوسائل الاتصال الجماهيري التي استرد فيها البشر مساواتهم القديمة. يبدو أن النجاح المتكرر والمدهش للتقنيات غير العنيفة ضد الأنظمة القمعية كان أيضاً ذا صلة بوسائل الاتصال الجماهيري. إذ غالباً ما ترتدع الطغاة عن استخدام القوة المفرطة ضد شعب أعزل عندما يكون العالم كله يراقبهم. وعلى الرغم من أننا إذا أصبحنا ديمقراطيين فإنّ ذلك لا يعني منطقياً أن الناس مسالمون – على كل حال، لم تكن جماعات الصيد والجمع مسالمة بالمعنى الحرفي للكلمة – ولكن يبقى أثر الديمقراطية واضحاً، حيث تواصل الدول الديمقراطية خوض الحروب ولكنها لا تقاتل بعضها بعضاً أبداً.

علينا الاستمرار في العمل في المؤسسات، وإلا فإنّ عالمنا الأكثر مساواةً والأكثر ارتباطاً يمكن أن يعود مرة أخرى إلى الحرب بسبب عدد قليل من الدول التي تصر على ممارسة الألعاب القديمة. ولكن، يبدو أنّ لدينا بعض التغييرات

العميقة الاجتماعية والفلسفية التي تساعدنا على طول هذا المسار. هناك ثورة بطيـ ة ولكنها ملموسة تجري بشكلٍ واضح في الوعي البشري، وتقوم بعملية إعادة تعريف لـ نسانية.

لـ د قمنا بـ دارة شؤوننا على مرّ التاريخ على افتراض أنّ هناك فـ ئة خاصة من الناس (جميعنا) تتمتع بحـ وق وواجبات مساوية لما وجد لدينا تقريباً، ويجب علينا عدم قـ تل أولـ ك الناس حتى عندما نشتبك في شجار. وعلى مدى خمسة عشر ألف عام أو عشرين ألف عام مضت، استطعنا بنجاح توسيع هذه الفئة من جماعة الصيد والجمع الأصلية لتشمل مجموعات أكـ ر وأكـ ر. فأولاً، كانت الـ بيلة التي تضم عدة آلاف من الناس الذين تربطهم روابط الـ رابة والطـ وس، ثم أتت الدولة؛ حيث أدركنا مصالحنا المشتركة مع الملايـ ين من الناس الذين لا نعرفهم ولن نلتقيهم أ داً. والآن، آخ راً، الجنس البشري بأسره.

لم يكن هناك شيء مثالي أو وجداني في أي من إعادة التعريف السا قة، حيث حصلت لأنها كانت مف دة في تعزيز مصالح الناس المادية وضمان بـ ائهم على قيد الحياة. وينطبق الشيء نفسه على عملية إعادة التعريف الحالية: لـ د وصلنا إلى نقطة يجب فيها توسيع خيالنا الأخلاقي مرة أخرى ليشمل البشرية جمعاء، وإلا فسوف نختفي من الوجود.

إنّ كلاً من التحول الضروري في المنظور الثقافي، وإنشاء المؤسسات السياسية التي من شأنها أنْ تعكس المنظور الجـ د تغـ يرٌ يجب أنْ يستغرق وقتاً طويلاً جداً. فمن الصعب أنْ نعتقد أننا لا نزال في منتصف الطريق إلى

هدفنا؛ على الرغم من أننا منغمسون في هذا التغير منذ أكثر من قرن.

أما في ما يخص الحجة التي تقول إنه لن تكون هناك أبداً أخوة عالمية بين البشر، وبالتالي إن أي محاولة لتجاوز النظام الحالي للدول الوطنية ستفشل مقدماً، فبالطبع نحن لن ننهي محبتنا لبعضنا بعضاً بشكلٍ عشوائي. فحتى ضمن الدول الوطنية لا وجود لحب وأخوة عامة؛ فما هو موجود فعلاً، وما يجب الآن أن نقوم بمده إلى خارج الحدود الوطنية، هو الاعتراف المتبادل بأنّ الجميع سيكونون أفضل حالاً إذا احترم الجميع حقوق الآخرين، وقبلوا بالتحكيم الذي يتم من قبل السلطة العليا، بدلاً من قتلهم بعضهم بعضاً عندما تتصادم حقوقهم أو مصالحهم.

ليس من قبيل المصادفة أنّ الفترة التي وقع فيها مفهوم الدولة الوطنية في النهاية تحت التحدي من خلال تعريف أوسع للبشرية هي أيضاً الفترة التي شهدت أكثر الحروب الكارثية في التاريخ؛ لأنها وفرت الحافز العملي الذي يقود عملية التغيير. لن يكون هناك أي تغيير من دون التهديد بالحرب، ولكنّ التحول إلى نظام مختلف عمل محفوف بالمخاطر، وإنّ خطر حدوث حرب عالمية أخرى سيجعل العملية بكاملها قصيرة، وربما سيضع نهاية دائمة للحضارة؛ وهو خطر صغير في أي وقت معطى. إذا أخذنا بالاعتبار الفترة الزمنية التي ستستغرقها عملية التغيير تصاعدياً، فعندها سيكون الخطر شديداً. ولكنّ هذا لا يعتبر سبباً لعدم الاستمرار في المحاولة.

«مع ذلك، وعلى الرغم من قصور الأمم المتحدة في نواحٍ كثيرة، أعتقد أنها منظمة ضرورية للغاية. لا توجد

هناك أي وسيلة لا يمكن استخدامها من أجل ذلك - يجب تحقيق ذلك بالضرورة - فعندما ترفع صخرة ضخمة على تلٍ شديد الانحدار، فأنت تعلم جداً أنه ستكون هناك زلّات، وقد ترتد الصخرة إليك من وقتٍ لآخر، ولكنْ عليك أنْ تستمر في الدفع. لأنك إذا لم تفعل ذلك، فأنت ببساطة تستسلم لفكرة أنك ذاهب إلى حرب عالمية مرةً أخرى في مرحلة ما، وهذه المرة بأسلحة نووية».

بريان أوركهارت

إنّ مهمتنا خلال الأجيال القليلة المقبلة هي تحويل عالم الدول المستقلة الذي نعيش فيه إلى نوع حقيقي من المجتمع الدولي. وإذا نجحنا في إنشاء هذا المجتمع، مهما كان الطريق إلى ذلك مزعجاً، وغير مرغوب فيه، وربما مليئاً بالظلم، فعندها سنكون قد ألغينا المؤسسة القديمة للحرب، وسنكون بلا شك سعداء للغاية.

Notes

[1←]

.Revolution In Military Affairs

[2←]

ظهرت هذه الشبكة الذكية في سلسلة أفلام (The Terminator)، حيث انقلبت ضد البشرية، وشنت حرباً نووية بادة البشر. (المترجم)

[3←]
.International Joint Conference on Artificial Intelligence

[4←]
.**l**e**th**a**l** au**t**onomous weapons sys**t**ems

[5←]

.The Better Angels of Our Nature

[6←]

من الكلمة الألمانية Vergeltungswaffe، والتي تعني سلاح الاقتصاص، وهو أوّل صاروخ عابر للقارات في التاريخ العسكري. (المترجم)

[7←]
شارع في هامبورغ.

[8←]
شارع في هامبورغ.

[9←]

Martin Middlebrook, The Battle of Hamburg (London: Allan

.Lane,1980), 264–7

[10←]

معركة إو جيما: نشبت ين الولايات المتحدة واليابان ا مبراطورية عام 1945 في جزرة إو جيما، وهي ك رى جزر البركان اليابانية. (المترجم)

[11←]
الزقورة: بناء هرمي أو معبد مدرجة في بلاد ما بين النهرين. (المترجم)

[12←]
James Wellard, By the Waters of Babylon (London:
.Hutchinson,1982), 147

[13←]
.Leonard Cottrell, The Great Invasion (London: Pan, 1961), 83

[14←]
Anthony Swofford, Jarhead: A Soldier's Story of Modern War .(New York: Simon & Schuster, 1997), 197–99

[15←]
.Ibid., 230–31

[16←]
Robert Blake, ed., The Private Papers of Douglas Haig, 1914–
.1919 (London: Eyre and Spottiswoode, 1952), 70

[17←]

الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة باسم فيت كونغ (Viet cong): حركة مقاومة مسلحة في فيتنام نشطت ما بين 1954-1976. (المترجم)

[18←]
الأسلوب العسكري لتدوين زمن دء العملية العسكرية وتاريخها. (المترجم)

[19←]
.M. Lindsay, So Few Got Through (London: Arrow, 1955), 249

[20←]

John Ellis, The Sharp End of War (North Pomfret, Vermont: David and Charles, 1980), 162–64; Richard Holmes, Acts of War: The Behaviour of Men in Battle (London: Weidenfeld and Nicolson, 1986), 350.

[21←]

Samuel P. Huntington, The Soldier and the State (New York: Vintage, 1964), 79.

[22←]

S. Bagnall, The Attack (London: Hamish Hamilton, .10
.1947), 21

[23←]

S.A. Stouffer et al., The American Soldier, vol. II (Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1949), 202.

[24←]

Lt. Col. J.W. Appel and Capt. G.W. Beebe, “Preventive Psychiatry: An Epidemiological Approach,” Journal of the American Medical Association 131 (1946), 1470.

[25←]

.Bagnall, op. cit., 160

[26←]

.**t**wo−**th**ousan**d**−year s**t**are

[27←]

.**th**ousan**d**−yar**d** s**t**are

[28←]
.Appel and Beebe, op. cit

[29←]
Col. S.L.A. Marshall, Men Against Fire (New York: William Morrow and Co., 1947), 149–50.

[30←]
.Ibid., 191

[31←]

.Ibid., 191, 182, 153

[32←]
Leonard Cottrell, The Warrior Pharaohs (London: Evans
.Brothers, 1968), 52

[33←]
Samuel Rolbart, The Israeli Soldier (New York: A. S. Barnes,
.1970), 206

[34←]

.Rolbart, op. cit., 58

[35←]
.Slide for Life

[36←]

S.L.A. Marshall, Men Against Fire (New York: Wm. Morrow, .1947), 56–57

[37←]
.Ibid., 79

[38←]

Dave Grossman, On Killing: The Psychological Cost of Learning .to Kill in War (New York, Little, Brown & Co., 1995), 18–28

[39←]

.Ibid., 10–11

[40←]
تلقبه المصادر الغربية وحش أوماها. توفي هاين سيفرلو عام 2006. (المترجم)

[41←]
G. Gurney, Five Down and Glory (New York: Putnam's, 1958), 256.

[42←]
Peter Watson, War on the Mind: The Military Uses and Abuses
.of Psychology (London: Hutchinson, 1978), 45

[43←]
.Grossman, op. cit., 178–79

[44←]
.post−traumatic stress disorder

[45←]
.Ibid., 259–60, 264–66, 281–89

[46←]
قوم من السكان الأصليين لأستراليا.

[47←]
.Desert People

[48←]

M.J. Meggitt, Desert People, Chicago: University of Chicago .Press, 1960, 245

[49←]

J. Morgan, The Life and Adventures of William Buckley: Thirty-Two Years a Wanderer Amongst the Aborigines (Canberra: Australian National University Press, 1979 [1852]), 49–51.

[50←]

Stephen A. LeBlanc and Katherine E. Register, Constant Battles: The Myth of the Noble, Peaceful Savage (New York: St. Martin's Press, 2003), 81-85. Many of the following sources are referenced in LeBlanc's and Wrangham's ground-breaking books, which have played a large part in shaping my argument .in this chapter

[51←]
.Noble Savage

[52←]
.Discourse on the Origin of Inequality

[53←]
حكم الفرد المطلق. (المترجم)

[54←]
.Morgan, op. cit., 82

[55←]
.(W.L. Warner, "Murngin Warfare," in Oceania I: 457–94 (1931

[56←]

E.S. Burch Jr., “Eskimo Warfare in Northwest Alaska,” Anthropological Papers of the University of Alaska 16 (2): 1–14 .((1974

[57←]

يـ طن الكونغ أو شعب سان كما يُطلق عليه في صحراء كالهاري الممتدة في أنغولا وناميبيا ووبتسوانا في جنوب الـ ارة الأفريـ ية. (المترجم)

[58←]
E. Biocca, The Yanomama: The Narrative of a White Girl Kidnapped by Amazonian Indians (New York: Dutton, 1971), .quoted in LeBlanc, 154

[59←]

N.A. Chagnon, Studying the Yanomamo (New York: Holt, Rinehartand Winston, 1974), 157–61; N.A. Chagnon, Yanomamo, 4th edition (New York: Harcourt and Brace .Jovanovic College Publishers,1994), 205

[60←]
.LeBlanc, op. cit., 94–97

[61←]
 ف ليب كوينسي رايت (Quincy Wright, 1890–1970): عالم سياسي أمريكي. (المترجم)

[62←]
.A Study of War

[63←]
Quincy Wright, A Study of War (Chicago: University of Chicago
.Press, 1965), 63

[64←]

Wrangham, op. cit., 65. Much of the following discussion is based on Wrangham's arguments in Chapter 8, "The Price of Freedom," in this book.

[65←]

The account of the killing of a lioness is taken from Wrangham, op. cit., 160–61. The makers of the film, Beverly and Dereck Joubert, wrote an accompanying article, “Lions of Darkness,” which appeared in National Geographic 186 (1994), 35–53. Deaths of this sort are rare in confrontations between prides, which are generally confined to much roaring and other threat displays followed by retreat. It was the isolation of the old .Maomi female that made her killing likely

[66←]

Charles Darwin, The Descent of Man: and Selection in Relation to Sex (originally published in London by John Murray in 1871; most recent edition London: Gibson Square Books, 2003), 132.

[67←]

.Richard Dawkins, The Selfish Gene

[68←]
.LeBlanc, op. cit., 45–49, 113

[69←]

Robert L. O'Connell, Ride of the Second Horseman: The Growth and Death of War (Oxford: Oxford University Press, 1995), 28–29; ibid., 49, 113, 175–76.

[70←]

تضم جزيرة العالم (world–island)، أو العالم القديم، قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا. (المترجم)

[71←]

أسترالوبيثكس (Homo australopithecus) **أو القردة الجنوبية:** **جنس منقرض شبيه بالبشر، أوّل ما مشى على قدميَن فقط.** **(المترجم)**

[72←]

الكرومان ون (Cro–Magnon): ا نسان الأوّل في العصر الحجري الأوروبي الـ ديم. (المترجم)

[73←]
المواس: نوع من الطيور المنقرضة الشبيهة بالنعامة. (المترجم)

[74←]

اللَّيمُوْر: حيوان من فصيلة الـ ردة. (المترجم)

[75←]
المستودون: حيوان بائد شبيه بالفيل. (المترجم)

[76←]
البيسون: ثور أمريكي. (المترجم)

[77←]

The original "blitzkrieg" theory to account for the mass extinction of large North American fauna was proposed by Paul Martin of the University of Arizona in 1967. Articles in Science of June 2001 by evolutionary biologist John Alroy of the University of California, Santa Barbara, regarding the North American extinctions, and by an Australian, French, and U.S. team regarding the Australian extinctions ended the debate in favour of Martin's hypothesis for most people. Shepard Krech's book, The Ecological Indian: Myth and History (New York: N.W. Norton & Co., 1999) is a detailed investigation of the claims to superior environmental wisdom of North American Indians based mainly on the copious historical records of the fur trade and other commercial enterprises engaged in by a wide variety of tribes during the eighteenth and nineteenth centuries.

[78←]

J. Woodburn, “An Introduction to Hadza Ecology,” in R.B. Lee and I. De Vore (eds.), Man the Hunter (Chicago: Aldine, 1968), .49−55

[79←]

Margaret Mead (ed.), Ruth Benedict: An American Anthropologist at Work (Boston: Houghton Mifflin, 1959), 374. Ironically, I used both this and the next quote in naive support of the "Rousseau" position in the first edition of this book

[80←]

Ernest Wallace and E. Adamson Hoebel, The Comanches (Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press, 1952), 247.

The story was told to the authors in the 1930s by Post Oak Jim, an old Comanche who as a youth had been the friend waiting outside the Ute encampment.

[81←]
كارل **فون كلاوزفيتز** (Carl von Clausewitz, 1780–1831):
جنرال ومنظّر عسكري روسي. (المترجم)

[82←]
نسبةً إلى توماس مالثوس (Thomas Malthus, 1766–1834): قس واقتصادي إنكليزي شهير بنظرياته عن التكاثر السكاني. (المترجم)

[83←]

Natalie Angier, “Is War Our Biological Destiny?” New York Times, Nov. 11, 2003.

[84←]

Homer, Iliad, tr. Richard Lattimore (Chicago: University of Chicago Press, 1951), 15, 322–28.

[85←]

Xenophon, Agesilaus ii, 9. The Battle of Coronea (394 BC) is far closer in time to us than to the earliest kingdoms, but this slaughterhouse style of infantry warfare was fairly standard by the late second millennium BC, and remained so until halfway through the second millennium AD.

[86←]
إ د ومينوس وإ ريماس شخصيتان من الميثولوجيا ا غريـ ية.
(المترجم)

[87←]
.Homer, op. cit., 16, 345–50

[88←]
Holy Bible, New Revised Standard Version, Anglicised Edition
.(Oxford: Oxford University Press, 1995), Joshua 6: 20–21

[89←]

يشوع بن نون في الدين المسيحي أو وشع بن نون لدى المسلمين، ويهوشوع في الدين اليهودي، وهو قائد بني إسرائيل بعد وفاة الن ي موسى. (المترجم)

[90←]

النطوفية (Natufian): نسبةً إلى وادي النطوف شمال غرب الـ دس. وقد تم اكتشاف آثار من تلك الحضارة الـ ديمة من قبل الباحثة الـ نكليزية دوروثي غارود عام 1929. (المترجم)

[91←]

Robert L. O’Connell, Ride of the Second Horseman: The Growth and Death of War (Oxford: Oxford University Press, .1995), 55–60

[92←]

Jared Diamond, Guns, Germs and Steel: The Fates of Human .Societies (New York: W.W. Norton, 1997), 112

[93←]
.Guns, Germs and Steel

[94←]
.Ibid., 135–140

[95←]
.Ibid., 137–38, 141–42, 159–68

[96←]
.Ibid., 176–91

[97←]

O'Connell, op. cit., 64–66; John Keegan, A History of Warfare (New York: Vintage, 1994), 124–26.

[98←]
.O'Connell, op. cit., 68–76

[99←]

.W.B. Emery, Egypt in Nubia (London: Hutchinson, 1965), 105

[100←]

.(”Nagada and This and Hierakonopolis (“Falconville

[101←]

.Narmer palette

[102←]
O'Connell, op. cit., 133–41; LeBlanc, op. cit., 182–83; and
.Keegan, op. cit., 130–32, 141–42

[103←]

.Keegan, op. cit., 130–32; O'Connell, op. cit., 187–88

[104←]
.Homer, op. cit., 5, 65–84

[105←]
نسبةً إلى كارل فون كلاوزفيتز (Carl von Clausewitz, 1780-1831): وهو جنرال ومؤرخ حربي روسي، لكتاباته الفلسفية والتكتيكية والاستراتيجية أثر عميق في الفكر الحربي الغربي. كما أنه من أشهر المفكرين العسكريين على مرّ التاريخ. (المترجم)

[106←]
.Sun Tzu, The Art of War

[107←]
Samuel Noah Kramer, History Begins at Sumer (Philadelphia:
.University of Pennsylvania Press, 1981), 30-32

[108←]

أداد (Adad): إله الطقس لدى البابليين والآشوريين. عُرف بابن بعل، كما عُرف بسيد وفرة الأمطار، وعند غضبه كان يُمطِر أعداءه بالعواصف. (المترجم)

[109←]

Boris Piotrovsky, The Ancient Civilisation of Urartu (London:
.Barrie and Rockliff: The Cresset Press, 1969), 47

[110←]
Leonard Cottrell, The Warrior Pharaohs (London: Evans
.Brothers, 1968), 80

[111←]
.Ibid., 99

[112←]
مونتو: إله الحرب عند الفراعنة، وهو على شكل صقر وكان يُعتبر حامي الأسرة الفرعونية الحاكمة. (المترجم)

[113←]

Ibid., 81–82; Yigael Yadin, The Art of Warfare in Biblical Lands, trs.by M. Pearlman (London: Weidenfeld and Nicolson, .1963), 100–03

[114←]
Witold Rodzinski, A History of China (Oxford: Pergamon Press, 1979), 164–65

[115←]

Robert L. O'Connell, Ride of the Second Horseman: The Growth and Death of War (Oxford: Oxford University Press, 1995), 71-76.

[116←]

سكوثيا (Scythia): منطقة تاريخية سكنها السكوث ون أو ا صوث من الـ رن الثامن قبل الميلاد إلى الـ رن الثاني بعد الميلاد. وهي تقع في المنطقة الممتدة ين شرق أوروبا وآسيا الوسطى. (المترجم)

[117←]
.Ibid., 77–83; Keegan, op. cit., 156–57

[118←]
.Keegan, op. cit., 161

[119←]

معركة السوم: إحدى أكبر معارك الحرب العالمية الأولى بين الألمان والحلفاء، وقد سجلت أكثر من 1.5 مليون إصابة في صفوف الطرفين. (المترجم)

[120←]
.Ibid., 166

[121←]
.A. Friendly, The Dreadful Day (London: Hutchinson, 1981), 27

[122←]
.O'Connell, op. cit., 121, 165–66; Keegan, op. cit., 168

[123←]
.O'Connell, op. cit., 161−64, 170−73

[124←]
H. Saggs, The Might That Was Assyria (London: Sidgwick and .Jackson, 1984), 258

[125←]
.O’Connell, op. cit., 145–58

[126←]
.The Histories

[127←]
Cornelius Tacitus, The Histories, trs. Kenneth Wellesley
.(London: Penguin Books, 1982), 156

[128←]
.Ibid., 165

[129←]
E.R. Chamberlin, The Sack of Rome (London: Batsford, 1979), .176–78

[130←]
Ibid

[131←]

Virgil, The Aeneid, trs. W.F. Jackson Knight (London: Penguin Books, 1968), 62-65.

[132←]

The eyewitness account of Polybius itself is lost, but this account by Appian is directly based on it. Susan Rowen, Rome in Africa (London: Evans Brothers, 1969), 32-33.

[133←]
Ibid

[134←]

مذبحة با ي يار عام 1941: راح ضحيتها ما ي ارب 34 ألف رجل وامرأة وطفل على أطراف مدينة ك يف خلال الاحتلال النازي لأوكرانيا. تمت تغطية الموتى والجرحى الأحياء بالتراب والصخور، وقبل انسحاب النازيين من الاتحاد السوفيتي السا ق قاموا بنبش الم برة وحرق الجثث في محارق ك يرة. (المترجم)

[135←]

Graham Webster, The Roman Imperial Army (London: Adam

.Charles Black, 1969), 221

[136←]

Thucydides, History of the Peloponnesian Wars (London: Penguin, 1954), 392.

[137←]

Herodotus, describing the battle of Marathon in The Histories, .trs. Aubrey de Selincourt (London: Penguin, 1954), 428–29

[138←]

F.E. Adcock, The Greek and Macedonian Arts of War

.(Berkeley: University of California Press, 1957), 14

[139←]

Aeschylus, The Persians, trs. by Edith Hall (Warminster, England: Aris and Phillips Ltd., 1996), lines 409–423. For dramatic purposes, Aeschylus was describing the battle from the Persian side.

[140←]

Thucydides, op. cit., 182–83. Here Phormio addresses the crews of the Athenian fleet before the Battle of Naupactus, 429 BC. As it turned out, Phormio was lured into the gulf and lost eleven of his twenty ships there in half an hour.

[141←]
.Ibid., 523–24

[142←]

Keith Hopkins, Conquerors and Slaves: Sociological Studies in Roman History, vol. 1 (Cambridge: Cambridge University Press, .1978), 33

[143←]
.Ibid., 28

[144←]

Edward N. Luttwak, The Grand Strategy of the Roman Empire From the First Century A.D. to the Third Century A.D. .(Baltimore: Johns Hopkins Press, 1976), 15, 189

[145←]

Charles C. Oman, The Art of War in the Sixteenth Century
.(London: Methuen, 1937), 237–38

[146←]

لاندسكنيشت (Landsknechte): جنود من المشاة والمرتزقة الأوروبيين، جلّهم من الألمان ين نهايتي الـ رنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد حـ وا شهرة عالمية كمرتزقة من دول أوروبا النهضة. (المترجم)

[147←]
.Ibid., 240

[148←]

J.J. Saunders, The History of the Mongol Conquests (London: Routledge and Kegan Paul, 1971), 197–98.

[149←]

Jared Diamond, Guns, Germs and Steel (New York: W.W. Norton & Co., 2003), 430–32.

[150←]

Gavin Menzies, 1421: The Year China Discovered the World(London: Bantam Press, 2002), 75-85.

[151←]
طراز قديم من البنادق. (المترجم)

[152←]

Malcolm Mallet, Mercenaries and Their Masters: Warfare in Renaissance Italy (London, Bodley Head, 1974), 157; Malcolm Vale, War and Chivalry (London: Duckworth, 1981), 137–38.

[153←]

Andre Corvisier, Armies and Societies in Europe 1494-1789 .(Bloomington, Indiana: University of Indiana Press, 1979), 28

[154←]

A.L. Sadler, The Making of Modern Japan: The Life of Tokugawa Ieyasu (London: George Allen and Unwin, 1937), 103.

[155←]

.Kagemusha

[156←]
.Ibid., 105

[157←]
بندقية قديمة الطراز خاصة بالجنود المشاة. (المترجم)

[158←]

Frederick Lewis Taylor, The Art of War in Italy, 1494–1529 .(Cambridge: Cambridge University Press, 1929), 56

[159←]

من حروب فرنسا الدينية؛ وهي سلسلة حروب مكوّنة من ثماني حروب في فرنسا ال رن السادس عشر، حيث تواجه الكاثوليك والبروتستانت، ويطلق عليهم هوغونوت ون أيضاً. (المترجم)

[160←]

C.V Wedgwood, The Thirty Years' War (London: Jonathan Cape, 1956), 288–89

[161←]

أنهت معاهدة وستفاليا (Treaty of Westphalia) حرب الثلاثين عاماً في ا مبراطورية الرومانية المـ دسة (كانت معظم أراضيها في ألمانيا حالياً)، وحرب الثمانين عاماً يـن إسبانيا ومملكة الأراضي المنخفضة المتحدة. (المترجم)

[162←]
J.F. Puysegur, L’art de la guerre par principes et par règles .(Paris, 1748), I

[163←]

David Chandler, The Campaigns of Napoleon (London: Weidenfeld and Nicolson, 1966), 342.

[164←]

Edward Mead Earle, ed., Makers of Modern Strategy (New

.York: Atheneum, 1966), 56

[165←]
من معارك حرب خلافة العرش الإسباني (1701–1714) وهي إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ الأوروبي، ويُطلق عليها أيضاً معركة هوخشتدت. (المترجم)

[166←]
شاركت في الحرب ريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا، وانضمت البرتغال للطرف الأول وإسبانيا للطرف الثاني بعد فترة من اندلاع الحرب. (المترجم)

[167←]
Hew Strachan, European Armies and the Conduct of War
.(London: George Allen and Unwin, 1983), 8

[168←]

Willerd R. Fann, "On the Infantryman's Age in Eighteenth-Century Prussia," Military Affairs XLI, no. 4 (December, 1977), .167

[169←]

Lawrence Sterne, A Sentimental Journey through France and .Italy(Oxford: Basil Blackwell, 1927), 85

[170←]

Christopher Duffy, The Army of Frederick the Great (London: David and Charles, 1974), 62.

[171←]

آرثر ويلزلي (Arthur Wellesley) الملقب دوق ولنغتون (Duke of Wellington): قائد عسكري وسياسي بريطاني من أصل أيرلندي، وهو من قاد الجيش الإنكليزي إلى النصر على نابليون بونابارت في معركة واترلو، كما تقلّد منصب رئيس وزراء بريطانيا مرتين. (المترجم)

[172←]
نسبةً للعالم الروسي إيفان بافلوف (Ivan Pavlov) ونظريته الشهيرة في الاستجابة الشرطية. (المترجم)

[173←]

موريس دي ساكس (Maurice de Saxe) ألماني خدم في الجيش الفرنسي، وقائد عسكري بارز. وقد تولى بفضل إنجازاته ونجاحاته العسكرية منصب مارشال فرنسا. (المترجم)

[174←]

Maurice, Compte de Saxe, Les Rêveries, ou Mémoires sur l'art de la guerre (Manheim, Jean Drieux, 1757), 77.

[175←]
.Strachan, op. cit., 9

[176←]

Martin van Crefeld, Supplying War: Logistics from Wallenstein .to Patton (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), 38

[177←]

روبرت كلايف (Robert Clive): ضابط ريطاني وعضو رلمان وزميل الجمعية الملكية. ُلـ ب باسم كلايف الهند؛ وهو الـ ائد العسكري الذي أرسى السيادة العسكرية والسياسية لشركة شرق الهند في البنغال، وأحد مؤسسي الهند البريطانية. (المترجم)

[178←]

مقاطعة بوميرانيا (province of Pomerania): منطقة تاريخية وجغرافية استراتيجية في شمال بولندا وألمانيا على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق. (المترجم)

[179←]

John Childs, Armies and Warfare in Europe, 1648–1789

.(Manchester, England: Manchester University Press, 1982), 158

[180←]
Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (New York: The Modern Library, 1932).

[181←]
Maj. Gen. J.F.C. Fuller, The Conduct of War, 1789–1961
.(London: Eyre and Spottiswoode, 1961), 32

[182←]
الماركسية اللينينية الماوية: نظرية شيوعية ثورية تستند إلى أفكار ماركس وأنجلس ولينين وستالين، وتركّز على أفكار القائد الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ. (المترجم)

[183←]

R.D. Challener, The French Theory of the Nation in Arms,1866–1939 (New York: Russell and Russell, 1965), 3; Alfred Vagts, A History of Militarism, rev. ed. (New York: .Meridian, 1959), 108–11

[184←]
لازار نيكولا مارغريت (Lazare Nicolas Marguerite): سياسي ومهندس وفيزيائي فرنسي، انتُخب عضواً في لجنة السلامة العامة في 14 آب/أغسطس من عام 1793، وله الفضل في إنشاء الجيش الثوري الفرنسي، وكذلك في إدخال نظام التجنيد الإجباري في المنظومة العسكرية الفرنسية آنذاك. (المترجم)

[185←]

Vagts, op. cit., 114; Karl von Clausewitz, On War, eds. and trs. Michael Howard and Peter Paret (Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1976).

[186←]

Vagts, op. cit., 126–37; John Gooch, Armies in Europe .(London: Routledge and Kegan Paul, 1980), 39

[187←]
Gunther Rothenburg, The Art of War in the Age of .Napoleon(London: B. Batsford, 1977), 172–73

[188←]

Anthony Brett-James, 1812: Eyewitness Accounts of Napoleon's Defeat in Russia (London: Macmillan, 1967), 127.

[189←]

Christopher Duffy, Borodino and the War of 1812 (London: Seeley Service, 1972), 135.

[190←]

David Chandler, The Campaigns of Napoleon (New York: .Macmillan, 1966), 668; Gooch, op. cit., 39–41

[191←]
.Vagts, op. cit., 143−44

[192←]

كبهارد ليبرخت فون لوخر (Gebhard Leberecht von Blücher) قائد الـ وات البروسية في معاركه ضد نا ليون. (المترجم)

[193←]

.Ibid., 140

[194←]
.Earle, op. cit., 57

[195←]

Guglielmo Ferrero, Peace and War (London: Macmillan, 1933), .63–64

[196←]
Karl von Clausewitz, On War, tr. Col. J.J. Graham (London: .Trubner, 1873), I, 4

[197←]

Paddy Griffith, Battle Tactics of the Civil War (New Haven, .Conn.: Yale University Press, 1987), 144–50

[198←]

Frank E. Vandiver, Mighty Stonewall (New York: McGraw-Hill, 1957), 366

[199←]
Col. Theodore Lyman, Meade's Headquarters 1863–1865 (Boston, Mass.: Massachusetts Historical Society, 1922), 101, 224.

[200←]

Mark Grimsley, “Surviving Military Revolution: The U.S. Civil War,” in MacGregor Knox and Williamson Murray, eds. The Dynamics of Military Revolution, 1300–2050 (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 84.

[201←]

Frederick Henry Dyer, A Compendium of the War of the .(Rebellion(New York: T. Yoseloff, 1959

[202←]
Personal Memoirs of General W. T. Sherman (Bloomington, .Ind.: Indiana University Press, 1957), II, 111

[203←]

Jan Bloch, The War of the Future in Its Technical, Economic and Political Relations. English translation by W. T. Stead entitled Is War Now Impossible?, 1899. Bloch died in 1902.

[204←]

Jacques d'Arnoux, "Paroles d'un revenant," in Lieut.-Col. J. Armengaud, ed., L'atmosphère du Champ de Bataille (Paris: Lavauzelle, 1940), 118–19.

[205←]

The most recent and in many ways the best book on the 1914 Christmas truce is Michael Jürgs, Der kleine Frieden im Grossen Krieg: Westfront 1914: als Deutsche, Franzosen und Briten gemeinsam Weihnachten feierten, (München: C. Bertelsmann, 2003).

[206←]

André Tardieu, Avec Foch: Août-Novembre 1914 (Paris: Ernest Flammarion, 1939), 107.

[207←]

إحدى معارك حرب البوير الثانية (Second Boer War) التي نشبت ين ا مبراطورية البريطانية وجمهوريتي وير المستقلتين.

[208←]

J. E C. Fuller, The Second World War, 1939–1945: A Strategic and Tactical History (New York: Duell, Sloan and Pearce, 1949), 140.

[209←]
.Ibid., 170; Keegan, op. cit., 309

[210←]

Henry Williamson, The Wet Flanders Plain (London: Beaumont Press), 14–16. Williamson was nineteen years old during the Battle of the Somme.

[211←]
.Arthur Bryant, Unfinished Victory (London: Macmillan, 1940), 8

[212←]

منطاد ز لين (Zeppelin): استُخدِم في الحرب العالمية الأولى كأداة استطلاعٍ وقنص ورمي للقنا ل. يعود اسمه إلى مصممه فريدنا ند ز لين، وهو أول من صنّع منطاداً عملاقاً في داية الـ رن العشرين. وقد استخدم منطاده في الخدمة العسكرية الألمانية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

[213←]

Aaron Norman, The Great Air War (New York: Macmillan, .1968), 353

[214←]
.Ibid., 382

[215←]

معركة كا وريتو: إحدى المعارك المفصلية ين ال وات النمساوية والألمانية من جهة وال وات ا يطالية من جهة أخرى في الحرب العالمية الأولى عام 1917، وانتهت بانتصار الطرف الأول. (المترجم)

[216←]
Sir William Robertson, Soldiers and Statesmen (London:
.Cassell, 1926), I, 313

[217←]

Bryan Perret, A History of Blitzkrieg (London: Robert Hale, .1983), 21

[218←]
Jonathan B.A. Bailey, “The Birth of Modern Warfare,” in Knox and Murray, op. cit., 142–45.

[219←]

Theodore Ropp, War in the Modern World, rev. ed. (New York: Collier, 1962), 321, 344.

[220←]

Guy Sajer, The Forgotten Soldier (London: Sphere, 1977), 228–30.

[221←]

Giulio Douhet, The Command of the Air (London: Faber & Faber, 1943), 18–19.

[222←]
Norman Longmark, Air Raid: The Bombing of Coventry 1940
.(London: Hutchinson, 1976), 146

[223←]
Max Hastings, Bomber Command (London: Pan Books, 1979), .149

[224←]
.Ibid., 423

[225←]

Martin Middlebrook, The Battle of Hamburg (London: Allan Lane, 1980), 244.

[226←]

.Ibid., 264–67

[227←]

Wesley Craven and James Cate, The Army Air Forces in World War Two (Chicago: University of Chicago Press, 1948), vol. 5, 615–17.

[228←]

H. H. Arnold, Report... to the Secretary of War; 12 November 1945 (Washington: Government Printing Office, 1945), 35.

[229←]
قاذفة القنا ل وينغ B-29 التي قصفت مدينة ه روشيما بالقن لة النووية، أما اسمها (اينولا غاي) نسبةً لاسم والدة الطيار ول ت بيتس. (المترجم)

[230←]

Leonard Bickel, The Story of Uranium: The Deadly Element .(London: Macmillan, 1979), 78–79, 198–99, 274–76

[231←]

William Manchester, American Caesar: Douglas MacArthur 1880–1964 (London: Hutchinson, 1979), 612, 622–23.

[232←]
.(D. Bagley, The Tightrope Men (London: Collins, 1973

[233←]

Quincy Wright, A Study of War (Chicago: University of Chicago .Press, 1964), 53

[234←]
(المترجم) .**d**emi**lit**arize**d** zone

[235←]

Errol Morris, director, The Fog of War, film (Los Angeles: Sony Pictures, Classics, 2004).

[236←]

Bernard Brodie, ed., The Absolute Weapon: Atomic Power and World Order (New York: Harcourt Brace, 1946), 76.

[237←]
Fred Kaplan, The Wizards of Armageddon (New York: Simon & .Schuster, 1983), 26–32

[238←]
Ibid

[239←]

(المترجم) .strategic air command

[240←]

Desmond Ball, “Targeting for Strategic Deterrence,” Adelphi Papers, No. 185 (Summer 1983), London: International Institute for Strategic Studies, 3, 5.

[241←]

.Gregg Herken, Counsels of War (New York: Knopf, 1985), 306

[242←]
.Ball, op. cit., 40

[243←]

Gerard H. Clarfield and William M. Wiecek, Nuclear America

.(New York: Harper & Row, 1984), 155

[244←]

.Kaplan, op. cit., 133–34

[245←]

.Ibid., 47, 79–80, 203–19; Herken, op. cit., 79, 84–87

[246←]

.Kaplan, op. cit., 222–23

[247←]
.Herken, op. cit., 116

[248←]

Gerard C. Smith, Doubletalk: The Story of the First Strategic Arms Limitation Talks (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1980), .10-11

[249←]

Maxwell D. Taylor, The Uncertain Trumpet (New York: Harper .& Brothers, 1960), 123

[250←]

.New York Times, 12 May 1968

[251←]
.Single Integrated Operational Plans

[252←]

.Herken, op. cit., 143–45; Ball, op. cit., 10

[253←]

.Kaplan, op. cit., 233, 235

[254←]

.Ibid., 235–45, 263–72

[255←]

Ibid., 242–43, 272–73, 278–80; Herken, op. cit., 51, 145; Ball, op. cit., 10–11.

[256←]

Marxism–Leninism on War and Army, quoted in Joseph D. Douglass, Jr., and Amoretta M. Hoeber, Soviet Strategy for Nuclear War (Palo Alto: Hoover Institute, 1979), 36.

[257←]

Kaplan, op. cit., 283–85, 316–17; Ball, op. cit., 11–13; .Herken, op. cit.,163–65, 168–69

[258←]
.Herken, op. cit., 317–19

[259←]

Sir Solly Zuckerman, Nuclear Illusion and Reality (New York: Vintage Books, 1983), 46–47.

[260←]
Senate Armed Services Committee, Military Procurement Authorization, Fiscal Year 1966, Introduction, note 1, p. 39.

[261←]

Private correspondence to Desmond Ball from an assistant secretary of defence in the last years of the Johnson administration, quoted in Ball, op. cit., 15.

[262←]

Col. Gen. N. A. Lomov, ed., Scientific−Technical Progress and the Revolution in Military Affairs (translated and published by the U.S. Air Force) (Washington, D.C.: U.S. Government .Printing Office, 1974), 147

[263←]
.Herken, op. cit., 157–60; Kaplan, op. cit., 294–304

[264←]
Robert F. Kennedy, Thirteen Days: A Memoir of the Cuban .Missile Crisis (New York: Norton, 1968), 156

[265←]
.Morris, op. cit

[266←]

See "The Cuban Missile Crisis, 1962: A Political Perspective After Forty Years," in The National Security Archive of The George Washington University (website) at /http://www.gwu.edu/~nsarchiv/nsa/cuba_mis_cri

[267←]

.Kaplan, op. cit., 340

[268←]

.Ibid., 208, 373

[269←]

.Ibid., 267

[270←]

Ibid.; Henry Kissinger, Nuclear Weapons and Foreign Policy (New York: Harper & Row, 1957), 132; U.S. State Department Bulletin, 29 July 1974, 215.

[271←]
.mu**lt**ip**l**e in**d**epen**d**en**tl**y **t**arge**t**a**bl**e reen**t**ry ve**h**ic**l**es

[272←]

Gerald C. Smith, Doubletalk: The Story of the First Strategic Arms Limitation Talks (Garden City, New York: Doubleday, 1980), 154-78, 479-80; Zbigniew Brzezinski, Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser, 1977-81, (London: Weidenfeld and Nicolson, 1983), 337; Strobe Talbott, Endgame: The Inside Story of Salt II (New York: Harper & Row, 1979), 35; Cyrus Vance, Hard Choices (New York: Simon & Schuster, 1982), 55.

[273←]

.anti-ballistic missile

[274←]

Kaplan, op. cit., 360–64; Michael Parfit, The Boys Behind the Bombs(Boston; Little, Brown & Co., 1983), 38–40; Herken, op. .cit., 201

[275←]
.Parfit, op. cit., 251–54

[276←]

.Kaplan, op. cit., 366–67

[277←]

Ibid., 368–73; Herken, op. cit., 261–62; Ball, op. cit., 20; Peter Pringle and William Arkin, S.I.O.P.: The Secret U.S. Plan for Nuclear War (New York: Norton, 1983), 178–79.

[278←]
.Herken, op. cit., 263-64

[279←]

Thomas Schelling, The Strategy of Conflict (London; Oxford University Press, 1963), 229.

[280←]
.Herken, op. cit., 264

[281←]

James Canan, War in Space (New York: Harper & Row, 1982),
.120

[282←]

Arkin, op. cit., pp. 172–73; Thomas Powers, "Choosing a Strategy for World War Three," Atlantic, November 1982, 82–.109

[283←]

.Herken, op. cit., 297–98

[284←]
توجيهات رئاسية بشأن سياسة (Presidential Directive) توظيف الأسلحة النووية. (المترجم)

[285←]

Brzezinski, op. cit., 455–56; Ball, op. cit., 20–22; Herken, op. cit., 301–2

[286←]
طراز أوروبي يتسم بالفخامة في العمارة والرسم والزخارف المعقدة. (المترجم)

[287←]
تشير إلى الفكرة أو الصيغة التي تعبّر عن نفسها بنفسها. (المترجم)

[288←]
.Herken, op. cit., 320–22; Kaplan, op. cit., 387

[289←]
.Strategic Defense Initiative

[290←]
.Cana, op. cit., 162

[291←]
مدينة ونانية قديمة وُصفت بالنموذجية. (المترجم)

[292←]

.Los Angeles Times, 1 July 1984; Herken, op. cit., 312

[293←]
McGeorge Bundy, George F. Kennan, Robert S. McNamara, and Gerard Smith, "The President's Choice; Star Wars or Arms .Control," Foreign Affairs 63, no. 2 (Winter 1984–85), 271

[294←]
Cold War–Historical Documents: Reagan–Gorbachev Transcripts, at

http://www.cnn.com/SPECIALS/cold.war/episodes/22/documents/reykjav

[295←]

Carl Sagan, “Nuclear War and Climatic Catastrophe: Some .Policy Implications,” Foreign Affairs, Winter 1983/84, 285

[296←]

R.P. Turco, A.B. Toon, T.P. Ackerman, J.B. Pollack, C. Sagan [TTAPS], "Nuclear Winter: Global Consequences of Multiple Nuclear Explosions," Science, Vol. 222 (1983), 1283–297; and R.P. Turco, A.B. Toon, T.P. Ackerman, J.B. Pollack, C. Sagan [TTAPS],"The Climatic Effects of Nuclear War," Scientific American, Vol. 251, No. 2 (Aug. 1984), 33–43.

[297←]

Paul R. Ehrlich et al., “The Long-Term Biological Consequences of Nuclear War,” Science, vol. 222, no. 4630 (December 1983), 1293–1300.

[298←]
.Sagan, op. cit., 276; Turco et al., op. cit., 38

[299←]
.Science, Vol. 247 (1990), 166–76

[300←]

Carl Sagan and Richard Turco, A Path No Man Thought (New York: Random House, 1990), 201-03.

[301←]

Kaufmann's 1955 essays were very influential in shaping the United States army's thinking on the possibility of restricting war in Europe to conventional weapons. Fred Kaplan, The Wizards of Armageddon(New York: Knopf, 1984), pp. 197–200.

[302←]

هي سلسلة صراعات مزقت أوروبا ين عامي 1618 و1648 م، وقعت معاركها دايةً في أراضي أوروبا الوسطى (خاصة في أراضي ألمانيا الحالية) العائدة إلى ا مبراطورية الرومانية، ولكن اشتركت فيها تباعاً معظم الـ وى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر. (المترجم)

[303←]

حرب نشبت بين عامي (1701–1714)، وقد بدأت عندما شرع رأس الإمبراطورية الرومانية ليوبولد الأول بالمطالبة بعرش إسبانيا. وكان لويس الرابع عشر في ذلك الوقت يقوم بتوسيع أراضيه في أوروبا، مما دفع جيرانه وعلى الأخص إنكلترا وجمهورية هولندا للدخول في حلف مع الإمبراطورية لضبط التوسع الفرنسي. (المترجم)

[304←]

يُطلق عليها أيضاً اسم الحرب البومرانية، وهي حرب جرت بين عام 1756 م وعام 1763 م. وقد شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا. ودخلت إسبانيا والبرتغال في الحرب في ما بعد. (المترجم)

[305←]

مصطلح يستخدم في تعريف سلسلة الحروب التي وقعت في أوروبا خلال فترة حكم نا ليون ونا رت لفرنسا. كانت تلك الحروب امتداداً جزئياً للحروب الثورية التي أشعلتها الثورة الفرنسية، والتي استمرت خلال فترة ا مبراطورية الفرنسية الأولى. (المترجم)

[306←]

روبرت سيسل أو روبرت غاسكوين سيسل، ويعرف أيضاً ب ـ ب
ماركيز ساليسبوري الثالث. إنه سياسي بريطاني، تولى رئاسة الوزارة
في بريطانيا ثلاث مرات بين عامي 1885 - 1902. (المترجم)

[307←]

Samuel P. Huntington, The Soldier and the State (New York: .Vintage, 1964), 79

[308←]
Walter Goerlitz, History of the German General Staff (New
.(York: Frederick A. Praeger, 1953

[309←]

Cahal Milmo, "British Army Had Fowl Plan to Repel Russians," .The Independent, 1 April 2004

[310←]
منطقة تقع في ألمانيا، وقد قام حلف شمال الأطلسي بزيادة تحصيناته العسكرية فيها استعداداً لهجمات سوفيتية خلال فترة الحرب الباردة. (المترجم)

[311←]

صندوق باندورا عبارة عن قطعة أثرية رد ذكرها في الأساطير ا غري ية، حيث كان الصندوق يحتوي في داخله على كل أصناف الشر في العالم. (المترجم)

[312←]

Justin Wintle, ed. The Dictionary of War Quotations (London: Hodder and Stoughton, 1989), 379.

[313←]
Morris Janowitz, The Professional Soldier (New York: Free .Press, 1964), 21, 35

[314←]
Admiral William A. Owens with Ed Offley, Lifting the Fog of War (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2000), 4.

[315←]
Stanley Karnow, Vietnam: A History, Revised Edition (London:
.Pimlico, 1994), 19

[316←]
.Ibid., 312

[317←]

From the Global Security website: http://www.globalsecurity.org/military/systems/aircraft/index.html

[318←]

From a speech at Blackdown, August 30, 1932, quoted in Justin Wintle, ed., The Dictionary of War Quotations, (London: Hodder and Stoughton, 1989).

[319←]
Mao Tse-tung, Strategic Problems in the Anti-Japanese .Guerrilla War, 1939

[320←]
Walter Laqueur, Guerilla, (London: Weidenfeld and Nicolson, .1977), 40

[321←]

Mao Tse-tung, "Problems of Strategy in China's Revolutionary War (5.3)," December 1936, Selected Works of Mao Tse-tung, (Beijing: Foreign Languages Press edition, vol. 1, 1965).

[322←]
Henry A. Kissinger, "The Vietnam Negotiations," Foreign Affairs,
.January 1969

[323←]

Christon I. Archer, John R. Ferris, Holger H. Herwig, and Timothy H.E. Travers, World History of Warfare, (London: .Cassell, 2003), 558

[324←]

J. Bowyer Bell, The Myth of the Guerilla, (New York: Knopf, .1971), 231

[325←]

Quoted in Robert Moss, Urban Guerillas, (London: Temple Smith, 1972), 13.

[326←]
.Ibid., 198

[327←]

First quoted in the Boletin de las Madres de la Plaza de Mayo, May,1985, reproduced in Robin Morgan, The Demon Lover: On .(the Sexuality of Terrorism (London: Methuen, 1989

[328←]

Richard Huffman, The Gun Speaks: The Baader-Meinhof Gang and the West German Decade of Terror 1968-1977, http://www.baader-meinhof.com/gun/index.htm

[329←]
منظمة إرهابية سرية متطرفة في إيطاليا، تأسست عام 1970 في ميلانو. (المترجم)

[330←]
مجموعة إرها ية أمريكية ين عامي 1973 و1975 أطلقت على نفسها صفة جيش طليعي ثوري وقامت بعمليات سطو على بنوك وجريمتي قتل وأعمال عنف أخرى. (المترجم)

[331←]
جزء من حركة الشباب الثوري التي عارضت اتحاد الطلبة العمال في حزب العمل التقدمي. (المترجم)

[332←]

حركة انفصالية في إقليم الباسك شمال إسبانيا تُعرف اختصاراً باسم (إيتا) وقد ارتكزت عقيدة المنظمة على أعمدة أربعة هي: - الدفاع عن اللغة المحلية، العرق الباسكى، معاداة ومقاومة اسبانية، أخيراً استقلال بلاد الباسك التي تشمل مقاطعات: - آلابا - يثكايا - غيبوثكويا اسبانية - ولا وردي - نابارا السفلى - ثوبيروا الفرنسية. (المترجم)

[333←]
.Quoted in The Guardian (London), 16 October 1991

[334←]

.Quoted in Time (New York), 11 November 1974

[335←]
مجموعة اتّبعت حرب العصابات في الأوروغواي في فترة الستينيات والسبعينيات. ترأسها خوسيه موخيكا الذي أصبح رئيساً للأوروغواي في ما بعد. (المترجم)

[336←]
جماعة يسارية مسلحة كانت في ألمانيا الغربية. تأسست عام 1970، وكانت تعتبر نفسها جماعة مسلحة مدنية شيوعية. (المترجم)

[337←]
المكتب الخامس أو المخابرات الحربية، القسم الخامس (Military Intelligence, Section 5) جهاز أمني واستخباراتي بريطاني يعد جزءاً من آلة الاستخبارات البريطانية. (المترجم)

[338←]

Sarah Ewing, “The IoS Interview,” in The Independent on Sunday, London, 8 September 2002.

[339←]

Natalie Angier, “No Time for Bullies: Baboons Retool their Culture,” New York Times (Science Desk), 13 April 2004.

[340←]

Goldman Sachs, “Dreaming with BRICs: The Path to 2050” ,((October 2003

http://www.gs.com/insight/research/reports/99.p

[341←]

.Dwight Macdonald, Politics, August 1945

[342←]
داغ همرشولد اقتصادي سويدي، وهو الأمين العام للأمم المتحدة ين 1953 و1961. (المترجم)

[343←]

Carl Sagan, "Nuclear War and Climatic Catastrophe: Some Policy Implications," Foreign Affairs, Winter 1983–84, 275.

[344←]
حيوانات منقرضة. (المترجم)

[345←]

توماس هوبز: عالم رياضيات وفلسوف إنجليزي، يعد أحد أكبر فلاسفة الرن السابع عشر. (المترجم)

[346←]
جان جاك روسو: كاتب وأد ب وف لسوف وعالم نبات، يعد من أهم كتّاب عصر العقل، وهي فترة من التاريخ الأوروبي امتدت من أواخر ال رن السابع عشر إلى أواخر ال رن الثامن عشر. (المترجم)

[347←]

revolution بالإنكليزية تعني أيضاً الدوران. (المترجم)